أبي حنيفة الدينوري

ومدرسته فى الأدب والنقد

تأليف

الدكتور/السيد تقي الدين السيد

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة - القاهرة

أبو حنيفة الدينوري

ومدرسته فى الأدب والنقد

تأليف

الدكتور/ السيد تقى الدين السيد

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الفجالة - القاهرة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
قطاع الطباعة

أبي حنيفة الدينوري

ومدرستة فى الأدب والنقد

تأليف

الدكتور/ السيد تقي الدين السيد

نهضة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع

الفجالة - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج الرسالة : المنهج التكاملى

يذهب الناقد الفرنسى « تين » إلى أن الأدب يخضع لعناصر ثلاثة : الجنس والوسط والزمن . ويعنى بالجنس ما يرثه الناس من المزاج والنفسية ، وبالوسط الأوساط المحيطة بهم من مناخ وبيئة طبيعية ، وأحوال سياسية ، واجتماعية ونحوها . وبالزمن روح العصر أو روح تلك المرحلة المعينة للتطور القومى الذى وصلت إليه الأمة فى ذلك العصر ، ويتبع ذلك دراسة الأدب من الناحية التاريخية والطريقة المقارنة فى دراسة الأدباء للعلاقة بين الأديب وحياة الجنس والعصر ، فإن كل من ينتقل من أدب أمة أو عصر إلى أدب أمة أو عصر آخر سيدهشه التغيير التام فى الجو الفكرى والخلقى .

واتجه آخرون إلى دراسة حياة الأديب لا الأدب نفسه ، فوجهوا عنايتهم نحو تأثر الأدب بالأديب وصدوره عنه ولاحظوا فى ذلك أن نفس الأديب هى المنبع الذى صدرت عنه القطعة الأدبية ، فيجب أن تدرس هذه النفس لِيفهم ما يصدر عنها ، فالكتاب الذى ألف والقصيدة التى نظمت لا يمكن فهمها حق الفهم إلا إذا فهمت نفسية القائل .

ونحن نرى أن الاقتصار على واحد من هذين الاتجاهين خطأ ينبغى ألا نتورط فيه ، فنحن بحاجة إلى أن ندرس عصر أبى حنيفة وما فيه من بيئة سياسية وأحوال اجتماعية ونحوها كما أننا بحاجة إلى أن نعرف أثر الجنس الفارسى عند أبى حنيفة .

وبطبيعة الحال لابد لنا من دراسة حياته وآثاره وإذن فلا حرج علينا من أن نهتدى بهدى هذين المنهجين فى دراستنا لأبى حنيفة الدينورى ومدرسته فى الأدب والنقد مادامت طبيعة البحث تحتم علينا ذلك .

بل سنضيف إلى هذين الاتجاهين اتجاها آخر هو الاتجاه الفنى بما فيه من صور أدبية وأفكار وعواطف وتعبيرات .

فأنت ترى أن منهج بحثنا له أصول ثلاثة : تاريخى ونفسى وفنى ، ويمكن أن نسمى هذا المنهج « المنهج التكاملى » وهو ذلك المنهج الذى يأخذ من كل منهج بطرف ولا يحصر نفسه داخل دائرة محدودة لما فى هذا الحصر من تعصب أعمى ممقوت .

المقدمة

عناية علماء المسلمين بالسير وتدوينها قيمة كتب السير ضياع ثروة أزمة ورق مضاعفة الجهود فى جمع التراث واجب قومى إنسانى كتب أبى حنيفة ودلالتها التعريف بأبى حنيفة قدوة حسنة أثر الاتصال التاريخى والثقافى بين الحضارات العصر العباسى الأول - أرض العبقريات الشخصية العربية والإسلامية للحق والتاريخ.

عنى كثير من علماء المسلمين وأدبائهم بجمع كثير من الحقائق المبعثرة فى بطون الكتب . والتى تلقوها بالرواية والسماع . أو خبروها بأنفسهم . ثم نسقوا هذه الحقائق ونظموا كل طائفة متشابكة منها فى سلك واحد فدونوا السير والتراجم للعلماء والحكماء والأطباء والأدباء ورواة الحديث والقراء والفقهاء والنحاة . ووصفوا البلدان والأقطار التى ارتادوها . أو قرؤوا عنها . أو سمعوا بها . كما وصفوا الحيوان والنبات . فكان من وراء ذلك كله طائفة كبيرة من كتب السيرة والطبقات والمعاجم المتنوعة والموسوعات الجامعة فى شتى نواحى العلم حتى أصبحت اللغة العربية من أغنى لغات العالم كلها بمثل هذه الكتب إن لم تكن أغناها . ومع ذلك لم يكن العرب هم أول من استحدثها إذ أنهم لم يأخذوا فى مثل هذا التدوين إلا منذ القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) عندما وضع أبو بكر بن اسحاق سيرة النبى الهاشمى عليه الصلاة والسلام ثم اعتمد عليه ابن هشام المتوفى سنة ٢١٣هـ ثم جاء ابن سعد وابن سلام فألف كل منهما طبقاته . وتتابع ظهور أمثال هذه الكتب . وتعددت مناحيها وموضوعاتها وفى القرن التاسع زادت وكثرت على الرغم مما حل فيه بالحضارة الإسلامية والثقافة العربية من نكبات فصار لدينا كتب متعددة عن كل عظيم نابغة . ولكل فئة خاصة أو طبقة معينة من العلماء والأدباء فى مختلف القرون أو فى قرن بعينه . وإن نظرة واحدة إلى فهارس المكتبات العربية لتقنعنا بالكثرة الوافرة التى - وضعها العرب فى هذه الناحية من التأليف .

ولقد كان لهذه الكتب قيمتها للعلم والأدب والتاريخ إذ يسرت للباحث والعالم والمؤرخ الوصول إلى كثير من الحقائق التى يقوم عليها بحثه . وبينت للعالم مدى إقبال المسلمين وكتاب العربية فى مختلف العصور على البحث والتدوين . وما عانوا فيه من

مشقة وجهد علمى مشكور . كما بينت للخلف مقدار ما تركه له أسلافه من ثروة ثقافية ضخمة يفخر بها كما يفخر كل محب للعلم والبحث ، ومما يؤسف له كل الأسف أن الشطر الأعظم من هذه الثروة العلمية الضخمة قد ضاع فى تلك النكبات التى حلت بالعالم الإسلامى من غزوات متكررة وحروب وثورات ومجاعات وحرائق وسرقات وجهل الحكام وطمع الطامعين .

فهل ستتاح الفرصة لجمع كل أسماء الكتب العربية الموجودة الضائعة التى أشار إليها المؤلفون ؟

وهل سنعثر على المفقود منه ؟

نرجو ذلك .

« ومما يذكر أن القدامى فى الزمن السالف قد درجوا على محو ما لديهم من بعض الكتب ليستغلوا رقوقها فى كتابة تأليف جديد من عندهم أو تدوين مذكرات خاصة بهم وقد تكررت هذه العملية مرات لأن قراطيس البردي والرقوق كانت غالية الثمن على الكثيرين (١)

ومهما يكن من الأمر فمن الخير للعلم والإنسانية أن يضاعف العاملون منا جهودهم فى جمع المتفرق من التراث الثقافى العربى من مظانه ونشر القيم منه وهو كثير حافل ومالم ينشر منه إلى اليوم لا يزال كثيرا .

وصاحبنا أبو حنيفة الدينورى خير شاهد على ذلك فقد خلف لنا أكثر من عشرين كتابا ضاع معظمها ولم يصل إلينا منها سوى كتاب الأخبار الطوال وجزء من كتاب إلنبات وما نقل عنه فى مفردات ابن البيطار والمخصص لابن سيده والروض الأنف لأبى القاسم السهيلى .

والتراث الفنى الذى وصل الينا عن أبى حنيفة وما كتبه السابقون واللاحقون عنه كل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن أبا حنيفة الدينورى علم من أعلام الفكر والأدب والنقد يستحق أن نعرف به ، وأن نسلط عليه أضواء البحث والدراسة ليعرفه من لم يكن يعرفه من قبل وليزداد العارفون معرفة فإن عارا ونقيصة أن يظل لفيف من أعلامنا القدامى فى زوايا النسيان . وقبل أن أبدأ الحديث عن أبى حنيفة رأيت من الضرورى أن أعرف ما قال عنه السابقون لتكون دراستى مكملة لدراسة السابقين ، مصححة لما عساه يكون فى دراستهم من نقص أو خطأ .

---

(١) **تصدير** : أنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى بقلم محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٦ طبع دار الكتب .

ولهذا عقدت الفصل الأول وجعلت عنوانه « فى الصحف الاولى »

ثم رأيت من الضرورى أن أتحدث عن أبى حنيفة على أنه إنسان ينتسب إلى جنس وأسرة ، ويعيش فى زمان ومكان معينين ، وتحيط به ظروف سياسية واقتصادية وثقافية ودينية وأدبية وله مشاركة فى كل ذلك ولهذا عقدت الفصل الثانى وجعلت عنوانه « حياته وبيئته » .

وإذا كان القدامى قد عنوا بذكر أسماء كتب أبى حنيفة فأرى من واجبى ألا أهمل ذكر أسماء هذه الكتب لأن هذا صنيع يذكر فيشكر للقدامى ، لكنى رأيت أن أضيف إلى ذلك تحليل ما وصل إلينا من هذه الكتب ، وعرض ما فيها من آراء وأفكار ، ولا سيما ما يتصل منها بموضوع اللغة والأدب والنقد إذ أن هذا العرض يلقى ضوءا كشافا على أفكار أبى حنيفة وآرائه وشخصيته ، ونحن فى مسيس الحاجة إلى ذلك .

أما ما فقد من هذه الكتب فعدم عرضه وتحليله أمر لا يد لى فيه ، ومع هذا فقد تتبعت ما أمكننى تتبعه من هذه الكتب فى كتب العلماء الذين نقلوا عن أبى حنيفة ولهذا كان الفصل الثالث وعنوانه « آثاره » .

ثم حرصت على أن أحدد مكان أبى حنيفة بين أدباء العربية ، وأوضح الدور الذى قام به فى خدمة اللغة العربية وآدابها فأنشأت لذلك الفصل الرابع وعنوانه « الاتجاهات الأدبية عند العرب » عرضت فيه بإيجاز للتيارات الأدبية التى سادت المجتمع العربى منذ الجاهلية إلى عصر أبى حنيفة ، وإن كنت قد جاوزت عصر أبى حنيفة قليلا حرصا على استكمال الصورة الفنية للموضوع .

ولعله قد آن الأوان لكى نحدد الطريق الذى سار فيه أدب أبى حنيفة من حيث الأغراض الفنية التى طرق بابها ، وأول مالاحظناه فى هذا الصدد أن أبا حنيفة قد تناول أدب النبات ، وأدب السياسة والنثر التاريخى وقد تفرع عن النثر التاريخى فنان أدبيان هما فن السيرة ، وفن القصة التاريخية ، ولهذا عقدنا الفصل الخامس وجعلنا عنوانه « فنونه الأدبية » .

وانى إذ أقدم إلى قراء العربية هذا العلم الفرد من أعلامنا القدامى إنما أقدم طاقات من المعانى الضخمة الملهمة المستخلصة من سيرته العطرة ، المملوءة بكل سام ورفيع ، المملوءة بالمثل العليا ، والإلهام الطيب ، والتوجيه الحسن ، والإرشاد السليم . تنطلق تلك المعانى الرائعة فى وجودنا الحديث معلنة عن الدور الذى قام به هذا العملاق ، والذى أسهم به فى خدمة العروبة والإسلام ، سواء فى مجال العلم والدين ، أو فى مجال الأدب

والنقد ، وحينما تنطلق تلك المعانى فى سموها اهادف والهامها المرتجى . والقدوة المأمولة فيها ، حينما تنطلق على هذا النحو تكون قد أثمرت وأينعت . وأمدت الوجود الحديث بطاقات من المثل والقيم التى ترتجى حذوا وقيادة وتشبها .

فما أشد حاجتنا إلى تلمس الإلهام والعظة الحسنة عن السلف الصالح من الرواد والقواد والمفكرين والمصلحين الذين أناروا للعالم الطريق . ومهدوا سبل تقدمه وارتقائه .

فأبو حنيفة الدينورى مرآة تنعكس عليها نواحى عظمته فى آفاق مختلفة من آفاق الحياة ، ومآربها العليا : من علم وفن وأدب وسياسة .... الخ بحيث يخرج القارئ من دراستى عن أبى حنيفة بمثل رفيعة للقدرة الفائقة التى يستطيع الإنسان أن يمارسها إذا ما استغرقته رسالة أعلى أو هدف رفيع .

وهذه الرسالة فى صورتها التى أقدمها للقارئ قد حاولت فيها أن أبرز أثر الاتصال التاريخى والثقافى بين الحضارات وتغذية الحضارات السابقة للحضارات اللاحقة بجميع الأسباب التى جعلت قيام الحضارة الحديثة ميراثا عاما للناس كافة .

وأبو حنيفة الدينورى يمثل أو يمكن أن يمثل ذلك التلاقح الفكرى بين الزمرة المختارة من الرجال ، والذى ظهر فى صورة حضارة عامة شاملة استغرقت أكبر مجموعة من شعوب الأرض ، والتى عرفت فى التاريخ باسم الحضارة العربية ، التى قامت على أسسها الحضارة الحديثة[1] .

وقصدت بهذه الرسالة أيضا أن أقدم لقراء العربية فى ثوب جديد تاريخ العصر العباسى الأول من خلال عرضى لحياة أبى حنيفة الدينورى ومدرسته فى الأدب والنقد بدأ هذا التاريخ قبل أن يولد أبو حنيفة وانتهى بنهاية القرن الثالث الهجرى .

وأرض العروبة والإسلام التى أنبتت أبا حنيفة الدينورى وأمثاله جديرة بأن تسمى أرض العبقريات الخالدة ، أرض آبائنا وأجدادنا أرض أصولنا البعيدة ، هؤلاء العمالقة الذين صنعوا للوجود مقومات حضارته التى يرفل فيها ، وكانت بغداد بفضلهم زعيمة للوجود كله صدر عنها الفضل والمعرفة ، والسبق إلى الكشف فى كل مجالات الحياة .أقام العرب والمسلمين دولتهم الكبرى من المحيط إلى الخليج ، وفى جنبات هذه الدولة وفى ربوعها نثروا حبات الوعى الإنسانى الموسوم بالإدراك والتحضر والسمو فكانوا قوة قادرة فى جميع المجالات وكانوا منهلا عذبا للمعرفة والإدراك وفهم أسرار الحياة .

---

(٢) عمالقة ورواد لأنور حجازى ص ٩ ط الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٩٦٦

ومما دعانى إلى أختيار أبى حنيفة الدينورى وضوح معالم الشخصية الإسلامية فى هذا الرجل العظيم الذى سار فى موكب الحياة بفطنة واعية . وذكاء متوقد ففرض شخصيته على معاصريه من علماء وأدباء وساسة . وصار إماما من أئمة اللغة والأدب والنقد بل صار ثقة فيما يرويه إيمانا بعروبته وإسلامه وحسن اختياره وثاقب فكره .

وشئت بهذه الرسالة أن أسهم فى توضيح معالم الشخصية الإسلامية والعربية التى نرى أنها بلغت أوج العظمة فى عصر أبى حنيفة الدينورى .

ولم أحاول فى حديثى عن أبى حنيفة الدينورى أن أمزق ما تدثرت به تلك الشخصية من شمائل . كما لم أحاول أن أصعد به إلى ذروة الكمال بل حرصت أن أمكن للحقيقة الصادقة أكبر نصيب دون زيف أو بهتان . بهذه الروح أقدم لكم أبا حنيفة الدينورى ومدرسته فى الأدب والنقد .

وبالله التوفيق .

السيد تقى الدين

الفصل الأول

فى الصحف الأولى

آراء الباحثين السابقين فى أبى حنيفة . ابن الاثير وابن كثير وأبى الفداء وأبى البركات وابن النديم وياقوت والقفطى والسيوطى وابن أبى الوفا وعمر رضا كحالة تقدير لهؤلاء العلماء – عرض جديد – الأديب الناقد .

قبل أن نبدأ حديثنا عن أبى حنيفة الدينورى،لابد لنا من وقفة على ما كتبه السابقون عنه نتبين من خلالها رأيهم فيه كما نتبين من خلالها أيضا الى أى مدى بلغت بحوثهم عنه ، وهل وفوه حقه من البحث والدراسة ؟

لابد من هذه الوقفة لنبدأ من حيث انتهوا فتكون دراستنا مكملة لبحوثهم محاولة تصحيح ما عساه يكون فى بحوثهم من نقص أو خطأ .

ولو لم نقف هذه الوقفة لكان من الجائز أن نردد ما قالوه ، وينتج عن ذلك ألا يكون فى البحث جديد وهذا ما نحرص كل الحرص على تلافيه ، لقد حرصت كل الحرص على أن أكتب جديدا عن أبى حنيفة . جديدا فى المضمون والشكل فتعالوا بنا نستعرض ما كتب السابقون عنه .

١ – مع ابن الأثير وابن كثير وأبى الفداء المؤيد :

وإنما جمعنا بين آراء الثلاثة فى أبى حنيفة لتشابهها تشابها يكاد يكون كاملا .

فأبن الأثير حينما يذكر وفيات ٢٨٢هـ يقول : « وفيها توفى أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى اللغوى صاحب كتاب النبات وغيره(١) »

ويذكره أبو الفداء المؤيد أيضا فى وفيات سنة ٢٨٢هـ فيقول : وفيها توفى أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى صاحب كتاب النبات(٢) »

ويقول ابن كثير : ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائتين وفيها توفى من الأعيان أحمد ابن داود أبو حنيفة الدينورى اللغوى صاحب كتاب النبات(٣)

---

(١) الكامل فى التاريخ جـ٦ صـ٨١ لأبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى الملقب بعز الدين المتوفى سنة ٦٣٠هـ طبع ١٣٥٣هـ ادارة المطبوعات المنيرة .

(٢) تاريخ أبى الفداء المؤيد جـ٢ صـ٥٧

(٣) الهداية والنهاية فى التاريخ جـ صـ للإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبى الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ طبع مطبعة السعادة .

فأبو حنيفة فى نظر هؤلاء الباحثين رجل عظيم يؤرخ لوفاته وهو عالم فى اللغة وفى النبات ، ولعل شهرته فى نظرهم ترجع إلى ذلك .

والذى لا شك فيه أن نظرة أبى الفداء ونظرة ابن الأثير إلى أبى حنيفة كانت ضيقة للغاية وإن كانت نظرة لم يختلف فيها اثنان .

٢ - مع أبى البركات :

أما مع أبى البركات فقد اتسعت النظرة إلى حد ما فقد إتفق مع الباحثين السابقين فى كون أبى حنيفة عالم فى اللغة وعالم فى النبات إلا أنه عدّ هذين العلمين جزءا من علوم أبى حنيفة الكثيرة وتناول علاوة على ذلك صفة علمية خلقية من صفات أبى حنيفة حينما قال : « وكان ثقة فيما يرويه » ثم ذكر مؤلفات أبى حنيفة .

والشىء الذى لفت نظرى فى حديث أبى البركات عن أبى حنيفة أنه يقول : وأما أبو حنيفة أحمد بن السكيت .... الخ .

فلم أجد أحدا غير أبى البركات يزعم أن والد أبى حنيفة هو السكيت فالسكيت أستاذ أبى حنيفة وليس والده . صحيح أن أبا حنيفة أكثر من أخذه عن ابن السكيت وأبيه ولكن ليس فى هذا ما يبرر نسبة الرجل إلى غير أبيه ولعله قصد الى أن السكيت أب روحى لأبى حنيفة ومع هذا الغرض فكان على أبى البركات أن يوضح ذلك لاسيما وأن كل ما ذكر ينطبق تمام الانطباق على ما ذكره جميع الباحثين عن أبى حنيفة صاحبنا وليس على شخصية أخرى وإليك ما يقوله أبو البركات :

وأما أبو حنيفة أحمد بن السكيت فكان ذا علوم كثيرة منها النحو واللغة والهندسة ، والحساب والهيئة وكان ثقة فيما يرويه وله من الكتب كتاب الباه ، وكتاب ما يلحن فيه العامة ، وكتاب الشعر والشعراء ، وكتاب الفصاحة ، وكتاب الأنواء ، وكتاب حساب الدور ، وكتاب البحث فى حساب الهند ، وكتاب الجبر والمقابلة ، وكتاب البلدان وكتاب النبات ولم يصنف فى معناه مثله إلى غير ذلك .(٤)

٣ - مع ابن النديم :

وأما ابن النديم فانه يتفق مع أبى البركات فيما ذكره عن أبى حنيفة ، ويضيف إلى ذلك المصادر التى استقى منها أبو حنيفة معارفه « فقد أخذ عن البصريين والكوفيين وأكثر أخذه من السكيت وابنه »

---

(٤) نزهة الإلباء فى طبقات الأدباء أى النحاة تأليف الإمام العالم أبى البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى صـ٣٠٥ ، ٣٠٦ نسخة فى مجلد طبع حجر بالقاهرة سنة ١٢٩٤هـ رقم ١٠٤ مكتبة الأزهر .

ثم يقول عن أبي حنيفة إنه « معروف بالصدق » ثم يورد مؤلفاته . استمع الى ابن النديم يحدثك بكل ذلك فيقول :

هو أحمد بن داود من أهل الدينور أخذ عن البصريين والكوفيين وأكثر أخذه من السكيت[٥] وابنه وكان مفتنا فى علوم كثيرة منها النحو واللغة والهندسة والحساب وعلم الهند وثقة فيما يرويه معروفا بالصدق وله من الكتب كتاب النبات يفضله العلماء فى تأليفه وكتاب الفصاحة ، كتاب الأنواء ، كتاب القبلة والزوال ، كتاب حساب الدور ، كتاب الرد على رصد الأصفهانى ، كتاب البحث فى حساب الهند . كتاب البلدان كتاب كبير ، كتاب الجمع والتفريق كتاب الجبر والمقابلة ، كتاب الأخبار الطوال ، كتاب الوصايا ، كتاب نوادر الجبر ، كتاب الشعر والشعراء . كتاب ما يلحن فيه العامة[٦]

٤ — مع ياقوت :

ولكننا حينما نلتقى بياقوت صاحب معجم الأدباء نجد دائرة البحث قد اتسعت أكثر

---

(٥) أبو يوسف يعقوب بن السكيت كان من أكابر أهل اللغة وكان مؤدب ولد جعفر المتوكل على الله والسكيت لقب أبيه اسحقاق وأخذ عن أبى عمر والشيبانى والفراء وابن الاعرابى ، وأخذ عنه أبو سعيد السكرى وأبو عكرمة الضبى وذكر محمد بن الفرج قال :

كان يعقوب يؤدب مع أبيه بمدينة السلام فى درب القنطرة صبيان العامة حتى احتاج إلى الكسب فجعل يتعلم النحو وكان أبوه رجلا صالحا وكان من أصحاب الكسائى حسن المعرفة بالعربية وكان يقول أنا أعلم من أبى بالنحو وأبى أعلم منى بالشعر واللغة وحكى عن أبيه أنه حج وطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وسأل الله تعالى أن يعلم ابنه النحو فتعلم النحو واللغة وجعل يختلف إلى قوم من أهل القنطرة فأجروا له كل دفعة عشرة دراهم وأكثر حتى اختلف بن بشر وابراهيم ابنى هارون أخوين كانا ينسبان لمحمد ابن طاهر فما زال يختلف إليهما والى أولادهما دهرا فاحتاج ابن طاهر الى رجل يعلم ولده فجعل ولده فى حجر ابراهيم وقطع ليعقوب خمسمائة درهم ثم جعلها ألف درهم ، وكان يعقوب قد خرج قبل ذلك إلى « سر من رأى » فى أيام المتوكل قصيّره عبد الله بن يحيى بن خاقان عند المتوكل فضم اليه ولده وأسنى له الرزق قال : الحسين بن عبد المجيب سمعت يعقوب بن السكيت فى مجلس أبى بكر بن شيبة يقول :

ومن النـــاس من يحبك حبـــا ظـــاهـــر الحب ليس بـــالتقصير
فـــاذا مـــا سألتـــه نصف فلس ألحق الحب بـــاللطيف الخبير

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ما رأيت للبغداديين كتابا خيرا من كتاب يعقوب ابن السكيت فى المنطق وتوفى سنة ٢٤٣هـ وقيل ٢٤٤هـ وقيل ٢٤٦هـ وكان ذلك فى خلافة المتوكل وقيل إنه قبل المتوكل وذلك أنه أمره المتوكل بشتم رجل من قريش فلم يفعل وأمر القرشى أن ينال منه فنال منه وأجابه يعقوب فلما أن أجابه قال له المتوكل أمرتك أن تفعل فلم تفعل فلما شتمك فعلت وأمر بضربه فحمل من عنده صريعا مقتولا ووجه المتوكل من الغد الى بنى يعقوب عشرة آلاف ديته[١] .

١ — نزهة الالباء فى طبقات الأدبا النحاة لأبى البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى صـ٢٣٨ — ٢٤١ .

(٦) الفهرست لابن النديم صـ١١٦ طبع المطبعة الرحمانية بمصر لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف . ملتزم النشر المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر لصاحبها مصطفى محمد .

من ذى قبل فهو قد إتفق مع الباحثين الذين ذكرناهم سابقا فيما قالوه عن أبى حنيفة وزاد على ذلك ما يلى :

١ - ذكره الروايات المختلفة حول السنة التى مات فيها أبو حنيفة . ومصادر هذه الروايات .

٢ - نقل عن كتاب « تقريظ الجاحظ » لأبى حيان رأى أبى محمد الأندلسى فى بلاغة الجاحظ وأبى حنيفة الدينورى .

٣ - نقل رأى أبى حيان فى كل من :

أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - أبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى - أبى زيد أحمد بن سهل البلخى .

والموازنة بين أبى حنيفة والجاحظ تدل على أن أبا حنيفة كان من طبقة الجاحظ فى رأى القدماء وأن بينهما تشابها وتباينا ، وأن علينا أن نوفى أبا حنيفة حقه من البحث والدرس كما وفينا الجاحظ حظه من البحث والدرس فليس أبو حنيفة بالرجل الغمر حتى يكون مجهولا أو كالمجهول بين الباحثين من أبناء العربية فى العصر الحديث فكثير منهم يعرف عن أبى عثمان الكثير وكثير منهم يجهل عن أبى حنيفة الكثير .

٤ - نقل عن كتاب الفتح على أبى الفتح لابن فرجه إحدى الحكايات الدالة على صدق أبى حنيفة وتثبته فى أحكامه بعكس المبرد الذى لا يتروع عن الكذب حرصا على سمعته .

٥ - نقل عن ابن النديم مصنفات أبى حنيفة ومن هنا ترى أن ياقوتا كان ناقلا أكثر منه صاحب رأى . وأهم ما ذكره ياقوت فى كتابه رأى أبى محمد الأندلسى فى أبى حنيفة وأنه كان أكثر ندارة وأن لفظه أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب .

وكذلك رأى أبى حيان فى أبى حنيفة فهو من نوادر الرجال جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب له فى كل فن ساق وقدم ورواء وحكم ... الخ . هذا مع ورعه وزهده وجلالة قدره وقد وقف الموفق عليه وسأله وتحفى به .

فهذان الرأيان يلقيان ضوءا على بعض الخصائص الفنية لأسلوب أبى حنيفة وإن لم يستوعبا هذه الخصائص ، هذا علاوة على أن هذه الخصائص التى ذكرها أبو محمد الأندلسى وأبو حيان لم تكن وليدة دراسة نقدية مدعمة بالنصوص وإنما هى من الأحكام العامة التى آن الأوان لأن نقلل منها فى دراستنا فالخصائص الفنية يجب أن تكون نتيجة دراسة للنصوص الأدبية وأن تقرن هذه بتلك لأن الأحكام النقدية الأصلية تختلف من ناقد إلى آخر ولا سيما إذا اتبع أصحابها المنهج التأثرى .ومهما يكن من شىء فإن لياقوت

أثرا لا ينكر فى إبراز بعض الملامح الفنية لدى أبى حنيفة الدينورى وإن كان لم يدقق فى نسب أبى حنيفة كما فعل غيره فقد قال أحمد بن داود ابن وتند وصوابها وتند على ما حققناه فى فصل حياته وبيئته وإليك ما يقوله ياقوت[٧]

أحمد بن داود بن وتند

أبو حنيفة الدينورى أخذ عن البصريين والكوفيين وأكثر أخذه عن ابن السكيت، وكان نحويا لغويا مهندسا منجما حاسبا راوية ثقة فيما يرويه ويحكيه مات فى جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وجدت ذلك على ظهر كتاب النبات من تصنيفه، ووجدت فى كتاب عتيق: مات أحمد بن داود أبو حنيفة الدينورى قبل سنة تسعين ومائتين ثم وجدت على ظهر النسخة التى بخط ابن المسبح بكتاب النبات من تصنيف أبى حنيفة.

توفى أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى ليلة الاثنين لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ثمانين ومائتين، ووجد فى كتاب الوفيات لأبى عبد الله محمد بن سفيان بن هارون ابن بنت جعفر بن محمد الفريابى البغدادى، مات أبو حنيفة أحمد بن داود بن وتند صاحب كتاب النبات فى سنة إحدى وثمانين ومائتين:

قال أبو حيان فى كتاب تقريظ[٨] الجاحظ.

ومن خطه الذى لا أرتاب فيه نقلت قال:

قلت لأبى محمد الأندلسى يعنى عبد الله بن محمود الزبيدى، وكان من عدد أصحاب السيرافى وله فى هذا الكتاب ذكر، قد اختلفت أصحابنا فى مجلس أبى سعيد السيرافى فى بلاغة الجاحظ وأبى حنيفة صاحب النبات، ووقع الرضا بحكمك فما قولك؟ فقال: أنا أحقر[٩] نفسى عن الحكم لهما وعليهما فقال: لابد من قول قال: أبو حنيفة أكثر ندارة[١٠]، وأبو عثمان أكثر حلاوة، ومعانى أبى عثمان لائطة بالنفس سهلة فى السمع ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب قال أبو حيان: والذى أقول وأعتقد وآخذ به، وأستهم[١١] عليه أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان[١٢] على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم

(٧) معجم الأدباء جـ٣ صـ٢٦ - ٣٢ط الدكتور أحمد فريد الرفاعى.

(٨) أى ذكر فضائله ومحاسنه.

(٩) أى لست أهلا للموازنة بينهما.

(١٠) أى ذكرا للنوادر.

(١١) فى الاصل استهم عليه وأستهم أى أراهن.

(١٢) الانس والجن.

ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها لما بلغوا آخر ما يستحقه واحد منهم أحدهم هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه الرسالة وبسببه جشمنا هذه الكلفة : أعنى أبا عثمان عمرو بن بحر . والثانى أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى فإنه من نوادر الرجال جمع بين حكمة الفلاسفة ، وبيان العرب له فى كل فن ساق(١٣) وقدم ورواء(١٤) وحكم وهذا كلامه فى الأنواء يدل على حظ وافر من علم النجوم ، وأسرار الفلك ، فأما كتابه فى النبات فكلامه فيه فى عروض كلام أبدى بدوى ، وعلى طباع أفصح عربى ولقد قيل لى : إن له فى القرآن كتابا يبلغ ثلاثة عشر مجلدا ما رأيته ، وأنه ما سبق الى ذلك النمط هذا مع ورعه وزهده وجلالة قدره ، وقد وقف الموفق عليه ، وسأله وتحفى به والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخىّ فإنه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر ، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم ، وفى كتاب أخلاق الأمم ، وفى كتاب نظم القرآن وفى كتاب اختيار السير ، وفى رسائله الى إخوانه وجوابه عما يسأل عنه ويبده(١٥) به علم أنه بحر البحور ، وأنه عالم العلماء ومارئى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه وأن القول فيه لكثير ، ولو تناصرت(١٦) إلينا أخبارهما لكنا نحب أن نفرد لكل واحد منهما تقريظا مقصورا عليه ، وكتابا منسوبا اليه كما فعلت بأبى عثمان قرأت فى كتاب ابن فرجة : المسمى بالفتح على أبى الفتح فى تفسير قول المتنبى :

فدع عنك تشبيهى بما وكأنه ... فما أحد فوق وما أحد مثلى

وقال فيه : مالم يرضه ابن فرجه ونسبه إلى أنه سأل عنه أبا الطيب فأجاب بهذا الجواب فأورد ابن فرجه هذه الحكاية :

زعموا أن أبا العباس المبرد ورد الدينور زائرا لعيسى بن ماهان فأول ما دخل عليه وقضى سلامه قال له عيسى : أيها الشيخ ما الشاة المجثمة التى نهى النبى ﷺ وسلم عن أكل لحمها فقال : هى الشاة القليلة اللبن مثل اللجبة(١٧) فقال : هل من شاهد ؟

---

(١٣) أى أنه يضرب فى كل فن بسهم صائب .

(١٤) الرواء : حسن المنظر .

(١٥) بده بالسؤال : فوجئ به .

(١٦) تناصرت الاخبار : نصر بعضها بعضا فتطمئن النفس الى صحتها وحقيقتها .

(١٧) الذى فى الأصل اللحبة بالحاء المهملة .

قال : نعم قول الراجز :

لم يبق من آل الحميد نسمة ... إلا عنيز لجبة مجثمة

فإذا بالحاجب يستأذن لأبى حنيفة الدينورى فلما دخل الدينورى قال له : أيها الشيخ ما الشاة المجثمة التى نهينا عن أكل لحمها ؟ فقال : هى التى جثمت على ركبها وذبحت من خلف قفاها فقال : كيف تقول وهذا شيخ العراق يعنى أبا العباسى المبرد يقول : هى مثل اللجبة وهى القليلة اللبن وأنشده البيتين فقال : أبو حنيفة : إيمان البيعة تلزم أبا حنيفة إن كان هذا التفسير سمعه هذا الشيخ أو قرأه وإن كان البيتان إلا لساعتهما هذه فقال : صدق الشيخ أبو حنيفة فإننى أنفت أن أرد عليك من العراق وذكرى ما قد شاع فأول ما تسألنى عنه لا أعرفه فاستحسن منه هذا الإقرار وترك البهت.

قال ابن فرجه : وأنا أحلف بالله العلى إن كان أبو الطيب قط سئل عن هذا البيت فأجاب هذا الجواب الذى حكاه ابن جنى وإن كان إلا مزيدا مبطلا فيما يدعيه — عفا الله عنه وغفر له — فالجهل والإقرار به أحسن من هذا وذكره محمد بن اسحاق النديم فقال : وله من الكتب المصنفة : كتاب الباه ، كتاب ما يلحن فيه العامة ، كتاب الشعر والشعراء وكتاب الفصاحة ، كتاب الأنواء ، كتاب فى حساب الدور ، كتاب البحث فى حساب الهند كتاب الجبر والمقابلة ، كتاب البلدان كبير ، كتاب النبات لم يصنف فى معناه مثله ، كتاب الرد على لغزة الأصفهانى ، كتاب الجمع والتفريق ، كتاب الأخبار الطوال كتاب الوصايا ، كتاب نوادر الجبر ، كتاب إصلاح المنطق ، كتاب القبلة والزوال ، كتاب الكسوف قال أبو حيان وله كتاب فى تفسير القرآن .

٥ — مع القفطى :

ونحن مع هذا العالم لا نجد جديدا يذكر عن أبى حنيفة الدينورى فما جاء فى معجم الأدباء هو بعينه ما ذكر القفطى مع تغيير لا يكاد يذكر فهو يذكر طريقة من طرق التعليم القديمة فمسبح بن الحسين قرأ كتاب النبات على خاله أبى حنيفة مؤلف الكتاب ثم روى أبو سعيد السيرافى هذا الكتاب عن مسبح بن الحسين ، وأما أبو عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع الشاعر فقد قرأ هذا الكتاب على القاضى أبى سعيد السيرافى .

وكذلك الشأن فى كتاب « الأنواء » وإن اختلفت أسماء الرواة والقارئين .

والقفطى علاوة على ذلك يلقى بصيصا من ضوء على أسرة أبى حنيفة فقد كان لأبى حنيفة أخت تزوجت وأنجبت مسبح بن الحسين .

وما عدا ذلك فإننا نجد المعلومات الواردة فى معجم الأدباء هى نفس المعلومات الواردة فى أنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى وإليك ما يقوله .

الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى :[١٨]

أحمد بن داود أبو حنيفة الدينورى

من أهل الدينور أخذ عن البصريين والكوفيين وأكثر أخذه عن ابن السكيت وأبيه ، وكان مفتنا فى علوم كثيرة منها النحو واللغة والهندسة والهيئة والحساب . ثقة فما يرويه ويمليه معروفا بالصدق وله من الكتب كتاب « الفصاحة » كتاب « الأنواء » كتاب « حساب الدور »[١٩] كتاب « الرد على الأصبهانى[٢٠] » كتاب « البحث فى حساب الهند » كتاب « البلدان » كتاب « الجمع والتفريق » كتاب « الجبر والمقابلة » كتاب « نوادر الجبر » كتاب « الوصايا » كتاب « الشعر والشعراء » كتاب « لحن العامة » كتاب « الكسوف » ملكته بخطه .

كتاب « تاريخ الأخبار[٢١] الطوال » ، كتاب « النبات »[٢٢] نقلت عن خط ياقوت الموصلى[٢٣] الكاتب ما مثاله : وجدت على ظهر الجزء الأول من كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى بخط أبى محمد عبد الله بن أحمد بن احمد بن الخشاب ما هذه حكايته فنقلته - وجدت بخط أبى عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع الشاعر - رحمه الله ما هذه حكايته فنقلته قرأت هذا الكتاب على القاضى أبى سعيد السيرافى ورواه لى عن مسبح بن الحسين ابن أخت أبى حنيفة الدينورى وذكر أنه قرأه على خاله أبى حنيفة . وقرأ عليه بهذه الرواية كتاب « الأنواء » وسمعته قراءة عليه وقرأناه على أبى عبد الله الحسين بن هارون القاضى الضبى بهذه الرواية أيضا . وبقراءة أبى أحمد بن عبد السلام بن الحسين البصرى ، وسمع أبو الحسين السمسمى وسمع الشريف المرتضى

---

(١٨) انباه الرواه على انباه النحاة بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم جـ١ صـ٤١ وما بعدها ط دار الكتب سنة ١٩٥٠ .

(١٩) فى خزانة الأدب (حساب الدر)

(٢٠) هو الحسن بن عبد الله المعروف بلغزة الاصبهانى .

(٢١) فى الفهرست ومعجم الأدباء والخزانة «كتاب الأخبار الطوال» وسماه صاحب كشف الظنون «تاريخ أبى حنيفة» ونقل عن السعودى وهو كتاب كبير أخذ ابن قتيبة ما ذكره وجعله لنفسه .

(٢٢) زاد ياقوت وصاحب الخزانة كتاب (اصلاح المنطق) وكتاب القبلة والزوال وحكى ياقوت عن أبى حيان أن له كتابا فى تفسير القرآن .

(٢٣) هو ياقوت بن عبد الله الموصلى أخذ النحو عن أبى محمد سعيد بن المبارك وقرأ عليه تصانيفه . وكتب الكثير . وانتشر خطه فى الآفاق . وكان فى نهاية الحسن . ولم يكن فى زمانه من يقاربه وتوفى سنة ٦١٨ (عن أبى خلكان جـ٢ صـ٢٠٧)

أبو القاسم نقله أحمد بن أحمد[٢٤] فى جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة وبخطه أيضا على ظهر النسخة المذكورة : قرأ جميع هذه المجلدة وعددها سبع عشر كراسة على الشيخ يحيى بن الحسين بن أحمد بن البنا من أولها الى البلاغ المقابل لنسخة الخالع بروايته عن أبى القاسم على بن أحمد السرى إجازة عن أبى عبد الله الضبى وإجازة عن مسبح بن الحسين عن أبى حنيفة - عبد الله بن أحمد بن الخشاب فى مجالس آخرها يوم الأحد سابع من رجب من سنة سبع وعشرين وخمسمائة والباقى وجادة[٢٥] لأنه لم يقابل بالمسموع من الضبى وأثبت بحمد الله نقل المذكور جميعه ياقوت بن عبد الله فى سابع رجب من سنة ست وستمائة بمدينة الموصل .

وتوفى أبو حنيفة أحمد بن داود ليلة الاثنين لأربع بقين من جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ومائتين رحمه الله .

وحكى ابن رواحة البروجردى[٢٦] قال : زعموا أن أبا العباس المبرد ورد الدينور زائرا لعيسى بن ماهان فأول ما دخل عليه وقضى سلامه قال له : أيها الشيخ ما الشاة المجثمة التى نهى النبى ﷺ عن أكل لحمها ؟ فقال : هى الشاة القليلة اللبن مثل اللجبة[٢٧] فقال : هل من شاهد ؟ فقال : نعم قول الراجز :

لم يبق من آل الحميد[٢٨] نسمة   الا عنيز لجبة مجثمة

فإذا بالحاجب يستأذن لأبى حنيفة الدينورى فأذن له فلما دخل قال له عيسى بن ماهان ، ما الشاة المجثمة التى نهى النبى ﷺ عن أكلها ؟ فقال : هى التى جثمت على ركبتها ونحرت من قفاها . فقال : كيف تقول وهذا شيخ العراق - يعنى أبا العباس المبرد يقول : هى مثل اللجبة وهى القليلة اللبن وأنشد البيتين فقال أبو حنيفة : أيمان البيعة تلزم أبا حنيفة إن كان هذا الشيخ سمع هذا التفسير وإن كان البيتان إلا لساعتها هذه .

(٢٤) هو أحمد بن أحمد الوراق المعروف بابن أخى الشافعى قال ياقوت : هو رجل من أهل الأدب رأيت جماعة من أعيان العلماء يفتخرون بالنقل من خطه ورأيت خطه وليس بجيد المنظر ولكنه متقن الضبط ولم أر أحدا ذكر شيئا من خبره (معجم الأدباء) جـ٢ صـ١٣٧

(٢٥) الوجادة بالكسر وهى فى اصطلاح المحدثين : اسم لمن أخذ العلم من صحيفة من غير سماع ولا اجازة ولا مناولة : (تاج العروس) جـ٢ صـ٥٢٤ .

(٢٦) البروجردى : منسوب إلى بروجرد بفتح الباء ثم الضم والسكون مع كسر الجيم وسكون الراء ودال وهى بلدة قريبة من همزان .

(٢٧) فى الاصل : اللجمة والتصحيح عن معجم الأدباء . وخزانة الأدب ولسان العرب جـ٢ صـ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٢٨) فى خزانة الأدب : (الحميد)

فقال أبو العباس المبرد : صدق الشيخ أبو حنيفة أنفت أن أرد عليك من العراق وذكرى ما قد شاع فأول ما تسألنى عنه لا أعرفه فاستحسن منه هذا الإقرار وترك البهت .(٢٩)

٦ - **مع السيوطى :**

وحينما نلتقى بالسيوطى ليحدثنا عن أبى حنيفة لا نجده يأتى بجديد وإنما هو يجمع آراء السابقين ويعرضها علينا وهى نفس الآراء التى سبق أن ذكرناها .

وإليك ما يقوله السيوطى :

«كان نحويا لغويا مع الهندسة والحساب راويه ثقة ورعا زاهدا أخذ عن البصريين والكوفيين وأكثر أخذه عن ابن السكيت « صنف كتاب الباه » ... الخ وكان من نوادر الرجال ممن جمع بين آداب العرب وحكم الفلاسفة(٣٠)

٧ - **مع ابن أبى الوفا :**

وكل ما يأتى به هذا العالم عن أبى حنيفة غير ما ذكرنا أن أبا حنيفة فقيه حنفى وقد نقل ذلك عن أبى القاسم مسلمة بن قاسم وإليك ما يقوله ابن أبى الوفا :

أحمد بن داود أبو حنيفة الدينورى صاحب كتاب النبات أحد العلماء المشهورين فى اللغة ذكره أبو القاسم مسلمة بن قاسم الأندلسى فى الذيل الذى ذيل به على تاريخه الكبير فى أسماء المحدثين وقال : فقيه حنفى الفقه وله المصنفات (كتاب الفصاحة)، وكتاب (الأنواء) وكتاب (القبلة) وكتاب (الدور) وكتاب (الوصايا) وكتاب (الجبر والمقابلة) وكتاب (إصلاح المنطق)

مات سنة اثنتين وثمانين ومائتين رحمه(٣١) الله تعالى .

٩ - **مع عمر رضا :**

حين نلتقى فى العصر الحديث بالاستاذ عمر رضا كحالة لا يزيدنا علما بأبى حنيفة وإنما يردد ما قاله السابقون فهو يقول :

« أبو حنيفة عالم شارك فى كثير من العلوم كاللغة والأدب والتاريخ والنبات والفلك والهندسة والجبر والحساب ولد فى العشر الأول من القرن الثالث الهجرى تقريبا بدينور .

---

(٢٩) البهت : الكذب .

(٣٠) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم جـ١ صـ٣٠٦ الطبعة الأولى عيسى البابى الحلبى .

(٣١) الجواهر المضية فى طبقات الحنيفة للامام يحيي الدين ابن محمد عبد القادر ابن أبى الوفا محمد بن محمد بن نصر الله بن سالم بن أبى الوفا القرشى الحنفى المصرى جـ١ صـ٦٧ الطبعة الأولى مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة فى الهند بمحروسة حيدر آباد الدكن .

من مؤلفاته كتاب النبات فى ست مجلدات كبار — الجبر والمقابلة — الأخبار الطوال كتاب ما يلحن فيه العامة — كتاب الشعر والشعراء . (٣٢)

(وبعد) فنحن لم نرد بهذا العرض لآراء علمائنا أن ننتقص من أقدارهم فلولا جهودهم العلمية والأدبية لما عرفنا شيئا عن أبى حنيفة ولا عن غير أبى حنيفة فهؤلاء العلماء الأعلام قد حفظوا لنا تراثنا الأدبى والثقافى والحضارى بتلك الجهود الرائعة الموفقة التى بذلوها فى سبيل اللغة العربية وآدابها وأعلامها الأفذاذ .

وإنما أردت بهذه الوقفة فقط أن أحدد المدى الذى وصلت إليه جهود هؤلاء العلماء والأدباء ليكون لى شرف متابعة هذه الجهود بما يتناسب مع طبيعة التطور العلمى والأدبى الذى وصلنا إليه ونحن إذا ما أردنا أن نلخص آراء السابقين فى أبى حنيفة نجدها تتلخص فيما أورده السيوطى فى « بغية الوعاة » وقد ذكرنا ذلك سابقا فلا داعى لإعادته .

ولنقدم إليك أبا حنيفة فى ثوب جديد لنقدمه إليك عالما أديبا ناقدا مؤرخا يعيش فى مجتمع معين له سماته العلمية والأدبية والسياسية والدينية لنقدم إليك هذا العلم الفذ بين أعلام العربية بما يجعله شخصية منفردة السمات واضحة المعالم تفاعلت مع مجتمعها فأثرت فيه وتركت فى سجل الخالدين صفحات مشرفات معنونة باسم أبى حنيفة الدينورى .

---

(٣٢) معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية جـ١ تأليف عمر رضا كحالة صـ٢١٨ . ٢١٩ط الترقى بدمشق .

الفصل الثانى

حياته وبيئته

أصله ونشأته - مدينة الدينور وسكانها وضواحيها قديما وحديثا مولده - مؤثرات رئيسية . مدينة الدينور . الشعب الفارسى . العصر العباسى تحقيق اسم أبى حنيفة أحمد بن داود وتند علم كبير كادينسى الحركة التعليمية فى الشرق الإسلامى وموقف أبى حنيفة منها - إنشاء أول مصنع للورق فى بغداد - المكتبات والمؤلفون - موقف الأمويين والعباسيين من المدارس والكتب الأجنبية بيت الحكمة الترجمة والمترجمون أبرز المؤرخين الذين روى عنهم أبو حنيفة : الهيثم بن عدى . الشعبى . الأصمعى - أبرز المؤرخين الذين رووا عن أبى حنيفة : الفارق - العصر العباسى فى حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية - أثر هذا الحيوان عند أبى حنيفة - للعلوم اللغوية والأدبية - الثقافة والمثقفون - علامات ثقافية الثقافة العربية العامة : نشأتها وتكوينها وجهود أبى حنيفة فى تكوينها فوضى الكتب الأدبية الحكومة والشعب يشجعون العلوم والفنون المعتزلة وأهل السنة والجبرية والشيعة خلق الأفعال صفات الله - خلق القرآن - الحديث - إعجاز القرآن - لقاح العقول وأثره ودور أبى حنيفة فيه - الثقافة الجديدة وموقف العلماء والأدباء منها بعامة وأبى حنيفة بخاصة - بين الجاحظ وأبى حنيفة - بين ابن قتيبة وأبى حنيفة - خلاصة وفاته .

أبو حنيفة الدينورى فارسى الأصل . تجرى فى عروقه دماء الفرس . وتنصهر فى نفسه عزة العرب وأمجاد الإسلام . وهو فوق هذا إنسان عاش رفيع القدر أصلا ومعاشا وقد صار إماما من أئمة العلم واللغة والأدب[١]

وينسب أبو حنيفة أحمد بن داود وأجداده الأقربون إلى دينور ويقال لها كثيرا[٢] دينور بسكون الياء وفتح النون . وهى مدينة من أهم مدن الجبال فى العصور الوسطى . ومكانها وفق ما جاء فى الخريطة التى أعدها الرحالة ستراوس على خط طول ٤٨° شرق جرينتش وعلى خط عرض ٣٤° شمالا على ارتفاع نحو خمسة آلاف قدم . وتقع على الطرف الشمالى لواد خصيب نهر آب دينور الذى يسير فى الركن الجنوبى الغربى للهضبة ثم ينفرج فى واد عريض . يرجع تأسيس دينور التى تظهر فى المصادر السريانية

(١) عبد المنعم عامر : مقدمة لكتاب الأخبار الطوال صفحة (و)

(٢) دائرة المعارف الاسلامية المجلد التاسع

باسم دينهور - إلى عهد الجاهلية ، وكانت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب أكثر مدن إقليم همذان عمارة وقد سلّمها الوالى الفارسى للعرب عقب وقعة نهاوند الحاسمة فى نحو سنة ٢١ هـ (٦٤٢م) وعرفت فى أيام معاوية بن أبى سفيان بالاسم الجديد « ماه الكوفة[٣] » لأن الضرائب المتحصلة منها كانت تستخدم لخير أهل الكوفة عامة ولدفع أعطيات جنود حاميتها خاصة .

وقد ظهرت ماه الكوفة فى التقسيم الإدارى لدولة الأمويين فى عهد معاوية بوصفها قسما إداريا للجبال ذا طسوجين دينور وتشمل الأراضى العليا وقرميسين وتشمل الأراضى السفلى ، وكان يحد ماه الكوفة من الغرب طسوج حلوان ومن الشرق همذان ومن الجنوب ماسبذان ومن الشمال أذربيجان .

ويقول صاحب معجم البلدان :

والدينور بمقدار ثلثى همذان ، وهى كثيرة الثمار والزروع ولها مياه ومستشرف ، وأهلها أجود طبعا من أهل همذان ، وينسب إلى الدينور جماعة كثيرة من أهل الأدب والحديث[٥] .

وازدهرت دينور ازدهارا كثيرا فى عهد الأمويين والعباسيين ، وكان سكانها خليطا من الفرس والعرب ويعيش فيما حولها قبيلة شوهجان الكردية والتى تعيش عيشة البداوة فى الأراضى المحيطة بها[٦] .

وقد حل الخراب بمدينة دينور من جراء الاضطرابات التى حدثت فى السنين الأخيرة من عهد المقتدر بالله الخليفة العباسى بعد أن انتقض عليه القائد مرداويح الجيلابى وهزم الجيش الذى سيّره إليه واستولى على كورة الجبال بأسرها فسقطت فى يده عام ٣١٩ هـ (٩٣١م) وهلك من أهلها آلاف عديدة .

ثم استقل بقصبة دينور أمير من أمراء الأكراد يدعى حسنويه واتخذها مملكة صغيرة له واستطاع الاحتفاظ بها مدة خمسين سنة إلى أن توفى سنة ٣٦٩هـ (٩٧٩م) وظلت دينور عامرة حتى لاقت مصيرها المحتوم فى الخراب أثناء الفظائع التى حلت بالبلاد الإسلامية عقب الغزوات المغولية التى شنها تيمور[٧] .

---

(٣) كلمة فارسية الاصل بمعنى قصبة

(٥) معجم البلدان لشهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى المتوفى سنة ٦٢٦هـ المجلد الرابع ص ٨٨ الطبعة الاولى ١٩٠٦ م

(٦) مروج الذهب للمسعودى جـ٣ ص ٢٥٣ .

(٧) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة هـ .

تلك هى المدينة التى ولد فيها ونسب إليها أبو حنيفة ، وهى الآن بلدة إيرانية ليست ببعيدة عن حدود العراق ، وفى الموسوعة الإسلامية أنها من العراق الفارسى . وقال ياقوت فى معجم البلدان إنها من أعمال الجبل قرب قرميسين «كرمان شاه» وذكر أسماء بعض من نسب إليها من الأدباء والعلماء .

والظاهر أن أبا حنيفة قضى شطرا كبيرا من حياته فى مدينة دينور وأنه كان يقوم فيها بأعمال الرصد فوق أعماله العلمية اللغوية المختلفة وله مع معاصره علامة اللغة والأدب أبى العباس المبرد صاحب الكامل قصة طريفة تدل على علوّ كعبه فى اللغة ، كما تدل على أنه كان فى الدينور عندما زارها المبرد(٨) ، وذكر عبد الرحمن أبو الحسن الصوفى العالم المشهور بالفلك والمتوفى سنة ٣٧٦هـ أنه رأى فى الدينور البيت الذى لبث أبو حنيفة سنين طوالا يرصد النجوم على سطحه(٩) .

ولد أبو حنيفة فى العقد الأول من القرن الثالث الهجرى . ولم أجد فى كتب التراجم ولا فى كتب اللغة ذكرا للسنة التى ولد فيها ونشأ فى أسرة من أصل فارسى .

ومن هنا فنحن نجد أنفسنا أمام مؤثرات ثلاثة ، وأنها تركت آثارها فى أبى حنيفة الدينورى . نحن أمام بيئة الدينور الجبلية وأمام شعب الفرس وأمام العصر العباسى ،أما العصر العباسى فسيأتى . الحديث عنه بعد قليل ، وأما الدينور فقد تحدثنا عنها من قبل وبقى أن نتحدث عن سكانها الجبليين وعن الشعب الفارسى بعامة .

لقد كان سكان فارس الجبليون أشداء ينتمون كما ينتمى الميديون إلى الجنس الهندروبى ، ولعلهم جاءوا إلى تلك البلاد من جنوبى الروسيا ، وتكشف لغتهم ودياناتهم المبكرة عن صلة نسب وثيقة بينهم وبين الآربين الذين عبروا أفغانستان وأصبحوا الطبقة الحاكمة فى شمالى الهند .

ويلوح أن الفرس أجمل شعوب الشرق الأدنى فى الزمن القديم ، فالآثار الباقية من عهدهم تصورهم شعبا معتدل القامات قوى الأجسام ، قد وهبتهم حياة الجبال شدة وصلابة ولكن ثروتهم الطائلة رققت طباعهم وهم ذوو ملامح متناسبة متناسقة شم الأنوف لا يكادون يفترقون فى ذلك عن اليونان ، تبدو على وجوههم سمات النبل والروعة ولبس معظمهم الملابس الميدية ثم تحلوا فيما بعد بالحلى الميدية ، وكانوا يعدون من سوء الأدب كشف أى جزء من أجزاء الجسم خلاف الوجه ، ولذلك كان كل الجسم مغطى من عمامة الرأس أو عصابته أو قلنسوته إلى خفى القدمين أو حذاءيهما ، فكان لباسهم سروالا مثلث

---

(٨) خزانة الأدب للبغدادى ج١ ص٦١ طبع المكتبة السلفية .

(٩) مقدمة (فهارس الأخبار الطوال) لكراتشقوفسكى ص ٢١ - ٤٧ .

الطيات وقميصا أبيض من النيل ومئزرا من طبقتين ذا كمين يغطيان اليدين ومنطقة فى وسط الجسم وكانت هذه الملابس تحفظ أجسامهم دافئة فى الشتاء حارة فى الصيف أما الملك فكان يمتاز بلبس سروال مطرز قرمزى وحذاءين ذوى أزرار زغفرانية اللون ، ولم تكن ملابس النساء تختلف عن ملابس الرجال إلا بفتحة عند الصدر . وكان الرجال يطيلون لحاهم ويتركون شعر رأسهم ينساب فى غدائر ثم استبدلوا بها فيما بعد شعرا مستعارا ، ولما زادت الثروة فى عهد الإمبراطورية أكثر الأهلون رجالهم ونساؤهم من استعمال أدوات التجميل(١٠)

فهل ترك هذا الجنس أثره فى أبى حنيفة ؟ وهل تركت بيئة الدينور الجبلية أثرها فى أبى حنيفة ؟ ولا سيما إذا علمنا أنه أقام بها فترة طويلة . لا نريد أن نتعجل الحوادث فسيأتى بيان ذلك قريبا حينما نتحدث عن شخصية أبى حنيفة والعناصر المكونة لها ، ولكن الذى نريد أن نوضحه هنا هو أن نحدد مفهوم كلمة الجنس فنحن نقصد به تلك الصفات والمقومات النفسية التى ورثها الشخص من شعبه . وأما البيئة فلعلك فهمت مما سبق أننا نقصد بها الوسط الجغرافى الذى يحيط بالفرد ، وأما الزمان فهو ما يحيط بالإنسان من أحداث السياسة وأحوال العمران وأطوار المجتمع . وكل هذه المؤثرات الجنسية والزمانية والمكانية تؤثر فى شخصية الفنان من غير شك فتفرغها فى قالب معين ثم تنتج هذه الشخصية أعمالها الادبية ومن هنا كانت العناية بهذه المؤثرات أمرا لا مفر منه .

ومهما يكن من شئ فصاحبنا هو أحمد بن داود بن ونند أبو حنيفة الدينورى . وونند هذه كلمة إيرانية كانت اسما لجده . ومعناها الكاسب أو الرابح على ما ذكره بروكلمن فى تاريخ آداب اللغة العربية . أما كراتشقوفسكى فقد ذكر فى مقدمة فهارس « الأخبار الطوال » لأبى حنيفة أن ونند اسم نجم من النجوم أو اسم إله يمثل ذلك النجم وأنه ذكر كثيرا فى كتب البرسيين المقدسة ويظهر أن الأشخاص كانوا يسمون به .

وأخيرا كتب العالم بور داود أستاذ اللغات القديمة فى جامعة طهران تحقيقا ممتعا لمعنى هذه الكلمة . ومما جاء فيه أنها كانت تدل على نجم وعلى الإله المختص به وأنها وردت مرارا فى « الأوستا » مع غيرها من أسماء النجوم وأنها كانت تكتب فيها بالتاء أى « ونت » وعندما نقلت الأوستا إلى البهلوية جعلت التاء فيها دالا .

وأنها تطلق اسما على الأفراد ككثير غيرها من أسماء النجوم وأن معناها اللغوى القادر والغالب والظافر لا الكاسب ولا الرابح(١١) .

---

(١٠) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ج٢ من المجلد الأول ص ٤١٠ - ٤١١ .

(١١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق : مقال للأمير مصطفى الشهابى .

وقد رسم هذا الاسم بالتاء المثناه غلطا أى « وتند » فى معجم الأدباء لياقوت طبعة مرجليوث ، وطبعة مصر للدكتور فريد الرفاعى ، ولكنه جاء صحيحا فى بغية الوعاة للسيوطى وفى خزانة الأدب للبغدادى ..

وإذا ألقيت نظرة على أسماء علماء العرب من صرحاء ومستعربة فأصبت فيهم رجلا دق بين أدباء اليوم صيته بمقدار ما جل على لساننا الضادى فضله . فذلك الرجل إنما هو أحمد بن داود أبو حنيفة الدينورى لقد كاد هذا العلامة يكون مغمورا فى أيامنا هذه فلا يعرفه إلا القليل من الأدباء على حين أن بعض مصنفاته ، وأخص منها كتاب النبات وكتاب الأنواء كانت من أوثق الكتب التى اعتمد عليها ونقل منها أصحاب معجماتنا المشهورة ، وأصحاب كتب المفردات والزراعة كابن سيده فى المخصص ، وابن منظور فى لسان العرب ، والفيروز اباد فى القاموس المحيط ، والزبيدى فى تاج العروس ، وابن البيطار فى مفرداته ، وابن العوام فى الفلاحة الأندلسية وغيرهم كثير .

وقد ذاع صيت هؤلاء المصنفين ، واستفاضت شهرة مصنفاتهم لأن كنوزهم الثمينة هذه لم تفقد والحمد لله بل عثر عليها وطبعت وصارت فى متناول أيدينا أما كتب أبى حنيفة الدينورى فقد ضاعت ويالالأسف فكاد ينطمس بضياعها اسم هذا العالم الكبير وأمسى لا يذكر إلا عرضا فى الجمل التى نقلها عنه أصحاب كتب اللغة وغيرهم من المؤلفين(١٢) .

ومن الغريب أن كتب التراجم وكتب اللغة وكتب الأدب القديمة لا تذكر عن حياته إلا الأقل الذى لا يشفى غليلا على حين أن أصحاب هذه الكتب لا ينكرون فضله الكبير على اللغة وضياع معظم كتبه أفقدنا ما ربما كان فيها من معلومات فى هذه الناحية ولذلك لبثنا إلى الآن جاهلين لأسرته وحداثته وتعلمه ومشايخه ورحلاته إلى البلاد العربية . واتصاله بأعراب القبائل للمدارسة أو التأليف ، وكيف كانت مجالسه ومناظراته . وما هى صلاته بأدباء عصره وبالسلطان ، ومن أين كان يرتزق ومن هم تلاميذه(١٣) ؟

ولعلنا لو ألقينا نظرة عامة على الحركة التعليمية فى الشرق الإسلامى نستطيع أن نعرف شيئا عن حياة أبى حنيفة التعليمية وعن تعليمه الرسمى فلو أمسكنا بخيوط الاتجاهات التربوية والتعليمية فى الشرق الإسلامى فربما استطعنا أن نشد إليها أو إلى بعضها صاحبنا

---

(١٢) إلا كتاب الأخبار الطوال وإلا الجزء الخامس من كتاب النبات . وكتاب الأخبار الطوال فى التاريخ وهو الوحيد الذى عثر عليه كاملا وطبع فى ليدن سنة ١٨٨٨ ولبث بلا مقدمة وبلا فهارس حتى سنة ١٩١٢ . وفيها وضع المستشرق أغناطيوس كراتشقوفسكى فهارسه وصدرها بمقدمة ممتعة بالفرنسية وطبعها فى ليدن لحقا للكتاب .

(١٣) مجلة المجمع العلمى العربى - دمشق مصطفى الشهابى المجلد السادس والعشرون ص ٣٥٠ .

أبا حنيفة الدينورى ، فالرجل – أيًا كان ذلك الرجل – ابن بيئته والعلماء والأدباء وسائر المفكرين أقدر من غيرهم على تمثيل بيئاتهم بل لعلنا لا نكون مغالين إذا ماذهبنا إلى أن هؤلاء المفكرين هم صناع هذه البيئة ، هم لحمتها وسداها .

فما مدى تقدير المسلمين للعلم والعلماء ؟

وما المراحل التعليمية التى كان يمر بها طالب العلم ؟

وما المناهج التعليمية ؟

وما الهدف من التعليم ؟

ثم هل كان أبو حنيفة على ذكر بكل هذا ؟

وإذا سلمنا بأنه كان محيطا بالحركة التعليمية فى الشرق الإسلامى ، فما موقفه منها ؟

هل أسهم فى بناء ذلك الصرح الشامخ ؟ ومامدى إسهامه ؟

وما القيمة الفنية لتراثه العلمى ؟ وما أثر اختلاط العرب بغيرهم فى مجال التربية والتعليم ؟

وما الدور الذى قام به أبو حنيفة فى عملية مزج الثقافات ؟ تعال بنا نلق نظرة عامة على الحركة التعليمية منذ فجر الإسلام إلى عصر أبى حنيفة الدينورى .

التعليم : (١٤) .

تدل الاحاديث النبوية على أن النبى ﷺ كان يحث على طلب العلم ويعجب به فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين فيقول : « من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء » .

وقد كان اتصال العرب بالثقافة اليونانية فى بلاد الشام مما أيقظ فيهم روح المنافسة العلمية القوية لليونان ولم يمض إلا زمن قليل حتى أصبح العالم والشاعر من أصحاب المكانة العليا فى بلاد الإسلام .

وكان تعليم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الكلام ، فكانوا من هذه اللحظة يعلمون النطق بالشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) : فإذا بلغ الأطفال السادسة من العمر ألحق بغض أبناء الأرقاء وبعض البنات وجميع الأولاد عدا أبناء الأغنياء « الذين كان لهم معلمون خصوصيون » بمدرسة أولية ملحقة فى العادة بأحد المساجد وفى بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة فى الخلاء ، وكان التعليم فى هذه

---

(١٤) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ج ٢ من المجلد الرابع ص ١٦٧ – ١٧٢ .

المدارس عادة بالمجان فإن لم يكن فقد كان أجراً تافها يستطيع أداءه جميع الناس فقد كان المعلم يتناول من والد الطفل مالا يزيد على مليمين فى الأسبوع ، أما باقى النفقات فكان يؤديها المحسنون الخيرون ، وكان منهاج التعليم فى هذا النوع من المدارس أوليا ، يشمل ما يكفى لأداء الصلاة ويمكن الطفل من قراءة القرآن ثم حفظ القرآن نفسه ومعرفة ما فيه من أحكام الدين والقصص ومبادئ الأخلاق والشريعة الإسلامية وتركت الكتابة والحساب للتعليم الأعلى من هذه الدرجة .

وكان جزء صغير من القرآن يحفظ كل يوم عن ظهر قلب ثم يتلى بصوت عال ، وكان الهدف الذى يبغيه كل متعلّم أن يحفظ الكتاب كله عن ظهر قلب ، والذين يصلون إلى هذا الهدف يسمون بالحفاظ وتكون لهم فى البلاد مكانة عالية ، وكان من يتعلم الكتابة والرمى بالقوس والسباحة هو عندهم « الرجل الكامل » وكانت طريقة التعليم هى المذاكرة وأداته هى العصا وكان العقاب المعتاد هو الضرب بعصا من جريد على بطن القدم ، ومن أقوال هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين : « ولا تمر بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فإذا أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

وكان التعليم الأولى يهدف إلى تقويم الأخلاق والثانوى إلى معرفة العلم ، وكان المعلم يجلس مستندا إلى عمود أو جدار فى مسجد ويلقى دروسا فى التفسير والحديث والفقه والشريعة ، وحدث فى وقت غير معروف أن وضعت الحكومة هذه « المدارس الثانوية » تحت إشرافها وتكفلت بالإنفاق عليها وأضيف إلى المنهج الدينى الأساسى علم النحو وفقه اللغة والبلاغة والأدب والمنطق والعلوم الرياضية والفلك ، وكان علم النحو يلقى اهتماما خاصا لأن اللغة العربية كانت تعد أقرب اللغات إلى الكمال وكان استعمالها صحيحة أهم ما يمتاز به الرجل المثقف المهذب .

وكان التعليم فى هذه المدارس بالمجان وكان المعلمون والطلاب يتناولون مرتباتهم ونفقاتهم فى بعض الأحيان من الحكومة أو من أموال البر والصدقات ، وكان شأن المعلم فى هذه المدارس أعلى من شأن النصوص التى يعلدمها ماعدا نصوص القرآن ، فكان التلاميذ يدرسون الناس أكثر مما يدرسون الكتب ، وكان الطلاب يجوبون أطراف البلاد الإسلامية ليقابلوا معلما مشهوراً ، وكان على كل طالب علم يريد أن تعلو مكانته فى بلده أن يسافر إلى مكة أو بغداد أو دمشق أو القاهرة ليستمع فى واحد منها أو أكثر من واحدة إلى كبار العلماء ، وكذلك صنع أبو حنيفة الدينورى وسنذكر رحلاته وأثرها بعد قليل وما نشك فى أن أبا حنيفة قد أخذ حظه من التعليم منذ نعومة أظفاره .

ومن حيث إن أبا حنيفة كان من الأعيان . ومن حيث إن أسرته كانت غنية فنرجح أنه تلقى جزءا كبيرا من تعليمه فى منزله على هيئة (دروس خصوصية) ألم يتخذ له معملا فى منزله ؟ وإن كان ذلك لا يمنع أن يكون أبو حنيفة الدينورى قد اتصل أيضا بالتعليم العام .

فالمؤرخون يذكرون أن أبا حنيفة أكثر الأخذ من السكيت وابنه فقد تعلم عليهما إذا بل وتعلم الكثير . والمؤرخون يذكرون أيضا أن أبا يوسف يعقوب بن السكيت وأبوه كانا يؤدبان بمدينة السلام فى درب القنطرة صبيان العامة .

والمؤرخون يذكرون أيضا أن ابن السكيت ألقى دروسا خاصة لفريق من عليه القوم . وقد ذكرنا ذلك فى الفصل السابق (فى الصحف الأولى) .

فليس ما يمنع أن يكون أبو حنيفة الدينورى قد تردد على المدرسة التى كان يعلم بها السكيت وابنه ، كما أنه ليس ما يمنع أن يكون السكيت وابنه قد ترددا على أبى حنيفة فى منزله لإعطائه دروسا خاصة لا سيما وأن علوم اللغة والأدب والنحو من العلوم التى تفوّق فيها السكيت وابنه وأبو حنيفة الدينورى . ولا شك فى أن أبا حنيفة قد درس مناهج التعليم الأولى والثانوى التى أشرنا إليها سابقا دراسة متقنة واعية جعلته يؤلف فى المواد التى اشتملت عليها هذه المناهج مما يحدونا إلى القول بأنه يمثل أو يمكن أن يمثل الحركة التعليمية فى عهده .

ومهما يكن من شئ فقد كان من الأسباب التى يسّرت انتشار الأدب العربى فى بلاد الإسلام المختلفة ، وجعلته أدبا دوليا واحدا . أن لغة التعليم والأدب فى جميع البلاد الإسلامية مهما اختلفت أجناس أهلها هى اللغه العربية التى بلغت من سعة الانتشار مالم تبلغه اللغة اليونانية ، فلم يكن الزائر إذا دخل مدينة فى أىّ بلد من بلاد الإسلام يخالجه شك فى أنه يستطيع الاستماع إلى محاضرة علمية فى مسجد المدينة الأكبر فى أية ساعة من ساعات النهار تقريبا ، وكان الطالب الجائل فى كثير من الأحيان يجد فى المدرسة المأوى والطعام مدة من الزمان فضلا عن التعليم المجانى .

ولم تكن المدرسة تمنح درجات علمية وكل ما كان يبتغيه الطالب أن يحصل على شهادة فردية من الأستاذ الذى حضر عليه تثبت كفايته فيما درسه وكان الهدف الأعلى للطالب هو تحصيل الأدب بأوسع معانيه : العادات الحسنة ، وسمو الذوق ، وسرعة البديهة ، والكياسة والظرف ، والمعارف السهلة التى تكوّن فى مجموعها صفات الرجل الكامل المهذب وما نشك فى أن أبا حنيفة الدينورى كان على علم بهذا المنهج وبطريقته التربوية والهدف من التربية والتعليم . والقصة التالية خير شاهد على ذلك :

يقول (١٥) أبو حنيفة الدينوري :

وذكر عن الكلبي أنه قال : بعث إليّ سليمان بن عبد الملك فدخلت عليه وقد انتفخ سحرى (١٦) فسلمت عليه بالخلافة فردّ عليّ السلام ثم أومأ إليّ فجلست فسكت عني حتى إذا سكن جأشي قال لي : « يا كلبي ، إن ابني محمدا قرة عيني وثمرة قلبي وقد رجوت أن يبلغ الله به أفضل ما بلغ رجلا من أهل بيته وقد وليتك تأديبه فعلمه القرآن ورووه الأشعار فإن الشعر ديوان العرب ، وفهمه أيام الناس ، وخذه بعلم الفرائض وفهمه السنن ، ولا تفتر عنه ليلا ونهارا فإذا أخطأ بكلمة أو ذلّ بحرف أو هفا بقول فلا تؤنبه بين يدى جلسائه ولكن إذا خلا لك بمجلسك لئلا تمحكه (١٧) ، وإذا دخل عليه الناس للتسليم فخذه بألطافهم وإظهار برهم ، وإذا حيوه فليحيهم بأحسن منها ، وأطيبا لمن حضر بمائدتكما الطعام . وأحمله على طلاقة الوجه وحسن البشر وكظم الغيظ وقلة القذر والتثبيت فى المنطق والوفاء بالعهد وتنكب الكذب ، ولا يركبن فرسا محذوفا (١٩) ولا مهلوبا (٢٠) ، ولا يركبن بسرج صغير فتبدو أليتاه منه .

إن هذه الوثيقة التربوية على جانب كبير من الأهمية لأنها تلقى ضوءا على جانب من جوانب الحياة التعليمية فى عصر بنى أمية وحقيقة أن أبا حنيفة عباسى وليس بأموى ولكن متى عرف العلم هذه الحدود الزمانية ؟

إن الذى يهمنا هنا أن أبا حنيفة قد أحاط علماً بذلك . والعباسيون الذين نشأ فى ظلهم أبو حنيفة لم يهدموا هذا المنهج ولكن طوروه . وهذه الوثيقة فضلا عن ذلك تحدد رجلا والدا فى ابنه فيريد أن يصل ابنه إلى درجة فضلى . ولذا اختاروا له معلما خاصا ورسم له المنهج فعلّمه القرآن ... الخ ، ورسم له طريق التربية وهو المراقبة الدائمة فلا تفتر عنه ليلا ونهارا ، ورسم له أيضا طريق تصحيح الأخطاء فإذا أخطأ بكلمة أو زالّ بحرف أو هفا بقول فلا تؤنبه ... الخ — ثم لم يكتف بذلك المنهج النظرى بل لفته أيضا إلى تعويده على السلوك العملى المهذب وإذا دخل عليه الناس .. الخ .

والوثيقة علاوة على ذلك توحى ببعض الأخطاء التربوية وهى عدم دوام المراقبة ، وتوقيع العقوبة على التلميذ بين زملائه .

---

(١٥) الأخبار الطوال ص ٣٣٠ .

(١٦) السحر : الرئة وانتفخ سحره عدا أطواره وجاوز قدره .

(١٧) حتى لا تغضبه ، والمحك : اللجج .

(١٨) الفرس المحذوفة التى تحرك جنبيها فى مشيها .

(١٩) الفرس المهلوب التى تتابع الجرى .

ولما فتح المسلمون سمرقند (٧١٢م) أخذوا عن المسيحيين صناعة استخراج عجينة من الكتان وغيرها من النباتات ذات الألياف ثم تجفيف هذه العجينة بعد صنعها رقائق رفيعة ودخلت هذه الصناعة فى بلاد الشرق الأدنى واستعملت فيها بدل رقائق الجلد فى وقت لم يكن نبات البردى قد نسى فيه بعد ، وافتتح أول مصنع للورق فى بلاد الإسلام فى بغداد عام (٧٩٤م) على يد الفضل بن يحيى وزير هارون الرشيد ، ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ومنها انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا .

ويسرّ هذا الاختراع تأليف الكتب فى كل بلد انتقل إليه ، ويقول اليعقوبى إنه كان فى بغداد على أيامه ٨٩١م أكثر من مائة بائع كتب كانت حوانيتهم تستخدم فضلا عن بيع الكتب لنسخها وكتابة الخط المزخرف ندوات أدبية ، وكان كثير من الطلاب يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات وبيعها لتجار الكتب .

ولم يكن المؤلفون يحصلون على شئ من بيع كتبهم ، وكانوا يعتمدون فى معاشهم على وسائل للرزق أثبت من هذه وأقوى أساسا أو على هبات الأمراء أو الأثرياء . ذلك أن الأدب والفن كان يقصد بهما إشباع ذوق طبقة الأشراف من ذوى المال أو الحسب والنسب .

وكانت فى معظم المساجد مكتبات ، كما كان فى معظم المدن دور عامة للكتب تضم عددا كبيرا منها وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم ، وكان فى مدينة الموصل عام ٩٥٠م مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين يجد فيها من يؤمونها حاجاتهم من الكتب والورق . وبلغت فهارس الكتب التى اشتملت عليها مكتبة الرى العامة عشرة مجلدات . وكانت مكتبة البصرة تعطى رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب وقضى ياقوت الجغرافى فى مكتبتى مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التى يتطلبها كتابه معجم البلدان .

ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب فى بلد آخر من بلاد العالم - اللهم إلا فى بلاد الصين فى عهد منج هوانج - ما بلغه فى بلاد الإسلام فى القرن الثامن والتاسع [٢٠] والعاشر والحادى عشر فى هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية . ولم يكن العلماء فى آلاف المساجد المنتشرة فى البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة وكانت إيواناتها تردد أصداء علمهم وفصاحتهم ، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الدين يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة ، وكان بلاط مئات الأمراء يردد أصداء قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية ولم يكن أحد

(٢٠) القرن الذى عاش فيه أبو حنيفة الدينورى .

يجرؤ على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون وسرعان ما استوعب العرب ذوو البديهة الوقادة ثقافة الأمم التى فتحوا بلادها ، وبلغ من تسامح المغلوبين أن أصبح منهم الكثرة الغالبة من الشعراء والعلماء والفلاسفةالذين جعلوا اللغة العربية أغنى لغات العالم فى العلوم والآداب ومن هؤلاء العلماء صاحبنا أبو حنيفة الدينورى وإن كان العرب الأصليون أقلية صغيرة بين هؤلاء الفلاسفة والعلماء والشعراء وقد قوى علماء الإسلام فى ذلك العهد دعائم الأدب العربى الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو الذى جعل اللغة العربية لغة المنطق والقياس وبما وضعوه من المعاجم التى جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات فى دقة ونظام وموسوعاتهم ومختصراتهم التى جمعت كثيرا من أشتات العلوم والآداب وإن نظرة فاحصة على التراث الذى خلفه لنا أبو حنيفة الدينورى كفيلة بأن تدلنا على الدور الذى قام به وأن هذا الدور امتد حتى كاد يشمل كل مظاهر هذه الحركة فهوالفارسى النحوى اللغوى الموسوعى والأديب الناقد والمؤرخ ولولاها لخسر العالم ومؤلفاتهم فى النصوص والأدب والنقد والتاريخ ، ومهما يكن من شئ فلم يدخر المسلمون فى هذه القرون المجيدة من تاريخ الحياة الإسلامية جهدا فى العمل على إيجاد نهضة علمية مترامية الأطراف فلقد أدرك الخلفاء تأخر العرب فى العلم والفلسفة كما أدركوا ما خلفه اليونان من ثورة علمية غزيرة فى بلاد الشام .

لقد كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية قائمة فى الإسكندرية وبيروت وأنطاكيه وحران ونصيبين وجنديسابور لم يمسوها بأذى وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب فى الفلسفة والعلم معظمها فى ترجمته السريانية واستهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدى النساطرة المسيحيين واليهود وشجع الأمراء من بنى العباس هذه الحركة العلمية وأرسل المنصور والمأمون والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن وأرسلوهم فى بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقدمين يطلبون إليهم أن يمدوهم بالكتب اليونانية وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس فى الهندسة إلى أيدى المسلمين ، وأنشأ المأمون فى بغداد عام ٨٣٠م بيت الحكمة وهو مجمع علمى ومرصد فلكى ومكتبة عامة وأنفق فى إنشائه مائتى ألف دينار وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال وأكبر الظن أن أبا حنيفة كان على صلة ببيت الحكمة لأنه يجد فيه إرضاء لميوله العلمية وميدانا لتجاربه .

هذا وقد دامت هذه الأعمال أعمال الترجمة المخصبة من (٧٥٠ — ٩٠٠م) وفي هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية واليونانية والفهلوية والسنسكريتية .

وإذا صح ما تقدم كان لنا أن نخلص منه إلى أن أبا حنيفة الدينورى تلقى علومه الأولى في منزله على يد معلمين خاصين به ودليلنا على ذلك أنه كان يتخذ لنفسه وفي منزله بالدينور معملا خاصا لتجاربه وهذا دليل المقدرة المالية وأن أسرته كانت من الأسر الغنية لا سيما وأن ابن كثير يقول[٢١] عنه إنه من الأعيان .

وإن المنهج التعليمى الذى درسه أبو حنيفة هو نفس المنهج الذى كان معمولا به في المدارس آن ذاك .

وأن الرحلة كانت إحدى وسائل التعليم عنده . وأنه أحد العلماء الذين جعلوا اللغة العربية من أغنى لغات العالم في العلوم والآداب .

ونحن نستبعد عدم اتصال أبى حنيفة ببيت الحكمة لأن الذى يعقل أن يتصل أبو حنيفة بهذا البيت إرضاء لميوله العلمية .

هذا وقد أخذ أبو حنيفة دروسه عن البصريين والكوفيين وتتلمذ في فقه اللغة على والد النحوى الكوفى ابن السكيت وعلى ابن السكيت نفسه ودرس معارف كثيرة وكان متفننا في علوم النحو واللغة والهندسة والهيئة والحساب ثقة فيما يرويه ويمليه[٢٢] .

وأن أبرز مؤرخ روى عنه أبو حنيفة هو الهيثم بن عدى وكان راوية نقل كثيرا من كلام العرب ، واعتمد أبو حنيفة أيضا على الشعبى أبو عمرو وعامر بن شراحيل والشعبى تابعى جليل القدر كوفى وافر العلم عظيم الدراية كثير الرواية .

وقد روى أن ابن عمر رضى الله عنه مرّ بالشعبى يوما وهو يحدّث الناس بالمغازى فقال ابن عمر : « شهدت القوم وأنه لأعلم بها منى »

وقال الزهرى : « العلماء أربعة : ابن المسيب بالمدينة ، والشعبى بالكوفة ، والحسن بالبصرة ، ومكحول بالشام »

ورواية أبى حنيفة الدينورى عن الأصمعى أبى سعيد عبد الملك بن قريب الباهلى رواية كثيرة في كتاب الأخبار الطوال وكان الأصمعى إماما في الأخبار والنوادر والملح والغرائب كما كان صاحب لغة ونحو وهو من أهل السطرة وقدم بغداد في أيام هارون

---

(٢١) البداية والنهاية في التاريخ جـ١١ صـ ٧٢ مطبعة السعادة .

(٢٢) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة « ز »

الرشيد ، ويروى عن إسحاق الموصلى أنه قال : « لم أر الأصمعى يدّعى شيئا من العلم فيكون أحد أعلم به منه » .

وكما روى أبو حنيفة عن المؤرخين السابقين له فقد نقل عنه كثير من المؤرخين الذين جاءوا من بعده ومنهم من اعتمد عليه اعتمادا كبيرا كما فعل الفارقى أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق فى تاريخه حين يتكلم عن الحروب والوقائع التى كانت بين الفرس والروم وبين هؤلاء والمسلمين أو عن تاريخ ديار بكر وديار ربيعة ومافارقين .

ولكى تزداد صورة أبى حنيفة وضوحا ولكى نستطيع تصوره أكثر من ذى قبل لابد من أن نلقى ضوءا على العصر العباسى فى حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية وبذلك نستطيع أن نتخيل أبا حنيفة الدينورى رجلا يعيش فى مجتمع ، وبذلك نستطيع أيضا أن نرى هل تفاعل أبو حنيفة مع مجتمعه أم هرب من ذلك المجتمع وفضل أن يستنفد جهده وطاقته فى أبحاثه وتجاربه .

الحالة السياسية

عاش أبو حنيفة فى عصر بنى العباس أيام كانت الدولة العباسية فى أوج مجدها وازدهارها كانت دولة واسعة الأرجاء تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلنطى وتشمل بلاد السند والشمال الغربى من الهند ، وبلوخستان وأفغانستان والتركستان وفارس وأرض الجزيرة وأرمينية والشام وفلسطين وقبرص وكريت « قريطش » ومصر وشمالى افريقيا[٢٣] .

وكانت بيزنطة قد انتهزت فرصة الثورة العباسية لاستعادة بعض الأقاليم التى فتحها العرب فى آسيا الصغرى فسيرّ المهدى جيشا بقيادة ابنه هارون لاسترداد هذه البلاد وأخرج هارون الروم منها وردهم إلى القسطنطينية وهدد تلك المدينة نفسها تهديدا اضطر الإمبراطورة ايرينه أن تعقد معه صلحا تعهدت بمقتضاه أن تؤدى للخليفة جزية سنوية مقدارها ٧٠٫٠٠٠ دينار .[٢٤]

ولكن هذا البنيان الشامخ والعز الراسخ والمجد المؤثل لم يلبث أن دب إليه دبيب الفناء حينما تصارعت الجبهات الداخلية واشتعلت بينها نيران الفتنة فتحكمت الأهواء وتنازعت الأحزاب السلطة واحتدم الخلاف بين هذه الأحزاب .

---

(٢٣) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ٢ من المجلد تلرابع عصر الإيمان ص ٨٨ ترجمة محمد بدران ط جامعة الدول العربية.

(٢٤) المرجع السابق ص٩٠ .

ويمكننا أن نحدد الأطراف المتنازعة والأحزاب المتصارعة فى ثلاثة أحزاب رئيسية هى : الحزب الفارسى - الحزب العربى - الحزب التركى .

وإليك كلمة عن كل حزب من هذه الأحزاب :

الحزب الفارسى :

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ودعوتهم وحفظ العباسيون لهم هذه العارفة فاتخذوا منهم القادة والقضاة والولاة والوزراء والكتاب والحجاب ورؤساء الشرطة إلا أن الفرس كانوا يأملون أكثر مما نالوا فى ظل بنى العباس من مكانة ونفوذ فحاكوا الدسائس وأحكموا المؤامرات والمكايد وفطن الخلفاء العباسيون فى صدر دولتهم إلى ما يحيك الكائدون والمتنمرون فبطشوا بهم جبارين فكان قتل أبى مسلم الخراسانى وأبى سلمة الخلال وكانت نكبة البرامكة على ما هو متعالم معروف .

ثم دب دبيب النزاع بين العرب والفرس مرة أخرى فى تلك الفتنة التى كانت بين الأمين ومن ورائه العرب والمأمون ومن ورائه الفرس وانتهت بانتصار هؤلاء يمثلهم المأمون على خصومهم ممثلين فى قتل الأمين .

ولكن الفرس لم يقنعوا فكانت ثورة بابك الخرمى [٢٥] وكانت مناهضة للمأمون وقاوم المأمون طغيان العنصر الفارسى بانتقاله من مرو الى بغداد ليرضى العرب ثم بتدبيره فيما يقال قتل الفضل بن سهل ليتخلص من نفوذه وليحد من غلواء الفرس بعد أن استأثروا بشئون الخلافة وأمور الدولة وكادوا يحجزونه عن شعبه وسلطانه .

ثم كانت انتصاراته الباهرة عليهم حتى إذا شعر بدنوا أجله استعدى أخاه المعتصم وألح عليه أن يداوم على حرب البابكية بصرامة وعزم ومهما يكن من شيء فقد استتب الأمر للمأمون بعد وقت عصيب فأمسك بصولجان الخلافة فى قوة واقتدار واتجه إلى التنظيم الداخلى والبناء فى شتى أنحاء ملكه وأصبحت بغداد فى عصره موئل العلماء ومجلى مظاهر الحضارة الزاهرة وكان لشخصية المأمون وأخلاقه أثر كبير فيما كسبته البلاد من إصلاح وازدهار . فقد كان رجلا عاقلا كريم الخلق محباً للعلوم والآداب ، مشجعا للعلماء والأدباء ، مما سبب تلك النهضة الكبرى فى ضروب المعرفة وفى علو شأن الفكر ، وقيام كثير من الحركات الفكرية مثل حركة المعتزلة التى آمن بها المأمون وشجعها ، وقرب علماءها ، ومكّن لهم فى بلاطه ودولته وعاونهم على معارضيهم من أهل السنة معاونة أدبية ومادية ، فشجع طرقهم فى المناظرة والجدل ودعا إلى احترام آرائهم . كذلك قويت

---

(٢٥) تاريخ الأمم الإسلامية للأستاذ الخضرى ص١٩٦ ، والأخبار الطوال ص٤٠٢ .

حركة الترجمة من اللغات المختلفة الى اللغة العربية فأكسبتها ثروة كبيرة ووسعت آفاق الفكر الإسلامى وكانت لها آثارها البعيدة المدى فى التراث الفكرى العربى .

الحزب العربى :

تحدثنا فيما سبق عن الحزب الفارسى وبينا كيف اعتمدت عليه الدولة العباسية وجعلته ركيزة أساسية استعانت بها حتى قوى، ساعدها واشتد ووثقت فيه ، وكيف أن الفرس حاولوا استغلال هذه الثقة أسوأ استغلال الأمر الذى دفع بالخلفاء الأولين من بنى العباس إلى أن يبطشوا بكبار قوادهم من الفرس .

وقع تصادم إذاً بين العباسيين وأنصارهم من الفرس فكان طبيعياً أن تستيقظ الهاشمية والعلوية من جديد وأن يصحو العملاق العربى محاولا استرجاع مجده واستعادة حقه المسلوب .

وبطبيعة الحال كانت هذه الحركات المعادية للدولة تعمل فى الخفاء أول الأمر وتتحين الفرص لتثأر لنفسها وتسترجع حقها ثم وجدت هذه الحركات الفرصة المواتية بعد موت الرشيد ، وحين دب النزاع بين العرب والفرس مرة ثانية ممثلا فى الصراع على السلطة بين الأمين والمأمون ومنذ ذلك الحين بدأت سلسلة من الاضطرابات الأهلية بين الهاشميين والعلويين أبلى فيها قواد المأمون بلاء حسنا كما ظهرت فى كثير من الفتن التى كانت تثور هنا وهناك فى أنحاء مختلفة مثل فتنه ابن أبى السرايا فى الكوفة وقد انتهت باستيلاء هرثمة ابن أعين عليها وكان هرثمة من الرجال الأقوياء الذين اعتمد عليهم المأمون فى تثبيت دعائم الدولة . فقتل أبو السرايا زعيم الفتنة وصلب ببغداد سنة ٢٥٠هـ ، وكفتنة نصر بن شبث الثائر العربى الذى غلب على شمال العراق والشام . وكانت دعوته قائمة على أساس الانتصار للعرب من تغلب الفرس على الخلافة وكان يقول : إنما حاربتهم – أى بنى العباس – محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم .[٢٦]

والذى يظهر من بين تلك الفتن جميعا ويميز ذلك العصر إنما هو فتن الطالبيين وثورتهم فكان لهم فى مكة إمام هو محمد بن جعفر الصادق تجمعوا حوله وانتصروا له ، وقام فى اليمن بعض ولد عقيل بن أبى طالب ، وقد تعرضت دولة المأمون لضرباتهم فى كل مكان وحفت بهم الأخطار فلم تترك ثورتهم مكانا إلا استعرت فيه نارها وامتد لهيبها إلى بغداد عاصمة الخلافة امتداده إلى البصرة والكوفة وبعض العواصم الأخرى . واجه المأمون كل تلك الأحداث مجتمعة أو متتابعة فما لان لها ولا تخاذل بل واجهها جميع

---

(٢٦) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص٢١٧ .

وعـالجها بالقوة حينا وبالحكمة والسياسة حينا آخر. وكان من حسن سياسته أن اختار لولاية عهده على الرضا بن موسى بن جعفر الصادق - ثامن أئمة الشيعة الاثنى عشر وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الثياب الخضر زى العلويين وذلك ليهدئ ثوارتهم المندلعة ويكسبهم إلى جانبه فأغضب هذا جماعة أهل السنة واعتبره السعودى المؤرخ من زّلات المأمون وثار لذلك جماعة من أهل بغداد وبايعوا بالخلافة إبراهيم بن المهدى عم المأمون.

وعندما تخلص المأمون من العلويين وخفت وطأة ثوارتهم أقلع عما قد ذهب إليه فعاد إلى السواء لباس آبائه وأجداده.(٢٧)

الحزب التركي :

ذكرنا سابقا أن المأمون حين شعر بدنو أجله استدعى أخاه المعتصم وألح عليه أن يداوم على حرب البابكية بصرامة وحزم.

ولـكـن المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) وقد رأى منافسة الفرس ومعارضة العرب ولى وجهه نحو عنصر آخر هو الأتراك فاتجه إلى بلاد الترك يستكثر ويؤلف منهم جيشا قويا وأسكنهم بغداد حتى ضاقت بهم وزاحموا الناس فى دورهم وتعرضوا للنساء فكان فى كل يوم ربما قتل منهم جماعة وضج الناس بالشكوى من الأتراك لتوغلهم فى السلطان وعبثهم ببغداد فبنى لهم المعتصم مدينة سامرا سنة ٢٢١هـ وقد سجل أبو حنيفة الدينورى هذه الأحداث وسجل أحداثا غيرها فى كتابه الأخبار الطوال ولكن ختم كتابه بالمعتصم.

ومهما يكن من شىء فقد كان المعتصم قائدا شجاعا جريئا تم فى عهده كثير من الانتصارات العظيمة ومنها انتصاره على إمبراطور الروم وفتح عمّورية الذى خلده أبو تمام فى قصيدته المشهورة :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

وانتصاره على بابك الخرمى وأسره وصلبه، وسار المعتصم على المنهج الذى سار فيه سلفه المأمون فى تشجيع العلم والأدب وتقريب المشتغلين بهما، كما استمر فى تعضيده للمعتزلة واتخذت سياسته فى مؤزارته لهم طابع القوة مما دعا كثيرا من أهل السنة ومن ورائهم العامة إلى التذمر ففى عهده حدثت محنة خلق القرآن المشهورة والتى راح ضحيتها كثيرون وتعرض للاضطهاد والتعذيب آخرون من علماء أهل السنة وكان بينهم الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف.(٢٨)

---

(٢٧) الفخرى ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢٨) ابن قتيبة للدكتور محمد زغلول سلام ص٧.

وكان المعتصم رجل حرب ولم يكن له دهاء المأمون ولا حكمته فوجه اهتمامه إلى الجيش فعززه واجتلب له الجند الأتراك لما عرف عنهم من القوة وشدة المراس فى الحرب ولكن لم تلبث السياسة حتى أدت إلى غلبة الأتراك على الجيش ثم على مراتب الدولة فأصبحت القيادة فى أيديهم .

وكان التنافس بينهم شديدا فاضطربت الأمور واختلت ومهد ذلك للانحلال والضعف الذى طرأ على الخلافة من بعد والذى بدأ بقتل المتوكل ثم بسلسلة من الاضطهاد والعزل والقتل تعرض لها الخلفاء بعده .

وكان من نتائج ضعف السلطة المركزية فى بغداد - والممثلة فى الخلافة - أن قلت هيبتها وتقلص نفوذها على الأطراف مما أطمع كثيرا من الأمراء والحكام فى الاستقلال والخروج على الخلافة ومن هؤلاء آل طاهر والسامنيون والصفاريون فى الشرق والطولونيون فى مصر .

ولم تطل خلافة المعتصم أكثر من تسع سنوات فتوفى سنة ٢٢٧هـ وتولى بعده الواثق وفى عصر الواثق (٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ) اشتد نفوذ القواد الأتراك وثارو على الدولة أعراب بنى سليم قرب المدينة وبنو هلال وبنو نمير باليمامة .

وكثرت مصادرة الأموال فى عهده حتى إنه صادر أموال جماعة من الكتّاب وجاء بعده المتوكل (٢٣٢ - ٢٣٧هـ) وبدأ عهده بتغيير السياسة التى كان عليها أسلافه المأمون والمعتصم والواثق وهى الأخذ بيد المعتزلة فأمر الناس بترك النظر والمباحثة والجدال والتسليم بالحديث والسنة . ونكب محمد بن عبد الملك الزيات كما أبعد القاضى ابن أبى دؤاد .

وكان المتوكل شديد الانحراف عن آل على (كرم الله وجهه) وفعل من حرث قبر الحسين « عليه السلام » ما فعل[٢٩] وكانت بينه وبين ابنه المنتصر مباينة وقد شعر المتوكل فى حكمه بثقل الأتراك فأراد أن ينتقم منهم وأن يرجع إلى العرب يحتمى بهم ويثير عصبيتهم فعزم على الإقامة بدمشق فتوجس القواد خيفة .

فاتفق المنتصر مع جماعة من الأتراك على قتله وقتل وزيره الفتح بن خاقان فهجموا عليه وهو يشرب فخبطوه بالسيوف فقتلوه وقتلوا وزيره الفتح[٣٠] بن خاقان معه وكان ذلك أول اجترائهم[٣]

---

(٢٩) تاريخ أبى الفداء المؤيد جـ٢ ص٣٨ .

(٣٠) المرجع السابق ٢١٠ .

(٣١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ٢ ص١٥٣ .

وكان المتوكل أول خليفة من بنى العباس يُقتل على تلك الصورة بأيدى الخدم فأصبح الخلفاء ألعوبة فى أيديهم ذاك لأنه عند موت المنتصر اجتمع أكابر المماليك وقالوا : متى ولينا أحداً من ولد المتوكل طلبنا وأهلكنا فأجمعوا على مبايعة المستعين وقالوا : هو ابن مولانا المعتصم فإذا ما بايعناه لم تخرج الخلافة من ولد المعتصم وبايعوا المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢هـ)[٣٢] وهكذا استولى الأتراك على المملكة وأصبح الخليفة فى يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه ، حكى الفخرى قال : لما جلس المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥) على سرير الخلافة قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش ؟ وكم يبقى فى الخلافة ؟» وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته . فقالوا له : فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ قال : « مهما أراد الأتراك » وثار الأتراك بالمعتز وضربوه بالدبابيس ومذقوا قميصه وأقاموه فى الشمس فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، ثم جعلوه فى بيت وسدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه انه خلع نفسه[٣٣] وهكذا لاقى الخلفاء العنت من خدمتهم الأتراك حبسوا وسملت عيونهم ونهبت دورهم وصودروا وقتلوا تقتيلا وطرحت جثثهم على قارعات الطرقات وضربت عليهم الذلة حتى سألوا الناس الصدقات .[٣٤]

ومنذ ذلك الوقت بدأ الخلفاء يجنون ثمار غرس المعتصم ، فتسلط القواد على الخلفاء وأمسكوا بالزمام وولّوا من شاءوا وعزلوا أو قتلوا من لم يخضع لسلطانهم حتى تعاقب على الخلافة فى خمسة عشر عاما ستة خلفاء هم المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى وابن المعتز والمعتمد وصارت الخلافة لعبة فى أيدى الأتراك .

وفى عهد المعتمد (٢٥٦ + ٢٧٩هـ) بدأ الخلفاء يستعيدون السلطة التى تفلتت من أيديهم وذلك بفضل الموفق أخى المعتمد الخليفة لما أبداه من حزم وشدة بأس فقد تولى بنفسه إمارة الجيوش وحارب الخارجين فانتصر على صاحب الزنج وأخمد الثورة التى أشعلها فى الجنوب وهدد بها الدولة زمنا طويلا .

ولكن الأمور لم تستقر للدولة العباسية بل أخذت الأطماع تتهددها من الشرق والغرب فالطاهريون والسامنيون والصفاريون يتنافسون للاستقلال بالشرق ، والروم يغيرون على الثغور والطولونيون ينتهزون الفرص فيستقلون ويكونون دولة بمصر ويستولون على بعض أجزاء أخرى يضمونها اليهم .

---

(٣٢) الفخرى ٢١٢ .

(٣٣) الكامل لابن الأثير جـ٢ ص٧٧ والفخرى ص٢١٥ .

(٣٤) أبو على الفارسى للدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى ص٣١ط نهضة مصر ١٩٥٨ .

الحياة الاجتماعية

إذا نحن نظرنا نظرة عامة لنقارن بين الحياة الأموية والحياة العباسية وجدنا الأولى أقل تكلفا وأكثر سذاجة وأدل على الذوق العربي البدوي السهل وأكبر ظاهرة نراها أن سيطرة العنصر العربي في العهد الأموي صبغته هذه الصبغة وجعلته إذا أراد الترف والنعيم تخير من ترف الأمم ونعيمها ولم يأخذه كما هو بحذافيره ثم هو يعدل فيه حسب ذوقه وميوله ويجعله شيئا آخر عربياً لا فارسيا صرفا ولا روميا صرفا . رأوا الموائد الفارسية وأدخل الخلفاء والأمراء على موائدهم نوعا من التحسين ولكن لم يكن العربي البدوي إذا دخل على معاوية أو عبد الملك يشعر بأنه فى جو آخر بعيد كل البعد عما يعرفه .

أما العباسيون فلم يكن شأنهم كذلك . لئن كان الأمويين ينقلون إليهم بعض العادات مع صبغها بصبغتهم فالعباسيون كانوا هم الذين ينتقلون بحذافيرهم إلى العادات الجديدة والتقاليد الجديدة .

وأفرط قوم من الناس فى هذا العصر إلى اللذائذ يتحرونها ويفتنون فى الاستمتاع بها ، وكلما ملّوا نوعا ابتكروا أنواعا . وإذا أخذوا يهدءون نشط الدعاة يستحثونهم على الإغراق فيها والأخذ بأكبر حظ منها ونحن إذا تتبعنا تاريخ الدولة العباسية فى هذا الباب وجدنا أن الدولة كانت تسير بخطوات متدرجة إلى هذه الغاية .

هذا وقد كانت المملكة الإسلامية فى هذا العصر مكونة من أمم مختلفة فقد كان من أجزائها المغرب حينا - ومصر والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر وكانت هذه الأمم تختلف فيما بينها كل الاختلاف وكلها خضعت للحكم الإسلامى وتكوّن منها جميعا مملكة واحدة وكان لكل أمة من هذه الأمم مزايا وصفات عرفت بها .

وعدد الجاحظ مزايا كل أمة فى عصره فقال : ميزة سكان الصين الصناعة فهم أصحاب السبك والصباغة والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسج ، واليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل وميزتهم الحكم والآداب ، والعرب لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا أطباء ولا حسابا ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية . ولا طلبوا المعاش من ألسنة المكاييل ورءوس الموازين ولا عرفوا الدوانيق والقراريط فحين حملوا جدهم ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الأثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار لكل محسوس وإحكام شأن

المناقب والمثالب بلغوا فى ذلك الغاية وميزة آل ساسان فى الملك والسياسة والأتراك فى الحروب . وليس فى الأرض كل تركى كما وصفنا كما أنه ليس كل يونانى حكيما ولا كل صينى فى غاية من حذق ولا كل أعرابى شاعرا قائفا ولكن هذه الأمور فى هؤلاء أعم وأتم وإليهم أظهر وأكثر .(٣٥)

وقال فى موضع آخر فى الكلام على الزنج « وهم أطبع الخلق على الرقص والضرب بالطبل على الايقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم وليس فى الأرض أحسن حلوقا منهم »(٣٦)

واشتهر الهند بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة .(٣٧)

كذلك كانوا يختلفون فى الأهواء والميول السياسية يوضح ذلك ما رواه ابن قتيبة : قال محمد بن على بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة – حين اختارهم للدعوة وأراد توجيههم – أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة على بن أبى طالب ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان عداوة لنا راسخة وجهلا متراكما ، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليها أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وصدورا سليمة وقلوبا فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النّحل ولم تشغلها ديانة ولم يتقدم فيها فساد ، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحازب الأتباع بالسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر ولم يزالوا يدالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويؤملون الدول وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكره .(٣٨)

كذلك كان فى كل أمة من هذه الأمم طوائف مختلفة لها شعائر وعادات خاصة فمنهم يهود حافظوا على تقاليدهم وحرموا الزواج إلا منهم ، ونصارى تمسكوا بشعائرهم وعاداتهم ، ومجوس يقيمون هياكلهم ويوقدون نيرانهم كما نجد خلافات فى الآداب ففرس لهم أدب هو نتيجة تاريخهم وحياتهم الاجتماعية ، وعراقيون لهم آداب قديمة ورثوها مما

---

(٣٥) رسائل الجاحظ ص٤١ وما بعدها .

(٣٦) المرجع السابق ص٧٣ .

(٣٧) المرجع السابق ص٦٣ .

(٣٨) عيون الأخبار جـ١ ص٢٠٤ .

اعتورهم من الدول ومصريون لهم أدب كذلك وأدب هندى وأدب شامى .وأدب يونانى وروماني .

دع عنك الاختلافات الإقليمية : فأمة تعيش فى جبل وأخرى فى سهل وجو بارد شديد البرودة وحار شديد الحرارة وأمة ساحلية وأمة صحراوية وما يستتبع ذلك من خلاف بين الأمم فى العادات والطبيعة والمزاج كل هذه الاختلافات التى لم نذكر منها إلا أمثلة قليلة كانت تكون المملكة الإسلامية فى العصر العباسى الأول الذى ظهر فيه أبو حنيفة ، وكانت ساحتها وعاء تصهر فيه هذه المواد المختلفة وتتفاعل فيها كما تتفاعل الأجسام المختلفة كماويا(٣٩) عقول الناس من الأمم المختلفة .

ومن هنا نرى أن المجتمع البغدادى فى عصر بنى العباس كان يجمع خليطا من العناصر المختلفة الأجناس المتباينة كان فيه العرب والفرس والسريان والترك والروم ولم يكن العنصر العربى سائدا وإن كان يحتفظ لنفسه بمراكز القيادة والتوجيه وكانت الطبقة العليا كلها تقريبا منه ولم يكن يشاركه فى ذلك العنصر الفارسى الذى بدأ يتغلب ويأخذ لنفسه مكانة يزاحم فيها العرب على القيادة فكان منهم وزراء وقادة وأمراء وحكام كما كان العرب وكان منهم علماء وحكماء وفقهاء وأدباء وشعراء .

وظلت المنافسة بين العرب والفرس تأخذ طريقها إلى الحياة العباسية منذ بدء الدولة العباسية ومقتل أبى مسلم الخراسانى على يد الخليفة العباسى ، ثم ظهرت فى صورة عنيفة أخرى فى نكبة البرامكة على يد هارون الرشيد ولم يقف تغلغل الفرس بل ظلوا يناضلون وكان نفوذهم فى عصر المأمون كبيرا وقد روى طيقور أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال : يا أمير المؤمنين انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان قال : أكثرت علىّ يا أخا الشام والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، أما قضاعة فإنها تنتظر السيفانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله عز وجل منذ بعث نبيه ﷺ من مضر ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاربا أعزب فعل الله بك .(٤٠)

ولم يكن الأتراك أقل نشاطا من العرب والفرس ولكن نشاطهم كان متجها إلى جوانب

---

(٣٩) ضحى الإسلام لأحمد أمين جـ١ ص٩٥٨ .

(٤٠) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية صـ٢٢٦ .

بعينها فكان اهتمامهم مركزا فى الجيش وفى القصر. وكان القواد منهم يلعبون بمصاير الخلفاء وخدم القصر يأتمرون على أصحابه.

أما الجند فكانوا يثيرون الشغب بين العامة بما يرتكبون من السلب والنهب. وكان إلى جانب تلك الطبقة العليا والوسطى الطبقات الدنيا مكونة من جماعات الرقيق والموالى وأبنائهم وممن كانوا خليطا نصفهم من الفرس أو الترك أو اليونان وكانوا يسمون الهجناء أو أبناء الإماء والسرارى قال فيهم أحد الشعراء :

إن أولاد السرارى كثروا يـــا رب فينـــا
رب أدخـــــلنى بلادا لا أرى فيهـــا هجينـــا[٤١]

وكانت كل جماعة من الأجناس المختلفة تمتهن مهنة برعت فيها، فاليونان عرفوا بالحكم والآداب، والعرب لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا أطباء، ولا حسابا ولا أصحاب فلاحة فلم تكن لهم مهنة ولم يشتغلوا بالزراعة لخوفهم من صغار الجزية بل عرفوا بالاشتغال بقول الشعر وبلاغة المنطق وقيافة الأثر وحفظ النسب والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع.

وعرف الأتراك بالحروب، وعرف الهنود بالحساب والنجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة.[٤٢]

وقد تزاوجت هذه الخبرات كلها والتقت عقائد العرب والفرس واليونان والهنود وامتزجت عاداتهم وتقاليدهم وكوّنت منها نسيجا مميزا تلوّنت عناصره واتحدت فى اتساق ونظام واحد جمع بينها الذوق الإسلامى.[٣]

واشتهرت بغداد بالترف الزائد والغنى وزخرف الحضارة وتغلغل هذا فى حياة الناس وكانت لحياة الترف دواعيها المختلفة فالخيرات المتدفقة على العاصمة من الأقاليم المختلفة والتجارة التى تغدو وتروح وتخترق قوافلها مختلف الأصقاع من الصين والهند شرقا إلى بلاد الروم والمغرب غربا وتمخر سفنها عباب البحر حاملة ما أفتن كل بلد وأبدع فأتى به إلى بغداد لتزين به قصور الخلفاء والأمراء وسادة القوم.

وكان من مظاهر ذلك الترف كثرة الجوارى والغلمان وهم من لوازم القصور ومجالس اللهو والسمر لذلك كثرت الجوارى فى بيوت الناس واختلفت أعدادهن وميزاتهن من

---

(٤١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية صـ٢٢٦.
(٤٢) تاريخ العرب لفيليب حتى صـ٤١٠.
(٤٣) ضحى الإسلام جـ١ صـ٧٢.

جمال وأدب ، وغناء بتفاوت غنى أصحابهن ، وقد اعتنى بالجوارى فى ذلك العصر فعلمن وثقفن ودربن على الغناء واشتهرت من بينهن كثيرات بقول الشعر والغناء .

واختلفت جنسيات الجوارى فكان منهن هنديات وسنديات ومكيات ومدنيات وسودانيات وحبشيات وتركيات ورموميات وأرمنيات وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين بألوان الحمام .(٤٤)

وقد أثرت الجوارى فى حياة المجتمع البغدادى لما كُنّ يتمتعن به من حرية وثقافة وظرف .

وعمرت بغداد بقصورها الفاخرة الزاخرة المزدانة بضروب الزينة وألوان الرياش النفيس وفنون المتع .

وعمرت مجالس الشراب فى القصور والحانات بالنشاط فكان يؤمها الشعراء ينشدون الشعر الرقيق والأدباء يتنادرون ويتبادلون الأحاديث الطلية وكان يسمع فيها الغناء والموسيقى .

واشتهرت أهل بغداد بالظرف والنظافة والملبس الجميل الفاخر من أنواع الخز والديباج ، وعرفوا بالرقة والكياسة فقد هذبت الحضارة سلوكهم وانتشر بينهم الذوق الجمالى وعشقوا الفن فى صوره المختلفة وفى اللباس والسكن وفى الصوت وتعشقوه فى ألوان الزهور وعبيرها وفى العطور والطيب .

وأحبوا اللهو فى الأعياد والمناسبات ، وشارك المسلمون النصارى واليهود فى أعيادهم ومطارحتهم فكان الخلفاء يمتعون أنفسهم بزينة جواريهم فى أيام الشعانين ، وكان الشعراء والناس يطربون ويشربون ويفرحون فى أعياد النيروز فيخرجون إلى الرياض ومطارح اللهو والأديرة ويقضون أوقاتهم فى القصف والشرب وسماع الألحان .

وشرب الناس الخمر وأسرفوا فيها وكثرت الحانات فى بغداد كما كانت الأديرة تعتقها وتبيعها واختلف الناس حول الخمر وأنواعها فأحل بعضهم الخمر وحرّمه آخرون وألف ابن قتيبة كتابه فى « الأشربة » يصوّر ذلك الصراع بين محلّيه ومحرّميه ، وصار القول فى الخمر ومجالسها من موضوعات الشعر المعروفة التى يحبها الناس ويرددونها والتى يتكثر فيها الشعراء ويتأنقون ، ويبدو أن الطبقة التى عبّت من نعيم الحضارة وزخرفها هى الطبقة العليا طبقة الحكام من خلفاء وأمراء وقواد ومن لفّ لفهم أو تعلق بهم وجماعة قليلة من الطبقة الوسطى من التجار وكبار الموظفين وأصحاب الحرف والمِهن المربحة ، أما الطبقة الدنيا فكانت تعيش فى بغداد على الحرمان وإن أصابت بعض ما يتفضل بإنفاقه الأثرياء

---

(٤٤) ضحى الإسلام جـ١ صـ٨٧ .

والمقتدرون ، وكان عامة بغداد على درجة كبيرة من الحساسية السياسية والدينية فكثيرا ما ثاروا على الحكام لحيدتهم السياسية والدينية .

وقد ناصر عوام بغداد الأمين على المأمون ونصبوا إبراهيم المهدى وثاروا مع الحنابلة لمقاومة موجات الإباحية والإلحاد .

والغريب فى الأمر أن الدين الذى تنتمى إليه الغالبية العظمى من الشعب يفتح أمام هذا الشعب منافذ شريفة لإشباع الغريزة الجنسية .

فالمسلم[٤٥] لا يحترم العزوبة ولا يخطر بباله أن يمتنع عن إشباع الغريزة الجنسية ولا يرى أن هذا الامتناع حالة طبيعية أو مثالية . وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء وحدود الزواج فى الإسلام أوسع منها فى كثير من الأديان وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ولهذا قل البغاء فى أيام النبى ﷺ والخلفاء الراشدين . ولكن الانهماك فى إشباع الغريزة فى أيام بنى العباس جعل للفتيات الراقصات شأنا كبيرا فى حياة الرجال حتى أكثرهم أزواجا .

وتبعا لذلك عنيت كتب الطب فى هذا العصر ببيان الأدوية المقوية للباه .

وأبصر الهادى امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما على الفور . ولكن اللواط والسحاق رغم ما فرض عليهما من عقاب صارم أخذا ينتشران انتشارا سريعا حتى كانا كثيرى الحدوث فى بلاط هارون الرشيد ولم يمض على زمن الهادى إلا بضعة أعوام ذلك أن الرجل الذى حالت التقاليد بينه وبين النساء قبل الزواج وملهن بعده عمد إلى العلاقات الجنسية الشاذة .

والمرأة التى حجبها أهلها عن جميع الرجال زّلت هى الأخرى فسقطت فيما سقط فيه الرجل ، وكان اتصال العرب بالفرس من أسباب انتشار الحجاب واللواط فى البلاد الإسلامية .

وكان خلفاء بنى العباس يجهرون بتقواهم ولكن كانت لهم قصور حَوت فى حجراتهم الخاصة جدرانا مزينة بالصور ، وقد استأجر المعتصم فنانين أغلب الظن أنهم مسيحيون ليصوّروا على جداران قصره فى سامرا مناظر صيد ورجال دين وبنات عاريات يرقصن ، وأجاز المتوكل وهو الذى كان يضطهد الملحدين للمصورين من أهل بيزنطة أن يضيفوا إلى هذه المظلات مظلما آخر يمثل رهبانا مسيحيين وكنيسة مسيحية[٤٦]

---

(٤٥) قصة الحضارة تأليف ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع صـ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٤٦) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ من المجلد الرابع – تحت عنوان الفن صـ٢٥١ .

ونتقل من هذه الجوانب الاجتماعية لنتحدث عن جانب آخر له أهميته الكبرى فى حياة الشعوب ويبالغ البعض فى أهمية هذا الجانب حتى ليجعله مفتاح الحضارة الإنسانية بما فيها من فكر وفن . ونحن وإن كنا لا نقر هذا البعض على كل ماذهب إليه إلا أننا لا يمكن أن نغفل أثر الجانب الاقتصادى فى حياة الفرد والجماعة . وأياً ما كان الأمر فإن الحضارة تنشأ من عاملين هما الأرض والعمل .(٤٧)

الحالة الاقتصادية (٤٨)

تنشأ الحضارة من موارد الأرض الطبيعية تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته فمن وراء المظاهر الخارجية لحاشية الملوك والقصور والهياكل والمدارس والآداب والترف والفنون ، ومن تحتها يقف الإنسان أحد العاملين الأساسيين فى الحضارة .

أولئك العمال الصابرون القلقون رغم صبرهم الذين تركب على ظهورهم المتمايلة المتأرجحة حضارة العالم .

وكان هؤلاء كلهم جادين عاملين فى بلاد الإسلام ولم يجر الخلفاء فى ميدان الاقتصاد على سننهم المألوفة من ترك الشئون الاقتصادية للمشروعات الحرة بل كانت الحكومة تشرف على قنوات الرى الرئيسية وتتعهدها بالصيانة والتطهير فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة وماء دجله إلى أرض فارس وشقت قناة كبيرة بين النهرين التوأمين عند بغداد .

وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات وتعمير القرى المخربة والضياع التى هجرها سكانها .

وكانت الصناعة لا تزال فى مرحلة العمل اليدوى يقوم بها الأهلون فى البيوت والحوانيت وينتظمون فى طوائف .

وكان العرب على جانب كبير من المهارة الآلية الفنية وشاهد ذلك أن الساعة المائية التى أهداها هارون الرشيد إلى شرلمان قد صنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة باب يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة ثم ينسحبون ويغلقون الباب وكان الإنتاج بطيئا ولكن

---

(٤٧) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع صـ١٠٦ – ١١٥ .

(٤٨) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع صـ١٠٦ – ١١٥ .

الصانع كان فى وسعه أن يظهر مهارته فيما ينتجه من تحف وأدوات كاملة الصنع وكاد يجعل من كل صناعة فنا .

وكانت أهم وسائل المواصلات هى ظهور الإبل والخيل والبغال والرجال .

وكانت التجارة الداخلية واسعة تنتقل فى الأنهار والقنوات . وقد فكر هارون الرشيد فى حفر قناة تربط البحر المتوسط والأحمر فى موضع قناة السويس وخططها ولكن يحيى البرمكى لم يشجعه على حفرها .

وكان من المزايا الاقتصادية التى يستمتع بها غرب آسيا أن حكومة واحدة تسيطر على هذه الأقاليم .

فقد كان من آثار هذه الوحدة أن ألغيت فى داخلها جميع العوائد الجمركية وغيرها من العوائق التجارية . هذا إلى أن الوحدة فى اللغة والدين قد زادت نقل السلع تيسيرا وقد استخدم العباسيون ثروة الدولة المتزايدة فى مناصرة الفنون والآداب والعلوم والفلسفة حتى ازدهرت وأثمرت أينع الثمار .(٤٩)

والآن نريد أن نرى صدى هذه الأحداث عند أبى حنيفة الدينورى .

حين شبّ أبو حنيفة رأى الصراع الحزبى بين العرب والعجم على أشده بل وبين العرب أنفسهم كما ذكرنا آنفا رأى أبو حنيفة فتنا كقطع الليل المظلم فآثر الهروب من هذا المجتمع المتناحر ولكن إلى أين ؟

إلى محراب العلم ورياض الأدب ومعامل التحليل ، وفى ميدان الثقافة والفن استنفد أبوحنيفة طاقته ولم يشأ أن يبددها على مسرح الحزبية البغيض وهو يرى الضربات الوحشية تكال لمن خالف سلطان الدولة أول الأمر ثم ترتد هذه الضربات آخر الأمر إلى صدر الخليفة وهيبة الخلافة .

وأبو حنيفة مؤرخ سياسى وأديب سياسى هواه مع الشيعة وحين شبّ رأى بعينى رأسه ما صنع المتوكل بقبر الحسين عليه السلام ، وإذا سلمنا بما يقوله علماء النفس والتربية من أن الطفل يتأثر برغم صغر سنه بما يدور حوله من أحداث ولاسيما طفلا موهوبا كأبى حنيفة الذى فتح عينيه على حركة عنيفة للشيعة فى زمن المأمون .

إذا سلّمنا بهذا وبعنف الأحداث بل الاضطرابات السياسية أيام أبى حنيفة ، وإذا سلمنا أيضا بأن أباحنيفة نشأ نشأة مترفة .

---

(٤٩) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع عصر الإيمان صـ٨٨ ترجمع محمد بدران جامعة الدول العربية .

إذا سلّمنا بكل ما سبق كان لنا أن نرى إعراض أبى حنيفة عن متابعة تسجيل الأحداث السياسية بعد المعتصم أمرا طبيعيا .

فأغزر الناس عقلا من إذا نظرت — عيناه أمرا غدا بالغير معتبرا
وأحزم الناس من لومات من ظمأ — لايقرب الورد حتى يعرف الصدرا

ومن هذا الموقف ندرك أن أبا حنيفة لم يكن عصبى المزاج ولا حاد الطبع ، لم تكن الثورة طبيعية فى نفسه بل الهدوء والمسالمة وعلاج المشكلات الاجتماعية عن طريق التربية والتعليم ولهذا أكبّ على الدرس والتحصيل ولم يشأ أن يغامر بنفسه وسط هذا الخضم المتلاطم بالكيد والفتن والدسائس ثم نرى للشيخ أبى حنيفة موقفا سلبيا أيضا من موجة الإباحية والمجون التى اجتاحت المجتمع العربى فى عصره .

فلم يشارك فيها كما يبدو لنا من سيرته فهو التقى الورع باتفاق المؤرخين الذين كتبوا عنه .

بل إن أبا حنيفة ليبالغ فى مقته لهذه الإباحية حين يرى أن مصدرها الوحيد هو المرأة ولا شىء غير المرأة استمع إليه يقول[٥٠] عن المرأة « ومن النساء السخافة وكفران النعم » ويقول[٥١] بعد ذلك « فلما نظرت الفرس إلى العرب وقد حدقوا بهم وبثوا الغارات فى أرضهم قالوا فيما بينهم : إنما أتينا من تملك النساء علينا »

والحق أن الأدباء اغتبطوا لما أنتجه الاختلاط من شعر رقيق وفن بديع ولكن رجال الدين والخلق ساءهم ما نتج عن ذلك من لهو خليع واستهتار شنيع ، وبينما أخذ الأولون يحثون الناس على الاستمتاع بهذه الحياة وجنى ثمارها أخذ الآخرون ينعون على الناس لهوهم وفجورهم ثم يفرون من هذا كله إلى الزهد فى الحياة والهرب من لذائذها وأكبر الظن أن صاحبنا أبا حنيفة الدينورى كان من هذا القبيل .

غير أنه مما يدعو للشك فى أبى حنيفة أن نراه يؤلف كتابا فى (الباه) وقد ذكر ذلك بعض الرواة وهذا الاتجاه فى التأليف لا يتناسب مع ما عرف عن الرجل من ورع وتقوى فإن صح ما يقوله الرواة كان لنا أن نحمل اتجاه أبى حنيفة إلى هذا الموضوع على أنه اتجاه علمى بحت ، ولا عيب على أبى حنيفة فى أن يسلك مسلكا علميا أياً كان هذا المسلك مادام الغرض شريفا والغاية نبيلة .

وتنصف إن أنت اعتقدت أن الحياة كانت ذات صنوف وألوان ، وأن المدنية العباسية كانت ككل المدنيات مسجدا وحانة ، وقارئا وزامرا ، ومتهجدا يرتقب الفجر
العباسية كانت ككل المدنيات مسجد وحانة ، وقارئ وزامر ، ومتهجد يرتقب الفجر

(٥٠) الأخبار الطوال صـ٩٩ .

(٥١) الأخبار الطوال صـ١١٩ .

ومصطبحا فى الحدائق، وساهرا فى تهجد وساهرا فى طرب، وتخمة من غنى ومسكنة من إملاق . وشكا فى دين وإيمانا فى يقين ، كل هذا كان فى العصر العباسى وكل هذا كان كثيرا .[٥٢]

وتنصف أيضا إن أنت اعتقدت أن أبا حنيفة الدينورى كان عابدا فى مسجد وقارئا فى مكتبة ومتهجدا يرتقب الفجر وساهرا فى تهجد وغنياً غير فقير ومؤمنا فى غير شك .

وإن كان ذلك لا يمنع أن يكون لأبى حنيفة بعض الزلات ولعله فى إحداها ألف كتاب الباه إن صحت نسبته إليه وإن سلمنا جدلا بأن الغرض من تأليف الكتاب لم يكن علميا بحتا .

على أن باحثا علميا متشيعا كأبى حنيفة الدينورى خلف لنا تراثا علميا ضخما لم يكن لديه فيما يبدو متسع من الوقت للهو والعبث .

ولم تكن لدى هذا الشيعى الذى شاهد بعينى رأسه محنة الشيعة فى أيامه ولا شك أنها كدرت نفسه .

لم تكن لدى هذا الشيعى قوة نفسية تدفعه للهو .

أليس هو القائل : « إن طلب اللهو مما يبعث عليه الفراغ ورخاء البال »[٥٣]

وننتقل الآن إلى الحياة الثقافية والأدبية لنرى الدور الذى قام به أبو حنيفة فى دعم هذه الحياة ودفعها إلى الأمام خطوات موفقة .

العلوم اللغوية والأدبية :

شهد العصر نهضة أدبية شملت جميع جوانب الأدب كالأخبار الأدبية والشعر والكتابة والنقد .

فمن اهتم بالأخبار الأدبية والنقد معا محمد بن سلام الجمحى الناقد الراوية (توفى سنة ٢٣٢هـ) وكان عالما بالشعر والأخبار ، واشتهر كتابه طبقات فحول الشعراء ، وكان من أول ما ألف فى موضوعه وقد قسم فيه الشعراء فى الجاهلية والإسلام إلى طبقات وتعرض للشعر وأصوله وأثر البيئة فيه كما تعرض لمقاييس الحكم على الشعراء .وصلتها بالقلة والكثرة فى إنتاجهم ، واشتهر من الشعراء جماعة من الفحول المبرزين كأبى تمام حبيب بن أوس الطائى وأبى عبادة البحترى وابن الرومى وابن المعتز .

وكان لكل شاعر من هؤلاء لونه واتجاهه الموضوعى والفنى فقد عرف أبو تمام بميله للصنعة كما عرف بإغراقه فى المعانى إلا أنه مع ذلك كان يتمتع بشاعرية غنية أضفت على

---

(٥٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين جـ١ صـ١٦٧ .

(٥٣) المخصص لابن سيده – جـ١٠ – صـ١٨٠ .

قصائده رونقا وجمالا وقوة أسر ، ويقابل أبا تمام ويعاكسه فى اتجاهه البحترى فقد عرف برقة شعره وحسين ديباحته وجرس ألفاظه ويمائه ورونقه حتى إن كثيرا من النقاد مثل الآمدى فضّله على أبى تمام وكان لا يميل فى معانيه إلى العمق والتعقيد وأعمال المنطق بل كان يقول للمنطقيين :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه

وانفرد ابن الرومى بطابع وحده ونسيج لم يشاركه فيه غيره ، فقد عرف بتوليد المعانى وتنويعها وطول النفس واستخدامه للألفاظ فى صور حية ناطقة وأما ابن المعتز فهو الشاعر الأمير ذو التشبيهات الرائعة والألوان الزاهية البراقة الناطقة بالنعمة والجمال الفنى .

وقد غلبت على الشعر فى هذا العصر الاتجاهات الجديدة فى المعانى والأساليب والتى بدأت تظهر على لسان بشار وأبى نواس وطبقته كمسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك الخليع وكان من شأن هذه الاتجاهات أن تثير جدالا طويلا بين المحافظين من اللغويين ومن جرى على نهجهم وبين تلك الطبقة من الشعراء ومن سار على مذهبهم من الكتاب ومن وافقهم من النقاد والأدباء لهذا كان القرن الثالث وخاصة النصف الأخير منه بدءاً لحركة قوية فى النقد كان من أعلامها المبرزين الجاحظ وأبو حنيفة الدينورى وابن قتيبة .

هذا وقد سبقت هذا العصر حركة بعث لغوية قادها جماعة من اللغويين النابهين فاستشهر بدراسات النحو من البصريين إمامهم سيبويه ، ومن الكوفيين الكسائى وتبعهم فى رواية اللغة أبو عبيدة والأصمعى والفراء والأخفش وأبو حاتم السجستانى وابن السكيت وابن الأعرابى وأبو زيد الأنصارى وأبو عبيد القاسم بن سلام والمازنى وثعلب والمبرّد وأبو حنيفة الدينورى صاحبنا .

وكان لكل عالم من هؤلاء اتجاهه الذى غلب على كتبه وصبغها بصبغة خاصة فأبو عبيدة راوية لغة وأخبار وكتابه المشهور به والمطبوع « نقائض جرير والفرزدق » شاهد صدق على ذلك كما أن له كتاب « مجاز القرآن » فى تفسير القرآن تفسيرا لغويا .

والأصمعى عالم لغة مدقق وصف مذهبه « بالتنقية اللغوية »(٥٤)

ولا يخلو كتاب من كتب المتأخرين فى اللغة وتفسير الشعر من نقل عنه أو إشارة إليه كما اشتهر أمثال أبى عبيد القاسم بن سلام وأبى حاتم السجستانى بالتأليف فى غريب القرآن وغريب الحديث ، ويروى عن أبى عبيدة أنه ألّف بضعة وعشرين كتابا فى القرآن والحديث وغريبهما .(٥٥)

---

(٥٤) العربية ليوهان فك .

(٥٥) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ٢ .

واهتم المازنى بالتصريف وقيل إنه أول من دوّن علم التصريف وكان متصلا بالنحو وعرف ابن السكيت بأنه كان آخر نحاة الكوفة ومن كتبه المعروفة « إصلاح المنطق » وتُهذيب الألفاظ .

واتجه بعض أولئك اللغويين إلى الأدب فجمعوا النوادر الأدبية كنوادر أبى زيد أو جمعوا النوادر الشعرية كما فعل القرشى فى الجمهرة أو شرحوا الدواوين كما فعل ثعلب فى شرح ديوان زهير أو ألفوا بين الأدب واللغة فى كتب جامعة - كما فعل المبرد فى « الكامل فى اللغة والأدب »(٥٦)

كان هؤلاء العلماء فرقا كل فرقة يغلب عليها الميل إلى ناحية من نواحى هذه الثقافة فالخليل بن أحمد وأبو زيد الأنصارى والأصمى وأبو حنيفة الدينورى وأمثالهم غلب عليهم مفردات اللغة وجمعها والبدء بتبويبها .

والمفضل الضبى وخلف الأحمر وحمّاد الراوية وغيرهم غلب عليهم جمع القصائد والأشعار والأمثال وما إلى ذلك . وقد شارك أبو حنيفة الدينورى فى هذا الميدان .

ومحمد بن السحاق والواقدى وأبو مخنف والهيثم بن عدى والمدائى وأبو حنيفة الدينورى مالوا إلى تدوين الروايات عن الأحداث التاريخية كفتوح الشام وفتوح العراق ووقعة الجمل ووقعة صفين ونحو ذلك وفى أخبار النبى ﷺ وكتبه إلى الملوك والمغازى وأسماء المنافقين والوفود . وفى أخبار الأوائل من عاد الأولى والآخرة .

وقد عرض أبو حنيفة الدينورى فى كتابه الأخبار الطوال لكل ذلك .

هذا وقد عنيت الثقافة العربية فى الإسلام بما كان فيه من أحداث فسيرة رسول الله ﷺ وأخبار الخلفاء والغزوات وما تخللها من شعر وأدب وقصص وما كان يفد على الخلفاء والولاة من شعراء وما كانوا يقولون وما تكون من مذاهب دينية من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة وما كان لذلك من أدب وما كان من أحزاب سياسية وانحياز الخطباء إلى هذه الأحزاب كل ذلك كان جزءاً من الثقافة العربية .

وكتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى يلقى أضواء سواطع على هذه الأحداث وكل هذا كان ثقافة عربية يتثقف بها من كانوا عربا فى أصلهم ومن كانوا فرسا مثل أبى حنيفة الدينورى أو رومانيين أو يونانيين وعلى الجملة من كانوا فى المملكة الإسلامية وخاصة من أسلموا وتعلموا وما كان ينبغ النابغ إلا إذا عرفها وأحاط بطرف منها فكانت بذلك عنصرا من عناصر الثقافة العامة فى ذلك العصر .

---

(٥٦) المرجع السابق .

ونرى أن كتاب الأخبار الطوال كان مرآة لتلك الثقافة العامة .

هجم العلماء فى هذا العصر من عرب وموال على هذه الثقافة يبحثون عنها من نواحيها المتعددة ويرحلون إلى البادية أحيانا وإلى الأمصار أحيانا ويسمعون للرجال والنساء والصبيان والخاصة والعامة[٥٧] وقد أدلى أبو حنيفة الدينورى بدلوه بين الدلاء وأسهم بنصيب وافر فى هذا الميدان . وكان أهم عمل لهؤلاء تحويل الثقافة العربية من ثقافة لسانية شفهية فى الغالب إلى ثقافة كتابية تحريرية .

ذلك أن عقول أهل الشرق الأدنى فى ذلك الوقت تتأثر بما يصل إليها عن طريق الأذن شأنهم فى هذا شأن جميع الناس قبل اختراع الطباعة وكان الأدب عند معظم المسلمين لا يعدو أن يكون قصيدة تنشد أو قصة تروى .

وكانت القصائد تكتب لكى تقرأ بصوت عال أو تغنى ، وكان كل شخص فى بلاد الإسلام من الخليفة إلى الفلاح يطرب لسماعها وقلما كان هناك شخص لا يقرض الشعر .[٢]

وكانت هذه الخطوة الأولى ليتناول العلماء بعض ما جمع ينقحونه ويميزون خطأه من صوابه ويضعون له القواعد .

أما صاحبنا أبو حنيفة الدينورى فقد جمع بين رواية اللغة والأخبار وتفسير القرآن والنحو والأدب وسنبين منهجه فى كل على حدة ونبرز الصبغة التى اصطبغ بها .

وننتقل الآن إلى الحياة الثقافية لنرى الدور الذى قام به أبو حنيفة الدينورى فى دعم هذه الحياة ودفعها إلى الأمام خطوات موفقة بالرغم مما فقد من تراثه العلمى والأدبى الذى لم يصل إلينا منه إلا النذر اليسير إذا قيس بذلك التراث الحافل الذى خلفه لنا ولكن ما وصل إلينا من تراث أبى حنيفة كاف لإلقاء الضوء على الجوانب الثقافية فى حياة أبى حنيفة الدينورى ذلك أن ثقافة الرجل المثقف تعرف بعلامات كثيرة .ولو لم تكن لها بالفكر والإطلاع صلة ظاهرة وندر أن يظهر من الإنسان أثر محسوس إلا كان فيه علامة من العلامات على نصيبه من ثقافة زمانه .

على أن هذه العلامات تتفاوت فى الدلالة كما تتفاوت فى القيمة وأدلها وأقومها فيما نرى كلام الإنسان ورأيه فى كلام غيره وفى الشخصيات التاريخية لأن الكلام صورة نفسية وقدرة عقلية فى وقت واحد فهو يكشف عن نفس قائله كما يكشف عن قدرة

---

(٥٧) ضحى الإسلام جـ١ صـ٣٣٠ .

(٥٨) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع صـ٢٢٥ .

عقلية ومبلغ عرفانه بتصوير خلجات قلبه وخطرات ذهنه فتقديره لكلامه وكلام الناس ولعظماء التاريخ ميزان صادق لتقدير الرجل فى جملة أحواله وأفعاله وعلامة على الثقافة الروحية والفكرية قلما تضارعها علامة أخرى ، ولأبى حنيفة رأى فى نحو خمسة عشر عظيما من عظماء التاريخ لخصناه فى فصل الاتجاهات الأدبية عند العرب ، ولأبى حنيفة بالرغم مما فقد من أدبه وضاع من نقده له أدب ونقد يدلان على ملكة صاحبهما فيغنى ما وصل إلينا عما لم يصل كما تغنى السنبلة الواحدة عن الجرين الحاقل حيث تكون المسألة مسألة الدلالة على المنبت والنبات كما يقول الأستاذ العقاد[٥٩] .

والقصة التالية تدلنا على أن ثقافة أبى حنيفة الدينورى كانت ثقافة عميقة دقيقة تنفى الزيف ، وأن معلوماته قيمة وصادقة لا لبس فيها ولا التواءبل هى تصحح للناس ما عساهم يقعون فيه من تحريف أو تبديل ولم تمنعه آداب المجاملة من أن يرد الحق إلى نصابه[٦٠] .

حكى ابن رواحة البرجردى قال :

زعموا أن أبا العباس المبرد ورد الدينور زائرا لعيسى بن ماهان ، فأول ما دخل عليه وقضى سلامه قال له : أيها الشيخ ما الشاة المجثّمة التى نهى النبى ﷺ عن أكل لحمها ؟ قال : هى الشاة القليلة اللبن مثل اللجبة .

فقال : هل من شاهد ؟

قال : نعم قول الراجز ؟

لم يبق من آل الجعيد نسمة   إلا عنيز لجبة مجثمة

فإذا بالحاجب يستأذن لأبى حنيفة فأذن له . فلما دخل قال له عيسى بن ماهان : ما الشاة المجثمة التى نهى النبى ﷺ عن أكلها ؟

فقال : هى التى جثمت على ركباتها ونحرت من قفاها .

فقال : كيف تقول ؟ وهذا شيخ العراق أبو العباس المبرد يقول هى مثل اللجبة وهى قليلة اللبن وأنشد البيت .

فقال أبو حنيفة : أيمان البيعة تلزم أبا حنيفة إن كان هذا الشيخ سمع هذا التفسير وإن كان البيت إلا لساعته هذه .

فقال أبو العباس المبرد : صدق الشيخ أبو حنيفة أنفت أن أرد عليك من العراق وذكرى ما قد شاع فأول ما تسألنى عنه لا أعرفه فاستحسن منه هذا الإقرار . وترك

---

(٥٩) عبقرية الصديق ص ١٦٩ — ١٧١ ط دار المعارف ١٩٦٥ .

(٦٠) أنباه الرواة للقفطى — ط دار الكتب ١٩٥٠ جـ١ — صـ٤١ .

البهت : نعم لقد كان أبو حنيفة الدينورى علما بحق فى شتى العلوم والمعارف حباه الله بعقلية علمية واسعة استوعبت معارف كثيرة وانفرد بها عن علماء تلك الفينه وما تلاها ممن كان لهم شأن فى تاريخ الأدب العربى وعلوم اللغة .

فلقد كان أبو حنيفة الدينورى عالما فى كثير من فروع العلم وكان دائما مجددا وظل مع كل هذا مبدعا دون تكرار من أسلافه ومعاصريه وآن لنا أن نشارك أبا حيان التوحيدى وغيره من العلماء الناقدين آراءهم فى أبى حنيفة إذ يرون فيه واحدا من المع ممثلى هذا العصر الزاهر فى تاريخ الأدب العربى (٦١) .

الثقافة العربية :

ونقصد بها هنا ما كان الإنسان يشعر بأنه محتاج إلى معرفته لأداء دوره فى الأمة الإسلامية عامة والمجتمع العربى خاصة وكان يطلق على ذلك فى الماضى اسم « الأدب » فلقد اختلف الأدب باختلاف الأوساط والطبقات ولم يبق على حاله فى جميع الأمكنة والأزمنة .

فكان من الطبيعى أن يتغير ويتبدل ومن المنتظر أن تساير الثقافة الشخصية الفردية أو العامة فتزيد بزيادته وتنقص بنقصانه فتقدمت هذه الثقافة الفردية وازدهرت ازدهارا باهرا ثم بلغت أوجها وأخذت فى الانحطاط لأسباب – منها الاجتماعية والسياسية ومنها المادية والمعنوية لا نود الإفاضة فيها هنا ولكن الدلائل تدلنا على أن رأس العقبة كان قريبا من أواخر القرن الثالث .

فإن اعتبرنا أن الأدب ليس مما يلهمه الله بل أنه يتطلب جهودا مستمرة ويترتب على دراسات طويلة ليكتسب الإنسان نصيبه من المعارف قلنا إن الأدب معدوم فى الجاهلية لأن الشاعر فى ذلك العصر والخطيب فى ذلك العهد والكاهن والقائف وغيرهم ممن يمارس مهنا متخصصة لا يتعلمون تعلما ولا يتفقهون بل يتكلمون على مواهبهم ويعلمون بما يفيدهم الاحتكاك والمعاشرة .

إن ضربنا صفحا عن الاعتقاد العام بأن الشاعر والخطيب إنما ينطقان بما يضع تابعهما على طرف لسانهما ومع ذلك فإننا نتميز شيئا من الأدب فى فصاحتهما ومعرفتهما باللغة العربية وقد علمنا أن مثل هذه المعرفة ظلت فى تاريخ الأدب العربى قاعدة الثقافة الشخصية وأساسها .

فلما جاء الإسلام صرف المسلمون همتهم إلى الدين والسياسة والحرب حينا فخالطوا الفرس والروم وغيرهم من الأمم المتحضرة المثقفة وزالوا عما كانوا عليه من الانفراد النسبى

---

(٦١) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة ط .

فلاحظوا أنهم مع تغلبهم على أعدائهم ومع سيادتهم فى ميادين الحرب وتفوقهم فى أمور الدين أصبحوا فى خطر شديد بسبب مزاحمة منافسيهم وأعدائهم فى كل ما يتعلق بأسباب الحضارة المدنية إلى أن صار الخطر أشد والتوعد أمس لما جعلت الشعوبية تفتخر بما لها من طول المجد فى الازمان الغابرة وتخبر بأنها تكاد تسترجعه فى الأيام الحاضرة وترد العرب إلى حالتهم الداثرة .

بيد أن العلوم الإسلامية نفسها أخذت تنمو وتتفنن وتتميز بعضها عن بعض . هنالك شرع العرب وغير العرب من المؤمنين فى جمع ما للقبائل العربية من عناصر ثقافية فالتمسوا مفردات اللغة وتراكيبها والتقطوا ما كانت العشائر تتداوله من أسجاع وأشعار وخطب وأخبار .

ثم رأوا من المفيد أن ينقلوا بعض الآثار الأجنبية – فارسية كانت أو يونانية إلى اللغة العربية وأن يضيفوا إلى ذلك أخباراً وأساطير وقصصا متفرقة الأصول متعددة المصادر فلم يألوا جهدا فى تكوين ثقافة لها خصائص انسانية أكثر منها عربية أو إسلامية ويرجع الفضل فى جميع ذلك إلى أهل القرن الثامن الذين لهم اليد البيضاء فى إنشاء الأدب ، وأحداثه على مختلف أحواله .

فلما استفتح القرن الثالث أصبح المسلمون ولديهم مادة وافرة متراكمة تتفاوت قيمها ولا تأتلف جواهرها لا يحتمل ثقلها أحفظ الرجال ولا يسعها أضخم الأسفار حتى أنه أضحى من الضرورى أن يفصل بين العلوم والمعارف التى لا يحتاج إليها إلا العالم المتخصص فى فن من فنون العلم وبين مالا يسوغ للشريف أن يجله ولا يجوز للنبيل أن يهمله أو بعبارة أخرى – أمسى من اللازم فى ذلك العصر الذى كان فيه التعليم حرا غير رسمى والتدريس فرديا غير اجتماعى أن تقوم شخصيات بارزة بسعة علمها وعقلها وأدباء مشاركون ملمون بجميع أطراف الأدب بتأليف كتب معدة للأوساط المثقفة ويأخذوا لذلك « من كل شئ بطرف ولكن ليس كل إنسان بقادر على القيام بمثل هذا الاصطفاء والاختيار لأنه يتطلب ذوقا سليما وروحا انتقادية ممتازة وتبصرا بحوائج الناس رائعا فهذه الشروط نادر توافرها فى رجل واحد حتى فى ذلك الزمان البعيد .

وإذا كان المفكرون المسلمون قد شرعوا فى القرن الثانى فى جمع ما للقبائل العربية من عناصر ثقافية فالتمسوا مفردات اللغة وتراكيبها والتقطوا ما كانت العشائر تتداوله من أسجاع وأشعار وخطب وأخبار .

إذا كان علماء القرن الثانى قد شرعوا فى ذلك فإن علماء القرن الثالث قد تابعوا هذه الحركة وقد شارك أبو حنيفة الدينورى فى ذلك كما يدلنا عليه مطالعاتنا للأخبار

الطوال ولما نقله ابن سيده فى المخصص عن أبى حنيفة وما نقله أبو القاسم السهيلى فى الروض الأنف عن أبى حنيفة وما فعله ضياء الدين بن البيطار فى كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية عن أبى حنيفة أيضا . وهذه الحركة الثقافية الضخمة تحتاج إلى أكثر من عبقرى .أنها تحتاج إلى جهود علمية وأدبية متضافرة تحتاج إلى قوى متكاتفة حتى تحقق الغاية المرجوة وتصل إلى ما تريد ومن هنا لم نجد أبا حنيفة يقف وحده بل شاركه فى دفع الثقافة أفذاذ آخرون ولا يضير أبا حنيفة أن اشترك معه فى تدعيم الثقافة العربية العامة آخرون . بل إن هذا الاشتراك ظاهرة اجتماعية طبيعية .

فليست الثقافة العربية العامة ملكا لأبى حنيفة الدينورى وحده بل هو أحد مؤسسيها ويكفيه هذا فخرا ودليلا على رحابة صدره وتسامحه واعتزازه بالعربية والإسلام بالرغم من فارسيته .

كما أن هذه الثقافة ليست ملكا لغيره وما ينبغى أن يدعى ملكيتها أحد . إنها ميراث أمة شرفت حضارتها وغرّبت .

ومهما يكن من شئ فإننا نجد بجوار أبى حنيفة علما آخر أسهم فى تدعيم الثقافة العربية العامة وكان له فى ذلك جهود موفقة ونشاط علمى محمود ومن منا ينكر أثر الجاحظ فى هذا المضمار ؟

إن الجاحظ قد شرع أيضا فى ذلك العمل الانتقائى ووفق إلى هذه المهمة العويصة وكتب له النجاح فى تعريف الثقافة العربية ووضع قواعدها ورسم أظهر معالمها وإن لم يتسن له أن يفرض آراه على جميع الأمة وإن لم يبلغ تلك الغاية فلأنه كان منفردا فى مجتمعه بسبب تفوقه على معظم أترابه(٦٢) فانتخب من أشعار العرب وخطبهم ماله عنده - قيمة مطلقة وأورد فى بعض مؤلفاته الروايات والأخبار اللازم حفظها واقتبس ما يوافق أذواق - معاصريه ويسد أمسّ حوائجهم مما كان رائجا شائعا بين أهل طبقته من الثقافات الفارسية واليونانية والهندية ومن وراء ذلك كله لم يقتصر الجاحظ على « تعلم الأدب » بل أبى إلا أن يكون أيضا « معلم العقل » فلقد توارث العرب هذا الحكم المشهور .

كان الجاحظ يدين بالاعتزال ولا ينكر أحد ماللمعتزلة من عميق التأثير فى الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى برغم قصر مدتهم وجهود الاوساط الرجعية فى اخمال ذكرهم فغلب عليهم أهل السنة فى منتصف القرن الثالث .

---

(٦٢) إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين/مقال ابن قتيبة والثقافة العربية للاستاذ شارل بلا صـ٣١ .

ويرى الاستاذ شارل بلا أن هذا الانتقال أضرّ بالثقافة العربية وأنه كان حركة رجعية فإن تناولنا العلوم الدينية التى يدخل نصيب منها فيما يجب على المسلم أن يعرفه ووضعناها جانبا لاحظنا أن العناصر النقلية – غير الدينية والعقلية التى تكون الأدب فى القرن الثالث صادرة عن ثلاثة مصادر الأولى منها بطبيعة الأمر الأدب العربى محضا أى اللغة والشعر والسجع والخطب ثم الروايات التاريخية والأنساب والمعارف العامة ثم الثانية منها الأدب الفارسى والهندى بما فيه من الأخبار وسير الملوك وغير ذلك من الأساطير والحكم ثم الثالثة منها منتجات الفكر اليونانى فكأن الجاحظ حاول أن يؤلف بين تلك الثقافات الثلاث مقدما الثقافة العربية على أختيها واضعا كل واحدة منها موضعها أما ابن قتيبة فبدلا من أن يستغلها ويستثمرها ليقدم إلى قرائه مجموعا منسجما مقبولا تراه يغض الطرف عن اليونان ويصرح بأنه لا يحتاج إلى المنطق ولعل هذا هو ما أوغر عليه صدر الأستاذ شارل بلا .

من هنا نرى أنه كان للكتاب أثر كبير فى نشر نوع من الثقافة خاص . ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم وكانت معارفهم ودائرة إطلاعهم واسعة شاملة ولا سيما كتاب الدواوين فهم بحكم مناصبهم مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيا والتاريخ طرفا لأن كثيرا من مواقفهم يحتاج إلى ذلك وقد تعرض للخليفة أو الوالى مسائل من هذا القبيل ويضطر الكتاب إزاءها أن يكونوا ملمين بجميع ذلك إذ هم الذين يعرضون على الخلفاء ما يرد عليهم ويحررون ما يصدر منهم ويتضح ذلك إذا نحن قارنّا بين معارف الكاتب ومعرفة المحدّث أو الفقيه فى ذلك العصر فالمحدث أو الفقيه معارفه محدودة ودائرة حول فنه فإن توسع فى شئ فإنما يتوسع فى المسائل التى تعد وسائل لفنه كاللغة والنحو والصرف . فأما الكاتب فدائرته أوسع من ذلك وحسبنا دليلا على هذا ما ألف للكتاب من الكتب .

فأول ما نعرفه من ذلك « أدب الكاتب لابن قتيبة » فقد حمله على تأليفه كما ذكر فى مقدمته « أنه رأى طائفة من الكتاب قد شغفت بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة وعرفت الكون والفساد وسمع الكيان والكيفية والكمية والجوهر والعرض ورأس الخط النقطة والنقطة لا تنقسم ... الخ » .

وأهملوا النظر فى اللغة وما إليها فوضع لهم كتابه فى ذلك فهو خاص بما يلزم الكاتب من لغة ونحو وصرف وإملاء وألف بعده أبو بكر الصولى كتابه أدب الكتاب « فغمز ابن قتيبة بالتقصير فى كتابه وتوسع هو فى مسائل لم يتعرض لها ابن قتيبة فتكلم فى حسن

الخط وقبحه والدواة والقلم وما إليها وترتيب الكتاب وطيه والدعاء فى المكاتبات – والدواوين وتحويلها إلى العربية ووجوه الأموال التى تحمل إلى بيت المال وشئ من قواعد الاملاء وألف ابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٦ هـ كتاب « الكتاب » وأكثره فى قواعد الاملاء وفى أخره باب فى افتتاح الكتاب وفى التاريخ وما يذكر منه وما يؤنث وما يفرد ويجمع ثم فى برى القلم وسنه وقطعه والدواة وما إليها وتوسع من جاء بعدهم من المؤلفين للكتاب حتى ختمت بكتاب « صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء فتعرض فيه تقريبا لكل المعلومات البشرية فى عصره من تاريخ وجغرافيا وفلك وما يحتاج اليه الكاتب عمليا فى صناعته من خط ونحوه ومصطلح المكاتبات وكيفية العقود والبريد ومطارات حمام الرسائل والمنارات ... الخ فنرى من هذا كيف كان المؤلفون يعنون بهذه الطبقة من الناس وكيف كانوا يتطلبون منهم المعارف الواسعة فى الموضوعات المختلفة وأن هذه الطبقة كانت تمتاز عن بقية العلماء بالثقافة العامة .

بل يظهر لى(٦٣) أن هذا الموقف هو الذى جعل الناس يقولون :

إن الأدب هو الأخذ من كل شئ بطرف فقد نرى أن كلمة الأدب فى صدر الإسلام كانت تطلق على التهذيب الخلقى ثم كانت تطلق على العلم باللغة والشعر وأيام العرب وتاريخها وما إلى ذلك واستعملت بهذا المعنى فى العهد الأموى فلما جاء هؤلاء الكتاب واتسعت الثقافة وصاروا يتطلبون من الكتاب أن يعرف الثقافة العربية والفارسية اتسع معنى الأدب وقالوا :

« ان الأدب الأخذ من كل شئ بطرف » .

بل جعلوه يشمل معرفة شئ من الألعاب . قال الحسن ابن سهل وهو أحد الوزراء والكتاب فى العصر العباسى الآداب عشرة : فثلاثة شهر جانية وثلاثة أنو شروانية وثلاثة عربية وواحدة أربت عليهن : فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج وأما النوشروانية فالطب والهندسة والفروسية وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس وأما الواحدة إلى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه فى المجالس (٦٤) .

بل يظهر(٦٥) لى – أيضا – أن هذا كان أحد الأسباب فى فوضى الكتب الأدبية المؤلفة فى ذلك العصر كالبيان والتبيين والكامل وعيون الأخبار والأخبار الطوال فقد قصدوا فيها

---

(٦٣) ضحى الاسلام لأحمد أمين – جـ١ – صـ١٧٨ .

(٦٤) زهر الآداب جـ١ – صـ١٤٢ .

(٦٥) ضحى الاسلام لأحمد أمين جـ١ – صـ١٧٩ .

إلى جمع ما يفيد وتكويمه بعضه فوق بعض فاهمين الأدب بمعناه الواسع الذى ذكرنا فحكمة بجانبها بيتان من الغزل إلى نادرة لطيفة إلى خطبة بليغة إلى قصص فى البخل وإلى أخبار الخوارج .

والجاحظ فى كتابه الحيوان تكلم فى الخصاء بعد كلامه فى فائدة الكتاب إلى غير ذلك لأن الغرض عندهم أن يلم الأديب من كل شئ بطرف ثم جاءت الكتب الأخرى بعدها تحذو حذوها وتفرق مجتمعا وتجمع متفرقا وتزيد ما استحدث من الطرف الأدبية .

هؤلاء الكتاب نشروا الثقافة العامة وضموا إلى الآداب العربية الآداب الفارسية فأصبح مما يتطلبه الأدب أن تعرف حكم بزرجمهر كما تعرف حكم أكثم ابن صيفى وتعرف تاريخ الفرس كما تعرف تاريخ العرب وتعرف أقوال كسرى وسابور وأبرويزو ومبذان كما تعرف أقوال الخلفاء الراشدين والأمويين وتشاهد ذلك فى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى فقسم منه فارسى وقسم عربى .

وجاء فى نصيحة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب : فتنافسوا معشر الكتاب فى صنوف العلم والأدب وتفقهوا فى الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فنها ثقاف ألسنتكم وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم ولا يضعفن نظركم فى الحساب فإنه قوام كتاب الخراج منكم .

وقال الرشيد للكسائى معلم أولاده : « يا على ابن حمزة قد أحللناك المحل الذى لم تكن تبلغه همتك فرونا من الأشعار أعفها ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق وذاكرنا بآداب الفرس والهند ولا تسرع علينا الردّ فى ملأولا تترك تثقيفا فى خلاء[٦٦] .

على أن الثقافة العربية فى العصر العباسى لم يكن مظهرها الأوحد هو المساهمة فى تدعيم الثقافة العربية العامة بل كانت أرحب من ذلك وأعمق فقد إتجه بعض الفلاسفه والمفكرين إلى البحث العلمى المتخصص وعمقوا هذا المجرى بل اتجهوا أيضا إلى الفنون والآدب والفنانيين يستعرضون روائعهابالشرح والتحليل والموازنة والنقد - واشترك مع العلماء والأدباء والفنانين بعض الخلفاء الذين كانت لهم ميول علمية وأدبية فتناقشوا وبحثوا وشجعوا .

وكان من المظاهر التى تشرف بها الحياة فى بغداد أن الفنون والعلوم التى لا يحرمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد فيها من يشجعها ويأخذ بناصرها وأن المدارس على

(٦٦) ابن أبى الحديد جـ٤ - صـ١٣٧ .

اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة فى جميع الأنحاء وأن الهواء كان يردد أصداء الشعراء .(٦٧)

وكان الشعب إذاً والحكومة يناصرون العلم والفن ويأتى الخليفة العباسى المأمون على رأس هؤلاء فقد كان تشجيع المأمون للفنون والعلوم والأداب والفلسفة أكثر تنوعا ودقة منها فى عهد هارون الرشيد وكان لهذا التشجيع من الأثر أعظم مما كان فى عهد أبيه فقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية والأسكندرية وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية وأنشأ مجمعا علميا فى بغداد ومرصدين فيها وفى تدمر .

وكان الأطباء والفقهاء والموسيقيون والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم بعطاياه وكان هو نفسه يقرض الشعر .

ومات المأمون فى سن مبكرة فى الثامنة والأربعين من عمره (٨٣٣) وإن كان قد طال أجله حتى أساء إلى نفسه ذلك أنه ناصر بسلطته العليا حرية الرأى فى الدولة مناصرة شوه بها السنين الأخيرة من حياته لأنها دفعته إلى اضطهاد أصحاب السنة .(٦٨)

لقد كان المأمون عالما أديبا محبا للعلماء والأدباء ويهوى مجالستهم ويعقد المناظرات ويشترك فيها ويجيز المتفوق المبرز أطلق المأمون حرية القول ولم تعد عصبية الخلفاء للعنصر العربى مثلها فى عهد بنى أمية فبدأت الأقلام تجول والألسنة تتحرك وقويت حركة الشعوبية والطعن فى العرب وقد أدت هذه الحركة إلى نشاط فكرى كان من ثمراته مجموعة من الكتب تتكلم فى التنقص من العرب وقلة محصولهم فى الثقافة والحضارة ويقابلها مجموعة أخرى تنتصر لهم ومن بين هؤلاء ابن قتيبه والجاحظ وأبو حنيفة الدينورى .

المعتزلة وأهل السنة والجبرية والشيعة :

كان المتكلمون صلة الأشياء مختلفة كانوا صلة بين الأديان بعضها ببعض وصلة بين القائمين بعملية المزج بين الثقافات ولئن كان المتكلمون هم الصلة بين اليونان والمسلمين فقد كان الفرس المتعربون صلة بين الفرس والعرب مزجوا ما نشأوا عليه من أدب فارس وما تعلموا من أدب عربى .

مزجوا القصة الفارسية بالقصة العربية كما فى الف ليلة وليلة وكما فى الأخبار الطوال

---

(٦٧) قصة الحضارة تأليف ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع ص١٦٥ .

(٦٨) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع عصر الإيمان ص ٩٦ ، ٩٧ ترجمة محمد بدران ط جامعة الدول العربية .

لأبى حنيفة الدينورى وغير ذلك ومزجوا الحكم الفارسية والتشبيهات الفارسية بالحكم والتشبهات العربية .

ويضع الفرس الأساطير فينحو العرب نحوهم فقول العرب فى العنقاء يشبه قول الفرس فى سيموغ – ومن أساطير الفرس أن مسكن السميوغ على الشجرة التى تقى كل البذور وهى فى المحيط الواسع على مقربة من شجرة الخلد تجتمع عليها البذور التى انتجتها النباتات كلها طوال السنة لا تزال تنتقل الأسطورة بين العرب حتى يدخلها الفيروزابادى فى القاموس المحيط فيقول : والجزائر الخالدات ويقال لها السعادة ست جزائر فى البحر المحيط من جهة المغرب منها يبتدئ المنجمون بأخذ أطوال البلاد تنبت فيها كل فاكهة شرقية وغربية وريحان وورد وكل حب من غير أن يغرس أو يزرع .(٦٩)

ويقرأ القارئ الشاهنامة وما فيها من أساطير فتوحى إليه بمقارنات ومشابهات بينها وبين الأساطير العربية لا تكاد تحصى كأسطورة « ازدهاك » وهو روح شريرة فى الأساطير الأرية وعند الفرس ملك ظالم جبار يتمثل فيه الشر .

وتتحول الكلمة العربية إلى الضحاك ويزعمون أنه عربى من اليمن(٧٠) ويفتخر به أبو نواس فى قصيدته التى يفخر فيها بقحطان على نزار فيقول :

وكان منا الضحاك يعبده الخا   بل والطير فى مساربها(٧١)

ويقول صاحب القاموس : والضحاك رجل ملك الأرض وكانت أمه جنيه فلحق بالجن وينتقل مذهب تناسخ الأرواح من الهند فينتشر فى العراق ويدعو اليه غلاة الشيعة .

واهتم المأمون بالمناظرة بين العلماء فى مسائل الدين والفلسفة وكان يجمعهم إليه وأهم موضوع شغل به وشغل به الناس مسألة خلق القرآن التى تركز حولها الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة وعرف المأمون برأيه الحر وحبه للفلسفة ولذلك قرب المعتزلة والمتكلمين واعتنق أراءهم وانتصر لهم بالقول والعمل وتتبع أعداءهم فضيق عليهم وأذاهم .

واستن المعتصم والواثق من بعده سنته فنال أهل السنة وأصحاب الحديث كثير من الضيم فعذب أحمد بن حنبل صاحب المذهب المشهور وغيره من الفقهاء والاعلام وجاء المتوكل وكان لا يميل للنظر والكلام فأبطل نصرة المعتزلة وعاد للحديث والسنة وأمر الناس باتباعها وترك ما دونها .

وكانت حركة المعتزلة وأهل السنة والجبرية من أبرز الحركات الفكرية فى القرن الثالث

---

(٦٩) الشاهنامة للفردوس ص٥٦ (٧٠) القاموس مادة ج ز ر

(٧١) الأخبار الطوال ص٤ (٧٢) الشاهنامة ص٢٥ وما بعدها والخابل : الجن .

الهجرى لذلك نرى أن نبرز وجوه الخلاف الرئيسية بين هذه الحركات وتبين إلى أيها ينتسب أبوحنيفة الدينورى .

أولا : خلق الافعال : (٧٣)

أكثر المعتزلة يقولون إن أفعال العباد مخلوقة لهم . ومن عملهم هم لا من عمل الله وباختيارهم المحض فى قدرتهم أن يفعلوها وأن يتركوها من غير دخل لإرادة الله وقدرته ودليل ذلك ما يشعر به الإنسان من التفرقة بين الحركة الاختيارية والأضطرارية كحركة من اراد أن يحرك يده وحركة المرتعش وكالفرق بين الصاعد الى منارة والساقط منها فالحركة الاختيارية مرادة من الإنسان مقدورة له بخلاف الحركة الأضطرارية فلا دخل له فيها .

وثانيا لو لم يكن الانسان خالق أفعاله لبطل التكليف إذ لو لم يكن قادرا على أن يفعل وألا يفعل ما صح عقلا أن يقال له افعل ولا تفعل ولما كأن هناك محل للمدح والذم والثواب والعقاب بل ما كان لنبوة النبى وإصلاح المصلح فائدة كما استدلوا على مذهبهم بكثير من آيات القرآن فهناك آيات تضيف الفعل إلى الناس كقوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) [إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم] [من يعمل سؤا يجزيه]وآيات تمدح المؤمن على الإيمان وتذم الكافر على الكفر كقوله : اليوم تجزى كل نفس بما كسبت « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وآيات تدل على أن أفعال الله ليست كأفعال المخلوقين من التفاوت والأختلاف كقوله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا) وآيات فيها انكار وتوبيخ على الكفر والعصيان كقوله : وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ... الآية « فما لهم لا يؤمنون » فما لهم عن التذكرة معرضين وآيات أثبتت فيها المشيئة للعبد « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » وآيات أمر بها العباد بالإسراع إلى الطاعة قبل فواتها وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وآيات حكى فيها التحسر يوم القيامة على الكفر والمعصية قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت » أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين .

وقالوا ثالثا : إن كان خلق أعمال الناس فهو إذاً لا يرضى عما فعل ويغضب مما خلق ويكره ما دبر .

وكان لهم خصوم مختلفون فأشد خصومهم من كان يذهب إلى الجبر المحض ويرون أن

---

(٧٣) فجر الإسلام تأليف أحمد أمين ص٢٧٩ : ٣٠٧ط مكتبة النهضة العربية المصرية .
ضحى الإسلام تأليف أحمد أمين جـ٧ ص١ ، ٢ ، ٢٠٧ مكتبة النهضة المصرية .

أفعال الناس واقعة بقدرة الله تعالى وحدها وليس لقدرة الناس تأثير فيها ، وليس الإنسان إلا محلا لما يجريه الله على يديه فهو مجبر جبرا مطلقا . وهو والجماد سواء لا يختلفان إلا فى المظهر فمظهر الإنسان أنه مختار وحقيقته أن لا اختيار والجماد مجبر مظهرا وحقيقة وتنسب الأفعال إلى الإنسان مجازا فضرب فلان وكتب وأساء وأحسن كلها مجازات كما يقول أثمرت الشجرة وتحرك الحجر وطلعت الشمس وأمطر السحاب والثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال جبر والتكليف جبر . ولهم كذلك على قولهم أدلة كثيرة فقالوا : إن الإنسان لو كان موجدا لأفعاله وخالقا لها وجب أن يكون هناك أفعال لا تجرى على مشيئة الله وأختياره - ويكون هناك خالق غير الله هذا إلى ما ورد فى القرآن دالا على ذلك من مثل قوله تعالى : [الله خالق كل شيء] [ختم الله على قلوبهم] [ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا] [والله خلقكم وما تعملون] الخ ... والواقع أن هذه هى مشكلة المشاكل سميت بالجبر والاختيار . بحرية الارادة وبالقضاء والقدر وحار فيها الفلاسفة قديما وحديثا فأثارها الفلاسفة اليونانيون قبل المعتزلة وكان بعضهم يرى أن الإرادة حرة فى الاختيار كالا بيقوريين(٧٤) وبعضهم كان يرى أنها مجبورة على السير فى طريق لا يمكنها أن تتعداه كالرواقيين .(٧٥)

ولما جاء الإسلام وجاء دور البحث أثاروا هذه المسألة فقال الجبريون وعلى رأسهم جهم بن صفوان . إن الإنسان مجبور وليس له إرادة حرة ولا قدرة على خلق أفعاله وهو كالريشة فى مهب الريح أو الخشبة بين يدى الأمواج وإنما يخلق الله الأعمال على يديه وقالت المعتزلة : إن إرادة الإنسان حرة وقدرته تخلق ما يعمل وفى استطاعته أن يفعل وألا يفعل . وهو يفعل ما يختار والذى دعا إلى هذا الاختلاف بين المسلمين أن الأدلة العقلية متباينة وظواهر النصوص مختلفة .

فمن ناحية نرى أن الله يطالب الناس بالعمل ويدعوهم إليه ويأمر بنهى ويثيب على فعل ما أمر ويعاقب على الإتيان بما نهى . ووضع الحدود والعقوبات ووعد وأوعد وساءل العصاة لم تعديتم ؟ ولم عصيتم ؟ ولم كفرتم ؟ وقد أفسحت لكم مجال العمل ؟ وأرسلت لكم الرسل وأبنت الحجة ثم ملئت نصوص الكتاب بذلك فكيف يعقل بعد أن نقول : إنه لا أثر لقدرة الإنسان أصلا ولو لم تكن قدرة لما كان معنى للطلب . ولما كان معنى للثواب والعقاب ولكان التكليف تكليفا بالمحال ولحق اعتراض المعترض بأنه لم يفعل ما فعل حتى يستحق لوما أو عقابا .

---

(٧٤) قصة الفلسفة اليونانية ص٣١٤ : ٣١٥

(٧٥) قصة الفلسفة اليونانية تأليف أحمد امين زكى نجيب محمود ٣٠٢ : ٣٨ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٩ .

ومن ناحية أخرى : إذا قلنا إن العبد خالق أعماله ترتب على ذلك تحديد قدرة الله وأنها لم تشمل كل شئ وأن العبد شريك الله تعالى فى إيجاد ما فى هذا العالم. والشئ الواحد لا يمكن أن تتعاون عليه قدرتان فإن كانت قدرة الله هى التى خلقته فلا شأن فيها لقدرة العبد ولا يمكن ان يكون بعضه بقدرة الله وبعضه بقدرة العبد لأن الشئ الواحد لا بعض له هذا إلى النصوص القرآنية الكثيرة الدالة على شمول إرادة الله وقدرته .

ففريق المعتزلة رجحوا الجانب الأول ووقفوا موقف الدفاع عنه وتأولوا النصوص التى ظاهرها مخالفته وبذلوا فى ذلك عناء كثيرا ومجهودا شاقا وألجأهم إلى ذلك ماتصوروه من معنى العدل عند الله وفريق الجبرية رجحوا الجانب الآخر إذ كان شنيعا لديهم أن يحدوا من إرادة الله وقدرته وتأولوا الآيات الدالة على قدرة العبد وقالوا فى مسألة التكليف والثواب والعقاب : إنها ليست خاضعة لتصورنا فى العدل والظلم فالعدل والظلم ونحوهما كلها كلمات تطبق على الناس لا على الله إذ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وحار قوم بين أدلة هؤلاء وهؤلاء فأرادوا أن يسلكوا سبيلا وسطا ومن هؤلاء أبو الحسن الأشعرى فاخترع ما سماه (الكسب) وقد فسره بعض أتباعه بأنه الاقتران العادى بين القدرة المحدثة (أى قدرة الإنسان) والفعل فالله تعالى أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وأرادته لا بقدرة العبد وإرادته فهذا الاقتران هو الكسب .

وهو كما نرى لا يقدم فى الموضوع ولا يؤخر فهو شكل جديد فى التعبير عن الجبر فهو يرى أن القدرة الحادثة لا تؤثر فى المقدور ولم يكن هذا الذى سماه كسبا من قدرة الله فلم هذا الدوران .

وقال آخرون : إن الله خلق للعبد قدرة يصرف بها الامور فأعمال العباد تضاف إلى الله باعتبار أن أقدرهم عليها وخلق القدرة فيهم وتضاف إلى العبد باعتبار أنه هو المصرف لأعماله بالقدرة الحرة التى خلقها الله فيه . وهذا رجع فى الحيقة إلى قول المعتزلة مع الخلاف فى التعبير فقط .

فنحن فى الواقع أمام فرقتين لا غير : فرقة الجبر وفرقة الاختيار .

وقد نحا بعض المفكرين من المسلمين نحوا آخر فقال : إن العالم كله مبنى على أسباب ومسببات وإرادة الإنسان خاضعة لأسباب فإذا اردت ما أردت فذلك لأسباب وإذا لم ترده فذلك لأسباب أيضا فإذا رأى الانسان طعاما شهيا وهو جائع اشتهاه من غير اختيار. وإذا رأى شيئا يؤلمه ويؤذيه كرهه وهرب منه بالفعل فالعمل الذى نعمله نتيجة أمرين :

أسباب خارجية وإرادة منا ولما كانت هذه الأسباب الخارجية تجرى على نظام محدود والنظام المحدود فى الأسباب الخارجية والداخلية هو القضاء والقدر الذى كتبه الله على عباده .

فإذا نحن نظرنا إلى الأسباب الخارجية قلنا إن الإنسان مجبور وإذا نظرنا إلى الإرادة وحدها فالإنسان مختار .

وبهذا يمكن الجمع بين الآيات المختلفة وقد قرر هذا الرأى الفليسوف ابن رشيد فى كتابه « مناهج الادلة »(٧٦)

وهذا القول فى حقيقة امره قول بالجبر الفلسفى وأكبر الظن أن أبا حنيفة الدينورى كان من المؤمنين بهذا الرأى الأخير ونحن لم نطلق هذا الحكم اعتباطا وإنما استقيناه من كلام أبى حنيفة . وتعال بنا نقرأ ما يقوله فى هذا الصدد بعد أن فرغ من حديثه عن الأنواء يقول(٧٧)

(وإنما جاء حمدهم بعض الأنواء وذمهم بعضا من قبل مواقع الأمطار التى تكون فى أيامها فأى كوكب جاء وقت نوئه فصادف المطر الذى يكون فيه من الزمان ومن البلد موافقة ونجعا فتبين خيره ونفعه حمدوا ذلك النوء وأضافوا حمده إلى الكواكب ونوهوا به إلى كوكب لم يصادف المطر الذى يكون فى أيام نوئه من الزمان مشاكله ولا من الأرض موافقة لم ينجح أو ظهر منه نفع أو حدث منه ضرر أضافوا ذلك إلى الكوكب فذموه وسموا به حتى كأن الفعل فى ذلك فعل الكوكب .

ولما جربوا هذه الأمور فى القديم وطال اختيارهم فوجدوها ثابته على مراتبها أكثر من ذلك صرفوا القول فى المدح والذم على ما ثبت من التجارب والزموا الكوكب ذلك وصار قولا مأثورا محفوظا يأخذه الآخر عن الأول وهذه أمور قدرها الخلاق العليم فأودع الأشياء طبائع منها المتسالمة ومنها المتعادية ومنها المشاكلة ومنها المخالفة فالمسالم سلم لمسالمه والمعادى عدو لمعاديه والمشاكل قوة لشكله وزيادة فيه والمخالف ضرر لمخالفه ثم أرسلها تتدانى وتتلاقى فلا تنفك أبدا إلا بيد من تغير وتبدل إما بفساد وأما بصلاح ذلك أيضا على قلة وكثرة فصلاح كل شئ فساد لما خالفه وكذلك فساده صلاح لما خالفه وذلك أقوى أسباب الهلكة والبيود اللذين إليهما مصير هذه الدنيا ومن وقف على ما وصفت من هذا حتى يتبينه ويتيقنه علم أن الارض كلها لله وحده لا شريك له وأن هذه الأشياء النامية والحائرة والفاسدة والصالحة كلها منقادة لتدبيره جارية على اذلالها صائرة إلى

---

(٧٦) ص١٠٧ وما بعدها .

(٧٧) المخصص لابن سيده جـ٢ ص٨٢ : ٨٣ .

غاياتها فأخلى لها السبل وقد عمى عن معرفة كنه هذا الكثير ممن ترى فاختزلوا الأمور دون نهايتها فنسبوا كثيرا من تدبير هذا العالم إلى الأسباب التى سببها خالقها وأضافوها إليها إضافة واقتصروا بها عليها ولم يتموا الانتهاء بها إلى أصل الصنع ومدبر التدبير لربنا الواحد الأحد فضلوا وأضلوا وتاهوا فى حيرة وتسكعوا فى عمياء ونحن نحمد الله على ما هدانا له من معرفة ذلك ونعوذ به من أن نضل كما ضلوا فنشقى كما شقوا وإن كثيرا منهم وأن آمنوا بالله فما آمنوا الا وهم مشركون.

ويقرر أبو حنيفة فى حديثه هذا مبدأ الاختيار ويذم معتنقيه ويرى أن هذا المبدأ قديم ولعله يشير إلى أن الابيقوريين نادوا به من قبل كما أشرنا إلى ذلك سابقا ثم إنه يرى المفكرين جربوه وطال اختبارهم له وثبت صحته لديهم وصار قولا مأثورا محفوظا يأخذه الآخر من الأول ولعله أيضا يشير الى أن المعتزلة لم يأتوا بجديد حين أخذوا بهذا المبدأ فقد سبقهم الأبيقوريون ثم إنه يرى أن أنصار هذا المبدأ عمى اختزلوا الأمور دون نهايتها فنسبوا كثيرا من تدبير هذا العالم إلى الأسباب التى سببها خالقها وأضافوها إليها إضافة مقتصرا بها عليها ولم يتموا الانتهاء بها إلى أصل الصنع ومدبر التدبير لربنا الواحد الأحد.

ثم يرى أن الآخذين بهذا المبدأ وإن آمنوا بالله فما آمنوا إلا وهم مشركون وهذه مبالغة من أبى حنيفة ويقرر أيضا مبدأ الجبر بل ويؤمن به ويناصره فهو يرى أن هذه أمور قدرها الخلاق العليم فأودع الأشياء طبائع منها المتسالمة ومنها المتعادية ..... الخ.

ويرى أن الارض كلها لله وحده لا شريك له وأن هذه الأشياء النامية والحائرة والفاسدة والصالحة كلها منقادة لتدبيره جارية على ازلالها سائرة إلى غايتها.

ثم يقول ونحن نحمد الله على ما هدانا له من معرفة ذلك ونعوذ به من أن نضل كما ضلوا.

وهذا اللون من الوان البحث متصل بحياة خصبة تلك هى حياة القلب والعقل والعاطفة والدين فنرى صراعا بين الشك والزندقة والإلحاد وبين الإيمان الخالص والاعتقاد الصادق ويخيل إلينا ونحن نقرأ تاريخ هاتين الحركتين أنا فى موقف قتال مستمر تستخدم فيه كل وسائل الحروب فخدع ومكايد ووسائل سرية أحيانا ولجوء إلى السيف وسفك الدماء أحيانا وعقد مجالس ومقارعة الحجج أحيانا ثم الحرب سجال يوم ينتصر فيه الملحدون بما يثيرون من شكوك وأوهام وبما يضللون من ناشئة وشبان فإن عجزوا ظاهرا استعملوا طريق الغواية سرا تحت مظهر التشيع أو الغيرة على الإسلام أو نحو ذلك وقد أبان ذلك أبو حنيفة الدينورى ويوم ينتصر فيه المؤمنون فينكلون فيه بالملحدين تنكيلا ويوقعون بهم قتلا وتشريدا ثم بما يؤلفون من كتب ينقضون شبههم ويبطلون حججهم

ولعل هذا الموقف موقف انتصار الزندقة حينا والإيمان حينا لعل هذا الموقف هو الذى دفع أبا حنيفة الدينورى إلى أن يقف على الحياد إزاء هذه المعارك فلم يخض فى أحداث عصره إلا بمقدار. حرصا منه على السلامة ورغبة فى العافية.

ثانيا : صفات الله :

عمد المعتزلة إلى تنزيهه تعالى عن كل صفات قائمة بذاته مثل القدرة والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام أى أنه لا انفصال لصفاته عن ذاته فالله قادر بذاته فى حين يرى أهل السنة إن الله قدير بقدرة وهى صفة قائمة بالذات(٧٨) وليست عين الذات.

ثالثا :

هناك جملة مسائل أخرى كانت موضع خلاف بين المتكلمين تقل عن المسألتين السابقتين أهمية ومنها مسألة الحد وتدقيق المعتزلة فى روايته والاعتماد عليه والقول فى إعجاز القرآن ويرى بعض المعتزلة كالنظام أنه معجز بالصرفة أى أن أسلوبه فى قدرة العرب وإنما صرفهم الله عن تقليده فى حين يجمع أهل السنة وجماعة من المعتزلة على إعجاز القرآن فى بيانه لأنه فوق مستوى قدرهم.

وإلى هنا نكون قد انتهينا من الحديث عن المعتزلة وأهل السنة والجبرية وبقى أن نتحدث عن الشيعة فقد كانت طائفة لها شأن عظيم فى التاريخ.

فهؤلاء قضوا على الخلافة الأموية واستولوا على بلاد الفرس ومصر والهند الإسلامية وكان لهم أعظم الأثر فى الأدب وفى الفلسفة ونشأت طائفة الشيعة على أثر مقتل على وولده الحسين وأسرته فقد قالت فئة قليلة من المسلمين إن الله وقت أن اختار محمدا نبيا له ورسولا قد أراد من غير شك ان يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية هم الوارثين لزعامة الإسلام ولهذا فهم يرون أن جميع الخلفاء ما عدا عليا مغتصبون لاحق لهم فى الخلافة وقد اغتبطوا حين ولى الخلافة وحزنوا لمقتله وروّعوا لمقتل الحسين وأصبح على والحسين بعد موتهما فى رأيهم من أولياء الله الصالحين وهم يعظمون ضريحيهما تعظيما لا يفوقه إلا تعظيمهم للكعبة وقبر الرسول.

ولعل طائفة الشيعة قد تأثرت بعقيدة الفرس واليهود والمسحيين الخاصة بالمسيح المنتظر وبفكرة البوذيين عن البدهستيفاس أى تجسيد القديسيين مرارا بعد موتهم فقالت إن أبناء

(٧٨) تفرع على هذه المسألة مسألة خلق القرآن فقد ذكر المعتزلة ان الله مخلوق خلق معنى فى قلب الرسول اما اللفظ والأسلوب فليسا من كلام الله لأنه شيء محدود ولا يجوز أن نصف الله بصفة محدودة على حين يرى أهل السنة أن القرآن بكل حال مقرؤا أو مكتوبا أو مسموعا ومحفوظا غير مخلوق.

على هم الأئمة الذين تتمثل فيهم الحكمة الإلهية وهى ترى أن الإمام الرضا ثامن أولئك الأئمة الذى يقوم ضريحه فى مشهد بشمالى فارس هو « مجد العالم الشيعى » وقد حدث فى عام ٨٧٣م ان أختفى الإمام الثانى عشر محمد بن حسن وهو فى الثامنة عشرة من عمره فاعتقد الشيعة انه لم يمت ولكنه سيعود فى الوقت المناسب ليعيدهم إلى السلطان الشامل والسعادة الدائمة .(٧٩)

العلوم الدينية :

نشطت الدراسات الدينية المختلفة وخاصة ما يتصل منها بأصول الدين والعقيدة وكان لحركة المعتزلة كما بينا أثر كبير فى ذلك النشاط فقد تزود أهل ذلك العصر بكثير من العلوم العقلية من تراث الأمم المختلفة كاليونان والفرس والهنود واستخدموا ذلك الزاد فى بحوثهم الدينية فى الأسلام كما أن ترجمة كثير من الكتب الدينية كالتوارة والإنجيل والإطلاع على غير هذه الكتب السماوية ككتاب « افستا » لزرادشت وغيره ساعدت كثيرا فى ازدهار البحوث الدينية ولعل من أبرز أبطالها فى هذا العصر النظام والجاحظ وابن قتيبة وابو حنيفة الدينورى .

وصاحب تلك الحركة حركات أخرّ وجهت عنايتها للقرآن نفسه فى مختلف نواحيه تفسيره وغريبه ومشكله وقامت جماعة اللغويين بدراسة أسلوب القرآن من ناحيته اللغوية الفاظه ومعانيه وتراكيبها وكما اتجهت جماعة الاخباريين إلى جمع ما يدور حول الآيات من اسباب النزول والظروف والملابسات المختلفة وما قيل فى تأويلها من الصحابة والسابقين فى حين وجهت جماعة أخرى عنايتها إلى ما ينطوى عليه أسلوب القرآن من ضروب النكت البيانية والمعنوية وكان هدف هذه الجماعة الأخيرة أن تجلى ماقد يغمض على بعض الافهام أو - يستشكل أمام بعض العقول من آيات المتشابه فكان عليها أن ترد المطاعن والشكوك .

وحظى الحديث بما حظى به القرآن من العناية والدراسة فتناولوه بالجمع والتنقية والشرح وافراد الغريب وتوضيح مشكله وقد تعرضت دراسات الحديث لكثير من الجدل بين المعتزلة وأهل السنة وذلك لأن المعتزلة كانوا يشكون فى كل حديث لا يتفق مع الأصول التى يرونها كما طعن بعضهم فى مبدأ الأخذ بالإجماع فقال النظام إنه يجوز الإجماع على الخطأ ولكن أهل السنة جمعوا كثيرا من الأحاديث وضمنوها كتبا تعد من

---

(٧٩) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ ٢ من المجلد الرابع ص ٩٧ ترجمة محمد بدران ط جامعة الدول العربية .

أهم ما ظهر فى الحديث مثل مسند أحمد بن حنبل وصحيح البخارى ومسلم وابن ماجه وابو داود والترمذى والنسائى .

وتبع ازدهار دراسات القرآن والحديث ازدهار الشريعة والفقه ومن أبرز الفقهاء فى العصر الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل .

وكان الخلفاء فى أول العصر العباسى قد انقسموا إلى قسمين : أهل الحديث وأهل القياس وكان على رأس الفريق الأول عالم المدينة مالك بن أنس والشافعى وابن حنبل ووقف على رأس الفريق الثانى الإمام أبوحنيفة النعمان وقد عاصر صاحبنا أبوحنيفة الدينورى من الأئمة الأربعة أحمد بن حنبل (توفى سنة ٢٤١ هـ) وكان مذهبه رد فعل لحركة المعتزلة ونتيجة لشيوع كثير من العقائد المختلطة الوافدة من الشرق والغرب فكانت دعوته إلى التمسك بالحديث والسنة والتشدد فى ذلك حتى ضرب بها المثل رغبة فى المحافظة على قدسية العقيدة أمام التيارات الغريبة .

العلوم العقلية :

أشرنا إلى اهتمام الناس بالعلوم العقلية وذكرنا ما كان من عناية المأمون بها وحث الناس على البحث والمناظرة والترجمة عن اليونان والفرس وكان المأمون معجبا بفلاسفة اليونان وخاصة رسطاطاليس وحدثت بين المأمون وملك الروم مراسلات طلب المأمون إليه فيها أن يبعث بما عنده من مختار العلوم القديمة وأوفد لذلك جماعة من العلماء من بينهم الحجاج بن مطر وابن البطريق فاختاروا مما وجدوه وحملوه إليه فأمرهم بنقله فنقل وقد بلغ عدد الكتب التى نقلت عن اليونان مئات[٨٠] فى الفلسفة والأدب والمنطق لأفلاطون وأرسطوا وفى الطب لأبقراط وجالينوس وفى الرياضيات والنجوم لأقليدس وأرشميدس وغيرها .

وكان نتيجة لتلك الحركة الواسعة إنكباب العرب على دراستها والإفادة منها ونبغ جماعة من بينهم أبوحنيفة الدينورى والجاحظ وابن قتيبة ويمكن أن نسجل ظاهرة تسترعى الانتباه وهى أن العرب حين ترجموا كثيرا من التراث اليونانى لم يتعرضوا لآدابهم القديمة مثل الإلياذة والأديسة لهوميروس ولعل السبب ما كانت تفيض به من حكاية لأخبار الآلهة مما يتنافى مع العقيدة الإسلامية لذلك نبذوها ولم يهتمو بها[٨١]

ولعل هذا هو ما دفع صاحب قصة الحضارة إلى أن يقول :

---

(٨٠) تاريخ أداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ٢

(٨١) ابن قتيبة للدكتور محمد زغلول سلام ص ١٧

(ومن أغرب الأشياء أن المسلمين رغم ولعهم الشديد بالشعر والتاريخ قد أغفلوا الشعر اليونانى والمسرحيات اليونانية وكتب التاريخ اليونانية فقد سار المسلمون فى ركاب الفرس فى هذه النواحى من النشاط العلمى والأدبى بدل أن يسيروا فى ركاب اليونان[٨٢]

ولكن لماذا آثر العرب الفرس والهند على اليونان بالرغم من أن فى أخبار آلهة الفرس والهند ما يتنافى مع العقيدة الإسلامية ؟

يبدو أن المسألة مسألة تذوق أكثر منها أى شئ آخر فالعرب تذوقوا أدب الفرس والهند فاقتبسوا منها ولم يتذوقوا أدب اليونان فلم يقتبسوا منه ويقرنا على هذا الرأى المرحوم الدكتور أحمد أمين إذ يقول :

وانما اقتبس العرب من الآداب الأخرى الشرقية كالفارسية والهندية لأنها تقارب الذوق العربى[٨٣] .

ثم إن اختلاط العرب بالفرس كان أقوى من اختلاط العرب باليونان فالفرس على أكتافهم قامت الدولة العباسية والدولة العباسية كانت فارسية فى حضارتها .

فإذا اختلط الناس تأثر بعضهم ببعض فالفارسى يحمل عقلا فارسيا ثم يعتنق الإسلام ويتعلم اللغة العربية فينشأ مزيج من العقلين تتولد منه أفكار جديدة ومعان جديدة وكذلك كان الشأن عند أبى حنيفة الدينورى .

واليونانى والنصرانى أو الرومى أو العراقى أو اليهودى يخالط العربى المسلم ويتبادلان الرأى والقصص والفكرة فينشأ من ذلك فكر جديد وهكذا ومن ثم كان « الأدب العربى » بمعناه الواسع الذى يمثل كل ثقافة ليس فى الحقيقة أدبا عربيا وإنما هو مزيج طبع بالطابع العربى الإسلامى[٨٤] ولنذكر مثلا يوضح هذا . ذلك أنا نرى العرب فى جاهليتها أدبها أدب عربى بالمعنى الصحيح وهو إن اقتبس شيئا مما حوله فقد كان - اقتباسه قليلا خفيفا أما الروح الغالبة القوية فهى الروح العربية فهو يمثل الحياة العربية أحسن تمثيل ويصور حياتهم الاجتماعية أتم تصوير فيه خيالهم وفيه طريقة صيدهم وفيه وصف حروبهم ولهوهم وجدهم وبداوتهم فإذا نحن طفرنا إلى العصر العباسى وجدنا الناس وخاصة الفرس الذين دخلوا الإسلام وكانت لهم غلبة على مرافق الدولة ولم يعودوا

---

(٨٢) قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ من المجلد الرابع عصر الإيمان ١٧٧ : ١٧٩ ترجمة محمد بدران ط جامعة الدول العربية

(٨٣) النقد الأدبى لأحمد أمين جـ١ ص٧

(٨٤) ضحى الإسلام لأحمد أمين جـ١ ص١٤

يتذوقون بذوقهم الفارسى الشعر العربى الجاهلى وإنما يتذوقون ما ألفوا من التغنى فى شعورهم بالحب والخمر فظهر العباسيان الاحنف الخرسانى البيئة وأبو نواس الفارسى الام بشيعان ذوقهما الأول فى عشقه والثانى فى خمرياته

قد كان للعربى الجاهلى شعر فى الحب وشعر فى الخمر ولكن شتان بين خمريات طرفه وخمريات أبى نواس وشتان بين غزل أمرئ القيس وشوق العباس (٨٥) .

ويعجبنى فى ذلك قول الجاحظ : كم بين قول امرئ القيس – تقول وقد مال الغبيط بنا معا – وبين قول على بن الجهم .

سقى الله ليلا ضمنا بعد هجعه وأدنى فؤادا من فؤاد معذب
فبتنا جميعا لو تراق زجاجة من الراح فيما بيننا لم تسرب (٨٦)

لم تكن الحضارة وحدها هى التى أنتجت هذا الفرق ولكن كان من أكبر العوامل فيه تزاوج الأجناس وتزاوج الأفكار كالذى كان فى الشعر فقد أخذ الفرس الوزن العربى والقافية العربية والأسلوب العربى وكان لهم بجانب ذلك الخيال الفارسى والذوق الفارسى انظر إلى القصيدة التى يقولها الخزيمى : يذكر بغداد ويصف ما انتابها من الفتن أيام الخلاف بين الأمين والمأمون والتى مطلعها :

قالوا : ولم يلعب الزمان ببغداد وتعبر به عوابرها (٨٧)

تحس بنفس قصص ممتع طويل لاعهد للعرب به من قبل وانظر الحكم الهندية الفارسية العربية – التى تجدها فى أقوال بن المقفع . وانظر القصص الذى فى الف ليلة وليلة وكليلة ودمنه .

وانظر انواع المقامات التى تجلت فى عمل البديع والحريرى كل هذا وأمثاله أنواع لا يعرفها العرب الخلص . وانما كانت من غير شك نتيجة عملية التوليد التى أشرنا إليها وما كانت تكون لو عاش العرب وحدهم أو الفرس – وحدهم ومثل ذلك يقال فيما ظهر من أنواع العلوم المختلفة .

والخلاصة أن لقاح العقول أنتج مخلوقات جديدة لها مميزاتها الخاصة كما كان الشأن فى توليد الأجسام .

الآن نريد أن نبحث النواحى التى كان فيها للثقافة الفارسية أثر فى الثقافة الإسلامية .

فأول ذلك الألفاظ اللغوية : ذلك أن العرب كما تحضروا بعد البداوة وجدوا

---

(٨٥) محاضرات الأدباء جـ٢ ص ٦٨

(٨٦) القصيدة فى تاريخ الطبرى جـ صد وتبلغ ١٤٥

أنفسهم أمام أشياء كثيرة ليس فى الفاظهم ما يدل عليها وكان ذلك فى جميع مرافق الحياة من أدوات الزينة وأنواع المأكل والملبس والآت الغناء والدواوين ونظامها ونحو ذلك فسلكوا خير طريق يسلك لذلك وهو أن يتوسعوا فى مدلولات الكلمات العربية أحيانا ويأخذوا الكلمات الأجنبية كما هى أحيانا ومصقولة بما يتفق مع لسانهم أحيانا وكانت اللغة الفارسية منبعا كبيرا من المنابع التى تستمد منه اللغة العربية وتوسع به مادتها ومن قديم تسربت الألفاظ الفارسية إلى اللغة العربية وكان ذلك بطريق التجارة والاختلاط ولكنها تعد قليلة اذا قيست بالألفاظ التى دخلت فى العصر العباسى والسبب فى ذلك أن العرب كانوا أكثر شعورا بأسباب الحضارة فى العصر العباسى فكانوا أشد ملكا للعالم الإسلامى جميعه والعالم الإسلامى لا يتعصب للغة العربية تعصب العرب فهو يفسح صدره للغات الأخرى ما دعا داع إليها .

ثانيا - قد كان للفرس من قديم علم وأدب يناسبان ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم فلما جاءت الدولة العباسية وكثير من رعيتها فرس لهم نزعة وطنية وميول قومية أخذ المثقفون ينقلون إلى اللغة العربية تراث أبائهم وما حفظته العصور إلى عهدهم .

كانت لهم كتب فى التنجيم والهندسة والجغرافية وكانت تتوالى عليهم نكبات تذهب بكثير من كتبهم ولكن كانت مدنيتهم فى حياة وعظمة فكانت تسترد مجدها بتأليف كتب جديدة تساير عظمتهم .

فلما نشطت الحركة العلمية فى العصر العباسى أخذ طائفة ممن يجيدون اللسانين الفارسى والعربى ينقلون الكتب من الفارسية إلى العربية .

وهذا الذى ذكرنا كان ترجمة ونقلا من اللسان الفارسى إلى العربى وشئ آخر لا يقل عنه شأنا وهو : أنه كان هناك قوم أتقنوا اللغة الفارسية والعربية معا فعكفوا على قراءة الكتب الفارسية يتثقفون بها ويرقون أفكارهم وعقولهم ثم هم يخرجون باللغة العربية أدبا وشعرا وعلما وليس ما يخرجونه نقلا تاما لكلام فارسى ولكنه منبعث عنه ومتولد منه كالعربى الذى يتثقف ثقافة فرنسية أو انجليزية أو المانية ثم هو بعد ذلك يخرج أدبا جديدا بلغته العربية لا يسمى آدبا أوربيا ولكنه نتاجه ومتأثر به وسائر على أثره(٨٨)

ويمكن أن نعد من هذا القبيل أبا حنيفة الدينورى فهو وإن كان فارسى الأصل لم يؤلف فيما وصل إليه علمنا شيئا بالفارسية وجميع مؤلفاته بالعربية اختمرت فى ذهنه ثقافة العرب وثقافة الفرس والتقى مزاج العرب بمزاج الفرس فانصهر المزجان فى شخصية أبى حنيفة

---

(٨٧) ضحى الإسلام لأحمد أمين جـ١ ص ١٥

انصهاراتاما فإذا هو أديب عربي – مؤرخ عربي وعالم عربي ورواية عربي وما إلى ذلك من العلوم والفنون التي برز فيها أبو حنيفة وكان في ذلك مثلا رئعا للباحث المخلص للعروبة والدين .

كان كثير من الفرس على هذا النحو حذقوا الفارسية والعربية وتثقفوا بالثقافتين وانتجوا في الادب العربي نتاجا جديدا بل نرى قوما من العرب حذقوا الفارسية ووجدوا فيها من الغذاء ما لم يجدوه في العربية فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون في دراستها ثم يخرجون بعد ذلك أدبا عربيا فيه معاني الفرس وبلاغة العرب .

هؤلاء الفرس الذين تعربوا وهؤلاء العرب الذين أخذوا بحظ من الثقافة الفارسية ملأوا الدنيا في هذا العصر العباسي علما وحكمة وشعرا ونثرا فيها العنصر الفارسي واضح جلي ومن حظ العربية وقتذاك أنها سادت اللغة الفارسية وغلبتها على أمرها فكان نتاج العقول الفارسية الراجحة إنما هو باللغة العربية لا الفارسية شعر الشاعر منهم عربي كبشار وأدب الأديب منهم عربي كابن المقفع وتأليف المؤلف منهم عربي كأبي حنيفة الدينوري وابن قتيبة والطبري .. الخ .

ومهما يكن من شئ فقد كان أثر الثقافة الفارسية في الأدب – العربي من جملة وجوه :

إن الأدب في كل عصر ظل الحياة الاجتماعية وقد كانت هذه الحياة ذات الوان متعددة اظهر لون فيها اللون الفارسي فانعكس كل ذلك على مرآة الأدب وقد كان للفرس أثر كبير في الأدب وغير هذا فقد كانت كتبهم في القصص التي نقلت من الفارسية إلى العربية مثل كليلة ودمنة . وهزار أفسانة « أساسا من الأسس التي بنت عليها الأجيال المتعاقبة ما بين أيدينا من قصص عربي فابن النديم يروى أن محمد بن عيدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء ابتدأ بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من اسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلا بنفسه وكان فاضلا فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة وأقل وأكثر ثم عاجلته المنية قبل استيفا ما في نفسه من تتميمه الف سمر (٨٩) ,

وحينما نتصفح الأخبار الطوال لابن حنيفة الدينوري نشاهد نفس الظاهرة فهو يجمع من اخبار العرب والعجم والروم مادة خصبة في الخطب والرسائل والشعر والقصص

---

(٨٨) ابن النديم ص ٣٠٤

ويقدمها فى أسلوب مشرق رصين . وضرب آخر من الأدب كان للفرس فيه أثر كبير وهو باب التوقيعات .

ذلك أن الفرس قبل الإسلام كانوا يعنون بالبلاغة عناية كبرى وكان لهم فيها تأليف كما حكى الجاحظ وكان من أظهر عنايتهم بالبلاغة الحكم والتوقيعات . فقد كان الفرس ككل الشعوب يرفعون إلى ولاة أمورهم أوراقا تتضمن طلبا لد شئ أو شكوى من شئ نسميها نحن الآن (عرائض) وكانت تسمى عند العرب قصصا سميت بذلك على سبيل المجازلآن القصة اسم للمحكي فى الورقة فسميت الورقة نفسها قصة وكانت تسمى كذلك رقاعا لصغر حجمها تشبيها لها برقعة الثوب(٩٠)

كانت هذه القصص ترفع إلى الملك أو إلى من يليه تبعا لموضوعها وتبعا للمتظلم وقدره وقد جرت عادة الملوك والولاة من الفرس أن يوقعوا على هذه القصص بعبارة بليغة أو حكمة حكيمة يتخير لها أحسن اللفظ وأجود المعنى وتتناقل أثرا من الآثار القديمة كما يتناقل المثل الجيد وقد نقل إلى أدبنا العربى الشئ الكثير من توقيعات ملوك الفرس من ذلك أن رجلا رفع إلى كسرى بن قباذ رقعة يخبره فيها أن جماعة بطانته قد فسدت نياتهم وخبثت ضمائرهم منهم فلان وفلان فوقع فى أسفل كتابه : إنما أملك ظاهر الأجسام لا النيات وأحكم بالعدل لا بالهوى وأفحص عن الاعمال لا عن السرائر .

ووقع أنوشروان فى قصة محبوس : من ركب ما نهى عنه حيل بينه وبين ما يشتهى . ومدح رجل من الخاصة كسرى بن قباذ بمدح اطنب فيه وأسهب وذهب كل مذهب وكان المدح فى رقعة فوقع فيها كسرى : إنى للمدح مستصغر لعلمى بأشياء قد مدحت وكانت بأن تذم محقوقة ولما تحضر العرب وانتشرت بينهم الكتابة وحرروا مظالمهم على رقاع بعد أن كانوا يشافهون بها أمراءهم كان لهم توقيع .

وقد نقلت توقيعات فى أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية ولكن قد سال سيل التوقيعات فى عهد بنى العباس وكان أكثر الكتاب والوزراء فرسا فساروا فيها على سنن آبائهم وكثر ذلك حتى أنشأوا فيما بعد ديوانا أسموه (ديوان التوقيع) هذا إلى أنه كان للفرس شعر كثير وأمثال كثيرة وأدب كثير وضع تحت أعين العرب .

وشئ آخر كان له أثر كبير فى الثقافة الاسلامية أن العجم والفرس خاصة كانوا فى جملتهم أقدر على التدوين والتأليف من العرب بسبب تعمقهم فى الحضارة ولأنهم مرنوا من قديم على التأليف بلغتهم هم وآبائهم فلما دخلوا الإسلام وتعلموا العربية كان تأليفهم بالعربية سهلا يسيرا لأنه ليس إلا احتذاء للمنهج وإن أختلف الموضوع واللغة .

---

(٨٩) ضحى الإسلام جـ١ ص ١٩٦

إذن لا عجب أن نرى فى هذا العصر كثيرا من الفرس كانوا من السابقين الأولين فى تدوين العلوم المختلفة ومنهم صاحبنا أبو حنيفة الدينورى .

وكذلك أثر الهنود فى الثقافة الإسلامية وكان تأثيرهم من ناحيتين ناحية مباشرة وذلك باتصال المسلمين أنفسهم بالهند عن طريق التجارة وعن طريق الفتح العربى فإن هذا الفتح صيرما فتح من بلاد السند جزءا من المملكة الإسلامية تخضع لنظامها وتجرى عليها أحكامها وينتقل المسلمون إليها وينتقل الهنود إلى أنحاء العالم الإسلامى المختلفة وكل من هؤلاء وهؤلاء يحملون ثقافتهم ويتبادلونها بعضهم مع بعض تبادل السلع .

وناحية غير مباشرة : وذلك نقل ثقافتهم عن طريق الفرس فإن الفرس اتصلوا بالهنود اتصالا وثيقا قبل الفتح الإسلامي وأثروا فيهم وتأثروا بهم وأخذوا كثيرا من الثقافة الهندية وأدمجوها فى ثقافتهم فلما نقلت الثقافة الفارسية إلى العربية كان معنى هذا نقل جزء من الثقافة الهندية فى ثناياها وقد أسهم صاحبنا أبو حنيفة الدينورى فى هذه الحركة الثقافية .

وأهم ما استفاد الأدب العربى من الهند أمور ثلاثة :

(١) الفاظ هندية عربت وقد كان ذلك أيام كان العرب يتاجرون مع الهند وينقلون سلعا هندية ويحملون مع هذه السلع أسماءها وقد حكى السيوطى الفاظا هندية عربت ووردت فى القرآن الكريم مثل زنجبيل وكافور - ومما ورد فى اللغة العربية من الألفاظ الهندية الأبنوس والببغاء والخيزران والفلفل وغير ذلك من أسماء النبات والحيوانات الهندية .

ويضاف إلى ذلك آراء فى الأدب والبلاغة نقلت إلينا عنهم وقد كان من أتى بغداد من أطباء الهند وغيرهم يحملون معهم كتبا وصحفا فى مواضع شتى منها الأدب .

حكى الجاحظ أن معمرا أبا الأشعث قال : قلت لبهلة الهندى أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند - ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة : عند نافى ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ولم اعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائها وتلخيص لطائف معانيها . قال : أبو الاشعث فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ متخير اللفظ لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ولا الملوك بكلام السوقة ويكون فى قوله فضل للتصرف فى كل طبقة ولا يدقق المعانى كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ولا يصفيها كل التصفية ولا يهذبها غاية التهذيب ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فليسوفا عظيما[٩١]

---

(٩٠) البيان والتبين جـ١ ص ٧٩

إذن كان مع هؤلاء الأطباء الهنود صحف فى موضوعات غير موضوعاتهم الطبية وكان العلماء يخالطونهم ويسألونهم فى شتى المسائل وكان هناك تراجمة يترجمون من الهندية إلى العربية

وكان هناك شوق لتعلم الناس ما عند كل امة ليقارنوا بينها ويأخذوا أحسنها وقد نقلت إليهم هذه الجملة الهندية فى البلاغة فرأيناها تصاغ فيما بعد فى كتب البلاغة العربية بما سموه (مقتضى الحال) .

(٢) القصص الهندى : وقد أولع العرب به فقد علمنا أن أصل «كليلة ودمنة» هندى نقل إلى الفارسية ثم نقل من الفارسية إلى العربية مع زيادات على الأصل الهندى .

(٣) أما النوع الذى أخذوا منه عن الهنود كثيرا فهو الحكم

كل هذه الفلسفة الدينية والتعاليم الرياضية والحكم الأدبية والشعائر والتقاليد الاجتماعية ذابت فى المملكة الإسلامية وكانت عنصرا هاما من عناصر الآداب العربية .

هذا من ناحية الفرس والهنود أما اليونان فقد كان لهم أيضا أثر كبير فى اللغة العربية والأدب العربى من وجوه :

١ - ألفاظ يونانية عربت ونلاحظ أنها أكثر ما تكون فى أنواع ثياب يونانية ورومانية لم يكن يعرفها العرب ثم عرفوها ولبسوها وأطلقوا عليها كلماتها الأصلية مثل «البرجد» وهو كساء غليظ مخطط أو أسماء عرفها العرب بعد اتصالهم بالرومان ولم تكن من نتاج جزيرة العرب كالزبرجد والزمرد والياقوت . ومقاييس أو موازين رومانية كالقيراط والأوقية أو أسماء طبية أو نباتية كالبلغم والبرقوق واللوبيا والترمس ... الخ .

٢ - قصص يونانية نقلت الى العربية وقد نقل ابن النديم أسماء كتب للروم فى الأسمار والتاريخ ترجمت إلى العربية .[٩١]

٣ - الحكم فقد ترجمت حكم نسبت لفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وملئت بها كتب الأدب فى ذلك العصر مثل البيان والتبيين وعيون الأخبار . والأخبار الطوال وقد أولع العرب بهذين النوعين : «القصص والأمثال» دون غيرهما .

وإن طبيعة الثقافة اليونانية عقلية منطقية تحاول أن تجعل لكل شىء مقدمات ونتائج وهذا الضرب تجلى عند المسلمين فى الرياضيات والفلسفة. وما إليهما وأتت هذه الأشياء فى العصر العباسى ومواضعها خالية تقريبا فكان من السهل أن تصبغ بالصبغة اليونانية من غير كبير مزاحمة .

(٩١) الفهرست ٣٠٥ ، ٣٠٦

وطبيعة الثقافة الفارسية على ما وصلت إلينا فلسفة عملية من حكم تصاغ حول العدل والظلم ونظام الحكم ونحو ذلك مما تراه فى الأدب الكبير والصغير لابن المقفع ليس فيها مجال كبير للنظريات كما هو الشأن عند اليونان ولكن تجارب عملية تجرب فتصاغ فى قالب حكمة أو مثل وهذا النوع استساغه العرب فى أدبهم لأنه أشبه بأمثالهم وطبيعة الثقافة الهندية مزيج من حكمة كالتى قلنا فى الفرس تتجلى فى مثل «كليلة ودمنة» ومن نظريات فلسفية ورياضية كالتى عند اليونان وطبيعة الثقافة العربية الأدبية لسانية أبين شىء فيها جمالها الفنى وأنها بنت البديهة ونتيجة السليقة ووليدة الفطرة .

وهذه الثقافات التى ذكرنا من فارسية وهندية ويونانية وعربية ومن يهودية ونصرانية وإسلامية التقت كلها فى العراق فى العصر العباسى الأول ولكن كل ثقافة فى أول أمرها كانت تشق لنفسها جدولا خاصا بها يمتاز بلونه وطعمه ثم لم تلبث إلا قليلا حتى تلاقت وكونت نهرا عظيما تصب فيه جداول مختلفة الألوان والطعوم مختلفة العناصر .

والعلماء على اختلاف أنواعهم لم يكونوا كلهم يستسيغون ماء النهر الأعظم ولا يتذوقون طعمه فكان منهم من يخرج إلى بادية العراق يرد الجدول العربى صافيا قبل أن تكدره الحضارة يستقى منه ما يشاء أن يستقى ويعود إلى الحضر وقد تزود مما استساغه من ماء يعيش عليه ولا يشرب إلا منه وإذا استسقى فلا يستقى إلا منه أولئك أمثال الأصمعى الذى حفظ كما يقولون اثنى عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب وحفظ الكثير من قصائدهم ونوادرهم ولغتهم وتخصص لذلك يؤلف فيه ويعلم فى المسجد ويحاضر الخلفاء والولاة وأمثالهم وكأبى زيد الأنصارى الذى يجيد نوادر اللغة وغريبها كما كان يجيد ذلك أبو حنيفة الدينورى وكحماد الراوية وخلف الأحمر والمفّضل الضبى وأبى عمرو الشيبانى ومحمد بن سلام الجمحى فهؤلاء كانوا لا يعجبهم إلا الجدول العربى يرحلون إليه ويأخذون منه ويتنقلون فى قبائله ويروون شعره ولغته وأدبه ويقصون نوادره مهما تفهت ويحبون كل شىء له ثم يذهبون الى العراق يعلنون عن مائه ويبشرون بعذوبته وصفائه .

ومنهم من كان لا يحب إلا الجدول اليونانى يتعلم كتبه ولغته ويستلهم مؤلفاته ولا يرى العقل الا فيه ولا الحكمة إلا صادرة عنه ومقتبسة منه . ومن الناس من يستقى من جدولين يرد هذا مرة وذلك مرة حتى إذا علّ ونهل ملأ منها كلّ آنيته وعاد فجمع العنصرين وكوّن منهما شرابا جديدا يستسيغه الناس فيعجبون به ويستطعمونه كالذى فعل أبو حنيفة الدينورى فهو فارس اطلع على أداب الفرس وأخبارها وملوكها وحكمائها ومحاسنها ومساويها وعرف أخبار العرب التى يتناقلها المؤرخون إلى اليوم فكان واسع الإطلاع فى الأدبين العربى والفارسى ويبدو من كتابه الأخبار الطوال ومن طريقة تأليفه

أنه كأن يجلس إلى الناس فيحدث بأخبار هؤلاء وهؤلاء ويقارن بين مفاخر العرب ومفاخر الفرس فإن كتابه هذا فيه قسم خاص بالفرس وقسم خاص بالعرب . فطلع على الناس بثقافتين فى وعاء واحد فكرهه من تعصب للعرب ورأوا ماءه ليس صافيا ولا طعمه بالذى ألفوه واعتادوا الرّى منه وأحبه من ينزع إلى الفرس ويفسح صدره لكل علم وخبر ويرى الحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث وجدها كالجاحظ .

وفى الحق أن الجدول العربى كاد يكون مستقى الناس جميعا إذا نحن استثنينا طائفة من السريانيين الذين تثقفوا بالثقافة اليونانية أو المجوس الذين يتأدبون بالآداب الفارسية ويدينون بالديانة الزرادشتية أما غير هؤلاء فكانوا يأخذون بحظ من الجدول العربى قل أو كثر ذلك لأن الدولة السياسية عربية بخلفائها ولغتها ودينها ودولة الأدب عربية فلا يحيا فيها إلا ما كان عربيا فاضطر كل ذى أدب وكل ذى علم وكل ذى لغة أن يتعلم اللغة العربية يصوغ فيها أفكاره وأدبه وعلمه فمن تبحر فى العلوم اليونانية وجب أن يخرج ما علم إلى اللغة العربية . ومن تأدب بالأدب الفارسى فلا قيمة له إلا أن يخرج أدبه باللغة العربية كما فعل أبو حنيفة الدينورى وهكذا .

وبعد فإن نحن أردنا أن نختار من يمثل هذه الثقافات ممتزجة لا نجد خيرا من الجاحظ وابن قتيبة وأبى حنيفة الدينورى . كل واسع الإطلاع غزير العلم كثير التأليف نال حظا وافرا من نواحى العلوم المختلفة أولهم زعيم المتكلمين من المعتزلة وثانيهم زعيم أهل السنة وثالثهم زعيم علماء النبات كل أديب وعالم ولغوى ومؤرخ .

وعلى الجملة فكانوا هم ثلاثتهم « دائرة معارف » زمانهم نستطيع إذا ألممنا بكتبهم أن نعرف أى شئ من العلم كان فى عصرهم وأى شىء لم يكن وهم مع هذا كله مختلفون تمام الاختلاف طعما وذوقا وروحا وعقلية ونظرا إلى الحياة .

كما سيتضح عند الكلام فيهم ولسنا نريد أن نتوسع فى تاريخ حياتهم ولا تحليل كتبهم ولا الإحاطة بكل نواحيهم فذلك مالم نقصد إليه وسنوازن بين هؤلاء الثلاثة على أساس أنهم يمثلون الثقافات ممتزجة وجداول العلم مجتمعة ونختار من كتبهم أدلها على ذلك الغرض وأوفاها لهذا المقصد ثم نوازن بينهم فى عالم اللغة والأدب والنقد .

بين الجاحظ وأبى حنيفة

من أكبر ما تمتاز به كتب الجاحظ أن يأخذ بيدك ليطلعك على الحياة الاجتماعية ويجعلك تلمسها وتذوقها - على قلة الكتاب الذين يعنون بهذه الناحية فإذا أنت قرأت « الكامل » أو « أمالى القالى » أو « عيون الأخبار » لم تحس فيه شيئا من ذلك ومن أجل هذا كانت كتب الجاحظ أغزر مصدر لدارس الحياة الاجتماعية فى عصره .

كتب الجاحظ فى كل موضوع تقريبا من المعلمين إلى بنى هاشم ومن اللصوص إلى الذئاب ومن الكلام فى صفات الله إلى القيان ومن القضاة والولاة إلى أمهات الأولاد فإن نحن قلنا أن كتبه « دائرة معارف » لزمانه غير مرتبة على أحرف الهجاء ولا على أى أساس كان ذلك صوابا وللجاحظ أسلوب يمتاز به ولا ينسب إلا إليه هو أسلوب الجاحظ تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما حتى لتستطيع من غير كثير عناء أن تعرف أى الكتب له وأيها ليست له هو فى تأليفه أنيس محاضر تحرر من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره - تحرر من التزام الجد فهو دائما يخلط جدا بهزل وكان أبو حنيفة جادا على طول الطريق كما تحرر الجاحظ من طريقة العلماء فى قصر نفسه على الموضوع الذى يتكلم فيه الجاحظ لا يؤمن بذلك وأنت عرضة لأن تجد فى كتبه أدق الموضوعات وأجلها فى أتفه العناوين وأسخفها بعكس أبى حنيفة الذى التزم طريقة العلماء فى قصر نفسه على الموضوع الذى يتكلم فيه فأبو حنيفة يؤمن بذلك .

غلبت على الجاحظ النزعة الأدبية فى كل ما كتب حتى فى الحيوان فهو يتخير خير الألفاظ وأحسن التعبيرات ويفر سريعا من التحقيق العلمى الى مناحى الأدب من شعر أو حكمة أو نادرة وغلبت على أبى حنيفة النزعة العلمية وإن كان يتخير ألفاظه ويحسن تعبيره فهو حريص على التحقيق العلمى ولم يمنعه ذلك من أن يروى الشعر والحكمة والقصة بعد أن يخلق لها جوها الذى قيلت فيه . فهو عالم أديب والجاحظ أديب عالم .

ألف الجاحظ فى النبات كتاب الزرع والنخل وألف أبو حنيفة كتاب النبات وبينما مزج الجاحظ العلم بالأدب فى كتابه مزج أبو حنيفة اللغة بالعلم واستعان كل منهما بالبراهين النظرية وبالتاريخ والشعر وما يعرف من أحداث وما جرب هو من تجارب ومزج ما تعلم بما قرأ بما سمع بما شاهد بما جرب كما مزج الشعر الجاهلى بالشعر الإسلامى بعلم أرسطو كما مزج القرآن الكريم بأحاديث النبى ﷺ

وكان كل منهما ذا عقل قوى قل أن يقبل الخرافة بل هو يهزأ بمن يقبلها .

اتصل الجاحظ باليونان من كتبهم ومن طريق المتكلمين فعرف أرسطو وكذلك صنع أبو حنيفة الدينورى ويظهر أن ثقافتها اليونانية اتسعت بمجالستها لكثير من المثقفين بها .

واتصل الجاحظ بالفرس وعرف الكثير عنهم ونقل عن ابن المقفع ويتكلم فى أساطيرهم ويعد كلاما طويلا فى كتابه الحيوان يذكر فيه نيرانهم ويحكى عن المانوية والزنادقة وكتبهم وعباداتهم . أما أبو حنيفة الدينورى فكان فارسى الأصل وبطبيعة الحال تكون معرفته بالفرس أغزر وأعمق من معرفة الجاحظ .

وعلى الجملة فثقافة كل من الجاحظ وأبى حنيفة الدينورى مزيج من العربية واليونانية والفارسية والهندسية وكتبهما معرض لهذه الثقافات وللثقافات الدينية أيضا وقد رأى الجاحظ أن العالم من يحسن من كلام الدين بقدر ما يحسن من كلام الفلسفة والمصيب هو الذى يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقها من الأعمال .(٩١)

وهذا الرأى ينطبق على كل من الجاحظ وأبى حنيفة الدينورى فكلاهما يحسن من كلام الدين بقدر ما يحسن من كلام الفلسفة ويجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال .

إن آثار الجاحظ التى عثر عليها تدل على علو كعبه فى الأدب وعلى صحة رأى أبى حيان فيه وتحمسه له كما أنها تدل أيضا على وجود اختلاف بين الجاحظ وأبى حنيفة فى خصائصهما العلمية وكذلك بين أبى حنيفة وأساتيذه الأجلاء كابن السكيت وأبيه فبينما اقتصر هؤلاء على المواضيع اللغوية اتسعت آفاق أبى حنيفة حتى شملت جميع فروع العلوم فى أيامه .

وإذا كان أبو حنيفة قريع الجاحظ فى عمق التفكير وسعة المعرفة فقد فاقه فى دقة تصنيف العلوم ، وفى الابتعاد عن خلط بعض البحوث العلمية ببعض فى كتاب واحد فجعل لكل موضوع علمى كتابا على ما يتضح لنا من أسماء تصانيفه .(٩٣)

وبجانب الجاحظ وأبى حنيفة الدينورى عالم آخر ، والثلاثة كما قلنا يمثلون معارف العصر كما يمثلون أنواعا مختلفة الطعوم والألوان من الامتزاجات بين الثقافات ذلكم العالم هو :

ابن قتيبة الدينورى وإذا كنا فى هذه العجالة قد وازنا بين الجاحظ وأبى حنيفة فلننتقل الآن للموازنة بين أبى حنيفة الدينورى وبين ابن قتيبة الدينورى .

---

(٩٢) الحيوان جـ٢ صـ٤٨ .

(٩٣) مقدمة فهارس كتاب « الأخبار الطوال » لكراتشفوفسكى صـ٢٥ -٢٧ .

بين أبي حنيفة وابن قتيبة

فأما ابن قتيبة فهو أبو محمد عبد الله بن مسلم أصله فارسى من مرو تربى فى بغداد وتولى القضاء بدينور فنسب إليها ثم كان معلما ببغداد وعاش من سنة ٢١٣ إلى سنة ٢٧٦هـ فهو قد عاصر أبا حنيفة جزءا طويلا من عمره وهو فارسى الأصل وكذلك كان أبو حنيفة وكان قاضيا بالبلدة التى ولد فيها أبو حنيفة ونسب إليها والذى لاشك فيه أنه اتصل بأبى حنيفة وعرفه حق المعرفة بل إن فريقا من الباحثين كان يذهب إلى أن ابن قتيبة كان يسطو على مؤلفات أبى حنيفة فيسرقها وينسبها إلى نفسه .

أما من حيث الطبيعة والمذهب فطبيعة أبى حنيفة وابن قتيبة يغلب عليها الجد والوقار فأبو حنيفة عالم وابن قتيبة قاض . وأما من حيث المذهب فأبو حنيفة شيعى وابن قتيبة من أهل السنة وشخصية أبى حنيفة فى كتبه أقوى من شخصية ابن قتيبة فأبو حنيفة لا يخرج ماعلم إلا مهضوما قد أسبغ عليه من نفسه ولسانه وابن قتيبة واسع الإطلاع فى غير شخصية قوية كما يظهر لى يعرف كثيرا ويجمع كثيرا ويؤلف كثيرا وكل ما وصلنا من تأليفه يدلنا على أنه عالم أديب ناقد فقد اتصل بنواح كثيرة من العلم من لغة ونحو وأدب وشعر وحديث وفقه وتاريخ ومذاهب دينية ولكنه يفهم من التأليف أنه يجمع ويجمع عن سعة إطلاع ويختار ما يجمع من غير أن يظهر نفسه فيما يجمع .

أما أبو حنيفة فقد كان واسع الإطلاع ويحمل شخصية قوية يعرف ويجمع ويؤلف وينقد وما وصلنا من كتبه يدل على أنه عالم أديب ناقد راوية لغوى مهندس . اتصل بنواح كثيرة من لغة ونحو وأدب وشعر وتفسير وحديث وفقه وتاريخ ومنطق ونبات وفلك ونجوم وهندسة ومذاهب دينية وكان يجمع ويجمع عن سعة ولكنه يفكر فيما يجمع ويمحصه . وكلاهما لم يخض فى الأحداث السياسية والاجتماعية التى عاصرها وان خاض فى الأحداث السياسية والاجتماعية للعصر العباسى الأول من قبل ميلاديهما والتى حدثت فى فترة طفولتهما .

ثم إن ابن قتيبة رجل دينى من أهل السنة فكان لذلك مثقفا ثقافة دينية واسعة ولم تقتصر ثقافته على الإسلام بل قرأ التوراة والإنجيل . وأما أبو حنيفة فرجل دينى أيضا من الشيعة وكان مثقفا ثقافة دينية واسعة .

وعلى الجملة فهما يمثلان امتزاج الثقافات أيضا .

تعقيب :

ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن أبا حنيفة الدينورى كان ثالث ثلاثة ثقفوا ثقافة علمية

وأدبية واسعة وليس بأقلهم وان كان حظه من الشهرة في عصورنا الأخيرة دونهم وكان نحويا لغويا مهندسا منجما حاسبا راوية ثقة فيما يرويه ويحكيه . وكان يقرن بالجاحظ فى بلاغته ويختلف الناس أيهما أبلغ على نحو ما مر بنا فى الموازنة بين الجاحظ وأبى حنيفة .

ويظهر أن ثقافته اليونانية والهندسية كانت أوسع منها فى صاحبيه الجاحظ وابن قتيبة وعلمه الرياضى يكمل نقصها يدل على ذلك تأليفه فى الفلك والحساب والجبر والمقابلة ونوادر الجبر والقبلة والزوال والكسوف والبحث فى حساب الهند .

ولكننا هنا ونحن نهم بقفل هذا الباب عن حياة أبى حنيفة الدينورى وبيئته لا يسعنا إلا أن نسجل أبرز العوامل التى تركت أثرها فى هذه الشخصية العظيمة .

لقد تأثر أبو حنيفة إلى حد كبير بما تأثر به النثر فى العصر الأول من عهد الدولة العباسية : بأسلوب القرآن الكريم والفلسفة والفكر اليونانى والفن الفارسى وهى العناصر التى تفاعلت فى كيان اللغة .

ثانيا تأثر بالاتجاهات الشعوبية والمذاهب الإسلامية والسياسية .

ثالثا كان لتشيعه أثر كبير فى أدبه وسلوكه .

رابعا عنايته بالرحلات والأسفار العديدة فقد أمضى شبابه فى الرحلات .

وقادته خطواته إلى قلب الحضارة العربية فى بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات ثم امتدت به أسفاره إلى المدينة المنورة وإلى الأرض المقدسة بفلسطين وإلى شواطئ الخليج العربى فعاش فيها أزمانا طالت أو قصرت ولكنها تركت فى نفسه ذكرا وفى فكره علما .(٩٤)

وانتقل أبو حنيفة الدينورى إلى أصفهان سنة ٢٣٥هـ(٨٥٠) وعاش بها مدة اشتغل فيها برصد الكواكب وتسجيل نتائج الأرصاد التى يقوم بها فى معمله الفلكى .

وقد كان لأبى حنيفة الدينورى صيت ذائع وشهرة مرموقة فى عالم الأرصاد وإن الأستاذ قدرى طوقان يحدثنا عن ذلك فيقول :

ومن أشهر الأزياج(٩٥) زيج أبى حنيفة الدينورى

ومن العجيب أنه على الرغم من خوضه فى علوم مختلفة فقد كان مالكا لزمام

---

(٩٤) عبد المنعم عامر مقدمة الأخبار الطوال صفحة (و).

(٩٥) مفردها زيج وهو عند العرب صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة فى وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواقع الكواكب فى أفلاكها لأى وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولهذه الصناعة قوانين كالمقدمات والأصول لها فى معرفة الشهور والأيام والتواريخ والحضيض والميول والأوج وأصول متقررة وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها فى جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين وتسمى الأزياج .

مواضيعها فلا يكتفى بالرواية والنقل بل يأتى بالآراء الشخصية الطريفة خلافا لكثير من الأدباء المعاصرين له ولمعظم الذين جاؤا بعد عصره.(٩٣)

وموجز القول فى أبى حنيفة أنه كان عالما موسوعيا بكل ما فى هذه الكلمة من معان وأنه حلق فوق أقرانه من علماء العلوم المختلفة.

وأنه فى كتابته يسير وفق الطريقة المرسلة : ذلك أن من الكتاب من يرسلون أقلامهم على سجيتها فتنطلق حرة غير مقيدة فيكون هدفهم الأول الاهتمام بالمعانى ولهذا لايقصدون إلى السجع وغيره من الزخارف اللفظية فإن وجد ذلك كان عفوا ومن هؤلاء الكتاب ابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة وصاحبنا أبو حنيفة كما ذكرنا ذلك سابقا.

امتاز أسلوب أبى حنيفة إذن بالترسل فلا سجع ولا محسنات لأن طبيعة عصره لم تكن لتسمح بالوقوف عند تزيين اللفظ.

كما ظهر فى أسلوب أبى حنيفة أثر الثقافة الواسعة والميل إلى الاستدلال المنطقى والخطابى.

كما انه عنى أيضا بالمعانى حتى تساير الحضارة والثقافة وامتاز أسلوبه أيضا بظهور الخصائص الخطابية فى كتاباته الأدبية وذلك من تكرار وترادف وجمل قصيرة واعتماد على التهويل وتنويع الأساليب وإنك لتحس فى تعبير أبى حنيفة عن أفكاره بالحزم والثقة والاعتداد بمكانته. تلك طريقة أبى حنيفة فى الكتابة وقد كان يقابل هذه الطريقة طريقة أخرى هى الطريقة المقيدة، ذلك أن من الكتاب من يفرضون على أقلامهم قيودا خاصة يلتزمونها فيكون هدفهم الاول التنميق والزخرفة فيستعملون السجع والجناس والازدواج وبذلك انصرفوا عن العناية بالمعانى فاستهلكت وضاعت قيمتها ومن هؤلاء الكتاب ابن العميد والقاضى الفاضل واضرابهما وهذه الطريقة شاعت فى عصور الانحطاط كعصر المماليك والعصر التركى.

لقد عاش أبو حنيفة الدينورى رحمه الله وطيب ثراه فى العصر الذى ضبطت فيه اللغة العربية وإزدهرت آدابها ونقلت إليها علوم الأقدمين ووسعت وصبت فى ثقافة عربية كانت فى تلك الأيام أشمل الثقافات وأوسعها فى العالم كله ولا شك أنه كان من أبرز العلماء الذين بنوا ذلك الصرح اللغوى والعلمى الشامخ الذرى.

وقد اختلفوا فى تاريخ وفاته ولكن معظم الذين ترجموا له فى القديم والحديث يرجحون كونه توفى فى يوم ٢٦ من جمادى الأول سنة ٢٨٢هـ الموافق ٢٤ يوليو سنة ٨٩٥ رحمه الله كفاء ما أسدى للعروبة والإسلام من خدمات جلى وفى موكب الخالدين.

---

(٩٦) العلوم عند العرب لقدرى حافظ طوقان صـ٦٩ - ٧٠ مشروع الألف كتاب دار مصر للطباعة بالفجالة.

الفصل الثالث

آثــاره

١ - تفسير القرآن الكريم - ٢ - نوادر الجبر.
٣ - البحث فى حساب الهندسه - ٤ - الجبر والمقابلة .
٥ - الوصايا ٦ - فى حساب الدور والعول .
٧ - البلدان - ٨ - الكسوف - ٩ - القبلة والزوال - ١٠ - رسالة فى الطب
١١ - البـــاه - ١٢ - إصلاح المنطق - ١٣ - الجمــع والتفريق - ١٤ - البيان - ١٥ - الشعر والشعراء ١٦ - الرد على رصد الأصفهــانى - ١٧ - جواهــر العلم - ١٨ - مــا يلحن فيــه العامة - ١٩ - الفصاحة - ٢٠ - النبات : الأدب فى كتاب النبات ، الاشتقاق الصغير ، الاشتقاق الكبير ، الاشتقاق الأكبر ، المشترك اللفظى ، الترادف ، الوصف بالمصدر ، جمع التكسير ، الإقواء فى الشعر ، جمع المؤنث ، الرمث فى الأدب الجاهلى .

٢١ - الأنواء : تعقيب يتناول تطور المعاجم العربية والمذهب البغدادى وطبقات اللغويين وعلى الأخص طبقة أبى حنيفة - ٢٢ - الأخبار الطوال : تاريخ وأساطير وأدب - المعجم اللغوى ودلالاته - خطة الكتاب - القصة التاريخية - أسلوب الكتاب - أهم العوامل المؤثرة فى حياة أبى حنيفة وفنه ، علاقة العرب بالمعجم ، القومية العربية ، التربية والتعليم ، المرأة ، التنجيم ، اختلاف الألسن ، جو النص ، حب على وشيعته ، كتاب له قيمة تاريخية وقيمة أدبية ، الصورة الأدبية ، الحرب والسياسة .

لقد حظيت مؤلفات أبى حنيفة الدينورى بعناية رجال التراجم قديما وحديثا فدونوا قائمتها فى كتبهم وفى (١) مصنفاتهم وبلغت عدة جملتها عشرين كتابا كما ذكرها القفطى فى كتاب انباه الرّواة على أنباه النحاة .

وهذه الكتب هى :

١ - تفسير القرآن :

ويقع هذا التفسير فى ثلاثة عشر مجلدا وقد ذكره أبو حيان التوحيدى ضمن مؤلفات الدينورى وأضاف إلى ذكره أنه لم يره .

---

(١) الفهرست لابن النديم ، الجواهر المضيئة لعبد القادر - أنباء الرواه للقفطى .

وذكره حاجى خليفة تحت عنوان : تفسير الدينورى وهو أبو حنيفة أحمد بن داود النحوى اللغوى المتوفى سنة ٢٩٠ تسعين ومائتين[٢] .

وبالرغم من أن تفسير أبى حنيفة لم يصل إلينا فإننا نستطيع أن نلقى بعض الضوء على اتجاه أبى حنيفة فى التفسير بناء على ما جاء فى المخصص لابن سيده منسوبا إلى أبى حنيفة .

وإنه وإن كان أبو حنيفة قد ذكر ما ذكر من آيات على أنها شواهد على صحة ما يرى وعلى صحة ما يشرح إلا أننا نرى أن الصلة جدّ وثيقة بين الشاهد والشرح . أليس الشاهد دليلا على صحة الشرح ؟ فلنستمع إلى أبى حنيفة إذن .

قال أبو حنيفة : نبت ألف ولفيف وقد لفّ يلفّ لفا ولففا والتف وجه الغلام : إذا اتصلت لحيته واستد خصاصها وكذلك الفخذ اللفاء وهى التى لافرجة بينها وبين أختها قال تعالى : « وجنات ألفافا » واحدها لفّ .

وقال أيضا[٤] : الهيج أول شهبة نراها فى النبت ثم لا يزال هائجا حتى لا ترى فيه من الخضرة شيئا فيقال هاج النبت وقال أنى النبت يأتى : حان هيجه قال : فإذا ذهب سواد الخضرة كله فذلك حين يصفرّ وهو أول الهيج . قال الله تبارك وتعالى : ثم يهيج فتراه مصفرا . وذلك حين تصفر خضرتها وتنفض الثمرة وتوبس .

قال أبو حنيفة[٥] : واذا امتنعت المراعى عند جفوفها قيل : أخذت رماحها فإذا جف العشب فهو حينئذ الحصاد وقد أحصدت الأرض والكلأ قال الراجز .

حتى إذا ما طار عن مقطره والمحصد الحطام عن مصفره

قال ابن مقبل فى الحصاد وذكر حمار وحش :

قصام أوساط السفن متعلق أرساغه بحصاد عرب ناصل

وقال مرّة : المحصد : الذى قد جف وهو قائم والحصيد/الذى قد انتزعته الرياح فطارت به أو حصدته الأيدى فإذا تكسر اليبيس وتحطم فهو الهشيم قال الله عز وجل : « فأصبح هشيما تذروه الرياح - يقال ذرته الرياح تذروه ذروا وتذريه وأنرته فهو ذراوة وقال حميد فى الذراوة :

وعاد خبّاز يسقيه الندى ذراوة تنسجها الهوج الدرج

---

(٢) كشف الظنون لحاجى خليفة المجلد الأول ص ٤٤٧ .

(٣) جـ١ . ص ١٩١ من المخصص .

(٤) جـ١٠ - ص ١٩٨ من المخصص .

(٥) المرجع السابق ص ٢٠٠

قال : وقال بعضهم أذرته الريح : قلعته من أصله وذرته : طيرته والذّرى بمنزلة النفض اسم لما تنفضه الشجر من الثمر وقال أيضا[٦] : ومن آفاته - النبات - الحسبان وهو شر وبلاء وحكى : أصاب الناس حسبان إذا أصابهم جراد أو عجاج وقد قال الله تبارك وتعالى فى جنة رجل : « أو يرسل عليها حسبانا من السماء » .

وقال أيضا :

وكل مالم يستحكم طعمه فهو خمط . قال الله تعالى : « ذواتى أكل خمط » والأكل : الثمر قليلا كان أو كثيرا . قال الهذلى فى وصف الخمر :

عقار كماء النيْ ليست بخمطة ولا خلة يكون الشروب شهابها

أي لم تتحكم ولا هى حامضة . هى جيدة الطعم وقيل الخمط ذو الشوك[٧] .

ومن هنا نرى أن تفسير أبي حنيفة سار على المنهج اللغوى فى التفسير فقد عنى بمفردات اللغة وحسب . صحيح أن حديث أبا حنيفة السابق كان عن النبات وأن ابن سيده نقله من كتاب النبات لأبى حنيفة ولكن لا ضير من هذا فهو تفسير على كل حال بل لعل أبا حنيفة قد قصد من وراء ذلك إلى أن يجمع من آيات القرآن ماله صلة بموضوع النبات وعلى ذلك يكون لدينا تفسير قرآنى خاص بالنبات فى القرآن الكريم ، ولعل أبا حنيفة قد صنع فى تفسيره ما صنع فى كتاب النبات فجعل القرآن محورا لدراسة لغوية واسعة .

٢ - كتاب نوادر الجبر[٨] :

ولم يتناوله الرواة بكثير من الذكر .

٣ - كتاب البحث فى حساب الهند - ويرويه بعض الأوربيين بأنه كتاب التخت فى حساب الهند[٩] .

٤ - كتاب الجبر والمقابلة : ولم يتناوله الرواة بكثير من الذكر .

٥ - كتاب الوصايا : وموضوعه أحكام المواريث فى الشريعة الاسلامية وقد أضاف إليه أبو حنيفة رسالة خاصة أوجز فيها بعض ما ذكره فى الكتاب[١٠] .

ولعل أبا حنيفة كان يميل إلى الإيجاز فهو يذكر فى مفتتح « الأخبار الطوال » أنه مختصر من السير مقتصر عن الإطالة كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق .

---

(٦) المرجع السابق ص ٢٠٧ .   (٧) المخصص ج ١١ - ص ٨ .

(٨) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة ن .

(٩) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة ل .

(١٠) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة ى .

وهو هنا بعد أن تحدث فى كتاب الوصايا عن أحكام المواريث عاد فلخص ما ورد فى كتابه وهذا التلخيص تقليد جامعى مرعى فى رسائل الماجستراه والدكتوراه فى أيامنا نحن فالرسالة من هذه أو تلك تنتهى بخلاصة لما ورد فيها ومن هنا نرى أن أبا حنيفة قد سبق إلى هذا التقليد .

ثم إن هذا التلخيص يعطينا صورة أخرى عن أبى حنيفة وأنه كان يحمل بين جنبيه طبيعة المعلم الذى يرى أن الخاتمة آخر شئ يعلق بالذهن ومن هنا فهو يلخص كتابه كله فى نقاط ليكون سهلا ميسرا على من يقرؤه ولعله كان يرى أن كثرة الكلام ينسى بعضه بعضا فرأى أن يلخص بعد إطالة .

٦ – كتاب فى حساب الدور والعول :

« ومباحثه تدور حول أجزاء الميراث التى ترد على الورثة الأصليين إذا لم تستوفها أنصبتهم المفروضة . وقد ذكره حاجى خليفة صاحب كتاب كشف الظنون بدون عنوان فى فصل حكم الدور والوصايا[١١] .

وتأليف أبى حنيفة فى الجبر وفى حساب الهند وفى الوصايا وفى حساب الدور والعول أقول : إن تأليف أبى حنيفة لهذه الكتب دليل على أنه كان يدرك منفعتها وأثرها فى ضبط المعاملات وحفظ الأموال وقضاء الديون وقسمة التركات . كما أنه كان محتاجا للحساب والجبر بالذات . أليس عالما فلكيا طبيبا ؟

لقد بالغ صاحب كشف الظنون فى قيمة هذه العلوم حين ذهب إلى أنه « لا يستغنى عنها ملك ولا عالم ولا سوقة[١٢] والذى لا شك فيه أن هذه العلوم ذات أثر بالغ فى تكوين العقل المضئ وفى التدريب على الصواب ولهذا يهتم بها المربون كل الاهتمام كما أن من آثار تعلمها أنها تغرس فى النفس فضيلة الصدق لحرص المشتغلين بهذه العلوم على الصحة وإصابة الغرض الشريف .

ومن عجيب الأمر أن هذه العلوم تعتبر حلقات فى سلسلة واحدة لأنها تؤدى فى الغالب إلى غرض واحد .

ولعل حاجى خليفة قد أدرك هذه الحقيقة حين قال[١٣] فى كتابه عن هذه العلوم ومنها علم حساب الدور والوصايا . وهو علم يتعرف منه مقدار ما يوصى به إذا تعلق بدور

---

(١١) عبد المنعم عامر : مقدمة الأبار الطوال صحة (د) .
(١٢) كشف الظنون لحاجى خليفة ص ٣٦٦٢.
(١٣) كشف الظنون لحاجى خليفة ص ٦٦٢ – ٦٦٤ .

بادى النظر.... ثم قال : وبهذا العلم يتعين مقدار الجائز بالهبة وظاهر أن منفعة هذا العلم جليلة ، وإن كانت الحاجة إليه قليلة ومن كتبه كتاب لأفضل الدين الخونجى أقول هذا العلم(١٤) يؤول إلى علم الجبر والمقابلة وفيه تأليف لطيف لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى .

٧ – كتاب البلدان أو كتاب كبير :

« وقد جاء ذكره فى كتاب كشف الظنون تحت عنوان تاريخ أبى حنيفة وليس لهذا الكتاب شهرة كبيرة .

ويروى المسعودى أن ابن قتيبة قد انتحل لنفسه هذا المؤلف وأنه قد فعل هذا فى كثير من كتب أبى حنيفة الدينورى وكان هذا الأمر شائعا فى ذلك الوقت وقد ساعد عليه عوامل عدة وله فى التاريخ نظائر كثيرة(١٥) .

ولكن جاء فى هامش كتاب أنباه الرواة على أنباه النجاة للقفطى بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ص ٤٢ ما يلى :

فى الفهرست ومعجم الأدباء والخزانة كتاب « الأخبار الطوال » وسماه صاحب كشف الظنون « تاريخ أبى حنيفة » ونقل عن المسعودى وهو كتاب كبير أخذ ابن قتيبة ما ذكره وجعله لنفسه .

ومن هنا ترى أن تسمية صاحب كشف الظنون كانت لكتاب الأخبار الطوال وليست لكتاب البلدان الكبير كما يرى الأستاذ عبد المنعم عامر وحديث المسعودى أيضا عن كتاب الأخبار الطوال وليس عن كتاب البلدان كما يرى الأستاذ عبد المنعم عامر :

وإليك ما يقوله صاحب كشف الظنون :

« تاريخ أبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائتين قال : المسعودى هو كبير أخذ ابن قتيبة ما ذكره وجعله عن نفسه(١٦) .

على أن ما جاء فى الفهرست لابن النديم يدل على أن هناك كتابين : الأول كتاب البلدان ، والثانى : كتاب كبير وقد جاء ذلك فى صفحة ١١٦ من كتاب الفهرست لابن النديم وصنيع الأستاذ عبد المنعم عامر يدل على أنهما اسمان لكتاب واحد فهو يقول :

كتاب البلدان أو كتاب كبير .

---

(١٤) يقصد علم الحساب .

(١٥) مقدمة الأخبار الطوال للأستاذ عبد المنعم عامر صفحة (م) .

(١٦) المجلد الأول من كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون للعالم الفاضل الأديب والمؤرخ الكامل الأديب مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة وبكاتب جلبى تصحيح وطبع محمد شرف الدين بالتقايا أحد المدرسين بجامعة استنبول والمعلم رفعت بيلكه الكليسى ص ٢٨٠ طبع وكالة المعارف الجليلة ١٩٤١ – ٣١٣٦٠.

٨ - كتاب الكسوف .

وقد جاء ذكره فى معجم الأدباء لياقوت وذكره حاجى خليفة فى كتاب كشف الظنون ويرى المستشرق كراتشكوفسكى أن هذا الكتاب هو نفس كتاب الرصد للدينورى الذى صنفه بأصبهان سنة ٢٣٥هـ كما يذكر كراتشكوفسكى أن ما جاء بكتاب كشف الظنون من أن الدينورى قد ألف كتاب الرصد لركن الدولة حسن بن بويه الديلمى مردود لأن أبا حنيفة لم يعاصر ركن الدولة وأن ما وقع فيه حاجى خليفة فى كتاب (كشف الظنون) قد سبقه إليه كل من البيرونى والبتانى وعبد الرحمن الصوفى .

٩ - كتاب القبلة والزوال :

وقد ذكره المترجمون باختصار فى كثير من المصادر .

١٠ - رسالة فى الطب :

مجموعة فى ورقات قليلة ولم تحظ هذه الرسالة بشهرة عظيمة بين مؤلفات أبى حنيفة .

١١ - كتاب الباه :

ولم يذكره كثير من المترجمين لأبى حنيفة .

١٢ - كتاب إصلاح المنطق :

وقد اعتبره بعض العلماء الأوربيين رسالة فى المنطق ، ومن المحققين من ينسب هذا الكتاب إلى ابن السكيت والحق أنه لأبى حنيفة وقد هذبه أبو القاسم حسين بن على المعروف بالوزير المغربى (١٧) .

« وقد جاء ذلك فى كتاب كشف الظنون حيث يقول مؤلفه :

إصلاح المنطق : لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة تسعين ومائتين وهذّ به أبو القاسم حسين بن على المعروف بالوزير المغربى مات سنة ٤١٨ (١٨) .

١٣ - كتاب الجمع والتفريق : .

« ويشمل جزءا من علوم البلاغة التى يوليها المؤلفون العرب قسطا كبيرا من الدراسات العامة (١٩) .

١٤ - كتاب البيان :

وقد ذكره العالم غازيرى عند وصفه مخطوطات مكتبة الاسكوريال بأسبانيا وبعد دراسته قائمة المؤلفين الذين ذكرهم ابن العوام كما ذكره أيضا حاجى خليفة .

---

(١٧) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة (ى) عن فهرست درينبرج صحيفة ٤١٤ - ٤١٥ .

(١٨) كشف الظنون لحاجى خليفة المجلد الأول ص ١٠٨ ح .

(١٩) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة (ى) .

ويرى المستشرق الروسى كراتشكوفسكى .

أن هذا الكتاب ليس من مؤلفات أبى حنيفة الدينورى وإنما هو من بين مؤلفات الكاتب عبد القادر الجرجانى صاحب الجواهر المضيئة ، ويقول كراتشكوفسكى إن غازيرى قد وقع فى خطأ فكتاب البيان هوكتاب النبات وأنه ربما اشتبه على غازيرى الرسم القريب الشكل بين كلمتى النبات والبيان وهو الخطأ الذى يقع فيه الناسخون كثيرا ويدلل كراتشكوفسكى على رأيه بأن ابن العوام صاحب كتاب فى الزراعة والطب البيطرى وقد جاء ذكره لأبى حنيفة فى معرض كتابه علم النبات الذى يعنى ابن العوام وينسق موضوعه مع موضوعات كتابه[٢٠] .

١٥ - كتاب الشعر والشعراء :

ويغلب على هذا الكتاب صفة كتب التراجم وهو يشبه إلى حد كبير كتاب ابن قتيبة الذى يحمل نفس الاسم[٢١] .

١٦ - كتاب الرد على رصد الأصفهانى :

وقد كان الأصفهانى من طبقة أبى حنيفة وبينهما فى هذا الكتاب مناقضات[٢٢] .

وقد جاء فى كشف الظنون ما يلى :

« رصد أبو حنيفة : أحمد بن داود الدينورى بأصبهان سنة ٢٣٥ هـ خمس وثلاثين ومائتين » لعله كتابه : الرد على كتاب الأصفهانى :[٢٣]

١٧ - كتاب جواهر العلم :

وهو عبارة عن دائرة معارف صغيرة من الخواص الدقيقة لمباحث العلوم[٢٤] وجاء فى كتاب كشف الظنون ما يلى :

جواهر العلم لأبى حنيفة بن داود الدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ اثنتين وثمانين ومائتين[٢٥] .

---

(٢٠) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة (ل) .

(٢١) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة (ى)٣.

(٢٢) عبد المعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة (ى) وفى كتاب أنباه الرواة على٣.

(٢٣) كشف الظنون لحاجى خليفة المجلد الاول ص ٣٩٠٧.

(٢٤) عبد المنعم عامر : مقدمة الاخبار الطوال صفحة (ى) .

(٢٥) كشف الظنون لحاجى خليفة - المجلد الأول ص ٦١٤ .

١٨ – كتب ما يلحن فيه العامة :

وقد أورد فيه أبو حنيفة ما شاع بين الناس من أخطاء لغوية وأبان وجه الصواب فيها على أسس من المقاييس العربية السليمة[٢٦] .

وفى كشف الظنون ما يلى :

لحن العامة لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة ٢٩٠ هـ تسعين ومائتين[٢٧] .

١٩ – كتاب الفصاحة :

ويتضمن عدة مباحث عامة فى علوم البلاغة[٢٨] .

وجاء فى كشف الظنون ما يلى :

كتاب الفصاحة لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة ٢٨١ هـ احدى وثمانين ومائتين[٢٩] .

٢٠ – كتاب النبات :

فى أوائل سنة ١٩٤٩م أوفدت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية بعثة إلى اسطنبول تبحث فى خزانات كتبها عن المخطوطات العربية المهمة وتنسخ منها نسخا بالتصوير الشمسى فعثر رئيسها الدكتور الأديب يوسف العش فى خزانة جامعة اسطنبول على نسخة من الجزء الخامس من كتاب النبات وهو أجل مصنفات أبى حنيفة .

وهذا الكتاب يشتمل على ستة أجزاء كبار على ما أصبح محققا بعد العثور على جزئه الخامس وكان أبو حنيفة يعرف بصاحب كتاب النبات وكل كتب النبات التى صنفت قبله «ككتاب الأصمعى» وكتاب أبى زيد . صغيرة لا تقاس به وهو نسيج وحده من حيث احتواؤه على أسماء النبات وأسماء أجزائه وما يتصل به ، وعلى وصف عدد من النباتات وعلى جملة كبيرة من الأشعار المتعلقة بالنبات . وكل ذلك بأفصح لغة وأصحها .

وليس كتاب النبات فى الحقيقة كتابا فى علم النبات ولا فى زراعته بل هو قاموس فى اللغة يدور حول موضوع النبات وفى الألفاظ التى لها صلة بالنبات مع تحقيق صحة الصحيح منها والاستشهاد على صحته بما كتبه أئمة اللغة وفحول الشعراء قبل أبى حنيفة

---

(٢٦) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة (ى) وفى كتاب أنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى جـ ١ ص ٤٢ أن اسم الكتاب لحن العامة .

(٢٧) كشف الظنون لحاجى خليفة – المجلد الثانى ص ١٥٤٨ .

(٢٨) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صفحة (ى) .

(٢٩) كشف الظنون لحاجى خليفة – المجلد الثانى ص ١٤٤٦ .

وبما سمعه أبو حنيفة من أفواه الموثوق بكلامهم من معاصريه ، ولا سيما الأعراب فاللغة إذا هي الأساس في هذا الكتاب ولكن ليست جميع النباتات مشهورة . ولذلك رأينا أبا حنيفة يتناولها بالوصف الخارجي اليسير ومع هذا فهي ليست بالشئ القليل ولا سيما في تلك الأيام البعيدة[٣٠] .

ومع أن اللغة كانت الغرض الأساسي الذي حداه على تأليف كتاب النبات شأنه في ذلك شأن أساتيذه ومعاصريه فقد جاء هذا الكتاب فذا في موضوعاته حتى أنه فاق كثيرا كتب النبات اليونانية[٣١] .

وهو مؤلف لا مثيل له في تاريخ النبات وقد اشتهر به صاحبه وتعتبر النسخة الأصلية الكاملة لهذا الكتاب مفقودة ولكن بقيت منه مقتطفات عده مدونة في كتب فقهاء اللغة وبخاصة ابن سيده والبيطار .

وهذا الكتاب يعد ثمرة لدراسة الشعراء الأقدمين دراسة لغوية وهو في منهجه مثل الكتب الأخرى التي لا تقل كثيرا في الشمول والتي تشترك معه في الاسم ككتاب أبي زيد وكتاب الأصمعي ويبدو أن الغرض من تأليف هذا الكتاب هو شرح النباتات الكثيرة التي ذكرها الشعراء العرب في أشعارهم وتوضيح لمدلولاتها حتى يعلم العقل العربي العام المنابت الأولى لحياته العربية .

ومن ثم فقد اقتصر الكتاب على نباتات بلاد العرب والنباتات الأجنبية التي تأقلمت فيها ولهذا الكتاب أهمية عظمى لدى علماء الغرب الذين اعتمدوا عليه في مؤلفاتهم حينا طويلا من الزمان واعتبروه دائرة معارف نباتية عربية على درجة كبيرة من الوفاية والوضوح وأنه لمن القدرة الفائقة أن يصنف أبو حنيفة وهو فارسي الأصل مؤلفا علميا في نباتات التربة العربية ويكون لهذا المؤلف ذلك الصيت الذائع في المباحث العلمية .

ويبدأ هذا الكتاب بفصل تفصيلي لأنواع تربة بلاد العرب وتركيبها ومناخها وتوزيع مائها والأحوال العامة اللازمة لنمو النباتات ثم يتناول الكتاب تصنيف النباتات بصفة عامة وتركيب كل نبات على حده مقسما النبات إلى ثلاثة أنواع : نباتات تزرع ليقتات الناس منها ، ونباتات برية ، ونباتا تثمر ما يؤكل .

ويتناول الكتاب النوع الثاني من النباتات حسب أماكن وجودها ثم وفق طبيعتها وخواصها وعلى قدر قيمتها الاقتصادية وقد أصبح هذا المؤلف عمدة فقهاء اللغة المتأخرين

(٣٠) مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق مصطفى الشهابي - المجلد السادس والعشرون ص ٣٦٣ .

(٣١) مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق : مقال مصطفى الشهابي - المجلد السادس والعشرون ص ٣٦٨ وما بعدها .

فى أسماء النباتات ، وكتب عنه على بن حمزة البصرى قسما فى مؤلفه المعروف باسم كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة .[٣٢]

ويقول[٣٣] الأستاذ أحمد أمين عن أبى حنيفة : اشتهر بالكتابة فى النبات وربما كان كتابه أظهر شىء فى المزج بين الثقافات ومع الأسف لم يصلنا كتابه هذا ولكن نقل منه الكثير فى المخصص لابن سيده وفى مفردات ابن البيطار ولم يقتصر فيه على نباتات العرب بل ذكر نباتات تنبت فى الأقطار الأخرى وجمع بين ما روى لغويو العرب فى النباتات وما كتب عنه فى الأمم الأخرى واستعان ببلاغته على حسن وصفه فهو يقول مثلا : الخزامى : « عشبة طويلة العيدان صغيرة الورق حمراء الزهرة طيبة الريح لها نوّر كنور البنفسج » وهو كما ترى وصف دقيق ويقول « ويقال للموضع الذى يجعل فيه الزرع إذا حصد الأندر والبيدر والمربد والجوخان والمسطح وهو سواد عرب والجرين وجمعه الجرن والأجرنة »

فتراه يدخل كلمات عربت ويقول : وإذا تناوب أهل الجوخات فاجتمعوا مرة عند هذا وتعاونوا على الدياس فإن أهل اليمن يسمون ذلك القاه ونوبة كل واحدة قاهة وذلك كالطاعة له عليهم لأنه تناوب قد الزموه أنفسهم فهو واجب لبعضهم على بعض » فتراه يعرف العادات المختلفة فى البقاع ويصف الشعير فى أماكنه المختلفة فالشعير العربى والشعير العراقى والشعير الحبشى ويصف نباتات لها أسماء غير عربية كالكسبرة والكراويا ويقول الكمون ليس من نبات بلاد العرب وهكذا كان ذا نظر واسع وخبرة دقيقة فى النباتات عربية وغير عربية وكان أساسا من أسس اللغة أمدها فى النبات وما إليه بألفاظ جديدة وحدد ألفاظها القديمة ويقول عنه ول ديورانت .[٣٤]

« وليس لدينا إلا القليل من بقايا علم الأحياء عند المسلمين فى ذلك العصر ومن هذه الآثار كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى الذى رجع فيه مؤلفه الى مؤلفات ديوسقوريدس ولكنه أضاف فيه إلى علم الصيدلة عقاقير أخرى كثيرة »

لم يأت أبو حنيفة الدينورى بكلمات من عنده أى أنه لم يضع اسما لنبات ولا لجزء من نبات ومعظم الأسماء والأفعال التى أثبتها فى كتابه سواء أكانت عربية أم معربة أم مشتقة قد عزاها الى من سبقوه من علماء اللغة أو إلى الذين وثق بكلامهم من الأعراب أو إلى الشعراء الذين ذكروا تلكم الكلم فى شعرهم وصح عنده الاستشهاد بها ولكنه فى

---

(٣٢) عبد المنعم عامر : مقدمة الاخبار الطوال صفحة (ك ، ل)

(٣٣) ضحى الاسلام جـ١ . ص٤٣٠ ، ٤٣١ .

(٣٤) قصة الحضارة جـ٢ من المجلد الرابع ص١٨٨ .

كل ذلك يبرز شخصيته القوية فيرجح الراجح ويقبح القبيح ويسقط المرذول من الكلام .(٣٥)

ويتضح من ذلك أن طريقته هذه لا تختلف عما كان متبعا فى ذلك الزمن ولا عما اتبعه أصحاب المعاجم من بعده وذكروااسمه كثيرا فى أسانيدهم .

وهو لم يكن فى علم النبات من طبقة ابن الصورى وابن البيطار مثلا ولكنه كان متفوقا عليهما وعلى غيرهما من المتقدمين والمتأخرين بمعرفة أسماء النبات وأسماء أجزائها المختلفة وأسماء ماله صلة بها من تمييز بين الفصيح والمولد والعربى والمعرب يضاف الى ذلك دقة وأمانة فى النقل عمن سبقوه وفى الأخذ عن الأعراب .(٣٦)

وإذا سلمنا بصحة نظرية الناقد الفرنسى « تين » عن الجنس وأثره فى العلوم والفنون وإذا علمنا بعد كل ما تقدم أن أبا حنيفة من أكبر علماء النبات العرب وأنه فارسى الجنس . أمكننا أن نرى فى غرامه بالنبات وشهرته به أثرا من آثار فارسيته انحدر إليه من اجداده السابقين ذلك أن أهل فارس كانوا يمجدون الاعمال الزراعية ويعدونها أهم الأعمال الجنسى البشرى وأشرفها ويتغنون بعظمتها فى كتبهم المقدسة بل ويبتهج بها أحد آلهتهم أكثر مما يبتهج بغيرها من الأعمال ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق ول ديورانت فيقول عن أهل فارس :

« وكان الرجل العادى أميا راضيا عن أميته يبذل جهده كله فى فلاحة الأرض ومجدت الزند- أبستاق الأعمال الزراعية وعدتها أهم أعمال الجنس البشرى وأشرفها يبتهج لها أهورا- مزدا الاله الأعلى أكثر مما يبتهج بغيرها من الأعمال .

وكل ما تقدم عن هذا الكتاب جميل وحسن ولكن الأجمل منه والأحسن أن نبحث عن العلاقة بين كتاب النبات والأدب .

الأدب فى كتاب النبات :

من المعروف أن أبيات القدامى من الشعراء كانت تعد من الحجج التى يستشهد بها علماء اللغة على صحة لفظ من الألفاظ وكتاب النبات آية فى هذا الباب فالأبيات الشعرية التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب كثيرة جدا وفى الأمكان أن يؤلف منها ومن شرحها سفر عظيم فى أدب النبات ، وما اليه وجميع تلك الأبيات الشعرية من نظم شعراء الجاهلية وصدر الاسلام .

(٣٥) مجلة المجمع العلمى العربى – دمشق : مصطفى الشهابى المجلد السادس والعشرون ص٣٩٧ .

(٣٦) مجلة المجمع العربى – دمشق : مصطفى الشهابى المجلد السادس والعشرون ص٣٦٨ ، ٣٦٩ .

ولم يقتصر فى ذكر الشواهد على النباتات المعروفة التى لها زهر أو ثمر جميل فثمة نباتات عديدة لا يخطر ببال أحد أنه يقال فى مثلها شعر. ومع هذا فهو قد روى للشعراء فيها أبياتا من الصعب العثور عليها فى كتب الأدب القديمة المطبوعة أو البحث عنها هنا وهناك فى ما لم يضع من دواوين القدماء من شعرائنا وربما كانت كتب اللغة والأدب المعروفة قد خلت من كثير من تلك الأبيات .[٣٧]

ويذكر ابن سيده فى مقدمة كتابه المخصص أنه اعتمد فى تأليف كتابه على جملة مصادر علمية قيمة ويذكر من بين هذه المصادر كتابى أبى حنيفة فى الأنواء والنبات .

يقول[٣٨] ابن سيده :

« فأما ما نثرت عليه من الكتب فالمصنف وغريب الحديث لأبى عبيدة وغيره وجميع كتب يعقوب كالإصلاح والألفاظ والفرق والأصوات والزبرج والمكنى والمد والقصر ومعانى الشعر وكتابا ثعلب الفصيح وكتابا أبى حنيفة فى الأنواء والنبات .

ونستطيع أن نفهم من هذا أن كتاب المخصص يضم بين دفتيه كتابى أبى حنيفة فى الأنواء والنبات فأما كتاب الأنواء فسنتحدث عنه قريبا .

وأما كتاب النبات فمن مطالعاتنا لما كتبه أبو حنيفة عن النبات يتضح لنا أنه لم يقصر حديثه على النبات وحده وإنما تحدث عن البيئة الزراعية وما فيها من نبات وماشية وحشرات وبعض الصناعات الريفية ...... الخ .

وكان حديثه كله مصبوغا بصبغة لغوية وأدبية فهو يتحدث مثلا عن القطن والكتان فيقول : هو القطن والقطن والقطن . الواحدة قطنة وقطنة وأنشد :

قطنة من أبيض القطن .

والأستاذ محمد محمود محقق كتاب المخصص لا يقر أبا حنيفة على تشديد نون (القطن) ويقول فى حاشية صفحة ٦٩ من السفر الرابع لكتاب المخصص ما يلى : « فى الصحاح والقطن معروف والقطنه أخص وأما قول الراجز :

كأن مجرى دمعها المستن   قطنة من أجود القطن

فإنما شددته ضرورة ولا يجوز مثله فى الكلام .

ثم يتابع أبو حنيفة حديثه عن القطن فيذكر بعض أنواعه ويقول : البذس والبرس : هو قطن البردى وأنشد .

والطوط تزرعه أغن جراؤه   فيه اللباس لكل حول يعضد

(٣٧) قصة الحضارة جـ٢ - المجلد الأول ص٤١٢ .

(٣٨) مجلة المجمع العلمى العربى - دمشق : مصطفى الشهابى ص٣٦٥ - ٣٦٦ .

وتشد الروح اللغوية والأدبية أبا حنيفة الضليع فى علم النبات فيقف ليشرح هذا البيت شرحا يتناول فيه المفردات اللغوية وحسب فيقول :

أغن : ناعم ملتف .

وجراؤه : جوزه الواحد جرو .

ويعضد : يوشى .

ثم تحدث كل من أبى عبيد وأبى حنيفة عن الكرسف ، قال أبو عبيد : هو القطن[٣٩] وقال أبوحنيفة وهو الكرفس ، وحبة الخيسفوج . وتحدثا أيضا عن العُطْب فقال أبو عبيد القطن وقال أبو حنيفة واحدته عطبة ، وقد عطبت شجرته قال : ومن أسمائه الخرفع والخِرفع وقيل الخرفع شىء يكون فى جراء العشر يشبه القطن وليس به وأنشد :

(كأن بالراس خرفعا ندفا) وقيل هو القطن الذى يفسد فى براعمه ثم تحدث عن البيلم فقال : هو قطن القصب ويقال للحديث من شجر القطن : القور وهو أجوده ، وللعتيق القصم .

أما الزّير فمن معانيه الكتان وأنشد :

وإن غضبت خلت بـالمشفـريـن سبـائخ قطن وزيـرا مسـالا

ثم يتحدث أبو حنيفة بعد ذلك عن صناعة ريفية وهى دبغ الجلود ويعد أنواعا من الجلود المدبوغة وأحيانا يذكر الأماكن التى اشتهرت بها هذه الجلود فيقول[٤٠] مثلا :

الغرف : ما دبغ بغير القرظ وهى جلود يؤتى بها من البحرين وقيل الغرف ضرب تجمع فإذا دبغ بها الجلد سمى غرفا والغرفية متحركة الراء منسوبة إلى الغرف شجر يدبغ به وأنشد :

كـأن خضر الغـرفيـات الوسع نيطت بـأحقى مجرنشـات همع

وفى زحمة البحث العلمى لا ينسى أبو حنيفة أنه لغوى أديب فيردف هذا البيت بشرح أدبى يبرز فيه ما فى البيت من جمال فنى فيقول :

يعنى بالغرفيات ههنا المزاد التى دبغت جلودها بالغرف . شبه ضروع إبل وصفها بالمزاد فى عظمها ، والمجرنشات : الممتلئات والهمع : السائلة .

ثم يتحدث أبو حنيفة عن بعض الأعشاب التى تستعمل فى الدباغ وعن بعض الوسائل التى تحمى الجلد من أن ينتن وعن بعض وسائل الدباغ الصحيحة والفاسدة .

---

(٣٩) المخصص : السفر الأول ص١١ ، ١٣ .

(٤٠) القطن ؟

ولكن روح الأديب اللغوى لا تفارق أبا حنيفة فى كل ذلك فلا ينفك يستشهد بالبيت أو المثل .

ثم يبرز أثر الثقافة المنطقية وتبرز رحابة الأفق ، والرغبة فى الاستقصاء حينما يجنح أبو حنيفة لاستعمال الأساليب الشرطية ويكثر من ذلك الاستعمال فهو يقول :

أديم ممعوس : إذا أجيدت تحركته فى دباغه ، وضربه باليد ، معسته أمعسه معسا ، وإذا ألقى الجلد فى الدباغ بعد التحلئة فأسود قيل : قنأقنؤا ، وقنأه صاحبه ، وإذا جعل الدباغ فى الأديم قيل : قد أبأوا فيه فإذا جعل فيه فهو مرمغل آى رطب وقيل : المرمغل : المبلول للدبغ ، والجلد الفاضر : الذى أجيد دباغه وأنشد :

ومكسح أطراف التراب من الحصى ومـوضـع مثنى من القـد غـاضر

فإن نهكه الدباغ قيل : أديم مغلغل فإذا أجيد دبغ القربة قيل « لجاد ما علكتموها » مشددة ويقال تركتموها كأنها قطنة إذا أجادوا دباغها ، وإذا احمر الأديم فهو القرف وأنشد :

أحمر كالقرف وأحوى أدعج

فإن لم ينصبغ ويحمر وفسد قيل قمر قمرا ، وإذا صنع من الأديم شىء فجعلت أدمته هى الظاهرة يطلب بذلك لينه قبل أودم ، وأنشد :

فى صلب مثل العنان المؤدم وإن جعلت بشرته هى الظاهرة

قيل أبشر فإن قشرت بشرته قيل بشر بشرا ، وأسم ما بشرت منه البشارة ومن البشرة قيل : باشر فلان فلانا إذا ضاجعه فوليت بشرته بشرته وقد تقدم الإيدام والإبشار فى الإنسان الدلهى فإذا تتبع ما يبقى فى بشرة الجلد من القشرة الرقيقة التى تكون فى أصول الشعر أخذت عن الإهاب بشفرة والا لم يتبالغ الدباغ فى الجلد ويقال لتلك القشرة : الحلاءة والحلئة : والجميع التحلئ ومثل من الامثال : « أحمق من الدابغ على التحلئ »

وقد حلأت الإهاب أجلاه حلأ ومن أمثالهم : « حلأت حالئة : عن كوعها » أى اتقى متق عن نفسه ، والتحلئ أيضا : وسخ يبقى فى جلد الإهاب فإذا دبغ لم ينق دبغه فلا يلبث ذلك المكان أن ينخرق ، وإذا تقشر الأديم ، وظهرت بشرته قيل تكشأ وإذا انقشرت بشرته قيل : انسحق الجلد فلا تكون له قوة .

ومن هذه النماذج التى ذكرنا . ترى أبا حنيفة قد أكثر من استخدام أداتى الشرط إذا ، وإن .

ونحن نرى فى الإكثار من استخدام أدوات الشرط رغبة فى الاستقصاء وأثرا من آثار الثقافة المنطقية كما ذكرنا ذلك آنفا وينتقل أبو حنيفة بعد ذلك الى الحديث عن اللحوم وتجفيفها وما عساه يصيبها من تلف وفساد فيقول.[٤١]

الطخيم : اللحم اليابس لأنه إذا جف كان أضخم فى لونه إلى السواد والأطخم مثل الأدغم وقد اطخام وأنشد :

تـــدق فى القف وفى العيشوم أفـــاعيـــا كـغـــدز الطخيم

تدعص اللحم : تهرأ من فساد .

والخمة : الرائحة الكريهة من الندى .

التنشيم : بدء النتن .

شخم اللحم شخوما وشخم شخما ، وشخّم : قال صاحب العين : تغيّرت رائحته وقال أبو حنيفة : لحم شخم وخشم .

تمه اللحم تمها وتماهة : أى خبثت رائحته وقال أبو حنيفة : لحم تمه وتهم .

ويجدر بنا أن نقف قليلا عند قول أبى حنيفة لحم شخم وخشم ، وقوله أيضا : لحم تمه وتهم . إذ أن هذا التعبير من أبى حنيفة يشير إلى موضوع كبير بحثه علماء اللغة كما بحثه علماء الصرف ، وسماه علماء اللغة « الاشتقاق الكبير » بينما سماه علماء الصرف « القلب المكانى »

وهذه الوقفة تدعونا الى أن نعرف الاشتقاق ونبين أنواعه بايجاز . فالاشتقاق فى الاصطلاح أخذ كلمة من أخرى بينهما ارتباط فى اللفظ والمعنى .

وأنواعه ثلاثة :

١ - الاشتقاق الصغير :

أخذ كلمة من أخرى بينهما تناسب فى المعنى واتفاق فى الحروف الأصلية وترتيبها مثل فَهْم وفَهِم وفاهم .... الخ .

٢ - الاشتقاق الكبير :

هو أخذ كلمة من أخرى مع الاتحاد بينهما فى المعنى واللفظ دون الترتيب فى الحروف وذلك كقول أبى حنيفة لحم شخم وخشم ، ولحم تمه وتهم[٤٢] .

وترى فى هذا الاشتقاق أن الحرف قد نقل من موطنه فى الكلمة إلى مكان آخر فيها وهو ضرب من ضروب التوسع فى اللغة وأكثره يكون بتقديم أحد أحرف الكلمة على ما

---

(٤١) المخصص لابن سيده - السفر الرابع ص١٠٦ - ١١٠ .

(٤٢) المخصص لابن سيده - السفر الرابع ص١٣١ - ١٣٢ .

قبله وكله سماعى[٤٣] وأكثر أنواعه يكون بتقديم اللام على العين كما فى قول أبى حنيفة تمه وتهم أو بتقديم العين على الفاء كما فى قول أبى حنيفة أيضا شخم وخشم

٣ – **الاشتقاق الأكبر :**

هو أخذ كلمة من أخرى مع التناسب فى المعنى والاتحاد فى أكثر الحروف على أن يكون الباقى منها من مخرج متحد أو مخرجين متقاربين نحو فسطاط وفستاط وثلب وثلم وأمثلته كثيرة وهو المعروف بالإبدال .

فأنت ترى أن أبا حنيفة فى كتاب النبات يثير قضايا لغوية كبيرة ولم يمنعه ذلك من أن يتقن البحوث التى أثارها حول النبات أو بتعبير أدق حول البيئة الزراعية وما فيها من نبات وصناعات ريفية وماشية وما إلى ذلك .

ثم ينتقل أبو حنيفة إلى الحديث عن العسل[٤٤] ويذكر أبو عبيد أن العسل يذكر ويؤنث وأنشد :

كأن عين الناظرين يشوقها بها عسل طابت يدا من يشورها

ولكن أبا حنيفة يقول : ليس تأنيثهم من قبل هذه عسلة انما يراد بهذه الهاء الطائفة كقولهم لحمة ولبنه . قال صاحب المخصص : وهذا الذى حكاه أبو حنيفة من أن المراد بالتأنيث الطائفة هو مذهب سيبويه .

وقد تحدث أبو حنيفة عن بعض أنواع العسل وعن اجتناء العسل وبعض الادوات التى تستخدم فى ذلك وعن بعض الأشياء التى تسبب فساد العسل وعن بعض الأوعية التى يوضع فيها العسل .

ويلفت النظر فى حديث أبى حنيفة عن العسل نقاط لغوية وأدبية كالمشترك اللفظى والترادف وطريقة شرحه للأبيات الشعرية وبيان ما فيها من جمال فنى ثم ميل أبى حنيفة إلى التحليل والبرهنة .

فلنتحدث عن هذه النقاط بإيجاز فما المشترك اللفظى أولا ؟

إذا ثبت أن اللفظ الواحد قد يعبر عن معنيين متباينين كل التباين سمينا هذا بالمشترك اللفظى أما إذا اتضح أن أحد المعنيين هو الأصل ، وأن الآخر مجاز له فلا يصح أن يعد مثل هذا من المشترك اللفظى فى حقيقة أمره .[٤٥]

---

(٤٣) تصريف الاسماء للاستاذ محمد الطنطاوى ص٤٠ ، ٤١ الطبعة الرابعة مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٢ .

(٤٤) تصريف الافعال للاستاذ عبد الحميد عنتر ص٤١ – ٤٧ الطبعة الرابعة طبع دار الكتاب العربى بمصر ١٩٤٨ .

(٤٥) المخصص لابن سيده – السفر الخامس ص١٤ – ١٩ .

فلنستعرض معا ما يقوله أبو حنيفة فى هذا الصدد ، وحقيقة أن أبا حنيفة لم يقل إن هذا من المشترك اللفظى ولكنه استعمل هذا المشترك اللفظى فى تعبيراته ونفى عن هذا المشترك مالا يصح أن يعد منه .

وقد كانت هذه القضية مثار جدل ونقاش فى عصر أبى حنيفة(٤٦) مما يدل على أنه كان يعنى ما يقول .

واستمع إلى أبى حنيفة يحدثنا فى المخصص(٤٧) ويقول :

الجميت والجليس : المتين الصلب منه « من العسل » فإذا كان رقيقا فهو الوديس .

الأرى : قال أبو عبيد : العسل ، وقال أبو حنيفة : أصل الأرى العمل ، أرت النحلة أريا ، وتأرت ، وائترت : عملت العسل ، وأنشد :

إذا تأرت بالخلى بنت به ... شريجين مما تأترى وتتيع

فجعل بناءها بالشمع ائتراء ، ولذلك قال : شريجين وهما الضربان ، فأحدهما البناء والآخر مج العسل فيه .

وهو الإتاعة أى القئ والاسم التيع ولذلك قيل للعسل مجاج النحل ولعابها وقد مجته ويستعمل الأرى فى غير عملها وأنشد :

يشمن بروقه ويرشن أرى الـ ... جنوب على حواجبها العماء

فجعل المطر أريا للجنوب لأنها جمعته واستخرجته وقيل الإرة التى هى مجمع النار مأخوذة منه فيسمى العسل بالمصدر وجنى النحل : العسل .

السلوى قال أبو عبيد العسل وأنشد :

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ... الذ من السلوى إذا ما نشورها

قال أبو حنيفة : أحسبها سميت سلوى لأنها تسلى عن كل حلو إذ هى فوقه وقد قيل مثل ذلك فى الطير التى تسمى السلوى وقد سمت العرب حجرا يزعمون أنه يشفى من الحب فيسلى السلوان ومنه قولهم سقانى عنك الدهر سلوة وسلوانا - إذا ذَهَلَ عنه وسلا .

شرت العسل : قال أبو عبيد أخذته وأنشد :

كأن جنيا من الزنجبيل ... بات بفيها وأريا مشورا

قال أبو حنيفة : شار العسل شورا وشيارا ومشارة واشتاره وقال غيره : واستشاره وقال غيره : والشور : العمل فى اجتناء العسل نفسه تشوريا كما سمى أريا وأنشد :

(٤٦) دلالة الألفاظ للدكتور أنيس ٢٠٩ .

(٤٧) دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس ٢٠٩ .

(٤٨) المخصص لابن سيده السفر الخامس ص١٤ - ١٧ .

في سماع يأذن الشيخ له ... وحديث مثل ماذى مشار

المشوار : ما يشار به ويسمى شيار النحل قطاعا والعامة تسميه جزازا .

الأخراص : قضبان يشتار بها .

المَزْج والمِزْج : العسل الفتح للمصدر سمى به والكسر للاسم وأنشد :

فجاء بمزج لم ير الناس مثله ... هو الضحك إلا أنه عمل النحل

الضحك : الثغر شبه الشهد فى بياضه يالثغر الأبيض وقيل الضحك : الطلع وقيل هو الزبد إذا اشتد بياضه وقيل الضحك : العجب وقال صاحب العين : الضحك : العسل وقال أبو حنيفة وعلى معنى المزج سمى العسل شوبا وأنشد :

تناول شوبا من مجاجات شمذ ... بأذنابها قب لطاف خصورها

الشوب كالوخط من الشئ وعنى بالشمذ النحل لأن من أخلاقها رفع اعجازها كما تشمذ الناقة والذواب والذوب : العسل وأنشد :

شركا بماء الذوب تجمعه ... فى طود أيمن من قرى قسر

يعنى بالطود جبل السراة ويريد بأيمن ايمن قرى قسر من السراة وفى تسميتهم العسل ذوبا قولان قيل سمى بذلك لأنه ذاب فى أبيات الشهد أى حصل كما يقال : ذاب لى على فلان مال أى حصل وثبت فيه وقيل لا يسمى ذوبا إلا إذا زابل الشمع وجرى وكل مفارق لما هو فيه جار ذائب

فلنناقش الآن حديث أبى حنيفة السابق بناء على القاعدة التى ذكرناها للمشترك اللفظى بل وبناء على استعمال أبى حنيفة وفهمه لمعانى المفردات وبناء على ذلك لا يعتبر من المشترك اللفظى كلمات : الحميت ، والجليس ، والوديس فكل منها يطلق على نوع من أنواع العسل وكذلك اطلاق لفظ « الأرى » على عمل النحل وعلى العسل ليس من المشترك لأن أصل الأرى العمل كما يقول أبو حنيفة ويسمى العسل بالمصدر فأحد المعنيين أصل والآخر فرع عنه . أما إطلاق الأرى على عمل النحل وعلى مجمع النار فمن المشترك اللفظى لأن هذه المعانى متباينة كل التباين .

وكذلك إطلاق لفظ « السلوى » على العسل وعلى الطير وعلى الحجر من المشترك اللفظى لوجود التباين بين هذه المعانى .

أما اطلاق الضحك على الشهد فليس من المشترك اللفظى لأن الضحك : الثغر شبه الشهد فى بياضه بالثغر الأبيض كما يقول أبو حنيفة نفسه .

أما إطلاق الضحك على الطلع وعلى الزبد وعلى العجب وعلى العسل فمن المشترك

اللفظى لوجود التباين وإن كان أبو حنيفة يضعف بعض هذه الاستعمالات حينما يقول عنها وقيل الضحك : الطلع ... الخ .

ويتضح ميل أبى حنيفة إلى التحليل والبرهنة حينما يعلق على التعبيرات السابقة عن العسل فيقول فى البيت : إذا ما تأرت بالخلى بنت به ..... فجعل بناءها بالشمع ائتراء ..... الخ .

وحينما يعلق على تسميتهم العسل بالسلوى تعليق العالم المدقق فيقول : أحسبها سميت سلوى لأنها تسلى عن كل حلوى .... الخ .

وحينما يقول : وفى تسميتهم العسل ذوبا قولان : قيل سمى بذلك لأنه ذاب فى أبيات الشهد أى حصل كما يقال ذاب لى على فلان مال أى حصل وثبت ، وقيل لا يسمى ذوبا إلا إذا زايل الشمع وجرى وكل مفارق لما هو فيه جار ذائب .

أما طريقة شرحه للأبيات فألاحظ عليها أنه كان يعمد إلى موطن الشاهد فيعلق عليه فهو مثلا يقول عن البيت : إذا ما تأرت ..... الخ .

فجعل بناءها بالشمع ائتراء ....الخ .

وعن البيت يشمن بروقه .... الخ .

فجعل المطر أريا للجنوب .....الخ .

أما فى حديثه عن البيت : فجاء بمزج ..... الخ .

فإنه يقول : الضحك : الثغر شبه الشهد فى بياضه بالثغر الأبيض . ومن هنا نرى ادراكه لبعض مقاييس الجمال الفنى وأعنى بذلك التشبيه ثم انه يربط هذا البيت ببيت آخر فيقول وعلى معنى المزج سمى العسل شوبا وأنشد :

تناول شوبا من مجاجات شذ .... إلخ .

وهو يذكر فى هذا البيت صورة فنية اخرى وأعنى بها الاستعارة وذلك حينما يقول وعنى بالشمذ النحل ثم يبين العلاقة بين النحل والناقة فيقول لأن من أخلاقها رفع إعجازها كما تشمذ الناقة .

وأخيرا يشرح البيت : شركا بماء الذوب .... الخ شرحا لغويا فيقول : عنى بالطود جبل السراة .... الخ .

ولننتقل بعد ذلك إلى موضوع الترادف . الأصل فى كل اللغات أن يعبر اللفظ الواحد عن المعنى الواحد ، ومع هذا فقد نرى فى النادر من الأحيان أن لغة ما تقبل أكثر من لفظ للدلالة على أمر واحد وهو ما يسمى بالترادف .

يقع مثل هذا فى كل اللغات دون إسراف فيه ، ودون أن يتجاوز هذا عددا ضئيلا جدا من ألفاظ اللغة . أما الذى حدث فى لغتنا العربية فهو أن مجموعة كبيرة جدا من ألفاظها قد تنازعها هذان الأمران : الترادف والمشترك اللفظى .

وقد تحدثنا عن المشترك اللفظى فيما سبق . وكثرة الترادف فى اللغة العربية أمر مفهوم نستطيع تفسيره فقد شغلت موسيقا الكلام أصحاب اللغة عن رعاية الفروق بين الدلالات فأهملوها أو تناسوها ، وأختلطت الألفاظ بعضها ببعض فألقت الألفاظ المتعددة على المعنى الواحد(٤٩) .

نذكر هذه المقدمة لنرتب عليها أن أبا حنيفة كان يدرك الترادف بهذا المعنى وأنه أحيانا كان يلحظ الأصل فى الاستعمال اللفظى ثم يحدثنا بتطور الاستعمال كما صنع ذلك فى كلمتى : أرى ، وشور .

هذا وقد ذكر أبو حنيفة للعسل الأسماء الآتية : الضرب الأرى ، السلوى ، الشور ، المزج ، الشوب ، والذواب ، والذوب .

وقد مرت بك هذه الكلمات وقد ذكر أيضا من أسماء العسل أسماء أخرى نضيفها إلى الأسماء السابقة بلغة أبى حنيفة نفسه .

النسيل والنسلة ، والطرم والطرم : العسل يقال : طرمت النحل : ملأت تحاريب الشهد عسلا .

الشهد والشهد : العسل ، الواحدة شهدة وشهدة ، ويكسّر على شهاد وكل شهدة : قرص والجمع قروص .

المحارين : الشهاد واحدها محران ، وهى الشهدة تبعد فلا يسهل إخراجها كأنها لزمت مكانها ، وإذا كانت الشهدة رقيقة خفيفة قليلة العسل فهى هفّ وكل خفيف هِفّ وإذا كانت تحاريها فارغة فهى مخربة وأنشد :

قدنا فكشف عن متون مُنَصَّب ... كالرُّبْط لاهِفٌّ ولا هوُ مُخْرَب

عنى بالمنصب : قروص الشهد .

وحول موضوع العسل أيضا أثيرت قضية صرفية هى تسهيل الهمزة وتخفيفها فى كلمة المسأب فرأى أبو حنيفة أن تخفيفها جائز وأنكر عليه بعض العلماء ذلك واعتبروا تخفيف همزة مسأب أحيانا للضروة وليس بجائز فى الكلام مالم تكن هناك ضرورة وإليك وصف هذه المعركة كما جاءت فى كتاب المخصص(٥٠) .

---

(٤٩) دلالة الالفاظ للدكتور ابراهيم أنيس ص ٢٠٦ - ٢٠٩ .

(٥٠) المخصص لابن سيده - السفر الخامس ص ١٩ .

قال أبو حنيفة : فأما قول أبي ذؤيب :

تأبط خافة فيها مساب فأضحى يقترى مسدا بشيق

فإنه ترك الهمزة من المساب وقال : ساعده في نحو ذلك .

معه سقاء لا يُفَرِّط حمله صُفْن وأخراص يَلُحْن ومِسْأب

قال المتعقب وهذا الذى قاله قد قاله غيره من الرواة وليس بالجيد وإنما الجيد أن المسأب هو سقاء العسل وليس في الكلام مساب وإنما هو مساد وهو الزق وقال غير هذا المتعقب ممن حاول نصر أبي حنيفة هذا يتوجه على نحو ماحكاه سيبويه من أن بعضهم يقول الكماة والمراة وذلك قليل فالمسأب على لغة هؤلاء إذا خفف قيل المساب . قال على وهذا قول وبه نصرت أبا حنيفة .

هذا ونجد في كتاب النبات بعض الألفاظ الفارسية وقد نبه أبو حنيفة على فارسيتها وذكر ما يقابلها بالعربية وهذا يدل على علم أبي حنيفة بالفارسية . وإن كنت أعتقد أن هذا من باب تحصيل الحاصل اذ لا يعقل أن يكون رجل فارسي الأصل ونشأ في بلاد الفرس ثم لا يعرف شيئا عن الفارسية ومن الأمثلة على ذلك قول أبي حنيفة :

« الخلنج فارسي وهو كل جفنة وصحفة وآنية صنعت من خشب ذى طرائق وأساريع موشاة (٥١) .

وقال أبو عبيد : والخلل : السيور التى تلبس ظهور السيتين واحدتها خلة وقال أبو حنيفة :

« وتسمي الخلة بالفارسية الشلك (٥٢) .

وصنيع أبي حنيفة هذا لون من ألوان المقارنة بين العربية والفارسية ثم هو في نفس الوقت تطعيم للعربية بألفاظ فارسية .

ثم يحدثنا أبو حنيفة عن القسى (٥٣) من قبل عيدانها وأسمائها وأوصافها وأنواعها وأجزائها .

ويعقب ذلك بالحديث عن الأوتار والظاهر لى أن هذا هو المنهج الذى سار عليه أبو حنيفة في كتاب النبات فهو يذكر الشئ اسمه وصفته وأنواعه وأجزاءه .

ثم يصطبغ حديثه بصبغة الترادف والمشترك اللفظي والميل إلى الاستقصاء والاستشهاد على صحة ما يقول بأبيات من الشعر أو بأمثال عربية أو آيات من القرآن الكريم أو

---

(٥١) المخصص لابن سيده - السفر الخامس ص ٥٧ .

(٥٢) المخصص لابن سيده - السفر السادس ص ٤٣ .

(٥٣) المخصص لابن سيده - السفر السادس ص ٣٨ - ٤٩ .

بأحاديث رسول الله ﷺ . ولا تفارقه أيضا الصبغة الأدبية ومن الأمثلة على ذلك هنا حديثه عن الكتوم قال أبو عبيد : الكتوم من القسى التى لا شق فيها . وقال أبو حنيفة : هى الكاتمة وقد كتمت كتوما وأنشد :

وسمحة من فروع النبع كاتمة مثل السبيكة : لا نكس ولا عطل

مثل السبيكة فى الاكتناز والحسن والتلاؤم(٥٤) .

ثم يقول : وأما قول القائل اشتريت قوسا كأنها خلفة يخرج منها السهم كأن قطره فإنه لم يشبهها بالخلفة : فى خلفتها ولكن فى حسنها لأن الخلفة : أتم ما تكون وأحسن وأراد بالقطرة قطرة المطر إذا خرجت من السحاب يريد قصدها وسرعتها(٥٥) .

هذا وقد كان أبو حنيفة أحيانا يميل إلى التعميم فى إحكامه فيقع نتيجة لذلك فى خطأ ومن ذلك ما جاء عن القوس من كلام أبى حنيفة : فإذا لم يشد توتير القوس قيل رتاها رتوا وكل تقصير من شئ رتو .

قال المتعقب : وإن كان صحيحا فإن الرتو من الأضداد ، ولم يصب فى قوله وكل تقصير من شئ رتو مرسلا والرتو أيضا الشد ومنه قول لبيد :

فخمة ذفراء ترتى بالعرا قردمانيا وتركا كالبصل(٥٦)

أما الاشتقاق الكبير فيظهر فيما يلى :

قال ابن دريد : الحزق : شدة جذب الوتر .

وقال أبو حنيفة : فإذا بالغ التوتير وضيقه فقد طمحرها وطحمرها وخطر بها وكل مملوء مخطرب والضاد فيها لغة(٥٧) .

وواضح أن الاشتقاق فى كلمة طمحرها وطحمرها .

وقال أبو عبيد : انبضت القوس وأنضبتها مقلوب إذا جذبت وترها لتصوت . قال أبو حنيفة انبض ونبض ، وأنضب ثم قال أبو حنيفة وأدنى صوتها عند الإنباض النئيم(٥٨) .

والاشتقاق بين كلمتى أنبض ، وأنضب بدليل الإنباض .

وقد جاءت أنواع الاشتقاق الثلاثة :

الصغير والكبير والأكبر جاءت هذه الأنواع فى كتاب النبات وقد ذكرنا أمثلة الاشتقاق الكبير أما الأكبر فيتمثل فيما يلى(٥٩) :

(٥٤) المخصص لابن سيده – السفر الخامس ص ٣٨ .

(٥٥) المخصص لابن سيده – السفر السادس ص ٤٠ .

(٥٦، ٥٧) المخصص لابن سيده – السفر السادس ص ٤٦ – ٤٧ .

(٥٨) المخصص لابن سيده – السفر السادس ص ٤٨ .

(٥٩) المخصص لابن سيده – السفر الخامس ص ٢٦ ، ٢٩ .

التلمج : كالتلمظ قال أبو عبيد : نجت لمجا : أكلت وأنشد :

يلُمج البــــارض لمجاف النــــدى   من مـــرابيـــع ريــاض ورِجَــل

قال صاحب العين : اللمج : تناول الحشيش بأدنى الفم وقال أبو حنيفة اللمج فى الحمير خاصة وأما قول الراجز فى وصف فحل :

يسن أنيابا له لواجا

فهو من التلمج أى التلوى

ولمد لغة فى لمج

إقتم وإرتم : قال أبو حنيفة يقال للشديد الأكل قد إقتم ما بين يديه وإرتم أكله كله وواضح أن الاشتقاق الأكبر فى الكلمات لمد ولمج وإقتم وإرتم وأما الاشتقاق الصغير فهو أكثر من أن يحصى ومن أمثلته قول أبى حنيفة(٦٠) : قوس عاطل وعطلاء والجمع عواطل وعطل وأعطال وعطول وعطل وقد عطلت عطولا وعطلت عطلا وعطلتها .

ويتحدث أبو حنيفة بعد ذلك عن السهام وهى ذات صلة بموضوع كتاب النبات إذ أنها تتخذ من أغصان الأشجار ويتحدث أيضا عن النصال ولكن حديثه هنا لا جديد فيه فهو يذكر أسماء السهام(٦١) والنصال وأوصافها وأنواعها وأجزاءهما وما إلى ذلك يذكر ذلك كله بروح العالم اللغوى الأديب .

فى الحديث عن الخطوة(٦٢) قال أبو عبيد : الخطوة : سهم صغير قدر زراع وجمعه خطاء وقال أبو حنيفة سمى بذلك لأنه اتخذ من أدنى غصن وكل غصن شجرة خطوة وإذا حقر الرجل وعير بالضعف .

قيل : إنما نبلت خطاء . قال : وقيل لفتية من العرب ترعى غنما : ما تقولين فى صبية مثلك ترعى غنما ؟ قالت : شحمتى فى قلعى . قيل لها فما تقولين فى غلام يرعى غنما ؟ قالت : أخاف إحدى خطيانه . تعنى ذكره .

ثم تظهر ثقافته الفارسية حينما يقول(٦٣) : الحسبان » : سهام صغار يرمى بها عن القسى الفارسية واحدتها حسبانة وهى مولدة وحكاها صاحب العين » .

---

(٦٠) المخصص لابن سيده - السفر السادس ص ٤٧ .

(٦١) المخصص لابن سيده - السفر السادس ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٠ ، ٩٤ ثم السفر السابع ص٥١ - ٥٥ .

(٦٢) المخصص لابن سيده - السفر السابع ص ٥١ - ٥٢ .

(٦٣) المخصص لابن سيده - السفر السابع ص٥٣ .

وكذلك كان حديثه عن الإبل(٦٤) فهو يذكر صفات الإبل فى النتاج من قبل أوقاتها وكيفية وصفها بالسمنة ثم يذكر تركها وإهمالها وعلفها وإقامتها فى المرعى وحبسها واجتزاء الإبل بالرطب عن الماء وورودها الماء وسيرها فى اللين والرفق ومتاع الرحل وأمراض الإبل من الشيء تأكله .

وبالرغم من أن أبا حنيفة كان موضع ثقة وتقدير من السابقين وكانت آراؤه موضع إعجاب وإكبار الا أن ذلك لا يمنع أن تكون لأبى حنيفة بعض سقطات وقد أخذ عليه السابقون أنفسهم بعض المآخذ وكان فريق من المعجبين بأبى حنيفة يتصدون للدفاع عن أبى حنيفة على نحو ما مر بنا حول كلمة « المساب والمسأب »

وفى موضوع علف الإبل يتعقب أحد النقاد أبا حنيفة ويرى أنه أساء فى شرحه لأحد الأبيات وفى تفسير كلمة معضون بالذات وقد أخذ الناقد على أبى حنيفة أيضا تعميمه فى الحكم حين قال : ولا يجوز أن يقال من العضاة معض إلا على هذا التأويل وإليك المناقشة كما وردت فى المخصص .(٦٥)

العض والعضاض : العجين الذى تعلفه الإبل وهو أيضا الشجر الغليظ الذى يبقى فى الأرض ، وقال : أعض القوم : أكلت إبلهم العض وأنشد :

أقول وأهلى مؤركون وأهلها ... معضون إن سارت فكيف أسير

وقال مرة فى تفسير هذا البيت ذكر بعض أوصاف العضاه : إبل معضه : إذا كانت ترعى العضاه فجعلها إذ كان من الشجر لا من العشب بمنزلة المعلوفة فى أهلها النوى وشبيهه ، وذلك أن العض هو علف الريف من النوى وألقت ، وما أشبه ذلك ، ولا يجوز أن يقال من العضاه معض الا على هذا التأويل ، والمعض الذى تأكل ابله العض .

والمؤرك : الذى تأكل إبله الأراك والحمض والأراك من الحمض .

قال المتعقب : هذا غلط غلط فيه أبو حنيفة فى الذى قاله ، وأساء فى تخريج وجه كلام الشاعر لأنه قال : إذا رعى القوم العضاة قيل : القوم معضون فما لذكره العض ، وهو علف الأمصار مع ذكر الشاعر الأراك وهو من العضاة ، وأين سهيل من الفرقد ؟

وقوله : لا يجوز أن يقال من العضاة معض إلا على هذا التأويل شرط غير مقبول منه رحمه الله .

ثم تحدث بعد ذلك عن رضاع الغنم وضروعها وألبانها وعن رعى الغنم ونشرها

---

(٦٤) المخصص لابن سيده – السفر السابع ص١٧ ، ١٨ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٧٢ .

(٦٥) المخصص لابن سيده – السفر السابع ص٨٧ ، ٨٨ .

وسيرها[٦٦] ثم انتقل للحديث عن أسماء البقر وصفاتها[٦٧] ثم تحدث عن الدود ونحوه[٦٨] وتحدث عن صغار الطير[٦٩] وقد تحدث أيضا عن الجنادب ونحوها.[٧٠]

وكان مما قاله فى النحل:[٧١] النحل أنثى واحدتها نحلة. واحد الخشرم خشرمة والخشرم أيضا: ذكر النحل وقيل: الخشرم: بيوتها.

قال: وفى الحديث لتتبعن سنة من كان قبلكم ذراعا بذراع وباعا بباع حتى أنهم لو سلكو خشرم نحل لسلكتموه.

ثم يقول أبو حنيفة: «والخلايا الأهلية تسمى الدّاباسات وليست عربية»[٧٢]

ومن هنا نرى حرصه على نقاوة العربية وترى فى الوقت ذاته سعة معارفه فهو يذكر الكلمة ومرادفها ليس فى العربية وحدها وإنما فيما يعرف من لغات أخرى ثم ينص على أن هذه عربية وتلك غير عربية.

ثم تحدث بعد ذلك عن الذباب وأنواعه.[٧٣]

ثم يتحدث أبو حنيفة عن أمر شديد الصلة بالنبات بل إن حياة النبات متوقفة عليه إلى حد كبير ذلك هو الرى: مصادره ووسائله وبعض هذه الوسائل كان معروفا قبل عصر أبى حنيفة وفى عصر أبى حنيفة وبعضها لايزال مستعملا الى اليوم ومما قاله فى ذلك:[٣٤]

السّانية: البعير أو الثور أو الحمار يربط به الرّشاء يجره فيخرج الغرب، والسقى عليها يسمى السناوة – وقد ستوت سناوة وسنوا.

الناضج كالسانية، والسقى عليها يسمى النضج.

الناعورة: معروفة سميت بذلك لأن لها صريفا فى دورها.

الدّالية: جذع طويل يركب تركيب مداق الأرزّ، وفى رأسه مغرفة عظيمة مقيرة من خواص أو بوادِيٍّ تأخذ ماء كثيرا ويجعل مايلى المغرفة من الجذع أقصر وهو هاديه ومقدمة

---

(٦٦) المخصص لابن سيده – السفر السابع ص١٨١ – ١٨٢ والسفر الثامن ص٨، ٢٤.
(٦٧) المخصص لابن سيده – السفر الثامن ص٣٨، ٥٢.
(٦٨) المخصص لابن سيده – السفر الثامن ص١٢١، ١٣٢.
(٦٩) المخصص لابن سيده – السفر الثامن ص١٧٢ – ١٧٦.
(٧٠) المخصص لابن سيده – السفر الثامن ص١٧٦.
(٧١) المخصص لابن سيده – السفر الثامن ص١٧٨ – ١٨١.
(٧٢) المخصص لابن سيده – السفر الثامن ص١٨٠.
(٧٣) المخصص لابن سيده – السفر الثامن ص١٨٣ – ١٨٥.
(٧٤) المخصص لابن سيده – السفر التاسع ص١٦١ – ١٦٣.

بقدر ما يبلغ الماء إذا إنحط ويجعل مؤخرة أطول فيركبه الرجال مشيا عليه فإذا صاروا إلى مؤخر الجذع ارتفع مقدمه فإذا أزى بالازاء وهو مهراق المغرفة كفأها رجل قائم على الازاء فضى الماء فى الجدول الى المزرعة ونزل الرجل عن الجذع فانحط هاديه إلى الماء لأنه أثقل من مؤخره ثم يعود الرجال إلى ركوب الجذع فهذا دأبهم .

والدَّوْلاب والدُّولاب : التى تدور دور الشُّهْرقَ شَهْرق الحفار وعلى قَرَاها مسدانْ كل مسد مجموع طرفاه ، وقد ربطت بينهما كيزان كالدلاء الصغار من خصوص قد قيرّت ويقال لتلك الكيزان ، العصامير وهما مقدّان على قدر بعد الماء من موضع مصب تلك الدلاء فاذا دار الدولاب أصعد الدلاء من جانب وهبطت التى تقابلها من الجانب الآخر فاغترفت الفارغة وعلت المملوءة فإذا علت قرا الشهرق وهمتّ بالانتكاس أفرغت ما فيها فى جدول من خشب تدور على المنجنون وتدير المنجنون الإبل أو البقر أو الحمير. والشهرق كلمة فارسية استعملتها العرب .

نلاحظ على حديث أبي حنيفة عن وسائل الرى أنه فى بعضها يصف آلة الاستقاء وطريقة عملها مما يدل على خبرة فنية .

وإذا كان أبو حنيفة قد حدثنا بطريقة سقى الأرض وريها فانه لم ينس أن يحدثنا عن الوسائل التى يشرب بها الإنسان الريفى ، فهو يذكر أسماء المزاد والأسقية ونعوتها .(٧٥)

ويهمنا ما قاله فى ذلك قوله : أدهقت الكأس وهى كأس دهاق ، فأما قوله تعالى : « وكأسا دهاقا » فقد تكون المملوءة وتكون المتابعة على شاربيها من الدهق الذى هو متابعة الشد ، فأما صفتهم الكأس وهى أنثى بالدهاق ، ولفظه لفظ التذكير فمن باب رضا أعنى أنه مصدر وصف به ، وهو موضع ادهاق .

وقد كان يجوز من باب هجان ودلاص إلا أنا لم نسمع كأسان دهاقان ، وإنما حمل سيبويه أن يجعل دلاصا وهجانا فى حد الجمع تكسيرا لهجان ودلاص فى حد الأفراد قولهم : هجانان ودلاصان ولولا ذلك لحمله على باب رضا لأنه أكثر فأفهمه .

ثم يحدثنا أبو حنيفة عن الأنهار والخلجان والعيون ، والقنى والآبار والحياض والمصانع والأحباس والغدر ...... الخ .(٧٦)

---

(٧٥) المخصص لابن سيده - السفر العاشر ص٤ - ١٥ .

(٧٦) المرجع السابق ص٣٠ - ٥٥ .

وفى موضوع ملْ القرب والأسقية وغيرها عرض أبو حنيفة لمسألتين نحويتين : الأولى مسألة الوصف بالمصدر والمصدر من الأشياء التى يوصف بها الا أن هناك خلافا بين الكوفيين والبصريين فى ذلك وقد أوضحه ابن هشام [٧٧] فيما يلى :

قالوا : « هذا رجل عدل ، ورضا ، وزور ، وفطر ، وذلك عند الكوفيين على التأويل بالمشتق أى : عادل ومرضى وزائر ومفطر . وعند البصريين على تقدير مضاف أى ذو كذا ولهذا التزم أفراده وتذكيره كما يلتزمان لو صرح بذو »

فعلى أى المذهبين سار أبو حنيفة ؟ تحدث أبو حنيفة عن مسألة الوصف بالمصدر فى سياق حديثه عن قوله تعالى « وكأسا دهاقا » فقال :

« فأما صفتهم الكأس وهى أنثى بالدهاق ولفظه لفظ التذكير فمن باب رضا أعنى أنه مصدر وصف به موضع إدهاق » [٧٨]

ومن هنا نرى أن أبا حنيفة سار على المذهب البصرى فى هذه المسألة .

والمسألة الثانية تتعلق بجمع التكسير وقد ربطها أبو حنيفة بكلمتى «كأسا دهاقا» ولتوضيح هذه المسألة نعرض بإيجاز لتعريف جمع التكسير.

جمع التكسير : مادل على أكثر من اثنين أو اثنتين بتغيير صيغة مفرده لفظا أو تقديرا .

والتغيير اللفظى ينقسم بحسب الاستعمال إلى ستة أقسام لأنه إما بالزيادة فقط كصنو وصنوان أو النقص فقط كتخمة وتخم أو الشكل فقط كأسد وأسد أو الزيادة وتبديل الشكل كقلم وأقلام أو النقص وتبديل الشكل كرسول ورسل أو بالثلاثة كغلام وغلمان أما التغيير السابع الذى تقتضيه القسمة العقلية وهو التغيير بالزيادة والنقص فقط فلم يقع .

والتغيير المقدر فى كلمات معدودة أنهاها بعضهم إلى سبعة وهى فلك وعفتان [٧٩] وهجان [٨٠] ودلاص [٨١] وإمام وكناز [٨٢] وشمال .

فهذه الكلمات مشتركة بين الواحد والجمع مع اتحاد الصورة فيقدر عند ملاحظة الجمعية حلول حركة مفيدة لها بدل حركة المفرد . ففلك مفردا كقفل وجمعا كبدن ،

(٧٧) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – تأليف الإمام أبى محمد عبد الله جمال الدين ابن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام جـ٣ ص٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط – مطبعة السعادة ١٩٤٦ .

(٧٨) تصريف الأسماء للاستاذ محمد الطنطاوى ص٢٠٥ – ٢٠٧ مطبعة حجازر ١٩٥٢ .

(٧٩) الجافى القوى .

(٨٠) كرام الابل .

(٨١) برّاق .

(٨٢) مكتنز اللحم .

وعفتان مفردا كسرحان وجمعا كغلمان ، وهجان وما بعدها مفردات كأجسام وجموعا ككرام .

هذا رأى سيبويه فلم يجعلها كجنب قال تعالى « وإن كنتم جنبا فاطهروا » ونظائرها من الكلمات المستعملة مع الواحد والمثنى والجمع بلفظ واحد ذلك لأنهم ثنوها فقالوا : فلكان .... الخ والتثنية قبل الجمع فلا مناص من رعاية التغيير المقدر عند الجمع قال سيبويه (ويدلك على أن دلاصا وهجانا جمع لدلاص وهجان وأنه كجواد وجياد وليس كجنب قولهم هجانان ودلاصان فالتثنية دليل فى هذا النحو)[٨٣]

تلك نبذة مقتطفة عن تعريف جمع التكسير ومنها نرى أن الخلاف بين العلماء قد انحصر فى التغيير المقدر فى الكلمات المشتركة بين الواحد والجمع مع اتحاد الصورة فيقدر عند ملاحظة الجمعية حلول حركة مفيدة لها بدل حركة المفرد .

هذا مذهب سيبويه واستدل على التغيير المقدر بالتثنية ومن هنا نفهم أن هناك مذهبين : مذهب سيبويه ومذهب غيره فإلى أى المذهبين جنح أبو حنيفة ؟

يقول أبو حنيفة عن كلمتى : «كأسا دهاقا»

« وقد كان يجوز أن يكون من باب هجان ودلاص إلا أنا لم نسمع كأسان دهاقان وإنما حمل سيبويه أن يجعل دلاصا وهجانا فى حد الجمع تكسيرا لهجان ودلاص فى حد الافراد قولهم هجانان ودلاصان ولو لا ذلك لحمله على باب رضا لأنه أكثر فأفهمه »

ومن هنا نرى أن أبا حنيفة فى مسألة جمع التكسير يميل إلى مذهب سيبويه .

ولم ينس أبو حنيفة أن يحدثنا عن صناعة ريفية ذات صلة وثيقة بالرى والاستقاء تلك هى صناعة الحبال فهو يتحدث عن اشتقاق كلمة حبال ثم يذكر أنواع الحبال وصفاتها من حيث القوة والضعف ومما قال[٨٤] فى ذلك :

واذا فتل الحبل على قوتين فهو مثنى ، ولا يكاد يفتل على أقل من ثلاث قوى فإن فتل على ثلاث فهو مثلوث وقد ثلثته أثلثة .

وكذلك إلى العشر فى الفعل والمصدر غير أنك تفتح العين فيما كانت العين منه لا ما من ذلك وقيل لم يقل فى الاثنين ولا فى الثمانية ولا فى العشرة وإذا فتله فقد طواه طيا ولواه ليا فالتوى وتلوى وعواه عيا ورواه ريا .

وكذلك أدرجه وأدمجه وحملجه فكل رشاء حملاج وأظنه مأخوذ من قرن الظبية لأنه يقال له حملاج فإذا أحكم فتله قيل أكدمه ومنه بغير مكدم وقد أزمت الحبل آزمة أزما

(٨٣) الكتاب باب تكسير ما كان من الصفات عدد حروفه أربعة ..الخ جـ٢ ص٢٠٩ .

(٨٤) المخصص لابن سيده السفر التاسع ص١٧٠ - ١٧٧ .

شددت فتله ومنه الأزم فى العض والأزمة من الجدب وكذلك أرمته آرمة وأصل الأزم الجمع ، حرَّدت الحبل : إذا ضفرته على غير استواء فجاءت له حرفة ويقال حبل حرد وفيه حرد : إذا تعجر الأطول منه وذلك إذا لم تكن قواه مستوية وهذا غير المجردفان كان كذلك فهو ضفير وقد ضفرته ضفرا ومنه قوله ﷺ فى الامة اذا زنت « بعها ولو بضفير » والجدل مثل الضفر والجدل يدل ما جدل جدلا وإذا أجيد أدراج الحبل فقد أحصد وهو محصد وحصد .

أمر الحبل : شد فتله والمريرة والمرير والمرار والمرَّ والمِرَّ : حبل الحُمولة وهو من كل شىء حتى من الليف وأنشد :

« أمرّة الليف وأصناق القطف » والأصناق جمع صنق وهو الحلقة من الخشب تكون فى طرف المرير والقطن ضرب من الشجر متين القضبان تتخذ منه الأصناق .

الحبل الملاحم : المشدود الفتل فإذا كان رخوا فهو معثلب ومندجر والإغارة شد الفتل وكل قوة انطوت من الحبل على قوة فذلك قلد والجميع أقلاد وقلود قال وأكثر ما سمعت به فى السيور الملوية وكل ما لويته على شىء فقد قلدته ولعل القلادة مأخوذة منه .

فإذا استوت قلود الحبل لاستواء فى الغلظ فهو حبل ملتئم ومتتابع فاذا اختلفت فهو حبل مقوى ومنه الإقواء فى الشعر فأما الترصيع والرصيع فهو ما صنع من الجلود فأولج بعض السيور فى بعض .

وإذا فتل الحبل من قوتين أو قوى بيض وسود أو الخيط فذلك بريم ولذلك سمى الصبح أول ما يبدو بريما لاختلاط بياضه بسواد الليل وأنشد :

على عجـل والصبح بـاد كـأنـه بـأدعج من ليـل التمام بـريم

وهو معنى قول الله عز وجل : « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر[٨٥] » وليس هذا الإبرام دون اللونين وهو معنى قول الأخيلية :

يـا أيها السـدم الملوى رأسه ليسوق من أهـل الحجـاز بـريما

تريد غنيمة فيها من كل ضرب ضأن ومعز وسود وبيض وإن كان كل مفتول بريما إذا كان الحبل من قوى مختلفة الألوان فهو أبرق والجمع برق . وإذا لم تحكم صنعة الحبل فهو مرمق . والسلك ما كان من قطن وجمعه سلوك والنصاح : ما كان من خيوط الصوف والجميع نصح وإذا كثرت ثلة الحبل وثلثه صوفه أو شعره أو وبره قيل حبل شبيع وحبال شبع . الخراب : المسد المتخذ من الكنبار وهو ليف النارجيل وهو جوز

(٨٥) المرجع السابق ص١٧٦ .

الهند وهو أجود الليف للحبال وأجوده الضبيبي وهو شديد السواد ويسمى القبطى وليس فى الأمساد أصبر منه على ماء البحر وغير ذلك .

ويلفت النظر فى حديث أبى حنيفة عن الحبال عدة ملاحظات لغوية وفنية منها إشارته إلى موضوع الحقيقة والمجاز وقد كثر حديث القدماء عنهما فوصفوا الحقيقة بأنها الدلالة الأصلية للفظ وأن المسئول عنها هو الواضع الأول للغة كما وصفوا المجاز بأنه ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى أصل اللغة »[٨٦]

وفى دقة العالم وفنية الأديب يشير أبو حنيفة الى هذا الموضوع حينما يقول[٨٧] فكل رشاء حملاج وأظنه مأخوذ من قرن الظبية لأنه يقال له حملاج فإذا احكم فتله قبل أكدمه ومنه بعير مكدم ، وقد أزمت الحبل آزمة أزما شددت فتله ومنه الأزم فى العض والأزمة من الجدب ...... الخ .

فهو يرى كما يفهم من كلامه أن إطلاق لفظ حملاج على قرن الظبية حقيقة وإن كان قد احتاط لنفسه فى تقرير ذلك فاستعمل كلمة : وأظنه .. وإن اطلاقها على الرثاء مجاز . كما أنه يقول : « فإذا أحكم فتله قيل أكدمه » وهذا حقيقة ثم يقول : « ومنه بعير مكدم » وهذا مجاز ثم يقول « وقد أزمت الحبل آزمة أزما شددت فتله » وهذا حقيقة ثم يقول : « الأزم فى العض والأزمة من الجدب » وهذا مجاز .

ثم يستمر أبو حنيفة على هذا المنوال حينما يقول : « وكل قوة انطوت من الحبل على قوة فذلك قلد والجميع أقلاد وقلود قال : وأكثر ما سمعت به فى السيور الملوية وكل ما لويته على شئ فقد قلدته وهذا حقيقة . وبدقة العالم وذوق الفنان يقول أبو حنيفة ولعل القلادة مأخوذة منه « وبالطبع يكون هذا الاستعمال مجازا .

وبنفس الروح يتابع أبو حنيفة حديثه فيقول : فإذا استوت قلود الحبل لاستواء قواه فى الغلظ فهو حبل ملتئم ومتتابع فإذا اختلفت فهو حبل مقوى . وهذا الاستعمال حقيقة فإذا قال أبو حنيفة « ومنه الأقواء فى الشعر » كان هذا الاستعمال مجازا .

وواضح مما سبق أن تطبيقنا لكلام أبى حنيفة مبنى على تعريف القدماء للحقيقة والمجاز .

وقول أبى حنيفة : « ومنه الأقواء فى الشعر » دليل على أن أبا حنيفة كان ذا بصر بفن الشعر وأنه كان يعرف محاسنه ومساوئه فالأقواء من عيوب القافية إذ هو اختلاف حركة

---

(٨٦) دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس ص١٢٣ .

(٨٧) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص١٧٥ .

الروى المطلق بحركة تقاربها فى الثقل وهى الكسر مع الضم ويسمى العيب المذكور أقواء لما فيه من المخالفة بين القافية ومثاله قول حسان :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر　　جسم البغال وأحلام العصافير

كأنهم قصب جوف أسافله　　مثقب نفخت فيه الأعاصير[٨٨]

فحركة الراء فى كل من العصافير والأعاصير مختلفة ويلاحظ أن الصلة وثيقة بين الاستعمال الحقيقى والاستعمال المجازى فإذا اختلفت قلود الحبل فهو حبل مقوى وإذا اختلفت حركة الروى فذلك أقواء .

ثم عرض أبوحنيفة بعد ذلك لموضوع وثيق الصلة بالنبات هو موضوع الأرض الزراعية ففسر كعادته كلمة الأرض تفسيرا لغويا وذكر مرادفاتها ثم ذكر أنواعا من الأرض الرملية وغير الرملية ويبين ما ينبت فيها ومالا ينبت ، وتحدث عن الوديان وعن الأرض التى بينها وما يصلح منها منزلا للناس ومالا يصلح ومواطن الماء والمراعى . وتناول أبوحنيفة فى حديثه عن الأرض « التخوم » وفسرها بأنها : الحد بين الأرضين والبلدين وعن الأرض الموبؤة والبريئة من الأوباء وعن الأرض التى بين البر والريف وعن برودة الأرض - وحرارتها وهذه بعض موضوعات علم الجغرافيا ومما قاله فى ذلك[٨٩] :

ويقال للأرض الساهرة سميت بذلك لأن عملها فى النبت الليل والنهار دائب ، ولذلك قيل : خير المال عين خرارة ، فى أرض خوّارة ، تسهر إذا نمت وتشهد إذا غبت ، وأنشد :

يرتدن ساهرة كأن عميمها　　وحميمها أسداف ليل مظلم

ثم صارت الساهرة أسما لكل أرض .

قال الله تعالى : « فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة » .

وقيل الساهرة : وجه الأرض .

ثم يقول أيضا : شط الوادى : سنده الذى يلى بطنه والجمع شطوط ، ولا يعرف بنو تميم الشاطئ .

وفى موضوع الأرض أيضا قال أبو عبيد : الهجول : المطمئنة من الأرض ، وقال ابن دريد واحدها هجل ، والهجيل كالهجل فى بعض اللغات فأما ما أنشده أبو حنيفة :

لها هجلات سهلة ونجادها　　دكادك لا تؤبى بهن المراجع

---

(٨٨) ميزان الشاعر فى العروض والقوافى تأليف حسن جاد حسن ، محمد عبد المنعم خفاجة ص ١١٩ الطبعة الأولى ١٩٥٢ .

(٨٩) المخصص لابن سيده - السفر العاشر ص٦٧ - ١٢٨

فإنه قال واحد الهجلات هجل قال أبو القاسم على بن حمزة وأبو جعفر الموصلى هذا غلط ولم تأت فعلات جمع وانما تأتى جمع فعلة وانما الهجلات جمع هجلة مثل تمرة وتمرات فاما الهجل فجمعه هجول كما تقدم قال ذو الرمة :

إذا الشخص فيها هزة الآل أغمضت   عليه كاغماض المقضى هجولها

قال أبو على : لو لم يكن فى الكلام هجلة لقلنا أن هجلات جمع هجل وتوهمنا فى هجل الهاء أو كان من باب حمام وحمامات وسرادق وسرادقات ، وسجل وسجلات ، ولكن لما وجدنا هجلات وهجولا ، ووجدنا هجلة ، وهجلا علمنا أن هجلات جمع هجلة ، وهجولا جمع هجل فلا ضرورة بنا إلى باب سرادق وسردقات . قال ابن دريد : جمع الهجل : أهجال وهجال ، وقال أبو حنيفة من الهجول .

ثم يقول أبو حنيفة أيضا : والمرح : الأرض المفيضة الواسعة التربة المعشاب ، وأصله فارسى وقد جرى فى كلام العرب ، وصرف قال العجاج ووصف عيرا وأتنا :

وقد رعى مرج ربيع ممرجا .

قال على : وكل مطمئن اندفع إليه الماء فاستقر فيه فهو قرارة والجمع قرار وقرارات ، وهى من مكارم الأرض إذا كانت سهولا قال الراعى يصف عيرا :

أطار نسيلة الشتوى عنه   تتبعه المذانب والقرار

قال على : لا يلزم أن يكون القرار جمع قراره لعله كسل وسله فى أنه من باب ما يقال بالهاء وغير الهاء ، وإنما اغتر أبو حنيفة أرى بعطف هذا الشاعر القرار على المذانب ليقابل الجمع بالجمع ..... ثم يقول أبو حنيفة :

الخميلة : الأرض الكثيرة الشجر السهلة ليست برملة ولا قف ، والخميلة القطيفة وإنما قيل للموضع الكثير النبت خميلة تشبيها بها شبه كثرة النبت بخمل القطيفة وقيل : الخميلة مفرج فى الرمل بين هبطة وصلابة وهى مكرمة للنبات وأنشد :

نشزن من الدهناء يقطعن وسطها   شقائق رمل بينهن خمائل

والملاحظ على حديث أبى حنيفة عن الأرض علاوة على ظاهرة الترادف التى تحدثنا عنها من قبل .

الملاحظ على هذا الحديث أن أبا حنيفة يحدثنا أحيانا عن تطور استعمال الكلمة وهذا سبق لغوى يحمد لأبى حنيفة .

ثم إن ظاهرة البرهنة والتدليل لا تفارق أبا حنيفة فهو يقول مثلا : ويقال للأرض الساهرة سميت بذلك لأن عملها فى النبت الليل والنهار دائب ولذلك قيل : خير المال عين خرارة فى أرض خوارة تسهر إذا نمت وتشهد إذا غبت وأنشد :

يـــرتـــدن ساهـــرة كـــأن عـمـيـمـهـــا وجـمـيـمـهـــا أسداف لـيـــل مظلم

ثم صارت الساهرة اسما لكل أرض قال الله تعالى : « فانما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة » . وقيل الساهرة وجه الأرض وملاحظة ثانية تلك أن أبا حنيفة يشير إلى أن بعض الألفاظ مستخدم فى هذه القبيلة وغير مستخدم فى قبيلة أخرى فهو يقول مثلا : « شط الوادى : سنده الذى يلى بطنه والجمع شطوط ولا يعرف بنو تميم الشاطئ .

وملاحظة أخرى فى موضوع الأرض تتعلق بجمع المؤنث ذلك أن أبا حنيفة يرى أن هجلات جمع هجل ، واعتبر بعض العلماء أن أبا حنيفة قد غلط فى ذلك .

وإن هجلات جمع هجلة بالتاء وأما هجل بدون التاء فجمعه هجول ثم قال أبو على : لو لم يكن فى الكلام هجلة لقلنا إن هجلات جمع هجل وتوهمنا الهاء أو كان من باب حمّام وحمّامات ... الخ ويعنى بباب حمام وحمامات أن الجمع يكون ساعيا[٩٠] .

والخلاصة أن هجلة تجمع على هجلات وأن هجل يجمع جمع تكسير على هجول . وعللوا ذلك بوجود التاء فى هجلة فتجمع على هجلات ولعدم وجودها فى هجل فتجمع على هجول وإنه لا ضرورة إلى باب حمّام وحمامات .

فهل غلط أبو حنيفة حقا ؟ وما وجهة نظر المعارضين ؟

وهل يمكن التوفيق بين أبى حنيفة ومعارضيه ؟

لننظر فى كلمة هجل . هل استوفت شروط جمع المؤنث السالم ؟ يقول علماء الصرف : « إذا استوفى مفرد هذا الجمع شروطا خمسة وهى : أن يكون اسما ثلاثيا ساكن العين غير معتلها ولا مدغمها سواء أكان مقرونا بالتاء أو خاليا منها فإما أن يكون مفتوح الفاءأولا فإن كان مفتوح الفاء فى وجب عينه اتباعه لفائه[٩١] ..... الخ .

وفى ذلك يقول ابن مالك :

والســـالم العين الثلاثى اسما أنـــل اتبـــاع عين فـــاءه بما شكـــل

ان ساكن العين مؤنثـــا بـــدا مختتما بـــالتـــاء أو مجردا

ومن هنا نرى أن كلمة هجل قد استوفت شروط جمع المؤنث وأنه يجب جمعها على هجلات وأنه لا موجب لا شتراط ختم الكلمة بالتاء ومن هنا أيضا نرى أن أبا حنيفة لم يكن مخطئا . .

أما وجهة نظر المعارضين لأبى حنيفة فيبدو أنهم رأوا أن هجل اسم ثلاثى ساكن

---

(٩٠) منجد الطلاب لفؤاد افرام البستانى ص (ى) الطبعة الثالثة - المطبعة الكاثولوكية ببيروت .

(٩١) تصريف الأسماء للأستاذ محمد الطنطاوى ص ٢٠٢ .

العين مفتوح الفاء وليست عينه واوا نحو كعب[٩٢] ... الخ وأن هذا الوزن من الأوزان التى ينقاس فيها فعول والرأى أنه لا تعارض بين الرأيين وأن كلمة هجل تجمع تأنيثا على هجلات وتجمع تكسيرا على هجول .

وفى موضوع الأرض أيضا يرد أبو حنيفة بعض الكلمات المستعملة فى العربية إلى أصلها الفارسى فيقول مثلا :

اذا كان موضوع الأرض باردا فهو صرد وإذا كان دفئا فهو جرم وهى الصرود والجروم والأصل فارسى .

قال أبو عبيد : الجربة : المزرعة وأنشد أبو حنيفة :

تحدّر مـــاء البئر من جُـــرَشِيَّـــة على جــربــة تعلو الــدِّبــار غُــرُبها

قال : وهى المشارة فارسية معربة[٩٣] .

وبنفس الطريقة السابقة تحدث أبو حنيفة عن حرث الأرض وإصلاحها[٩٤] فشرح معنى الحرث والحراثة واستعمال الحرث حقيقة ومجازا ، وأداة الحرث والعزق وأنواع الحرث ، ويذكرأبو حنيفة من مرادفات الحرث : الكراب ثم يقول :

التَّلمَ هو : «مشق الكراب فى الأرض بلغة أهل اليمن[٩٥] .

ولعله يقصد بلغة أهل اليمن لهجتهم ولهذا يمكن الاعتماد على كتاب النبات لأبى حنيفة فى دراسة اللهجات العربية فقد رأينا هنا وفيما سبق إشارته إلى بعض اللهجات

ثم تحدث أبو حنيفة عن أنواع من[٩٦] التربة فتحدث عن الأرض ذات الندى والثرى وعن الأرض الخصبة الممرعة ، وعن تقدم الأرض فى الإنبات وتأخرها ، وعن الأرض التى لاتنبت الإنكدا وعن الأرض التى لا تنبت ابدا .

هذا ولقد كان أبو حنيفة فى كل ما ذكرنا لغويا أديبا والذين تعقبوه إنما تعقبوه من ناحية اللغة والأدب وهذا يدل على أن أبا حنيفة كان لغويا أديباً أولا وكان عالما بالنبات ثانيا وبالتالى أن كتابه فى النبات كان كتاب لغة وأدب أولا وكتابا فى علم النبات ثانيا .

هذا ولقد كان اعتمادنا فى كل ما سبق على ما جاء من كتاب النبات فى المخصص لابن سيده فلنتتبع أبا حنيفة فى الجزء الخامس من الكتاب «كتاب النبات» الذى عثر عليه :

(٩٢) تصريف الأسماء للأستاذ محمد الطنطاوى ص ٢٢٤ .
(٩٣) المخصص لابن سيده - السفر العاشر ص ١٤٨ .
(٩٤) المخصص لابن سيده - السفر العاشر ص ١٥٠ - ١٥٤ .
(٩٥) المرجع السابق ص ١٥١ .
(٩٦) المرجع السابق ص ١٥٤ - ١٦٠ .

قرأت هذا الكتاب فلفت نظرى فيه ما يلى :

١ - ذكر أن « قرى » اسم لماءه كان عندها يوم من أيام العرب أى حروبهم قال ذو الأصبع العدوانى : كأنها يوم قرى إنما نقتل إيانا .

يريد الشاعر أن المقاتلين إخوة من دم فقاتل أخيه كأنما يقتل نفسه ، وهذا المعنى من مستحسن معانى العرب الشعرية ، ومنه قول الحماسى :

. ونبكى حين نقتلهم عليهم ونقتلهم كأنا لا نبالى(٩٧)

٢ - تحدث عن الأدوات المنزلية الخشبية(٩٨) ، وتسمى صناعتها فى أيامنا صناعة (الموبيليات) كما يسمى نجارها (نجار إفرنجى) وقد ذكر الدينورى فى كتابه جملة أشجار يتخذ من جذوعها وأخشابها أدوات وأوانى على نمط الذى تنحت ألواحه وتصقل وتسود بالدسم حتى يصبح محاكيا لخشب الشيزى ويسمونه باسمه ويريد الأصمعى بالدسم نحو الزيت والشحم مما تعالج به أخشاب الكراسى والمقاعد والموائد لتلميعها وقد قام مقامها فى زماننا هذا أسام أخرى : الزيت المعدنى ثم السبيرتو الكمليكا قال الأصمعى وشجر الشيزى (ويقال له الشيز أيضا) لا يخلط حتى تتخذ من أخشابه جفان وقصاع . قال أبو حنيفة والأمر كما وصف الأصمعى .

٣ - عاد الأصمعى إلى الأشجار التى تتخذ من أشجارها الصلبة الجفان والموائد(٩٩) فذكر منها عدا الجوز (العتمة) و(الفرفار) قال : وإذا تقادمت (الفرفارة) اسود خشبها سوادا شديدا ويكون قبل أصفر والاقداح (جمع قَدَح بالتحريك) التى تتخذ منه رقاق خفاف طيبة الرائحة ولشدة صلابته قال الشاعر (والتبلطُ يبْرى جُبَرَ الفرفار) البلط) حديدة الخراط و(الحبر) جمع حُبْرة وهى العُقد والعُجَر والسلع ويراد بها مكان الصلابة من جذع الشجرة فهى إذا خرطت ثم نحت وصقلت وسودت بالدسم خرجت آنيتها موشاة أحسن وشى . قال وأخبرنى بعض الأعراب أنهم ينحتون بالسرأة صحافا من سيقان الكرم (وهو شجر غير كرم العنب) ومن عجر تظهر فى تلك السيقان فتجئ خلنجا موشاة حسانا جيادا . وقوله فتجئ خلنجا يريد بالخلنج (وهو اسم فارسى) شجر اشتهر أيضا بصلابته وصلاحيته لاتخاذ الآنية منه ثم سموا كل شجر يشبهه خلنجا بدليل قوله (وأجناس الخلنج كثيرة وهذا أى الكرم أكرمها) .

---

(٩٧) النبات لأبى حنيفة الدينورى جـ٥ ص ٥ .

(٩٨) النبات لأبى حنيفة الدينورى جـ ٥ ص ١٤ .

(٩٩) النبات لابى حنيفة الدينورى جـ ٥ ص ١٦ .

وكان وجود صلاب الأشجار فى « السراة » جعله مركزا لصناعة الخراطة وتصدير مصنوعاتها إلى الخارج قال : والكرم تغلظ ساقه عندهم غلظ شديدا . واخبرنى بمثل ذلك رجل من أهل الشام لأن الكرم يعبل (أى يضخم) بأرض بيت المقدس خاصة حتى يمكن أن يخرط منه الأوانى[١٠٠] وما قلناه فى شجر الكرم هذا يدل عليه قوله : وأخبرنى رجل من أهل المعرفة أن الكرم الذى ينسب الناس إليه الصحاف وهو شجر ليس بالباميق ولكنه غليظ وله ورق مثل ورق الاجاص وخشبه موشى بسواد وصفرة وربما كان بحمرة ينبت فى جبال الدروب وربما عملت منه السروج أما.قوله (جبال الدروب) فيعنى بها الجبال الفاصلة بين آسيا الصغرى وسوريا وهى المداخل إلى بلاد الروم .

هذا ملخص صفحات ملأها الدينورى بوصف صلاب الأشجار التى تصنع منها الأدوات الخشبية المنزلية . وهذا النوع من الأشجار يسمى « النضار » بضم النون ومنه الأثل والفرفار والكرم والخلنج والميس والساج وفى جذوعها عقد وعجر وسلع وحبر يعمدون إلى هذه العقد فيخرطون منها الأدوات حتى الموائد والزوارق ويصقلونها ويعالجونها بالدسم فتظهر موشاة بتواليع وأساريع وتعاريق سود أو حمر براقة وتكون أرضية الخشب صفراء كل ذلك يدل على أن صناعة الخراطة فى جزيرة العرب كانت ناهضة لدى أهلها ولا سيما جبل (السراة) حيث تنبت تلك الأشجار وتشبه هذه الصناعة فى زمنهم حسبما وصف أبو حنيفة صناعة الأوانى والأدوات ببيت المقدس ولم نتحقق فيما إذا كانت صناعته فيه من خشب الزيتون المعروف أو خشب شجر آخر سمى بالزيتون تسامحا كما قال الأصمعى فى الشيزى وقد نقلنا قوله آنفا .

٤ - وصف شجر الحرمل[١٠١] .

وروى عن بعض أعراب (السراة) قوله : والحرملة شجرة لها لبن كثير ثم حكى عن ذلك الأعرابى ما نصه : (ويؤخذ لبنها فى صوف أو قطن ما حمل - أى بقدر ما تستطيع أن تتشربها الصوفة أو القطنة - ثم يغمل بالزبد حتى يروى منه ومعنى يسغبل يغمس بالدسم فيمتصه إلى آخر حد - ثم يغسمل عشرة أيام حتى ينتن - ومعنى يغمل : يغم ويغطى ويحك بالصوفة أو القطنة جرب الإنسان الأجرب حكا شديدا ويقام فى الشمس فيدلك جربه بتلك الصوفة فيجد مضيفا (أى ألما) شديدا ويبرأ. انتهى قول

---

(١٠٠) لعله يقصد بالكرم شجر الزيتون البرى المشهور ببيت المقدس .

(١٠١) كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى جـ ٥ ص ١٠٤

الأعرابى. ومنه يفهم أن عرب البادية هدوا إلى المعالجة بالعفونة والنتانة قبل أن يهدى إليها مخترعو البنسلين بأكثر من ألف سنة .

٥ - وصف (دم الغزال[١٠٢]) بأنه نبات يشبه الطرخون وقال لأن له عرقا أحمر تخطط الجوارى بمائه مسكا فى أيديهن حمرا فقوله بمائه أى بعصارته التى تسيل من عروقه بعد دقها أو شدخها . والمسك بالتحريك الأسورة والدمالج تتخذ من الذَبْل أى عظام السلاحف .

فنساء الأعراب يعمدون إلى تلك العصارة الحمراء فيجعلن منها معاصمهن دوائر على شكل السوار يتحلين بها كما تفعل أعرابيات اليوم بزينة الوشم فى معاصمهن وعلى وجوههن .

٦ - قال الاصمعى[١٠٣] : حدثنى عبد الملك بن صالح بن على (من أمراء بنى العباس وكأنه كان واليا على الشام) قال تبقى شجرة الزيتون ٣٠٠٠ سنة وكل زيتونة بفلسطين من غرس اليونان قبل الروم (يريد كتاب العرب من الروم ملوك القسطنطينية المشهورين باسم البيزانطيين) وذلك البناء العجيب بناؤهم (يريد بذلك البناء بعلبك وأمثالها) قال : ورأيت الزيتون يعاوم - أى عاما يحمل وعاما لا يحمل - ورأيت كنيسة بالشام عتيقة ليس فيها صليب فسألت عجوزا فقالت : كانت هذه الكنيسة قبل أن تكون النصرانية كأنها من بناء اليونانيين أ هـ . وإذا قال كتاب العرب الشام أرادوا بها سورية الطبيعية الممتدة على ساحل البحر المتوسط بين طورس والعريش .

٧ - (التين الجلداس) ووصف أبو حنيفة ثمر (التين) وعدد أجناسه[١٠٤] وقال هو كثير فى أرض العرب . قال وأخبرنى رجل من أعراب (السراة) وهم أهل تين قال : التين عندنا كثير جدا وهو مباح ونأكله رطبا ونزبيه فندخره (فى لهجتنا اليوم استعمال التزبيب للعنب خاصة أما التين إذا جففت فهو تين يابس ولا نقول تين زبيب أما فى اللغة فالتزبيب لهما معا كما سمعت) قال ومن أجناس التين عندنا (الجلداس) وهو أجوده ولونه أسود ليس بالحالك (أى ليس بالشديد السواد كأنه يضرب إلى حمرة أو بياض) فيه طول وإذا بلغ انقطع بأذنا به (أى أنه إذا انتهى نضجه لم يعد يحمله ذنبه أى عودته أو نياطه الذى يعلق به فى أصل الغصن فيتساقط) قال : وبطونه بيض (يريد ببطونه لبه الباطن الذى يؤكل) قال : وهو أحلى تين فى الدنيا وإذ تملأ منه الآكل (أى

---

(١٠٢) كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى جـ ٥ ص١٧٤

(١٠٣) كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى جـ ٥ ص ٢٠٣

(١٠٤) كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى جـ ٥ ص ٦٧

اكتظ) أسكره . وما أقل من يقدم على أكله على الريق لشدة حلاوته أ هـ والجمال فى قول هذا الأعرابى جدة تعبيره فى وصفه للتين واختيار الفاظ فصيحة نحن فى حاجة إلى إحيائها ونعيد لفت النظر إلى جبال (السراة) وأنها مصدر زراعى وصناعى فى جزيرة العرب ولا نعرف شيئا من أخبار السراة اليوم وحبذا لو عرفنا من يعرف .

٨ - (صنع الحبال[١٠٥]) قال الأصمعى : (فى المدينة المنورة سوق تسمى سوق الخزامين) وهو بمنزلة سوق الحبالين التى تباع فيها الحبال بدمشق . وحبال الشام تتخذ من نبات القنب أما الخزامون فى بلاد العرب فحبالهم من نبات الخزم وهو شجر قريب الشبه من شجر الدوم وفى سلسة جبال (السراة) جبلان يسميان (قلمى[١٠٦] ونقمل) لا ينبتان شيئا إلا شجر الخزم التى تتخذ منه الحبال . والغربان حريصة على أكل بسره المر الفعص فهى تنتابه أسرابا أسرابا فإذا رآها الناس صاحوا (تريد قلى ونقمل) أى أنها تقصد ذينك الجبلين لترعى الخزم فيها . والحبال تتخذ من خوص الخزم كما تتخذ منها الخطم أيضا جمع خطام وهو زمام البعير فترى الخزامين يجلبون ذلك الخوص من منابته وينقعونه فى الماء فإذا صلح ولان دقوه بالمباجين على الفرازيم (والمياجين جمع ميجة وهى المدقة والفرازيم جمع فرزوم الخشبة التى يقطع عليها الحذاء جلود أحذيته) وإذا دقوا الخواص على هذه الصورة تساقط ما فى خلال خيوطه من السداد وتخلص الخيوط من تلك السداد أى المواد النباتية التى تسد الفروج بين الخيوط وتشبك بينها فتبقى الخيوط قائمة سالمة فتعمل حبالا على كل نحو وتفتل دقاقا وغلاظا .

(ا) ذكر أبو حنيفة الأرز فقال : واحدته أرزه وليس هو من نبات أرض العرب وقد جرى فى كلامهم وأشعارهم قال ﷺ : (مثل الكافر مثل الأرزة المجذية (أقول معنى المجذية الثابتة فى مكانها ومعنى الحديث أن الكافر قد يثبت على الضلالة فلا يهتدى إلى الإيمان) ووصف الشاعر قوائم ناقته فشبهها بدعائم الأرز فقال : دعائم أرز بينهن فروج) والأرز يطول طولا شديد ويغلظ . واخبرنى الخبير أن الأرز ذكر الصنوبر وأنه لا يحمل شيئا ولكن يستخرج من أعجازه وعروقه الزفت .ويستصبح بخشبه كما يستصبح بالشمع ويقال لخشبه الذى يستصبح به (الداذين) وهو كلام رومى أ هـ .

وذكر الآس فقال : الواحدة آسة وهو بأرض العرب كثير ينبت فى السهل والجبل وخصرته دائمة أبدا يسمو حتى يكون شجرا عظاما وللآس يرقة بيضاء طيبة الريح وثمره

---

(١٠٥) كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى جـ ٥ ص ١٤٤

(١٠٦) كذا ضبطا فى كتاب النبات ولم تظفر باسم نقمل أما قلى فقد ذكره صاحب معجم البلدان واللسان وقالا أنه اسم موضع وطبطاه بفتح الميم

تسود اذا أينعت وتحلو وفيها مع ذلك عليقمة (أى مرارة قليلة) وتسمى أيضا « الغَطْس » أقول : ومرأده بيرقة الآس ثمرته أول ما تبدو وهى بعد فى زهرتها ثم قال وزعم قوم أن الآس يسمى الرَّنْد وأنكره العلماء وزعموا أن الرند شجر طيب الريح وليس بالآس . (الهبيد) « طعام لا يزيد عليه طعام يأكله الناس » كذا قال الأعرابى الذى اهتبد أى اتخذ من الهبيد وهو حب الحنظل وبزوره - ذلك الطعام الشهى .

ويحسن أولا أن نصف للقارئ نبات (الحنظل) وشيئا من خبره وقيمته فى نظر أهل البوادى ملخصا مما ذكره (الدينورى) فى كتابه : تنسطح شجيرة الحنظل بأرشيتها (أى حبال غصونها) على الأرض كالقثاء وكلتا الثمرتين تسمى (جرو) وتجمع على جزاء .

فإذا كبرت الحنظلة وسمنت واخضرت سميت حدجة وتجمع على حدج حتى اذا تقدمت نحو النضج وظهر فيها خطوط تمتد بين قطبيها صفراء إلى بياض وإذ ذاك تسمى خطبانه وتجمع على خطبان ثم تغلب على الخطبانة الصفرة وتعمها وهو نهاية نضجها وتأخذ فى اليبس فيسمونها صراءة وصرانية وتجمع على صراء وصرايات وتلهو الجوارى البدويات بالصريات فيتراشقن بها قال شاعر العرب يصف جماجم الأعداء فى ساحة المعركة :

كأن مفالق الهامات منهم صريات تهادتها الجوارى

أى ترامت الجوارى وتراشقت وسمى الشاعر الصراية هدية تهكما . ولشدة مرارة الحنظل لا يرعاه إلا النعام . قال أبو حنيفة وقد زعم بعض من قد سمع العلم أن الظباء ترعاه ولم أجد ذلك معروفا حتى أن مشاقر البعيرة لا تقوى على استساغة مرارته .

وربما غلط البعير فوقع فى فيه أضعاف العشب فيمرض فيقولون : حظل البعير فهو بعير حظل بطرح النون والحنظل إذا اصفر ويبس وكان صراء كسروه واستخرجوا هبيد أى حبه من جوفه ويسمى هذا الكسر نفقا واهتدابا ولا تسل عما يصيب ناقف الحنظل من احمرار العين وتهيجها حينما تصيبها مرارة الهبيد قال امرؤ القيس :

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وهذا الهبيد الذى يهتبد من أجواف الصراء تتخذ منه أعراب بوادرى الجزيرة بعد تحليته طعاما اذا صب فى الجفنة فاخريه الأعرابى طعام الناس كافة فيرفع عقيرته ويصيح (تعالوا فانظروا لا يزيدكم عليه طعام يأكله الناس ، ولا ستخراج بزور الحنظل بالاهتباد طريقة صناعية شاقة وصفها لنا أبو حنيفة الدينورى وصفا دل على أن لعرب الجزيرة حذقا بالأعمال الصناعية .

أما ما ذكره الدينورى عن تحضير الأعراب للهبيد وطعامه فيفهم منه أنهم كانوا يعالجونه مجتمعين معالجة العمال لأعمالهم فى الحضر لا مستفردين ويجهزون منه كميات للتصدير إلى الخارج لا مقادير قليلة على قدر طلب العائلة وسد حاجتها اليومية البيئية .

فالأعراب إذا رأوا الحنظل اصفر وصراء وحان جنيه واهتباده جمعوا حباته تلالا ويتعمم العمال ويلفون فضل عمائهم على أنوفهم خشية أن تدخل فى أنوفهم مرارته (رائحته الحريفة فتهيج خياشيمهم وتدمع عيونهم) ثم يجتمعون على تلك التلال بالعمد خبطا خبطا حتى يهشموه كله فيصبح بزره وقشوره كحب الحنطة وتبنها فى البيادر قال : ثم يذرونه فى مهب الريح فيطير الريح قشره كله ويبقى الحب . هذا الحب هو الهبيد الذى يؤكل بعد معالجة خاصة وصنعة شاقة قال : فيحشون الهبيد فى أوعيتهم ثم يجيئون به الركية وهى البئر ويكونون قد حفروا حذاء الركية أى بجانبها زبية أى حفرة على عمق قامتين كهيئة الركية وأصل اسم الزبية للحفرة التى يحفرونها فى أعلى الرابية فيقع فيها الأسد ومنه المثل (بلغ السيل الزبى) ثم نثروا فى تلك الحفرة الفراند حتى تمتلئ . والفراند جمع فرند (بكسر فسكون فكسر) وهى الأبزاز كما فى اللسان ومراده بالابزار هنا حبوب الهبيد التى تناثرت من الحنظل عند خبطها بالعمد قال : وخدوا من ركية الماء إلى الحفرة (التى فيها الأبزار) جدولا وخرقوا للحفرة التى فيها (الأبزار) جدولا يذهب ثمّ فى البرية يفعلون ذلك لئلا يغمر الماء الابزاز فتستنقع وتفسد فهم جعلوا للماء سيلا يخرج منه إلى البرية بعد مروره على حبوب الهبيد فتحلو رويدا رويدا من دون أن تفسد

وأخذوا بالدلاء يجرون فى ذلك الجدول الذى يذهب اليه (هذه العبارة غير واضحة المراد) قال فاذا امتلأ (أى البئر الذى فيه حب الهبيد) بالماء جاء رجل أو رجلان بعودين يسميان السطاعين كأنهما رمحان فجعلا يحركان أبزار الهبيد بذينك العودين ويسوطانها (أى يخلطانها بتقليبها من تحت إلى فوق ومن فوق الى تحت) قال ويخرج الماء فى الجدول البرى كأن ذلك الماء بول البغل فهؤلاء يسقون وذانك يسوطان والماء يخرج فيمسون من عشيتهم وقد اصفر الماء والقوم (العمال) دائبون يعملون الذى قلت لك : ان فتروا عنه وترك اللذان يسوطان سوطه ونقع فيه الماء علقم (أى صارت فيه علقمة أى مرارة الحنظل) فلا يطيب أبدا . فإن ثبتوا عليه (أى على السوط) ذلك اليوم والليلة المقبلة لم يفتروا عند السقى (أى لم يحبسوا الماء عنه) ساعة بعد ساعة . فلا يزالون على ذلك حتى يجعلوا يشربون من الزبية التى فيها الحنظل (يعنى هبيد الحنظل وبزره إذ أن فى شربهم له دلالة على ذهاب علقمته)

فإذا كان كذلك أخرجوه يغرفونه بالجفان والزيل (جمع زبيل وهو الزنبيل) حتى يستخرجوه كله ثم يحشونه فى أوعيتهم فيأتون به أهليهم (أى يرجعون إليهم من البرية حيث تكون معامل الهبيد)

ويأتى دور النساء للمساعدة فى اصطناع الهبيد وتقرب المرأة مرصعيها والمرصع صلاءة (أى صفيحة) عريضة من الحجارة . وفهرا (أى حجرا) مدورة تملأ الكف (هنا نحو ثلاثة أسطر قالها الراوى أبو زياد فيها غلطه ونقص يتخلص منها أن المرأة تشدخ وترضخ الهبيد بالفهر على الصلاءة) فإذا رضخت من ذلك الذى تريد قل أو كثر وضعته فى الجفنة ثم عجنته جيدا كما يعجن (ولا يغرب عن فكر القارئ أن المقادير الكبيرة يأتى بها الرجال من المعمل ويوزعونها بالشراء حصصا على البيوت فتعالج كل ربة بيت حصتها من الهبيد فتعجنه) ثم الزقته بجانب الجفنة ثم صبت ماء ليس بكثير وتمرس عجينتها وتصب فى مخلاة عندها حتى لا يبقى فى هبيدها شىء ويخرج الماء أسود (مرارة الحنظل يضرب بشدتها المثل فالمرأة تعود فتصب الماء فى المخلاة على الهبيد حتى لا يبقى فيه شىء من قشر ولا ماء أسود) فاذا أمسكن مخلاتها على قدح وخرج الماء أبيض خالصا نصبت برمتها (قدرها) وصبت فيها هذا الهبيد (لطبخه) وأوقدت قليلا قليلا فاذا غلا أحشت له الوقود (أى أكثرت من الايقاد) فإذا دنا نضجه وخثر (أى جمد بعد الميوعة) خرجت فيه أساريع من سمن أى ينفصل عن عجين الهبيد إذا نضج وجمد خطوط وطرائق براقة من دهن كالسمن فتطعم منها قدحا حسنا تمخضه فى عكتها (أى أنها تستفيد من الدهن فتنشله بقدح وتدخره فى عكتها) و(العكة زقيق صغير للسمن) فإذا كان عندها تمر ألقت فى عجين الهبيد النضيج قبضات منه حتى تعلوه الحمرة أو الشكلة (والشكلة الشقرة يعنى أن لون التمر الأحمر ينفض على عجين الهبيد فيحمر أو يشقر ثم أفرغت فى جفنتها فتعال فانظر : لا يزيدك عليه طعام يأكله الناس .

وبعد أن وصل الأعرابى فى وصفه الطبيخ إلى هذا الحد من ظهور السمن فيه وخلطه بالتمر حتى أكسبه لون الحمرة أو الشقرة وحتى جعله هذا الوصف أو هذا المنظر المتخيل يتلحز ويسيل لعابه من الشهوة إلى ذلك الطعام الصحراوى اللذيذ عندها رفع صوته قائلا للقارئ فتعال وانظر .... الخ ماذكره فى إعجابه بطعام قومه إلى أن جعله أفضل طعام يأكله الناس)

وإن لم يكن عند المرأة الإعرابية تمر جعلت على طبيخ الهبيد قبضات من دقيق فهو صالح وليس مثل التمر وإن لم يكن دقيق ولا تمر فإن كان على الغسل الذى قلت لك (أى فإن كان الهبيد مغسولا بالماء كما مر وصفه) رجنوا فيه (لعل صوابه طاب ورجنوا

فيه : أى طاب لهم أكله ورجنوا فيه فلم يعافوه : رجن الطعام إذا لم يعف منه شيئا كما فى اللسان) وإن لم يكن فيه تمر ولا دقيق وكانوا ضعفوا عنه عند الغسل الأول (أى لم يحكموا غسله) فبقيت فيه علقمة فأكلوه صرفا ليس معه شيء (أى من ادام كالخبز مثلا) جعل يأخذهم منه دوار (فى رءوسهم) وسلح القوم (أى أسهل بطونهم) ولكنه يورثهم صحة . انتهت قصة اصطناع طعام الهبيد الذى لايزيد عليه طعام يأكله الناس فى اعتقاد الأعراب .

الرمث فى الأدب الجاهلى :

وللرمث (وهو من الحمض أى النباتات ذات الملوحة) مكانه فى أدب العرب وله فى مجالس أسمارهم أخبار وملح يتطارحونها وأوصاف تشبه الأحاجى يحمصون ويتسلون بها ، ولا جزم فإن الإبل نفسها تولع بالرمث فتحمصه بعد أن تكون شبعت من نبات الخلة وملت حلاوته ويعلو الرمث على وجه الأرض مثل قعدة الرجل وقال آخر يرتفع دون القامة قالوا : وربما خرج من الرمث عسل أبيض كأنه الجمان واللؤلؤ وهذه المادة الحلوة التى يفرزها الرمث يسمونها المغافير وهى ذات حلاوة شديدة وللرمث حطب وقوده حار يستشفى بدخانه من الزكام قال أعرابى وقد طاح (أى ضل وتاه) فى بعض القرى فمرض فسأله من يمرضه ماذا تشتهى ؟ فأنشد :

قال الأطباء ما يشفيك قلت لهم … دخان رمث من التسرير يشفينى

(والتسرير) : اسم جبل وقد اعتاد الأعرابى شمّ دخان رمثه أيام صحته فهو يتمنى أن يداوى بشمه لحين مرضه .

قالوا : وفى دخان الرمث غبره ولذلك يشبه به لون الذئب من ذلك قول كعب بن زهير يصف ذئبا : (كأن دخان الرمث خالط لونه) وقيل لأعرابى ما تقول فى الرمث ؟ أى فى طيب مرعاه للإبل فقال : (لو خلقت الإبل من شجر خلقت من الرمث) يريد أن من شدة ولعها بأكله تكاد أجسامها تتكون من الرمث لا من اللحم والدم وأبلغ من ذلك ما روى أن (الأحوص بن جعفر) سيد بنى عامر عمى فى أخريات أيامه فكان بنوه يسوقون به فوطئ بلداً (أى أرضا) فسأل بنيه أى شيء ترتعى الإبل فى هذه الأرض ؟ قالوا ؟ الرمث فقال : (خلقت منه وخلق منها) وليس أدل على ولع الابل ووجدها بالرمث من هذا التعبير وقال الأصمعى :

سأل رجل من أهل الحضر رجلا من أهل البادية : هل عندكم ما يرعى ؟ يسأله الحضرى عما إذا كان فى أرضهم مرعى تحبه الإبل وتجذبه ؟

وكما أن أهل الحضر يتهكمون بعقلية أهل البادية كذلك هؤلاء فإنهم يهزؤون بالحضارة وعقلية أهلها وقد حانت لهذا البدوى المسئول الفرصة فسلك فى جوابه مسلك الألغاز والتعريض بغباوة الحضرى قال الأصمعى : فأجابه البدوى يهزأ به : (نعم عندنا مقمل ومدبى وباقل وحانط وثامر ووارس) وبديهى أن الحضرى لم يفهم من هذا القول سوى أن مرعى أرض البدوى يشتمل على كل هذه الأعشاب وهو خلاف ما أراده البدوى من أنه لا يوجد مرعى فى أرضهم إلا الرمث وحده الذى فيه غناء عن غيره . فيكون بجوابه ألغز وعمى على الحضرى وتهكم به .

وتفسير ذلك أن الرمث إذا تفطر أى تشققت أغصانه بالنبات كان أول ما يبدو منه هنات سود صغيرة تشبه القمل فيقال إنه أقمل فهومقمل ثم تكبر هذه الهنات السود وتتلون الى غبرة فتعود تشبه الدبى أى صغار الجراد قبل أن يقوى على الطيران فيقال إن الرمث قد أدبى فهو مدبى فإذا ظهرت الخضرة على تلك الهنات قيل له فى طوره هذا انه قد أبقل فهو باقل أى ذو خضرة كخضرة البقل (يقال بأقل ولا يقال مبقل) وهذا الطور هو أول الايراق أى ظهور الورق على الأشجار وإبقال الرمث وإيراقه ان كان حاصلا على مطر كان مرعاه أحيا للابل وأنجع وان كان الايراق عن تروح أى عن غير مطر وإنما عن رطوبة برد الليل وحدها كان جودة مرعاه على قدره ثم بعد الإبقال ينتقل الرمث إلى الطور الذى حان أن يعطى فيه أكله من الثمر فيقال إن الرمث قد احنط وهو حانط قال (الحانط من كل شىء المدرك ثم ينتقل الرمث إلى دور إعطاء الثمر واجتنائه فيقال إنه قد أثمر فهو ثامر أى ذو ثمر وبعد أن يعطى الرمث ثمره وتنتهى وظيفته تأخذ أوراقه بالذبول ويظهر عليها اصفرار كصفرة الورس (الزغفران) فيقال له حينئذ انه قد أورس فهو وارس فأدوار الرمث أو كل شجر سواه ستة : إقمال - أدباء - إبقال - أحناط - أثمار - إيراس .

وإذا وصفت قلت من الأولين على صيغة مفعل (مقمل - مدبى) ومن الأربعة الأخر على صيغة « فاعل » بأقل حانط ثامر وارس . والوارس وصفه للذى يصفر من الأشياء نباتا كان أو غيره فإذا كان فى بستانك غيل أى ماء جار تحت أشجاره وكان فى قعر الساقية حجارة تراكب عليها الطحلب وهو النبات المائى الأخضر الضارب إلى صفرة تقول فى وصف تلك الحجارة (حجارة غيل وارسات بطحلب) وارسات أى ذات صفرة بسبب تراكم الطحلب عليها . هذه الحجارة التى قد أورست لفت اليها نظر امروئ القيس منذ القديم فشبه جوافر فرسه بها حين قال :

ويخطو على صم صلاب كأنه حجارة غيل وارسات لطحلب

وللأصمعى فى طور أحناط الرمث وهو الدور الرابع قول لم نفهمه وهو (فإذا أبيض الرمث

وأدرك قيل إنه حنط فهو حانط) فما معنى الإبيضاض فى الرمث لحين إدراكه سوى البياض المعروف من الالوان وأيد أبو حنيفة قول الأصمعى بقوله بعده (ولابيضاض الرمث فى الوقت الذى ذكر الأصمعى قال الراجز (هميان قحافة) يصف ناقته .

ترعى الصمان روضا آرجا والرمث بالصريمة الكنافجا

مثل الشيوخ أحرمت حواججت

أقول «آرجا» أى ذو رائحة طيبة (والصريمة) الأرض ذات الرمل (والكنافجا) صفة للرمث بمعنى أنه كثير أو بمعنى أن حبه مكتنز سمين ثم شبه الشاعر الرمث (الذى قالوا أنه يرتفع عن الأرض بقدر قعدة الرجل) بالشيوخ الحجاج المحرمين الذين تكون ثياب إحرامهم بيضا فهذا يؤيد قول الأصمعى بأن الرمث فى طور احناطه يبيض ولا يمكن أن نقول إبيضاضه ناشىء عن يبس عيدانه فيكون لونها عند يبسها البياض لأن هذا الدور وصف بالإدراك . وأدراك الثمر أو الشجر لا يكون معه يبس وقد يقال إن المراد بالبياض فى قول الأصمعى البياض الضارب إلى صفرة فسماه بياضا وأراد الصفرة وربما أيده ما قال أبو حنيفة بعده (وزعموا أن الرمث اذا انتهى منتهاه فى الإدراك أصفر صفرة شديدة حتى إن قارفه أى قاربه إنسان إصفر ثوبه : اخبرنى بذلك بعض الأعراب).

٢ - كتاب الأنواء :

وهو كتاب يلى كتاب النبات فى الشهرة لكثرة ما به من أسانيد وقد ذكره ياقوت الحموى فى معجمه فقال : إن كلام أبى حنيفة فى كتاب الأنواء على حظ وافر من علم النجوم وأسرار الفلك وعجائب القبة السماوية ويؤكد حاجى فى حماس شديد أن أبا حنيفة الدينورى قد ركز فى هذا الكتاب كل علوم العرب وقد اعتبر البيرونى إمام الفلك هذا الكتاب اعتبارا كبيرا وسجل منه فى لوحاته أجزاء كاملة اقتبسها كلها من أبى حنيفة .(١٠٧)

إلا أنه قصره على ما كان للعرب من العلم بها كما يدل على ذلك الجزء الذى نقله عنه ابن سيده فى المخصص .(١٠٨)

وهذا الكتاب لم يصل إلينا مستقلا قائما بذاته شأنه فى ذلك شأن معظم كتب أبى حنيفة الدينورى ولهذا سنعتمد فى عرض صورة عن الكتاب على ما جاء منه فى كتاب

---

(١٠٧) عبد المنعم عامر : مقدمة الأخبار الطوال صم .

(١٠٨) جـ٩ ص١٠ وما بعدها .

المخصص لابن سيده تماما كما فعلنا فى كتاب النبات بل إن الاعتماد على المخصص هنا سيكون اعتمادا تاما لأننا لم نعثر على شيء مستقل من كتاب الأنواء كما عثرنا على الجزء الخامس من كتاب النبات .

وإليك ما يقوله حاجى خليفة عن هذا الكتاب لأن ذلك يضع أيدينا على رؤس الموضوعات التى طرقها أبوحنيفة فى كتابه وذلك يسهل علينا إلى حد ما عملية التقاط الخطوط العريضة لهذا الكتاب يقول حاجى خليفة :

كتاب الأنواء : لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى (المتوفى سنة ٢٩٠ تسعين ومائتين) وكتابه هذا تضمن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء ومهاب الريح وتفصيل الأزمان وغير ذلك كذا فى التعريف .(١٠٩)

وفى هامش صفحة ١٣٩٩ من كشف الظنون ما يلى :

وفى معرفة الأنواء ومنازل القمر على طريقة العرب كتب كثيرة أتمها وأكملها فى فنه كتاب أبى حنيفة فإنه يدل على معرفة تامة بالأخبار الواردة عن العرب فى ذلك وأشعارها وأسجاعها فوق معرفة غيره ، ويحكى عن الأعرابى وعن ابن كناشه وغيرهما أشياء كثيرة من أمر الكواكب تدل على قلة معرفتهم بها وأنه أيضا لو عرف لم يسند الخطأ إليهم . وذكر فيه أشياء من غير الفن الذى أخذ فيه نادى بها على نفسه بالخطأ وخفة البضاعة فإنه ذكر أن الكواكب تنتقل من أماكنها .

ثم وقع على هذا الحديث الوارد بحاشية كشف الظنون بهذا التوقيع (عبد الرحمن الصوفى) والمنهج اللغوى والأدبى الذى سار عليه أبوحنيفة فى كتاب النبات هو نفس المنهج الذى سار عليه فى كتاب الأنواء فقد بدأ أبوحنيفة فى حديث لغوى عن معنى السماء والفلك وذكر مرادفات السماء وأجزاءها وتحدث عن الهواء وآفاق السماء .(١١٠)

وتحدث عن أسماء المنازل وصفاتها فذكر أن المنازل ثمانية وعشرون منزلا وجعل يذكر كلا منها باسمه وتحدث عن الكواكب .(٢)

ويلفت النظر فى كلام أبو حنيفة أنه كلام العالم المحقق وليس كلام العالم الذى يجمع المعلومات وحسب أنه ينقد الرأى الذى ينقله عن غيره ولا يقبل الرأى على علاته بحجة أن السابقين قالوه فهو يقول مثلا فى صفحة ١٢ من المخصص السفر التاسع : البلدة : رقعة من السماء لا كوكب فيها بين النعائم وبين سعد الذابح وأما سعد بلع فنجمان نحو

---

(١٠٩) كشف الظنون لحاجى خليفة – المجلد الثانى ص١٣٩٩ .

(١١٠) المخصص لابن سيده – السفر التاسع ص٢ -٩ .

(١١١) المخصص لابن سيده – السفر التاسع ص٢ -١٢ .

من سعد الذابح أحدهما خفي جدا وهو الذى بلعه أى جعله بلع كأنه مُسترط قال : وبلغني إنه سمى بُلعْ لأنه فيما يزعمون طلع حين قال الله يا أرض إبلعى ماءك »

ولست أدرى ما هذا ؟

ثم تحدث عن البروج وذكر أنها اثنا عشر برجا وجعل يعدد أسماءها .[١١٢]

وبعد ذلك يصل أبوحنيفة إلى الموضوع الذى ينطبق عليه عنوان الكتاب وأعنى به الأنواء ففسر الكلمة تفسيرا لغويا وذكر تفسير بعض علماء العربية للنوء وانتقد بعض هذه التفسيرات وعلل انتقاده ثم حدد التفسير الذى يرتضيه وبين لماذا ارتضاه وأنت حينما نستعرض حديث أبى حنيفة عن الأنواء تحس فيه أسلوب العالم بكل ما يشتمل عليه من تحديد ودقة فى استخدام الكلمات والمصطلحات العلمية وثقة بمعلوماته تجعله يتهكم ببعض العلماء الذين ذهبو إلى أن النوء فى اللغة النهوض فقال :

« ولو كان هذا هكذا لم تكن على العرب مؤنة أن يجعلوا النائى هو الطالع وأن يتركوا السقوط »[١١٣]

ثم يعتد أبو حنيفة بمعلوماته أكثر من ذى قبل فيقول : وأما البوارح فقد زعم قوم ليس لهم باللغة علم أن البارح ضد النوء وأنه طلوع الرقيب فيقولون : برح الكوكب : طلع وذلك غلط وإنما البوارح الرياح الصيفية سميت بوارح لأنها فى السموم التى تأتى من الشمال وقيل البارح شدة الريح فى البرد والسموم وهو مذكر.[]

وتحدث أبو حنيفة عن بعض الأنواء حديث العالم اللغوى ثم يشد الأدب أبا حنيفة إلى رحابه فيذكر أمثال العرب وأسجاعهم فى طلوع هذه النجوم ويشد النقد أبا حنيفة إلى رحابه أيضا فيفسر هذه الأمثال وتلك الأسجاع تفسيرا لغويا أدبيا فنيا أساسه الاقتناع والمناقشة لآراء السابقين وهنا يتعقب أبا حنيفة ناقد آخر وأحسبه صاحب المخصص .

ومن هنا ترى أبا حنيفة عالما أديبا ناقدا . فلنلتق مع أبى حنيفة فى حديثه عن الأنواء وأسجاعها وتفسيرها[١١٥] لنرى رأى العين صحة ما ذهبنا إليه .

الأنـــــواء

ناء الكوكب نوأ ، أو تنوأ ، أو نوّة : أول سقوط يدركه بالأفق بالغداة ، قبل إمحاق الكواكب بضوء الصبح قال : وقد تكلم علماء العربية فى تفسير النؤ فقال بعضهم سمى

(١١٢) المرجع السابق ص١٢ .

(١١٣) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص١٣ .

(١١٤) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص١٣ .

(١١٥) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص١٣ - ١٨ .

نوا لطلوع الرقيب لا لسقوط الساقط ، وذهب إلى أن النوّ فى اللغة النهوض ولو كان هذا هكذا لم تكن على العرب مؤنة أن يجعلوا النائى هو الطالع ، وأن يتركوا السقوط ، وقيل ، النوء السقوط والميلان ، ومنه قولهم « ما ساء وناءك » ومعناه أناءك فألقى الألف للاتباع ، فالنوء على هذا التفسير من الأضداد . ولو لم يكن النوء إلا النهوض لكان لقولهم أنواء النجوم وهم يريدون سقط مذهب على طريق التفاؤل وكأنهم كرهوا أن يقولوا سقط ، فأما من ذهب إلى أن الكوكب ينوء ثم يسقط فإذا سقط فقد تقضى نوءه ، ودخل نوء الكوكب الذى بعده ، فإن تأويل النوء فى قول هؤلاء هو التأويل المشهور ، الذى لا ينازع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذى بين يديه أطل على السقوط ، وكان أشبه شئ حالا بحال الناهض ، ولا نهوض به حتى يسقط ، لأن الفلك يجتره إلى الفور فكأنه متحامل بعبء قد أثقله وغلبه ، فالنوء ما بيناه ، ويجمع النوء أنواء ونواء .

وأما البوارح فقد زعم قوم ليس لهم باللغة علم أن البارح ضد النوء وأنه طلوع الرقيب فيقولون : برح الكوكب : طلع ، وذلك غلط وإنما البوارح : الرياح الصيفية سميت بوارح لأنها فى السموم التى تأتى من الشمال ، وقيل : البارح شدة الريح فى البرد والسموم وهو مذكر ..... الخ .

« ذكر أسجاع العرب فى طلوع هذه النجوم »

قال أبو حنيفة : قال فقيه العرب : (١١٦) إذا طلع النجم فالحر فى حدم والعشب فى حَطْم ، والعانات فى كدم . وقيل : إذا طلع النجم إتقى اللحم ، وخيف السقم ، وجرى السراب على الأكم . وقيل : إذا طلع النجم غدية ابتغى الراعى شكيه وقيل : إذا طلع النجم عديا ابتغى الراعى سقيا . وقيل : إذا طلع النجم عشاء ابتغى الراعى كساء وقيل : إذا أمسى النجم بِقَبل فشهر فتى وشهر حمل ، وإذا أمسى النجم بدَبَر فشهر نتاج وشهر مطر ، وإذا أَمست الثريا قمة رأس فليلة قَرٍ وليلة فاسٍ . ومما يقال : حفظ من كلام لقمان بن عاد إذا أمست الثريا قمُ رأس فى الدثار فاخنس وعظاها فأحدس وأنهر بنيك وانهس وإن شئت فاعبس وإذا طلع الدبران توقدت الحزان واستعرت الذبان ونشت الغدران وإذا طلعت الهقعة تقوض الناس للقلعة ورجعوا عن النجعة وأرسلت الفقعة وأردفتها الهنيعة وإذا طلعت الجوزاء توقدت المعزاء وكنست الظباء وعرقت العلباء طاب الخباء . وقيل : طلعت الجوزاء ووافى على عود الحرباء وإذا طلعت الذراع

(١١٦) لعل أبا حنيفة يعنى بفقيه العرب « ابو زياد الأعرابى » الذى أكثر النقل عنه وذكر اسمه ونسبه فى كتاب النبات على ما سيجئ فى آخر هذا الفصل .

حسرت الشمس القناع وأشعلت فى الأفق الشعاع وترقرق السراب بكل قاع وإذا طلعت الشعرى سفرا ولم تر مطرا تغذون امرة ولا امرا وأرسل العراضات أثرا يبغيك فى الأرض معمرا وإذا طلعت النثرة قنأت البسرة وجنى النحل بكره وأوت المواشى حجره ولم تترك فى ذات در قطره . وقيل : إذا طلعت النثرة شقحت البسرة وإذا طلعت الصرفه بكرت الخُزُفَة وكثرت الطرفة وهانت للضفيا الكلفة . وقيل إذا طلعت الصرفة احتال كل ذى حرفة وقيل اختال كل ذى حرفة وجفر كل ذى نطفة وامتيز عن المياه زلفة وإذا طلعت العذرة فعكة بكره على أهل البصرة وليس بعمان بسره ولا لأكاريها بذره وقيل بره وإذا طلعت الجبهة تحانت الوكهة وتنازت السفهة وقلّت فى الأرض الرفهة وإذا طلع سهيل طاب الليل وجرى النَّيْل وامتنع القيل وللفصيل والويل ورفع كيل ووضع كيل وقيل :

إذا سهـيـل مـغـرب الشـمـس طـلـع فـــابن اللـبـون الحق والحق جـــذع

واذا طلعت الخراتان أكلت أم جرذان وإذا طلعت العواء ضرب الخباء وطاب الهواء وكره العراء وشنن السقاء وإذا طلع السماك ذهبت العكاك واستفاهت الأحناك وقل على الماء اللكاك واذا طلع الغفر جاد القطر . وقيل إذا طلع الغفر اقشعر السفر وتربل النضر وحسن فى العين الجمر واذا طلعت الزبانى أحدثت لكل ذى عيال شأنا ولكل ماشية هوانا وقالوا كان وكانا اجمع لأهلك ولا توانى وإذا طلع الاكليل هاجت الفحول وقيل هبت وشمرت الذيول وتخوفت السيول وإذا طلع القلب جاء الشتاء كالكلب وصار أهل الوادى فى كرب ولم تمكن الفحل إلا ذات ترب وإذا طلع الهدران هزلت السمان واشتد الزمان ووحوح الوكدان وإذا طلعت الشولة أعجلت الشيخ البولة واشتدت على الغيال العوله وقيل شتوة زوله وإذا طلع العقرب جمس المذنب وقر الأشيب وقيل قرب وإذا طلعت النعائم التطت البهائم من الصقيع الدائم وأيقظ البرد كل نائم وقيل إذا طلعت النعائم انقبضت البهائم من الصقيع الدائم وخلص البرد الى كل نائم وقيل توسفت التهائم وإذا طلعت البلده حممت الجعده وأكلت القشده وقيل للبرد اهده وقيل إذا طلعت البلده زعلت كل تلدة وقيل علت الناس بلده وإذا طلع سعد الذابح حمى أهل النابح ونفعه أهل الرائح وتصبح السارح وظهر فى الحى الانافح وقيل انحجزت الذوابح ولهذا النوابح من الشتاء البارح وإذا طلع سعد بلع افتحم الربع ولحق أهله الهبع وصيد المرع وصار فى الأرض لمع وقيل تشكى كل ربع وإذا طلع سعد السعود نضر العود ولانت الجلود وكره الناس فى الشمس القعود وإذا طلع السعد كثر الثعد وقيل إذا طلع سعد السعود ذاب كل جمود واخضر كل عود وانتشر كل مصرود وإذا طلع سعد الاخبية زمت الأسقية وتدلت الأحوية وتجاوزن الأبنية وإذا طلعت الدلوهيب الجزو وأنسل العفو

وطلب الخلو اللهو وقيل إذا طلعت الدلو فالربيع والبدو والصيف بعد الشتو وإذا طلعت السمكة أمكنت الحركة وتعلقت الحسكة ونصبت الشبكة وطاب الزمان للنسكه وإذا طلع الحوت خرج الناس من البيوت وإذا طلع الشرطان استوى الزمان وخضرت الأغصان وتواقدت الأسنان وتهادت الجيران وقيل هاق الزمان وبات الفقير بكل مكان وقيل طلع الشرطان والقيت الأوتاد فى الأغصان وقيل طلعت الاشراط ونقصت الأنباط وإذا طلع البطين اقتضى الدين وظهر الزين واقتنى بالعطاء والقين.

التفسير:

الحدس: الصرع حدس بناقته فوجأ فى سبلتها: إذا أناخها فوجأها فى نحوها وقوله حسرت الشمس القناع: وإنما هذا مثل والمعنى أنها لم تدع غاية فى الذكو ويقال للشمس إذا اشتد حرها ولم يحل من دون شعاعها شئ انصلعت واليوم الشديد وقع الشمس أصلع. والعلباء مذكر فأنث ههنا على الغلط والتشبيه بما همزته للتأنيث. والأمر الصغير من أولاد الضأن والأنثى امّرة وقيل هو من السائمة كلها.

والعُرَاضات: العِراض الواحدة عُرَاضة يعنى الابل لأن آثار أخفافها فى الأرض عرائض والمعمر: المعاش وقد ظن قوم أن الساجع أراد طلوع الشعرى بالغداة وقد اخطئوا فى ذلك وقد حكاه من لا أثق به عن مؤرج فإن صدق فإن مورجا إذا كان قليل المعرفة بهذا الفن.

قال المتعقب: ثم نصر قوله وبين غلط مورج فأصاب فيما بين ولكنه من حيث آمن قد غلط هو أيضا فى ألفاظ هذا السجع وفى تفسيره لأنه قال فأما تفسير الكلام الذى فى هذا السجع فإنه يقول إذا أخطأ الوسمى فلم يقع له مطر فأحسن الظن بسنتك ولا تتشاغل بالغنم ولكن أظعن عن دارك وأطلب بالابل دارا قد غاثها الله بغيث فإنج اليها.

والعراضات أثرا: هى الابل، والمعمر: المنزل بدار معاش، والأمر: الذكر من أولاد الضأن وإن كان أراد جميع الغنم لأنها اعجز عن الطلب من المعز والمعز تدرك ما لا تدرك الضأن.

وأما ما حكيناه من غلطه فى الرواية فإن أبا عمرو قال: إذا طلعت الشعرى سفرا ولم تر فيها مطرا فلا تلحف فيها امّرا ولا امّرة ولا سقيبا ذكرا. وأما غلطه فى التفسير فإنهما قالا جميعا فى تفسيره وقد قاله غيرهما الامّرة: الرجل الذى لا عقل له إلا ما أمرته به، وقال أبو عمرو: لا ترسل فى إبلك رجلا لا عقل له يدبرها والامّر والامّرة أيضا من الضأن كما ذكر إلا أن المستعمل ههنا ما حكيناه قال: ولعله لو غطى على الشيخ مؤرج لأعفاه الله من تكشفنا.

قال أبو حنيفة : وحجرة ناحية والعكة بالبصرة : كرب يصيبهم أيام شدة الحر فى وجه الصبح معه ندى يكاد يأخذ بالأنفاس والولهة : جمع والهة وهى التى فقدت ولدها فقد كان لبنها يذهب جذعا . والرفهة : واحدة الرفه وهى ما بقى فى المدارس من التبن بعد اخراج الحب منه . وحذا من الحذيا : وهى ما وهبت للإنسان من كرامة أوبر . والقيل من القائلة وهى النومة فى الظهيرة وقيل هى الشربة يشربها الإنسان فى ذلك الوقت . والامتياز التنحى . والزلفة أدنى منزلة وتشنين السقاء : برده والماء الشّنان : البارد وكل سقاء أخلق فهو شن . واستيفاهه الأحناك : شهوة الطعام . واللكاك : التزاحم والتدافع ووحوحة الولدان : حكاية أصواتهم إذا قال أح أح من البرد . **والزولة** : المنكرة : **وجمس جمد . والأشيب . الثلج والجليد . وتوسّف التهائم** : تقشّر وجه الأرض من شدة البرد . **وتحميم الجعدة** : أن تراها قد همت باطلاع كما يحمم وجه الغلام إذا همّ بالبقول . **وقوله زعلت كل تلدة** : التلدة : تلاد المال ، والزعل : النشاط يعنى المواشى أنها تنشط فى هذا الوقت والتلده من التليد . **واقتحام الربع** : اسراعه فى عدوه لأنه قد قوى . **والانباط** : المياه المظهرة من الأرض نحو الآبار واقتنى الواحد نبط وكل ما أنبطته فهو نبط . **والاقتفاء** : الكرامة واللطف وما الطفت به الإنسان واتحفته فهو القفيّه .

واضح أن المنهج الذى اتبعه أبو حنيفة فى شرحه للنصوص السابقة هو المنهج الفقهى .

ويلفت النظر فى تفسير أبى حنيفة فى هذه الأسجاع قوله فيما سبق وأثناء تفسيره لكلمة العراضات والمعمر وقوله : وقد ظن قوم أن الساجع أراد طلوع الشعرى بالغداة وقد أخطئوا فى ذلك وقد حكاه من لا أثق به عن مؤرج فإن كان صدق فإن مؤرجا إذا كان قليل المعرفة بهذا الفن .

وقد تعقب أحد النقاد أبا حنيفة فأيد بعض آراء أبى حنيفة وفند البعض كما مر إلا أن هذا المتعقب قال فى ختام حديثه السابق : ولعله يعنى أبا حنيفة لو غطى على الشيخ مؤرج لأعفاه الله من تكشفنا .

يلفت النظر فى كل هذا أن عقلية أبى حنيفة ماحصة فاحصة ناقدة فى تشيت فالذين قالوا إن الساجع أراد طلوع الشعرى بالغداة قد أخطئوا فما سبب خطئهم ؟

يرجع أبو حنيفة خطأهم لسببين :

أنه لا يثق بهم فهو يشك فى أمانتهم فى النقل وفى صحة علمهم فإذا سلمنا جدلا بأنهم صادقون وأنهم ينقلون عن أحد العلماء المشهود لهم بالكفاءة فإن أبا حنيفة لا

يدعى العصمة لهذا العالم بل يجوز اخطأ وقلة المعرفة بفن الرواية وتمحيصها وهذا إن دل على شيء فأنما يدل على شجاعة فى الرأى وسَعة أفق من أبى حنيفة فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك الا المعصوم ﷺ.

وهذا أيضا يدل على أن أبا حنيفة لم يكن يعتمد على آراء السابقين أو المعاصرين له كل الاعتماد بل كان يأخذ منها ويدع رائده فيما يأخذ وفيما يدع عقل حصيف وفكر ثاقب وثقافة واسعة.

ولا نضع أبا حنيفة بذلك فوق النقد بل نضعه كما وضعه المتعقب تحت مجهر النقد بل نحكم على أبى حنيفة بالميزان النقدى الذى حكمه أبو حنيفة فى غيره.

أما أن يقول المتعقب عن أبى حنيفة : ولعله لو غطى على الشيخ مؤرج لأعفاه الله من تكشفنا فهذا يدل على أن هذا المتعقب لم يكن منصفا فيما ذهب إليه وإنما كان يحكم بالهوى والميل الشخصى فلو لم ينقد أبو حنيفة مؤرجا لما نقد هذا المتعقب أبا حنيفة أرأيت إلى الميل فى الأحكام النقدية :

ثم تحدث أبو حنيفة بعد ذلك عن صفة الشمس(١١٧) وأسمائها وطلوعها وغروبها(١١٨) وكسوفها وتحدث عن القمر(١١٩) وأسمائه وصفاته وخسوفه وغروبه كما تحدث عن أسماء أيام الشهر ولياليه(١٢٠) وعن الكواكب الدرارى(١٢١) وعن سير النجوم وانقضاضها وغروبها وعن الصبح(١٢٢) وأسمائه والنهار وأسمائه(١٢٣) ونعوت الأيام والليالى بالحر(١٢٤) والبرد والاعتدال والطيب(١٢٥) ولعلك قد أدركت أن أبا حنيفة قد انتقل من الحديث عن الأنواء الى ميدان علم الجغرافيا حينما تكلم عن الشمس والقمر والنهار والليل والواقع أن الصلة وثيقة بين هذين العلمين ويزيدها أبو حنيفة وضوحا حينما يتحدث عن أمطار السنة ويذكر أنها ثمانية أصناف ولكل صنف منها وقت عرفته العرب بمساقط منازل القمر.

ثم يتحدث عن فصول السنة عند العرب وبأى الفصول تبدأ ؟ وخصائص كل فصل وأن لكل فصل أربعة عشر نوءا ، وأن الشتاء كله ربيع عند العرب ومن العجيب أن أبا حنيفة فى ذلك الزمان السحيق يذكر أمطار السنة مصنفة ويذكر مواقيتها ببلاد العرب

(١١٧) المرجع السابق ص٢١ - ٢٦ (١١٨) المرجع السابق ص٢٦ - ٢٨
(١١٩) المرجع السابق ص٣٠ - ٣٢. (١٢٠) المرجع السابق ص٣٤.
(١٢١) المرجع السابق ص٣٥. (١٢٢) المرجع السابق ص٤٩ - ٥٠.
(١٢٣) المرجع السابق ص٥٩. (١٢٤) المرجع السابق ص٦٠ - ٧٦.
(١٢٥) المرجع السابق ص٧٧ - ٧٨.

ونجد والحجاز واليمن وبلاد العراق وبلاد الفرس ويقارن بين هذه المواقيت ولعله من المستحسن أن نقدم إليك بعضا مما قاله أبو حنيفة فى ذلك يقول :

هـذه أمطار جميع السنة ، ذكرنا أنواءها وصنفناها ، وذكرنا مواقيتها ، وأنت إذا قست ذلك إلى أوقاتها ببلادنا هذه وببلاد العراق وجدت المطر الذى وصفناه ببلاد العرب متقدما لوقته ببلادنا ، وعسى أن تظن من أجل برد بلادنا أنه ينبغى أن يكون بها أسرع فلا تظن ذلك ، فإنه هنالك أسرع ، وقد صدق ابن كناسبة فى قوله : إن أهل اليمن يمطرون فى القيظ ، ويخصبون فى الربيع - يعني بالربيع الزمان الذى هو عندنا وعند أهل العراق الشتـ÷ـء ، وأن أهل العراق يمطرون فى الشتاء ، ويخصبون فى الصيف وهذا كما قال واذا أحببت فى ذلك فانظر الى زمان مدّ النيل فانه فى صميم القيظ وإنما يمد من أمطار البلاد التى منها يقبل ، وهى وراء عدن غربا وجنوبا وكذلك أمطار السند والهند وأرض السودان . « تبتدي » والشمس فى السرطان أو فى الأسد وذلك خالص القيظ وذلك قبل ابتدائها باليمن لأن اليمن أقل طعنا فى الجنوب منها وكذلك اليمن وهى متقدمة فى هذا على أرض نجد والحجاز وأرض الحجاز ونجد متقدمة فى ذلك على العراق .

ولعلك لاحظت أن سمة العالم قد غلبت على أبى حنيفة هنا أكثر من سمة اللغوى الأديب وليس ذلك بغريب فالموضوع يتطلب ذلك .

ثم تحدث أبو حنيفة بعد ذلك عن الرياح وأنواعها حديثا علميا لغويا(١٢٦) وعن السحاب وأنواعه من مرتفع ومتراكم والذى بعضه فوق بعض ودون بعض والذى الى الرقة ولة الكثافة والسحاب ذو الماء الكثير .

ويهمنا من حديث أبى حنيفة عن السحاب بصفة أكثر ما كان مثار نقاش وجدل بين الأدباء والنقاد فمثلا كلمة المعصرات يرى أبو عبيد أنها السحب ذوات المطر ويرى أبو حنيفة أن المعصرات الرياح ذوات الأعاصير . ولكنه عندما يسمع قول الشاعر : ذهاب الصبا والمعصرات الدوالح يقول : ولا يحتمل قوله غير السحاب لقوله الدوالح ... الخ ويبدو أبو حنيفة هنا مترددا الأمر الذى جعل المتعقب ينتقده فى أدب وكياسة واليك النقاش(١٢٨) الذى دار حول هذه الكلمة .

قال أبو عبيد : المعصرات : ذوات المطر وأنشد :

وذى أشر كـالأقحوان تشوفـه ذهـاب الصبـا والمعصرات الـدوالـح

قال أبو حنيفة : وترى معنى قول الله عز وجل : « وأنزلنا من المعصرات ماءا ثجاجا » إن المعصرات الرياح ذوات الأعاصير ، وهى الرهج والغبار وأنشد :

(١٢٦) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص٨٣ - ٨٥ .

(١٢٦) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص٩٣ - ١٠١ .

وكـــــأن سُهْكَ المعصرات كسونها تـــرب القعـــاقـــع والنقـــاع بمنخـــل

قال وزعموا : أن معنى من معنى الباء وقيل بل المعصرات الغيوم أنفسها وذهب إلى معنى الغيث ولا يحتمل قوله غير السحاب لقوله الدوالح فتكون المعصرات اللواتى أمكنت الرياح من اعتصارها واستنزال قطرها كما يقال أمضغ النخل وآكل وأطعم وأفرك الزرع إذا أمكن ذلك فيه .

قال المتعقب : وقد ألم أبو حنيفة بالصواب ثم عدل عنه المعصرات السحاب بعينها كما قال ولكنها سميت معصرات بالعصر والعصرة وهو الملجأ قال أبو زيد :

صـــاديـــا يستغيث غير مغـــاث ولقـــد كـــان عُصْـــرة المنجود

أى ملجأ المكروب ويقال أعصرنى فلان إذا ألجأك واعتصرت به قال عدى بن زيد :

لـــو بـــغير الماء حـــلقى شرق كـــنت كـــالغصـــان بـــالماء اعتصارى

فمعنى المعصرات المنجيات من البلاء المعصمات من الجدب بالخصب لا ما قال أبو حنيفة ولا من قال أنها الرياح ذوات الأعاصير فلا تلتفتن إلى القولين معا .

ثم تحدث عن امارات الغيث(١٢٨) وعن الرعد(١٢٩) والبرق . وعن المطر فى موضعه ونعوت المطر فى القوة والكثرة(١٣٠) وعن الثلج والبرد ونحوهما وعن أسماء عامة المطر وعن المطر بعد المطر والأمطار المتفرقة والقليلة ونعوت المطر فى بكوره وتأخره وعن المطر يدوم لا يقلع وعن السماء إذا أصبحت وعن السيول ونعوت الماء من قبل كثرته واجتماعه ونعوت الماء من قبل طعمه ، ونعوت الماء من قبل جريه وسيلانه ، والسقى وأسماء الماء المستقى(١٣١) به .

ويلفت النظر فى قول أبى حنيفة كما قلنا مرارا تلك التفسيرات التى كانت مثار جدل ونقاش ومنها فى حديثه عن الرعد وتفسيره لكلمة الخوات فقد قال إنها صوت الرعد ، وفى بعض النسخ الخوات الرعد ولكن المتعقب أنكر عليه كلا القولين وأبطل ما استشهد به أبو حنيفة ورماه بأنه يجنح إلى الايجاز المخل وإليك ما دار حول هذه لكلمة .(١٣٢)

والخوات : صوت الرعد وأنشد :

كـــأن خوات الـــرعـــد رزّ زئيره من السلاء يسكـن الغـــريف بعثرا

وفى بعض النسخ : الخوات : الرعد .

---

(١٢٧) المرجع السابق ص٩٥ - ٩٦ .

(١٢٨) المرجع السابق ص١٠٢ - ١٠٤ (١٢٩) المرجع السابق ص١٠٤ - ١٠٩

(١٣٠) المرجع السابق ص١١١ - ١١٩ (١٣١) المرجع السابق ص١٢٠ - ١٥٢ .

(١٣٢) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص١٠٥ .

قال المتعقب : وكلا القولين غلط ، ولا شاهد له فى البيت ، وانما الخوات : الصوت لأى شىء كان وليس بمقصور على الرعد دون غيره قال ابن هَرْمة :

فلا حس إلا خوات الـــــــرذاذ وزَغْب السيول بـــــأدراجهـــــا

وتقول : سمعت خوات الطائر : إذا سمعت حِسّه فالخوات حس كل شىء مَرَّة ولا وجه لما قال إلا أن يخرجه على العموم فإذا كان أراد ذلك فقد كان يلزمه أن يزيد كلامه شرحا وإن كان لم يرده فقد غلط .

ومعركة أخرى حول الطبق فى باب تطبيق المطر الأرض وتلبيده(١٣٣) إياها يقول أبو حنيفة : الطبق : العام الذى يطبق الأرض وقال فى قول أبى وجز:

مطبقة المجرى لذيذ نسيمها .... الخ .

المطبقة : المحققة . ولم يرض المتعقب عن تفسير أبى حنيفة المطبقة بالمحققة فى البيت وقال إنما أخذ أبو حنيفة هذا من قولهم طبق المفصل وليس كذلك .... الخ .

واستمع إلى ذلك النقد كما جاء فى كتاب المخصص لابن سيده :

الطبق : العام الذى يطبق الأرض وقال فى قول أبى وجزة :

مـطبقـــة المجرى لـــذيـــذ نسيمهـــا رخـــاء أبت أعقـــابها أن تصربـــا

المطبقة : المحققة . قال المتعقب : وإنما أخذ أبو حنيفة هذا من قولهم طبّق المفصل وليس كذلك ، وأنما هذا مأخوذ من قول امرئ القيس :

ديمة هـطلاء فيهـــــــا وطف طَبَـق الأرض تحرى وتَـــــــدُر

أى مطبقة للأرض كلها وغطاء كل شىء طبق له ومنه قيل لغطاء الأرض طبق ومنه قوله تعالى : « سبع سماوات طباقا » ومطابقة أى هذه غطاء لهذه وهذه تحتها لم تفصل عنها ومن هذا قيل للمتفقين على الأمر متطابقان على كذا وكذا فسمى سبحانه بالمصدر فلم يجمع على لفظ طبق لأن جمع طبق أطباق قال الشماخ :

إذا دعت غَوثها ضـــرّاتها فـــزعت أطبـــاق نِىٍّ على الاثبـــاج منضود

والمغطى للشىء طبق له ، ولا معنى للمحققة فى بيت أبى وجزة ولا يجوز غير ما قلناه .

وفى حديث أبى حنيفة عن أسماء عامة المطر يشير إلى بعض اللهجات العربية وينتقد أبو حنيفة بعض الرواة حينما عرضوا لبيت أبى ذؤيب :

وهى خرجة .... الخ .

---

(١٣٣) المخصص لابن سيده – السفر التاسع ص١١٨ .

(١٣٤) السفر التاسع ص١٢٠ – المخصص لابن سيده .

فقد قال هؤلاء الرواة أن عزّم خطأ والصواب وكرّم . وقد أثبت أبو حنيفة أن هؤلاء الرواة ليسوا على صواب بدليلين :

١ - أن عامة الرواة على غرم .

٢ - أن غرم يتناسب مع قوله وهى خرجه فانسجام الكلمات فى البيت باعتباره وحدة فنية متكاملة يناسبه « غرم » لا كرم .

وإليك ما يقوله أبو حنيفة فى هذا الصدد :

أسماء عامة المطر

قال أبو عبيد : الودق : المطر وقال ابن دريد : ودقت السماء وأودقت وقال أبو حنيفة ومنه النزل والرجع فى كلام هذيل قال الله عز وجل « والسماء ذات الرجع » وأنشد :

وجاءت سلتم لارجع فيها .

وكذلك الخرج قال أبو ذؤيب :

وهى خرجه واستجيل الربا ب عنه وغرّم ماء صريحا

قال : وزعم بعض الرواة أن غرم خطأ وإنما هو وكرم ماء صريحا ويقال أيضا للسحاب إذا جاد بمائه كرم والناس على غرم وهو أشبه بقوله وهى خرجه .

هذا وقد لاحظت أن الصفة البيانية الغالبة على استعمالات أبى حنيفة فى كتاب الأنواء هى التشبيه فهو يقول مثلا : فى باب البروج(١٣٥) وأنها اثنى عشر برجا : الحمل والثور والجوزاء .... الخ يقول : وأما القوس فإن الكوكب الذى يرى قوم أن البرج سمى به ويشبهونه بصورة القوس تسمية العرب القلادة .

ويقول أيضا : ويقال للسماء الجرباء من أجل كواكبها تشبيها بما يثور فى جلد الجرباء(١٣٦) ويقول(١٣٧) : وأما الهقعة فثلاثة كواكب صغار مثفاة وتسمى الأثافى تشبيها بها وأما الهنعة فكوكبان بينهما قيد سوط رأى العين . ثم يقول فى نفس الصفحة والزبرة زبرة الأسد : وهى كوكبان على أثر الجهة بينهما قيد سوط رأى العين .

وفى باب السحاب وأنواعه(١٣٨) يقول أبو عبيد : السحاب أول ما ينشأ نشئ وقال أبو حنيفة النشئ أن تراه كالملاءة المنشورة . ثم يقول أبو حنيفة : وإذا كثر السيل وعظم ماؤه وردعته محانى الأدوية ثقل جريه وخرس صوته وأنشد :

---

(١٣٥) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص ١٢ .

(١٣٦) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص ٦ .

(١٣٧) المخصص لابن سيده - السفر التاسع ص١١ .

(١٣٨) المرجع السابق ص ٩٣ .

فبات السيل يركب جانبيه   من البقار كالعمد الثفال

يركب جانبيه أى يركب جانبى نفسه ثم شبهه فى إبطائه بالبعير الثفال . وقال أبو حنيفة ومن هذا المعنى قول كثير وشبه مشى امرأة ثقال بتدافع السيل إذ تلقاه جزع الوادى وهو منعطفه وأبطأ ما يكون هناك :

وتمشى الهوينا إذا أقبلت   كما بهر الجزع سيلا ثقيلا

فطورا يسيل على قصده   وطورا يرجع كى لا يسيلا

واذا كان السيل عظيما لم يسمع له صوت قيل : سيل أخرس ولابى حنيفة صور تشبيهية أخرى فى كتابه « الأخبار الطوال » سنعرض لها فيما بعد :

تلك نماذج من استعمال أبى حنيفة للتشبيه فهل كان أبو حنيفة يفهم التشبيه كما نفهمه نحن الآن ؟ أو كما ورد فى كتب المتأخرين من أمثال عبد القاهر الجرجانى والسكاكى ؟ للإجابة على هذا السؤال ينبغى أن نلقى نظرة عامة على تطور فن التشبيه منذ العصر الجاهلى إلى عصر أبى حنيفة الدينورى لندرك فهم أبى حنيفة للتشبيه وبالتالى نحدد الدور الذى قام به فى سبيل تطوير هذا الفن .

عرف القدماء من الشعراء التشبيه صورة فى خيالهم تحسّن التعبير وتوضح الفكرة ولم يعرفوه لونا بلاغيا محدداً فلم يضعوا لفظه مكان أخرى لتكون تشبيها ولم يعرفوا أداة تلحق شيئا بشئ فى صفة من الصفات أو توجه العلاقة بين الأشياء .

على هذا الأساس ورد استعمال التشبيه فى شعر امرئ القيس والنابغة الذبيانى والأعشى وعنترة وكعب بن زهير(١٣٩) .

وسار الإسلاميون من الشعراء فى نفس الطريق التى سار فيها القدماء إلا أنهم أكثروا منه وتأثروا بصورته فى القرآن وإن اختلفوا فى الاستعمال قلة وكثرة وليس للاقتصاد والكثرة دخل فى جودة التشبيه وإنما العبرة بحسن التصوير وصحة التعبير ثم عرفه سيبويه المتوفى سنة ١٨٠هـ وذكره عند كلامه على بعض قواعد الأعراب(١٤٠) .

وتناوله الجاحظ من بعده المتوفى سنة ٢٥٥ هـ واستعمال الجاحظ للتشبيه يدل على إنه كان يقصد التشبيه المحدد المعروف لنا ، وهو وإن لم يضع تعريفا للتشبيه أشار إلى أشياء كان لها الأثر الكبير فى معرفة التشبيه وفوائده وأغراضه فقد كانت له لمحات فى كتابه الحيوان(١٤١) تكشف عن قوة التشبيه وإفادته الغيرية لا العينية وأن وجه التشبيه لا يشترط فيه الاستيعاب بل يكتفى فيه بالجمع بين الطرفين وبالصفة الواضحة فى المشبه به .

(١٣٩) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق للدكتور حفنى محمد شرف ص ٥٧ - ٥٨ الطبعة الأولى ١٩٦٥ .

(١٤٠) المرجع السابق ص ٥٩ .

(١٤١) الحيوان جـ١ ص ٩٩ ط السندوبى .

وفى مكان آخر[١٤٢] ذكر كثيرا من تشبيهات العرب ، وأشار إلى النادر والمنكر منها ولم ينس بعد ذلك كله التعليق على بعض التشبيهات بما يكشف عن فنية ثابتة ودقة فائقة وذوق نفاذ .

ثم تناوله أبوحنيفة الدينورى على نحو مامربنا فى الأمثلة السابقة وهو يتفق مع الجاحظ فى أنه لم يضع تعريفا للتشبيه وإن كانت تعليقات كل منهما تدل على أنهما كانا يفهمان التشبيه كما نفهمه نحن الآن وتدل أيضا على ذوق فنى رفيع .

والجديد عند أبى حنيفة الدينورى أنه يطلق التشبيه على التمثيل حيث يقول فيما سبق ومن هذا المعنى قول كثير وشبه مشى امرأة ثقال بتدافع السيل إذا تلقاه جزع الوادى وهو منعطفه وأبطأ ما يكون هناك .... الخ .

والذى لا شك فيه أن هذا من صور التشبيه التمثيلى وهذه طريقة رواة الأدب .

تلك هى الصورة التشبيهية عند أبى حنيفة وهى تمثل مرحلة تطورها كانت فيها عبارة عن صور بيانية هدفها إيضاح المعنى وتقريبه إلى الأفهام ، معتدة بالاقتصاد على انتباه السامع لأنها فى جميع مواضعها وصورها أخصر طريق من غير التشبيه لتوضيحها الخفى ورفع مقدار المعانى فى النفوس .

ولعل أبا حنيفة فى غرامه بالتشبيه قد تأثر بثقافته اليونانية ، وبأرسطو بالذات ، الذى أعجب به أبوحنيفة والذى أغرم أيضا بالتشبيه ، وسيأتى ذلك فى فصل « النقد » .

هذا ولا يسعنا ونحن فى ختام حديثنا عن كتابى أبى حنيفة النبات والأنواء إلا أن نسجل ظاهرة لغوية لاحظناها من خلال قراءتنا لهذين الكتابين ولاحظها الدكتور إبراهيم أنيس[١٤٣] من خلال قراءته لكثير من المعاجم اللغوية كالمخصص لابن سيده ، وكتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذانى وجواهر الالفاظ لقدامة بن جعفر .

هذه الظاهرة أن القدماء من علماء العربية بما فيهم أبوحنيفة الدينورى كانوا فى صراع مع دلالة الألفاظ فطورا يوسعون دائرتها ويتجاهلون الفروق بينها بحيث تتسع لكثير من الكلمات المترادفة أو المشترك اللفظى ، وأخرى يحددون تلك الدلالات ويغالون فى تحديدها مما قد يترتب عليه أن نتشكك فى كثير من النصوص ، ونأبى المشهور الشائع من استعمالات كثيرة وكل هذا لغموض الدلالات فى بعض الألفاظ وورودها فى النصوص مائعة غير محكمة تحتمل معنى كما تحتمل آخر شبيها به . وإلى هذه الظاهرة يرجع الكثير من اختلاف وجهات النظر لدى هؤلاء العلماء كما أن هؤلاء العلماء قد أسرفوا فى الاعتزاز

---

(١٤٢) الحيوان جـ ٢ ص٦ – ٨ السندوبى .

(١٤٣) دلالة الالفاظ للدكتور ابراهيم انيس ص ٢١٩ – ٢٢٠

بالألفاظ المترادفة ظنا منهم أنها مفخرة اللغة العربية وهم لحرصهم على تجميع الالفاظ المترادفة قد تجاهلوا تطور الدلالة فيها وخلطوا بين عصور اللغة .

ولذا جمعوا بين لفظ عرفت له دلالة جاهلية قديمة وآخر اشتهر بدلالة إسلامية حديثة وجعلوا من اللفظين صنوين وقرينين أما فى العصر العباسى فإن معجم اللغة العربية تضخم فى العصر العباسى من طريقين :

الأول - وهو الأكثر التوسع فى مدلول الكلمات العربية فالعربى لم يكن يعرف الفاعل والمفعول بالمعنى الذى يفهمه النحو ولا يعرف القضية ولا الموضوع والمحمول بالمعنى الذى يعرفه المنطق ولا يعرف الطويل والخفيف والمديد بالمعنى الذى يفهمه العروضى وهكذا .

الثانى - نقل الكلمات الأعجمية نفسها إلى العربية وأكثر ماكان ذلك فى أسماء البلدان والنباتات والحيوانات والآلات والأمراض والمآكل التى لم يكونوا يعرفونها من قبل وفى هذا تصرفوا تصرفات مختلفة طوعا للسانهم ولم يجروا فى ذلك على سنن واحد . وقد أسهم أبو حنيفة الدينورى فى إغناء العربية عن هذا الطريق إسهاما كبيرا وكان ينص على أن هذه الكلمة أعجمية .

كانت اللغة العربية فى صراع مع اللغات الأخرى وكانت فى مأزق ولكنها خرجت سليمة قوية واسعة هى لغة الدين ولغة العلم والفلسفة ولغة الأدب واضمحلت بجانبها كل لغات البلاد المفتوحة فاللغة السريانية التى ترجمت إليها كتب اليونانية أخذت تتدهور بعد أن نقل ما فيها إلى اللغة العربية ، والفرس فى ذلك العصر أصبحت لغتهم العلمية والأدبية هى اللغة العربية . ان ألفوا أو شعروا فبالعربية .

وحياة اللغة الفارسية إنما كانت عند التكلم العادى أو فى أوساط الديانة المجوسية وكذلك اللغات الأخرى من رومانية وقبطية فى الشام ومصر . وكسبت اللغة العربية من ذلك أنها أصبحت فى تآليفها وأدبها وعلومها نتاج كل هذه الأمم تلبس كل أفكارهم وتعبر عن قرائحهم وكسبوا هم منها مالها من ثقافة إسلامية وأدبية .

ولئن أغنى الاعاجم اللغة العربية التحريرية فقد أفسدوا اللغة اللسانية بما أدخلوا من لحن .

كانت جزيرة العرب سليمة المنطق قبل الفتح وقبل دخول الأعاجم فى الإسلام ثم بدأ اللحن يفشو فيها وللحن تاريخ من عهد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين والأمويين ولكنه كان قليلا بالنسبة إلى ما فى هذا العصر فقد زاد بغلبة الأعاجم سياسيا وأصبحنا نرى بدء تكوين لغتين : لغة الكتابة والأعراب الفصحاء ومن جرى مجراهم . ولغة يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين يقول : « ومتى سمعت بنادرة من كلام الأعراب

فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج الفاظها فأنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخير لها لفظا حسنا أو أن تجعل لها من فيك مخرجا سريا » ويقول ولأهل المدينة ألسنة زلقة وألفاظ حسنة وعبارة جيدة واللحن فى عوامهم فاش وعلى من ينظر فى النحو منهم غالب[١٤٤] .

ويقول : « واللحن من الجوارى الظراف . ومن الكواعب النواهد ومن الشواب الملاح ومن ذوات الخدور والغرائز أيسر وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف[١٤٥] .

وقال فى موضع آخر : « وزعم أبو العاص أنه لم ير قرويا قط لا يلحن فى حديثه وفيما يجرى بينه وبين الناس إلا ما تفقده من أبى زيد النحوى ومن أبى سعيد المعلم » .

وذكر ابن قتيبة : أن أعرابيا دخل السوق فسمعهم يلحنون فقال : سبحان الله يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح[١٤٦] .

كان هذا اللحن أنواعا فلحن فى الإعراب فلا يصححون آخر الكلمات كما تقتضيه قواعد النحو كالذى رووا : أن رجلا قال « لآخر احضرنيه » قال قد دعوته لكل ذلك يأبى برفع كل . ولحن فى بناء الكلمة كالذى قيل :ان نبطيا سئل : لم اشتريت هذا الاتان[١٤٨] ؟ قال أركبها وتلد لى بفتح اللام[١٤٨] ولحن فى تركيب الجمل كالذى حكى الجاحظ قلت لخادم لى : فى أى صناعة أسلم هذا الغلام قال : أصحاب سند نعال . يريد فى أصحاب النعال السندية[١٤٩] . وأحيانا يلجأ الرجل منهم إلى اسكان آخر الكلمات وترك الإعراب خوفا من اللحن .

كان مهدى بن مهلهل يقول : حدثنا هشام بن حسان ويجزم ذلك كله لأنه حين كان نحويا رأى أن السلامة فى الوقف[١٥٠] وكان هذا اللحن فاشيا حتى فى العلماء[١٥١] .

---

(١٤٤) البيان والتبيين جـ١ ص١١١ .

(١٤٥) البيان والتبيين جـ١ ص١٢٣ .

(١٤٦) عيون الأخبار جـ ١ ص١٥٩ .

(١٤٧) المرجع السابق .

(١٤٨) البيان والتبيين جـ١ ص١٢١ .

(١٤٩) للبيان والتبيين جـ١ ص١٢٢ .

(١٥٠) البيان والتبيين جـ٢ ص١٢ .

(١٥١) ضحى الاسلام جـ١ ص٣١٢ .

نستنتج من هذا كله أن فساد اللغة من الناحية اللسانية كثر فى ذلك العصر وأنه قد بدأ يكون للناس لغتان على نحو ما بينا سابقا.

ولأبى حنيفة كتاب بعنوان « لحن العامة » لم يصل إلينا ، وهذا يدل على أنه قد شارك فى هذه القضية ويبدو أنه كان من أنصار الفصحى ومن ثم لم يكن علماء اللغة والنحو يأخذون إلا عن سكان البادية لأنهم رأوا الحضر قد فسد بالاختلاط بل كانوا لا يأخذون عن البدوى إلا إذا لم يفسده الحضر فكانوا لا يأخذون عن الأعرابى إلا إذا فهم القول الملحون وكان البصريون يفتخرون على الكوفيين فيقولون : نحن نأخذ اللغة من حرشة الضباب وأكله اليرابيع وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز ورباعة الكواميخ(١٥٢) .

وكان العلماء يمتحنون الاعرابى قبل أن يأخذوا عنه(١٥٣) وكان كثير من الأعراب يفدون على مدن العراق فيأخذ العلماء عنهم اللغة .

ولم يكن عمل علماء اللغة فى ذلك العصر إلا نقل ما يسمعون من العرب مشافهة إلى التقييد بالكتابة فأكثر اللغة كتبت فى العصر العباسى الأول لا قبله وكانت أهم وسائل النقل هى ماذكرنا من رحلة العرب إلى العراق ورحلة علماء العراق إلى البادية وتحرير اللغويين لما سمعوا من العرب مباشرة أو بواسطة وقد جمع أبو حنيفة الدينورى بين هاتين الوسيلتين فالتقى بالاعراب الذين وفدوا إلى العراق ورحل إلى البادية

(وبعد) فهل كان كل الذى دونوه صحيحا ؟ وهل كان الآخذون وهم علماء اللغة والمأخوذ عنهم وهم العرب كلهم ثقة ؟ الحق أن لا . وأن بعض العرب كانوا يخطئون أحيانا ويكذبون أحيانا وأن بعض علماء اللغة كانوا يخطئون أحيانا ويكذبون أحيانا . كان العلماء مشغوفين بأن يقفوا على جديد لم يعرفوه وكانت المنافسة بينهم شديدة وحب الفخر والتظاهر شديدا خصوصا فى مجالس الخلفاء والأمراء وكان يقضى على العالم فى جهله بكلمة أو خطئه فى كلمة فدعا ذلك بعضهم ليتزيدوا ويختلفوا إذا أحرجوا وأحس بعض الأعراب بهذه النفسية فكانوا يغربون أحيانا ويختلقون أحيانا وقد ذكرنا فى الفصل الثانى قصة المبرد وعيسى بن ماهان حين سأل الأخير المبرد عن الشاة المجثمة فقال له إنها اللجبة واستدل على ذلك بقول الراجز فسأل عيسى بن ماهان أبا حنيفة الدينورى عن ذلك فأنكر ما قال المبرد واعترف المبرد بصدق أبى حنيفة على نحو ما مر بنا هناك وسبب آخر وهو أن العداء بين البصريين والكوفيين بلغ مبلغا عظيما فكان علماء كلتا المدينتين يتشيعون

(١٥٢) حرش الضب : صاده ، الشواريز جمع شيراز : اللبن الرايب المستخرج ماؤه الكواميخ جمع كامخ : نوع من الادام .

(١٥٣) ضحى الاسلام جـ١ ص٣١٢ .

لمذهبهم[١٥٤] وكان المدونون الاولون للغة فى هذا العصر يدونون المفردات حيثما إتفق وكما يتيسر لهم سماعها فقد يسمعون كلمة فى الفرس وأخرى فى الغيث وثالثة فى الرجل القصير وهكذا فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب وكانت الخطوة الثانية أن جمعوا الكلمات الخاصة بموضوع واحد وأظهر ما كان ذلك فى كتب الأصمعى فله كتاب الأنواء وكتاب الميسر والقداح وكتاب خلق الفرس وكتاب الإبل وكتاب الشاء وهكذا يجمع ما ورد من الالفاظ اللغوية فى موضع واحد ويسميه كتابا وقد يكون الكتاب بضع ورقات . ونفس الصنيع صنعة أبوحنيفة الدينورى فله كتاب النبات وكتاب الأنواء وقد ذكر[١٥٥] ابن سيده فى مخصصه أنه اعتمد فى تأليف كتابه على عدة كتب منها هذان الكتابان وقد رجعنا إلى المخصص ونقلنا بعض ماذكره عن أبى حنيفة الدينورى ويهمنا هنا أن نشير إلى حديثه عن النبات والأنواء فقد جمع ما ورد من الألفاظ اللغوية حول هذين الموضوعين ويبدو أنه سمى ما جمعه من الإلفاظ اللغوية حول موضوع النبات كتابا وسمى ما جمعه من الألفاظ اللغوية حول موضوع الأنواء كتابا ولم نستطع الجزم فى ذلك لأنه لم يصل إلينا أى من الكتابين مستقلا بذاته وإنما طالعناهما فى مخصص ابن سيده وسط ثروة لغوية ضخمة للفيف من اللغويين ولعل فى صنيع ابن سيده هذا ما يؤيد وجهة نظرنا فهو قد نظر إلى ما كتبه أبوحنيفة الدينورى فى هذين الكتابين على أنه ثروة مفردات لغوية وحسب .

ثم كانت الخطوة الثالثة عمل المعاجم فأبوحنيفة الدينورى إذا يمثل أو يمكن أن يمثل الخطوة الثانية فى قواميسنا اللغوية .

لقد كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية هى السوق التى كان يروج فيها العلم والأدب فكان يرتحل إليها العلماء من الأقطار كافة كل يحمل إليها طابع بلده الخاص أو بتعبير آخر مدرسة بلده فى الفن المختص به فالتقت لكل علم وفن ألوان وطوابع مختلفات احتكت وتمازجت وكان منها الوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة وذلك ما كان فى النحو « فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصريون أيضا ونشأت طبقة جديدة فى بغداد اختارت من المذهبين وكونت ما عرف بالمذهب البغدادى[١٥٦] » الذى أرخه ووصفه أبو الطيب اللغوى بهذه الكلمات الموجزات : فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبا وغلب أهل الكوفة على بغداد وحدثوا الملوك فقدموهم

(١٥٤) ضحى الاسلام جـ١ ص٣١٥

(١٥٥) السفر الاول ص١١ ، ١٢

(١٥٦) فى اصول النحو لسعيد الافغانى ص ٢١٨ - ٢١٩ ط الجامعة الصورية ١٩٥٧

ورغب الناس فى الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر وتباهو بالترخيصات وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع فاختلط العلم[١٥٧] .

ولما عرض أبو الطيب لأشهر أعلام المذهب البغدادى وهو ابن قتيبة نقده وذكر الذين أخذ عنهم ثم قال : إلا أنه خلط بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات وكان يتسرع فى أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتأليف كتابه فى النحو وكتابه فى تعبير الرؤيا وكتابه فى معجزات النبى ﷺ وعلى آله و (عيون الأخبار) و(المعارف) و (الشعر والشعراء) ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء وان كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له[١٥٨] .

وعقد ابن النديم لهذه الطبقة بابا عنوانه « من خلط بين المذهبين » عد منهم ابن قتيبة وأبا حنيفة الدينورى[١٥٩] .

« والطابع البصرى أغلب على المذهب البغدادى فى الجملة كما هو الشأن فى بقية الأمصار ولا عجب فى ذلك فإن الأصالة التى فيه فرضت نفسها كما يقولون وكان ما أخذ من المذهب الكوفى مسائل اتجهوا فيها اتجاها أصح وأيسر.[١٦٠]

والأصل فى الألفاظ أن يختص كل لفظ بمعنى معين بهذا جرت الكثرة الغالبة من الفاظ اللغات فى العالم غير أنا نعرف أن أمور الحياة متداخلة متشابكة تكون فى مجموعها نظاما متماسك الأطراف ولا غرابة إذن أن نرى معنى يقترب من آخر أو أن نرى جزءا من معنى يشترك فى عدة ألفاظ ومع ذلك تتجه معظم اللغات إلى تخصيص اللفظ بمعنى معين يصبح له بمثابة العلامة متى طرقت السمع أثارت فى الذهن دلالة معينة يشترك فى فهمها أفراد البيئة اللغوية .

ولا شك أن الألفاظ العربية فى بدء نشأتها ولا ندرى متى كانت هذه النشأة قد قصد بها أن يعبر كل لفظ عن معنى معين وأن تكون له دلالته المستقلة ومهما قيل عن نشأة الألفاظ فى لغة الإنسان الأول لا نستطيع أن نتصور أنه يمكن أن توجد فى عصورنا التاريخيه إلا حين تدعو الحاجة اليها بعد أن استقرت اللغة الإنسانية وأصبحت مهمتها الأساسية أن تتخذ وسيلة التفاهم بين أفراد المجتمع .

ثم كان أن اشتدت عناية العرب القدماء بالألفاظ وموسيقاها فشغلتهم هذه الموسيقة اللفظية عن ملاحظة الفروق بين الدلالات مما أدى إلى أن كثيرا من الألفاظ التى كانت

---

(١٥٧) مراتب النحويين ص ٩٠

(١٥٨) المرجع السابق ص٨٥ .

(١٥٩) الفهرست ص ٢٧٠ ، ٢٩٠ .

(١٦٠) فى أصول النحو لسعيد الأفغانى ص٢١٩ .

تعبر عن معانى متقاربة ازدادت قربا واختلط بعضها ببعض ونسيت تلك الفروق أو تنوسيت وأصبح العربى صاحب الأذن الموسيقية يضحى بتلك الفروق فى الدلالات حتى يتمكن من نظم قوافيه وتنسيق أسجاعه وهكذا رأينا أن الأدب الجاهلى والإسلامى قد شغلت موسيقاه أصحاب هذا الأدب عن تلك الدقة فى معنى الألفاظ ولم تعد الألفاظ محددة الدلالة فى غالب الأحيان وعدت الالفاظ بعضها على بعض مما ترتب عليه تلك الظاهرة وهى كثرة الألفاظ المترادفة .

ولست أريد هنا أن أثير جدلا أو نقاشا حول هذه الظاهرة ، وما اذا كانت تعد ميزة للغة العربية أو عقبة فى تمييز الدلالات فقد تختلف وجهات النظر فى هذا وأنما الذى أهدف اليه والى توضيحه أن ظاهرة كثرة الترادف قد أصبحت خاصية للغتنا العربية .(١٦١)

ومهما حاول بعض الاشتقاقيين من علماء اللغة كابن دريد وابن فارس وأمثالهما أو بعض الأدباء من أصحاب الخيال الخصب الذين يلتمسون من ظلال المعانى فروقا بين مدلولات الألفاظ أقول مهما حاول هؤلاء أو هؤلاء إنكار وقوع الترادف فى الفاظ اللغة العربية فليس يغير هذا من الحقيقة الواقعة شيئا فالترادف قد اعترف به معظم القدماء وشهدت له النصوص وإن كان بعض الذين قالوا به قد غالوا فيه .(١٦٢)

والأصل فى كل اللغات أن يعبر اللفظ الواحد عن المعنى الواحد ومع هذا فقد نرى فى النادر من الأحيان أن لغة ما تقبل أكثر من لفظ للدلالة على أمر واحد وهو ما يسمى بالترادف وقد تقبل لفظا واحدا للدلالة على أمرين مختلفين اختلافا بينا وهو ما يسمى بالمشترك اللفظى : يقع مثل هذا فى كل اللغات دون إسراف ودون أن يتجاوز هذا عددا ضئيلا جدا من ألفاظ اللغة .

أما الذى حدث فى لغتنا العربية فهو أن مجموعة كبيرة جدا من ألفاظها قد تنازعها هذان الأمران الترادف والمشترك اللفظى .

ولـكن الألفاظ التى تعد من المشترك قليلة جدا إذا قيست بالألفاظ المترادفه(١٦٣) وليس يتصور أن يضم كتاب مستقل كل الكلمات الخاصة « بالنبات » ككتاب أبى حنيفة الدينورى دون أن يكون بين هذه الكلمات عدد من المترادفات كما لا يعقل أن كتابا آخر لأبى حنيفة يخصص لألفاظ « الأنواء » دون أن يضمن قدرا من الترادف .

---

(١٦١) دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس ص٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(١٦٢) فى اللهجات العربية للدكتور ابراهيم أنيس ص١٦٢ - ٢٠٣ .

(١٦٣) دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس ص٢٠٨ ، ٢٠٩ .

هذا وقد شهد النصف الأول من القرن الثانى الهجرى أستاذ الأساتذة أبا عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ يعلم الناس طرفا من كل شىء فلا يكاد يتوفر على أمر معين فهو أحد القراء السبعة وإمام القراء فى البصرة وهو أحد المؤسسين لمذهب البصريين فى النحو وهو فوق هذا لغوى ضليع يروى من آداب اللغة وألفاظها الشىء الكثير وهو الذى كان يعتز بأدب الجاهلين ويرى الوقوف عنده .

ومعظم الذين جاءوا بعد أبى عمرو يدينون له بالفضل وقد سبق هؤلاء طائفة من أمثال أبى الأسود ويحيى بن يعمر وعبد الله بن أبى اسحاق وغيرهم ويبدو أن معظم هؤلاء قد توفر على تأسيس علم النحو وقواعد اللغة . حتى أبو عمرو ومن عاصروه فبدأوا يعنون أيضا بنصوص اللغة وألفاظها يشرحون غامضها ويتتبعون الألفاظ فى نصوصها ولكنهم فيما يبدو لم يتجهوا إلى الانتاج العلمى فى صورة الكتب والرسائل مكتفين بتلاميذهم النابهين ممن لازموهم سنين طويلة فكأنما كانوا يتصورون أن رسالتهم العلمية تنتهى عند حد التلقين والإملاء .

ثم جاء بعد هؤلاء طبقة من العلماء عاشوا جميعا فى أواخر القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث وهؤلاء هم الذين عنوا حقا بتدوين علمهم وتأليف رسائلهم وعنهم وردت لنا بعض تلك الرسائل الصغيرة الحجم التى توفر كل منها على موضوع معين من موضوعات اللغة ككتاب صغير فى الإبل أو رسالة صغيرة فى المطر ونحو هذا وأشهر أصحاب هذه الطبقة من العلماء اللغويين :

١ - أبو زيد الأنصارى (توفى ٢١٥هـ)
٢ - الأصمعى (توفى ٢١٠هـ).
٣ - أبو عبيده (توفى ٢٠٩هـ).
٤ - النضر بن شميل (توفى ٢٠٤هـ).
٥ - اليزيدى (توفى ٢٠٢هـ).
٦ - أبو عمرو الشيبانى (توفى ٢٠٢هـ).

فهؤلاء يكونون طبقة من اللغويين المتعاصرين الذين عنوا برواية الألفاظ والنصوص وتوفروا على تدوينها وشرح مدلولاتها وتروى لهم فى كتب التراجم أسماء لكتب كثيرة لم يرد لنا منها إلا القليل النادر وليس بينهم من علماء الكوفة إلا أبو عمرو الشيبانى تلميذ المفضل الضبى وقد ساهم فى جمع الفاظ اللغة بنوادره وأراجيزه .

أما الآخرون من أصحاب هذه الطبقة فكلهم من علماء البصرة وأكثرهم تأليفا الأصمعى وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصارى .

وإذا جاز لنا الحكم على مؤلفاتهم بما ورد لنا منها أمكن القول أنها جميعا رسائل صغيرة ساهمت فى وضع اللبنة الأولى للمعاجم العربية كما عرفت لنا بعد ذلك .

وهكذا نرى أن أصحاب هذه الطبقة قد تشابهت جهودهم وأنهم برسائلهم قد مهدوا السبيل لنشأة المعجم العربى .

ثم ولى هذه الطبقة طبقة أخرى من تلاميذهم واستمر أثرها إلى أواخر القرن الثالث الهجرى وأشهر أصحابها .

١ – صاحبنا أبو حنيفة الدينورى (توفى ٢٨٢هـ).

٢ – أبو حاتم السجستانى (توفى ٢٥٥هـ).

٣ – أبو عبيد القاسم بن سلام (توفى ٢٣١هـ)

٤ – ابن السكيت (توفى ٢٤٤هـ).

٥ – ابن الأعرابى (توفى ٢٣٢هـ).

٦ – ابن سلام الجمحى (توفى ٢٣١هـ).

٧ – أبو عمرو شمر الهروى (توفى ٢٥٠هـ).

ورغم أن كثيرا من مؤلفات أصحاب هذه الطبقة اللغوية قد ضاع غير أنه يبدو مما ورد لنا منها أنها كانت أضخم حجما وأشمل من مؤلفات من سبقوهم .

وهكذا نرى أن فكرة المعاجم خطرت لأصحاب هذه الطبقة وأنهم بدأوها فى صورة معاجم متوسطة الحجم ومرتبة على حسب المعانى .

ولم يخطر بذهن أحدهم أن يرتب تلك الألفاظ التى اختارها أو التى جمعها ترتيبا هجائيا على حسب الحروف كما فعل أصحاب الطبقة التى جاءت بعدهم .

والطبقة الرابعة من العلماء اللغويين عاشوا جميعا خلال القرن الرابع الهجرى الذى يعتبر بحق قرن المعاجم العربية ففيه ألف أكبر عدد من المعاجم المشهورة المعتمدة وفيه أخذ المعجم العربى الصورة المألوفة لنا وفيه اتجه العلماء إلى ترتيب الألفاظ ترتيبا هجائيا وبدءوا ينصرفون عن الترتيب الجارى على حسب المعانى .

وعلماء اللغة الذين نقل أبو حنيفة عنهم كثيرو العدد منهم الأصمعى وأبو عبيدة وابن الأعرابى وأبو زيد والكسائى والفراء وأبو نصر واليزيدى واللحيانى وأبو زياد الأعرابى وغيرهم . وقد أكثر النقل عن أبى زياد وذكر اسمه ونسبه عند ذكره لأول نبات من النباتات التى رتب أسماءها على حروف المعجم وهو الأراك[١٦٤] فقال :

---

(١٦٤) كتاب النبات ج٥ ص٧٥ .

قال أبو زياد الأعرابي يزيد بن عبد الله الكلابي أحد بني عبد الله بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة : الأراك من العضاه أما الشعراء والرجاز الذين استشهد بشعرهم فهم كثير منهم : لبيد والأعشى وأمرؤ القيس وعدى بن زيد وطرفه والنابغة الذبياني والأخطل والراعي وجرير والفرزدق والمرقش وذو الرمة وعنترة وأوس بن حجر وعلقمة بن عبده والطرماح وأبو النجم والعجاج وحسان وكعب بن زهير وابن مياده وأحيحه بن الجلاح وقيس بن الحطيم وعمرو بن كلثوم وكثير وابن هرمة والشماخ والجعدى والحطيئة والنمر بن تولب .... الخ .

الأخبار الطوال :

فى الفهرست ومعجم الأدباء ذكر لهذا الكتاب بهذا الاسم (كتاب الأخبار الطوال) وبهذا الاسم عثر على الكتاب وطبع وظهر للناس ولكن حاجى خليفة يأبى إلا أن يطلع على الناس بغير هذا العنوان فيقول :

تاريخ أبى حنيفة : أحمد بن داود الدينورى المتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائتين . قال المسعودى هو كبير أخذ ابن قتيبة ما ذكره وجعله عن نفسه .(١٦٥)

صحيح أن فى الكتاب تاريخا وأن الذى ألف هذا التاريخ هو أبو حنيفة ومن هنا فتسمية حاجى خليفة ليست خطأ ولكن كان عليه أن يتحرى الدقة فى ذكر الكتاب بالعنوان الذى اختاره له صاحبه .

ومهما يكن من شىء فإن الأخبار الطوال هو الكتاب الوحيد من كتب أبى حنيفة الدينورى الذى وصل إلينا كاملا . ومن هنا كان من حقه علينا أن نوفيه ما يستحق من العرض والبحث والتحليل . وأن نبين أهمية هذا الكتاب ونعرض لأفكاره ، ونبين ما يشتمل عليه من حقائق نفسية وتاريخية ، والملابسات التاريخية والاجتماعية التى أحاطت به والصفات الخلقية والخصائص الفنية والأدبية .

فالكتاب من أهم المصادر التاريخية الأولى التى تسرد حوادث الحياة المعاشية والسياسية والحربية عند الفرس سردا وافيا وفيه معلومات عن علاقة العرب بالفرس قد لا تجدها فى غيره »(١٦٦).

كما أنه من أهم المصادر التاريخية فى الإبانة عن الأحداث الدقيقة فى الدولة العربية من بعد ظهور الإسلام إلى آخر عهد الخليفة العباسى المعتصم بالله أبى إسحاق محمد بن هارون الرشيد المتوفى سنة (٢٢٧هـ - ٨٤٢م)

---

(١٦٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ص٢٨٠ المجلد الأول .

(١٦٦) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج١ص٤٣٠ .

ويكاد كتاب الأخبار الطوال ينفرد بأنه من أوائل الكتب المتكاملة التى وضعت باللغة العربية لتاريخ حياة العزة القومية إبان الحكم العربى الذى شملت حدوده البلاد شرقا وغربا من الصين إلى المحيط الأطلسى ، فالكتاب يكشف إلى حد بعيد عما ابتكر الإسلام وأبدع فى الحرب والإدارة والسياسة بعد أن انتشر حملة لوائه من جزيرتهم فساحوا فى بلاد الله من الأرض المعمورة وأبانوا فى مواقفهم المديدة عن عقول مثقفة ونفوس شريفة وبعد نظر فى إدارة الممالك والشعوب ، وتبدو القيمة التاريخية لكتاب الأخبار الطوال فى أن مؤلفه قد عاصر بعضا من حوادثه وأنه دوّن فى كتابه تفاصيل ما شاهد ورأى وحقائق ما سمعه ممن شاهد قبله ورأى .

فهو يذكر فى كتابه تاريخ العصر الأول للدولة العباسية ومكائد العلويين وبخاصة فى خراسان وسقوط دولة الأمويين بعد فتنة المختار وفتن الأزارقة . ويروى مقتل الحسين بن علىّ بن أبى طالب . ويتحدث عن الخوارج ويسهب فى وصف معركة القادسية والمعارك التى وقعت بين على ومعاوية ويعرض بالتفصيل الوافى أخبارا هامة عن تاريخ الإسكندر ودولة الساسانيين وفتح العراق على يد العرب ، ثم يتخير المؤلف من حياة الفرس فترات يزودنا فيها حديثه عنها بمادة تاريخية تصلح للبحث المستفيض ، وليس بين المؤرخين العرب وغيرهم من هو أقدر من أبى حنيفة الدينورى على معالجة تاريخ الفرس وعلى رواية تاريخ العرب فى بلاد الفرس فالدينورى فارسى الأصل تجرى فى عروقه دماء الفرس وتنصهر فى نفسه عزة العرب وأمجاد الإسلام ، وهو فوق هذا إنسان عاش رفيع القدر أصلا ومعاشا وقد صار إماما من أئمة العلم واللغة والأدب .(١٦٧)

وأن المصادر التاريخية التى رجع إليها وروى عنها أبو حنيفة تعتبر جلّها مفقودة وليس فى بطون الكتب والمراجع المعروفة عنها إلا الإشارة إليها ، وأبو حنيفة قد اطلع على هذه الكتب وروى عنها ، كما روى عن أولئك الذين اشتركوا فى الحوادث التاريخية وطال بهم العمر فأدركهم أبو حنيفة وقابلهم فى أسفاره العديدة لبلاد الدولة العربية .

ومهما يكن من شئ فإن كتاب الأخبار الطوال ينقسم فى عرضه التاريخى إلى ثلاثة أقسام :

١ - الباب الأول ويتناول فيه أبو حنيفة الأحداث التاريخية مبتدئا بآدم عليه السلام والأنبياء من بعده وبأخبار العرب البائدة عاد وثمود وطسم وجديس وملوك الحبشة والفرس واليمن ومملكة داود وعرش بلقيس ودولة سليمان وبنى إسرائيل وملك تبع وفى هذا الباب يعرض الدينورى الأحداث عرضا سريعا لا يتقيد فيه بنظم بيئى ولا ترتيب زمنى

(١٦٧) عبد المنعم عامر : فى مقدمة الكتاب صفحة جـ ، د .

ولكنه يحاول فى عرضه التاريخى أن يربط بين تاريخ العجم وبين تاريخ الشعوب المجاورة .

٢ - الباب الثانى وهو الجزء الخاص بتاريخ بلاد الفرس وقد بدأه المؤلف بتاريخ الإسكندر وفتوحاته شرقا وغربا ثم خلص منه إلى ملوك الطوائف وأحوال بلادهم المذهبية والحربية وخص بلاد الفرس بكثير من الإفاضة فاستوعب ملوكهم واحدا بعد واحد وذكر من أحوالهم قصصا تاريخيا رائعا صوّره بأسلوب أدبى ممتاز ، وفى هذا الباب عرض أبو حنيفة أحوال الفرس والروم فى عهد كسرى تقدمة لتاريخ العرب بعد ظهور الإسلام .

٣ - الباب الثالث ويذكر فيه الدينورى حروب العرب مع العجم والفتوحات الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب وفى عهد الحكام من بعده ، كل هذا فى بسط يتناول فيه أشعارهم ومأثور أقوالهم ومشهور أيامهم ، ويذكر فيه خلافاتهم وما صارت إليه أمورهم دولة بعد دولة حتى يصل إلى موت المعتصم الخليفة العباسى. وهذا الجزء أهم أقسام الكتاب وأكبرها وقد عنى فيه المؤلف بذكر تفاصيل الوقائع وربط الأسباب بمسبباتها والإبانة عن العوامل الذاتية والاتجاهات الشعوبية التى قوضت أركان الكيان العربى وفرقت المذهب الإسلامى إلى شيع وطوائف منابذة قد نسيت فى معترك نضالها السياسى الأهداف السامية التى قامت على تحقيقها الدولة الإسلامية فى المجال الدولى تمكيناً للعدالة ونشر الاشتراكية الاجتماعية .

وأنه مما يلفت النظر فى هذا الكتاب أن مؤلفه قد وقف فيه عند سنة ٢٢٧هـ وهى السنة التى مات فيها الخليفة العباسى المعتصم وأنه أهمل تدوين الحوادث التاريخية فى الحقبة التى عاشها أبو حنيفة وعاصر فيها الأحداث التى كانت قائمة بين الأحزاب المتطاحنة على السيادة فى الدولة وهى الحزب العربى والحزب الفارسى والحزب التركى ، تلك الفترة الزمنية التى تقع بين سنة ٢٢٧هـ وسنة ٢٨٢هـ التى مات فيها أبو حنيفة كما يذكر معظم المؤرخين ويبدو أن أبا حنيفة قد عنى فى كتابه بالتاريخ للحياة الفارسية فى ظل الحكام فرسا كانوا أو عربا أكثر من عنايته بالتاريخ للحياة العربية فى بلاد الفرس وأنه حين يعرض الحوادث يسوق دائما منابتها الأولى ومراجعها الأصلية وملابساتها الداخليه ويذكر حولها كل ما يستبين به الباحث سبيله فيها إلى الحقائق وأن الفترة التى أهمل الدينورى تدوين حوادثها كانت فترة اضطراب سياسى . وكان العصر عصر كيد وحذر ، وكانت المؤلفات تلعب دورا كبيرا فى توجيه سياسة الدولة وتركيز سلطان الحكم وفى بعث روح النقد الاجتماعى والسياسى وقد جرت المؤلفات الوبال على أصحابها أحيانا فكان القتل نهاية ابن المقفع بسبب كتابه «كليلة ودمنه» وقد خشى أبو حنيفة إن هو أرخّ لهذه الفترة

المضطربة أن يجر عليه كتابه الوبال وأن يتخذ منه مناهضوه مادة مسمومة تجلب عليه الشر وأن أبا حنيفة وهو عالم فلك وصاحب مرصد قد غلب عليه عقله العلمى فى كتابه التاريخ فلم يتناول كتابه « الأخبار الطوال » حوادث قصيرة العمر لم تترسب مفاعلاتها فتكون تاريخا له مقدماته وله نتائجه مثل الفترة التى عاش فيها أبو حنيفة وقد أراد الدينورى أن يبنى كتابه من الأخبار التاريخية التى طالت أزمانها وبعدت نتائجها وكثر الحديث عنها كما يدل على هذا عنوان الكتاب .

وإن كتب التاريخ القديمة ذات شأن واحد فى معالجة تاريخ نشاط الجنس البشرى فى حياته الأولى وكلها تسير على هذا النمط الذى سار عليه أبو حنيفة فى كتاب الأخبار الطوال من الاعتماد على المصادر الدينية وعلى القصص الشائع المتخلف فى أدب الشعوب وعلى الوقائع المترسبة فى عقول الأجيال بعضها عن بعض وهذه كلها تحوى بعض المعارف من « الميثولوجيا » التاريخية التى تعوزها الأسانيد المادية العلمية ولا تفيد الباحث إلا بقدر ما فيها من مفاهيم تصلح لأن تكون مادة لدراسات وأبحاث علمية .

وفى كتاب الأخبار الطوال شىء من هذه الميثولوجيا التى وقع فيها المؤرخون القدامى وقد أثبتت الجهود العلمية والكشوفات الحديثة حقائقها فإذا هى تناقض مناقضة تامة ما كان يعرفه الناس عنها قديما .

ولقد ذكر أبو حنيفة فى كتابه : أن الوليد بن مصعب هو فرعون موسى عليه السلام ، والمعروف أن فرعون موسى هو منفتاح بن رمسيس الثانى أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة . وقد خلط أبو حنيفة بين الإسكندر الأكبر المقدونى وبين ذى القرنين صاحب الخضر الذى قص القرآن خبره فى حكاية يأجوج ومأجوج فذكر أنه ملك مدة ثلاثين عاما جال الأرض منها أربعا وعشرين سنة . والثابت أن الإسكندر الأكبر قد عاش ستا وثلاثين سنة وأنه لم يملك هذه المدة التى ذكرها أبو حنيفة .

وإن هذه الأخبار ومثلها غيرها مما ورد فى كتاب الأخبار الطوال روايات شائعة فى كل كتب التاريخ القديمة وليس من شأنها التقليل مما لهذه الكتب من فوائد علمية صارت بها مصادر مهمة من مصادر التاريخ العربى والإسلامى .

ومن هنا نرى أن أبا حنيفة كان يجمع بين الأسطورة والتاريخ بدون أن يشير إلى أن تلك أسطورة وهذا تاريخ بل إنه فى بعض الأساطير يرويها على أنها حديث منتشر قد حملته الرواة فيقول مثلا[١٦٨] : فملكت اليمن عليهم الهدهاد بن شرحبيل ..... قالوا وإن

---

(١٦٨) الأخبار ص ١٩ ، ٢٠

الهدهاد تزوج ابنة ملك الجن فولدت له بلقيس ، وهذا حديث منتشر قد حملته الرواة ».

وفى صفحة ١٢ عن أبرهة فأوغل فى أرض السودان فأعطوه الطاعة فجاز أرضهم وسار حتى انتهى إلى أمة من الناس أعينهم وأفواههم فى صدورهم ويقال إنهم أمة من ولد آدم عليه السلام غضب الله عليهم فبدل خلقهم فأعطوه الطاعة وانصرف راجعا ، فمر بأمة من الناس يقال لهم النسناس للرجل والمرأة منهم نصف رأس ونصف وجه وعين واحدة ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة يقفزون قفزا فى أسرع من حضر الفرس الجواد وهم يهيمون فى القياض التى على شاطئ البحر خلف رمل عالج يعنى رمل بلاد اليمن فسأل عنهم فأخبر أنهم أمة من ولد وبار بن أرم بن سام بن نوح » .

وفى صفحة ٢٣ ، ٢٤ من الأخبار الطوال ذكر تحت عنوان ملك العجم واليمن ، قصة مصرع شمر بن افريقين بن أبرهة بن الرائش ثم ذكر فى صفحة ٢٥ (زراد شت ودعوته) ثم عاد فى صفحة ٢٦ ليقول تحت عنوان : « ملك اليمن) قالوا : وأن أهل اليمن لما بلغهم مهلك شمر وجنوده بأرض الصين اجتمعوا فملكوا عليهم أبا مالك بن شمر » .

وفى صفحة ٢٦ أيضا يقول تحت عنوان « ملك العجم وخلاص بنى إسرائيل » ما يلى : قالوا : وملك بهمن بن أسفندياذ « مع أنه تحدث تحت عنوان » زراد شت ودعوته (عما كان من صراع بين رستم وأسفندياذ وكيف أن رستم قتل أسفندياذ بعد مبارزة بينهما وأن بشتاسف ملك الفرس ووالد أسفندياذ أنهكه فمرض من ذلك فمات وأسند الملك إلى ابن ابنه بهمن بن أسفندياذ) .

وفى صفحة ٢٣ من الأخبار الطوال وتحت عنوان « هدم مدينة إيليا » تحدث عن لهراسف أحد ملوك فارس وكيف أنه عقد لابن عمه بختنصر فى اثنى عشر ألف رجل من خيله وأمره أن يأتى الشام فيحارب أرخبعم بن سليمان فإن كان الظفر له قتل من قدر عليه من عظماء إسرائيل وهدم مدينة إيليا ثم قال : وأقبل بختنصر حتى ورد مدينة بيت المقدس فدخلها لا يمتنع منه أحد فوضع فى بنى إسرائيل السيف وسبى أبناء الملوك والعظماء وهدم مدينة إيليا .

ثم ترك الموضوع وتحدث عن « ملك العجم واليمن » وزرادشت ودعوته ، وملك اليمن وفى صفحة ٢٦ عاد ليقول : قالوا : وملك بهمن بن أسفندياذ فأمر ببقايا ذلك السبى الذى سباهم بختنصر من بنى إسرائيل أن يردوا إلى أوطانهم من أرض الشام .

وفى هذا ما فيه من عدم الترتيب الفكرى ومن عدم المراعاة لتسلسل الحوادث وترابطها ، هذا ولا يمس أبو حنيفة تاريخ الحكام الأمويين إلا بالقدر الذى يتصل بالحركات الدينية والسياسية فى أيامهم فيذكر ثورة الأزارقة وبخاصة ثورة المختار ثم يصل إلى بدء ثورة الشيعة وقيام أبى مسلم الخرسانى داعية لبنى العباس ..... الخ .

وعلاوة على ما تقدم فلابد لنا من جولة تحليلية فى كتاب الأخبار الطوال تكشف فيها وجه النقاب عن المضامين العلمية والأدبية والنقدية التى تناولها أبو حنيفة فى هذا الكتاب ، كما نكشف فيها الأشكال الفنية التى عرض بها أبو حنيفة أفكاره .

ولنبدأ حديثنا بالخصائص والأشكال الفنية التى لاحظناها فى كتاب الأخبار الطوال :

أولا : الاستطرادَ :

والاستطراد كما هو معروف ذكر الشئ فى غير محله لمناسبة ما ذكر معه . وهذه الخاصية الفنية تطالعنا فى كتاب أبى حنيفة الدينورى هذا ، فحينما كان يتحدث عن(١٦٩) طسم وجديس وذى جيشان أدخل فى القصة أبياتا للأعشى وأشار إلى قصة الزرقاء فقال : فنى مسيرهم وقصة الزرقاء يقول الأعشى بعد ذلك بدهر طويل :

قالت أرى رجلا فى كفه كتف ... أو يخصف النعل لهفى أية صنعا
فكذبوها بما قالت فصبحهم ... ذو آل جيشان يزجى الموت والشرعا
فاستنزلوا أهل جو من مساكنهم ... وهدموا مشرف البنيان فاتضعا

ثم تابع بعد ذلك القصة فقال عن ذى جيشان : فأم جديسا واستأصلهم ..... الخ ولا شك أن فى هذا قطعا لسير القصة .

وصفحة ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، من الأخبار الطوال وفى حديثه عن قصة داود الملك وبعد أن تحدث عن تمليك داود وخلع طالوت استطرد فكان من حديثه : قالوا : وكان ملك الروم فى ذلك العصر « دقينوس » صاحب الفتية أصحاب الكهف ثم استطرد أكثر من ذلك فى سياق قصة داود الملك فقال : « وذكر عن عبد الله بن الصامت : وجهنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه سنة استخلف إلى ملك الروم لأدعوه إلى الإسلام .... الخ .

وهذا الاستطراد أخل بالوحدة الفنية للقصة لأنه أتى بقصة جديدة يمكن فصلها عن قصة داود الملك وتسميتها بقصة الأنبياء فى صور .

صحيح أن فى قصة عبد الله بن الصامت ذكرا لداود ولكن على أنه شخصية عادية وليست هى بالشخصية المحورية فى القصة وإن كان هذا القسم الخاص بحديث عبد الله

(١٦٩) الأخبار الطوال ص ١٦ .

بن الصامت فيه ظاهرة جديدة فى فن القصة ففيه عرض القصة بالصور ويظهر فيه عنصر الحوار واضحا واعتمد فى حديثه كله على التشبيه .

ثانيا : التكرار :

وهو نوعان : تكرار معنوى ونعنى به توراد جملتين فأكثر على معنى واحد ، كما يمكن أن يدخل فى هذا النوع الترادف .

وتكرار لفظى : ونعنى به استعمال لفظ بعينه أكثر من مرة .

فمن التكرار اللفظى تكرار أبى حنيفة لهذه الكلمات ومشتقاتها : جن الليل ، عتا وعنوة ، تجبر ، والبغى والظلم ، واستدف أهل الحفاظ ، غلس بالصلاة ، ويقنع بالحديد ، وغلوة ، وجعجع ، وانهد ، الجلاوزة ، وَعبى ، وتحلجل ، واحتز رأسه .

وقد جاء التكرار بنوعيه فى أدب أبى حنيفة كما ذكرنا ، وإليك أمثلة للنوعين كما جاءت فى كتاب الأخبار الطوال :

فى صفحة ٢٩٩ يقول عن المختار حين بعث ليلا إلى عبد الرحمن بن أبزى الخزاعى السجين : فلما جنّ عليه الليل بعث إليه من أتاه به . وجاء فى صفحة ٣٤٥ عن رجل من أهل العراق قدم الشام : فكان إذا جنه الليل أشعل فى ناحية من السوق النار

وجاء وفى صفحة ٣٥٢ يقول : فلما جنّ الليل ونام الأحراس أقبل مولاء من خارج السور .

وجاء فى صفحة ٣٥٨ قال أبو عبيده : كنت آتى إبراهيم فى محبسه ..... وأظل عامة نهارى عنده وربما جنتى الليل عنده .

وفى صفحة ٣٩٥ يقول أبو حنيفة عن المأوى : ولما جنّ الليل بعث إلى الفضل بن سهل .

وفى صفحة ٤٠٠ يقول عن محمد الأمين : فلما جنه الليل ركب فى جماعة من خاصته وثقافته وجواريه يريد العبور إلى هرثمة .

كما استخدم الفعل عتا ومصدره ، فقد جاء فى صفحة ١٥ عن الملك عمليق : كان جائرا ظلوما وبلغ من عتوه ...... الخ

وجاء فى صفحة ٧ قالوا : وإن ثمودا قفت ما كانت عليه عاد من الكفر بالله والعتو عليه .

وفى صفحة ٨ تجبّر نمروذ وعتا .

---

(١٧٠) يقصد مولى الكرمانى

وجاء فى صفحة ٥ : وملك بعد شديد بن عمليق أخوه شداد بن عمليق بن إرم فعتا وتجبر .

وجاء فى صفحة ٣ ولما كثرت عاد باليمن تجبروا وعتوا .

كما استعمل أسماء وأفعال قريبة من عتا وعتوا ، كما جاء فى الفقرة السابقة تجبروا وعتوا فاستعمل كلمة تجبروا .

وجاء فى صفحة ٤ : وكان جالوت الجبار الذى قتله داود النبى من ولد الوليد بن الريان .

وفى صفحة ١٣ يقول عن كيكاوس : لما أظهر من الجبروت والعتو والجرأة على الله تآمروا على خلعه .

وفى صفحة ٤ جاء ما يلى : إن الضحاك الذى تسميه العجم بيوارسف عندما كان من غلبته جم الملك وقتله إياه .... فكان يؤتى كل يوم بأربعة رجال جسام فيذبحون .

وجاء فى صفحة ٥ شداد بن عمليق لما كذب عاد « فلم يحفل به فأهلكه ومن كفر معه من عاد . وفى نفس الصفحة السابقة قال : ثم إن الضحاك البيوارسف طلبه ليفتنه فى دينه فهرب منه بأهله وولده من مدينة بابل حتى حل بمفارة من أرض الروم فقبره بها .

وجاء فى صفحة ٦ : ولما أهلك الله عادا مع شداد ضعف ركن الضحاك ووهى أمره واجترأ عليه ولد أرفخشذ بن سام وكان الوباء وقع فى جنده ومن كان معه من الجبابرة .... وبلغ ذلك الضحاك فأقبل نحوه فظفر به نمروذ وضربه على هامته بجزر حديد فأثخنه ثم شده وثاقا وأقبل به إلى غار فى جبل دنباوند فأدخله فيه وسد عليه .

وفى صفحة ٧ : قالوا : إنه كان بين مهلك عاد ومهلك ثمود خمسمائة عام » .

وجاء فى صفحة ٨ : قالوا : إن ولد قحطان كثروا بأرض اليمن فوقع بينهم (التباغى والتحاسد) فاجتمع ولد يعرب بن قحطان وولد المعتمر بن قحطان فنفوهم عن اليمن وأرضه » .

وجاء فى صفحة ٩ : أن بنى المعتمر أرادوا نزول الحرم « فمنعهم العماليق من ذلك فاقتتلوا فغلبتهم جرهم على الحرم ونفوهم ..... فتداعى الفريقان للحرب » .

وفى نفس الصفحة قالوا : وكان لنمروذ ثلاثة بنين أيرج وسلم وطوس ففوض إلى أيرج ملكه فحسد أيرج أخواه ...... فاغتالاه فقتلاه .

وفى صفحة ١٠ قالوا : ولما أتى للملك منوشهر مائة سنة وعشرون سار إليه فراسياب ..... حتى انتهى إلى أرض بابل وخرج إليه منو شهر الملك فى جنوده فغضب جموع منوشهر وقفا فرسياب منوشهر حتى لحقه فقتله واستولى على ملكه وجلس على سريره وسام ولد أرفخشذ الخسف وهدم ما كان بأرض بابل من الحصون وغوّر ما كان فيها من العيون وطسم ما كان فيها من الأنهار وقحط الناس فى ملكه قحطا شديدا وكان أهل إيران شهر فى ملكه فى أعظم بلاء .

وفى صفحة ١٣ يتحدث عن كيكاوس بن كيقباذ فيقول : كان متشددا على الأقوياء وكان قد وجد على ابنه سياوش ولم يكن له ولد غيره فأراد قتله فهرب منه فلحق بملك الترك فحل منه محلا لطيفا .... فرأى ذلك أهل بيت الملك فحسدوه وخافوا أن يبزهم الأمر فدسوا إليه الغوائل حتى أقدم عليه فقتله وقد كان زوجه ابنتِه وحملت منه فأراد أن يبقر بطنها .

وجاء فى صفحة ١٦ بعد أن تحدث عن مقتل ذى جيشان فقال : فملكت اليمن ابنه الفند ذا الأذعار وإنما لقب ذا الأذعار لرعب الناس منه فلم تكن له همة إلا االطلب بثأر أبيه .

وجاء فى صفحة ١٧ : وكان سلطان بنى إسرائيل قد وهى فكان من حولهم من الأمم يغزونهم فيقتلون ويأسرون .

وجاء فى صفحة ١٨ : وضع داود عليه السلام حجرا فى قذافة ثم قتلها ورماه فصك بين عينى جالوت .

وفى صفحة ٢٩ من الأخبار الطوال قال : فلما أفضى الملك إلى دارا ابن دارا تجبر واستكبر وطغى وكانت نسخة كتبه إلى عماله : من دارا بن دارا المضىء لأهل مملكته كالشمس إلى فلان وكان عظيم السلطان كثير الجنود لم يبق فى عصره ملك من ملوك الأرض إلا بخع له بالطاعة واتقاه بالإتاوة .

وفى صفحة ٣٠ من الأخبار قال : وكان الإسكندر جبارا معجبا وقد كان عتيا فى أمره عتوا شديدا واستكبر. وفى نفس الصفحة يقول عن أرسطاطالبس : فلما بلغه عتو الإسكندر وفظاظته وسوء سيرته أقبل من أقاصى أرض الروم حتى انتهى إلى مدينة الإسكندر. وجاء فى نفس الصفحة على لسان أرسطاطاليس يخاطب الإسكندر : « أيها الجبار العاتى ألا تخاف ربك الذى خلقك فسواك وأنعم عليك ولا تعتبر بالجبابرة الذين كانوا قبلك كيف أهلكهم الله حين قل شكرهم واشتد عتوهم » .

وجاء فى صفحة ٣١ من رسالة دارا ابن دارا إلى الإسكندر يذكره بالضريبة التى كانت على أبيه : فإذا أتاك كتابى هذا فلا أعلمن ما بطأت بها فأذيقك وبال أمرك .

وجاء فى صفحة ٣٤ على لسان الإسكندر إلى قنداقة : من الإسكندر بن الفيلفوس الملك المسلط على ملوك الأرض إلى قنداقة وجاء فى رد قنداقة على الإسكندر فى صفحة ١٣٥ : أن الذى حملك على ما كتبت به فرط بغيك وعجبك بنفسك فإذا شئت أن تسير فسر تذق غير ماذقت من غيرى والسلام .

وفى صفحة ٤١ يقول عن أسعد بن عمرو بن ربيعة : فلما اجتمع لأسعد الملك وجه ابن عمه القيطون ابن اسعد إلى تهامه والحجاز وجعله ملكا عليها فنزل يثرب فاعتدى وتجبر حتى أمر أن لا تهدى امرأة إلى زوجها حتى يبدؤه بها وسلك فى ذلك مسلك عمليق ملك طسم وجديس .

وفى صفحة ٤٥ يقول عن ملك الموصل : « وكان جبارا متمردا .

وفى صفحة ٥٢ : أن معدا لما انتشرت تباغت وتظالمت .

وفى صفحة ٥٤ فاغتصبت حمير الملك .

وجاء فى صفحة ٨٩ من الأخبار : قال بندويه : أما قتلى هرمزد فلست أعتذر منه إذ طغى وبغى وقتل صناديد العجم وألقى بأسهم بينهم وفرق كلمتهم .

وفى صفحة ٩٧ قال بهرام للطراخنة : لا تلومونى إن أنا قتلته فقد بغى على كما ترون وفى نفس الصفحة على لسان خاقان قال : لا يبعد الله غيره قد نهيته عن البغى فأبى .

وجاء فى صفحة ١٠٢ من الأخبار على لسان كسرى : يزعم بندويه أن آل ساسان غدرة لكنه ينسى نفسه فى غدره بالملك أبينا حين دخل عليه مع أخيه بسطام فألقيا العمامة فى عنقه ثم خنقاه بها ظلما وعدوا ليتقربا بذلك إلى كأنه ليس لى بوالد .

وفى صفحة ١٠٦ أن القائد (بوبوز) سار نحو أرض مصر فأغار وعاث وأفسد حتى انتهى إلى الاسكندريه فافتتحها عنوة ..... والقائد شهريار سار حتى أتى الشام فقتل أهلها قتلا ذريعا حتى أخذها كلها عنوة .

وفى صفحة ١١٧ عن عتبة بن غزوان : سار حتى أتى الأبلة فافتتحها عنوة .

وفى صفحة ١١٨ يقول عن المغيرة بن شعبة : وافتتح البلاد عنوة .

وجاء فى صفحة ١٣١ من الأخبار : وأقام المسلمون على باب مدينة تستر أياما كثيرة وحاصروا العجم بها فخرج ذات ليلة رجل من أشراف أهل المدينة فأتى أبا موسى مستترا فقال :

« تؤمننى على نفسى وأهلى وولدى وضياعى حتى أعمل فى أخذك المدينة عنوة .
وجاء فى صفحة ٢١٩ : فلما قتل على واستدف الأمر لمعاوية تحصن زياد .
وجاء فى صفحة ٣٧٠ من الأخبار : فلما استدف لأبى العباس الأمر ولى أبا سلمة الداعى جميع ماوراء بابه .
وفى صفحة ٣٥١ : واستدف الملك لمروان بن محمد .
وفى صفحة ٣٨٣ يقول : واستدفت الخلافة لأبى جعفر المنصور .... الخ
وفى صفحة٣٤٩ : واستدف الملك ليزيد بن الوليد .
وجاء فى صفحة ١٨٢ من الأخبار : لم يبق مع علىّ إلا أهل الحفاظ والنجدة .
وجاء فى صفحة ١٨٣ من الأخبار : وثبت هاشم فى أهل الحفاظ منهم والنجدة .
وجاء فى صفحة ١٨٦ من الأخبار : وانحاز أهل الحفاظ منهم إلى علىّ رضى الله عنه إلى ناحية أخرى يقاتلون .
وفى صفحة ٣١٣ : وثبت مع مصعب أهل الحفاظ .
وجاء فى صفحة ١٨٤ من الأخبار : فلما أصبح علىّ غلس بالصلاة .
وجاء فى صفحة ١٨٧ : ثم إن عليا رضى الله عنه غلس بالصلاة صلاة الفجر .
وفى صفحة ١٨٩ يقول عن أهل الشام : وأقبلوا فى الغلس .
وجاء فى صفحة ١٧٣ : خرج من أهل العراق ..... وهو متقنع بالحديد فخرج اليه أبو أثال وكان من معدودى فرسان أهل الشام متقنعا بالحديد .
وجاء فى صفحة ١٨٧ وخرج الأشتر على فرس كميت مقنعا بالحديد ... وبرز رجل من أهل الشام مقنعا بالحديد .
وجاء فى صفحة ١٨٨ : ثم اقتتلوا حتى تكسرت الرماح وتقطعت السيوف وأظلمت الأرض من القتام وأصابتهم البهر .
وجاء فى صفحة ١٨٣ : واقتتلوا حتى تكسرت الرماح وتقطعت السيوف ثم تكادموا بالأفواه وتحاثوا بالتراب .
وجاء فى صفحة ٢١٤ وفى أثناء الحديث عن قتل عبد الرحمن بن ملجم لعلى أنه : قعد مغلسا ينتظر أن يمر به على رضى الله عنه .
وجاء فى صفحة ٢١٦ أن عبد الله بن الصيد الصيداوى أتى مصر : فتقدم مغلسا .
وجاء فى صفحة ٢٥٠ على لسان أبى حنيفة وهو يتحدث عن فريق الحسين والحر : فنزلوا جميعا وكل فريق منهما على غلوة من الآخر .

ثم جاء فى صفحة ٢٥٢ على لسان الحسين يخاطب ابن الحر : تقدم بنا قليلا إلى هذه القرية التى هى منا على غلوة .

وجاء فى صفحة ٢٥١ على لسان عبد الله بن زياد إلى الحرين يزيد : أما بعد فجعجع بالحسين بن على وأصحابه .

وفى صفحة ٢٥٤ جاء على لسان الحسين : منعنى الحر بن يزيد وسار حتى يجعجع بى فى هذا المكان .

وجاء فى صفحة ٢٥٥ فنادى عمر بن سعد فى أصحابه أن انهدوا إلى القوم .

وفى صفحة ٢٥٦ : ولما صلى عمر بن سعد الغداة نهد بأصحابه .

وفى صفحة ٢٩١ عن ابن مطيع : ونهد(١٧١) إليه المختار فى أصحابه .

وفى صفحة ٢٥٦ : وانحاز الحر بن يزيد الذى كان جعجع بالحسين إلى الحسين .

وجاء فى صفحة ٢٩١ أن أياس قال للجلاوزة : نكسوه ..... وأن إبراهيم حمل على الجلاوزة .

وجاء فى صفحة ٢٦٧ أن مسلم بن عقبة بعث إلى على بن عقبة بن عبد الله بن عباس « فلقيه الحصين بن نمير فانتزعه من يد الجلاوزة .

وجاء فى صفحة ٢٨٨ فى حديث عن المختار : وكان أكثر من استجاب له همدان وقوم كثير من ابناء العجم الذين كانوا بالكوفة ففرض لهم معاوية وكانوا يسمون الحمراء .

وجاء فى صفحة ١٨٢ : فبات الفريقان طول تلك الليلة يتعبون للحرب .

وفى صفحة ٣٩٨ فانتفضت تعبية على بن عيسى .

وفى صفحة ٣٩٩ يقول عن عبد الرحمن الأنبارى : فعبأ أصحابه وجاء فى صفحة ١٧٠ : فلما انقضت جمادى الأولى بات على رضى الله عنه يعبى أصحابه ويكتب كتائبه وبعث إلى معاوية يؤذنه بحرب فعبى معاوية أيضا أصحابه وكتب كتائبه .

وجاء فى صفحة ٢٥٦ : وعبى الحسين عليه السلام أيضا أصحابه . وفى صفحة ٢٩٣ يقول عن فرات بن سالم وعمير بن الحباب : فأقبلا حتى أتيا عسكر إبراهيم بن الأشتر وقد أوقد النيران وهو قائم يعبى أصحابه . وفى صفحة ٢٩٤ : فلما فرغ إبراهيم من تعبية أصحابه أتاهما . وجاء فى صفحة ٢٩٤ يقول عن إبراهيم بن الأشتر : فما تحلحل إبراهيم عن موضعه .... فقال عمير لصحابه تراه تحلحل من مكانه .

---

(١٧١) نهض .

جاء فى صفحة ٣١٠ من الأخبار على لسان بشر بن مروان يخاطب عبد الملك بن مروان .

يا أمير المؤمنين أرى أن تجمع اليك أطرافك وتستجيش جنودك وتضم إليك قواصيك . ثم جاء فى صفحة ٣١٠ على لسان أبى حنيفة وبلغ مصعب بن الزبير خروجه فضم إليه أطرافه وجمع إليه قواصيه . وجاء فى صفحة ٢٥٨ عن قتل الحسين وحمل عليه سنان بن أوس النخعى فطعنه فسقط . ونزل إليه حولى بن يزيد الأصبحى ليحرز رأسه فأرعدت يداه فنزل أخوه شبل بن يزيد فاحتز رأسه .

وفى صفحة ٢٨٠ يقول عن قتل قطرى بن الفجاءة واحتز رأسه وأخذه سفيان بن يزيد وفى صفحة ٤٠٠ أن طاهر بن الحسين أخذ محمدا الأمين ومن معه ثم دعا به فى منزله : فاحتز رأسه . وفى صفحة ٣٠٨ يقول عن قتل المختار : فحمل عليه أخوان من بنى حنيفة من أصحاب المهلب فضرباه بالسيف حتى سقط وبادرا إليه فاحتزا رأسه .

وفى صفحة ٣١٣ يقول عن قتل مصعب : فحمل عليه عبد الله بن ظبيان فضربه من ورائه بالسيف ولا يشعر به مصعب فخر صريعا فنزل وأجهز عليه واحتز رأسه .

وجاء فى صفحة ٣٤٤ أن يوسف بن عمر حاسب خالد بن عبد الله فخرج عليه عشرة آلاف درهم فكتب يوسف إلى هشام بذلك فكتب إليه هشام بالبسط عليه .

وفى صفحة ٣٤٧ فلما استخلف الوليد بن يزيد أمر صاحب .... شرطة بأخذ خالد بالمال .... والبسط عليه .

وهذا المعجم اللغوى الذى استعمله أبو حنيفة يلقى ضوءا كشافا على جانب من جوانب العصر الذى عاش فيه أبو حنيفة كما يلقى ضوءا كشافا أيضا على عقل أبى حنيفة ونفسه فهو باستخدامه هذه الألفاظ التى تفوح منها رائحة الدم المسفوك وتوحى بالعنف والقسوة إنما يستخدم ألفاظا تناسب أساليب الحياة العباسية فى الفترة التى عاش فيها أبو حنيفة ، والغريب فى هذه الألفاظ أنها تعاد وتكرر حتى ليظن الإنسان أن أبا حنيفة يحفظ مجموعة من الألفاظ لا يزال كلما حاول تأليف موضوع يضمها بعضها إلى بعض ، يملأ بها قوالبه وكأنها أكواب وقوالب تملأ بشراب معين . وهو شراب سياسى دينى ، فيه جمال لأن فيه تصويرا للبيئة العربية فى ذلك العصر ومن هنا أعجبت بهذا المعجم اللغوى الاجتماعى لأبى حنيفة إذ ما يزال يرن فى سمعى صوت أبى حنيفة من خلال هذه الألفاظ صوت العالم الدينى الذى يرهب سوط الطغاة ، ويرى أنه لا فائدة من المقاومة لأن عاقبتها الفشل ، صوت الإنسان يرى أحبابه يساقون إلى الموت بدون ذنب اقترفوه أو

جناية جنوها ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . صوت الفيلسوف يستسلم أمام سيل السياسة خشية أن يجرفه السيل .

« وكلنا نعرف قوة الألفاظ فهى التى تعبر عن معارفنا الإنسانية وكل ما يدركه المرء أو يحيط به وقد اعتمد عليها الإنسان منذ وجوده الأول حتى عصرنا الحاضر ، واتخذها أساسا له فى بيانه وتعبيره »[(١٧٢)]

ومن هنا نرى أن اللفظ يوحى بمعنى عند الناس فى عصر لارتباطه بحادثة أو نادرة ، وأعتقد أننا فقدنا كثيرا من معانى الجاحظ وقطع الأدب الاجتماعى لأن بعض ألفاظها وجملها كانت توحى بمعان معروفة فلما تقدم الزمن جهلت فبطل سحرها .

إن شئت فاقرأ رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، وهى تدور حول السخرية من أحمد بن عبد الوهاب » تشعر بغموض فى بعض الجمل والإشارات ، وسبب غموضها أنها كانت إشارات إلى أشياء مفهومة فى زمنها ثم انقطع وحيها فغمض معناها .[(١٧٣)]

ومن حسن الحظ أن ألفاظ أبى حنيفة وتعبيراته التى ذكرناها لم تفقد قيمتها حتى اليوم لأنها مرآة للصراع الدائر بين الخير والشر ، والذى سيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إن الإنسان يكتسب اللغة ودلالتها فى تجارب كثيرة من تجارب الحياة ، معها تتشكل الدلالات وتتلون وتظل بظلال متباينة ثم تستقر على حال عندها يتبنى المرء لكل لفظ دلالة معينة هى جزء من قلبة ومن نفسه فتصبح تلك الألفاظ الصوتية كالكائن الحى رباه أهله وتعبوا فى تربيته حتى استقام على عوده وصار محل فخارهم وإعجابهم ، وكذلك الناس مع الألفاظ لا يكادون يرون فيها مجرد رموز صوتية تعبر عن الأشياء والكائنات بل هى فى رأيهم نفس الأشياء والكائنات .

فهذه الألفاظ التى استخدمها أبو حنيفة تعتبر تجسيما لسياسة الإرهاب والبطش وسياسة العنف والقسوة فى عصر أبى حنيفة .

إن كلامنا يؤثر سلاسل خاصة من تلك الأصوات اللغوية كما يؤثر كل منا نواحى معينة من دلالات الألفاظ ونستمسك بهذه وتلك ونذود عنها فى كل نقاش وجدل .

والكلمات تكتسب دلالتها فى كل لغة بعد تجارب كثيرة من الأحداث الاجتماعية التى يمر بها المرء وترتبط الكلمة فى ذهن كل منا بتلك الأحداث ارتباطا وثيقا فتتلون دلالتها وتظلل تلك الدلالة بالتجارب الخاصة للإنسان فى حياته وهى لدى فرد من البيئة

---

(١٧٢) دراسات فى الشعر العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف ص١٤٠ مطبعة دار الهنا بمصر ١٩٥٣ .

(١٧٣) دراسات فى الميثاق : اللغة والدين والقومية للسيد تقى الدين ص٢١ طبع دار الكتاب بمصر ١٩٦٤ .

الاجتماعية توحي بظلال من الدلالة قد لا تخطر فى ذهن آخر من نفس البيئة لأن تجاربهما مع الكلمة مختلفة ونظرة كل منهما متباينة تبعا لتلك الأحداث التى ارتبطت بها فى حياتهما .

إن هناك صلة وثيقة بين ما ينطق به المرء من أصوات وبين ما يدور فى خلده من أفكار وكل أثر خارجي يتأثر به المرء يستلزم النطق ببعض الأصوات ، وهذه نظرية لبعض علماء اللغات وقد بنوها على تلك الظاهرة العامة التى نلحظها فى الأشياء المحسوسة من أن اصطدام أى جسم أو الدق عليه يولد صوتا معينا به يتميز هذا الجسم فى غالب الأحيان .(١٧٤)

ونحن نسوق هذا التبين من ورائه أن هذه التعبيرات إن دلت على نفس أبى حنيفة وبيئته فهى أيضا مناسبة للموضوعات التى سيقت فيها .

ثالثا : يفتتح الروايات والأخبار بكلمة قالوا : قالوا : وفى زمن جم تبلبلت الألسن ص٢ قالوا : ولما خرج هؤلاء تحركت قلوب سائر ولد نوح للخروج من بابل ص٣ .

قالوا : ولما كثرت عاد باليمن تجبروا وعتوا ص٣ .

قالوا : وإن الضحاك الذي تسميه العجم بيوارسف ..... الخ ص٤ ولكنه فى ص٥ أسند الفعل للمفرد : قال : ونشأ فى ذلك الدهر عامر بن شالخ ..

ثم عاد للإسناد لواو الجماعة فقال : قالوا : ولما توفى هود عليه السلام اجتمع ولد ارم بن سام من أقطار الأرض ص٦ .

قالوا : ولما انقرضت عاد من أرض اليمن وبادوا ... أقطعها نمروذ بن عمه قحطان بن عامر وهكذا فى سائر الكتاب .

وفى ص١٢ فى حديثه عن موسى قال : ونزل على شعيب فآجره نفسه ثمانى حجج كما ذكره الله عز وجل ثناؤه فى الكتاب الناطق .

رابعا : يعتبر تصويره للحوادث التى وقعت بين هرمزد وبهرام من أمتع القصص التاريخى ذى المفاجئات المثيرة ومن أصدق العرض لما عليه نفس الإنسان من النزوع إلى الأثرة والذاتية .(١٧٥)

ويمتاز أسلوب أبى حنيفة الدينورى فى هذا الكتاب بأنه أسلوب منطقى يخاطب العقل قبل أن يثير العاطفة ويستهوى القارئ فيدفعه إلى قراءة الكتاب من أوله إلى آخره غير عجل ولا ضجر فى لفظ سهل وجرس موسيقى متلاحق وعبارة متصلة أخاذه نسجها

---

(١٧٤) على محمود طه للسيد تقى الدين ص٣٥٧-٣٥٩ طبع المطبعة الاميرية ١٩٦٤ .

(١٧٥) عبد المنعم عامر : مقدمة الاخبار الطوال صفحة ث .

الدينورى نسجا فريدا . ولغة أبى حنيفة فى كتابه ليست عملية ولا فلسفية ولا تاريخية ولكنها نثر فيه كثير من الفن وفيه ميل إلى إحداث اللذة عند القارئ فوق العناية بتأدية الفكرة .

وأنه بالرغم من أن المعارف العلمية البحته كانت تشغل بال الدينورى أكثر مما يشغله غيرها إلا أنه استطاع أن يكتسب نبوغا ممتازا فى تصوير الحوادث التاريخية بأسلوب عربى مبين وطراز فريد من المنهج التأليفى ، فأبو حنيفة لا يذكر التاريخ مؤقتا عاما بعد عام كما يفعل مؤرخو العرب وإنما يحكى الحوادث والأحداث من بدئها إلى ما صارت إليه ويتبعها بما يلزم ذكره من ملابساتها مما جعل كتابه مجموعة أدبية من القصص التاريخى .

وإن كانت لنا مآخذ على بعض قصص أبى حنيفة ففى صفحة ١٦ قال عن الملك الفند ذى الأذعار : « فملكت اليمن ابنه ذى جيشان الفند ذا الأذعار وإنما لقب ذا الأذعار لرعب الناس منه فلم تكن له همة إلا الطلب بثأر أبيه ، ثم ترك موضوع ذى الأذعار وتحدث عن « هجرة ربيعة إلى اليمامة والبحرين » وفى آخرها قال : وكان داود عليه السلام فى عصر ذى الأذعار . ثم تحدث عن داود الملك . وفى آخر حديثه عنه قال : وان ذا الأذعار خرج فى جنود يطلب بثأر أبيه ذى جيشان الذى صار إلى أرض فارس فحارب كيخسور فقتل فى معركة فمات ذو الأذعار فى طريقة قبل أن يدرك ما أراد .

وكنت أفضل أن يفرغ من حديثه عن ذى الأذعار مرة واحدة وألا يلجأ إلى هذا الاستطراد لأقل سبب فإنه يجعل داخل الموضوع الواحد موضوعات متعددة .

جاء فى صفحة ٦٣ تحت عنوان (الحبشان وهدم الكعبة) قالوا : ولما أهلك الله أبرهه خلفه فى ملكه بأرض اليمن ابنه يكسوم بن أبرهة فكان شراً من أبيه وأخبث سيرة ، فلبث على اليمن تسع عشرة سنة ثم مات فملك من بعده أخوه مسروق وكان شراً من أخيه وأخبث سيرة .

وأنت ترى أنه لا علاقة مطلقا بين العنوان وبين ما يتدرج تحته من أفكار مع أن الأفكار الجزئية تنمية للفكرة العامة وذات صلة وثيقة بها .

وجاء فى صفحة ٦٥ تحت عنوان (الديانة المزدكية) قصة صراع قباذ مع أخيه وقومه على الملك بسبب اعتناق قباذ للديانة المزدكية . وكنت أفضل أن تسمى هذه القصة باسم « فى سبيل الملك » فنحن نقرأ القصة إلى نهايتها فلا نعرف شيئا عن المزدكية .

صحيح أن المزدكية سبب هذا الصراع ولكن العنوان كما ذكرنا سابقا يجب أن يكون ذا صلة وثيقة بالأفكار الجزئية .

ومهما يكن من شيء فإن كتاب الأخبار الطوال يجمع أهم الخصائص الفنية لأدب أبي حنيفة وأسلوبه فهو يميل إلى الترسل فلا سجع ولا محسنات لأن طبيعة العصر الذى نشأ فيه أبو حنيفة الدينورى لم تكن تسمح بالوقوف عند التزين اللفظى .

ويبدو فى أسلوبه أثر الثقافة الواسعة والميل إلى الاستدلال المنطقى والخطابى . كما يشيع فى هذا الأسلوب الاستطراد والتكرار والترادف والاعتماد على التهويل وتنوع الأساليب وهو حين يعبر عن أفكاره يعبر عنها فى حزم وثقة لاعتداده بمكانته كما أن طابع القصة التاريخية يغلب على الكتاب .

كما أن هذا الكتاب يرشدنا إلى أهم العوامل المؤثرة فى حياة أبى حنيفة الثقافية والأدبية ، فالتاريخ والرواية والشعر والأمثال والأسجاع والخطب والقرآن والحديث ، والاتجاهات الدينية والفلسفية والسياسية والاجتماعية كل هذه العوامل كان لها أبلغ الأثر فى ثقافة أبى حنيفة وأدبه بل وفى حياته أيضا .

ويبدو أن تأثر أبى حنيفة بالقرآن لم يكن من حيث الأسلوب فقط ، بل تأثر أيضا بفن القصة فى القرآن الكريم فبعض تعبيراته مقتبس من القرآن مثل : فلما وضعت الحرب أوزارها ،[١٧٦] فلما جن عليه الليل ، فآجره نفسه ثمانى حجج ، وقد أشرنا الى هذه التعبيرات فيما سبق واستمع الى أبى حنيفة وهو يشير إلى بعض قصص القرآن ويقول عن القرآن إنه أصدق الحديث وإنه الكتاب الناطق .

جاء فى كتاب الأخبار[١٧٧] الطوال لما أرسل الله هوداً إلى شداد بن عمليق لم يحفل به فأهلكه ومن كفر معه من عاد كما قصه الله تبارك وتعالى فى كتابه وهو أصدق الحديث ثم قال بعد ذلك عن ثمود إنها قفت ما كانت عليه عاد من الكفر بالله والعتو عليه فأرسل الله تعالى إليهم صالحا رسولا ، فكان من أشرفهم منصبا وأكرمهم حسبا فدعاهم إلى توحيد الله فلم يقبلوا ولم يرعوا فأهلكهم الله عز وجل كما قص فى كتابه وهو أصدق الحديث .

وجاء فى ص١٢ من كتاب الأخبار الطوال : فى حديثه عن موسى ونزل على شعيب فآجره نفسه ثمانى حجج ، كما ذكره الله جل ثناؤه فى الكتاب الناطق .

وفى بعض تعبيرات وأساليب أبى حنيفة ضعف وركاكة ، وهذا الضعف ينشأ أحيانا من الفصل بين الصفة والموصوف ومثال ذلك ما جاء فى صفحة ٣٧٥ حينما كان أبو

---

(١٧٦) كتاب الأخبار الطوال ص٢٩٥ .

(١٧٧) كتاب الأخبار الطوال ص٥ .

(١٧٨) كتاب الأخبار الطوال ص٧ .

حنيفة يتحدث عن الإمام أبى العباس يقول أبو حنيفة : « ثم إن الإمام سار من الحيرة فى جموعه حتى أتى الأنبار فاستطابها فابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسه وجموعه »

فنراه فصل بين الصفة وهى عظيمة وبين الموصوف وهو مدينة . وقد ينشأ الضعف من عدم دقة أبى حنيفة أحيانا فى رواية الأخبار والأنساب ومن عدم وضوح مرجع الضمير ودليلنا على ذلك ما جاء فى الأخبار الطوال .

فقد جاء فى صفحة ١ ما يلى : فكان أول من وطد السلطان وأقام منار الملك بعد جم ابن ويرنجهان بن إيران وهو أرفخشذ بن سام بن نوح .

وفى صفحة ٢ يقول : وقام بالأمر بعده ، أى بعد سام ابنه شالخ فلما حضرته الوفاة أسند الأمر الى ابن أخيه جم بن ويرنجهان ابن أرفحشذ فثبت أساس الملك ووطد أركانه وبنى معالمه .

وفى صفحة٣ قال : وكان لسام بن نوح خمسة بنين إرم وكان أكبرهم سنا وأرفخشذ وعالم وأليفر والأسور .

ثم يقول فى صفحة ٥٠ ونشأ فى ذلك الدهر عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح .

ولنا ملاحظات على هذه الأخبار :

أولا : فى صفحة خمسة ذكر أن أبناء سام أرفخشذ وأن أرفخشذ خلف شالخ .

ثانيا : فى صفحة٢ ذكر أن أرفخشذ خلف ولدا آخر هو ويرنجهان ، ومعنى هذا أن لأرفخشذ ولدين هما : شالخ وويرنجهان .

وفى صفحة ٣ حينما ذكر أبناء سام لم يذكر من بينهم شالخ مع أنه فى صفحة٢ ذكر أن شالخ بن سام ، فلعله أراد بالابن هنا الحفيد وإذن كان يجب عليه أن يوضح ذلك وأن يكون دقيقا فى تعبيراته فمثل هذه المواقف تتطلب الدقة .

ومن قبل جاء فى صفحة١ : جم بن ويرنجهان بن إيران وهو أرفخشذ بن سام بن نوح . والمعنى هنا وبالإضافة إلى ما سبق غير مستقيم ، فما مرجع الضمير فى قوله : وهو أرفخشذ ؟ هل يرجع إلى جم ؟ إن جم بناء على كلام أبى حنيفة حفيد أرفخشذ فهل يرجع الضمير إلى ويرنجهان ؟ إن ويرنجهان بناء على كلام أبى حيفة ابن افخشذ وليس هو أرفخشذ فمرجع الضمير غامض ونتج عن ذلك عموض المعنى واضطرابه .

هذه أبرز النقاط فيما يتعلق بقضية الشكل الفنى فى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة أما فيما يتعلق بقضية المضمون فقد سبق أن قسمنا الكتاب إلى ثلاثة أقسام رئيسية .

ونود هنا أن نتناول قضايا جزئية متفرعة عن الأقسام الثلاثة الرئيسية السابقة ، فمن

هذه القضايا : علاقة العرب بالعجم واستعانة العرب بالأجانب والقومية العربية والتربية والتعليم والمرأة وما إلى ذلك .

فالمختار يقرب العجم ويبعد العرب ، فيستاء العرب من ذلك ويعاتبونه ولكنه يرد عليهم بأنهم متمردون وأن العجم أطوع منهم ، فيرى العرب فى الرجل طالبا من طلاب الدنيا ويرون أنه يناقض نفسه حين يزعم نصرة بنى هشام ثم يبعد العرب فتجتمع القبائل على حربه ، ففى صفحة ٢٩٩ يقول أبو حنيفة عن المختار : وقرب أبناء العجم وفرض لهم ولأولادهم الأعطيات وقرب مجالستهم وباعد العرب وأقصاهم وحرمهم فغضبوا لذلك .... واجتمع أشرافهم فدخلوا عليه فعاتبوه فقال : لا يبعد الله غيركم أكرمتكم فشمختم بآنافكم ، ووليتكم فكسرتم الخراج ، وهؤلاء العجم أطوع لى منكم وأوفى وأسرع إلى ما أريد قالوا : قد تت العرب بعضها إلى بعض وقالوا : هذا كذاب يزعم أنه يوالى بنى هاشم وإنما هو طالب دنيا .

فاجتمعت القبائل على محاربته . فالمختار هنا قائد حربى يهمه أولا وقبل كل شئ أن يكون جنوده مطيعين له لا يعبثون بالأموال لأنها عصب الدولة فإن وجدت هذه الصفات فى الأعاجم قربهم إلى مجلسه واستعان بهم وإن اتصف العرب بغير هذه الصفات أبعدهم وحرمهم وهذا ما فعله المختار ، ولهذا أيضا غضب عليه العرب واجتمعت القبائل على محاربته والواقع أن هذه السنة التى استنها بنو العباس وأشياعهم سنة الاستعانة بالأجانب على العرب وطدت ملكهم أول الأمر ولكنها كانت القاضية على ملك العرب وخلافتهم آخر الأمر .

وقد كان من العرب من يدرك خطورة الاستعانة بالأجنبى المشرك ، ويرى أنه عمل غير قومى يبعث على الكراهية ويفضل الاستعانة بالعرب المسلمين وبأهل مصر بالذات لقوتهم الاقتصادية والعسكرية .

كل هذه المعانى والقيم القومية التى تبرز اليوم على مسرح الحوادث والتى نراها تعيش بيننا ، كل هذه المعانى جاءت فى كتاب الأخبار الطوال .

فقد جاء فى صفحة ٣٦٥ : قال الهيثم : فحدثنى إسماعيل بن عبد الله القسرى أخو خالد بن عبد الله قال : دعانى مروان عند وصوله إلى حران وكنت أخص الناس عنده ، فقال لى : يا أبا هاشم ، وما كنّانى قبل ذلك . فقلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : ترى ما قد نزل من الأمر وأنت الموثوق برأيه فما ترى ؟

قلت : وعلام أجمعت يا أمير المؤمنين ؟

قال : أجمعت على أن أرتحل بأهلى وولدى وخاصة أهل بيتى ومن اتبعنى من

أصحابى حتى أقطع الدرب وأصير إلى ملك الروم فاستوثق بالأمان ولا يزال يأتيني الخائف من أهل بيتى وجنودى حتى يكثف أمرى وأصيب قوة محاربة عدوى .

قال إسماعيل : وذلك والله كان الرأى عندى غير أنى ذكرت سوءأثره فى قومى ومعاداته إياهم وتحامله عليهم فصرفت الرأى عنه .

قلت له : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تحكم أمة الشرك فى نفسك وحرمك لأن الروم لاوفاء لهم .

قال : فما الرأى عندك ؟

قلت : الرأى أن تقطع الفرات وتستقرى مدن الشام مدينة مدينة ، فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء ، وتضمهم جميعا إليك وتسير حتى تنزل ببلاد مصر فهى أكثر أهل الأرض مالا وخيلا ورجالا فتجعل الشام أمامك وأفريقية خلفك فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن تكن الأخرى اتسع لك المهرب نحو أفريقية فإنها أرض واسعة نائية منفردة .

قال : صدقت لعمرى وهو الرأى .

ولا شك أننا هنا أمام خليفة قومى حريص على القومية العربية ولكن الأحداث غلبته وكانت أسرع منه ولم يلتف حوله الأنصار فى الوقت المناسب وكان أعداؤه يزحفون فى قوة ومنعة وكانت لهم الغلبة فطوى العلم الأموى ونشر العلم العباسى ، وحاول بعض القوميين العرب إنقاذ الموقف ولكن بدون جدوى ، فقد حاول نصر بن سيار أن يستعطف فريقا من العرب ويضمهم إليه ودعاهم إلى ترك ما بينهم من خلاف ، وذكرهم بالعروبة والإسلام فلم يستجيبوا له ولم يحفلوا به . هذا ولقد عرض أبو حنيفة لهذه القضية فى كتابه الأخبار الطوال .

فنى صفحة ٣٥٩ : قالوا وبلغ أبا مسلم قتل الإمام إبراهيم بن محمد وهرب أبى العباس وأبى جعفر من الشام واختفاؤهما بالكوفة عند أبى سلمة فسار من خراسان حتى قدم الكوفة ودخل عليهما فعزاهما بأخيهما إبراهيم الإمام ، ثم قال لأبى العباس مُدَّ يدك أبايعك فمد يده فبايعه . ثم سار إلى مكة ثم انصرف إليهما . فتقدم إليه أبو العباس ألا يدع بخراسان عربيا لا يدخل فى أمره إلا ضرب عنقه .

وجاء فى صفحة ٣٦١ : فلما بلغ نصر بن سيار ظهور أبى مسلم سقط فى يديه وخاف على نفسه ولم يأمن أن ينحاز الكرمانى فى اليمانية والربعية إليهم فيكون فى ذلك اصطلامه ، فأراد أن يستعطف من كان مع الكرمانى من ربيعة فكتب إليهم وكانوا جميعا بمرو :

أبلـــغ ربيعـــة فى مـــرو وأخوتها ... أن يغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
مـابـالكم تلحقون الحرب بينكـم ... كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عـــدوا قـــد أظلكـــم ... ممن تـــأشب لادين ولا حسب
ليسوا إلى عـرب منـا فنعـرفهـم ... ولا صميم الموالى إن هـــم نسبوا
قومـا يـدينون دنيـا مـا سمعت بـه ... عن الـرسول ولا جـاءت به الكتب
فمن يكن سائلى عن أصـل دينهـم ... فـإن دينهـم أن تقتـل العـرب

فلم تحفل ربيعة بهذه الأبيات :

وأما عن التربية والتعليم فإن أبا حنيفة يقدم لنا نموذجين أحدهما أموى والآخر عباسى .

ففى النموذج الأول يرسم سليمان بن عبد الملك لمؤدب ولده محمدا طريق تربيته ويضع له المنهج التربوى الذى يرى أنه يقوم ابنه .

أما المنهج النظرى فتعليم القرآن ، والأشعار ، وعلم الفرائض ، والسنن .

وأما المنهج العلمى فيتمثل فى النقاط الآتية :

١ - المراقبة الدائمة .
٢ - عدم العقوبة أمام الأصحاب .
٣ - حسن لقاء الناس ومبادلتهم التحية بأحسن منها .
٤ - كرم الضيافة
٥ - طلاقة الوجه وكظم الغيظ .
٦ - التثبت فى النطق والوفاء بالعهد .
٧ - تنكب الكذب .
٨ - ركوب الخيل مع حسن اختيار الفرس .

ولم ينس سليمان أن يذكّر مؤدب ولده بأن ولده هذا قرة عينه وثمرة قلبه استدراراً لرفق المعلم ورأفته مما يدل على أن المعلمين كانوا قساة يتشددون فى تربية التلاميذ حتى ولو كان هؤلاء التلاميذ أمراء أبناء الخليفة ، وهذه الظاهرة العقوبة والتشدد تتضح أكثر فى النموذج العباسى وتدل على أن المعلمين كانوا يرونها من أنجح الوسائل فى التربية ولا سيما مع أولئك الذين يعدون للمناصب القيادية .

فقد كلف الرشيد معلما بتربية ولديه محمدا وعبد الله ، وكان هذا المعلم يقسو عليهما ولاسيما على محمد وعلمت أم محمد بذلك فبعثت إلى المعلم ترجوه أن يرفق بابنها فرفض المعلم

رجاءها بحجة أن محمدا مرشح للخلافة فيجب التشدد عليه فى التربية وإلا اعتبر ترك التشدد تقصيرا .

هـذا وقـد عـرض أبـوحـنيفة هذين النموذجين فى التربية والتعليم : النموذج الأموى والنموذج العباسى ، وهما يلقيان ضوءا كشافا على هذا الجانب الحيوى : جانب التربية والتعليم عند العرب . وإليك ماجاء فى كتاب الأخبار الطوال خاصا بهذين النموذجين :

جاء فى صفحة ٣٣٠ : وذكر عن الكلبى أنه قال : بعث إلى سليمان بن عبد الملك فدخلت عليه وقد انتفخ سحرى فسلّمت عليه بالخلافة فردّ علىّ السلام ثم أومأ إلىّ فجلست فسكت عنى حتى إذا سكن جأشى قال لى : يا كلبى إن ابنى محمدا قرة عينى وثمرة قلبى ، وقد رجوت أن يبلغ الله به أفضل ما بلغ رجلا من أهل بيته ، وقد ولّيتك تأديبه فعلّمه القرآن وروه الأشعار فإن الشعر ديوان العرب وفهّمه أيام الناس وخذه بعلم الفرائض وفهّمه السنن ولا تفتر عنه ليلا ونهارا ، فإذا أخطأ بكلمة أو زل بحرف أو هفا يقول فلا تؤنبه بين يدى جلسائه لئلا تمحكه(١٨٠) ولكن إذا خلا مجلسك . وإذا دخل عليه الناس للتعليم فخذه بألطافهم وإظهار برهم وإذا حيوه فليحيهم بأحسن منها وأطيبا لمن حضر بمائدتكما الطعام ، واجمله على طلاقة الوجه وحسن البشر وكظم الغيظ وقلة القذر والتثبت فى المنطق والوفاء بالعهد وتنّكب الكذب ولا يركبن فرسا محذوفا(١٨١) ولا مهلويا(١٨٢) ولا يركبن بسرج صغير فتبدو أليتاه منه .

قال : فلم يلبث سليمان بعد ذلك إلا قليلا حتى مات .

وجاء فى صفحة ٣٨٧ : قال على بن حمزة الكسائى : ولأنى الرشيد تأديب محمد وعبد الله فكنت أشدد عليهما فى الأدب وآخذهما به أخذا شديدا وبخاصة محمدا فأتتنى ذات يوم خالصة جارية أم جعفر .

فقالت : يا كسائى إن السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتى إليك أن ترفق بابنى محمد فإنه ثمرة فؤادى وقرة عينى وأنا أرق عليه رقة شديدة .

فقلت لخالصة : إن محمدا مرشح للخلافة بعد أبيه ولا يجوز التفريط فى تأديبه .

هذا علاوة على أن أبا حنيفة يقدم إلينا نموذجا تربويا خاصا كان يتخذه بعض ملوك الفرس لتربية أبنائهم ، وهذا النموذج يدل على حسن ظن بعض ملوك الفرس بالعرب

---

(١٧٩) السحر الرئة وانتفخ سحره عدا طوره وجاوز قدره .

(١٨٠) حتى لا تغضبه . والمحك : اللجج .

(١٨١) الفرس المحذوقة التى تحرك جنبيها فى مشيها .

(١٨٢) الفرس المهلوب التى تتابع الجرى .

لدرجة أنهم يأتمنونهم على تربية أبنائهم . ويدل كذلك على أن العرب معلّمون مهرة ، وفى هذا النموذج يصرح أبو حنيفة بأن اختلاط الثقافات يؤدى إلى نتائج محمودة ، وأن الإنسان الذى يبرع فى أدبين مختلفين ينشأ نشأ محمودا ويكون عاقلا لبيبا . وإليك ما يقوله أبو حنيفة حول تربية بهرام بن يزدجرد :

فقام بالملك بعده ، وهو يزدجرد الذى يلقب بالأثيم ، وكان غلقا سيئ الخلق لا يكافئ على حسن بلاء ، وكان منانا ، لا يتجاوز عن زلة ، وإن صغرت ، ويعاقب على الصغيرة كما يعاقب على الكبيرة وما كان أحد يقدر على كلامه لفظاظته وغلظته إلا أن وزراءه كانوا أخيارا مترفقين متعاونين .

فولد له بهرام الذى يقال له بهرام جور فدفعه إلى المنذر أبى النعمان ليحضه فسار المنذر ببهرام إلى الحيرة - وكانت داره واختاز له المنذر المراضع ، وأحسن حضانته ، فلما بلغ التأديب بعث إليه أبوه بمودبين من الفرس ، وأحضره المنذر مؤدبين من العرب فأحكم الأدبين وكمل فيهما ، ونشأ نشأ محمودا ، وبرع فى الأدب والفروسية وخرج عاقلا لبيبا جميلا بهيا ، ومكّنه المنذر من اللهو والقيان فكان يركب النجائب وتركب وراء الصناجات يلهينه ويطربنه ، وتجرد لطرد الوحش على تلك الحال ، فضرب به المثل فتوة ورخاء بال(١٨٣) .

أما قضية المرأة فيبدو أن أبا حنيفة كان يكره المرأة وإلا لما قال عنها :

ومن النساء السخافة وكفران النعم(١٨٤) .

ولعل كرهه للمرأة قد انحدر إليه من أصله الفارسى ، فقد كان الفرس يكرهون المرأة ، ويؤيد ذلك ما قاله أبو حنيفة نفسه : قالوا فلما نظرت الفرس إلى العرب قد حدقوا بهم وبثوا الغارات فى أرضهم قالوا فيما بينهم إنما أتينا من تملك النساء علينا(١٨٥) .

هذا وقد كان التنجيم يشكل ظاهرة اجتماعية فى العصر العباسى وقد سجل أبو حنيفة فى كتابه ما يدل على ذلك :

فقد جاء فى صفحة ٣٨٩ : أثناء حديث جرى بين الأصمعى والرشيد حول الأمين والمأمون ، قال الرشيد : كيف بكم إذا ظهر تعاديهما وبدا تباغضهما ووقع بأسهما بينهما حتى تسفك الدماء ويود كثير من الأحياء أنهم كانوا موتى ؟

---

(١٨٣) الاخبار الطوال ص ٥١ ٥٢

(١٨٤) الاخبار الطوال ص ٩٩ .

(١٨٥) الأخبار الطوال ص ١١٩ .

قال الأصمعى : يا أمير المؤمنين هذا شئ قضى به المنجمون عند مولدهما أو شئ آثرته العلماء فى أمرهما ؟

قال الرشيد : بل شئ آثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء فى أمرهما .

وجاء فى صفحة ٣٨٠ : وقد كان أبو مسلم يقول : إن المنجمين أخبرونى أن لا أقتل إلا بالروم .

هذا وقد لفت نظرى فى الكتاب أيضا حادثان متباعدان زمنا إذا أن أحدهما أموى والآخر عباسى . فأما الحادث الأموى فإن مؤداه أن عمرو بن سعيد بن العباس دخل على عبد الملك يوما ، وقد استعد عبد الملك للغدر به وفعلا ذبحه فثارت ثائرة أصحاب عمرو ولكن ثائرتهم خمدت حينما أمر عبد الملك بأن يلقى على أصحاب عمرو خمسمائة صرة فى كل صرةألفا درهم ومع هذه الصرر رأس عمرو ، فما كان من أصحاب عمرو إلا أن تركوا الرأس ملقى وأخذوا المال وتفرقوا .

هذا حادث أموى يشابهه كثيرا حادث عباسى فحينما قتل أبو جعفر قائده أبا مسلم الخرسانى تجمع جنود أبى مسلم وسلوا السيوف ، فما كان من أبى جعفر إلا أن أمر بأن يلقى إلى الجنود ألف صرة فى كل صرة ثلاثة آلاف درهم ومع تلك الصرر رأس أبى مسلم فأخذ كل جندى صرة وترك الرأس مقذوفا . وإليك ما يقوله أبو حنيفة فى ذلك :

فقد جاء فى صفحة ٢٨٩ تحت عنوان : (قتل عمرو بن سعيد بن العاص) . ثم إن عمرا دخل على عبد الملك يوما وقد استعد عبد الملك للغدر به ، فأمر به فأخذ فاضجع وذبح ولف فى بساط .

وأحس أصحاب عمرو بذلك وهم بالباب فتنادوا فأخذ عبد الملك خمسمائة صرّة قد هيئت وجعل فى كل صرة ألفا درهم فأمر بها فأصعدت إلى أعلى القصر فألقيت إلى أصحاب عمرو بن سعيد مع رأس عمرو فترك أصحابه الرأس ملقى وأخذوا المال وتفرقوا .

فلما أصبح عبد الملك أخذ من أصحاب عمرو ومواليه خمسين رجلا فضرب أعناقهم وهرب الباقون فلحقوا بعبد الله بن الزبير .

وجاء فى صفحة ٣٨٢ : تحت عنوان (قتل أبى مسلم الخراسانى) وقد تم القتل بمؤامرة أيضا أن عيسى بن على دخل على أبى جعفر بعد قتل أبى مسلم يسأل عن أبى مسلم فأخبره بقتله .

قال عيسى : أقتلته ؟ فكيف تصنع بجنوده ؟ وهؤلاء قد جعلوه ربا ؟

فأمر أبو جعفر فهيئت ألف صرة فى كل صرة ثلاثة آلاف درهم . وأحس أصحاب أبى مسلم بالأمر فصاحوا وسلوا السيوف ، فأمر أبو جعفر بتلك الصرر فقذفت إليهم مع رأس أبى مسلم وصعد عيسى بن علىّ إلى أعلى القصر وقال : يا أهل خراسان إنما كان أبو مسلم عبدا من عبيد أمير المؤمنين وجد عليه فقتله فليفرخ روعكم فإن أمير المؤمنين بالغ آمالكم .

فترحل القوم وتناولوا تلك الصرر كل واحد صرة وترك الرأس مقذوفا ثم إن أبا جعفر وضع العطاء لأصحاب أبى مسلم .

وبعد : فهل كان جنود عمرو وجنود أبى مسلم مرتزقة ؟ يسعون وراء المال وحسب فإن ظفروا به ولو بقطع رأس قائدهم رضوا وانصرفوا وتركو الرأس ملقى على الأرض ؟ ويلفت النظر أن تصرف عبد الملك وأبى جعفر فى إلقاء الصرر يكاد يكون واحدا ، فهل كان ذلك الإجراء قانونا عربيا ؟

أم إن احدى القصتين نسجت على غرار الأخرى ؟

أمور ليس ما يمنع من وقوع واحدة منها .

وتحدث أبو حنيفة عن اختلاف الألسن فذكر أنه تم فى زمان جسم بن ويرنجهتان حيث تبلبلت الألسن ببابل ، وذلك أن ولد نوح كثروا بها فشحنت بهم . وكان كلام الجميع السريانية وهى لغة نوح ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم وتغيرت ألفاظهم وماج بعضهم فى بعض فتكلمت كل فرقة منهم باللسان الذى عليه أعقابهم إلى اليوم فخرجوا من أرض بابل وتفرقت كل فرقة جهة .

وأبو حنيفة حين يذكر هذا الرأى لاينسبه لنفسه وإنما ينسبه لغيره من العلماء فيذكر أنهم : قالوا ... الخ

ولكن يبدو أنه يرى هذا الرأى وإلا لانتقده ، وهذا الرأى فيه كثير من الغرابة فهو يذكر أن الألسن كانت واحدة ثم تغيرت ولكنه لم يذكر سبب الاختلاف فالناس أصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم وحسب أما لماذا ؟ فلم يذكر أبو حنيفة ذلك ؟

ثم غرابة ثانية هى أن الاختلاف حدث قبل هجرة أولاد نوح وتفرقهم فى بقاع الأرض مع أن علماء اللغات يذكرون من أسباب اختلاف الألسن توزع الجنس البشرى وما يلزمه من اختلاف البيئات ، ذلك أن المتكلمين بأى لغة يتفاوتون كثرة وقلة وأنه إذا كتب لإحدى اللغات أن تنتشر فى أنحاء المعمورة فذلك يعطينا صورة مؤكدة عن أن المتكلمين بها كانوا فى بدء أمرهم متوطنين بقعة واحدة من الأرض استظلوا بسمائها فترة

(١٨٦) الأخبار الطوال ص ٢

من الزمن فلما عجزت هذه البقعة عن الوفاء بحياتهم الهادئة وعيشتهم الرغدة تفرقوا فى أنحاء المعمورة انتجاعا للحياة التى ينشدونها فينجم عن هذا التفرق اختلاف البيئات ولا شك أن توزع السكان وما يلزمه من إختلاف البيئات لذو أثر كبير فى تنوع اللهجات واختلاف الألسنة [١٨٧] .

ولكن يبدو أن أبا حنيفة والعلماء الذين روى عنهم كانوا يرون أن اختلاف الألسن يرجع إلى حادث برج بابل الذى هم البابليون ببنائه ليصعدوا بواسطته إلى السماء فغضب الرب عليهم وصدع هذا البناء ونجم عن هذا التصدع بلبلة الألسنة لشدة هول هذا الحادث .

وهذا قول واضح البطلان وليس له سند من الواقع لأن الألسنة وإن نالها تأثر من جراء هذا الحادث الجلل على رأيهم فما الذى يجعل الألسنة تتبلبل على اختلاف الأعصر وتفاوت الأمصار [١٨٩] .

ويقدم لنا أبو حنيفة فى كتابه طريقة نقدية لعلها سبقت أوانها ذلك أنه حين يسوق نصوصا أدبيا يسوقها فى الجو الاجتماعى والسياسى الذى قبلت فيه فيذكر الملابسات التاريخية التى اكتنفت النص والتى أحاطت بمولده . والذى لا شك فيه أن هذه الطريقة تيسر دراسة النص . وتعين على فهمه وتذوقه كما تضع لبنة جديدة فى النقد الأدبى عند العرب وتقدم لنا معارف عن عادات العرب القدامى فأحد ملوك طسم يأمر ألا تزف امرأة من جديس إلى زوجها إلا بدءوه بها . ولكن امرأة عربية حرة تغضب وتثور على هذا الطغيان وتحرض قومها على هذا الملك فيثورون عليه ويقتلونه . يقدم لنا أبو حنيفة كل هذه المعارف حين يعرضها علينا فى أسلوب قصة فيقول [١٩٠] :

ولما مات أفريقيس بن أبرهة ملك ابنه ذو جيشان بن أفريقيس فتجهز لغزو كيخسرو ملك فارس وجمع جنوده وسار حتى نزل بنجران [١٩١] وكان بعمان والبحرين واليمامة بشر كثير من ولد طسم وجديس ابنى إرم بن سام وكانوا من العرب العاربة وكان ملكهم رجلا من طسم يسمى عمليقا وكان جائرا ظلوما وبلغ من عتوه أن أمر ألا تزف امرأة من جديس إلى زوجها إلا بدءوه بها فمكثوا بذلك دهرا طويلا .

---

(١٨٧) فقه اللغة لابراهيم نجا ص٥ مطبعة الأزهر ١٩٥٥ .

(١٨٨) الاخبار الطوال ص ٣ .

(١٨٩) فقه اللغة لإبراهيم نجا ص ٧

(١٩٠) الأخبار الطوال ص ١٤ - ١٦ .

(١٩١) موضع بالبحرين .

وأن رجلا من جديس تزوج عفيرة بنت غفار أخت الأسود بن غفار عظيم جديس وسيدها ، فلما أرادوا إهداءها أدخلت على الملك فأنتزعها عنها ثم خلى سبيلها فخرجت إلى قومها فى دمائها رافعة ثوبها عن عورتها وهى تقول :

أيصلح ما يؤتى إلى فتياتكم ... وأنتم رجال ثورة عدد النمل
فلو أننا كنا رجالا وكنتم ... نساء لكنا لا نقر على الذل
فبعدا لبعل ليس فيه حمية ... ويختال بمشى مشية الرجل الفحل

فحميت من ذلك جديس فاغتالوا عمليقا فقتلوه على غرة وأمامهم الأسود بن غفار يرتجز ويقول :

يا ليلة مبا ليلة العروس ... جاءت تمشى بدم جميس
يا طسم مالا قيت من جنديس ... إحدى لياليك فهيس هيس(١٩٢)

فأبادوا طسما فلم يفلت منهم إلا رجل يقال له رباح بن مرّة ، فإنه مضى على وجهه حتى أتى ذا جيشان وهو معسكر فى جنده بنجران فمثل بين يديه ثم قال :

إنك لم تسمع بيوم ولا ترى ... كيوم أباد الحى طمسا به المكر
أتيناهم فى أزرنا ونعالنا ... علينا الملاء الحمر والحلل الخضر
فصرنا لحوما بالعراء وطعمة ... تنازعها ذيب الوشيمة(١٩٣) والنمر
فدونك قوما ليس لله فيهم ... ولا لهم منه حجاب ولا ستر

فقال الملك : كم بيننا وبينهم ؟ قال ثلاث .

فقال من حضره : كذب أيها الملك بينك وبين القوم عشرون ليلة فأمر جنوده بالسير نحو اليمامة ففى مسيرهم وقصة الزرقاء(١٩٤) يقول الأعشى بعد ذلك بدهر طويل :

قالت أرى رجلا فى كفه كتف ... أو يخصف النعل لهفى أية صنعا
فكذبوها بما قالت فصبحهم ... ذوآل جيشان يزجى الموت والشرعا
فاستنزلوا أهل جو من مساكنهم ... وهدموا مشرف البنيان فاتضعا

فأم جديسا وأستأصلهم ثم رحل نحو العراق يريد كيخسرو وزحف إليه كيخسرو فالتقوا فقتل ذو جيشان وانفضت جموعه . وبقيت اليمامة والبحرين بعد قتل جديس ليس بها أحد حتى هجم عبد العرى بن عمرو والعنزى على اليمامة فرأى بلاداً واسعة

---

(١٩٢) الدم الجميس : الدم المتجمد – عفيس هيس : كلمتان تقالان للحض عند إمكان الأمر والاغراء به .

(١٩٣) الوشيمة : الشر والعداوة والضراوة .

(١٩٤) امرأة من قبيلة جديس كانت تبصر الشئ من مسيرة ثلاثة أيام وقد حذرت قومها من هجوم حمير فلم يصدقوها حتى صبحهم جيشان فاجتاحهم وأخذ الزرقاء فشق عينيها .

ونخلا وقصوراً وإذا هم بشيخ قاعد تحت نخل فقال له عبد العزى : من أنت أيها الشيخ ؟

قال : أنا من هزان . الضراغمة الأقران . غزانا ذو جيشان . الملك القرم (١٩٥) اليمان . فأعمل فيها المران (٢) . فلم يبق بهذا المكان غيرى وإنى لفان فقال عبد العزى : ومَنْ هزان ؟ قال : هزان بن طسم أخو النهى والحزم وابن الشجاع القرم .

فأقام عبد العزى أياما ثم تبرم بمكانه فمضى سائرا حتى سقط إلى البحرين ، فرأى بلادا أوسع من اليمامة وبها من وقع إليها من ولد كهلان حين هربوا من سيل العرم (١٩٧) فأقام معهم .

وسنوفى هذه الناحية حقها حين نعرض للنقد عند أبى حنيفة ، ويظهر فى هذا الكتاب أيضا حب أبى حنيفة لعلى وشيعته فهو لا يفتأ يترحم عليهم فى الوقت الذى يلعن فيه أعداءهم ويصفهم بالجور والظلم وأنهم أكرهوا الناس على حرب الحسين يقول (١٩٨) أبو حنيفة .

« وكان ابن زياد إذا وجه الرجل إلى قتال الحسين فى الجمع الكثير يصلون إلى كربلاء ولم يبق منهم إلا القليل . كانوا يكرهون قتال الحسين فيرتدعون ويتخلفون » .

وكان الحسين عليه السلام يكره القتال ويريد الانصراف إلى حيث أتى ولكن بنى أمية أرغموه هو وأصحابه على القتال (١٩٩) ، فلم يزل أصحاب الحسين يقاتلون حتى لم يبق معه غير أهل بيته يقول أبو حنيفة (٢٠٠) :

« ولما رأى ذلك العباس بن علىّ قال لإخوته : عبد الله وجعفر وعثمان بنى على عليه وعليهم السلام وأمهم جميعا أم البنين العامرية من آل الوحيد : تقدموا بنفسى أنتم فحاموا عن سيدكم حتى تموتوا دونه .

فتقدموا جميعا فساروا أمام الحسين عليه السلام يقونه بوجوههم ونحورهم ... ثم يقول : وبقى العباس بن على قائما أمام الحسين يقاتل دونه ويميل معه حيث مال حتى قتل رحمة الله عليه .

---

(١٩٥) السيد والرئيس فهو يشبه المقرم من الابل فى عظم شأنه .

(١٩٦) الرماح الصلبة اللدنة .

(١٩٧) السيل الذى لا يطاق وكان قوم سبأ فى نعمة وجنان كثيرة فلم يشكروا نعمة الله فبعث الله عليهم جرذا نقبت سدا لهم فيه أبواب فانبثق الماء فغرقت جناتهم .

(١٩٨) الأخبار الطوال ص ٢٥٤ .

(١٩٩) المرجع السابق ص٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢٠٠) المرجع السابق ص ٢٥٧

وأما بنو أمية فسيرتهم خبيثة وجورهم عظيم .

يقول[٢٠١] أبو حنيفة إن محمد بن على أحد أئمة الشيعة . وجه أبا عكرمة وحيان العطار إلى خراسان .. فجعلا يسيران فى أرض خراسان من كورة إلى أخرى فيدعوان الناس إلى بيعة محمد بن على ويزهدانهم فى سلطان بنى أمية لخبث سيرتهم وعظيم جورهم فاستجاب لهما بخراسان أناس كثيرون وفشا بعض أمرهم وعلن » .

ثم يقول[٢٠٢] أيضا : ولما قتل أبو عكرمة وحيان وجه الإمام محمد بن علىّ إلى خراسان خمسة نفر من شيعته : سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم ، وموسى بن كعب ، وخالد بن الهيثم ، وطلحة بن رزيق ، وأمرهم بكتمان أمرهم وألا يفشوه إلى أحد إلا بعد أن يأخذوا عليه العهود المؤكدة بالكتمان . فساروا حتى أتوا خراسان ، فكانوا يأتون كورة بعد كورة فيدعون الناس سرًّا إلى أهل بيت نبيهم ويبغضون إليهم بنى أمية لما يظهر من جورهم واعتدائهم وركوبهم القبائح حتى استجاب لهم بشر كثير فى جميع كور خراسان .

على أننا نريد أن نحدد ما نعنى بكلمة شيعة كما فهمها أبو حنيفة وما نعنى يكون أبى حنيفة شيعى .

والشئ الذى ليس فيه شك فيما أعتقد هو أن الشيعة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخى الفرق لم يكن يدين بها أبو حنيفة الدينورى ولم يكن شيعياً بهذا المعنى .

وأكبر الظن أن معنى هذه الكلمة كما فهمها أبو حنيفة هو نفس معناها اللغوى القديم الذى جاء فى القرآن فى قول الله عزّ وجل من سورة القصص : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدّوه فوكزه موسى فقضى عليه » الآية ، وفى قول الله عز وجل من سورة الصافات « وإن من شعيته لإبراهيم » .

فالشيعة فى هاتين الآيتين وغيرهما من الآيات معناها الفرقة من الأتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأى ، والمنهج ، ويشاركون فيهما ، والرجل الذى كان من شيعة موسى كان رجلا من بنى إسرائيل ، والرجل الذى كان من عدّو موسى كان رجلا من المصريين .

بذلك قال المفسرون القدماء الذين تلقوا التفسير عن الفقهاء من أصحاب النبى ﷺ ، وإبراهيم كان من شيعة نوح أى على سنته ومنهاجه يرى رأيه ويدين بدينه كما قال هؤلاء المفسرون ايضا .

---

(٢٠١) الأخبار الطوال ص ٣٣٣

(٢٠٢) المرجع السابق ص ٣٣٥

وبـذلك أيضا فهم أبو حنيفة الشيعة ، وورد استعمالها فى كلامه ، وبهذا أيضا نعتبر أبا حنيفة شيعياً أى أنه من أنصار علىّ وأتباعه ، وكانت كثرة المسلمين كلها له أنصارا واتباعا (٢٠٣).

ولم يـكـن أبـو حـنيـفة شيعيًا بالمعنى الذى يعرفه الفقهاء والمتكلمون ومؤرخو الفرق الإسلامية ؛ وصفوة القول فى كتاب الأخبار الطوال أن له قيمة تاريخية وقيمة أدبية .

فأما قيمته التاريخية فليست سواء فى أقسامه الثلاثة ، فالقسمان الأولان ليسا فى قيمة القسم الثالث وهذا أمر من السهل تعليله فالمؤلف عندما يتحدث عن تاريخ الخليقة مبتدأ بآدم ، وعندما يتحدث عن تاريخ الفرس القديم ، عندما يتحدث عن ذلك كله لم تكن لمعلوماته ولا لمصادره من اليقين ما كان لحديثه عن حروب العرب مع العجم والفتوحات الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب وفى عهد الحكام من بعده .

ومع ذلك فحتى هـذين القسمين الضعيفين من كتابه يمكن أن نستقى منهما أقدم المعلومات التاريخية .

ثم إن المؤلف كان يتمتع بالكثير من الصفات التى تتطلبها فى المؤرخين فهو بعيد عن التحيز حتى لنراه يعترف لبنى أمية بمزاياهم كما يعترف للشيعة سواء بسواء مع أنه شيعى .

ثم إنـه حـرص على جمـع أكبر كمية ممكنة من المعلومات التى أخذها عن ألسنة الرجال وعن النصوص المكتوبة كنبؤات المنجمين التى يرويها بنصها والأحلاف العربية القديمة أو النثر التاريخى .

وأما مواضع ضعفه فهى فى سذاجته التى حملته على ذكر الأساطير على أنها حقيقة ، وإذا كان لأبى حنيفة الدينورى فكرة جامعة عن سير التاريخ فهى سيطرة القضاء على حياة البشر .

هذا عن قيمة الكتاب التاريخية ، وأما قيمته الأدبية فالإجماع منعقد على توفرها ؛ وإنك لتقرأ كتابه فلا يأخذك ملل أو فتور قط ، وذلك لأن أبا حنيفة يطلعك أحيانا على سذاجة ساحرة يلهو بها العقل فيمسك عن أعمال النقد ، كما حدث فى الأساطير التى ساقها ، ويطالعك أحيانا أخرى على قوة فى التصوير والقصص فإذا بك كأنك تحضر المعركة الحامية فتنفعل وتستثار وهو يمر بك طورا بعد طور من القصص إلى الحوار ، إلى الخطب إلى الرسائل فى أسلوب سهل واضح قريب . والغريب أن أبا حنيفة الدينورى فى ذلك الزمن السحيق كان يفرق فى الاستعمال بين نوعين من الصور الأدبية ، لعل النقد الأدبى لم يتنبه إلى التمييز بينهما إلا فى العصر الحديث .

---

(٢٠٣) الفتنة الكبرى جـ٢ على وبنوه للدكتور طه حسين ص ١٧٥ - دار المعارف ١٩٦٤

فلديه صور أدبية واقعية . حين تنصت إلى أدب أبى حنيفة المصور على هذه الشاكلة يخيل إليك كأنك تشهد الموقف وترى بعينى رأسك الغرض الأدبى التصويرى .

فيبدو أن أبا حنيفة الدينورى لم يكن يحصر الصور الأدبية فى دائرة الخيال ، بل كان يطلق الصور الأدبية لتشمل الحقيقية والخيالية .

ومن أمثلة الصور الواقعية الحقيقية التى تحكى مشاهد من الحياة ما يلى :

١ - أن رجلا من أهل العراق كان يتلصص ، ويكنى أبا المعرس ، قدم من الكوفة نحو أرض الشام فى جماعة من لصوص الكوفة ، حتى وافوا مدينة دمشق فكان إذا جنه الليل أشعل فى ناحية من السوق النار فإذا تصايح الناس ، واشتغلوا بإطفاء الحريق أقبل فى أصحابه إلى ناحية أخرى من السوق فكسر الأقفال وأخذ ما قدر عليه ثم هرب(٢٠٤) .

٢ - « وحمل محمد بن المثنى الربعى على تميم بن نصر فتضاربا بسيفيهما فلم يصنع السيفان شيئا لكمال لأمتيهما ، فلما رأى محمد بن المثنى ذلك حمل بنفسه على تميم فعانقه فسقطا جميعا على الأرض وصار محمد فوق تميم فانحنى على حلقه بالسيف(٢٠٥) فذبحه» .

ففى المثال الأول يعرض عليك أبو حنيفة صورة لصوص العراق القادمين نحو دمشق والذين يشعلون النار خفية فى سوق دمشق وبتغالى لهب النار فيهب أهل دمشق لإطفائها . وفى هذه اللحظة ينتحى لصوص العراق ناحية من السوق لينهبوا ويسرقوا .

وكذلك فعل فى المثل الثانى حيث عرض صورة المتصارعين بسيفيها الساقطين على الأرض وإذا بأحدهما فوق الآخر يذبحه بسيفه .

هذا تصوير وتصوير أدبى فلو وفق رسام عبقرى لاستطاع أن ينقل إلى لوحاته بريشته وبألوانه صورا فنية أخاذة عبر عنها أبو حنيفة بألفاظه وأما النوع الآخر ونعنى به الصور البيانية الممثلة فى التشبيه والاستعارة والكناية فلدى أبى حنيفة جزء كبير منها ، يدل على أن ملكة التخيل كانت أصيلة لدى أبى حنيفة .

حقيقة أن أبا حنيفة هنا لم يسم هذه الصور بأسمائها الاصطلاحية ، وما كان له أن يسميها وهو فى ميدان الاستعمال الأدبى . إلا أن استعماله هذا دل على ذوق بلاغى رفيع .

وإليك أمثلة من الصور البيانية كما جاءت فى الأخبار الطوال .

---

(٢٠٤) الأخبار الطوال ص ٣٤٥

(٢٠٥) الأخبار الطوال ص٣٥٥ .

التشبيه

١ - وأقام منار الملك بعد سام جم بن ويرنجهان بن ايران : ص١ .
٢ - ونبتت فى منكبيه سلعتان كهيئة الحيتين : ص٤ .
٣ - فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة رجل أجمل ما يكون من الناس وجها مثل دارة القمر ليلة البدر ..... فاستخرج خرقة سوداء فيها صورة بيضاء كهيئة شيخ جميل الوجه فى وجهه تقطيب : ص١٨ .
٤ - فاستخرج صورة رجل آدم كهيئة المحزون المفكر ..... فاستخرج صورة رجل له ضفيرتان كأن وجهه دارة القمر : ص١٩ .
٥ - قالوا : وان ياسر ينعم تجهز غازيا لأرض المغرب حتى بلغ وادى الرمل ولم يبلغه ملك قبله فأراد أن يعبره فلم يجد مجازا لأنه رمل فيما زعموا كما يجرى الماء : ص٢٣ .
٦ - فرأى ناسا كالغربان ص٣٣ .
٧ - أصوات هائلة أشد من هذه الجبال والصواعق : ص٥٧ .
٨ - فلما كانت سنة احدى عشرة من ملكه حدق به الأعداء من كل وجه فاكتنفوه اكتناف الوتر سيي[٢٠٦] القوس : ص٧٨ .
٩ - وزحف الفريقان بعضهم لبعض ولهم زجل[٢٠٧] كزجل الرعد : ص١١٤ .
١٠ - وكثرت النبل فى الهودج حتى صار كالقنفذ : ص١٤٩ .
١١ - صفين ... قرية خراب من بناء الروم منها إلى الفرات غلوة ، وعلى شط الفرات مما يليها غيضة ملتفة ، فيها نزور طولها نحو من فرسخين: ص١٦٧ .
١٢ - ودارت رحى الحرب : ص١٨٤ .
١٣ - قالوا : وكان بدأ أمر أبى مسلم أنه كان مملوكا لعيسى ومعقل ابنى أدريس فأحباه حتى نزل منهما منزلة الولد : ص٣٣٧ .
١٤ - يقول عن المأمون : « وكان نجم ولد العباس فى العلم والحكمة »: ص٤٠١ .

هذا وسبق أن تحدثنا عن التشبيه عند أبى حنيفة أثناء حديثنا عن كتابى النبات والأنواء وسنشير إليه فى الفصل السادس « النقد والناقد » فلا داعى لأن نتحدث عنه هنا إلا أن هناك ملاحظة يجب أن نضعها فى الاعتبار تلك أن هذه الصور البيانية فى عصر أبى حنيفة الدينورى كانت فى دور النشأة والتكوين ولم تكن قد اكتملت بعد ووصلت إلى مرحلة النضج الكامل .

---

(٢٠٦) سيتا القوس : طرفاه .   (٢٠٧) الجلبة .

وقد كانت طبقة أبى حنيفة من النقاد والأدباء يعرفون هذه الصور البيانية الثلاث التشبيه والاستعارة والكناية وصرحوا بأسمائها بل وعرفوها ولا يعقل أن أبا حنيفة كان يجهل أسماءها وتعريفها ، وأكبر الظن أنه تحدث عنها فى كتابه « الفصاحة » ولكن هذا الكتاب مع الأسف الشديد قد فقد على أن استعمال أبى حنيفة لهذه الصور استعمالا أدبيا رائعا يدل على أنه كان ذا بصر بحقائقها الفنية وبآثارها فى الأسلوب .

فلنلق نظرة على حياة الاستعارة فى القرن الثالث ثم نردفها بنماذج من استعارات أبى حنيفة ثم نفعل مثل ذلك بالكتابة .

الاستعارة

الاستعارة مأخوذة من العارية ، وهى نقل الشيء من حيازة شخص إلى شخص آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه والإلصاق به وبهذا المعنى كانت ذات صلة بالمعنى الاصطلاحى الذى عرفت به لدى علماء البلاغة ، لما فى نقل اللفظ من معنى عرف به فى أصل اللغة إلى معنى آخر لم يعرف لهذا اللفظ ، حتى يصبح هذا اللفظ من الدلائل عليه ، وذلك المعنى من لوازم هذا اللفظ .[٢٠٨]

ولعل أول من عرفها كلون بلاغى هو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ اذ أوردها فى كتابه « البيان والتبيين »[٢٠٩] معرفا لها ومستشهدا عليها .

كذلك تكلم عن الاستعارة وعرفها ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، ولكنه تحدث عنها تحت المشكل من آيات القرآن وألفاظه ، وتأويله لذلك المشكل .[٢١٠]

ومثل الجاحظ وابن قتيبة فى استعمال الاستعارة المبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ إذ يريد بها نقل اللفظ من معنى إلى معنى من غير أن يقيد هذا النقل أو يشترط له شروطا .[٢١١]

ومن أمثلة الاستعارة عند أبى حنيفة ما يلى :

١ - فثبت أساس الملك ، ووطد أركانه ، وبنى معالمه : ص٢ .

٢ - وماج بعضهم فى بعض : ص٢ .

٣ - ضعف ركن الضحاك : ص٦ .

٤ - وصفت الأرض لقحطان : ص٧

٥ - فكتب إليه اردشير بالدخول فى طاعته ، فلما أتاه كتابه امتلأ غيظا : ص٤٢

---

(٢٠٨) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق لحفنى محمد شرف - ص٢٤٥ .

(٢٠٩) جـ١ ص١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢١٠) تأويل مشكلة القرآن : ١٠٢ .

(٢١١) رغبة الامل على الكامل ٣ : ١٤٦/١٤٣ ، الكامل جـ١ ص٣٣٣ .

٦ - اليمن درت عليه الأموال .

٧ - حتى إذا كان وجه السحر مر « طليحة » بفارس منهم يعد بألف فارس : ص١١٩ .

٨ - وقد أضاء الصبح : ص١٢٠ .

٩ - فلما ذاق معاوية أهل الشام : ص١٦٠ .

١٠ - وصبروا لعض السيوف : ص١٧٩ .

١١ - فانصرف مخضبا بالدماء : ص١٨٤ .

١٢ - ثم صفاله - لعبد الملك - الملك بعد قتله ابن الزبير : ص٣٢٥ .

١٣ - يقول عن دعاة بنى العباس فيدعون الناس سرا الى أهل بيت نبيهم ويبغضون اليهم بنى أمية ، لما يظهر من جورهم واعتدائهم ، وركوبهم القبائح : ص٣٣٥ .

١٤ - ثم يقول عن هؤلاء الدعاة أيضا فغرسوا فى هذه البلدان غرسا كثيرا : ص٣٣٦ .

١٥ - وأتت الخلافة موسى الهادى وهو بجرجان : ص٣٨٦ .

١٦ - وأن طاهر بن الحسين صعد من البصرة ، وتقدم هرثمة حتى أحدقا ببغداد وأحاطا بمحمد الأمين : ص٣٩٩ .

الكناية

الكناية فى اللغة مصدر كنى يكنى ، فيكون يائى اللام وكنى يكنو ، فيكون واوى اللام[٢١٢] والمعنى العام للكناية عند علماء البلاغة أن يتكلم المتكلم بكلام أو بشئ ويريد غيره[٢١٣] وقد تحدث الجاحظ عن الكناية والتعريض ولكنه لم يضع تعريفا للكناية كما لم يفرق بينها وبين التعريض .[٢١٤]

ويفهم من كلام الجاحظ أن الكناية والتعريض مترادفان[٢١٥] ومن أمثلة الكناية عند أبى حنيفة ما يلى :

١ - ولما خرج هؤلاء تحركت قلوب سائر ولد نوح للخروج من بابل : ص٣ .

٢ - وفت ذلك فى أعضاد العلية وساءهم : ص٧٧ .

٣ - سقط فى أيديهم : ص٨٨ .

---

(٢١٢) لسان العرب مادة يكنى : ٢٠ : ٩٨ والقاموس المحيط ٤ : ٣٨٦ .

(٢١٣) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق للدكتور حفنى محمد شرف ص٣٧٩ .

(٢١٤) البيان والتبيين جـ١ ص٢٦٣ .

(٢١٥) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق للدكتور حفنى محمد شرف ص٣٨٣ .

٤ - وبلغ ذلك كسرى فسقط فى يده ، وعلم أنه لم يأخذ وجه الأمر فى قتله بندويه : ص١٠٣ .

٥ - فملأ أيديهم من الذهب والفضة : ص١١٦ .

٦ - وكان محنكا قد جربته الدهور : ص١٢٩ .

٧ - ولما انهزمت العجم من القادسية ، وقتل صناديدهم مروا على وجوههم حتى لحقوا بالمدائن : ص١٢٦ .

٨ - ومرت الفرس على وجوهها لا تلوى على شىء حتى انتهت الى يزدجرد وهو بحلوان فسقط فى يديه : ص١٢٨ .

٩ - فاقتتلوا فلم يسمع إلا وقع الحديد على الحديد ... فذهب على وجوهها : ص١٣٦ .

١٠ - ثم إن أهل اصطخر نزعوا يدا من الطاعة : ص١٣٩ .

١١ - ثم بعث به مع رجل من عبس له لسان وجسارة : ص١٤١ .

١٢ - وضاق بما أصابهم من العطش ذرعا : ص١٦٩ .

١٣ - فتناوله عتبه بلسانه : ص١٧٣ .

١٤ - وكبروا وكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض : ص١٨١ .

١٥ - واقتتلوا حتى تكسرت الرماح ، وتقطعت السيوف ، ثم تكادموا بالافواه ، وتحاشوا بالتراب : ص١٨٣ .

١٦ - وأظلمت الأرض من القتام : ص١٨٨ .

١٧ - فتشمر أبو مسلم للدعاء : ص٣٤٣ .

١ - يقول عن أبى مسلم : واشتد ركنه وعلا شأنه فى جميع كور خرسان : ص٣٥٥ .

٢ - يقول عن الإمام ابراهيم بن محمد : ثم بسط لسانه على مروان : ص٣٥٨ .

٣ - فلما بلغ نصر بن سيار ظهور أبى مسلم سقط فى يديه : ص٣٦١ .

٤ - يقول عن موقف أبى مسلم من نصر بن سيار والكرمانى : وكان أبو مسلم يحب أن يستميل أحد الرجلين ليفصم به شوكة الآخر : ص٣٦٢ .

٥ - يقول عن طاهر بن الحسين ، وهرثمة وإحاطتهما بمحمد الأمين « ونصبا المجانيق على داره حتى ضاق محمد بذلك ذرعا » : ص٣٩٩ .

٦ - يقول عن المأمون « وقد كان أخذ من جميع العلوم وضرب فيها بسهم » : ص٤٠١ .

٧ - فنشأ بابك والحبل مضطرب ، والفتن متصلة ... واشتدت شوكته واستفحل أمره ص٤٠٢ .

وبعد فإنك لتقرأ كتابه فلا تعثر بإحساس مؤلفة الخاص يسفر عن وجهه وإنما هو ذكاء أبى حنيفة يجمع الوقائع ويعرضها ويستخرج دلالتها فيما يشبه البرود التام فاذا انفعلت وأنت لابد منفعل - جاء ذلك من فن أبى حنيفة الرائع فى ترتيب القصص على نحو يحرك القارئ ويهز مشاعره .

وخطة أبى حنيفة فى تأليف كتابه هى متابعة الزمن فهو يتتبع الحوادث تتبعا تاريخيا حتى ليشبه كتابه اليوميات وهو فى هذا يغاير المؤرخين المحدثين الذين يقسمون كتبهم الى موضوعات فيعالجون كل موضوع فى فصل خاص ومن مجموع تلك الفصول تخرج بفكرة جامعة عن العصر الذى يتحدث عنه من نواحيه المختلفة : السياسية والحربية والاجتماعية والثقافية وإنما أملى على أبى حنيفة خطته طبيعة الموضوع الذى كتب فيه فهو يريد أن يقص الأخبار التى طال عليها الأمد .

يريد أن يقص الأخبار الحربية والسياسية بالذات كما قص هيرودوت أخبار الحروب الميدية وكما قص « سيوسيديد » أنباء حرب « البيليوبنزيا »

وليس معنى ذلك أن أبا حنيفة لم يحدثنا إلا عن المعارك التى حدثت فكتابه أعمق وأهم بكثير من ذلك ، ولعل مصدر غناه يأتيه من أنه ليس قصصا فحسب بل قصصا وخطبا ورسائل وحوارا وأسجاعا ففى كتابه من كل ذلك ثروة فنية تعد من أثمن ما خلفت العبقرية العربية . وهذه الفنون ينسبها المؤلف إلى أصحابها ، ولكنه عرف كيف يلخص المواقف ويكشف عن الدوافع ، ويناقش الأهواء ويستعرض النظر فى تلك الفنون الرائعة .

ومقدرة أبى حنيفة الفذة تظهر فى القصص والوصف وباستطاعة القارئ أن يعود الى قصة « ملك هرمزدى »(٢١٦) ، « وقعة الجمل »(٢١٧) ، « ومسلم فى الكوفة »(٢١٨) ليرى مقدرة الكاتب الخارقة على الوصف وصفا مثيرا حتى لكأننا نرى المعارك والمواقف رأى العين .

هذا هو أبو حنيفة الدينورى الكاتب القوى ، والمؤرخ الثبت رجل عبقرى من كبار العقول العربية بل العقول الإنسانية على الإطلاق لعمق تفكيره وخصوبة معانيه .

---

(٢١٦) الاخبار الطوال ص٧٤ وما بعدها .

(٢١٧) الاخبار الطوال ص١٤٤ وما بعدها .

(٢١٨) الأخبار الطوال ص٢٣١ وما بعدها .

الفصل الرابع

الاتجاهات الأدبية عند العرب

النثر العربى من العصر الجاهلى إلى آخر القرن الثالث الهجرى - النثر الجاهلى - النثر الإسلامى - الخطابة فى صدر الإسلام الخطابة فى العصر الأموى - الكتابة فى صدر الإسلام - الكتابة فى العصر الأموى - الكتابة الديوانية والإخوانية - النثر العباسى النهضة الأدبية فى هذا العصر قامت على دعامتين هما : آداب الإسلام. والآداب الأعجمية - أى الأدبين كان أقوى أثراً فى الأدب العربى : الفارسى أم اليونانى ؟ أهم الآداب الأجنبية التى أثرت فى الأدب العربى السريانية . الهندية . الفارسية . اليونانية النثر الرسمى والنثر الأدبى . مذاهب أدبية - رد على المستشرق الأمريكى ول ديورانت - رواية اللغة والأدب - أدب البوادى وأدب الحواضر - نظرية الانتحال فى اللغة والأدب - مدارس الكتابة الفنية مدرسة أبى حنيفة الدينورى - نماذج من أدب أبى حنيفة - تعليق

النثر العربى من العصر الجاهلى إلى آخر القرن الثالث الهجرى

نود فى هذه الصفحات أن نحدد مكان أبى حنيفة بين أدباء العربية ، وأن نحدد المدرسة الأدبية التى ينتسب إليها ، وخصائص هذه المدرسة ثم نبين الفنون الأدبية التى أظهر فيها أبو حنيفة تفوقا ملحوظا ولأجل أن نحدد مكان أبى حنيفة بين أدباء العربية ينبغى أن نتتبع فى ايجاز خط سير النثر العربى منذ الجاهلية إلى عصر أبى حنيفة وأعنى بذلك نهاية القرن الثالث الهجرى ، والذى دعانا لتتبع هذا أن السابقين من نقاد العرب وأدبائهم كانوا يرون أن أسلوب أبى حنيفة أدخل فى أساليب العرب وأنه جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب وان كلامه يسير على نهج عربى فصيح ، وقد اوضحنا ذلك فى الفصل الذى جعلنا عنوانه « فى الصحف الأولى »

هذا علاوة على أن النقد الأدبى يتطلب منا أن نحدد الدور الذى قام به أبو حنيفة فى ميدان الأدب والدفعة التى دفع بها الأدب فى سبيل الرقى والكمال فلنتحدث اذاً عن النثر الفنى ما هو؟ وعن النثر الجاهلى : خصائصه وفنونه ثم عن النثر الإسلامى والنثر الأموى والنثر العباسى إلى نهاية القرن الثالث الهجرى محاولين أن نبرز الاتجاهات الأدبية والفنية التى كانت تسود فى هذه الأعصر ، وإلى أى هذه الاتجاهات ينسب أبو حنيفة الدينورى .

تطور النثر العربى :

أولا - النثر الجاهلى

النثر هو الكلام الذى لم يوضع فى أوزان وقواف وهو على ضربين : أما الضرب الأول فهو النثر العادى الذى يقال فى لغة التخاطب ، وليست لهذا الضرب قيمة فنية إلا ما يجرى فيه أحيانا من أمثال وحكمة وأما الضرب الثانى فهو النثر الذى يرتفع فيه أصحابه عن لغة التخاطب إلى لغة فيها فن ومهارة وبيان .

وهذا الضرب هو الذى يعنى النقاد فى اللغات المختلفة ببحثه ودرسه وبيان مامر به من أحداث وأطوار وما يمتاز به فى كل طور من صفات وخصائص وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين هما : الخطابة والكتابة الفنية ويسميهما بعض الباحثين باسم النثر الفنى وهى تشمل القصص المكتوب كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة وإن من يرجع إلى نصوص العصر الجاهلى يجد هذا الضرب من النثر يلعب دورا - مهما فى حياة العرب حينئذ وهو دور لا يقل كثيرا عن دور الشعر إذ كان عرب الجاهلية مشغوفين بالخطابة وضرب الأمثال كما كانوا مشغوفين بالتاريخ والقصص الخيالى - وغير الخيالى - عن شعرائهم وفرسانهم وملوكهم [١] وكانوا يقصون أيضا عن الفرس وأبطالهم ففى السيرة النبوية أن النضر بن الحارث كان يقص على قريش أحاديث رستم وأسفنديار [٢] ومعروف أنهم كانوا يكثرون من القصص عن حروبهم وأيامهم فى جاهليتهم - كما أكثروا من الأمثال وضربها. بجانب ذلك نجد لهم خطابة وخطبا كثيرة وقد أخذت الخطابة عندهم صورتين صورة عامة فى منافراتهم ومجامعهم وأسواقهم وحروبهم وصورة خاصة فى سجع الكهان وما كان ينزلق على ألسنتهم أثناء تكهنهم .

وقد عنى العرب بهذه الفنون عناية لا بأس بها وإن من ينعم النظر فى الأمثال الجاهلية يجد قبيلا منها توفر له ضروب من القيم التصويرية ففيها أحيانا تشبيه واستعارة وتمثيل وفيها أحيانا أخرى صقل وسجع وتحبير وليس معنى ذلك أنهم حققوا لكل أمثالهم ضروبا من هذه القيم بل أن ذلك انما يظهر فى القلة أما الكثرة فمغسولة من كل فن وبيان ومرد ذلك أن الأمثال تجرى فى لغة التخاطب وأحاديث الناس العادية وقلما حبر أصحاب هذه الأحاديث لغتهم أو حاولوا أن يوفروا لها ضروبا من الجمال الفنى البديع [٣] .

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى - لشوقى ضيف ص ١٥

(٢) السيرة النبوية لابن هشام - طبع الحلبى جـ ١ ص ٦٩

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى - لشوقى ضيف ص ٢٢

كذلك كان للخطابة شأن عظيم فى العصر الجاهلى ومن الصفات التى تميز الجاهليين أنهم كانوا يحبون البيان والطلاقة والتحبير والرشاقة (٤) وقد دفعهم هذا الحب إلى الاحتفال بخطاباتهم احتفالا شديدا ولعل أول ما يلاحظ من ذلك أنهم كانوا يتزيدون فى جهارة الأصوات كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق ويقول الجاحظ إنهم كانوا يعمدون فى خطابتهم إلى ضروب من التقعير والتمطيط والجهورة والتفخيم (٥).

وإن من يرجع إلى ماروى فى الطبرى والأغانى والبيان والتبين والنقائض لأبى عبيدة يلاحظ أن أغلب ما روى من خطب القوم روى مسجوعاً وما من شك فى أن صناعة السجع تحتاج إلى قيم موسيقية كثيرة حتى تتم معادلاته الصوتية وموازناته الإيقاعية وقد كانوا يدمجون فى أغلب الظن كثيرا من الصور فى السجع كما كانوا يدمجون كثيرا من التجويد والتحبير (٦).

وكانت عند العرب فى العصر الجاهلى طائفة تدعى التكهن وأنها تطلع على الغيب وكان كل كاهن منها يزعم أنه سخر له رئى من الجن يسترق السمع فيعرف عن طريقه ما كتب للناس فى ألواح الغد وممن اشتهروا بهذا التكهن فى الجاهلية سطيح الذئبى وشق بن مصعب الأنمارى (٧)

وقد روت كتب التاريخ والأدب طائفة من أقوال هؤلاء الكهان وخطاباتهم وكلها تذهب مذهب السجع ومذهب الإغراب-فى الألفاظ والإبهام فى أحاديثهم وخطابتهم ليتيح لهم ذلك مقدارا من الرمز والوهم فى أساليبهم.

ومهما يكن من شىء فإن حرفة الكهانة فى هذا العصر أثمرت ضربا طريفا من الخطابة كان يتكىء على السجع والتوقيع كما كان يتكىء على الاقسام واللفظ الغريب.

ثانيا – النثر الإسلامى

يفتح الإسلام صفحة جديدة فى تاريخ النثر العربى وقد سطرت فى أعلى هذه الصفحة آى الذكر الحكيم التى كان يتلوها الرسول ﷺ فتؤثر فى سامعيه وتخلب ألبابهم.

ويذهب الباقلانى وغيره من علماء العصر العباسى إلى أن القرآن ليس شعرا وليس نثرا من مألوف نثر العرب بل هو أسلوب خاص (٨) يقف وحده وله بلاغته بل إعجازه الذى انقطعت دونه آمال العرب فى محاكاته أو الإتيان بشئ من مثاله.

(٤) البيان والتبين – للجاحظ – جـ ١ ص ١٤٢

(٥) المرجع السابق ص ٢٩

(٦) الفن ومذاهبه فى النثر العربى – لشوقى ضيف ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠

(٧) الكامل لابن الأثير – جـ١ ص ٣٠١

(٨) اعجاز القرآن – للباقلانى.

وقد أثر هذا الكتاب آثارا بعيدة فى اللغة العربية إذ أودعها دينا سماويا جديدا له مثاليته الروحية والخلقية واستخدم لذلك تراكيب وألفاظا مستحدثة لا عهد للعربية بها.

والحق أن القرآن الكريم يعد ابتداء بما علم العرب من الوحدانية والبعث والنشور والتعاليم الدينية المختلفة صاحب الفضل العظيم فى حفظ اللغة العربية وآدابها وأثره فى اللغة العربية من هذه الناحية أوسع من أن يحدد فقد مكنها ووسع طاقتها للتعبير عن معانيه الدينية السامية. وعلى نحو ما جمع العرب على دين واحد جمعهم على لهجة واحدة هى لغة قريش التى نزل بها على الرسول ﷺ وكانت هى التى حملوها معهم فى فتوحاتهم فانتشرت فى العالم الاسلامى جميعه.

وبذلك كان للقرآن الكريم الفضل العظيم فى حفظ اللغة العربية وذيوعها وانتشارها فى ملايين الناس مدى أجيال متعاقبة إلى اليوم وكأنها جزء منه ومن دعوته «ولا نبالغ إذا قلنا أن كل ما كسبته هذه اللغة من علوم شرعية ولسانية وعقلية فلسفية إنما كان من أجله وفى سبيل خدمته[٩].

وليس من شك أن هذا جميعه أثرأو آثار باهرة لهذا الكتاب الباهر الذى يعد ذروة البلاغة والبراعة وهى ذروة ليس لها فى لغتنا سابقة ولا لاحقة لما تؤدى من صياغات وأنغام تامة خارقة.

هذا فيما يتعلق بالقرآن أما الحديث فمن الثابت أنه ﷺ لم يكن ينطق إلا عن ميراث حكمة فقد اعطى جوا مع الكلم.

على أنه ينبغى لنا أن نعرف أن الأمثال لم يعد لها منذ ظهور الإسلام خطورتها فى تاريخ النثر العربى كما كان الشأن فى العصر الجاهلى لذا تغيرت الحياة العربية من قواعدها وأخذت الخطابة تحتكر هذه الحياة أول الأمر وسرعان ما ظهر ضرب جديد من النثر لم يكن للعرب عهد به قبل الإسلام وهو النثر الكتابى الذى يدبج ويحبر ويروق الإنسان كما تروقه القطعة من الموسيقا والنموذج من التصوير.

وقد عملت أسباب مختلفة فى تكوين هذا النثر الكتابى كما عملت أسباب أخرى فى بسط مادة النثر الخطابى لعل أهمها ما كان من الدين الجديد وتوجيه العرب إلى الفتوح مما أحدث تعقيدا فى الحياة العربية اذ أخذت ترفدها جداول من الحضارات الأجنبية.

وقد مر النثر فى العصر الإسلامى بطورين: الطور الأول وهو الذى اصطلح عليه المؤرخون باسم عصر الاسلام وقد كانت صلة الناس فيه بالقديم أكثر من صلتهم بالجديد وإن كانت قد طرأت عليه تغييرات واسعة فقد اختفت بعض صوره كسجع الكهان

---

(٩) الفن ومذاهبه فى النثر العربى - لشوقى ضيف ص ٣٦

وأخذت تظهر صورة جديدة من الكتابة الفنية وهى صورة لم تكتمل تماما فى هذا العصر ولكنه أعد لها ورشح لظهورها .

وأما الطور الثانى الذى اصطلح عليه المؤرخون باسم العصر الأموى فهو يكون حلقة اتصال بالأجانب ومحاولة التفاعل معهم مما نتج عنه اكتمال العناصر الفنية فى الكتابة الأدبية كما نتج عنه ظهور بعض الكتب فى التاريخ وغيره .

الخطابة فى صدر الإسلام :

لم يكتف الرسول ﷺ فى دعوته بتلاوة القرآن الكريم على قريش بل كان يقف فى قومه خطيبا من حين إلى حين يحذرهم عاقبة كفرهم وبدعوهم إلى الدخول فى دين الله وطاعته ومحبته وبمجرد أن هاجر إلى المدينة أصبحت الخطابة فريضة مكتوبة فى صلاة الجمعة وبذلك عرف العرب لأول مرة ضربا منظما من الخطابة الدينية لم يكونوا يعرفونه فى الجاهلية بل كان كل ما يعرفونه عن الخطابة غالبا صورا من المنافرات والمفاخرات وقلما جال خطباؤهم فى هذا المجال الدينى الواسع .

وقد أخذت هذه الخطابة الدينية تتعقد بحكم الفتوح الإسلامية وما كان يعرض له خلفاء الرسول ﷺ من الحديث عن الفتوح ومعاملة المسلمين للأمم الأجنبية .

وفى كتب الأدب وصايا كثيرة لأبى بكر وعمر يوصون فيها قواد الجيوش وهم خارجون للغزو ويبينون لهم كيف يعاملون جنودهم وكيف يسوسون شعوب الأقاليم التى أفاءها الله عليهم وهى موضوعات جديدة أضيفت إلى الموضوعات الدينية الخالصة وما بها من مواعظ حسنة وتظهر عند علىّ فى حروبه مع معاوية الخطب الحربية يحض فيها جنده على محاربة أعدائه ويحمسهم للكفاح والنضال فى سبيل مبدئهم وفكرتهم .

وكل هذا نمى الخطابة فى عصر صدر الإسلام وجعلها ذات موضوع تدور عليه فأحكم بناؤها وفرق بعيد بين خطب هذا العصر وخطب الجاهلية فالأخيرة جمل وعبارات لارابط بينها تأخذ فى الأكثر شكل حكم متناثرة فالخطيب يجمع خلاصة تجاريه فى عبارات ويسردها سردا أما فى هذا العصر فقد أصبح للخطبة غاية واضحة دينية أو سياسية أو حربية وهى لذلك تترابط عباراتها ويتناسق بناؤها لأداء هذه الغاية وخطيب العرب قاطبة لهذا العصر محمد ﷺ .

ونلاحظ أن خطباء هذا العصر كانوا ينفرون من السجع فى أحاديثهم أو على الأقل كان ينفر منه الخلفاء الراشدون لنهى النبى عليه الصلاة والسلام عنه وليس معنى ذلك أن

الناس جميعا انصرفوا عنه فى هذا العهد فالجاحظ يقول : «كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة[١٠] .

وإذاً فقد استمرت بقايا من السجع القديم فى خطابة هذا العصر وان من يرجع إلى حروب الردة يرى بعض المتنبئين مثل مسيلمة الكذاب يتكهنون ويسجعون فى كهانتهم وكان مسيلمة خاصة «يسجع السجعات ويقولها مضاهاة للقرآن[١١] » ويقول الجاحظ «أنه عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه[١٢] .

«لقد كان خطباء هذا العصر يعمدون إلى ضروب من التحبير فى خطابتهم وقد لا تكون الخطب مسجوعة كخطب النبى وخلفائه ولكنها مع ذلك تحوى فنونا من البلاغة والفصاحة[١٣] » .

وأن فى هذا نفسه ما يجعلنا نتهم ما ينسب إلى على من خطب فى كتاب نهج البلاغة فكل ما روى هناك عنه مسجوع وليس من الطبيعى أن يسجع على بينما ينهى الرسول عن السجع كما ينهى عنه عمر ومعاوية .

والحق أن الخلفاء لم يسجعوا ولكنهم اعتمدوا على فنون أخرى من الصقل والتجويد وكذلك عامة الخطباء فى هذا العصر يسعون إلى تحبير كلامهم وتدبيجه .[١٤]

الخطابة فى العصر الأموى :

نمت الخطابة فى هذا العصر نموا عظيما وكان من أهم الأسباب التى أعدت لذلك تعقد الحياة العربية واتصال العرب بالحضارات الأجنبية ووقوفهم على ما لدى الأجانب من نظم سياسية وإدارية ومن مواد ثقافية مختلفة فرقى فكرهم وتدعم منطقهم وأخذوا يتحاورون ويتجادلون فى المسائل الدينية والاعتقادية على نحو ما هو معروف عن المرجئة والجبرية والقدرية والخوارج والشيعة وقد أكسب هذا الحوار والجدل وما اندمج فيهما من مناظرات ومناقشات العقل العربى قدرة واسعة فى الحجاج واقناع الخصوم بالدليل والبرهان بل لقد اتجه هؤلاء المتناظرون إلى العناية بالبيان والبلاغة حتى يخلبوا ألباب سامعيهم ويستولوا على عقولهم استيلاء بل إن منهم طائفة القدرية تحولت إلى معلمين يعلمون الشباب فى البصرة والكوفة الخطابة والمناظرة وكيف تقرع الحجة بالحجة وأتاح ذلك لفن الخطابة ازدهارا واسعا وكان أيضا من أهم أسباب هذا الازدهار كثرة

(١٠) البيان والتبين – جـ١ ص ١٩٥

(١١) الطبرى – القسم الاول ص ١٧٣٨

(١٢) الحيوان – للجاحظ – ص ٨٤ جـ ٤

(١٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٤٢

(١٤) المرجع السابق ص٤٤ .

الأحزاب السياسية التى انبثقت فى هذا العصر من أمويين وشيعيين وخوارج وقد استمرت هذه الأحزاب طوال العصر الأموى تتجادل بالسيف تارة وباللسان تارة أخرى وكان لكل حزب خطباؤه الممتازون الذين يذبون عنه ويحملون على خصومه حملا عنيفا وأشهر خطباء هذه الأحزاب زياد والحجاج فى الحزب الأموى والمختار الثقفى فى الحزب الشيعى وقطرى بن الفجاءة فى حزب الخوارج[١٥] .

وبجانب هذه الخطابة السياسية نجد الخطابة الحفلية أيضا تنمو فى هذا العصر بحكم نمو السلطان العربى واستقرار الملك فى بنى أمية فكانت وفود العرب تفد عليهم فى دار الخلافة بدمشق ويقوم خطباؤهم بين أيدى الخلفاء فيتفاصحون فى خطابتهم بما يستطيعون من فصاحة وبيان .

ومن الخطباء الممتازين فى هذه الوفود وتلك المحافل الأحنف بن قيس زعيم تميم البصرة فقد روت كتب الأدب خطبا مختلفة ألقاها بين يدى معاوية وهو يسعى فيها إلى ضروب من التنميق والتحبير وقد اقترنت الخطابة السياسية وخطابة المحافل بضرب من المواعظ الدينية .

ولسنا نقصد مواعظ الجمع فى المساجد وانما نقصد هذا النوع من القصص والوعظ الدينى الذى أخذ فى الظهور منذ عصر عثمان إذ كان تميم الدارى يجلس فى المسجد الجامع فيحاضر الناس بهذا اللون من القصص والوعظ وقد نما هذا اللون بعد تميم ولكن لا فى المدينة وإنما فى العراق والشام أما العراق فنجد فيه الحسن البصرى ومعبدا وواصل بن عطاء ويزيد بن ابان الرقاش وابن اخيه الفضل بن عيسى وغيرهم كثير. وأما الشام فاشتهر فيها غيلان والأوزاعى .

ازدهرت الخطابة إذن فى العصر الأموى وقد صاحب هذا الازدهار اهتمام واسع من الخطباء بتحسينها والتحبير فيها ضروبا مختلفة من التحسين والتحبير وإن الإنسان ليشعر شعورا واضحا بأن كل خطيب كان يصقل ألفاظه صقلا وينقحها تنقيحا أو لا غرابة فإنهم لم يريدوا فى أكثر الأحوال بخطابتهم مطلق الأخبار أو وصف الحوادث بل أرادوا إقناع الخصوم ومع هذا فخطابتهم متينة التأليف وهى تعتمد على ضروب من التشبيهات والاستعارات .

الكتابة فى صدر الاسلام :

جاء الإسلام بنظام غير بدوى وأوجد ملكا وسلطانا خلف عليه دولتى العالم العظيمتين إذ ذاك فكان من الطبيعى أن توجد الكتابة بوجود هذا السلطان الجديد وهذا

---

(١٥) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ؟ لشوقى ضيف ص٤٥.

ما كان فإن رسول الله ﷺ راسل الملوك وذوى النفوذ يعلمهم برسالته ويدعوهم الى دينه واستخدم فى قيدها ذلك النفر الذى يعرف القراءة والكتابة والذى كان يتولى كتابة وحيه ثم كان منه أول بعثته أن جعل فداء القارئ والكتاب من الأسرى تعليمه القراءة والكتابة عشرة من أولاد الصحابة وبهذه السنة التى جرى عليها عرف فضل الكتابة إنشائية وخطية وأنه لا غنى للمسلمين فى ملكهم الجديد وسلطانهم العتيد عن استخدامها فسار على ذلك خلفاؤه من بعده سيرة ابتدؤها كما ابتدأ ولكنها لم تزل تنمو بنمو الفتوحات وتتسع باتساع النفوذ حتى انتشرت الكتابة انتشارا عظيما فتحقق لرسول الله ﷺ ما كان يرغب فيه وتولد فى كتابة الترسل ضرب من الإنشاء تملك زمام الفصاحة والبلاغة فى سداد قصد ونيل غرض وقوة أداء وتمام إيجاز مع احتذائه القرآن فى الجزالة وامتداد الجمل .

غير أنه لم توجد طائفة خاصة تدعى طائفة الكتاب كما صارت إليه الحال بعد فلما اتسعت الفتوحات على عهد عمر رحمه الله وكثرت موارد الدولة وتوفرت الغنائم احتاجت الدولة الى إنشاء ديوان يضبط هذا الوارد ويحصى الصادر وبخاصة أعطيات الجند فأنشأه رضى الله عنه لذلك ولكنه لم يزل على أيامه وأيام الخليفتين بعده مقصورا على الضرورى من هذه الناحية فقط أما فروع الكتابة الديوانية من خراج وغيره وما أكثر تشعبها وامتداد أغصانها فكانت تؤدى بلغات الأمم المفتوحة وهى الفارسية فى فارس والعراق واليونانية والرومانية بالشام واليونانية والقبطية بمصر الى أن كان تعريب الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ولم يكن بد لدولة العرب الناشئة من هذه الاستعانة لقرب عهدهم بالبداوة ولاستحالة التعريب عليهم فى هذه الأمور الاصطلاحية المختلفة الألوان قبل أن ينشأ جيل عربى يعرف لغات الأمم المفتوحة وآخر من أبناء هذه الأمم يجيد لغة العرب . (١٦)

وللكتابة فى هذا العهد مميزات لم تجتمع كلها معا فى غيره من العهود منها ما يتعلق ببدء الرسالة وختمها فقد كان ﷺ يفتتح كتبه بالبسملة ويكتب بعدها « من محمد رسول الله إلى فلان » وبعدها السلام عليكم للمسلم والسلام على من اتبع الهدى لغيره ثم يعقب السلام بالتحميد فيقول : إنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أو نحو ذلك من التحميد ثم ينتقل الى الغرض المقصود بعد قوله « أما بعد » أو بدونها وكان يختمها غالبا باحدى صيغتى السلام السابقتين وليس معنى ذلك أن كل كتاب له ﷺ كان يشمل على كل هذه الأشياء فإن بعض كتب الرسول كان يخلو من بعض هذه المميزات .

---

(١٦) تاريخ الادب العربى - للسباعى بيومى جـ٢ - ص١٥٣ ، ١٥٤ .

وقد اقتدى به فى ذلك خلفاؤه من بعده وكان أبو بكر يكتب من أبي بكر خليفة رسول الله ثم كان عمر يكتب من عمر خليفة رسول الله .

ولما كان فى تكرار كلمة الخليفة ثقل وكانت الإقامة على استمرار تكررها بتكرر الخلفاء مما لا سبيل إليه اقترح عليه أن يلقب نفسه بأمير المؤمنين ففعل وصار يكتب : من عبد الله عمر أمير المؤمنين فصارت هذه سنة الخلفاء من بعده .(٧)

ومنها خلوها من ألفاظ التعظيم والتفخيم وكما يتضح هذا فى مبادئها التى قدمنا من ذكر اسمى الكاتب والمكتوب إليه مجردين إلا من ألزم الصفات التى لابد منها كالرسالة مع النبي والخلافة أو الأمرة مع الخلفاء والامراء يتضح ذلك فى استخدامهم الضمائر على حقائقها المفرد للمفرد والمثنى للمثنى والجمع ليس إلا للجمع فيقول الكاتب عن نفسه أنا وأبي وجاءنى وعمن يخاطبه أنت وبك وجاءك وقد استمر هذا التبسط طابعها حتى انسلخ هذا العهد وشطر من العهد الاموى .

هذا ما يتعلق بالكتابة فى صدر الإسلام ومنه يعلم أن الكتابة كانت فيه كتابة رسائل فحسب ومع ذلك تصطبغ بصبغة فنية ذات صناعة لأن العهد كان قريبا من البداوة والتدوين فى كل بلد كان بلغة أهله وما فعله عمر رحمه الله خاصا بالأعطيات لا يعد تدويننا بالمعنى المعروف نريد بهذا أن نقول :(٨) إن الكتابة الديوانية بالمعنى الاصطلاحى كانت معدومة وأن الكتابة العلمية التى عرفت بعد فى التأليف والتصنيف كانت معدومة أيضا لأن العهد كله انقضى دون أن يدون كتاب إلا ما كان من أمر القرآن فى اثباته على الرقاع ونحوها مدة أبي بكر وفى المصاحف على عهد عثمان وكان اعتماد القوم فى دينهم ودنياهم على كتاب الله وسنة رسوله وحين الاشتباه يكون مرجعهم إلى الخلفاء والفقهاء والاجتهاد حتى أقوال النبي ﷺ وفتاوى صحابته لم يدونوها مخافة أن ينتهى بهم التدوين إلى إهمال الحفظ والاعتماد على الكتاب المعرض للضياع والتصحيف والتحريف وفى كل ذلك من الأضرار ما كانوا يحذرون ولولا اشتداد الخلف بين القراء فى الأمصار ما أقدم عثمان على نسخ القرآن ولذلك لا نستغرب ما روى من أنه حين هم بعمله هذا اصطدم قبل التنفيذ بكثير من المخالفة والنقاش .

---

(١٧) المرجع السابق ص١٥٥ .

(١٨) المرجع السابق ص١٥٧ .

الكتابة الديوانية والإخوانية

ونقصد بالكتابة الديوانية ما كان يصدر رسميا عن رجال الدواوين إنشائيا فى الرسائل أو غير انشائى فيما تقتضيه أعمال الدولة التى تشغل مثلها الآن الطوائف المعروفة بكتبة الدواوين وبالإخوانية ما كان إنشائيا غير رسمى بين بعض الناس وبعض .

فكتابة الرسائل فى بدء العصر الأموى سارت سيرها فى عصر صدر الإسلام . ولما جاء العهد المروانى واستفحل الملك واتسعت شئونه على أيام عبد الملك بن مروان ثم استقرت الدولة وهدأت بعد ما تم له القضاء على الزبيريين وعلى الخوارج وعلى عمرو بن سعيد الأشدق قرينه فى طلب الخلافة عظم شأن الكتابة الإنشائية فاتخذ عبد الملك سليمان بن سعد كاتبا له على الرسائل ولكنه بقى بنفسه يزاولها فى المهم .

أما الديوانية غير الإنشائية فكان القائم عليها منذ عهد معاوية سرجون بن منصور الرومى الى أن كان تعريب الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان وأبنه الوليد .

وبهذا العمل العظيم فتح عبد الملك وابنه فتحا جديدا أمام العربية وميادين واسعة للعمل أمام أبنائهم وإذا تقدمنا إلى عصر هشام وجدنا صناعة الكتابة الرسمية تنتقل من أيدى العرب إلى أيدى الأجانب إذ جعل على رأس ديوانه سالما مولاه وعلى يد سالم وتلاميذه وخاصة عبد الحميد أخذت الكتابة الديوانية فى هذا العصر شكلها الأخير فقد تصادف أن سالما كان يعرف اليونانية وقد ترجم منها بعض رسائل لأرسطاطاليس وولى سالم أمر ديوان هشام فارتقى بأساليب الكتابة فيه رقيا يتلاءم مع إتقانه لليونانية ولذلك لم يكن غريبا أن يعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول فى تاريخ العرب وأدبهم ويقول أيضا ان له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة(١٩) غير أن هذه الرسائل لم تصلنا ولولا الطبرى احتفظ لنا برسالة كتبها عن هشام الى خالد القسرى لم نكد نعرف شيئا واضحا عن فنه وبيانه .(٢٠)

وإن من يرجع إليها يلاحظ أنه يعنى بأسلوبه عناية تجعله يلائم بين ألفاظه ملاءمة تخرج به إلى ضروب من الترادف الصوتى وقد ضمنها عناية أخرى بلون جديد من الصياغة إذ نراه فيها يعتمد على الحال اعتمادا شديدا .

على أنه ينبغى أن نلاحظ هنا شيئا مهما وهو أن التأثير الأجنبى الذى دخل إلى صميم

(١٩) الفهرست ص١٧١ - ١٨٢ .

(٢٠) الفن ومذاهبه فى النثر العربى - لشوقى ضيف ص٦٥

الكتابة الفنية لم يدخل أول الأمر عن طريق الفرس وكاتبهم ابن المقفع بل لقد دخل كما نرى الآن عن طريق سالم الذى كان يحذق اليونانية « وإن فى ذلك لدليلا آخر على ما نذهب إليـه من أن الكتابة الرسمية عند العرب لم تأتهم من الخارج وأن الأجانب لم يبتكروها فى العربية بل لقد تناولوها من أيدى العرب فساهموا فيها تلك المساهمة النشيطة التى جعلت أحدهم وهو سالم يلى أمر دواوين هشام »(١)

وقد خرّج سالم مجموعة من الكتاب لعل أهمها وأشهرها عبد الحميد الكاتب ، وما من ريب فى أن عبد الحميد أهم كاتب ظهر فى العصر الاموى فقد كان بليغا وقد ضربت ببلاغته الامثال حتى قيل فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد(٢٢) ويقول ابن النـديم : عنـه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا وهو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسـل(٢٣) ويقـول : المسعودى أنه اول من استعمل التحميدات فى فصول الكتب ويكبر من كتبوا عنه من شأنه والحق أنه مثل القمة التى وصلت إليها الكتابة فى العصر الأموى إذ كـان زعيم البـلغاء فى عصره غير مدافع وقد نمت طبقة الكتاب فى عصر عبـد الحميـد وأصـبحوا يؤلفون جماعة بارزة فى حياة الدولة ووظائفها الديوانية وأعمالها المختلفة(٢٤) .

وأصبح الكاتب فى عصر عبد الحميد لا يستطيع أن يحسن وظيفة الكتابة إلا إذا ألم الماما حسـنا بـالثقافة الإسلامية وثقافة العرب الأدبية والتاريخية وأخبار الأمم الأجنبية ومـعارفها ولابد أن يروى الأشعار ويدرسها دراسة فاحصة يطلع منها على غريبها وما تتضمن من معان يمكن أن يفيد منها فى كتابته ونحن(٢٥) لا نقول كما قال السابقون إن الرسائـل أو بـعبارة أخرى الكتابة الديوانية بدئت بعبد الحميد ولا أنه أول من أطال الرسائل فكل ذلك مبالغة لا تقوم على أساس إذ الرسائل الديوانية منذ أوائل هذا العصر الأموى فقد وجدت هذه الطبقة التى احترفتها من الكتاب وأيضا فإنها أخذت تطول منذ عصر عمرو بن نافع ولكننا بعد ذلك نثبت له أنه كان القمة التى وصلت إليها نهضة الكتابة فى العصر الأموى وخاصة فيما وفر لها من جمال صوتى بديع وما وفر لها أحيانا من جمال تصويرى طريف وحقا أنه لم يثبت الجمال التصويرى فى كل ما ألفه ولكنه بث الجمال الصوتى إذ كـان يعممه فى كل رسائله وقد طبعها هذا الجمال بطابع خاص من الفن

(٢١) المرجع السابق ص٦٦
(٢٢) اليتيمة – طبع الصاوى جـ٣ ص١٣٧
(٢٣) الفهرست ص١٧٠
(٢٤) مروج الذهب جـ٣ ص١٨٧
(٢٥) الفن ومذاهبه فى النثر العربى – لشوقى ضيف ص٧٣

والابداع ومهما يكن فإن عبد الحميد استطاع أن ينفذ بصنعة الرسائل فى هذا العصر إلى كل ما كان يبتغيه أصحابنا من عناية بالألفاظ والمعانى وإذ كان يسعى دائما إلى تحقيق معانيه على أساس من المنطق السليم والفكر الرقيق كما يسعى إلى تحقيق ألفاظه على أساس من الإيقاع والصوت الأنيق.

هذا ويعتبر العصر الأموى أول عصر ظهرت فيه الكتابة العلمية لأن وضع العلوم التى اقتضاها الإسلام من شرعية كالتفسير والحديث والقراءات والفقه، ولسانية كالنحو وغيرها مما اشتغل به المسلمون كالتاريخ والكيمياء والفلك والطب لم يبدأ إلا فيه فوجدت بذلك لغة التأليف والتصنيف وهى لغة لم يك للعربية بها عهد من قبل.

النثر العباسى :

جاء الإسلام والنثر الأدبى على جانب من القوة لا بأس به ولكنها كانت قوة نسبية محدودة يعوزها عمق التفكير ودقة التصوير وسعة الخيال فضلا عن كثرة الأغراض وتنوع المقاصد.

وهذا أمر طبيعى لكل نثر نشأ فى بيئة بدوية حظها من الثقافة قليل تكاد تكون بمعزل عن العالم الخارجى إلى حد كبير مناظرها واحدة ومشاهدها مكررة كالبيئة العربية.

ولكن الإسلام الذى أحدث فى المجتمع العربى هذا الانقلاب الشامل قد تناول أيضا فيما تناول اللغة وآدابها تناولها بالتهذيب والتحسين فبعث فيها الحيوية وأمدها بالقيم الفنية التى سمت بها إلى ذروة البلاغة وأخيرا فتح أمامها الطريق إلى حضارات أجنبية تقتبس من آدابها وتنهل من معينها.

لاعجب إذاً أن ينهض « النثر الأدبى » فى هذا العصر نهضة بالغة وأن يتطور من حال إلى حال بعاملين قويين كان لهما أكبر الأثر فى نموه وازدهاره.

هذان العاملان هما :

١ - آداب الإسلام.

٢ - الآداب الأعجمية.

١ - آداب الاسلام :

جاء الإسلام بمعجزته الخالدة « القرآن الكريم » الذى هو آية الآيات فصاحة وبلاغة فبهر العرب ببيانه وهم أمراء البيان وأذهلهم ببلاغته وهم اللسن المقاويل وعجزوا عن الإتيان بمثله وهم الأدباء المصادع والخطباء المصاقع.

هذا هو القرآن الكريم الذى (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ترى إلى حد تأثر به النثر الأدبى فى صدر الإسلام ؟

إن تأثيره القوى فى النثر الأدبى يظهر بجلاء فى نقله العبارة الأدبية من الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى هذه الصورة الأنيقة المحكمة التى تتجلى فى أحاديث الرسول ﷺ وخطبه وخطب الخلفاء من بعده فالسجع فيها بقدر والجمل متناسقة متوافقة والعبارة متزاوجة متطابقة ولا عجب ففى القرآن إجمال فى مقام الإجمال وتفصيل فى مقام التفصيل وتقديم وتأخير فى مواطن التقديم والتأخير فضلا عن حسن التأليف ودقة التمثيل وبراعة التشبيه «على أنه فى شئون العقيدة وأصول الدين كان يلجأ إلى الالفاظ القوية والأساليب المسجوعة التى تهز النفس بالوعد والترغيب والتهديد وهذا هو سر بلاغته ودليل اعجازه[٢٦] .

ومن آداب الإسلام أيضا «الأحاديث النبوية الشريفة» التى كانت تأتى من فيض خاطره عليه الصلاة والسلام مشرقة الديباجة ، واضحة العبارة تخاطب الناس على قدر عقولهم ولا سيما فى مخاطبته وفود العرب المختلفة وهذه هى البلاغة فى أسمى مراتبها .

جاءت السنة النبوية موضحة للقرآن فحددت مدلول الصلاة والزكاة والحج والوضوء والمؤمن والكافر والمسلم والمنافق وغيرها من الألفاظ الدينية التى أطلقها الإسلام على معان جديدة فأصبح لها معنيان لغوى وشرعى بذلك اتسعت دائرة اللغة وازدادت دلالتها ثروة بهذه المعانى المستحدثة .

على أن القرآن الكريم قد اقتضى علوما جديدة فيما بعد - لغوية وشرعية فمنها ماجاء لضبط اللسان ودفع اللحن عنه كالقراءات والنحو والصرف ومنها ماجاء للكشف عن أسرار بلاغته وتقرير إعجازه كعلوم البلاغة ، ومنها ماجاء لتوضيح غريبه كالتفسير وعلم اللغة ومنها ما جاء لاستنباط الأحكام الشرعية كالفقه وأصوله .

ومن ذلك نرى أن القرآن الكريم كان سببا فى ظهور حركة علمية واسعة فضلا عن حفظه اللغة من التحريف أو التبديل - هذه القرون المتلاحقة وصونها من التيارات الأعجمية الجارفة من حيث إنها لغة القرآن .

٢ - آدب العجم :

اتسعت الإمبراطورية الإسلامية فى هذا العهد بالفتوحات الإسلامية فخرج العرب من عزلتهم واختلطوا بالأعاجم فى الجزيرة وخارجها وعلى مرّ الأيام تمت عملية المزج بين العقليتين السامية والآرية وكان طبيعيا أن يكون لهذا الاختلاط أثره فى اللغة وآدابها كما كان له أثره فى سائر النواحى الاجتماعية .

---

(٢٦) مظاهر الشعوبية فى الادب العربى - للدكتور محمد نبيه حجاب ص ٣٣٦ - الطبعة الاولى نهضة مصر بالفجالة .

لقد أسلم الكثيرون من هؤلاء الأعاجم وأصبحت البيوتات العربية تعج بالأسرى والسبايا ومن ثم كان الارتباط الوثيق بين هؤلاء وهؤلاء بالمجاورة والمعاشرة والمصاهرة والولاء ارتباطا دفع الأعاجم إلى تعلم اللغة العربية والتمرس بأساليبها فهى أولا لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وهى أيضا لغة الغالب الظاهر والمغلوب كما يقول ابن خلدون[٢٧] مولع أبدا بالاقتداء بالغالب .

وعلى الرغم من أنهم استبدلوا بلسانهم الأعجمى هذا اللسان العربى المبين فإن أفكارهم وأخيلتهم وأساليبهم مازالت على نشأتها الأولى .

ظلوا يفكرون بالعقلية الآرية وإن أفصحوا باللسان العربى ويتخيلون بالخيال الأعجمى وإن دونوا بلغة القرآن ومن ثم كان ازدهار الأدب فى شتى نواحيه بهذا اللقاح الجديد الذى زاد أيضا من ثروة اللغة يقول الاستاذ أحمد حسن الزيات[٢٨] « فاللغة قد اتسعت مادتها بما اقتبست من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدو فى تدوين الدواوين وتنظيم الحكومة وسياسة الملك ومقتضيات الحضارة من أداة وطعام وزينة » .

كان من نتائج ذلك أن نشأ جيل ينطق باللسانين ويترجم عن اللغتين فأصبح الحلقة الوثقى بين الأدبين العربى والأعجمى كأبى حنيفة الدينورى ووهب بن منبه وطاوس بن كيسان وغيرهم من الأدباء الذين حذقوا اللغتين العربية والفارسية .

وقد اختلفت كلمة الباحثين فى أى الأدبين كان أقوى أثراً فى الأدب العربى : الفارسى أم اليونانى ؟ من حيث إنهما الأدبان الزاهران من بين آداب الأمم المغلوبة جمعاء .

فنهم[٢٩] من يثبت للأدب الفارسى هذه القوة دون الأدب اليونانى وحجتهم فى ذلك أن أكثر الكتاب البارزين فى هذه الفترة من الفرس كابن المقفع وأبى حنيفة الدينورى . ولكن الدكتور « طه حسين » قد جنح للآداب اليونانية أكثر من سواها وعنده أن البلاغة العربية أخذت حرفيا عن البلاغة اليونانية حتى الشواهد والصور والتعابير[٣٠] .

ومهما يكن من شئ فإن الأدبين الفارسى واليونانى كان لهما أبلغ الأثر فى أدب أبى حنيفة الدينورى وعلمه فهو فارسى أصلا وأجاد اليونانية . ويظهر أثر اليونانية عند أبى حنيفة فى كتابه الأخبار الطوال فهو يشبه إلى حد كبير « أخبار الحروب الميدية » لهيرودوت وأنباء حرب البلبونيزيا « لثيوسيديد » .

---

(٢٧) مقدمة ابن خلدون (ط عبد الرحمن محمد - المطبعة البهية) ص ١٠٤

(٢٨) تاريخ الأدب العربى ص ٩٥

(٢٩) أحمد الأمين - فجر الاسلام ص ١٣٥ وما بعدها .

(٣٠) من حديث الشعر والنثر ص ٣٠ - دار المعارف - بمصر .

هذا ومن المعروف أن فن الخطابة ضعف فى العصر العباسى لأسباب أهمها ضعف الأحزاب السياسية التى كانت منبثة فى العراق أثناء العصر الأموى إذ قضى العباسيون على الخوارج ولم يعد فى هذا العصر من يستطيع أن يجهر بالدعوة للأمويين أو لغيرهم من دون العباسيين ولكن ضعف هذا الفن لم يستتبع ضعفا عاما فى فنون النثر العباسى بل لقد ارتقت ضروبا من الرقى ولم يرتق النثر الخطابى ولكن ارتقى النثر الكتابى فقد أخذت العلوم تدون كما أخذت الكتب الأجنبية تترجم من الفارسية واليونانية والهندية مما أحدث نهضة واسعة فى التدوين والتأليف.

وقد مر بنا أن العرب عرفوا فكرة الكتابة منذ أوائل العصر الأموى ولكنها استمرت فكرة غامضة بعض الشئ فلم تعرف فى جميع الأوساط ولم تتحول إلى خبرة دقيقة بصنع الكتب وما تنفتح أبواب العصر العباسى حتى نجد هذه الخبرة تنمو نموا شديدا وساعد على ذلك ماكان من نشاط ضخم فى الترجمة للثقافات الأجنبية التى اطلع عليها العرب عند الأمم المفتوحة فقد أخذوا يضمونها إلى ممتلكاتهم العقلية ونحن نعرف من طبيعة الأمم الظافرة أن تأخذ ما عند الأمم المغلوبة من ثقافات ومن أجل ذلك يقال منذ أوغسطوس إن روما فتحت أثينا سياسيا ولكن أثينا فتحتها عقليا وكذلك كان شأن العرب فتحوا بلاد ما بين النهرين كما فتحوا فارس والشام ومصر فتحوا هذه البلدان كلها سياسيا بينما فتحتهم هذه البلاد عقليا إذ سرعان ما انحدرت الثقافات التى كانت منتشرة فى هذه البلاد إلى مجرى النهر العربى وأن من الممكن أن نرد هذه الثقافات إلى أربعة جداول أساسية وهى الجدول الآرامى الذى كان يتسرب من مدارس السريان فى نصيبين وحرّان بل وفى جنديسابور نفسها إذ كان بها طائفة من الأساتذة الفنساطرة ثم الجدول الهندى وقد جاء فى الغالب عن طريق الفرس فهم الذين نقلوه إلى لغتهم ثم نقله العرب منهم ثم الجدول اليونانى الذى كان مبثوثا فى مدارس مختلفة بالأسكندرية وأنطاكية وفى الرها ونصيبين وجنديسابور ثم الجدول الفارسى وقد امتاز الجدول السريانى بما ترجم إليه من فلسفة اليونان من منطق وطبيعة وكيمياء وجدل كما امتاز الجدول الهندى بالقصص والفلك والرياضة أما الجدول الفارسى فيتميز بأداب الملوك كما تميز بأنه كان وسيطا لنقل بعض الكتب الهندية مثل كليلة ودمنه والكتب اليونانية مثل ارسطاليس وأخيرا نلتقى بالجدول اليونانى نفسه ذلك الجدول الذى ينبغى أن نكبر من شأنه دائما فقد ساعد ما تحدر عن طريقه من منطق وفلسفة على بناء العقل العربى بمواد صلبة قوية.

وقد بالغ بعض الباحثين[٣١] المحدثين فيما كان للثقافة الفارسية من أثر على العقل العربى وينبغى أن نعرف أن أهمية الثقافة الفارسية فى الواقع لا ترجع إلى ما ترجم للفرس أنفسهم وإنما ترجع إلى ما ترجموه هم عن غيرهم ومعنى ذلك أن الفارسية ترجع أهميتها إلى أنها كانت وسيطا مهما لنقل كثير من آثار الهند ومعارفهم وكذلك فى نقل كثير من ثقافة اليونان وفلسفتهم وما من شك فى أن ما ترجم للعرب من الثقافات الأجنبية هيأهم مع مر العصور لمثل فكرة الكتّاب والكتب.

وقد وجد لدى العباسيين ضرب آخر من النثر هو فى الواقع استمرار لما كان فى العصر الأموى ونقصد هذا الضرب الرسمى أو الحكومى من الرسائل السياسية التى كانت تحبر تحبيرا ممتازا فى دواوين الدولة وقد أخذ أصحاب هذا النثر الرسمى يبالغون فى تنسيقه وزركشته حتى استطاعوا أن يحدثوا فيه مذهبا جديدا هو المذهب المقيد وهو مذهب كان يعتمد على السجع والبديع وقد أخذت تتحول عباراته إلى ما يشبه القطع الزخرفية الدقيقة وفى نفس الوقت كان هناك كتاب آخرون هم أصحاب الرسائل والكتب الأدبية الخالصة وكانوا يقفون بآثارهم عند المذهب القديم الذى كان شائعا فى العصور السابقة من قبلهم وهو مذهب الترسل فلم يتطوروا بكتابتهم من حيث الصياغة وضروب البديع الخالص وانما تطورا بها من حيث ماعالجوه من موضوعات ومعان جديدة لاعهد للغة العربية بها من قبلهم وكأنهم لم يأخذوا الفرصة لزخرفة أساليبهم على نحو ما كان يصنع أصحاب النثر الرسمى أو الحكومى ولذلك كان هذا اللون من النثر العباسى عند الجاحظ وابن قتيبة وأبى حنيفة الدينورى وأضرابهم تندمج صناعته فى المذهب الأول الذى يقابلنا فى النثر العربى مذهب الترسل ولكن مع شئ من النمو والتطور تحت تأثير الثقافات الأجنبية وما صبغت به الأذهان من أصباغ عقلية.

كان للعرب أساليب يسيرون عليها فى الكتابة وقد أصابها تطور وتحور فهى فى صدر الإسلام غيرها فى العصر العباسى حين أخذ العباسيون يناصرون الحركات العلمية ويعملون على ازدهارها وكان للثقافة الأغريقية والهندية والثقافات الأخرى التى أخذ العرب عنها أثر كبير فى الأساليب.

وكذلك كان للحديث وللأسس العلمية التى سار عليها علماء الحديث فى تحرى الأحاديث النبوية أثر فى إيجاد روح الدقة فى الكتابة وأسلوبها ولسنا بحاجة إلى القول بأن لأصول المنطق الذى اقتبسه العرب عن اليونان دخلا فى الأسلوب أيضا فسيطر إلى حد

---

(٣١) اينستر انسيف- فى كتابه الأثر الايرانى فى الادب الإسلامى

على الكثيرين من العلماء فكانوا يسيرون فى كتاباتهم على قواعده وقوانينه وقد غلب على كثير منها روح علمى صحيح وإخلاص للحق والحقيقة .

ومن الطبيعى أن تختلف الأساليب باختلاف العلماء والباحثين فمن الأدباء من كان يجمع فى أسلوبه بين الأدب والعلم ومنهم من كان طابعه الدقة والوضوح وسار آخرون فى كتابة البحوث فى مختلف الفروع على أسس علمية تقرب من الأسس الحديثة فقد حوت من مظاهر الدقة فى التفكير والاستنتاج ما هو محل تقدير العلماء المحدثين[٣٢] .

وقد امتاز العرب فى الجمع بين فروع العلوم والآداب وفاقوا فى هذا غيرهم فنجد بين علمائهم من وقف على روائع الأدب وغاص فى دقائق العلم وجمع بينهما ومنهم من جمع فى كتبه بين الأدب والنواحى الأخرى من المعرفة كالفلسفة والعلوم والتاريخ وغيرها[٣٣] .

ونظرة فاحصة فى كتب أبى حنيفة الدينورى ترينا كيف جمع بين الجبر والأدب وبين الفلك والأدب وبين المنطق والأدب وبين النبات والأدب ....الخ .

فالمادة العلمية مفرغة فى أسلوب أخاذ لا ركاكة فيه ولا تعقيد ينم عن أدب رفيع وإحاطة بدقائق اللغة .

فأسلوب أبى حنيفة الدينورى سلس خال من الالتواء يخرج منه القارئ بثروتين : أدبية وعلمية ويشعر بلذتين لذة الأسلوب العلمى ولذة المادة العلمية وكان من أفضاله على الأدب أن أغزر معانيه وجعل له موضوعا بعد أن كاد يكون شكلا بحتا .

ولاتكاد نمضى فى العصر العباسى حتى نحس أن الحياة العربية قد تغير إطارها تغيرا تاما بل لقد تهدم إطارها القديم وحل محله إطار جديد من الزخرف والتصنيع فقد أخذ الناس يعيشون معيشة حضارية مترفة لا تتصل بالبادية ولا بالحياة العربية القديمة انما تتصل بالأناقة والترف والزينة وقد كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية أهم مدينة فى العالم العربى تنم عن هذه الحياة الجديدة وما يتصل بها من زخرف وتصنيع .

وما من ريب فى أن ما انتشر فى هذا العصر من غناء وشراب ولهو كان له أثره فى هذا الذوق المترف الذى يميل إلى أن يسرى التصنيع والزخرف فى جميع جوانب الحياة من عمارة أو أطعمة أو فرش وطبيعى أن يسرى هذا الذوق من حياة العباسيين الاجتماعية إلى حياتهم الأدبية لأنه تعبير عصرهم الذى عاشوا فيه وأن الإنسان ليخيل إليه كأن الناس فرغوا للتنميق والتصنيع .

ونحن لا نمضى فى تتبع أصحاب الدواوين فى الخلافة العباسية حتى نجدهم منصرفين

(٣٢) العلوم عند العرب - لقدرى حافظ طوقان ص ٧٧

(٣٣) العلوم عند العرب - لقدرى حافظ طوقان ص ٧٧ ، ٧٨

إلى العناية بكتابتهم إذ كانت هذه العناية هى التى توفر لهم أسباب النجاح فى حياتهم .

ويظهر أن جماعة كتاب الدواوين كانت تأخذ نفسها بثقافة واسعة وأن من يرجع إلى وصية عبد الحميد الكاتب يجده ينصح الكتاب بمعرفة كتاب الله والفرائض والثقافة العربية من الشعر وأيام العرب وكذلك الثقافة الفارسية وما يتصل بتاريخ الفرس(٣٤) .

ويظهر أن هذا كله لم يكن يكتفى به كتاب الدواوين فى العصر العباسى إذ كانوا يأخذون انفسهم بثقافة فلسفية واسعة كما أنهم كانوا يأخذون أنفسهم بالثقافة الفارسية والهندية(٣٥) ومن أجل ذلك نعى عليهم ابن قتيبة أنهم يهملون النظر فى اللغة بينما يشغفون « بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة » والحديث عن « الكون والفساد وسمع الكيان والكيفية والكمية والجوهر والعرض ورأس الخط النقطة لا تنقسم »(٣٦) .

وإذاً فنحن لا نبعد إذ قلنا إن عنصر السجع وهو العنصر الأول فى مذهب التصنيع أخذ يظهر منذ القرن الثانى الهجرى وإذا تركنا هذا القرن إلى القرن الثالث وجدنا هذا العنصر يستمر عند الكتاب وعلى رأسهم عمرو بن مسعده الصولى .(٣٧)

حتى اذا وصلنا إلى القرن الرابع الهجرى رأينا كتاب الدواوين وكل منهم يحاول أن يبلغ من تصنيعه وتجميله لأساليبه ما لم يبلغه كاتب آخر من كتاب الملوك والأمراء المجاورين له إذ كان هؤلاء الملوك والأمراء يعتدون بالكتابة المصنعة التى شاعت فى تلك العصور وكل منهم يحاول أن يكون فى بلاطه ودواوينه أهم كاتب فى عصره حتى تشتهر دولته بتلك الطرف الزخرفية التى يخرجها هذا الكاتب وما من ريب فى أن هذه الحال دفعت الكتاب إلى أن يصلوا بنثرهم وتنميقه إلى مرتبة تكاد ترفع الحواجز بينه وبين الشعر فهو نثر منظوم أو هو شعر منثور وماذا يفصل بينه وبين الشعر؟ إنه يعتمد على الموسيقا : موسيقا السجع كما يعتمد على زخرف البديع وإنهم ليبالغون فى ذلك حتى تتحول رسائلهم الى ما يشبه الوشى الخالص فهى حلى وتنميق وبديع وترصيع .(٣٨)

ومن يقرأ فى آثار القرن الرابع يحس أن هذا المذهب من التصنيع لم يقف عند كتاب الدواوين بل لقد أخذ ينتشر بين غيرهم من كتاب الرسائل الشخصية .

على أننا نلاحظ أن هؤلاء الكتاب جميعا من أصحاب مذهب التصنيع والسجع والبديع أخذت تظهر على أسلات أقلامهم شيات مذهب آخر هو مذهب التصنيع إذ

---

(٣٤) انظر الوصية فى كتاب الوزراء .

(٣٥) الكتاب للجهشيارى ص ٧٤

(٣٦) الفن ومذاهبه فى النثر العربى - لشوقى ضيف ص ١٣٠

(٣٧) أدب الكاتب لابن قتيبة - مطبعة الوطن ص٣ .

(٣٨) الفن ومذاهبه فى النثر العربى - لشوقى ضيف ص١٥٦

نراهم يعمدون إلى تعقيد أساليبهم الزخرفية أو إلى فنون جديدة فى نثرهم لا تمت إلى التجميل والتصنيع بصلة وإنما تمت إلى التحذلق والتكلف .

وإن الإنسان ليخيل إليه كأن كل شيء فى الفن يريد أن يتعقد ويتصعب وليس هذا شيئا غريبا فى تاريخ الحضارات ولا فى تاريخ الأدب فى الأمم المختلفة بل هو الشيء الطبيعى إذ نرى الأمم حين ترقى عقليا وحضاريا تتحول من الأحوال الطبيعية فى التعبير إلى أحوال جديدة كلها تعقيد وتصعيب فى الأداء والأسلوب ونحن لا نترك القرن الرابع إلى القرن الخامس حتى نجد هذا المذهب يعم فى جميع كتابات الأدباء فقد أصبح هو البدع الجديد الذى يسعى إليه الكتاب كى يطرفوا قراءهم بما يستحدثون من عقده .

واندفع الكتاب فى هذه الموجة من القرن الخامس للهجرة إلى العصر الحديث

وواضح مما تقدم أن النثر العباسى كانت تسوده طريقتان : الطريقة المرسلة والطريقة المقيدة وأن الطريقة المرسلة هى الطريقة الطبيعية ، وأنها كانت عميقة الجذور فى الأدب العربى ، وكان لها أنصار لا يشق لهم غبار فى ميدان الفكر والأدب سيطروا حينا من الزمن على النثر العربى ولاسيما فى عصر بنى العباس وأنها هى الطريقة السائدة فى الكتب الإسلامية فى العصر الحديث . ومن هنا ندرك الخطأ الذى وقع فيه المستشرق « ول ديورانت » حينما عمم حكمه على النثر الإسلامى وجعل اللغة العربية هى التى تدعو إلى جعل النثر مقفى وأبو حنيفة الدينورى من أقوى الشواهد التى تنفد زعم هذا المستشرق .

لقد كان التصنيع والتصنع مرحلتين مر بهما النثر العربى ولم يكونا شكله الدائم وإليك ما يقول ول ديورانت :

« والنثر الأدبى فى الكتب الإسلامية صورة من الشعر ذلك أن المزاج العربى ينزع إلى الشعور القوى والآداب الفارسية تميل إلى الكلام المزخرف واللغة العربية التى كانت فى الموقف الذى نتحدث عنه يتكلم بها أهل البلدين تدعو الى جعل النثر مقفى لتشابه أواخر الألفاظ طوعا لقواعد الصرف ولهذا فإن النثر الأدبى كثيرا ما يكون مسجوعا وكان الوعاظ والخطباء والقصاصون يلجأون إلى النثر المسجع .»(٣٩)

كان للعرب أدب غزير ممتع وكان بجانب رواية اللغة رواية الأدب بل كثيرا ما تكون رواية اللغة فى ثنايا رواية الأدب وكان عرب البادية فى ذلك العصر مصدرا للغة والأدب معا .

كان الناس إذ ذاك يتلذذون من سماع حديث الأعراب لخفة روحهم وعذوبة نطقهم وبساطتهم قال الجاحظ :

---

(٣٩) قصة الحضارة - تأليف ول ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع ص٢٢٤

« ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذ فى الأسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء .[٤٠]

وقال ابن عبد ربه فى كلام الأعراب : « هو أشرف الكلام حسبا وأكثره رونقا وأحسنه ديباجا وأقله كلفة وأوضحه طريقة إذ كان مدار الكلام كله عليه ومنتسبة اليه »[٤١]

وقد عقد فصلا طويلا نقل فيه شيئا من كلام الأعراب فى الزهد والمدح والذم والغزل والخيل والغيث والنوادر والملح والطعام .... الخ .[٤٢]

وعقد الحصرى فصلا ممتعا عنوانه « فقر من كلام الأعراب فى ضروب مختلفة »[٤٣]

وفى الحق انك تقرأ هذه الفصول فتؤمن بأن أدبهم جيد اللفظ قريب المعنى قليل الكلفة .[٤٥]

« ثم لهم الحكمة الرائعة يجرون فيها على سنن حكم أكثم بن صيفى والأحنف بن قيس هى أشبه ما تكون بالأمثال .... ولهم الشعر الرقيق العذب »[٤٦]

ولهم القصص عن حروبهم وأيامهم فكانوا يروون أيام العرب فى جاهليتها وإسلامها وما كان فيها من أحداث فيتحدثون بيوم الفجار ويوم ذى قار وحروب قيس فى الجاهلية وحرب داحس والغبراء ومقتل كليب بن وائل كما يتحدثون بسيرة النبى ﷺ وغزواته والصحابة وما كان بينهم ويروون شعر الشعراء من جاهليين واسلاميين . وخطب الخطباء وأمثال الحكماء ونوادر الظرفاء .

كل هذا كان فى البادية فهم رواة الأدب القديم ولهم إنشاء فى الأدب الحديث لذلك قصدهم العلماء يأخذون عنهم كل ذلك .

فما لا شك فيه أنه كان فى هذا العصر أدبان : أدب عربى صرف ليس فيه كبير أثر من حضارة ولا من ثقافات الأمم المختلفة وهذا أدب خفيف الروح رشيق اللفظ لا ترى فيه خمرا كثيرا ولا ترى فيه تشبيها بغلمان ولا ترى فيه غزلا بقيان ولا ترى فيه فجرا فاجرا ولا فحشا داعرا كما لا ترى فيه عمقا فى تفكير ولا إمعانا وفلسفة فى تعبير .

---

(٤٠) البيان والتبيين جـ١ ص١١٠

(٤١) العقد الفريد جـ٢ ص٩٢

(٤٢) المرجع السابق ص٩٢ - ١٣٢

(٤٣) زهر الآداب هامش العقد جـ٢ ص٢

(٤٤) ضحى الاسلام جـ١ ص٣٢٠

(٤٥) المرجع السابق جـ١ ص٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣

وكان حظ أبي حنيفة الدينورى من هذا الأدب تسجيل بعضه وجمعه فهو إذاً جزء من معارفه أثر فى ثقافته وتفكيره وأدبه .

وأدب آخر حضرى كالذى تراه فى كتابة عمرو بن مسعده وابن المقفع وقد تأثر بالفرس تأثرا كبيرا وفى ذوقى أنه ليس فى خفة روح الأول ولا رقته وعذوبته ويحتاج الذهن فيه إلى أن ينحرف بعض الانحراف ليفهمه كالذى تراه فى شعر بشار وأبى نواس فيه العمق وفيه الفجر والقصيدة التى كان يغنى بها العربى ليعبر عن طائفة قوية يسيرة أصبحت فى الحضر مملة يتصنع صاحبها العاطفة ويغلو فيها .

والأدب الذى كان يشرح حياة البادية وما فيها من بطولة وشجاعة وقوة أخذ يعبر عن حياة المدن وما فيها من نعومة ولين وانتقل النثر من جمل صغيرة مفصلة مقطعة أو خطبة قوية تقال شفاها إلى كتابة يتنوع موضوعها بتنوع مرافق الحضارة ويفصل فيها الكلام ويربط .

وقد كان العربى الذى يعبر بلسانه متخرجا فى البيئة الصحراوية ومتخرجا فى مدرسة الطبيعة فأصبح الذى يكتب بقلمه وليد التربية العلمية متخرجا فى عالم الكتب والدفاتر والمحابر وعلى الجملة فكلا النوعين من الأدب ظل لحياته الاجتماعية هذا فى حضره وذاك فى باديته وإذا كانت البادية لم تتغير وكانت فى العهد العباسى مثلها فى العهد الأموى كان أدبهم كذلك يجرى فى واد واحد ..

وإذا كان الحضر متغيرا فالعراق العباسى غير العراق الأموى كان الأدب الحضرى مختلفا عما قبله فكتابة فى أنواع جديدة وغزل جديد والكتب المؤلفة فى الأدب تصف حياة اجتماعية جديدة وهكذا .

وكما كان خطأ ووضع فى اللغة كان كذلك فى الأدب بل الباعث فى الثانى أقوى منه فى الأول فالولاة والأمراء يعجبهم الشعر اللطيف والقصص الغريب أكثر مما يعجبهم اللفظ والتزيد من القصائد لفخر قبيلة أو ذمها والنوادر فى القصص تسترعى الأسماع والحكايات لاعلاء شأن فرد أو قبيلة والتوسع فى المثالب والمناقب كل هذا يجد مجالا فى الأدب أكثر مما يجد فى اللغة .

وقد كان هؤلاء الوضاع من العرب أحيانا ومن العلماء أحيانا « تكاذب اعرابيان فقال أحدهما : خرجت مرة على فرس لى فاذا أنا بظلمة شديدة فسرت حتى وصلت إليها فإذا قطعة من الليل لم تنتبه فما زلت أحمل عليها بفرسى حتى انبتها فانجابت فقال الآخر : لقد رميت ظبيا مرة بسهم فعدل الظبى يمنة فعدل السهم خلفه فتياسر الظبى فتياسر السهم ثم علا الظبى فعلا السهم ثم انحدر فانحدر حتى أخذه »

قال التوزى سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار العربية فقال : إن العجم تكذب أيضا فتقول : كان رجل نصفه من نحاس ونصفه من رصاص فتعارضها العرب بهذا وما أشبهه .(٤٦)

وقد عقد الثعالبي – فى كتابه فقه اللغة – فصلا فى خرافات العرب فكان مما قال وضعوا اسم الخس لمن يتولد بين الإنسى والجنية ، والغملوق بين الآدمى والسعلاة ، والعلبان بين الآدمى والملك .

ومن ذلك ما زعموا أن جرهما كانوا من نتاج حدث بين الملائكة والإنس ، وأن بلقيس ملكة سبأ كانت من مثل ذلك(٤٧) النِّجل وأن ياجوج ومأجوج هم نتاج ما بين النبات وبعض الحيوان .... الخ .(٤٨)

« واشتهر بالوضع من العلماء حماد الراوية وخلف الاحمر وهشام بن الكلبى النسابة وغيرهم فهؤلاء ملأوا كتب الأدب العربى قصصا وقصائد وأخبارا وأنسابا لم يتحروا فيها الحق والصدق .(٣٩)

هؤلاء الوضاع أفسدوا العلم والرواية وأجهدوا الثقات من العلماء بنقد ما رووا يتبينون صحيحه من فاسده فوفقوا أحيانا ولم يوفقوا أحيانا لأن قول الوضاع فشا فى الناس وتفرق فى البلدان وتساهل الناس فى الأدب والأخبار ما لم يتساهلوا فى الحديث .

كان نتاج الأمة العربية اللغوى والأدبى فى القرون الثلاثة – أعنى قرنا ونصفا قبل البعثة وقرنا ونصفا بعدها – نتاجا عظيما ولكن نتاجها لا فى فلسفة ولا فى علوم رياضية ونحوها بل نتاج أدبى وليس محررا فى كتب كالتى دونها الفرس واليونان وإنما هو شفوى إلا فى القليل النادر – يتناقله جيل عن جيل والذاكرة لا تعى كما يعى الكتاب فدخل على هذه الثروة نقص وتزيد وتغيير وتبديل ولكنها على العموم ثروة كبيرة وقيمة إذا قورنت بثروة أمة أخرى فى مثل هذا الزمن وفى موقف كموقف الأمة العربية وهذه الثروة متعددة النواحى فشعر تدهشك كثرته حتى ليخيل اليك أن كل عربى شاعر وأن لسانه ينطق بالشعر كما ينطق بالكلام ثم هو متنوع الأغراض متنوع الوزن والمعانى وثروة من الخطب لا تقل شأنا عن الشعر يستعينون بها فى تهييج القبائل فى الجاهلية وفى تنظيم الأحزاب السياسية فى الإسلام ويصلون بها فى الجاهلية والإسلام إلى تحقيق أغراضهم

(٤٦) المزهر للسيوطى جـ٢ ص٢٥٣ نقلا عن الكامل للمبرد .

(٤٧) الأخبار الطوال ص١٩ ، ٢٠

(٤٨) فقه اللغة – ص١٧ – طبع مصر وقد حذف هذا الفصل من الآباء اليسوعيين .

(٤٩) ضحى الاسلام جـ١ ص٣٢٥

وبث أفكارهم فى السلم والحرب وجمع الكلمة وتفريقها وقد جمع لنا أبو حنيفة الدينورى مجموعة من هذه الخطب فى كتابه « الأخبار الطوال »

ولهم الأمثال والحكم وقد برعوا فيها وأكثروا منها وقامت لهم مقام الفلسفة اليونانية أمدهم بها كثرة تجاربهم ودقة ملاحظتهم وحسن صياغتهم وقد جمع أبو حنيفة الدينورى أيضا مجموعة من هذه الأمثال فى « الأخبار الطوال » وفيما نقلناه عنه من كتاب المخصص لابن سيده .

ولهم الأخبار الكثيرة عن أبطالهم فى الكرم وأبطالهم فى الحرب وأبطالهم فى الوفاء وأبطالهم فى القيافة والكهانة .... الخ وفى الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى كثير من هذه الأخبار أيضا .

ولهم القصص عن وفودهم وأسواقهم وحكامهم وفرسانهم وعدّائيهم ولصوصهم ولهم أساطيرهم وخرافاتهم وتفاؤلهم وتشاؤمهم وتخيلاتهم ولهم الأخبار الطويلة عن أيامهم وأصنامهم وعبادتهم وحنفائهم ويهودهم ونصاراهم ويعتبر كتاب أبى حنيفة الدينورى من المراجع المهمة فى كل ذلك لأنه ثقة فيما يرويه ويحكيه .

مدارس الكتابة الفنية :

كان المتقدمون - كما يقول ابن أبى الأصبع لا يحفلون بالسجع جملة ، ولا يقصدونه البته اللهم إلا ما أتت به الفصاحة فى أثناء الكلام واتفق من غير قصد ولا اكتساب وإن كانت كلماتهم متوازنة ، وألفاظهم متناسبة ، ومعانيهم ناصعة ، وعباراتهم رائعة وفصولهم متقابلة ، وتلك طريقة الإمام على عليه السلام ، ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وغيرهم من العلماء البلغاء .(٥٠) ثم ما لبث النثر العباسي كذلك حتى زخر بتيارات أدبية أخرى انفرد كل منها بسر من أسرار البلاغة ، ولون خاص من ألوان البيان هذه التيارات الأدبية هى التى مهدت لظهور المدارس الكتابية فى هذا العصر ، وقد التف كل منها حول امام بارز من أئمة البيان ينهجون نهجه ويترسمون خطاه .

ففى بداية العصر العباسى كان الأسلوب السائد أسلوب « الترسل الطبيعى » وأمامه عبد الله بن المقفع ، و« الترسل الصناعى » الذى خلفه عبد الحميد .

ثم ما لبثت الأساليب أن مالت إلى التنويع والتفريع والتحليل والتعليل على يد أبى حنيفة الدينورى وطبقته من الأدباء فى القرن الثالث .

---

(٥٠) أمراء البيان لمحمد كرد علي جـ١ ص٣٣ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٥ .

أما فى القرن الرابع فقد ظهرت « الصنعة البديهية المطبوعة » على يد ابن العميد .

ثم ما لبثت أن أثقلت بالمحسنات التى أسرف فيها القاضى الفاضل فظهر « التكلف البديعى فى القرنين الأخيرين من الدولة .

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذه المدارس ليس بينها حدود فاصلة ، وليست كذلك محدودة بزمان أو مكان « ففى عصر الجاحظ كان ابن عبد ربه يقلد ابن المقفع ، وفى عصر ابن العميد كان الشريف الرضى يتفصح ببلاغة الإمام على وما مقامات اليازجى والألوسى وعبد الله فكر فى عصرنا الحاضر - الإصدى لمقامات الحريرى والبديع وكذلك جاءت مرآة البشرى بظلالها الكاريكاتورية مرآة لنوادر الجاحظ ودعابته على الرغم من تقادم العهد وتعاقب السنين »(٥١)

ويهمنا هنا أن نتتبع مدرسة الترسل بفروعها المختلفة فى العصر العباسى اذ أن هذه المدرسة هى التى ينتسب إليها أبو حنيفة الدينورى .

قاد هذه المدرسة أول الأمر عبد الله بن المقفع وقام أسلوبها على الترسل الطبيعى وعماده الايجاز والارسال ، فلا سجع ولا ازدواج إلا ما جاء عفوا ، وهو بذلك لا يخرج عن الأسلوب العام فى القرن الأول .(٥٢)

كل هذا بلفظ سهل ، وأسلوب سلس متين الربط خال من المبالغات ، وكانت عنايته بتجويد المعنى أكثر من احتفاله بجمال الألفاظ ومن ثم قام اتجاهه الفنى على التروى فى انتقاء الفاظه والبراعة فى اختيارها على قدر المعانى ، وأجمل الألفاظ عنده ، وأبلغها ما كانت كذلك .

لهذا كان يصطفى من الألفاظ أدقها وأصدقها تعبيرا ولا يهمه بعد ذلك إن جاءت قوية جزلة أم سهلة لينة مسجوعة أم مرسلة موجزة أو مطنبة وهذا هو سر بلاغته .(٥٣)

ومما هو جدير بالذكر أن مصرع عبد الحميد الكاتب بمقدم العباسيين لم يكن مصرعا لطريقته فقد تفصح بها أعلام القرنين الثانى والثالث ومن بينهم أبو حنيفة الدينورى ، وأبو عثمان الجاحظ وابن قتيبة جنحت هذه الطريقة إلى الأطناب بعد الإيجاز والازدواج بعد

---

(٥١) بلاغة الكتاب فى العصر العباسى للدكتور محمد نبيه حجاب ص١٣٤ - الطبعة الاولى ط المطبعة الفنية الحديثة القاهرة ١٩٦٥ .

(٥٢) تطور الأساليب النثرية الأنيس المقدس ص١٥٦

(٥٣) بلاغة الكاتب فى العصر العباسى للدكتور محمد نبيه حجاب ص١٣٦ ، ١٣٧ والفن ومذاهبه فى النثر العربى - لشوقى ضيف ص٥١ .

الإرسال فضلا عن اطالة التحميدات(٥٤) بالازدواج .

سار هذا الاتجاه جنبا لجنب مع اتجاه ابن المقفع غير أن رواده كانوا كثرة غالبية حتى القرن الثالث .

والواقع أن أساليب الرسائل فى العصر العباسى الأول كانت دفعة جديدة بعيدة المدى لطريقة عبدالحميد وأن شخصيته الأصلية لتتراءى بمعالمها الواضحة من خلال هذه الرسائل التى سالت بها الأقلام : فى الديوان وخارجه نلمح ذلك جليا فى رسائل : « يوسف بن القاسم بن صبيح ، وغسان بن عبدالحميد ، وابن سيابة ، والبرامكة : يحيى والفضل وجعفر ، وأنس بن أبى شيخ ، وأحمد بن يوسف والفضل بن سهل ، وابراهيم بن اسماعيل ابن داود الكاتب ، والعتابى ، وعمرو بن مسعدة وابن عبدالملك الزيات وابراهيم الصولى »(٥٥)

ثم ما لبثت الأساليب كما ذكرنا سابقا أن مالت إلى التنويع والتفريع والتحليل والتعليل على يد أبى حنيفة الدينورى ومدرسته الأدبية فى القرن الثالث الهجرى وحملت هذه المدرسة لواء البيان عبر القرون ولم تستطع المدارس التالية بتياراتها الجديدة أن تطغى عليها أو تطوى صفحتها بل كانت تسايرها زمنا ، وتكاد تغمرها ثم تنحسر عنها حتى فى عصرنا الحاضر الذى مل السجع والغاز البديع وساد فيه الأسلوب المرسل - لم تتوقف لها موجة ، ولم ينقطع لها تيار ، تلمحها فى التوازن والازدواج عند الرافعى والزيات والترديد والتكرار عند طه حسين ، والتحليل والتعليل عند العقاد ، والفكاهة والسخرية عند الشيخ عبدالعزيز البشرى .... الخ .

هذا وقد استمدت هذه المدرسة أسلوبها من رافدين زاخرين :

١ - طريقة عبدالحميد القائمة على الإطناب والازدواج .

٢ - طريقة سهل بن هارون القائمه على التحليل والتعليل والجدل والحوار .

جمع أبو حنيفة الدينورى فى طريقته بين هاتينالطريقتين .

---

(٥٤) الازدواج : هو اتحاد الفاصلتين فى الوزن دون القفية كقوله تعالى : « ونمارق مصفوفة . وزرابى مبثوثة » وهو السجع العاطل عن الرمانى (صبح الاعشى جـ٢ ص٢٧٣ وفى بلاغته يقول أبو هلال العسكرى : لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا ولا تكاد تجد لبليغ كلاما لا يخلو من الازدواج ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن لأنه فى نظمه خارج من كلام الخلق وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل فى أوساط الآيات فضلا عما تزاوج فى الفواصل « الصناعتين ص٢٠٠ » ويرجع سر جماله لما يقول ابن الأثير إلى الأعتدال وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان (المثل السائر ص١٦٩)

(٥٥) بلاغة الكتاب فى العصر العباسى للدكتور محمد نبيه حجاب ص١٤٦ .

أما عبارته فكانت متينة السبك جزلة الألفاظ محكمة الربط . وثيقة الحلقات وإذا كان أبو حنيفة الدينورى من الأدباء الذين تسلحوا بثقافات اليونان والهند والفرس والعرب وظهر أثر ذلك فى أدبهم فمن الطبيعى أن يعتمد فى أسلوبه على التحليل والتعليل وتوليد المعانى .

وبهذه الخصائص انفردت مدرسته الأدبية ويكون هو والجاحظ وابن قتيبة والمبرد طبقة أدبية واحدة مع ما ينفرد به كل واحد منهم من خاصية تميزه عمن عداه وخير ما نختم به هذا الحديث أن نذكر نماذج من أدب أبى حنيفة ثم نعلق عليها بما يفصح عن خصائصها الفنية وقد اخترنا هذه النماذج من كتاب الأخبار الطوال .

رأى أبى حنيفة فى بعض عظماء التاريخ

١ - قحطان بن عامر وأخوه لأم :

قال : وإنما سمى قحطان لقحطه القحوط وطرده بالسخاء والجود ، ثم ولد له لام بن عامر ، فكان أعبد أهل عصره وكانت أسفار آدم وشيث ونوح وقعت إليه فدرسها وعلمها ص٥ .

٢ - نمروذ :

تجبر نمروذ ، وعتا ، ولهج بعلم النجوم ، واجتلب المنجمين من آفاق الأرض وحباهم بالأموال واختار سبعة من أهل بيته فسماهم « الكوهيارين »[٥٦] فولاهم أموره ، ووكل كل رجل منهم بعمل أفرده به ص٨ .

٣ - كيكاوس بن كيقباذ :

« قالوا وكان ملك العجم فى عصر أبرهة بن الملطاط كيكاوس ، وكان متشددا على الأقوياء ، رحيما بالضعفاء ، وكان منصورا محمودا إلى أن خطرت منه خطرة ضلال فيما كان هم به من الصعود إلى السماء » ص١٣ .

٤ - رستم :[٥٧]

وكان رستم الشديد عامله[٥٨] على سجستان وخراسان وكان جبارا مديد القامة ، شديد القوة عظيم الجسم وكان ينتمى إلى كيقباذ الملك ، ولما بلغه دخول بشتاسف فى المجوسية وتركه دين آبائه غضب من ذلك غضبا شديدا ص٢٥ .

---

(٥٦) المختارين .

(٥٧) بطل فارسى مشهور .

(٥٨) عامل بشتاسف الملك .

٥ - ساسان بن بهمن :

قالوا : وكان ساسان بن بهمن يومئذ رجلا ذا رواء وعقل وأدب وفضل ص٢٧ .

٦ - دارا بن دارا :

وهو الذى يعرف بدار يوش مقارع الإسكندر فلما أفضى الملك إلى دارا بن دارا تجبر واستكبر وطغى وكانت نسخة كتبه الى عماله : من دارا بن دارا المضئ لأهل مملكته كالشمس إلى فلان وكان عظيم السلطان كثير الجنود لم يبق فى عصره ملك من ملوك الأرض إلا بخع له بالطاعة واتقاه بالاتاوة ص٢٩ .

٧ - ارسطاطاليس :

وكان بأرض الروم من بقايا الصالحين فى ذلك العصر ، حكيم فليسوف ، يسمى ارسطاطاليس يوحد الله ويؤمن به ولا يشرك به شيئا ص٣٠ .

٨ - يزدجرد بن سابور وولده بهرام :

وهو يزدجرد الذي يلقب بالأثيم وكان غلقا سيء الخلق لا يكافئ على حسن بلاء وكان منانا ، لا يتجاوز عن زلة وإن صغرت ، ويعاقب على الصغيرة كما يعاقب على الكبيرة وما كان أحد يقدر على كلامه لفظاظته وغلظته إلا أن وزراءه كانوا أخيارا مترفقين متعاونين .

فولد له بهرام الذى يقال له بهرام جور فدفعه الى المنذر أبى النعمان ليحضنه فسار المنذر ببهرام الى الحيرة - وكانت داره - واختار له المنذر المراضع وأحسن حضانته ، فلما بلغ التأديب بعث اليه أبوه بمؤدبين من الفرس ، وأحضر المنذر مؤدبين من العرب فأحكم الأدبين وكمل فيهما ، ونشأ نشأ محمودا وبرع فى الأدب والفروسية وخرج عاقلا لبيبا جميلا بهيا ، ومكنه المنذر من اللهو والقيان فكان يركب النجائب وتركب وراءه الصناجات يلهينه ويطربنه وتجرد لطرد الوحش على تلك الحال فضرب به المثل ، فتوة ورخاء بال . ص٥١ ،٥٢ .

٩ - فيروذ بن يزدجرد :

قالوا : وكان فيروز ملكا محدودا وكان جل قوله وفعله فيما لا يجدى عليه نفعه ، وإن الناس قحطوا فى سلطانه سبع سنين متواليات فغارت الأنهار وغاضت المياه والعيون وقحطت الأرض ، وجف الشجر ، وموتت البهائم والطيور ، وهلكت الانعام وقل ماء دجلة والفرات وسائر الأنهار

فرفع فيروز الخراج عن الرعية ، وكتب إلى عماله أن يسوسوا الناس سياسة ، وتوعدهم أنه إن هلك أحد فى أرض واحد منهم جوعا يقيد العامل والوالى به فساس

الناس فى تلك الأزمنة سياسة لم يعطب فيها أحد من الناس جوعا ، ونادى فى الناس بالخروج إلى فضاء من الأرض ، فخرج جميع الناس من الرجال والنساء والصبيان ، فاستسقى الله فأغاثهم ، فأرسل السماء وعادت الأرض إلى حسن الحال ، وجرت الأنهار وجاشت العيون ورجع الناس إلى أحسن عادة الله عندهم فى الرغادة والرفاهة والخصب ص٥٩ .

١٠ - هرمزد بن كسرى :

وكان هرمزد ملكا متحريا لحسن السيرة ، مثابرا على استصلاح الرعية ، رحيما بالضعفاء شديدا على الأقوياء ، وبلغ من عدله وتحريه الحق أنه كان يسير فى كل عام الى أرض الماهين ،(٥٩) فيصيف بها ، وكان يأمر عند مسيره إليها مناديه ، فينادى فى عسكره أن يتحاموا الأضرار بالدهاقين ،(٦٠) ويوكل بتعهد ذلك ، ومعاقبة من تعدى أمره فيه رجلا من ثقاته ص٧٧ .... وكان هرمزد منصورا مظفرا لا يروم تناول شىء إلا ناله ، لم يهزم له جيش قط ، وكان أكثر دهره غائبا عن المدائن : إما بالسود مشتيا ، وإما بالماه متصيفا ص٧٨ .

١١ - هرمزد جرابزين :

« وكان من أدهى العجم وأشدهم خلابة وكيدا »ص٨٠

١٢ - يزيد بن المهلب :

« وكان يزيد أجمل ولد المهلب جمالا وأكملهم عقلا ، وأفضلهم رأيا ، وأذربهم لسانا » ص٢٨٠ .

١٣ - أبو مسلم الخراسانى :

« قالوا : وكان بدء أمر أبى مسلم أنه كان مملوكا لعيسى ومعقل ابنى ادريس بن عيسى العجليين ، وكان مسكنهما بماه البصرة ، مما يلى أصبهان »

وكان أبو مسلم ولد عندهما فنشأ غلاما فهما أديبا ذهنا فأحباه حتى نزل منهما منزلة الولد ص٣٣٧ .

١٤ - مروان بن محمد بن مروان بن الحكم :

« شيخ بنى أمية وكبيرهم ، وكان ذا أدب كامل ورأى فاضل » ص٣٥٠

١٥ - الخليفة عبد الله المأمون :

« وكان شهما ، بعيد الهمة أبى النفس وكان نجم ولد العباس فى العلم والحكمة وقد

---

(٥٩) الدينور ، نهاوند .

(٦٠) الدهاقين جمع دهقان وهو المزارع أو الفلاح .

كان أخذ من جميع العلوم بقسط . وضرب فيها بسهم ، وهو الذى استخرج كتاب إقليدس من الروم وأمر بترجمته وتفصيله ، وعقد المجالس فى خلافته للمناظرة فى الأديان والمقالات وكان استاذه فيها أبا الهذيل محمد الهذيل العلاف ص ٤٠١ »

التعليق :

فى هذه المقتطفات نحس بصفة عامة جمال الازدواج ، وحسن الايقاع ، كما تحس أنغام الموسيقى الهادئة بين الفنية والفينة فضلا عن جمال التقسيم ودقة الترتيب ، كما نحس فى بعضها بالجمع بين الجد والدعابة ، والتحليل والتعليل كما فى حديثه عن « يزدجرد بن سابور وولده بهرام » وهكذا حتى وصل بك إلى ما يريد بأسلوب مسلسل ، محكم الربط وثيق الحلقات ومن ثم تظهر بلاغة هذه المدرسة فى النواحى العلمية ، والمواقف الجدلية التى تتطلب دقة الألفاظ تبعا لدقة المعنى ، ومن أجل هذا رأينا لها أنصارا يصطنعون أساليبها فى القرنين الرابع والخامس على الرغم مما سادهما من موجات السجع والبديع بل إن من عشاق السجع فى عصر السجع - من كانوا يصطنعونه فى كتاباتهم ، وبخاصة فى المواقف التى تتطلبه قانعين من موسيقا الألفاظ بموسيقا التوازن والازدواج . فالثعالبى مثلا الذى عرف بميله الى الصناعة اللفظية قد اعتمد عليه فى يتيمته فى الترجمة لأعلام الأدب كتب عن الخوارزمى يقول :

باقة الدهر ، وبحر الأدب ، وعلم النثر والنظم ، وعالم الفضل والظرف ، وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة ، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ويتكلم بكل نادرة ، ويأتى بكل فقرة ودرة ويبلغ فى محاسن الأدب كل مبلغ ، ويغلب على كل محسن بحسن مشاهدته وملاحة عبارته .[٦١]

---

(٦١) يتيمة الدهر جـ٤ ص١١٤ .

الفصل الخامس
فنونه الأدبية

١ - أدب النبات - ٢ - أدب السياسة - ٣ - النثر التاريخي : التاريخ والأدب . نشأة النثر التاريخي . أبو حنيفة وهيرودوت وثيوسيد . خيال المؤرخ وخيال الأديب . تجربة المؤرخ . وتجربة الأديب . بين الفن والعلم والتاريخ . تاريخ الإنسان . الصورة والروح .

٤ - فن السيرة : علاقته بالتاريخ . فلسفة التاريخ . موقف أبي حنيفة من عصر المتوكل بين أبي حنيفة وابن قتيبة . البحث عن الحقيقة في حياة الإنسان . تطوّر فن السيرة عند العرب نظرية الرجل العظيم . البطل في السيرة العربية السيرة تمثل حياة إنسانية متكاملة من المهد إلى اللحد . الخصائص الفنية لكتابة السيرة :

(ا) التخيّل - ب - الحدث - جـ - الزمان والمكان

د - النشأة والوراثة - هـ - الحوافز النفسية

و - مقومات الشخصية - ز - مفتاح الشخصية

-ح - العبقرية - الموهبة والحافز - الفرد والواقعة التاريخية - المؤرخ والحدث التاريخي - البطل في التاريخ - المؤرخ كالبطل ظاهرة اجتماعية - السيرة قضية إنسانية كما هي تاريخية - المدارس الفنية لكتابة السيرة - نموذج من فن السيرة عند أبي حنيفة - دراسة وتحليل - مدرسة أبي حنيفة في السيرة - تراجم الرجال - ضروب التأليف القديم - ملحوظة على كتب التراجم القديمة - متى تكون ترجمة الحياة جيدة وافية بالغرض - عيوب عامة في التراجم العربية - رجاء

٥ - فن القصة : القصة في اللغة العربية بين المؤيدين والمنكرين - رأى أرسطو في الشكل والمضمون - تزاوج الحضارات - القصص القديمة عموماً خرافية أسطورية - بين التاريخ والأسطورة - لماذا اختلفت القصص العربية القديمة عن قصص البلاد الأخرى - الشعر القصصي نواة للقصة العربية - سلطان القصة في الجزيرة العربية - المثل والقصة - الإخباريون شواهد النحو والبلاغة والتفسير - الأسمار والخرفات - وضع الأشعار على ألسنة الجن والشياطين والسعالى - ما القصة ؟وما القصة التاريخية بالذات ؟ وهل في أدب أبي حنيفة قصة فنية ؟ في الأدب العربي لونان من القصص : لون منثور ولون منظوم - القرآن والقصة - السياسية والقصة - الشعب والقصة - أنواع القصة عند العرب وأغراضها - وحدات القصة : وحدة الحادثة - وحدة الحياة - وحدة العمل القصصي - الطريقة التحليلية في رسم الشخصيات والطريقة التمثيلية - بيئة القصة - الخصائص الفنية - ما العنصر السائد في القصة عند أبي حنيفة ؟ - استمرار التاريخ الإطار السياسي والديني - قالب القصة العربية القديمة - بين القصة القديمة والقصة الحديثة - نموذج من قصص أبي حنيفة : ملك هرمزد - التحليل والدراسة - نموذج ثان : وقعة الجمل الدراسة والتحليل .

أدب السياسة

ولعله قد آن الأوان لكى نحدد الطريق الذى سار فيه أدب أبى حنيفة الدينورى من حيث الأغراض الفنية التى طرق بابها ، وسنعتمد إلى حد كبير فى بيان ذلك على كتاب الأخبار وأول - ما نلاحظه فى هذا الصدد أن أبا حنيفة الدينورى قد تناول أدب النبات ، وأدب السياسة والنثر التاريخى .

أما أدب النبات فنكتفى بما ذكرناه عنه فى فصل « حياته وبيئته » وفى الفصل الخاص بآثار أبى حنيفة وأما أدب السياسة فليس غريبا أن يتجه إليه أبو حنيفة الفارسى الأصل والنشأة .

فقد كانت حياة فارس كما يقول صاحب قصة الحضارة[1] « حياة سياسية وحربية أكثر منها اقتصادية حيث ثروتها النقود لا الصناعة » .

فالجنس له أثر كبير فى اتجاه أبى حنيفة هذه الوجهة التى صبغت كتاب الأخبار الطوال بصبغتها فالكتاب من مفتتحه إلى منتهاه تسيطر عليه روح السياسة وروح المعارك ، والنصوص الأدبية التى فى الكتاب معظمها نصوص حول أدب السياسة ولأجل أن تتضح الحقيقة أكثر من ذى قبل ينبغى أن نعرف بأدب السياسة لنعرف هل كان أبو حنيفة أديبا سياسيا حقا أم لا ؟

ثم ما مدلول كلمة الأدب عند العرب منذ الجاهلية إلى عصر أبى حنيفة الدينورى ؟ ومن هو الأديب ؟ لنرى هل ينطبق على أبى حنيفة أم لا ؟

ما الذى نعنى بأدب السياسة أو بالأدب السياسى ؟ إن إضافة الأدب إلى السياسة أو وصف الأدب بأنه سياسى يقتضينا أن نحدد مفهوم السياسة أولا ونحدد مفهوم أدب السياسة ثانيا .

١ - أما السياسة فإنها بالمعنى اللغوى ولاية شئون الرعية وتدبير أمورها والاضطلاع - بأمرها ونهيها .

جاء فى لسان العرب : السوس الرياسة يقال ساسهم إذا رأسهم ويقال سوسوه وأساسوه إذا رأسوه وساس الأمر سياسة قام به والجمع ساسه وسواس .

سادة قادة لكل جميع ساسة للرجال يوم القتال

ويقال سوّس الرجل أمور الناس إذا ملّك أمرهم ويروى قول الحطيئة :

لقد سوست أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين

(١) قصة الحضارة - تأليف ول ديورانت - جـ٢ من المجلد الاول ص ٤١٥

وفى الحديث «كان بنو اسرائيل يسوسهم أنبياؤهم» . أى تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية والسياسة القيام على الشئ بما يصلحه[٢] وجاء فى أساس البلاغة للزمخشرى : الوالى يسوس الرعية ويسوس أمرهم ويسوس أمورهم وسوّس فلان أمر قومه وذكر بيت الحطيئة[٣] .

وجاء فى القاموس المحيط للفيروز أبادى : سست الرعية سياسة : أمرتها ونهيتها وفلان مجرب قد ساس أى أدب ومجرب قد سيس عليه أى أدب وسوّس فلان أمور الناس صير ملكا[٤] .

٢ - وهى فى عرف المسلمين الأولين كانت منوطة بالإمامة أى الخلافة فعرفها الماوردى بقوله «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا[٥] . ومعنى هذا أن السياسة الإسلامية رعاية لشئون المسلمين المتصلة بدينهم ودنياهم ثم عرفها ابن خلدون بأنها «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به[٦] .

٣ - أما فى الاصطلاح الغربى فالسياسة هى فن الحكم والرجل السياسى هو الذى يمارس اعمال الادارة المدنية وهو أيضا الحاكم الرسمى الموجه الناصح .

٤ - ومن هنا يتبين أن التعريف الإسلامى والتعريف الغربى يتفقان فى أن السياسة هى فن الحكم ويختلفان فى أن الإسلام يبنى طريقة الحكم على دعائم من الشرع إذ كان الإسلام دينا ودولة أما الغربيون فيقصرون الحكم على شئون الدنيا بغض النظر عن الدين إذ أن الدين ليس أساسا عندهم فى الحكم وإنما له رجاله المختصون به .

فالمسلمون والغربيون إذا فهموا السياسة على أنها أسلوب الحكم وطريقته .

أما دراسة هذا الأسلوب من نواحى شكله ونظامه ومزاياه وعيوبه ومن نواحيه فى داخل - الدولة وفى خارجها وعلاقتها بغيرها من الدول سواء أكانت هذه الدراسة فى الزمن الحاضر أو فى الماضى فإن هذا هو ما يطلق عليه علم السياسة .

---

(٢) لسان العرب مادة سوس .

(٣) أساس البلاغة مادة سوس .

(٤) القاموس المحيط مادة سوس .

(٥) الأحكام السلطانية جـ٣ للماوردى .

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٨

« فالأدب السياسى أو أدب السياسة هو فن القولى - شعرا وكتابة وخطابة وحوارا الذى يتعاطى شئون الحكم تأييدا أو تفنيدا أو يتناول علاقة الأمة بغيرها فى حرب أو سلم[٨] .

وحديث أبى حنيفة عن الحكم يطالعنا منذ مفتتح كتابه« الأخبار الطوال » فهو يقول : فلما مات نوح استخلف ابنه ساما فكان أول من وطد السلطان وأقام منار الملك بعد سام جم بن ويرنجهان بن ايران[٩] .

« ويقول عن سام فلما حضرته الوفاة أسند الأمر إلى ابن أخيه جم بن ويرنجهان بن أرفخشذ فثبت أساس الملك ووطد أركانه - وبنى معالمه واتخذ يوم النيروز عيدا[١٠] .

وجاء فى الكتاب المذكور أيضا : قالوا : ولما كثرت عاد باليمن تجبروا وعتوا ، وعليهم شديد بن علوان بن عاد بن رم بن سام بن نوح ، فوجه إلى ولد سام ابن أخيه الضحاك بن علوان بن عمليق بن عاد وهو الذى تسميه العجم بيوراسف ، فصار إلى ارض بابل وهرب منه جم الملك ، فطلبه الضحاك حتى ظفر به ، فأخذه وأشره بميشار فاستولى على ملكه[١١] .

ويقول تحت عنوان « نمروذ بن كنعان » ولما أهلك الله عادا مع شداد ضعف ركن الضحاك ووهى أمره واجترأ عليه ولد أرفخشذ بن سام وكان الوباء وقع فى جنده ومن كان معه من الجبابرة فخرج يريد أخاه غانم بن علوان الذى ملكه شديد على ولد يافت ويستعين به على أمره فاستغنم ولد أرفخشذ بن سام فأرسلوا إلى نمروذ بن كنعان بن جم الملك وكان مستترا هو وأبوه فى طول ملك الضحاك بجبل دنباوند[١٢]ونمد فأتاهم فملكوه عليهم فصمد وصمد من كان بأرض بابل من أهل بيت الضحاك فقتلهم أجمعين واستولى على ملك الضحاك وبلغ ذلك الضحاك فأقبل نحوه فظفر به نمروذ وضربه على هامته بجرز[١٣]حديد فأثخنه ثم شده وثاقا وأقبل به إلى غار فى جبل دنباوند فأدخله فيه وسد عليه واستدف الملك لنموذ واستوسق وهو الذى يسميه العجم فريدون[١٤] .

---

(٨) أدب السياسة فى العصر الأموى للدكتور أحمد محمد الحوفى ط دار نهضة مصر الطبعة الثانية .

(٩) الأخبار الطوال ص١

(١٠) الأخبار الطوال ص٢

(١١) الأخبار الطوال ص ٣

(١٢) جبل فى نواحى الرى

(١٣) عمود من الحديد .

(١٤) استتب واستقام .

هجرة جرهم والمعتمر[١٥]

قالوا : إن ولد قحطان كثروا بأرض اليمن فوقع بينهم التباغى والتحاسد فاجتمع ولد يعرب ابن قحطان على جرهم بن قحطان وولد المعتمر بن قحطان فنفوهم عن اليمن وأرضه فسار جرهم نحو الحرم وسار بنو المعتمر نحو الحجاز ورئيس جرهم مصاص بن عمر بن عبد الله بن جرهم بن قحطان وأرادوا نزول الحرم فمنعهم العماليق من ذلك فاقتتلوا فغلبتهم جرهم على الحرم ونفوهم منه ونزلت جرهم الحرم .

فلما قطنوه بلغ ذلك بنى المعتمر بن قحطان فأقبلوا من أرض الحجاز حتى أتوا الحرم وسألوا جرهم السكنى معهم فأبت عليهم جرهم ورئيس بنى المعتمر السميدع بن عمرو بن قنطور بن المعتمر بن قحطان فتداعى الفريقان للحرب فبحربهم هذه سميت قعيقعان والمطابخ وأجياد وفاضح لأن به فضحت بنو المعتمر وقتل السميدع وكان الظفر لجرهم .

وهكذا قدم لنا أبو حنيفة مجموعة حكايات وأقاصيص محورها الأساسى الحكم ، وتثبيت أساسه وتوطيد أركانه وبناء معالمه أو تقويض نظام الحكم ، والقضاء عليه .

وعلى هذا المنوال ينسج أبو حنيفة كتابه كله ، إلا أننا نلاحظ أن قصصه تطول وتعمق منذ حديثه عن « الاسكندر »[١٦] وأنه يضمن القصة نصوصا أدبية تتراوح بين الشعر والخطابة والكتابة والحوار . وإن كان بعض هذه النصوص يشك العقل كثيرا فى نسبتها إلى أصحابها كتلك الخطابة التى ألقاها أرسطو[١٧] بين يدى الاسكندر .

أرسطو الذى توفى سنة ٣٢٢ ق . م يلقى خطبة عربية فصيحة وهو الرجل اليونانى الذى لم يثبت فى تاريخه أنه تعلم العربية ، والأغرب من هذا أن أبا حنيفة يرى فى ارسطو رجلا من بقايا الصالحين ، يوحد الله ويؤمن به ولا يشرك به شيئا[١٨] .

ومهما يكن من شئ فإن الطابع العام للكتاب هو الأدب السياسى ، وحينما يصل أبو حنيفة إلى العصر الاسلامى وبنى أمية والعصر العباسى نراه يعرض علينا التيارات السياسية الأدبية عرضا أخاذا ويضمن كتابه نصوصا أدبية ما بين شعر وخطابة وكتابة وحوار الأمر الذى يجعل كتابه من أهم المصادر الأدبية لدراسة الأدب السياسى عند العرب .

---

(١٥) الأخبار الطوال ص ٨ ، ٩

(١٦) الأخبار الطوال ص ٢٩

(١٧) الأخبار الطوال ص ٣٠

(١٨) المرجع السابق ص٣٠ .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان[١٩] : وليس من الجائز فى رأى تصور كيانين منفصلين أحدهما يسمى سياسة ، والآخر يسمى أدبا ، فالأدب والسياسة فى نظرى شئ واحد ، لأن موضوعها واحد وهو الناس فى علاقاتهم بعضهم ببعض ، وفى محاولاتهم أن يحققوا لأنفسهم قدرا أكبر من السعادة عن طريق تحقيق قدر أكبر من الحرية . فمجال النشاط السياسى .. والعمل الأدبى ، بعد تجريد كل منهما من الظروف الخاصة به هو فى حقيقة الأمر مجال واحد وهو حرية الإنسان .

وأرى أن الأستاذ فتحى رضوان لم يكن دقيقا فى حديثه عن العلاقة بين الأدب والسياسة لأن علاقة الناس بعضهم ببعض ليست موضوع الأدب والسياسة وحدهما بل إن هذه العلاقة تكمن وراءها قصة الجنس البشرى بماله من حضارة وثقافة وسياسة .. الخ .

على أننا لو جردنا السياسية من ظروفها الخاصة وجردنا الأدب من ظروفه الخاصة لم يكن للأدب صفة الأدب ، ولم يكن للسياسة صفة السياسة ، ونجد أنفسنا وقد دخلنا فى دائرة العموميات ، والأدب قد تحدد مفهومه فى عالم الأدب ، كما أن السياسة قد تحدد مفهومها فى عالم السياسة ، وليس من المستساغ عقليا أو فنيا تحطيم الحواجز بينهما ، وإن كان الأدب والسياسة يلتقيان حينما يدور الموضوع حول الحكم والحاكمين على نحو ما بينا .

ومهما يكن من شئ فإن حديث الأستاذ فتحى رضوان يدل على أن الصلة جد وثيقة بين الأدب والسياسة ، وهذه فكرة تساعد كثيرا فى بلورة فن أدبى أجاد فيه أبو حنيفة الدينورى ، وأعنى به أدب السياسة فليس يستبعد على أديب كأبى حنيفة الدينورى أن يجعل موضوعه الحكم والحاكمين ، فليس الأدب فى واد والسياسة فى واد آخر فلا يلتقيان ولكنهما قد يلتقيان ، وقد يفترقان ، وقد التقيا فى شخصية أبى حنيفة الدينورى فكان لنا من هذا الالتقاء أدب السياسة كما هو معروف فى الشرق والغرب ، وكما ينبغى أن يعرف .

أدب وتاريخ

هذا وقد أطلقت كلمة أدب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام لتدل على العادات العامة وحسن التصرف ، ثم دلت على جملة الاخلاق الكريمة الحاصلة من تربية النفس ، ثم على جملة المعارف التى تميز الخواص .

---

(١٩) عشرة أدباء يتحدثون - لفؤاد دوارة ص ٢٢٨ ، ٢٢٩

« إلا أن العلوم الشرعية أطلق عليها اسم العلم منذ أواسط القرن الأول تمييزا لها من المعارف الدنيوية القائمة على معارف الجاهلية[٢٠] ..

وظل التأديب كالأدب دالا على معنييه القديمين وهما التهذيب والتعليم ، فلما بلغ العرب عهدهم الذهبي الزاهي فى بغداد وازدان عمرانهم بالحضارة والعلم ، تطور لفظ الأدب كما تطور غيره فتولد من معانيه الأصلية معان أخر اقتضتها الحال :

تولد من المعنى الأول وهو العادة الحسنة إطلاق الأدب على السنة النبوية وأول من فعل ذلك الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ[٢١] وفى أواخر القرن الثالث عبروا بالأدب عن المنهج الواجب سلوكه فى تلقى علم من العلوم أو مزاولة عمل من الأعمال[٢٢] : ولما ورفت ظلال العيش فى مدن العراق والجزيرة فى القرن الثالث حيث عاش أبو حنيفة الدينورى ، وتقلب العرب فى أعطاف النعيم وأولعوا بالمنادمة والتأنق فأطلقوا الأدب على الأناقة فى اللباس والطعام واللباقة فى الحديث والكلام ، فكان الأديب والظريف بمعنى واحد ، ثم تولد من المعنى الثالث وهو جملة المعارف غير الشرعية إطلاق لفظ الأدب على جميع ما ترجم من العلوم ، ونقل من الألعاب والفنون بعد أواسط القرن الثانى .

وجاء فى إحدى رسائل الجاحظ قوله : « إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين فى الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التى يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكيمياء والطب ، وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها » وأدخل الجاحظ كما ترون جميع العلوم المسماة بالرياضية وبعض العلوم المسماه بالطبيعية[٢٣] .

ومن هنا نرى أن القرن الثالث الذى عاش فيه أبو حنيفة الدينورى كان يطلق لفظ الأدب على الفنون والصناعات وجميع العلوم غير الشرعية وبالتالى يطلقون لفظ الأديب على من يشتغل بعلوم الرياضة والهندسة واللغة والنحو والطب والفلك ورواية الشعر والأدب والأخبار وما إلى ذلك .

وأبو حنيفة الدينورى تبعا لذلك ووفقا لمفهوم الأدب فى عصره أديب ..أليس اللغوى النحوى الفلكى الراوية ..... الخ ما مر بنا ذكره ؟ ولكننا نضيق هذا المدلول ونقصره على علوم اللغة العربية حيث ندرس أبا حنيفة الأديب الناقد اللغوى .

---

(٢٠) فى أصول الأدب - للأستاذ أحمد حسن الزيات ص ١١ - مطبعة الرسالة ١٩٥٢

(٢١) الحيوان جـ١ ص٨

(٢٢) فى أصول الأدب - للأستاذ أحمد حسن الزيات - ص١٢

(٢٣) فى أصول الأدب - للاستاذ أحمد حسن الزيات - ص١٢ - ١٣

« يرى بعض الباحثين أن الكلام فى التاريخ قد كثر أعلم هو أم أدب . فمن نظر إلى إنه يتناول الحقائق الواقعية ، ويعنى بتجميعها ونقدها موضوعيا قال أنه علم ، ومن لحظ أنه لا بد للتاريخ من خيال الشاعر لنشر الحوادث وبعث الحياة فيها ، ثم لابد له من براعة الكاتب البليغ لتعرض هذه الوقائع بالثوب اللائق بها قال بأنه أدب .(٢٤)

وفى الواقع أننا يجب أن نفرق بين كتب التاريخ التى بين أيدينا الآن ، وبين كتب التاريخ القديمة فالمؤرخون المحدثون يقسمون كتبهم إلى موضوعات فيعالجون كل موضوع فى فصل خاص ومن مجموع تلك الفصول نخرج بفكرة جامعة عن العصر الذى يتحدثون عنه من نواحيه المختلفة : السياسية والحربية والاجتماعية والثقافية ولكن كتب التاريخ القديمة والقديمة جدا كانت تنزع منزعا آخر ... لقد كانت تتناول نفس الموضوعات التى تناولها الشعر القصصى بل وعلى طريقة الشعر القصصى بحيث لا نكاد نفرق بين الاثنين إلا بالوزن فذاك شعر قصصى وكتب التاريخ نثر قصصى .

على هذه الوتيرة سار أبو حنيفة الدينورى فى كتابه الأخبار الطوال . وكتابه يعتبر من الكتب الأولى فى التاريخ عند العرب ... ولم يكن أبو حنيفة فى ذلك بدعا بين المؤرخين ولم يكن كتابه الأول من نوعه فى اتباع هذه الطريقة .

ففى نشأة هذا اللون من النثر عند اليونان نلاحظ أنه فى أول الأمر كان يتناول نفس الموضوعات التى تناولها الشعر القصصى عنهم . وأنه لا يكاد يفرق بينه وبين ذلك الشعر شىء غير الوزن فهو قصصى نثرى بل إن لغته ذاتها لم تخل من تأثر بلغة الشعر وكان الناثرون يتحدثون عن نشأة المدن القديمة وتاريخ بنائها وعن الأبطال الذين فيها والآلهة التى هيمنت على مصائرها ، وعن المعارك الخارقة التى كسبها أبناؤها (كانوا بالجملة يكتبون نثرا عن موضوعات تشبه موضوعات الشعر القصصى ... ولقد كان فى كتابات هؤلاء الناثرين مامهد السبيل لظهور المؤرخين فكتاباتهم وسط بين الشعر القصصى وكتب التاريخ التى يعتبر كتاب هيرودوت أقدم نموذج لها)(٢٥)

ونرجح أن يكون أبو حنيفة الدينورى قد تأثر فى كتاباته التاريخية بهذا المسلك لاسيما وأن هناك أوجه شبه قوية بين كتاب الأخبار الطوال وبين كتاب هيرودوت عن الحروب الميدية والذى سماه « عرض للبحث »

كذلك هناك أوجه شبه بين كتاب الأخبار الطوال وبين كتاب ثيوسديد عن « حرب البليونيزيا » فالكتب الثلاثة كتب تاريخية أدبية كتبت بأسلوب قصصى .

(٢٤) الأسلوب ص٨٨ لأحمد الشايب - طبع مطبعة السعادة - الطبعة الثالثة ١٩٥٢ .

(٢٥) قصة الادب فى العالم جـ١ ص٢٢٠ للأستاذين أحمد أمين . زكى نجيب محمود طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥ .

فالنثر التاريخى فى تلك الكتب إذن يعتبر نثرا أدبيا وأبوحنيفة فى كتاب الأخبار الطوال أديب حقا على أن الصلة بين الأدب والتاريخ جد قوية فلا ينكر أحد علاقة الأدب بالتاريخ وإذا كان لنا أن نقول فى تعريف الأدب إنه صورة للنفس الإنسانية فى صراعها مع الحياة فإن التاريخ هو صورة الحياة الإنسانية على الأرض ذلك أن التاريخ لا يستطيع أن ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية إلا من خلال الأحداث والوقائع التى تثبتها الوثائق والمدونات والمؤرخ لا يستطيع فى ميدان الحقيقة البلجاء ظنا ولا تخمينا فإذا قدر له أن يحكم على النفس الإنسانية التى تسيطر على أحداث التاريخ أو بمعنى أدق تسيطر على سلوك من يصنعون التاريخ فإنما هو حكم المتحرج المتحوط الذى يجتهد فى الاستقراء ولا يجزم بالنتائج ما لم تكن حقيقة تسندها الرواية ويدعمها الدليل القاطع بصحتها كأن يوصف عمل من الأعمال بالدهاء أو الحمق أو الغفلة أو الحكمة إلى غير ذلك من الصفات التى نسندها إلى صناع التاريخ وليس لنا سند فيها غير النتائج التى تمخضت عنها أعمالهم من نجاح أو فشل.

فالتاريخ هو الحقيقة الثابتة المروية وهو حقيقة ثابتة لأن كل الأسانيد التى يعتمد عليها المؤرخ فى بحثه تثبتها وتؤيدها وهو حقيقة مروية لأن التاريخ لا يعنى بما هو خاف إلا عندما ينكشف خفاؤه ويتواتره الرواة سندا عن سند حتى يصدق ذكره.

وقد يحتاج التاريخ فى تدوينه إلى الخيال ولكنه خيال لا يتعدى الأسلوب الإنشائى الموضح للرواية التاريخية أو هو الخيال القادر على امتطاء متن السحاب دون أن يخرج من اطار الحقيقة الصامدة لكل لون من ألوان النقد والتمحيص وهما ملكة المؤرخ الموهوب الذى يتميز بتلك الحماسة التى تعينه على ادراك الحقيقة بين ركام من الأباطيل والروايات القلقة.

هذا الخيال القادر انما يتجلى قدرته فى بعث الحياة الى تلك الوثائق والمدونات الجافة الذابلة واستخلاق الحقيقة من خلال القليل المتناثر من الروايات والآثار التى سلمت من البلى والدمار.

ولكن خيال المؤرخ غير خيال الأديب الذى يسبح فى أجواء سامقة من صنع نفسه أو الهام ذاته غير عابىء بالحقيقة المجردة إلا بقدر ما يلهمه الخيال من صور النفس فى نزعاتها الأزلية فخيال المؤرخ أقرب إلى التصور. تصور ما كان على ضوء ما يعرفه عنه أما خيال الأديب فخلق وابداع فمهما اقترب الأديب من صور الحقيقة أو الواقعية فإن واقعيته لا تعدو تصويره للحياة فى الصورة التى يرتجيها أو الصورة التى هى عليها وإن إتفق مع

المؤرخ فى أنه ينشد الكمال الإنسانى إلا أن الكمال فى عرف التاريخ يتمثل فيما يمكن أن يفيده جيل من تجربة جيل سابق »(٢٦)

أما فى عرف الأدب فهو الصورة المثالية التى يتمثل فيها عالم إنسانى ينشد الخير والجمال ومهما أوغل الأديب فى الواقعية فإن واقعيته تتعلق بصورة أو عدة صور من صور الحياة يغلب عليها الطابع الدرامى والاضاع منه الإطار الفنى للقصة أو المسرحية أو القصيدة لذلك نراه يتخير أبطاله من أناس غير عاديين أوجدهم القدر فأوغل بهم الى حيث تختل ارادة الإنسان وتبطل ايجابيته فهو فى الغالب مسوق الى غاية ليست ككل الغايات .

وقد يقال إن التاريخ ليس إلا تجربة إنسانية كبرى وهو بهذا صنو الأدب إلا ان التجربة التى تثير المؤرخ غير التجربة التى تثير الأديب والانفعال بالتجربة عند الاثنين جد مختلف فالتجربة التاريخة حقيقة مجردة تثير فى المؤرخ غريزة حب الاستطلاع والسعى وراء حقيقة أخرى تكملها وهكذاحتى يتكوَّن لديه البناء التاريخى أو الهيكل العام للقصة التاريخية وهى تجربة مضت وطواها الزمن وجهد المؤرخ أن يكشف عنها ويجلوها للعيان ثم يتلوها بعد ذلك فى سطوره أما التجربة الأدبية فهى موقف من المواقف يثير انفعال الأديب وهى تجربة ملهمة لذا يستطرد الأديب من هذا الموقف المثير إلى موقف آخر يتفاعل معه ويكتمل به إطار العمل الفنى ... وليس من الضرورى أن تكون هذه التجربة مما مضى وانتهى بل أنها لتقع فى الماضى كما تقع فى الحاضر والمستقبل ولكنها تتعلق بذات الأديب ومدى انفعاله بها وقدرته على التعبير عنها تعبيرا فنيا يكسبها تلك الطلاوة التى يتسم بها الأديب فى التعبير عما يجول بخاطره .

وإن كانت التجربة التاريخية أيضا مما يمكن حدوثه فى المستقبل إذ ليس فى التاريخ جديد كما يقولون هى بهذا تتسم بما تتسم به التجربة الأدبية فى أنها تقع فى الماضى وتكرر فى الحاضر والمستقبل إلا أن التجربة التاريخية مضت وانطوت وحسب وإن تكررت فإن تكرارها لا يعنى حق المؤرخ فى القياس عليها وتصور أحداث وقعت أو كان من الممكن أن تقع نتيجة لها وليس هناك ما يثبت وقوعها وما دامت لم تثبت فإنها لا يمكن أن تكون حقيقة تاريخية يعتمد عليها المؤرخ فى تدوينه للتاريخ وان كان من حقه على هذا القياس أن يتنبأ بما يحدث فى المستقبل إلا أن هذا ليس من التاريخ فى شيء وإن كان من الممكن أن يندرج فى فلسفة التاريخ .

---

(٢٦) التاريخ والسير- للدكتور حسين فوزى النجار ص٥٧ .

ولكن التاريخ والأدب صنوان من حيث الإنشاء الأدبى فتدوين التاريخ كالكتابة الأدبية فى حاجة إلى منتهى بلاغة الكاتب التحرير وإذا كان للأديب أن ينفعل بالمواقف التى تستثيره فتلهب خياله وتورى قريحته ويكون تعبيره عنها مليئا بالحياة جياشا بالعواطف فإن انفعال المؤرخ بأحداث التاريخ يضفى على كتابة القصة التاريخية حيوية جديدة تبعث فيها الحياة الماضية حافلة بالحركة والنماء ولا يتأتى ذلك إلا لمن أوتى أسمى مواهب العقل والعاطفة معا . على نحو ما كان أبو حنيفة الدينورى فالتعبير التاريخى غيره فى أى علم آخر إذ أننا لا نقصد من العلوم الأخرى كالطبيعة والكيمياء غير المعرفة المجردة .

أما فى التاريخ فإننا ننشد الغذاء لقلوبنا على حد سواء وسينتهى التاريخ بعد كتابته الى أنه قصة فيها كل ما فى القصص من روعة واستثارة وعاطفة اذ هو قصة الإنسان الكبرى فى حياته على الأرض وفى تحديه واستجابته لظروف بيئته وفى نموه وتطوره وفى تحضره واختراعه لمقومات مدنيته وهى قصة حافلة فيها من المأساة قدر ما فيها من الملهاة على حد سواء قصة مترعة بالسعادة والنعيم كما هى مترعة بالشقاء والبأساء .

ونود أن نؤكد حاجة المؤرخ إلى بلاغة الإنشاء وروعة الأسلوب الذى يصل بالتعبير الساحر الخلاب إلى أصدق صور الموقف التاريخى ولن يصل المؤرخ إلى غايته ما لم تواته القدرة على الوصف والرواية مع دقة التعبير وسلامة الأسلوب وطلاوته ولعل هذا هو مبعث الخلط بين الفن والعلم والتاريخ . فالتاريخ كمبحث علم وإن اختلف العلم التجريبى فى طرائقه وموضوعه والتاريخ فى كتابته فن يحتاج كما قلنا إلى منتهى براعة الكاتب النحرير حتى يبرز فى الإطار اللائق به ثم إن المؤرخ فى كتابته للتاريخ يحس بالتفاعل المستمر بينه وبين وقائعه وهو إحساس لا يدركه عالم الرياضيات أو العلوم الطبيعية الذى يتصف بالحياد الجاف فى تجاربه فإذا تجرد المؤرخ من إحساسه بوقائعه والانفعال بها فقلما يؤمن بها ومن ثم لا يستطيع نقل هذا الأنفعال إلى غيره أبدا .

ونحن لا نحس التاريخ بعواطفنا كما نحس الأدب وإنما ندركه بعقولنا فنحكم له أو عليه فإذا استثار عواطفنا فإن انفعالنا به لا يخلق تلك الآثار الدرامية التى ترقى بالإنسان إلى ذروة النقاء أو التطهير كما يرى أرسطو(٢٧) وأنما يخلق لدينا لونا من الإحساس الحقيق بالموقف التاريخى ويكون الانفعال المنبعث انفعالا لا يحدده الزمان والمكان بالنسبة لهذا الموقف التاريخى منا ومن الخطأ أن نقيم تلك الحواجز الصلدة بين كتاب التاريخ فقد اعتدنا أن ندرج مؤرخى الأدب بين الأدباء ومؤرخى المعارك بين العسكريين ومؤرخى الفن بين الفنانين وهم فى نظر الواقع التاريخى مؤرخون يبحثون فى ماضى الإنسان

(٢٧) قصة الفلسفة اليونانية ص٢٦٠ - لأحمد أمين . زكى نجيب محمود - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وتاريخه ..... ومصدر الخطأ فى هذا أننا لا نعدو التاريخ السياسى ولكن التاريخ معناه الحق هو تاريخ الإنسان . الإنسان الذى يعيش فى مجتمع ويتفاعل معه ويتأثر به ويؤثر فيه فى شتى مجالات نشاطه من سياسة وأدب وعلم وفن وحرب واقتصاد .. الخ .

وهكذا فهم أبو حنيفة التاريخ ولذا بدأه بآدم أبو البشر ومشى مع الإنسانية فى تطورها الصاعد وبلغ من مهارة أبى حنيفة الفنية أنه كان يضفى على أسلوبه جو الأحداث ولذا رأيناه جوا بدائيا أول الأمر ثم جعل يتعقد شيئا فشيئا مع تطور الانسان وتحضره فتاريخ أبى حنيفة يضم شتى مجالات الإنسان من سياسة وأدب وعلم وفن وحرب واقتصاد ... الخ .

وقد صور فيه أبو حنيفة النفس الإنسانية فى صراعها مع الحياة ، واستطاع أن ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية من خلال الأحداث والوقائع ، واستطاع بالرغم من ذلك أن يمتطى بخياله متن السحاب دون أن يخرج من إطار الحقيقة ، واستطاع بهذا الخيال أن يبعث الحياة فى الوثائق والمدونات التاريخية . كما أنه قد قدم لنا تجارب إنسانية خالدة تثير فينا عدة غرائز كحب الاستطلاع ، والسعى وراء الحقيقة ، وحب التملك ، وحب الآباء والأبناء ونجد فى القصص التى ساقها أبو حنيفة الدينورى ما يؤيد ذلك مثل قصة « ملك هرمزد »(٢٨) وقصة « وقعة الجمل »(٢٩) وقصة « مسلم فى الكوفة »(٣٠)

ألا يعتبر أبو حنيفة الدينورى بعد كل ذلك أديبا ، وأديبا ممتازا من الطراز الأول فى لغة العرب ؟

أما أنا فلا يخالجنى فى ذلك شك . لقد كان أبو حنيفة الدينورى علاوة على كل ما تقدم يدرك أن الشاعر أو الكاتب أو الخطيب هو المصور لعقل الجنس البشرى ولذا كان يتبع التاريخ ووقائعه بما قيل فى ذلك التاريخ وفى تلك الوقائع من شعر وخطب ورسائل وسنرى كل ذلك حينما نعرض بالدرس والتحليل للسير والتراجم ، وللقصة عند أبى حنيفة .

وهكذا يصبح الأدب ملحقا لما نسميه التاريخ وشرحا عليه فالتاريخ يعنى فى الأمم بالأشياء التاريخية من حضارة ويصور الصورة الظاهرة لوجودهم ويخبرنا بما عملوا وما لم يعملوا .

« أما الأدب فهو الذى يجب أن نرجع إليه إذا أردنا أن نميز أو أن نفهم ميزات

(٢٨) الأخبار الطوال ص٧٤ وما بعدها .

(٢٩) الأخبار الطوال ص١٤٤ .

(٣٠) الأخبار الطوال ص٢٣١ .

الأمة العقلية والنفسية وعيوبها وبهذا يكون الأدب روح العصر ونتاج المجتمع وتكون دراسة أدب عصر تعبيرا عن روحه ومثله »[٣١]

ومن هنا ندرك أن أبا حنيفة الدينورى حينما أرخ قدم لنا الصورة الظاهرة لوجود الإنسان وحينما ساق النصوص الأدبية قدم لنا روح ذلك الإنسان وعقله ونفسه ولأجل أن تتضح صورة أبى حنيفة أديبا نعرض لفنين أدبيين كان لأبى حنيفة فيهما قدم راسخة ونعنى بهما :

١ - فن السيرة .

٢ - فن القصة .

قبل البدء فى الحديث عن السير والتراجم عند أبى حنيفة الدينورى يجدر بنا أولا أن نتحدث عن التاريخ ما هو؟ ذلك أن التاريخ فيما نرى يعتبر المادة الأولى لفن السير، والتراجم[٣٢] ولأن أبا حنيفة كان مؤرخا أيضا فتعريفنا بالتاريخ سيكون حديثا عن أبى حنيفة الدينورى المؤرخ من ناحية وإن كنا لن نتوسع فى هذه الناحية لأنها ليست من اختصاصنا وسيكون من ناحية أخرى بمثابة التمهيد للحديث عن فن التراجم والسير عند أبى حنيفة الدينورى .

ولقد آثرت أن أطرق هذه الناحية بالذات عند أبى حنيفة بعد أن نشطت لدينا كتابة السير والتراجم ذلك أنه بالرغم من هذا النشاط فما يزال جهدنا فى هذا الميدان ضئيلا .

وفن التاريخ كما يقول[٣٣] ابن خلدون (فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم والأنبياء فى سيرهم والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا)

ثم جاء من بعده « هيرنشو » فعرف التاريخ بأنه مدونة العصور الخوالى وكتابها الحافظ لأخبارها أو هو التدوين القصصى لمجرى الأحداث العالمية كلها أو بعضها »[٣٤]

فالتاريخ إذاً هو جماع البشر ما يقع منهم وما يقع عليهم . وهو مدونة الماضى لجلاء الحاضر وفى إطاره هذا لا يبلى قديمه فهو دائم التجدد . ذلك أن الإنسانية ترتبط بماضيها ارتباطا وثيقا ولا تستطيع من هذا الماضي فكاكا . وهنا يلعب الزمن دوره الأزلى بحيث يبدو جامدا لا يتحرك ما لم تتواتر على مسرحه أحداث هى من صنع الإنسان أولا .

(٣١) النقد الأدبى - لأحمد أمين جـ١ ص٧ ، ٨ .

(٣٢) فن السيرة ص٩ للدكتور إحسان عباس - دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٦ .

(٣٣) مقدمة ابن خلدون ص٩ - المطبعة الشرقية بالخرنفش عام ١٣٢٧ هـ .

(٣٤) علم التاريخ للأستاذ هرنشو - ترجمة الأستاذ عبد الحميد العبادى « الفصل الأول »

فالإنسان هو صانع التاريخ الفذ لا يفوقه فى صناعته هذه صانع آخر وهى من صنع الحياة ثانيا تفرض نفسها على إرادة الإنسان . والصراع الذى يخوضه الإنسان فى معركة الحياة هو الدراما الخالدة على مسرح الزمن .

وقد تتجدد الصور والمناظر فى تلك الدراما ولكن أشخاصها وتواتر أحداثها باقيان فالإنسان هو الإنسان ومعركته خالدة ما بقى الزمن والحياة .

وجهد المؤرخ أن يبين الحقيقة وسط ركام الآراء والانفعالات والعواطف بل والإرادة التى كانت من وراء الوقائع « فإذا عمل المؤرخ على أن يتقصى جهد طاقته كل أسباب الخطأ واستطاع أن يستخلص الحقيقة التاريخية نقية بلجاء فإن هذا وحده لا يكفى وإنما عليه أن يربط تلك الحقيقة بالنزعات التى ساقتها »(٣٥)

فعمل المؤرخ أن يكشف فى النهاية عن النزعات البشرية التى تسوق الناس لعل تلك النزعات تنم عن الطاقة الكبرى الكامنة فى روح الإنسان فالتاريخ وإن كان أحداثا أو وقائع غبرت إلا أن غايته هى جلاء الحاضر والكشف عن حقيقته ولا يتسنى ذلك ما لم ينفذ المؤرخ إلى حقيقة النزعات التى تسوق الوقائع والأحداث حتى « تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا » كما يقول ابن خلدون فيما نقلناه عنه سابقا والمؤرخ بهذه الصفة فيلسوف أكثر منه راوية إلا أن يقص ما يرى أو يسمع على علاته دون أن يعرض لما يسمع أو يرى ببحث أو تحليل .

والرواية فى هذا مصدر من المصادر التى يرجع إليها المؤرخ فى بحثه شأنه فى ذلك شأن الآثار والمدونات التى تكون المادة الأساسية لبحث المؤرخ .

فالمؤرخ لا يقص خبر الأحداث فحسب بل يفلسفها ويتحرى العلل فى وقائعها والنزعات التى تسوقها ليفسر على ضوئها أحداث الحاضر الذى يعيشه وليس فى مقدوره أن ينزع نفسه من حاضره فكل ما يعنيه أن يتخذ من الماضى وسيلة لفهم نفسه وإدراك ما يحيط به وتلك هى فائدة التاريخ وجدوى عمل المؤرخ ... والمؤرخ غير الفيلسوف إذ بينما يقف المؤرخ أمام الواقعة التاريخية باحثا منقبا عن نشأتها ومجراها ودلالتها .. ترى الفيلسوف يطل على عالم التاريخ كله فى صورته الكونية العامة لا يعنيه العرض قدر ما ينفذ إلى الجوهر ولا يهيم بالواقعة قدر ما يهيم بالعلية فيغوص وراء الواقعة بحثا وراء الجوهر وسعيا وراء الكل .... ثم يضع مذهبا يفسر به الواقعة وكثيرا ما يعبر به المؤرخ عبورا هينا فلا يعنى به قدر ما يعنى بحقيقة الواقعة ذاتها وارتباطها بزمان ومكان معينين « ولفظ التاريخ حتى فى معناه العلمى المجرد قد لا يعنى شيئا على الإطلاق إلا أن يكون بحثا أو

(٣٥) التاريخ والسير للدكتور حسين فوزى النجار ص١١ ، ١٢ - دار القلم بالقاهرة .

طريقة للبحث وليس له موضوع ما لم يقترن بصفة تميزه كالتاريخ السياسى ونعنى به تاريخ دولة من الدول .

وبهذا الفهم ألف أبوحنيفة الدينورى كتابه « الأخبار الطوال » وجعل موضوعه التاريخ السياسى للدول من شتى الأجناس حتى إذا وصل إلى عصر المتوكل الخليفة العباسى أحجم عن الخوض فى أحداث هذه الحقبة لأن حسه التاريخى قد تنبه وبدأت صور الماضى تتجدد على مسرح الأحداث فربأ بنفسه أن يلقى بها فى مهاوى التهلكة لقد اشتد الصراع على السلطة فلم يشأ أبوحنيفة أن يزج بنفسه فى أتون هذا الصراع لأن العاقبة غير مأمونة ويجب أن يستفيد أبوحنيفة من دراسته لتاريخ السابقين .

وقد شارك أبوحنيفة فى الإحجام عن التاريخ السياسى لهذه الحقبة مؤلف عربى آخر هو ابن قتيبة الذى تحدث فى كتابه الإمامة والسياسة عما طرأ على الحياة السياسية عندالمسلمين منذ عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى آخر عهد الرشيد ثم أشار إشارة عابرة إلى الفتنة التى وقعت بين الأمين والمأمون ثم أمسك عن الحديث لماذا ؟ لأن الحديث لانفع من ورائه ولأن الملك صار فى يد صبية أغمار ولأن البلاد اجتاحتها موجة من الزندقة والكفر وانصرف الخلفاء إلى اللهو ولم تعد بهم حاجة إلى العلماء .

وإليك ما يقول ابن قتيبة فى آخر كتابه المذكور :

« فتم بعون الله تعالى ما به ابتدأنا وكمل وصف ما قصصنا من أيام خلفائنا وخبر أئمتنا وفتن زمانهم وحروب أيامهم وانتهينا إلى أيام الرشيد ، ووقفنا عند انقضاء دولته إذ لم يكن فى اقتصاص أخبار من بعده ونقل حديث مادار على أيديهم وكان فى زمانهم كبير منفعة ولا عظيم فائدة وذلك لما انقضى أمرهم وصار ملكهم إلى صبية أغمار غلب عليهم زنادقة العراق فصرفوهم إلى كل جنون وأدخلوهم إلى الكفر فلم يكن لهم بالعلماء حاجة واشتغلوا بلهوهم واستغنوا برأيهم[٣٦] . »

ولنا عدة ملاحظات على حديث ابن قتيبة :

فهو يرى أن الحديث عن هذه الحقبة ليس فيه كبير منفعة ونحن نرفض هذا كل الرفض - فعصر المأمون وحده من أحفل أيام العباسيين بالعلوم والآداب والفنون إن لم يكن أحفلها كما بينا ذلك سابقا .

ثم انه يرى أن الخلفاء بعد الرشيد صبية أغمار فهل كان المأمون والمعتصم كذلك ؟

إن المأمون والمعتصم رجلا سيف وقلم ولهما جولات فى هذين الميدانين وكان مجلس كل منهما حافلا بالعلماء والأدباء والقادة .

(٣٦) كتاب الإمامة والسياسة تأليف أبومحمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ص١٧٢ - طبع منصور عبد المتعال بمطبعة الأمة سنة ١٣٢٨هـ

ولعل ابن قتيبة نقم عليهم اعتزالهم فكرههم ..... ومن هنا نرى أن أبا حنيفة الدينورى كان أدق وأصدق حينما تابع حديثه عن التاريخ السياسى إلى آخر عهد المعتصم ثم أحجم عن الحديث عن عصر المتوكل وما بعده إذ أن هذه الحقبة التى أغفلها أبو حنيفة الدينورى هى التى يصدق عليها وصف ابن قتيبة.

ويؤيد ذلك ماذكره ابن الطقطقى من أن وزراء هذه الفترة كانوا يكرهون أن تقف ملوكهم على شئ من السير والتواريخ خوفا أن يتفطن الملوك إلى أشياء لا يحب الوزراء أن يتفطن لها الملوك .... وانما يقدم الوزراء لملوكهم عند الطلب كتب الحكايات التى تلهيهم والأشعار التى تطربهم وكان الوزراء يكرهون أن يكون فى الخلفاء والملوك فطانة ومعرفة بالأمور بل إن الوزراء وجدوا من بعض الكتاب وبكل أسف يصفهم ابن الطقطقى بأنهم عقلاء وجد الوزراء من هذا البعض من يدله على الطريق الملتوية والكسب الرخيص وتفضيل الخليفة الجاهل الصغير على الخليفة العالم الكبير.

وإليك ما يقوله ابن الطقطقى فى ذلك :

وأصلح ما نظر فيه الملوك ما اشتمل على الآداب السلطانية والسير التاريخية المطوية على طرائف الأخبار وعجائب الآثار. على أن الوزراء كانوا قديما يكرهون أن الملوك يقفون على شئ من السير والتواريخ خوفا أن يتفطن الملوك إلى أشياء لا يحب الوزراء أن يتفطن لها الملوك.

طلب المكتفى من وزيره كتبا يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه فتقدم الوزير إلى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله إلى الخليفة فحصلوا شيئا من كتب التاريخ وفيها شئ مما جرى فى الأيام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحيل فى استخراج الأموال فلما رآه الوزير قال لنوابه : والله إنكم أشد الناس عداوة لى أنا قلت لكم حصلوا له كتبا يلهو بها ويشتغل بها عنى وعن غيرى فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء وبوجده الطريق إلى استخراج المال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها ردوها وحصلوا له كتبا فيها حكايات تلهيه وأشعار تطربه.

وكانوا يكرهون أن يكون فى الخلفاء والملوك فطانة ومعرفة بالأمور .. لما مات المكتفى عزم وزيره على مبايعة عبد الله بن المعتز .... وكان عبد الله فاضلا لبيبا محصلا فخلا به بعض عقلاء الكتاب وقال له أى هذا الوزير هذا الرأى الذى قد رأيته فى مبايعة ابن المعتز ليس بصواب ... قال الوزير كيف ذلك ؟ قال :

أى حاجة لك أن تجلس على سرير الخلافة من يعرف الذراع والميزان والأسعار ويفهم الأمور ويعرف القبيح من الحسن ويعرف دارك وبستانك وضيعتك ... الرأى أن

تجلس صبيا صغيرا فيكون اسم الخلافة له ومعناها لك فتربيه إلى أن يكبر فإذا كبر عرف لك حق التربية وتكون أنت قد قضيت أوطارك مدة صغيرة فشكره الوزير على ذلك وعدل عن عبد الله ابن المعتز إلى المقتدر وعمره يومئذ ثلاث عشرة سنة[٣٧] .

وبعد فأرجو أن يكون السر فى امتناع أبى حنيفة الدينورى عن تدوين أحداث هذه الفترة أرجو أن يكون هذا السر قد اتضح علاوة على أن أبا حنيفة لو فرض وأنه كتب عن هذه الفترة فإن كتابته لا تعد تاريخا بالمعنى الفنى لكلمة التاريخ على أقل تقدير فى نظر أبى حنيفة إذ لابد من مرور فترة طويلة على الأحداث حتى تختمر وتستقر ثم يكتب المؤرخون عنها ، فما يكتب أثناء الأحداث إذن إنما هو مذكرات وليس بتاريخ محقق .

السير والتراجم :

وإذا جاز لنا أن نذكر لأبى حنيفة شبيها بين المؤرخين العالميين الكبار الذين خططوا للتاريخ مجراه فإن أبا حنيفة يذكرنا « بثيوسيديد[٣٨] » (٤٧١ - ٤٠١ق.م) الذى جاء بعد هيرودوت وفاق هيرودوت فى اكتناه جوهر الحقيقة من بين شتى الروايات وفى صوغ القصة التاريخية غير أنه حصر التاريخ فى ميدان ضيق فحمله على الحرب والسياسة حين أفرط فى سرد أحداث السياسة والحرب فى تاريخه « لحرب البلوبنيز » وهى الحرب التى دارت بين أثينا وأسبرطة وقادته تلك النظرة الضيقة : إلى تمجيد الأفراد والإعلاء من شأن البطولة وهى نظرة سادت الدراسات التاريخية لزمن طويل وهو صاحب النظرية المشهورة عن « دورة التاريخ » بمعنى أن التاريخ يعيد نفسه فمن المفيد معرفة ما حدث فى الماضى إذ من المحتمل أن يحدث فى المستقبل شئ من قبيل ما حدث فى الماضى فكأنه اتخذ من التاريخ أداة لرسم طريق المستقبل أكثر مما هو لجلاء الحاضر وتفسيره[٣٩] .

وإن كان من الأنصاف لأبى حنيفة أن نذكر أن عقيدته الإسلامية قد هذبت من التطرف فى تمجيد الأفراد عنده على نحو ما سنوضحه بعد قليل .

ونكتفى بهذا القدر فى الحديث عن التاريخ لننتقل إلى حديثنا الأصلى وهو الحديث عن السير والتراجم .

والواقع أن السير والتراجم تحتل مكانا مرموقا فى مدونة التاريخ فإذا كان التاريخ هو البحث وراء الحقيقة وتمحيصها وجلاء غموضها فى أى جانب من جوانب الحياة

---

(٣٧) كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية تأليف محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ص ٥ ، ٦ - طبع بمطبعة الموسوعات بمصر بباب الشعرية على نفقة شركة طبع الكتب العربية بمصر فى سنة ١٣١٧هـ .

(٣٨) قصة الأدب فى العالم جـ١ص٢٢٥ - ٢٣٢ لأحمد أمين ، زكى نجيب محمود .

(٣٩) التاريخ والسير ص ٢١ - للدكتور حسين فوزى النجار .

الإنسانية فإن السيرة هى البحث عن الحقيقة فى حياة الإنسان الفذ والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التى عاشها والأحداث التى واجهها فى محيطه والأثر الذى خلفه فى جيله لذلك كانت أقرب إلى التأثير الدرامى من كل ألوان التاريخ الأخرى وكانت أكثر إثارة للقارئ من كل كتابة تاريخية غيرها حيث تجيش بكافة الانفعالات والعواطف التى تثور فى أعماق البشر والتى تتجرد منها الواقعة التاريخية كحدث وان كانت من عمل الإنسان ذاته ... ذلك أننا حين نقص من خبر الواقعة التاريخية نجردها من كل ما يدعو إلى الحدس والتخمين من أسرار النفس الإنسانية وحوافزها فتبقى عارية إلا من الحقيقة وحدها فهى التى تضفى عليها رداء التاريخ وبهجته وهى التى تحببها إلى النفس الانسانية حين تحدوها غريزة حب الاستطلاع إلى معرفة ما جرى وقد تطغى السيرة على التاريخ وتحتل الجانب الأكبر من مدونته فمن فلاسفة التاريخ من يرى أن التاريخ ليس إلا سيرة عظماء الرجال بل هناك من يراها إحدى سمات التفكير التاريخى البدائى[٤٠].

إلا أن السيرة لا تحتل مكانها الحقيقى فى مدونة التاريخ مالم تكن هى نفسها تعبيرا عن الحقيقة التاريخية ..... الحقيقة التاريخية التى تجمع بين البطل والقوى الاجتماعية التى تتجاوب معه وتحدوه إلى الغاية التى تنشدها.

وهكذا صنع أبوحنيفة الدينورى فى الأشخاص الذين كتب سيرتهم فقد عرضهم وسط خضم الأحداث الاجتماعية المتصارعة ثم جعلهم يتخطون الأحداث، ويصلون إلى الغايات التى ينشدونها.

ويجدر بنا أن نلقى نظرة عامة على تطور فن السيرة عند العرب، ونبين المدارس الفنية لكتابة السيرة حتى نستطيع أن نرى إلى أى هذه المدارس ينتسب أبوحنيفة الدينورى.

ومما لا شك فيه أن العرب فى جاهليتهم كانوا ولوعين بالأخبار التى تتصل بأنسابهم.. ومواطن بلائهم فى أيام اللقاء بأعدائهم وانتصاراتهم فى حروبهم القبلية، ونعلم جميعا حرص العرب على الأنساب واتخاذها أساسا للمفاخرة واعتمادهم على الذاكرة فى حفظها وكم تغنى شعراء القبائل بكرام فعال الأجداد وعددوا مثالب أعدائهم من القبائل الأخرى ولكن بعد ظهور الإسلام تغير طابع هذه الأخبار ووجد جنس التاريخ بخصائصه العربية:

فحين تمت الفتوحات العربية الرائعة وتغلب العرب على الفرس والروم ودخل الناس فى دين الإسلام أفواجا ظلت شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام مثار الإجلال

---

(٤٠) المرجع السابق ص١٥

والروعة بخاصة لدى من لم يروه من المسلمين فكانوا يتوقون إلى معرفة أخباره وتفاصيل حياته وأقواله على أن هذه الأقوال والأخبار مصدر هام من مصادر التشريع الإسلامى .

وحول شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام وجد جنس التاريخ عند العرب ووضحت خصائصه ولذلك اصطبغ هذا الجنس الأدبى صبغة دينية فقد بذل رواة الأحاديث جهودهم فى ضمان صحة الأحاديث التى يروونها عن الرسول ﷺ ولكى يتم لهم توكيد الرواية تطلبوا أن تكون الحادثة مروية أولا عن شاهد عيان ثقة روى بدوره عن رواة آخرين من الثقات حتى تنتهى سلسلة الرواية إلى الراوى المعاصر للحادثة .. وقد ظن العرب وهم الذين لم يعتمدوا على الكتابة فى جاهليتهم أن هذه الطريقة من الرواية الشفوية أقوى ضمانا لصحة الرواية من الكتابة بل كانوا فى البدء يتحرزون من الاعتماد على الكتابة .

ويضيف مؤرخو العرب إلى ذلك حرصهم على إيراد الحادثة الواحدة بأسانيد مختلفة كل سند منها ينتهى إلى شاهد رأى بنفسه الحادثة أو عاصرها ، وهم يرون فى إيراد مختلف الروايات على هذا النحو ضمانا آخر لصحة ما يروون .

وقد انتقل هذا الطابع الدينى للتاريخ من رواية الاخبار إلى رواية الأدب والأشعار كما فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (٢٨٤ - ٣٥٦هـ) وكما فى كتاب الامالى لأبى على القالى (٢٨٨ - ٣٥٦هـ) .

وقد يكون فى رواية التاريخ على هذه الطريقة نوع من الاستقصاء لما ورد فى المسألة الواحدة ولكن هذه الطريقة خالية من النقد يجمع المؤرخون فيها الروايات المتضاربة على حسب سلسلة الرواة تاركين لسواهم مهمة التمحيض والنقد فهذه الطريقة تجميع لمواد التاريخ ولها قيمة علمية كبيرة ولكنها ليست التاريخ المنتظم الحلقات .

ومنذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ترجمت إلى العربية كتب كثيرة من التاريخ الايرانى أثرت أيما تأثير فى جنس التاريخ الأدبى عند العرب .. وكان الإيرانيون يعتمدون على الكتابة لا على الرواية الشفوية وكانوا ينقلون عن وثائق مدونة وكانت كتبهم التاريخية متتابعة القصص غير مقطوعة بأسانيد الرواية وقد سار على طريقتهم كثيرون ممن ألفوا فى التاريخ باللغة العربية كالبلاذرى والمسعودى .... وصاحبنا أبى حنيفة الدينورى .

على أن التاريخ عند الايرانيين كان يختلط بالاسمار والحكايات الخلقية وقواعد السلوك العامة ثم كان النقد التاريخى متخلفا فى هذه الكتب فكانت تحكى الأساطير على أنها حقائق .

فأبو حنيفة يحكى عن الضحاك أنه « نبتت فى منكبيه سلعتان كهيئة الحيتين تؤذيانه حتى يطعمها أدمغة الناس فتسكنان قالوا : فكان يؤتى كل يوم بأربعة رجال جسام فيذبحون وتؤخذ أدمغتهم فيغذى بها تانك الحيتان ..... الخ[٤١] .

ويحكى عن أبرهة بن الملطاط أنه لما توجه إلى أرض المغرب « سار حتى انتهى إلى أمة من الناس أعينهم وأفواههم فى صدورهم ويقال إنهم أمة من ولد نوح عليه السلام غضب الله عليهم فبدل خلقهم فأعطوه الطاعة وانصرف راجعا فمر بأمة من الناس يقال لهم النسناس للرجل والمرأة منهم نصف رأس ونصف وجه وعين واحدة ، ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة يقفزون قفزا فى أسرع من حضر[٤٢] الفرس الجواد ، وهم يهيمون فى الغياض التى على شاطئ البحر خلف رمل عالج يعنى رمل بلاد اليمن فسأل عنهم فأخبر أنهم أمة من ولد وبار بن ارم بن سام بن نوح[٤٣] .

وأبو حنيفة حين يحكى هذه الأساطير يحكيها على أنها حقائق ، ويختلط عالم الغيب فى هذه الكتب بعالم الناس ثم كانت كتب التاريخ فى جملتها تعنى بسير الملوك ومن يلتحق بهم دون احتفال بأحوال الشعب ومعارفه[٤٤] .... ونستطيع أن نفهم من هذا أن السيرة النبوية كانت أول عمل من أعمال التدوين التاريخى يقوم به العرب حين مست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وحياته استقصاء للسنة فحملت رجالا توفروا على جمع أخبارها وتدوينها ، وكان ذلك بداية اشتغال العرب فى الإسلام بالتاريخ واحتلت السيرة والتراجم مكانا مرموقا فى تاريخ العرب[٤٥] .

إلا أن كتابة السير عند العرب لم تحفل بنظرية الرجل العظيم كما حفل بها مؤرخو اليونان والرومان ذلك أن البطل فى التاريخ الإسلامى لم يكن غير ظاهرة اجتماعية لروح العقيدة الدينية التى سادت المجتمع الإسلامى يستمد كل فضائله من تعاليم الشريعة والقصة التالية تدلنا على ذلك .

فقد جاء فى كتاب الأخبار الطوال[٤٦] تحت عنوان « قتل أبى مسلم الخراسانى » وحينما كان أبو مسلم يحاور أبا جعفر قال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين : أنسيت حسن بلائى ، وفضل قيامى وإتعابى نفسى ليلى ونهارى حتى سقت هذا السلطان إليكم » ؟

(٤١) الأخبار الطوال ص ٤ ، ٥

(٤٢) ارتفاع الفرس فى عدوه

(٤٣) الأخبار الطوال ص ١٢ ، ١٣

(٤٤) الأدب المقارن - للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٢٥٥ - ٢٥٥ط المطبعة العالمية ١٩٦٢ الطبعة الثالثة .

(٤٥) فن السيرة ص١٢ - ١٤ للدكتور إحسان عباس - دار بيروت ١٩٥٦

(٤٦) الأخبار الطوال ص ٣٨١

قال أبو جعفر : يا ابن الخبيثة ، والله لو قامت مقامك أمة سوداء لأغنت غناك ، انما تأتى لك الأمور فى ذلك بما أحب الله .... الخ » .

فأنت ترى من ذلك أن عظمة أبى مسلم وبطولته لم يكن لها أى أثر فى نظر أبى جعفر وأن الأمر كان صائرا لبنى العباس لو لم يكن أبو مسلم بل أن أمرأة سوداء كانت تغنى غناء أبى مسلم .

وقد سوت الشريعة الإسلامية بين الناس الا فى طاعة الله -(إن اكرمكم عند الله أتقاكم)ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى - ثم إن الخوارق والمعجزات والعبقريات الفذة التى بقيت تسيطر على مشاعر مؤرخي الإغريق والرومان من تأثير الأساطير القديمة حملتهم على تمجيد البطولة والدور الذى يقوم به الرجل العظيم ولم يكن لهذا التأثير نظيره فى الفكر الاسلامى فقد حرر الاسلام العقل من آثار الماضى تماما وانبعث فى ظله مجتمع جديد تحدوه عقيدة جديدة خلت تماما من تمجيد الفرد إلا بقدر ما يعمل فى طاعة الله .

ولهذا قلنا سابقا إن العقيدة الدينية هذبت من تمجيد الفرد عند أبى حنيفة الدينورى فالبطل عنده بل وفى سائر السير والتراجم العربية لا يصنع ولكنه فى إطاره صورة تتمثل عصره وبيئته ولايعدو كونه ظاهرة اجتماعية تتفاعل فيها أحداث عصره وهذا ما انتهت اليه كتابة السير فى التاريخ الحديث والسير كمبحث من مباحث التاريخ تمثل حياة إنسانية متكاملة من المهد إلى اللحد بل انها تصل إلى ما قبل المهد من تاريخ الآباء والاجداد وتمتد بعد اللحد فيما تخلفه من أثر فى جيلها وفى الاجيال اللاحقة .

وهى أحفل بالتخيل من التاريخ المجرد وكاتبها أشبه ما يكون بعالم الأحياء الذى برع فى إعادة تركيب حيوان بائد منه بعالم الأحياء الذى يرد الأنواع الى أصولها الأولى فهو أقرب إلى طبيعة الفنان من المؤرخ المجرد ذلك أن البناء التاريخى أشبه برد هيكل عظمى إلى ما كان عليه فاذا كان لعالم الأحياء أن يبحث لكل عظمة عن مكانها فى الهيكل العام فإن على كاتب السيرة أن يرد كل حقيقة تاريخية إلى موضعها من حياة صاحبها .

والتخيل هو الذى يضفى على الصورة كما يضفى على التاريخ تلك الحيوية التى ندركها فى إحساسنا بالتاريخ وهو الذى يربطنا بالحياة الماضية وبالواقع الذى نعيشه فى ظلها .

وفى السيرة نجد أن الحدث أو الواقعة أو العمل يلفظ أدق مقدم على الزمن فهو الذى يحتل وحده دون الزمن الإطار الأكبر فيها بمعنى أن الأفعال العظيمة التى يقوم بها فرد هى التى تجذب اليه انتباه التاريخ وهى التى تفتح له أبوابه وهى التى يعنى بها مؤرخ السير وإن كانت السيرة فى الواقع هى الامتداد الزمنى لحياة صاحبها من المهد إلى اللحد إلا أن الأعمال العظام التى تنسب إليه قد لا تحتل من الامتداد الزمنى إلا بعضه .

وعلى هذا الأساس كتب أبو حنيفة الدينورى سيرة عظمائه ولكننا فى العصر الحديث حين نكتب سيرة من السير نذهب إلى أبعد من تلك الأعمال العظام التى تنسب إلى صاحبها فنغوص فى تاريخه إلى نشأته وطفولته ودراسته بل ونذهب إلى أبعد من ذلك فنتقصى حياة أبويه وأسرته ولعلنا لا نبغى إبراز المؤثرات التى كونت طفولته قدر ما نبغى اكتمال الحقائق التاريخية التى تتصل به وإن كان مما يهم السيكلوجيين تحليل العناصر التى كونت شخصية البطل حتى يجدوا تعليلا لتفرده فيغوص الواحد منهم فى أسرار طفولته وحياته ويتقصى أهواءه وملامحه الشخصية ليستقرئ منها ما يراه أساسا لتفسير الحوافز النفسية للبطل ثم يرد أعماله الى تلك الحوافز مما ينفر منه المؤرخ الذى يرى فى الواقعة التى حدثت وحدها تفسيرا لكل سلوك أو حافز فالسيكلوجيون يقيمون بناءهم على الفروض والاحتمالات التى ينفر منها المؤرخ الذى يقيم بناءه على الحقائق المجردة وحين يلجأ إلى إبراز سمة غلبت فى حياة البطل فإنه يراها فى الأعمال التى تمت فعلا على يديه .

وقد تخدعنا نشأة البطل فلا تنم عن ذلك التفرد الذى صار إليه إذا قيست النتائج بالمقدمات فقد كان « ونستون تشرشل » الذى قاد بريطانيا إلى النصر تلميذا متأخرا كثير الرسوب وكان صبيا مشاكسا ولم ينجح « أديسون » شيخ مخترعى العصر الحديث فى مدرسة ولو تتبعنا طفولة كثير من عظماء التاريخ ما وجدنا فيها لمحة من لمحات العبقرية التى نقيسها عادة بالتفوق الدراسى والانسجام الاجتماعى إلا أننا لا نضل بادرة توحى بشيء مالا يستطيع الناس تفسيره فى حينه حتى إذا ولج مدونة التاريخ رأى فيه مؤرخو السير بعض ما ينشدون من دلالات التفرد والنبوغ .... ومهما كانت طفولة البطل أو العظيم ومهما كانت نشأته فان اعماله وحدها ونبوغه وتفرده هى فى الحقيقة هيكل سيرته اذا نضبت تلك الاعمال وغالبا ما تنضب إذا أقصى البطل عن ميدانه أو ألمت به كارثة ذهنية تودى بذكائه أو عقله أو كارثة اجتماعية تصيبه لم يعد فى سيرته ما يستحق الذكر أو التنوية وتكون النهاية كما كانت البداية الإطار الذى يحتمله العمل العظيم للبطل من سيرته .

وقد يتسنم البطل ذروة المجد حتى نهاية حياته ويكون الموت وحده ختام سيرته . ومن هنا ندرك أن المنهج الذى سار عليه أبو حنيفة الدينورى فى كتابة السيرة منهج سليم فالسيرة التاريخة هى قصة العمل العظيم الذى قام به صاحبها والزمن فى حساب مؤرخى السير هو الزمن الذى امتدت فيه أعمال صاحب السيرة أما العمر فهو الإطار الذى يحيك فيه المؤرخ سيرة يكتبها .

والسيرة قصة تاريخية لا تشذ أبدا عما يفيد التاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء إلا أنها قصة تتعلق بحياة إنسان فرد ترك من الأثر فى الحياة ما جذب اليه التاريخ وأوقفه على بابه وهى أحفل من التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجياشة والأحاسيس النابضة لأنها تعرض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة حتى تتجلى مقومات شخصيته وتبرز معالم حياته لتفصح عن سر نبوغه وتفرده إذ لا تحفل السير إلا بكل نابغة فريد .

لهذا كانت كتابة السير أمرا غير يسير لا يقدر عليه إلا من أربى على قدرة المؤرخ وإحساس الأديب معا فالسيرة ليست سجلا لحياة فرد من مولده إلى مماته ولكنها قصة إنسان فذ أو متميز بكل ما ينبض به قلب هذا الإنسان من أحاسيس وعواطف وما اعتور عقله من فلتات الذكاء الفذ والخيال الجامح وأبرز ما فى السيرة هو العمل الكبير الذى قام به صاحبها والأثر الفعال الذى تركه بعمله فى الحياة الإنسانية وبقدر ما يعظم هذا العمل ويعظم تأثيره بقدر ما يحفل به التاريخ فيقص خبره ويروى سيرة صاحبه .

السيرة والحافز :

وهذا العمل هو المحور الكبير الذى يدور حوله كاتب السيرة وكل ما عداه من جوانب السيرة الأخرى كالنشأة والتربية والحياة العامة التى يحياها صاحب السيرة ما هى إلا منافذ ينفذ منها كاتب السيرة إلى الحافز الذى قاد صاحبه إلى العمل التاريخى وما لم يصل كاتب السيرة إلى هذا الحافز ويتقصى أسبابه وعوامله كانت روايته قصة باهتة لا نبض فيها ولا حياة فهى سرد لحياة تبدو عادية إذا جردناها من هذا العمل الذى يشد التاريخ إلى صاحبه وإذا قص صاحب السيرة خبر هذا العمل مجردا من الحافز الذى دفع اليه فكأنه قد جرد الجسم من روحه فالحافز هو القوة الباهرة التى تحرك العبقريات والمواهب فما لم يكن هناك حافز لا تثمر عبقريته أو موهبته .

وقد يقال ان الحافز جزء من الطبيعة الإنسانية وأنه يتكون فى الإنسان منذ نشأته الأولى وليس كل حافز مما يقود إلى عمل تاريخى وليس كل حافز مما يمكن أن تلهمه العبقرية إلى عمل تاريخى فقد يوجد الحافز ولا توجد العبقرية التى تسنده للقيام بعمل تاريخى وقد توجد العبقرية ولا يوجد الحافز الذى يقود إلى عمل تاريخى اذ يكون الحافز فى هذا المجال قاصرا لا يصل بصاحبه إلى تلك الآفاق الرحبة التى تسع الحياة جميعا وتقود إلى العمل التاريخى فإذا امتد الحافز إلى تلك الآفاق الرحبة التى تسع الحياة جميعا دون أن تلهمه العبقرية ويقوده الذكاء كان الفشل رائده وأورث صاحبه مرض العظمة الكاذبة أو الانطواء النفسى .

وفى الحافز تتحد إرادة الإنسان حيث يستبين امتداد حوافزه فتتحد إرادته ويتحدد سلوكه وفقا لهذا الامتداد بل وكثيرا ما تتحد معالم شخصيته وفقا لذلك أيضا وخاصة بين الساسة ورجال الحكم ممن يفرض عليهم اتصالهم بالجماهير نوعا من السلوك المحدد والفضائل المعينة التى تستهوى تلك الجماهير فالبحث عن الحافز فى حياة صاحب السيرة هو مطلب كاتب السيرة حتى يستطيع أن يجلو تلك السيرة على حقيقتها ويعرضها سافرة واضحة القسمات أمام التاريخ .

الموهبة والحافز :

وغالبا ما تسبق الموهبة الحافز فى مجال النشؤ والارتقاء بمعنى أن الموهبة توجد أولا ثم يعقبها الحافز أو أن الحافز هو رد فعل للموهبة ويتحتم علينا تبعا لذلك أن نتقصى الموهبة فى كتابة السيرة قبل أن نتقصى الحافز إلا أن الموهبة لا ترد إلى عمل ما لم يدفعها حافز والحافز هو القوة الفعالة التى تحرك صاحب الموهبة والحركة التى ترد إلى عمل هى التى تعنى المؤرخ ولا تعنيه الموهبة إلا من حيث العمل الذى نم عنها وهى فى النهاية عند المؤرخ وصف لهذا العمل فيقال شاعر عبقرى وسياسى محنك وحاكم قادر وقصاص بارع وكاتب لماح ومخترع ماهر .... الخ .

وقد يقال ان الموهبة قد تعبر عن نفسها فتلج بصاحبها رحاب التاريخ دون أن يسبقها حافز فالشاعر الذى ينظم قصيدة يخلدها التاريخ والروائى الذى يكتب قصة تبقى على الزمن ومكتشف الميكروب حين يحفظ له التاريخ هذا الكشف ويحمده له وغير هؤلاء ممن تحملهم مواهبهم إلى آفاق رحبة من المعرفة والكشف عن المجهول أو السعى وراء الحقيقة والخير والجمال .... كل هؤلاء كانت الموهبة هى القدرة البارعة وراء العمل التاريخى الفذ وهى التى تكون الحافز وتدفعه للتعبير عنها وخاصة عند الفنان فكثيرا ما يبدو الفنان وليس لديه حافز الا التعبير عما يجول بخاطره أو ابرازه فى صورة من الصور الفنية العديدة للفن .... بينما يبدو العالم أو المكتشف وقد تكونت لديه فكرة هى فى الواقع نتاج تلك الموهبة التى تميز بها وتظل تلك الفكرة تلح عليه حتى يجلوها أو يكشف عما يريده منها كما أنها غالبا ما تكون نتيجة دراسة سابقة ولكن الدراسة لا يمكن أن تقوم على الجهد وحده دون الموهبة فالموهبة لدى العالم أو المكتشف هى الحافز للعمل كما هى الحافز للتعبير الفنى لدى الفنان وطبيعة هذا الحافز هى التى تعنى كاتب السيرة حتى يتبين الملامح الحقيقية للسيرة التى يترجمها وقدر العمل الذى قام به بين وقائع التاريخ فتكون السيرة صورا صادقة لحياة صاحبها فالحافز هو الذى يقف وراء العمل والموهبة هى التى تحدد اطاره .

العمل :

والعمل الذى يؤدى إلى ما نسميه بالواقعة التاريخية لابد وأن يتميز بالجهد والمثابرة فإذا أبعدنا عنصر المصادفة فى السيرة نجد أن العمل هو الذى يحدد الإطار العام للواقعة التاريخية هذا على اعتبار أن العمل قد تم فعلا وأن الواقعة حدثت وتأكد المؤرخ من وقوعها فاذا انتقلنا من مرحلة التمحيص التاريخى إلى مرحلة اليقين فإننا أمام عمل تمثل فى واقعة تاريخية وهذا العمل الذى نتقصاه فى سيرة البطل أو ننتظره من الشخصية التاريخية بمعنى أن الفرق بين الشخصية التاريخية العادية هو الفرق بين العمل الذى يؤدى إلى اكتمال واقعة تاريخية - والواقعة التاريخية لا تكون إلا مكتملة على الدوام إذ أن عدم اكتمالها لا يؤدى إلى قيامها والعمل العابر المتواتر فى حياة الإنسان فهذا العمل العابر المتواتر فى حياة الإنسان أو حتى الإنسان البطل لا يكون حدثا تاريخيا وبالتالى لا يؤدى إلى قيام الواقعة التاريخية .

فالعمل الذى يعنى المؤرخ بتقصيه هو العمل الذى يكون حدثا تاريخيا ويؤدى إلى اكتمال الواقعة التاريخية .

والذى يعنينا من العمل فى كتابة سيرة من السير هو هذا العمل الفذ الذى حمل صاحب السيرة إلى رحاب التاريخ وميزه على غيره من البشر إذ أن التاريخ لا يعنى بغير المتميزين الذين تركوا طابعهم على صفحاته .... وهذا العمل الذى يحدد الطابع الخاص لشخصية السيرة أو الصفة التاريخية المميزة لها فتلك سيرة كاتب أو شاعر أو مفكر أو محارب أو رجل من رجال السياسة والحكم أو فاتك أو قرصان أو ثائر فالتاريخ لا يفرق بين أشخاصه الا من حيث الحكم على أعمالهم وتأثيرهم فى التاريخ وكلما امتد هذا العمل أو عظم التأثير احتلت السيرة صفحات أوسع من مدونة التاريخ .... وقد تعرض فى السيرة لكثير من الأعمال العابرة أو المتواترة فى حياة البطل ولكننا لا نتاولها لذاتها ولكن لما تعكسه من صورة البطل وخلاله التى تؤثر فى حوافزه أو تكشف عن لمحات من مواهبه الفذة التى ميزته على غيره .

وقد يعرض المؤرخ لكثير من التوافة فى حياته حتى وإن لم تعكس شيئا من صورته المتميزة وهنا يسعى المؤرخ جاهدا وهو يأمل أن يكشف عن جانب من جوانب شخصية البطل أو أنه يغرم بالطرائف التى تجذب انتباه الناس وإقبالهم على قراءته فيوغل فى استقصاء النزوات العابرة أو المغامرات العاطفية أو ألوان الشذوذ والمباذل إذا كان ثمة شذوذ أو مباذلة تستثير الناس أو تستهوى غرائزهم أو تكشف عن نوع من الضعف الإنسانى .

ولكن الذى يعنى به التاريخ هو فى الحقيقة ذلك العمل العظيم الذى تميز به البطل وترك أثره البالغ على صفحة الزمن .

وهذا العمل كما قلنا هو ثمرة الحافز أو الموهبة أو هما معا . وقد يكون وليد المصادفة أو التصميم ولكنه كليهما لا يعوزه الحافز ولا يخلو من الموهبة فالمصادفة حين تدق أبواب الحظ للرجل العظيم لابد وأن تتخيره من ذوى المواهب الفذة ممن يحملهم الحافز إلى غوارب المجد فإن دقت المصادفة أبواب الحظ لخامل أو لمهمل لا تلبث على بابه طويلا .. ولكن لتعبره إلى غيره من ذوى المواهب والهمم .

وقد ينتهى التصميم إلى غير ثمرة فيعبر به التاريخ لا يلقى إليه بالا إذ لا يحفل التاريخ إلا بما حدث فعلا وأثر فى سيره ولا يعنيه أن يتتبع محاولات الفشل والنجاح ما لم تثمر حدثا تاريخيا .

الزمان والمكان :

وحين نحدد الحافز أو الموهبة فى حياة صاحب السيرة نبحث عن العوامل التى كونت هذا الحافز فنعود بالسيرة إلى الإطار الذى نشأت فيه ويتحدد هذا الإطار بالزمان والمكان[٤٧] فالزمان هو مدى الوقت الذى تمتد فيه حياة أو عمل من حدود الزمن الكلى .... والمكان هو البيئة أو المجتمع الذى امتدت فيه تلك الحياة وهذا العمل من حدود البيئة العالمية فحياة الإنسان كغيره من مخلوقات الله تتحدد بزمن معين أيضا وفى هذا الزمان المحدد وفى تلك البيئة المعينة يثمر الحافز فى حياة الفرد عملا تاريخيا ويلج به فى رحاب التاريخ وقد لا يثمر ذلك الحافز مثل ذلك العمل فى زمن آخر أو فى بيئة أخرى فالزمان والمكان يلعبان دورهما أيضا وفى غاية البراعة فى تأهيل الفرد للعمل التاريخى تلك البراعة التى تضع أصحاب المواهب فى زمن يتفق مع مواهبهم تلك .

ولذلك فإن سيرة الشخصية التاريخية هى النتاج الحقيقى الرائع للتفاعل بين الزمان والمكان معا والامتداد الزمنى للشخصية التاريخية مساو للامتداد لحياته حتى إذا اقتصرت أعماله التاريخية على فترة معينة من امتداد عمره فإننا فى حاجة إلى دراسة الحوافز التى أدت إلى القيام بدوره التاريخى فى الفترة السابقة من عمره على تلك الفترة التى قام فيها بهذا الدور التاريخى وتمدنا نشأته الأولى بذخيرة لا تنضب من الأحداث التى تعيننا على التحليل والاستقراء بحيث نصل إلى تعليل واضح للدور التاريخى الذى قام به .

---

(٤٧) فن السيرة ص٨٥ – للدكتور إحسان عباس – دار بيروت للطباعة ١٩٥٦ .

الفرد والواقعة التاريخية :

ولكن أيها أجدر باهتمام المؤرخ : أهو العمل أم الشخصية ؟ أو بمعنى آخر أهو الواقعة التاريخية أم الفرد ؟

الواقع أن الحدث التاريخى هو الذى يبرز أهمية الشخصية التاريخية فإذا تناولنا سيرة شخصية تاريخية فإنما نتناولها على ضوء الأعمال التى قامت بها والتى جعلت منها شخصية متميزة تجذب اهتمام التاريخ من بين الملايين من الشخصيات التى لا يعنى بها ولا يلقى إليها بالا .

وإذن فالشخصية التاريخية هى المحور الذى تدور حوله أحداث التاريخ .

المؤرخ والحدث التاريخى :

ويختلف الحكم على الشخصيات التاريخية من مؤرخ إلى آخر ولكن ليس من حق أى مؤرخ أن يتجاهل حقيقة الحدث الذى تم وثبت وقوعه وإن أباح لنفسه بعض الحرية فى التعبير عن ذاته كمؤرخ فى الأحكام التى يوقعها على شخصياته التاريخية فالمؤرخ من نتاج التاريخ والمجتمع وعلينا قبل أن ندرس تاريخا قام به مؤرخ ما أن ندرس بيئته التاريخية والاجتماعية .

البطل فى التاريخ :

وقدرة الفرد على أن يصوغ إرادة عصره وأن يعبر عنها ويبلغها ويجعلها حقيقة واقعة لهى الجوهر الحقيقى للشخصية التاريخية أو للعظمة والبطولة فى مدلولها التاريخى وهما اللفظان السائدان لنعت الشخصيات التاريخية أو بعضها فإذا اخترنا سيرة نكتب عنها فإن اختيارنا لها يقوم على تقدير واع منا للدور التاريخى لصاحبها وهذا التقدير فى عرف المؤرخ هو فى إحساسه بالأثر الإنسانى الفعال لمن يكتب سيرته ...... وهنا تختلف مراتب العظمة ويختلف حكمنا عليها فمن العظماء من صعدوا إلى العظمة على ظهر قوى فعلا ومنهم من نالها عن طريق القوى التى يعمل على خلقها مما يحمله كثيرا على تحدى السلطة القائمة ومنهم من اتصف بها لأنه بذّ غيره فى موهبة من المواهب الإنسانية .

وقد يرى المؤرخ أن دوره ليس هو الحكم على الأحداث والأبطال وإنما دوره أن يدون الأحداث ولا يعرض لها بتحليل يصل به إلى ادراك طبيعة الاحداث والحكم عليها وحين يقف المؤرخ عند هذا الحد يفقدنا القدرة على تحرير أنفسنا من التأثير غير المناسب للزمان والمكان فإن قدرة الإنسان على التسامى فوق موقفه التاريخى لا تكتمل ما لم يكتمل إحساسه بالموقف التاريخى .

وحين يكتمل إحساس المؤرخ بالموقف التاريخى يستطيع أن يرى من العظماء من هو أحق باجلال التاريخ من غيره وفى هذا يتمايز الحكم على أبطال التاريخ وفقا لإحساس المؤرخ بأحداث التاريخ .

المؤرخ كالبطل ظاهرة اجتماعية :

وقد تجرد المؤرخ بهذا من فرديته إلا أن المؤرخ كغيره من الناس ليس فردا بقدر ما هو ظاهرة اجتماعية .... وفى كلا الحالين عليه أن يتحرر من نوازع فرديته ومن ضغط مجتمعه حتى يتكامل إحساسه بالموقف التاريخى ..... فإذا اكتمل إحساس المؤرخ بالموقف التاريخى فإنه يستطيع أن يصنع من كتابة السير تاريخا طيبا فالسير التى تنظر إلى الإنسان باعتباره فردا تصنع فى العادة تاريخا رديئا ففيها ينفعل المؤرخ بشخصية صاحب السيرة أكثر من انفعاله بالموقف التاريخى الذى يحيط بها أو ينجم عليها .

وقد تتبع السيرة أسلوب الأدب حين تعطينا رواية تاريخية تضفى على البطل كل أردية المجد والعظمة وتبعث فى نفس القارئ من الشوق والشغف مالا تبعثه السيرة التاريخية ولكن التاريخ لا يكتب قصة بقدر ما يكتب بحثا .... فالتاريخ هو البحث فى ماضى الإنسان بصفته ظاهرة اجتماعية أو بمعنى أدق البحث فى ماضى الإنسان فى المجتمع .

ومع هذا فإن انفصال كاتب السيرة بسيرة من يكتب عنهم هو أقوى صور الانفصال التاريخى ولذلك فإن السيرة كثيرا ما تقترب من سمت الأدب كما يقترب كاتبها من سمت الأديب .

فالسيرة يمكن أن تصنع تاريخا جيدا إذا استطاع المؤرخ أن يزن التأثير المتبادل بين البطل والمجتمع الذى يعيش فيه وأن ينفعل بالأثر التاريخى كما ينفعل بشخصية البطل وأعماله وبقدر ما يكون إحساس كاتب السيرة بالزمان والمكان يكون انفعاله بالبطل وأعماله .

السيرة قصة إنسانية كما هى تاريخية :

وفى كتابتنا للسيرة علينا أن نستهدى تلك الحقائق فالسيرة قصة إنسانية وهى تاريخ حق يمثل أبرع فنون الكتابة التاريخية وهى امتداد لحياة عظيم فى زمان ومكان معينين ويمتد الزمن بها إلى ما وراء جيلها ثم إنها تمثل مواقف تاريخية لها حوافزها ومراميها ... وراءها تكمن عبقرية مواتية ومواهب تضفى على الموقف التاريخى طابعا معينا .

وفى كتابة السير يجب أن تتم كتابتها عن صاحبها تماما كما يتم الحدث التاريخى عن الموقف التاريخى الذى يلابسه وإلا جاءت باهتة لا ترى بينها وبين غيرها اختلافا أو تمايزا .

والسيرة أكثر نبضا بالحياة من التاريخ ففيها نلمس الإنسان مباشرة أما فى التاريخ فإننا نلمس الإنسان عن طريق الأحداث التاريخية التى أحاطت به وعلى مؤرخ السيرة أن يتفاعل مع أبطال سيره وأن يقترب منهم قربا شديدا ولن يقترب منهم مالم تكن ثقافته ممثلة للناحية التى برزوا[٤٨] فيها ومهما يكن من شئ فإن هناك طرقا ثلاثة فى كتابة فن السيرة :

الأولى :

أن يكتب المؤرخ فى سيرة غيره فيختار الحوادث والآثار وينسقها ويفسرها ثم يصدر أحكامه على صاحبها تعديلا أو تجريحا وهى طريقة نافعة تبدو السيرة فيها متجانسة العناصر ذات وحدة واحدة ، ونغمة متسقة تهب الكاتب حرية النقد والاختيار ... ولكنها مع ذلك معرضة للغلو فى المدح أو الظلم وسوء الأحكام مادام الكاتب متأثرا بوجهة نظره هو من ذلك تراجم لهيكل وحياة محمد له ، وذكرى أبى العلاء لطه حسين .

الثانية :

أن يسلك المؤرخ طريقا غير مباشر ويتوارى هو خلف الموضوع ليجعله يدل على نفسه بنفسه فيعرض علينا أقوال الفرد وآراءه ومذهبه الخلقى ويذكر أصدقاءه وأساتذته وأدبه دون أن يلح عليها بالنقد والتحليل وهى طريقة معرضة لعدم الإنصاف الناشئ عن سوء الاختيار أو الإيجاز فيه ونقص المختارات أو عدم تجانسها أو إيراد أشياء تافهة ثانوية لا تمثل رأيا ولا حياة جديدة وتجد مثلا لذلك فى نحو الأغانى ، ومعجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان وكتب الطبقات .

الثالثة :

أن يكتب المؤرخ سيرته بقلمه مثل الأيام لطه حسين ، وحياة ابن خلدون التى أثبتها آخر تاريخه المنشور[٤٩] .

وفى ظلال الأصول التى سقناها سابقا لفن السيرة نود أن نعرض نموذجا من كتابة أبى حنيفة الدينورى فى السيرة ثم نحلل هذا النموذج تحليلا أدبيا فنيا لنستخلص من ذلك الخصائص الفنية لأسلوب أبى حنيفة الدينورى فى كتابة فن السيرة ثم نبين إلى أى المدارس الأدبية يمكن أن ينتسب أبو حنيفة .

وفى كتاب الأخبار الطوال لأبى حنيفة نماذج كثيرة تمثل رأى أبى حنيفة الدينورى فى بعض عظماء التاريخ وهى تدل على رغبة أبى حنيفة الدينورى فى إصدار آرائه على

(٤٨) الأدب وفنونه ص ٢٤٤ - ٢٤٨ - لعز الدين اسماعيل (دار الفكر العربى ١٩٥٨)

(٤٩) الأسلوب ص٩٠ - ٩١ لأحمد الشايب .

هؤلاء الأشخاص الأمر الذى يدل على أن أبا حنيفة ذو عقل فاحص ناقد يميز الخبيث من الطيب فى عالم الرجال وهذه خاصية ليست ميسرة للكثيرين لأنها تتطلب سعة فى الأفق، وحدة فى الذهن، ودقة فى التفكير وتتطلب معرفة واسعة بالنفس البشرية وبالاجتماع البشرى وبالاختصار تتطلب رجلا موسوعيا كأبى حنيفة الدينورى وقد سبق تقديم نماذج أثناء الحديث عن «مدارس الكتابة الفنية».

فلنقدم بين يدى القارئ نموذجا لفن السيرة لدى أبى حنيفة الدينورى لنتبين به ومن خلاله الخصائص الفنية لكتابة أبى حنيفة فى فن السيرة.

وقد اخترنا حديثه عن أبى مسلم الخراسانى.

(أبو مسلم الخرسانى (٥٠))

قالوا: وكان بدء أمر أبى مسلم مملوكا لعيسى ومعقل ابنى ادريس بن عيسى العجليين وكان مسكنهما بماه البصرة مما يلى أصبهان.

وكان أبو مسلم ولد عندهما فنشأ غلاما فهما أديبا ذهنا فأحياه حتى نزل منهما منزلة الولد.

وكانا يتوليان بنى هاشم ويكاتبان الإمام محمد بن على فمكثا بذلك ما شاء الله ...... ثم إن هشاما عزل خالد بن عبد الله القسرى من العراق وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى فكان يوسف بن عمر لا يدع أحداً يعرف بموالاة بنى هاشم ومودة أهل بيت رسول الله إلا بعث إليه فحبسه عنده بواسط ..... فبلغه أمر عيسى ومعقل ابنى ادريس فأشخصهما وحبسهما بواسط فيمن حبس من الشيعة .... وكانا أخرجا معهما أبا مسلم فكان يخدمهما فى الحبس وأن سليمان بنى كثير ومالك بن الهيثم ولا هز بن قرط وهم كانوا الدعاة بخراسان قدموا للحج وقدم معهم قحطبة بن شيب وكان ممن بايعهم وشايعهم على أمرهم فجعلوا طريقهم على مدينة واسط ودخلوا فلقوا من كان فيها من الشيعة فرأوا أبا مسلم فأعجبهم مارأوا من هيئته وفهمه واستبصاره فى حب بنى هاشم.

ونزل هؤلاء النفر بعض الفنادق بواسط فكان أبو مسلم يختلف إليهم طول مقامهم حتى أنس بهم وأنسوا به فسألوه عن أمره فقال:

إن أمى كانت أمة لعمر بن بطين العجلى فوقع عليها فحملت بى فباعها وهى حامل – فاشتراها عيسى ومعقل ابنا ادريس فولدت عندهما فأنا كهيئة المملوك لهما ثم إن النفر شخصوا من واسط وأخذوا نحو مكة على طريق البصرة فوصلوا إلى مكة وقد وافاها الإمام

---

(٥٠) الاخبار الطوال ص ٣٣٧ وما بعدها.

محمد بن على حاجا فلقوه فسلموا عليه وأخبروه بما غرسوا به فى جميع خراسان من الفرس ثم اخبروه بممرهم بواسط ودخولهم على إخوانهم المحبسين بها .

ووصفوا له صفة أبى مسلم وما رأوه من ذكاء عقله وفهمه وحسن بصره وجودة ذهنه وحسن منطقه .

فسألهم : أحر هو أم مملوك

فقالوا : أما هو فيزعم أنه ابن عمر بن بطين العجلى وكانت قصته كيت وكيت ثم فسروا له ما حكى لهم من أمره فقال : إن الولد تبع للأم فإذا انصرفتم (٥١) فاجعلوا ممركم بواسط فاشتروه وابعثوا به إلى الحميمة (٥٢) من أرض الشام لأجعله الرسول فيما بينى وبينكم على أنى أحسبكم لا تلقونى بعد عامى فإن حدث لى حدث فصاحبكم ابنى هذا - يعنى ابراهيم فاستوصوا به خيرا فإنى سأوصيه بكم خيرا .

فانصرف القوم نحو خراسان ومروا بواسط ولقوا عيسى ومعقل ابنى ادريس فأخبروهما بحاجة الإمام إلى أبى مسلم وسألوهما بيعه لهم .

فوجه به القوم إلى الإمام فلما رآه تفرس فيه الخير ورجا أن يكون هو القيم بالأمر لعلامات رآها فيه قد كانت بلغته .

فجعله الرسول فيما بينهم فاختلف إليهم مرارا كثيرة .

(وفاة الإمام)

ثم توفى الإمام محمد بن على فقام بالأمر بعده ابنه ابراهيم بن محمد وكان أكبر ولده فأمر أبا مسلم أنه يسير إلى الدعاة بالعراق وخراسان فيعلمهم وفاة الامام وقيامه بالأمر من بعده .

فسار حتى وافى العراق ولقى أبا سلمة ومن كان معه من الشيعة فأخبرهم بما أمره به ثم سار إلى خراسان ولقى الدعاة بها فأخبرهم بذلك .

وبلغ وفاة الإمام جميع من بايع فى أقطار خراسان فسودوا ثيابهم حزنا لمصابه وتسليا عليه وكان أول من سود منهم ثيابه حريش مولى خزاعة وكان عظيم أهل نسا ثم سودها من بعده قحطبة بن شبيب ثم سود القوم جميعا وكثرت الشيعة بخراسان كلها وعلا أمرهم .

وكتب يوسف بن عمر وكان على العراقين إلى هشام يخبره بذلك فكتب هشام إلى يوسف يأمره أن يبعث إليه رجلا له علم بخراسان ومعرفة بمن فيها من قوادها وجنودها

---

(٥١) مكان ما بين الحاصرتين اثر أرضه فى الأصل

(٥٢) بلد فى أطراف الشام كان منزل بنى العباس .   (٥٣) بلد بخرسان .

وقد كان يوسف بن عمر عزل عنها الجنيد بن عبد الرحمن واستعمل عليها جعفر بن حنظلة البهرانى .

فكتب جعفر إلى يوسف بن عمر مع عبد الكريم بن سليط بن عطية الحنفى يخبره بتفاقم أمر المسوّدة بخراسان وكثرة من أجاب الدعاة بها .... فلما أتاه كتاب هشام يأمره أن يوجه اليه رجلا له علم بخراسان حمل عبد الكريم بن سليط إليه على البريد .

قال عبد الكريم : فسرت حتى وافيت دمشق فدخلت على هشام فسلمت عليه بالخلافة .

فقال لى : من أنت ؟

قلت : أنا عبد الكريم بن سليط بن عطيه الحنفى .

قال : كيف علمك بخراسان وأهلها ؟

قلت : أنا بها جد عالم

ثم أخبرته إن وجهى كان منها بكتاب جعفر بن حنظلة البهرانى إلى يوسف بن عمر يخبره بما حدث

قال : إنى أريد أن أولى أمرها رجلا من القواد الذين هم مرتبون بها فمن ترى أن تولى أمرها منهم وأيهم أقوم بها ؟

قال عبد الكريم : وكان هواى فى اليمانية فقلت :

يا أمير المؤمنين أين أنت من رجل من قوادها ذى حزم وبأس ومكيدة وقوة ومكانفة من قومه ؟

قال : ومن هو ؟

قلت : جديع بن على الأزدى المعروف بالكرمانى

قال : وكيف يسمى الكرمانى ؟

قلت : ولد بكرمان كان أبوه مع المهلب عند محاربته الأزارقة فولد هذا هناك .

قال : لاحاجة لى فى اليمانية وكان هشام يبغض اليمانية وكذلك سائر بنى أمية .

قلت : يا أمير المؤمنين فأين أنت من المجرب البطل النافذ اللسن ؟

قال : ومن هو ؟

قلت : يحيى بن نعيم المعروف بأبى الميلاء وهو ابن أخى مصقلة بن هبيرة .

قال : لاحاجة لى فيه لأن ربيعة لا تسد بها الثغور .

قلت : يا أمير المؤمنين فعليك بالماجد اللبيب الأريب الكامل الحسيب عقيل بن معقل الليثى .

قال : فكأنه هو يه .

قلت : إن اغتفرت منه هنة فيه .

قال : وما هى ؟

قلت : ليس بعفيف البطن والفرج .

قال : لاحاجة لى فيه .

قلت : فالكامل النافذ الفارس المجرب محسن بن مزاحم السلمى .

قال : فكأنه هويه للمضرية .

قلت : ان اغتفرت هنة فيه .

قال : وماهى .

قلت : أكذب ذى لهجة .

قال : لاحاجة لى فيه .

قلت : فذو الطاعة لكم المتمسك بعهدكم المقتدى بقدوتكم يحيى بن الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة .

قال : ألم أخبرك أن ربيعة لاتسد بها الثغور ؟

قلت : فالكامل الناقد الشجاع البطل قطن بن قتيبة بن مسلم .

قال : فمال اليه بالمضرية .

قلت : إن اغتفرت منه هنة .

قال : وماهى ؟

قلت : لا آمنه إن افضى إليه السلطان أن يطلب جنود خراسان بدم أبيه قتيبة فإنهم جميعا تظافروا عليه .

قال : لاحاجة لى فيه .

قلت : فأين أنت من العفيف المجرب الباسل المحنك نصر بن سيار الليثى .

قال : فكأنه تفاءل به ومال إليه بالمضرية .

قلت : إن اغتفرت منه خصلة .

قال : وما هى ؟

قلت : ليست له بخرسان عشيرة من جنودها وانما يقوى على ولاية خراسان من كانت لديه عشيرة من جنودها .

قال : فأى عشيرة أكثر منى لا أبالك ؟ يا غلام انطلق إليه ......فكتب له عهده وأتى به .

فناولينه وقال : انطلق حتى توصله إليه ...... ثم أمر أن أحمل على البريد فسرت حتى وافيت خراسان فأتيته فى منزله فناولته العهد فأمر لى بعشرة آلاف درهم ...... ثم تناول العهد فانطلق إلى جعفر بن حنظلة الأمير كان بها فدخل عليه وهو جالس على سريره فناوله العهد .

وقال : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين .

فلما قرأه أخذ بيد نصر فرفعه حتى أجلسه معه على سريره .

فقال له نصر : أبا خلف السلطان سلطانك فمر بأمرك ودعا له جعفر بن حنظلة وسلم الامر اليه وأن سليمان بن كثير ولاهز بن قرط ومالك بن الهيثم وقحطبة بن شبيب أرادوا الحج فخرجوا متنكرين حتى أتوا مكة وقد وافاها فى ذلك العام ابراهيم بن محمد الامام فأخبروه بما اجتمع له الناس بخراسان وقد كانوا حملو إليه ما بعثت به إليه الشيعة .

فقالوا : قد حملنا اليك مالا .

قال : وكم هو .

قالوا : عشرة آلاف دينار ومائتا ألف درهم .

فقال : سلموه إلى مولاى عروة فدفعوها إليه .

فقال لهم ابراهيم : انى قد رأيت أن أولى الامر هناك أبا مسلم لما جربت من عقله وبلوت من أمانته وأنا موجهه معكم فاسمعوا له وأطيعوه فان والدى رحمة الله عليه قد كان وصف لنا صفته وقد رجوت أن يكون هو الذى يسوق الينا الملك فعاونوه وكانفوه وانتهوا الى رأيه وأمره .

قالوا : سمعا وطاعة لك أيها الإمام .

وانصرفوا وأبو مسلم معهم حتى صار إلى خراسان فشمرّ أبو مسلم للدعاء وأخذ القوم بالبيعة ووجه كل رجل من أصحابه إلى ناحية من خراسان فكانوا يدورون بها كورة كورة وبلدا بلداً فى زى التجار .

فاتبعه عالم من الناس عظيم فواعدهم لظهوره يوما سماه لهم وولى على من بايعه فى كل كورة رجلا من أهلها وتقدم إليهم بالاستعداد للخروج من ذلك اليوم الذى سماه لهم حتى أجاب جميع أرض خراسان سهلها وجبلها وأقصاها وأدناها .

وبلغ فى ذلك ما لم يبلغه أصحابه من قبله واستتب له الأمر على محبته وصار من أعظم الناس منزلا عند شيعته حتى كانوا يتحالفون به فلا يحنثون ويذكرونه فلا يملون وقد كان خالد بن عبد الله ولى العراقيين عشر سنين أربعا فى خلافة يزيد بن عبد الملك وستا فى خلافة هشام فلما عزله هشام وولى مكانه يوسف بن عمر حاسبه يوسف فخرج عليه عشرة آلاف درهم قد كان – وهبها للناس وبذرها وكان من أسخى العرب فحبسه يوسف بن عمر عنده فى العراق وكتب إلى هشام بتقاعد خالد بالمال الذى خرج عليه فكتب إليه هشام بالبسط[٥٤] عليه .

فدعابه يوسف بن عمر وقال :

ما هذا التقاعد بمال السلطان يا ابن الكاهن ؟ يعنى شق بن مصعب المعروف بالكهانة وكان خالد بن عبد الله من ولده .

فقال له خالد بن عبد الله : أتعيرنى بشرفى يا ابن الخمار ؟ وإنما كان أبوك وجدك بالطائف أصحاب حانة وبلغ هشام أن خالدا بذّر ذلك المال فى الناس فكتب إلى يوسف يأمره بإطلاقه والكف عنه .

فلم يزل خالد مقيما بالكوفة حتى خرج زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام بالكوفة .

وكان خروجه فى صفر سنة ثمانى عشرة ومائة .

فسار إليه يوسف بن عمر فالتقوا بالكناسة[٥٥] ....،... فانهزم أصحاب زيد وخذلوه .

فأخذه يوسف بن عمر فضرب عنقه وبعث برأسه إلى هشام وصلب جسده بالكناسة ... وإن خالدا كتب إلى هشام يستأذنه فى الخروج إلى طرسوس[٥٦] غازيا متطوعا فاذن له هشام فى ذلك فسار حتى وافى طرسوس فأقام بها مرابطا .

---

(٥٤) بسط فلان أزال منه الاحتشام ويقال بسطت يده عليه أى سلط عليه .

(٥٥) محلة مشهورة بالكوفة .

(٥٦) مدينة بثغور الشام يشقها نهر البردان وبها قبر المأمون .

(وقيعة بين خالد وهشام)

وإن رجلا من أهل العراق كان يتلصص ويكنى أبا المعرس قدم من الكوفة نحو أرض الشام فى جماعة من لصوص الكوفة حتى وافوا مدينة دمشق فكان إذا جنّه الليل أشعل فى ناحية من السوق النار فإذا تصايح الناس واشتغلوا باطفاء الحريق أقبل فى اصحابه إلى ناحية أخرى من السوق فكسر الأقفال وأخذ ما قدر عليه ثم هرب فدخل كلثوم بن عياض القسرى على هشام وكان معاديا لخالد بن عبد الله وهو ابن عمه فقال لهشام :

يا أمير المؤمنين إن هذا الحريق لم يكن بدمشق وقد حدث وما هو إلا عمل محمد بن خالد فأتوه وبغلمان له فأمر بحبسه وحبس غلمانه .... وبلغ ذلك خالدا وهو بطرسوس فسار حتى وافى دمشق فنزل فى داره بها وغدا عليه الناس مسلمين حتى إذا اجتمعوا عنده قال :

أيها الناس خرجت غازيا بإذن هشام وأمره فحبس ابنى وغلمانى .... أيها الناس مالى ولهشام ؟ والله ليكفن عنى هشام يسميه فى كل مرة باسمه ولا يقول أمير المؤمنين أو لأدعونً إلى عراقى الهوى شامى الدار حجازى الاصل ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ألا وأنى قد أذنت لكم أن تبلغوا هشاما .

وبلغ هشاما ذلك فقال : خرف أبو الهيثم وأنا حرّى باحتماله لقديم حرمته وعظيم حقه . فأقام خالد بن عبد الله بمدينة دمشق عاتبا لهشام مصارما له لا يركب إليه ولا يعبأ به وهشام فى كل ذلك يحتمله ويحلم عنه .

وأن رجلا يسمى عبد الرحمن بن ثوب الكلبى دخل على خالد بن عبد الله فسلم عليه وعنده نفر من أشراف أهل الشام فقال له :

يا أبا الهيثم إنى أحبك « لعشر خصال فيك[٥٧] يحبها » الله منك .... كرمك وعفوك ...... ودينك ... وعدلك ... ورأفتك ... ووقارك فى مجلسك ... ونجدتك ... ووفائك ... وصلتك ذوى رحمك ... وأدبك .

فأثنى عليه خالد وقال له خيرا .

وبلغ ذلك هشاما فقال :

أبلغ من أمر الفاسق عبد الرحمن بن ثويب أن يصف خالدا بمحاسن لم تجتمع فى أحد من الخلفاء المؤمنين على عباد الله وبلاده ؟

ثم أمر فأحسن أدبه ونفى عن دمشق .

---

(٥٧) محو فى الأصل .

وبلغ ذلك خالدا وعنده أناس من وجوه أهل الشام فقال لهم : ألا تعجبون من صنيع هشام برجل ذكر منى خصالا ؟

زعم أنه يحبنى لها فضربه وطرده وأن أعظم مما قال فى عبد الرحمن بن ثويب قول عبد الله بن صيفى حين قال :

يا أمير المؤمنين أخليفتك فى أهلك أحب إليك وآثر عندك أم رسولك .

قال هشام : بل خليفتى فى أهلى .

قال : فأنت خليفة الله فى أرضه وخلقه ومحمد رسول الله ﷺ اليهم فأنت أكرم على الله منه فلم ينكر هذه المقالة من عبد الله بن صيفى وهى تضارع الكفر ويغضب على عبد الرحمن بن ثويب وينكر عليه ما وصفنى به من خصال يحبها الله فاحبنى لها .

فلم يحفل هشام حين بلغه ذلك من قول خالد ولم يؤاخذه بشىء من مقالته فلما تم لخلافة هشام تسع عشرة سنة وسبعة أشهر مرض مرضته التى مات فأسند الخلافة إلى ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

(الوليد بن يزيد)

فلما استخلف الوليد بن يزيد أمر صاحب شرطه سعيد بن غيلان بأخذ خالد بالمال الذى عليه من بقايا خراج العراقين والبسط عليه وقال : أسمعنى صياحه فأقبل سعيد بن غيلان إلى خالد وهو فى منزله فانطلق به إلى السجن فعذبه يومه ذلك بألوان العذاب فلم يكلمه خالد بحرف .

وقال الأشعث بن القينى فيما نال خالدا :

ألا إن خير الناس نفسا ووالدا　　أسير قريش عندها فى السلاسل
لعمرى لقد أعمرتم السجن خالدا　　وأوطأتموه وطأة المتثاقل
فإن تحبسوا القرى لا تحبسوا اسمه　　ولا تحبسوا معروفه فى القبائل

وقدم يوسف بن عمر الثقفى بمال العراقين على الوليد فجلس الوليد للناس وأذن لهم إذنا عاما .

فتكلم زياد بن عبد الرحمن الضمرى وكان معاندا لخالد فقال : يا أمير المؤمنين على محاسبة خالد بخمسة آلاف ألف درهم فسلمه إلى .

فأرسل الوليد إلى خالد – وهو فى السجن أن زياد بن عبد الرحمن قد أعطى بمحاسبتك خمسة آلاف ألف درهم فإن صححتها لنا والا دفعناك إليه .

فأرسل له خالد : أن عهدى بالعرب لاتباع وبالله لو سألتنى أن أضمن لك هذا ورفع عود من الأرض ما فعلت .... فلما رأى الوليد بن يزيد تقاعد خالد بما عليه من المال أمر به فسلم إلى يوسف بن عمر وقال : « انطلق به إلى العراق واستأده جميع ما عليه من المال »

فحمله يوسف بن عمر معه إلى واسط(٥٨) فكان يخرجه كل يوم ويعذبه ثم يرده إلى الحبس فأخرجه ذات يوم وقال :

ما هذا التقاعد يا ابن المائقة ؟(٥٩)

فقال له خالد ما ذكرك الأمهات لعنك الله ؟ والله لا أكلمك بكلمة أبدا ....

فغضب يوسف بن عمر من ذلك فوضع على خالد المضرسة(٦٠) وجعل يعذبه بها حتى قتله فدفنه ليلا فى عباءة كانت عليه .... فأنشد الوليد بن يزيد .

ألم تهنج فتذكر الوصالا ... وحبلا كان متصلا فزالا
بلى فالدمع منك له سجال ... كماء الغرب ينهمل انهمالا
فدع عنك ادركارك آل سعدى ... فنحن الأكثرون حصى ومالا
ونحن المالكون الناس قسرا ... نسومهم المذلة والنكالا
ونوردهم حياض الخسف ذلا ... وما نألوهم إلا خبالا(٦١)
وطئنا الأشعرين بكل أرض ... ولم يك وطؤنا أن يستقالا
وكندة والسكون قد استعاذوا ... نسومهم المذلة والخبالا
شددنا ملكنا ببنى نزار ... وقومنا بهم من كان مالا
وهذا خالد فينا قتيلا ... ألا منعوه إن كانوا رجالا
ولو كانت بنو قحطان عربا ... لما ذهبت صنائعه ضلالا
ولا تركوه مسلوبا أسيرا ... تحمله سلاسلنا الثقالا
ولكن المذلة ضعضعتهم ... فلم يجدوا لذلتهم مقالا

فلما سمع من كان بأقطار الشام من اليمانية هذا الشعر أنفوا أنفا شديدا فاجتمعوا من مدن الشام وساروا نحو الوليد بن يزيد وبلغ الوليد مسيرهم فأمر محمد بن خالد بن عبد الله فحبس بدمشق وأقبلت اليمانية وخرج إليهم الوليد بمضر مستعدا للحرب فالتقوا واقتتلوا وأثخنت اليمانية القتل فى مضر فانهزمت مضر وأخذوا نحو دمشق ودخل الوليد

(٥٨) موضع بين البصرة والكوفة .

(٥٩) الموق هو الحمق فى غباوة .

(٦٠) حجر غليظ جد خشن الوطء .

(٦١) الهلاك والعناء .

قصره فتحصن فيه وأقبلت اليمانية حتى دخلت دمشق وأخرجوا محمد بن خالد من حبسه ورأسوه عليهم .

فأرسل محمد بن خالد الى ابن عم الوليد بن يزيد وهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك فجاء به فبايعوه جميعا وأرسل إلى أشراف المضريين فبايعوه طوعا وكرها .

وخلعوا الوليد بن يزيد فلبث مخلوعا أياماً كثيرة وهو خليع بنى أمية .

(يزيد بن الوليد)

فقام يزيد بن الوليد بالخلافة ووضع للناس العطاء وفرّق فى اليمانية الصلات والجوائز .... وأقبل محمد بن خالد إلى قصر الوليد بن يزيد وأمر بالأوهاق(٦٢) فألقيت فى شرف القصر وتسلقوا فعلوه ونادوا :

يا وليد يالوطى يا شارب الخمر .... ثم نزلوا اليه فقتلوه واستدف الملك ليزيد بن الوليد .

وان محمد بن خالد وجه منصور بن جمهور فى خيل إلى العراق وأمره أن يقصد إلى مدينة واسط فيأخذ الناس بالبيعة ليزيد بن الوليد فإذا بايعوا دعا بيوسف بن عمر فضرب عنقه فسار منصور بن جمهور فبدأ بالكوفة وأخذ بالبيعة ليزيد فلما بايعوا سار منها الى واسط فاجتمع اليه الناس فبايعوا ليزيد فلما فرغ دعا بيوسف بن عمر فقال له :

أنت القاتل سيد العرب خالد بن عبد الله .

قال يوسف : كنت مأمورا ومالى فى ذلك من ذنب فهل لك أن تعفينى من القتل وأعطيك ديتى عشرة آلاف درهم فضحك منه ثم حمله حتى أتى به محمد بن خالد بالشام فقال محمد : أما زعمك أنك كنت مأمورا فقد صدقت وقد قتلت قاتل أبى وإنما اقتلك بعيده غزوان ثم قدمه فضرب عنقه فملك يزيد بن الوليد ستة أشهر ثم مات .

(ابراهيم بن الوليد)

وقام بالملك من بعده أخوه ابراهيم بن الوليد فبايعه الناس بالشام وجميع الآفاق وجعل ولى العهد من بعده عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان واستعمل على العراق يزيد بن عمر بن هبيرة فسار ابن هبيرة حتى نزل المكان الذى إلى اليوم يسمى « قصر ابن هبيرة » وبنى فيه قصرا واتخذ ذلك المكان منزلا له ولجنوده .

قالوا وإن المضرية تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها وقتلهم الخليفة الوليد بن

---

(٦٢) الحبل جمع وهق .

يزيد فذب بعضهم إلى بعض واجتمعوا من أقطار الأرض حتى وافوا مدينة حمص[٦٣] وبها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وكان يومئذ شيخ بنى أمية وكبيرهم وكان ذا أدب كامل ورأى فاضل فاستخرجوه من داره وبايعوه وقالوا له : أنت شيخ قومك وسيدهم فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد .

فاستعد مروان بجنوده فى تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر وسار نحو مدينة دمشق وبلغ ذلك ابراهيم بن الوليد فتحصن فى قصره .... ودخل مروان بن محمد دمشق فأخذ ابراهيم بن الوليد وولى عهده عبد العزيز بن الحجاج وهرب محمد بن خالد بن عبد الله القسرى نحو العراق حتى أتى الكوفة فنزل فى دار عمرو بن عامر البجلى فاستخفى فيها وعلى الكوفة يومئذ زياد بن صالح الحارثى عاملا ليزيد بن عمر بن هبيرة .

(مروان بن محمد)

واستدف الملك لمروان بن محمد وأعطاه أهل البلدان الطاعة ثم إن العصبية وقعت بخراسان بين المضرية واليمانية .

وكان سبب ذلك أن جديع بن على المعروف بالكرمانى كان سيد مَنْ بأرض خراسان من إليمانية وكان نصر بن سيار مستعصبا على اليمانية مبغضا لهم فكان لا يستعين بأحد منهم وعادى ايضا ربيعة لميلها إلى اليمانية فعاتبه الكرمانى فى ذلك .

فقال له نصر : ما أنت وذاك ؟

قال الكرمانى : انما اريد بذلك صلاح أمرك فانى أخاف أن تفسد عليك سلطانك وتحمل عليك عدّوك هذا المطل يعنى المسودة .[٦٤]

قال له نصر : أنت شيخ قد خرفت .

فأسمعه الكرمانى كلاما غليظا فغضب نصر وأمر بالكرمانى الى الحبس فحبس فى القُهنْدُز وهى القلعة العتيقة فغضب أحياء العرب للكرمانى فاعتزلوا نصر بن سيار فاجتمع إلى نصر المضرية فطابقوه وشايعوه .

وكان للكرمانى مولى من أبناء العجم ذو دهاء وتجربة وكان يخدمه فى محبسه وكان الكرمانى رجلا ضخما عظيم الجثة عريض ما بين المنكبين فقال له مولاه :

أتوطن نفسك على الشدة والمخاطرة حتى أخرجك من الحبس قال الكرمانى وكيف

---

(٦٣) بلد فى الاقليم الشمالى وقد سمى باسم من أحدثه وهو حمص بن مكنف العمليق .

(٦٤) هم العباسيون لسواد أغطية رءوسهم .

تخرجني ؟ قال : إني قد عينت على ثقب ضيق يخرج منه ماء المطر إلى الفارقين فوطن نفسك على سلخ جلدك لضيق الثقب .

قال الكرماني لابد من الصير فاعمل ما أردت .... فخرج مولاه إلى اليمانية فواطأهم ووطنهم فى طريقه فلما جن الليل ونام الأحراس أقبل مولاه من خارج السور فوقف له على باب الثقب وأقبل الكرماني حتى أدخل رأسه فى الثقب وبسط فيه يديه حتى نالت يداه كفى مولاه فاجتذبه اجتذابة شديدة سلخ بها بعض جلده ثم اجتذبه ثانية حتى انتهى به إلى النصف فإذا هو بحية فى الثقب فنادى الكرماني مولاه :

« بذبخت مارمار » أى حية قد عرضت فقال مولاه« بكز بكز » أى عضها ثم اجتذبه الثالثة فأخرجه .... فقال لمولاه : أمهلني ساعة حتى أفيق ويسكن مابى من وجع الانسلاخ .

فلما رجعت إلى الكرماني نفسه نزل من ذلك التل وأتى بدابة ركبها حتى انتهى إلى منزله واجتمعت اليه الأزد وسائر من بخراسان من اليمانية وانحازت ربيعة معهم .

وبلغ نصر بن سيار الخبر فدعا بصاحب الحبس فضرب عنقه وظن أن ذلك كان بمواطأة منه .

ثم قال لسلم بن أحوز المازنى وكان على شرطه : انطلق إلى الكرماني فأعلمه أنى لم أرد به مكروها وأنا أردت نأديبه لما استقبلني به ومره أن يصير إلى آمنا لأناظره فى بعض الأمر .

فصار سلم إليه فإذا هو بمحمد بن المثنى الربعى جالسا على الباب فى سبعمائة رجل من ربيعة فدخل عليه فأبلغه الرسالة فقال الكرماني : لا ولا كرامة ماله عندى إلا السيف فأبلغ ذلك نصرا .

فأرسل نصر بعصمة بن عبد الله الأزدى وكان من خاصته .... فقال له : انطلق إلى ابن عمك فآمنه ومره أن يصير إلى آمنا لأناظره فى بعض ما قد دهمنا من هذا العدو فقال : الكرماني لعصمه حين أبلغه رسالة نصر : يابن الخبيثة وما أنت وذلك ؟ وقد ذكرك لى عمك إنك لغير أبيك الذى تنسب إليه وإنما تريد أن تتقرب إلى ابن الأقطع - يعنى نصرا - أما لو كنت صحيح النسب لم تفارق قومك وتميل إلى من لارحم بينه وبينك فانصرف عصمة إلى نصر وابلغه قوله .

ثم إن الكرماني كتب إلى عمر بن ابراهيم من ولد أبرهة بن الصباح ملك حمير وكان آخر ملوكهم وكان مستوطنا الكوفة يسأله أن يوجه إليه بنسخة حلف اليمن وربيعة الذى كان بينهم فى الجاهلية ليحييه ويجدده وإنما أراد بذلك أن يستدعى ربيعة إلى مكانفته

فأرسل إليه فجمع الكرمانى إليه أشراف اليمن وعظماء ربيعة وقرأ عليهم نسخة الحلف وكانت النسخة :

بسم الله العلى الأعظم . الماجد المنعم ..... هذا ما احتلف عليه آل قحطان وربيعة الأخوان احتلفوا على السواء السوا والأواصر والأخا .... ما احتذى رجل حذا وما راح راكب واغتدى يحمله الصغار عن الكبار والأشرار عن الأخيار آخر الدهر والأبد إلى انقضاء مدة الأمد وانقراض الآباء والولد حلف يوطأ ويثب ما طلع نجم وغرب خلطوا عليه دماهم عند ملك أرضاهم خلطها بخمر وسقاهم جز من نوصيهم أشعارهم وقلم من أناملهم أظفارهم فجمع ذلك فى صر ودفنه تحت ماء غمر فى جوف قعر بحر آخر الدهر لاسهو فيه ولانسيان ولاغدر ولا خذلان بعقد موكد شديد إلى آخر الدهر الأبيد ما دعا صبى أباه وما حلب عبد فى اناة تحمل عليه الحوامل وتقبل عليه القوابل ماحل بعد عام قابل عليه المحيا والممات حتى ييبس الفرات وكتب فى الشهر[٦٥] الأصم عند ملك أخى ذم تبع بن مليكوت معدن الفضل والحب عليهم جميعا كفل وشهد الله الاجل الذى ماشاء فعل عقله من عقل وجهله من جهل .

فلما قرىء عليهم هذا الكتاب فواقوا على أن ينصر بعضهم بعضا ويكون أمرهم واحدا .

فأرسل الكرمانى إلى نصر . إن كنت تريد المحاربة فابرز الى خارج المدينة . فنادى نصر فى جنوده من مضر

وخرج فعسكر ناحية من الصحراء وفعل الكرمانى مثل ذلك وخندق كل واحد منهما فى عسكره ويسمى ذلك المكان إلى اليوم الخندقين .

ووجه الكرمانى محمد بن المثنى وأبا الميلاء الربعيين فى ألف فارس من ربيعة وأمرهما أن يتقدما إلى عسكر نصر بن سيار .... فأقبلا حتى إذا قاربا عسكره قال نصر لابنه تميم : أخرج إلى القوم فى ألف فارس من قيس وتميم فانتخب ألف فارس ثم خرج فالتقوا واقتتلوا وحمل محمد بن المثنى الربعى على تميم بن نصر فتضاربا بسيفيهما فلم يصنع السيفان شيئا لكمال لامتيهما فلما رأى محمد بن المثنى ذلك حمل بنفسه على تميم فعانقه فسقطا جميعا إلى الأرض وصار محمد فوق تميم فانحنى على حلقه بالسيف فذبحه وقال نصر بن سيار يرثى ابنه تميما :

نفى عنى العـــزاء وكنت جلــــدا ... غـــــداة جلى الفوارس عن تميم
ومـــا قصرت يـــداه عن الأعـــادى ... ولا أضحى بمنـــــزلـــة اللئيم

(٦٥) رجب .

وفــــاء للخليفـــــة وابتـــــذالا لمهجتــــه يـــدافــع عن حــــريم
فمن يلك سائلا عنى فــــــــــــإنى أنـــا الشيخ الغضنفــر ذو الكليم
نمتنى مـن خــــــزيمة بـــــاذخـــات بـــواسق يـــنـــتـــمين إلى صــميم

قالوا : فمكثوا بذلك عشرين شهرا ينهض بعضهم إلى بعض كل أيام فيقتتلون هويا ثم ينصرفون وقد انتصف بعضهم لبعض . .

وشغلهم ذلك عن طلب أبي مسلم وأصحابه حتى قوى أمره واشتد ركنه وعلى شأنه فى جميع كور خراسان فقال عقيل بن معقل الليثى لنصر بن سيار إن هذه العصبية قد تمادت بيننا وبين هؤلاء القوم وقد شغلتك عن جميع أعمالك وضبط سلطانك وقد أظلك هذا العدو الكلب فأنشدك الله أن تشام(٦٦) نفسك وعشيرتك فقارب هذا الشيخ – يعنى الكرمانى بعض المقاربة فقد انتقض الأمر على الإمام مروان بن محمد .

فقال نصر : ياابن العم قد فهمت ما ذكرت ولكن هذا الملاح قد ساعدته عشيرته وظافرتهم على أمرهم ربيعة فقد عدا من أجل ذلك طوره فلا ينوى صلحا ولاينيب إلى أمان فانطلق ياابن عم إن شئت فسله ذلك واعطه عنى ما أراد .

فمضى عقيل بن معقل حتى استأذن على الكرمانى فدخل فسلم ثم قال :

إنك شيخ العرب وسيدها بهذه الأرض فأبق عليها قد تمادت هذه العصبية بيننا وبينكم وقد قتل منا ومنكم مالا يحصيه أحد وقد أرسلنى نصر اليك وجعل لك حكم الصبى على أبويه على أن ترجع إلى طاعته لنتآزرا على اطفاء هذه النار المضطرمة فى جميع كور خراسان قبل أن يكاشفوا – يعنى المسودة .

قال الكرمانى : قد فهمت ما ذكرت وكنت كارها لهذا الأمر فأبى ابن عمك – يعنى نصر – الا البذخ والتطاول حتى حبسنى فى سجنه وبعثنى على نفسه وقومه .

قال له عقيل : فما الذى عندك فى اطفاء هذه النائرة(٦٧) وحقن هذه الدماء ؟

قال الكرمانى : عندى من ذلك أن نعتزل أنا وهو الأمر ونولى جميعا أمرنا رجلا من ربيعة فيقوم بالتدبير ونساعده جميعا ونتشمر لطلب هؤلاء المسودة قبل أن يجتمعوا فلا نقوى بهم ولو أجلب عليهم معنا جميع العرب .

قال عقيل : إن هذا لايرضى به الإمام مروان بن محمد ولكن الأمير نصرا يجعل الأمر لك تولى من شئت وتعزل من شئت وتدبر فى هؤلاء المسودة ما شئت ويتزوج إليك وتتزوج إليه .

---

(٦٦) يعنى أن تأخذ بهم نحو الشام .

(٦٧) النائرة : الحقد والعداوة تقع بين القوم .

قال الكرمانى : كيف يتزوج الى وليس لى بكفء ؟

قال عقيل : أتقول هذا لرجل له بيت كنانة ؟

قال الكرمانى : لو كان من مصاص(٦٨) كنانة ما فعلت فكيف وهو ملصق فيهم فأما قولك أنه يجعل الأمر الى أولى وأعزل من أريد فلا ولا كرامة أن أكون تبعا له أو قاره على السلطان فانصرف عقيل إلى نصر فقال : إنك كنت بهذا الملاح أبصر منى ثم أخبره بما دار بينهما .

فكتب نصر بن سيار إلى الإمام مروان بن محمد يخبره بخروج الكرمانى عليه ومحاربته إياه واشتغاله بذلك عن طلب أبى مسلم وأصحابه حتى عظم أمرهم وأن المحصى المقلل لهم يزعم أنه قد بايعه مائتا الف رجل من أقطار خراسان فتدارك ياأمير المؤمنين أمرك وابعث إلى بجنود من قبلك يقو بهم ركنى وأستعن بهم على محاربة من خالفنى . ثم كتب فى أسفل كتابه :

أرى تحت الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام

فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الشر مبدؤه كلام

وقلت من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام

فإن يقظت فذاك بقاء ملك ... وان رقدت فإنى لا ألام

فإن يك أصبحوا وثووا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام

فلما وصل كتابه إلى مروان بن محمد كتب إلى معاوية بن الوليد بن عبد الملك وكان عامله فى دمشق ومروان حينئذ بمدينة حمص يأمره أى يكتب الى عامله بالبلقاء(٦٩) أن يسير إلى الحميمة(٧٠) فيأخذ ابراهيم بن محمد بن على فيشده وثاقا ويرسل به إليه فأتى ابراهيم وهو جالس فى مسجده فلف رأسه وحمل إلى مروان واتبعه من أهل بيته عبد الله بن على وعيسى بن موسى بن على ونفر من مواليه .

فلما دخل على مروان قال له : ما هذه الجموع التى خرجت بخراسان تطلب لك الخلافة ؟

قال له ابراهيم : مالى بشىء من ذلك علم فإن كنت انما تريد التجنى علينا فدونك وما تريد .

ثم بسط لسانه على مروان فأمر به فحبس .

---

(٦٨) مصاص القوم : أصل منبتهم .

(٦٩) أرض بالشام .

(٧٠) بلد من أعمال عمان فى أطراف الشام كانت منزل بنى العباس .

قال الهيثم فأخبرنى أبو عبيده قال : كنت آتى ابراهيم فى محبسه ومعه فيه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فأسلم عليه وأظل عامة نهارى عنده وربما جننى الليل عنده فأبيت معه فبينما أنا ذات ليلة عنده وقد بت معه فى الحبس فبينما أنا نائم فى سقيفة فيه إذا أقبل مولى لمروان فاستفتح الباب ففتح له فدخل ومعه نحو من عشرين رجلا من موالى مروان فلبثوا ساعة ثم خرجوا ولم أسمع لأحد صوتا .... فلما أصبحت دخلت البيت لأسلم عليهما فإذا هما قتيلان فظننت أنهما خنقا .

ولما قتل ابراهيم بن محمد خاف أخواه : أبو جعفر وأبو العباس على أنفسهما فخرجا من الحميمة هاربين إلى العراق ومعهما عبد الله واسماعيل وعيسى وداود بنو على بن عبد الله بن عباس حتى قدموا الكوفة ونزلوا على أبى سلمة الداعى الذى كان داعية أبيهما محمد بن على بأرض العراق .

فأنزلهم جميعا دار الوليد بن سعد التى فى بنى أود وألزمهم مساورا القصاب وقطينا الابزارى وكانا من كبار الشيعة وقد كانا لقيا محمد بن على فى حياته فأمرهما أن يعينا أبا سلمة على أمره .

وكان أبو سلمة خلالا فكان اذا أمسوا أقبل مساور بشقة لحم وأقبل أبو سلمة بخل وأقبل يقطين بالابزار فيطبخون ويأكلون ..... وفى ذلك يقول أبو جعفر :

لحم مساور وخل أبى سلمة وأبزار يقطين وطابت المرقة

فلم يزل أبو العباس وأبو جعفر مستخفين بالكوفة إلى أن قدم قحطبة بن شبيب العراق .

قالوا : وبلغ أبا مسلم قتل الإمام ابراهيم بن محمد وهرب أبى العباس وأبى جعفر من الشام واستخفاؤهما بالكوفة عند أبى سلمة .

فسار من خراسان حتى قدم الكوفة ودخل عليهما فعزاهما بأخيهما ابراهيم الإمام . ثم قال لأبى العباس مد يدك أبايعك .

فمد يده فبايعه .

ثم سار إلى مكة .

ثم انصرف اليهما .

فتقدم إليه أبو العباس ألا يدع بخراسان عربيا لايدخل فى أمره إلا ضرب عنقه .

ثم انصرف أبو مسلم إلى خراسان فجعل يدورها كورة كورة ورستاقا رستاقا فيواعدهم اليوم الذى يظهرون فيه ويأمرهم بتهيئة السلاح والدواب لمن قدر .

(٧١) يمتهن بيع الخل .

قالوا : ولما أعيت نصر بن سيار الحيل فى أمر الكرمانى وخاف أزوف أبى مسلم كتب الى مروان :

يـــــأيها الملك الوانى بنصرتــــــه ... قــد آن للأمـر أن يـأتيك من كثب
أضحت خراسان قد باضت صقورتها ... وفـــــرخت فى نواحيهـــا بلا رهب
فـــإن يطـــرن ولم يحتـــل لهن بها ... يلـهبن نيران حـــــــرب أيما لهب

فلما وصلت هذه الأبيات إلى مروان كتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة(٧٢) عامله على العراقين يأمره أن ينتخب من جنوده اثنى عشر ألفا مع فرض يفرضه بالعراق من عرب الكوفة والبصرة ويولى عليهم رجلا حازما يقضى بعقله واقدامه ويوجه بهم الى نصر بن سيار .

فكتب يزيد بن عمر بن هبيرة إلى مروان : أن من معه من الجنود لايفون باثنى عشر ألفا ويعلمه أن فرض الشام أفضل من فرض العراق لأن عرب العراق ليست لهم نصيحة للخلفاء من بنى أمية وفى قلوبهم احن .

ولما أبطأ عن نصر الغوث أعاد إلى مروان :

من مبلـــغ عنى الأمـــام الـــذى ... قـــام بـــأمـــر بين ساطـــع
أنى نـــذيـــر لك من دولـــة ... قـــام بها ذو رحـــم قـــاطـــع
والثوب أن أنهج فيـــــــه البلى ... أعيى على ذى الحيلـــة الصـــانـــع
كنـــا نـــداريها فقـــد مـــزقت ... واتســـع الخرق على الـــراقـــع

(ظهور دعوة أبى مسلم)

وحان الوقت الذى واعد فيه أبو مسلم مستجيبيه فخرجوا جميعا فى يوم واحد من جميع كور خراسان حتى وافوه وقد سودوا ثيابهم تسليا على ابراهيم بن محمد بن على بن عباس الذى قتله مروان فكان أول من ورد عليه من القواد وقد لبس السواد أسيد بن عبد الله ومقاتل بن حكيم ومحقن بن غزوان والحريش مولى خزاعة وتنادوا : محمد يامنصور يعنون محمد بن على بن عبد الله بن عباس وهو أول من قام بالأمر وبث دعاته فى الآفاق .

وانجفل على أبى مسلم من هراة ويوشنج ومرو الروز والطالقات ومرو ونسا

(٧٢) فى الأصل محو مكان ما بين الحاصرتين .

وأبيورد (٧٣) وطوس (٧٤) وينسابور وسرخس وبلخ والصفانيان والطخارستان وختلان (٣) وكسن ونسف فتوافوا جميعا مسودى الثياب وقد سودوا أيضا أنصاف الخشب التى كانت معهم وسموها « كافر كوبات (٧٦) » .

وأقبلوا فرسانا وحمارة ورجالة يسوقون حميرهم ويزجرونها هر مروان يسمونها مروان ترغيما لمروان بن محمد وكانوا زهاء مائة ألف رجل .

فلما بلغ نصر بن سيار ظهور أبى مسلم سقط فى يديه وخاف على نفسه ولم يأمن أن ينحاز الكرمانى فى اليمانية والربعية إليهم فيكون فى ذلك اصطلامه فأراد أن يستعطف من كان مع الكرمانى من ربيعة . فكتب إليهم وكانوا جميعا بمرو .

أبلـــغ ربيعـــة فى مـــرو واخوتها ... أن يغضبوا قبل أن لاينفع الغضب
ما بالكم تلحقون الحرب بينكم ... كان أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عـــدوا قـــد أظلكـــم ... ممن تـــــأشب لادين ولاحسب
ليسوا إلى عرب منـا فنعرفهـم ... ولا صميم الموالى إن هـــم نسبوا
قومـا يدينون دينـا مـا سمعت بـه ... عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلى عن أصـل دينهـم ... فـإن دينهـم أن تقتـل العـرب

فلم تحفل ربيعة بهذه الأبيات .

وبلغ أبا العباس الإمام وهو مستخف بالكوفة أن أبا مسلم لو أراد أن يصطلم عسكر نصر والكرمانى لفعل غير أنه يدافع الحرب فكتب إليه يؤنبه فى ذلك .

وكان أبو مسلم يحب أن يستميل أحد الرجلين ليفصم به شوكة الآخر فأرسل إلى الكرمانى يسأله أن ينضم اليه لينتقم له من نصر بن سيار فعزم على السير إليه وأقبل أبو مسلم فى عساكره الى أرض مرو فعسكر على ستة فراسخ من المدينة وخرج اليه الكرمانى ليلا فى نفر من قومه فاستأمن لجميع أصحابه فآمنهم أبو مسلم وأكرم الكرمانى فأقام معه وشق ذلك على نصر بن سيار وأيقن بالهلكة .

فكتب إلى الكرمانى يسأله الرجوع على أن يعتزلا ويوليا الأمر رجلا من ربيعة يرضيانه وهو الأمر الذى سأله إياه فأصغى الكرمانى الى ذلك وتحمل ليلا من معسكر أبى مسلم حتى انصرف الى معسكره واسترسل الكرمانى الى نصر فلما أصاب منه غرة دس عليه من قتله .

---

(٧٣) مدينة بخراسان .

(٧٤) مدينة تشتمل على بلدتين بالقرب من نيسابور .

(٧٥) قرية من قرى أصفهان .

(٧٦) كذا فى الاصل وصوابه كافر كوباد أى مضرب الكافر .

ويقال بل وجه إليه نصر رجلا من قواده فى ثلاثمائة فارس فكمنوا له ليلا عند منصرفه من معسكر أبى مسلم فلما حاذاهم وهو غافل عنهم حملوا عليه فقتلوه .

وبلغ ذلك أبا مسلم فقال : لايبعد الله غيره لو صبر معنا لقمنا معه ونصرناه على عدوه وقال نصر فى ظفره بالكرماني :

لعمرى لقد كانت ربيعة ظافرت — عدوى بغدر حين خابت جدودها
وقد غمزوا منى قناة صليبة — شديدا على من رامها الكسر عودها
وكنت لها حصنا وكهفا وجنة — يؤول إلينا كهلها ووليدها
فقالوا إلى السوءات ثم تعذروا — وهل يفعل السوءات إلا مريدها ؟
فأوردت كرمانيها الموت عنوة — كذاك منايا الناس يدنو بعيدها

قالوا : ولما قتل الكرمانى مضى ابنه على من خندقه إلى أبى مسلم فسأله أن يطلب له بثأر أبيه فأمر قحطبة بن شبيب أن يستعد ويسير حتى ينيخ على نصر فى خندقه فينابذه الحرب أو ينيب الى الطاعة .

فسار قحطبة فبدأ بالمدينة فدخلها واستولى عليها وأرسل إلى نصر يؤذنه بالحرب فكتب نصر إلى أبى مسلم يسأله الأمان على أن يدخل معه فى أمره فأجابه إلى ذلك وأمر قحطبة أن يمسك عنه .

فلما أصاب نصر من قحطبة غفلة تحمل فى حشمه وولده وحاشيته ليلا فخرج من معسكره من غير أن يعلم أصحابه وسار نحو العراق وجعل طريقه على جرجان فأقام بها فمرض فيها فسار منها إلى شاوة[٧٧] فأقام بها أياماً ثم توفى بها .

فأستأمن جميع أصحابه وأصحاب الكرمانى إلى أبى مسلم إلا أناسا كرهوا أمر أبى مسلم فساروا من مدينة مرو هربا حتى أتوا طوس فأقاموا بها .

وإن أبا مسلم استولى على خراسان واستعمل عماله عليها فكان أول من عقد له منهم زنباع بن النعمان على سمرقند وولى خالد بن ابراهيم على طخارستان وولى محمد بن الأشعث الطبسين[٧٨] ثم وجه أصحابه إلى سائر تلك البلاد وضم إلى قحطبة بن شبيب أبا عون مقاتل بن حكيم العكى وخالد بن برمك وحارثه بن خزيمة وعبد الجبار بن نهيك وجهور بن مراد العجلى والفضل بن سليمان وعبد الله بن النعمان الطائى وضم الى كل واحد من هؤلاء القواد صناديد الجنود وأبطالهم .

---

(٧٧) وهى ساوى مدينة فى بلاد فارس الوسطى .
(٧٨) كورتان بخراسان .

وأمر قحطبة أن يسير إلى طوس فيلقى من قد اجتمع بها من جنود نصر بن سيار والكرمانى فيحاربهم حتى يطردهم عنها ثم يتقدم قدما .... قدما حتى يرد العراق .

فسار قحطبة حتى إذا دنا من طوس هرب أولئك الذين قد كانوا تجمعوا بها فتفرقوا وسار قحطبة من طوس الى جرجان فافتتحها .

وسار منها إلى الرى فواقع عامل مروان عليها فهزمه ثم سار من الرى إلى أصبهان حتى وافاها وبها عامر بن ضبارة من قبل يزيد بن عمر فهرب منه ودخلها قحطبة واستولى عليها .

ثم سار حتى أتى نهاوند وبها مالك بن أدهم الباهلى فتحصن أياما ثم استأمن إلى قحطبة فآمنه فخرج إليه وسار قحطبة حتى نزل حلوان فأقام بها .

وكتب إلى أبى مسلم يعلمه خبره وأن مروان بن محمد أقبل من الشام حتى وافى الزابين(٧٩) فأقام بها فى ثلاثين ألفا وأن يزيد بن عمر بن هبيرة قد استعد بواسط فأتاه كتاب أبى مسلم يأمره أن يوجه أبا عون العكى فى ثلاثين ألف فارس من أبطال جنوده إلى مروان بن محمد بالزابين فيحاربه ويسير هو فى بقية الجنود الى واسط فيحارب يزيد بن عمر ليشغله عن توجيه المدد إلى مروان ففعل قحطبة ذلك .

وبلغ مروان فصول أبى عون إليه بالجيوش من حلوان فاستقبله فالتقيا بشهرزو فاقتتلوا فانهزم أهل الشام حتى صاروا الى مدينة حرّان .

قال الهيثم : فحدثنى اسماعيل بن عبد الله القسرى أخو خالد بن عبد الله قال : دعانى مروان عند وصوله الى حران وكنت أخص الناس عنده فقال لى : ياأبا هاشم — وما كنانى قبل ذلك .... فقلت : لبيك ياأمير المؤمنين .

قال : ترى ما قد نزل من الأمر وأنت الموثوق برأيه فما ترى ؟

قلت : وعلام أجمعت ياأمير المؤمنين ؟

قال : أجمعت على أن أرتحل بأهلى وولدى وخاصة أهل بيتى ومن اتبعنى من أصحابى حتى أقطع الدرب واصير إلى ملك الروم فأستوثق منه بالأمان ولايزال يأتينى الخائف من أهل بيتى وجنودى حتى يكشف أمرى وأصيب قوة على محاربة عدوى .

قال اسماعيل : وذلك والله كان الرأى له عندى غير أنى ذكرت سوء أثره فى قومى ومعاداته أياهم وتحامله عليهم فصرفت الرأى عنه وقلت له ياأمير المؤمنين : اعيذك بالله أن تحكم أهل الشرك فى نفسك وحرمك لأن الروم لاوفاء لهم .

قال : فما الرأى عندك ؟

---

(٧٩) كورة على نهر بقرب واسط .

قلت : الرأى أن تقطع الفرات وتستقرى مدن الشام مدينة مدينة فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء وتضمهم جميعا إليك وتسير حتي تنزل ببلاد مصر فهى أكثر أهل الأرض مالا وخيلا ورجلا فتجعل الشام أمامك وافريقية خلفك فإن رأيت ما تحب انصرفت الى الشام وإن تكن الأخرى اتسع لك المهرب نحو أفريقية فأنها أرض واسعة نائية منفردة .

قال : صدقت لعمري وهو الرأى .

فسار من حران حتى قطع الفرات وجعل يستقرى مدن الشام فيستنهضهم فيروغون منه ويهابون الحرب فلم يسر معه منهم إلا القليل .

وسار أبو عون صاحب قحطبة فى أثر مروان حتي انتهي إلى الشام وقصد دمشق فقتل من أهلها مقتلة عظيمة فيهم ثمانون رجلا من ولد مروان بن الحكم .

« نهاية بني أمية »

ثم عبر الشام سائرا نحو مصر حتي وافاها واستعد مروان فيمن كان معه من أهل الوفاء له وكانوا نحوا من عشرين ألف رجل وسار مستقبلا أبا عون حتى التقى الفريقان فاقتتلوا .

فلم يكن لأصحاب مروان ثبات فقتل منهم خلق وانهزم فتبددوا وهرب مروان على طريق أفريقية وطلبته الخيل فحال بينها وبينه الليل فعبر مروان النيل فى سفينة فصار فى الجانب الغربى وكان منجما فقال لغلامه : إني إن سلمت هذه الليلة رددت خيل خراسان على أعقابها حتى أبلغ خراسان .... ثم نزل ودفع دابته الى غلامه وخلع درعه فتوسدها ونام لشدة ما قد مر به من التعب ولم يكن معه دليل يدله على الطريق وخاف أن يوغل فى تلك المفاوز فيضل .

وأقبل رجل من أصحاب أبي عون يسمى « عامر بن اسماعيل » فى طلب مروان حتى أتى المكان الذى عبر فيه مروان فدعا بسفينة فجلس فيها وعبر فانتهى به السير إلى مروان وهو مستلق نوما فضربه بالسيف حتى قتله .

قالوا : ولما بلغ محمد بن خالد بن عبد الله القسري وكان مستترا بالكوفة فى بجيلة موافاه قحطبة بن شبيب حلوان بجموع أهل خراسان جمع إليه نفرا من أشراف قومه ثم ظهر ودعا لأبي العباس الإمام فطلبه زياد بن صالح عامل يزيد بن عمر فاجتمع إليه قومه وقاموا دونه .

---

(٨٠) تذكر افريقية فى كتب التاريخ العربى ويقصد بها شمال افريقية .

وبلغ ذلك يزيد بن عمر بن هبيرة فأمد زياد بن صالح بالرجال وأجتمع إلى محمد جميع من كان بالكوفة من اليمانية والربعية فهرب زياد بن صالح حتى لحق بيزيد بن عمر بواسط .

وكتب محمد بن خالد إلى قحطبة وهو بحلوان يسأله أن يوليه أمر الكوفة ويبعث اليه عهده عليها ففعل .

فأتى المسجد الأعظم فى جمع كثير من اليمانية وقد أظهروا السواد وذلك يوم عاشورا من المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة (٨١) .

وقال محمد بن خالد فيما كان من قتله الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

قتلنا الفاسق المختال لما ... أضاع الحق واتبع الضلالا
بمقتول لخالد ألا حمته ... بنو قحطان إن كانوا رجالا
فكيف رأى غداة غدت عليه ... كراديس (٨٢) يشبهها الجبالا
ألا أبلغ بنى مروان عنى ... بأن الملك قد أودى غزالا

وسار يزيد بن عمر بن هبيرة إلى الكوفة يريد محمد بن خالد فدخل محمد على أبى سلمة الداعى فأخبره بفصول ابن هبيرة نحوه وتخوفه أن لايقوى بكثرة جموعه .

فقال له أبو سلمة : إنه قد كان منك من الدعاء إلى الإمام أبى العباس مالا ينساه لك فلا تفسد ذلك بقتل نفسك ومن معك ودع الكوفة فإنها فى يديك وسر بمن معك حتى تنضم إلى قحطبة .

قال محمد : لست بخارج من الكوفة حتى ابلى عذرا فى محاربة ابن هبيرة فاستعد بمن كان معه بالكوفة من اليمن وربيعة وسار مستقبلا لابن هبيرة حتى التقيا .

فنادى محمد بن خالد من كان مع ابن هبيرة من قومه :

تبا لكم أنسيتم قتل أبى خالد وتحامل بن أمية عليكم ومنعهم إياكم أعطياتكم ؟ بابنى عم قد أزال الله ملك بنى أمية وأدال منهم فانضموا الى ابن عمكم فإن هذا قحطبة بحلوان فى جميع أهل خراسان وقد قتل مروان فلم تقتلون أنفسكم ؟

وأن الأمير قحطبة قد ولانى الكوفة وهذا عهدى عليها فليكن لكم أثر فى هذه الدولة . فلما سمعوا ذلك مالوا إليه جميعا ولم يبق مع ابن هبيرة إلا قيس وتميم .

فلما رأى ذلك ولى منهزما بمن معه حتى وافى واسط ووجه فى نقل الميرة (٨٣) إليها

---

(٨١) الموافق أغسطس من سنة ٧٤٩م .

(٨٢) الكردسة بالضم عظيمة من الخيل وكل عظيمين التقيا فى مفصل والكوردسان قيس ومعاوية ابنا مالك بن حنظلة .

(٨٣) الطعام .

واستعد للحصار وانصرف محمد بن خالد إلى الكوفة فخطب الناس ودعا لأبي العباس وأخذ بيعة أهل الكوفة .

وأقبل قحطبة من حلوان حتى وافى العراق فنزل دمما [٨٤] وهى فيما بين بغداد والانبار وذلك قبل أن تبنى بغداد وإنما كانت قرية يقوم بها سوق فى كل شهر مرة فأقام معسكرا بها .

فقال على بن سليمان الأزدى يذكر محمد بن خالد وسبقه إلى الدعاء إلى بنى هاشم :

يـا حـاديـنـا بـالـطـريـق قـومـا   بيعملات كـالقسى رسما [٨٥]
تـنـجو بـأجواز الفلاة مقـدمـا   إلى امـرىء أكـرم من تكـرمـا
محمـد لما سما وأقـدمـا   ثـار بكوفـان بها معلما
فى عصبـة تطلب أمـرا مبرمـا   حتى علا منبرهـا معمما
أكـرم لما فـاز بـه وأعظما   إذ كـان عنهـا النـاس كلا نومـا

وان قحطبة عند مسيره إلى العراق استخلف على أرض الجبل يوسف بن عقيل الطائى وأقبل ابن هبيرة حتى صار على شاطىء الفرات الغربى وهو فى نحو ثلاثين ألف رجل .

وأقبل قحطبة حتى نزل فى الجانب الشرقى فأقام ثلاثا ثم نادى فى جنوده أن أقحموا خيلكم الماء فاقتحموها وقحطبة أمام أصحابه .

ولما عبر أصحاب قحطبة قاتلهم ابن هبيرة فلم يقم لهم فانهزم جتى أتى واسطا فتحصن فيها وفقد قحطبة بن شبيب فلم يدر أين يذهب .

ويزعم بعض الناس أن فرسه غاص به فغرق وتولى أمر الناس ابنه الحسن بن قحطبة ولما تحصن ابن هبيرة بواسط خلف الحسن بن قحطبة عليه بعض قواده فى عشرين ألف رجل وسار نحو الكوفة وقد أخذها محمد بن خالد فوافاها الحسن بن قحطبة وبها الامام أبو العباس .

(مبايعة العباس)

فأظهر أبا العباس وأقبل به حتى دخل المسجد الأعظم واجتمع له الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام ثم ذكر انتهاك بنى أمية المحارم وهدمهم الكعبة ونصبهم عليها المجانيق وما أبدعوا من خبيث السير ثم نزل .

---

(٨٤) كانت قرية كبيرة على فم نهر عيس قرب الفرات .

(٨٥) اليعملة : الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة والجمل يعمل وناقة عملة بينة العمالة فارهة .

فأكثر الناس له من الدعاء وأقبل نحو دار الإمارة فنزلها وأمر الحسن بن قحطبة بالانصراف إلى واسط والاناخة بيزيد بن عمر بن هبيرة فصار الحسن وحاصر يزيد أشهرا كثيرة .

قال الهيثم بن عدى : بويع لأبى العباس بالخلافة ولأبى جعفر بولاية العهد من بعده فى رجب من سنة اثنتين وثلاثين ومائة (٨٦) .

فلما استدف لأبى العباس الأمرة ولى أبا سلمة الداعى جميع ما وراء بابه وجعله وزيره وأسند إليه جميع أموره فكان يسمى وزير آل محمد فكان ينفذ الأمور من غير مؤامرة .

وبلغ ذلك أبا مسلم وهو بخراسان فدعا مروان الضبى وكان أحد قواده وقال له : انطلق إلى الكوفة فأخرج أبا سلمة من عند الإمام أبى العباس فاضرب عنقه وانصرف من ساعتك ..... ففعل الضبى ذلك فقال الشاعر يرثى أبا سلمة :

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيرا

ثم إن الإمام أبا العباس رأى أن يوجه أخاه أبا جعفر المنصور إلى واسط ليتولى محاربة ابن هبيرة فوجهه وكتب إلى الحسن بن قحطبة يعلمه أن العسكر عسكره وأنه أحب أن يكون أخوه المتولى للأمر..... فلما وافى أبو جعفر واسط تحول الحسن بن قحطبة عن سرادقه وخلاه بما فيه له فنزله أبو جعفر بحريمه وحشمه .

وكتب أبو جعفر إلى قواد يزيد بن عمر وأشراف من العرب يستميلهم بالأطماع وينبههم على حظوظهم ويعرفهم بزوال دولة بنى أمية فأجابوه جميعا وكان أول من أجابه وانحرف إليه زياد بن صالح الحارثى وكان عامل ابن هبيرة على الكوفة وأخص أصحابه عنده وقد كان ابن هبيرة ولاه حراسة مدينته بالليل ودفع إليه مفاتيح أبوابها .

قال الهيثم : فحدثنى أبى قال : لما هم زياد باللحوق بأبى جعفر أرسل إلى وكان وصى أبى فكنت أدعوه أبا وعما وقد كنت رسوله أتانى عند اختلاط الظلام يأمرنى بالمسير إليه فأتيته فخلا بى وقال :

ياابن أخى إنك لست ممن أكتمه شيئا وقد أتانى كتاب أبى جعفر يدعونى إلى اللحوق به ويبذل لى على ذلك منزلة سنية وأعلم فى كتابه أنه راع للخئولة - وكانت أم أبى العباس حارثية .

قال والدى : فقلت له ياعم إن لابن هبيرة أيادى جميلة وأكره لك الغدر به .

---

(٨٦) الموافق فبراير سنة ٧٥٠ .

فقال : ياابن أخي أنا من أشكر الناس له .. غير إني لا أرى أن أقيم على ملك قد انفضت قواه ووهنت عراه وأنا لابن هبيرة اليوم عند أبي جعفر أنفع مني له .... هاهنا وأرجو أن يصلح الله أمره بي وعلى يدي فأقم عندي إلى وقت خروجي لأسلم لك المفاتيح .

فأقمت عنده .

فلما مضى ثلث الليل أمر غلمانه فحملوا أثقاله وأسرجوا دوابه ثم ركب وخرج من منزله وانا أمشي معه حتى انتهى إلى باب المدينة الذى على دجلة وكانت المفاتيح معه وأمر الأحراس أن يفتحوا الباب وقال لهم : أريد الخروج لأستطلاع بعض الأمور وأنا منصرف بعد ساعة ثم خرج وأمرني باغلاق الباب وأخذ المفاتيح فقال لى فيما بيني وبينه إذا أصبحت فانطلق بالمفاتيح حتى تدفعها الى ابن هبيرة من يدك الى يده وأعلمه أنى له هناك أفضل مني له هاهنا ثم ودعني ومضى وانصرفت إلى منزلى .

فلما أصبحت أتيت باب قصر الإمارة فاستأذنت على ابن هبيرة .... فقال لى الحاجب هو قاعد فى مصلاه لم يقم عنه .

قلت : أعلمه إنى أتيته فى مهم .

فأذن لى .

فدخلت وهو قاعد فى محرابه وعليه كساء بركانى[٨٧] معلم فسلمت عليه بالامرة فرد السلام وقال : مهم .

فحدثته بأمر زياد بن صالح فدمعت عيناه .

وقال : بمن تثق اليوم بعد زياد وتوليتى إياه الكوفة وبرى به ؟

قلت : أيها الأمير إن الله ربما جعل فى الكره خيرا وأرجو أن ينفعك الله بمكانه هناك .

فقال : لاحول ولاقوة إلا بالله .

ثم قال : ياغلام على بطارق بن قدامة القسرى فدخل إليه وأنا جالس عنده فدفع إليه تلك المفاتيح .

وقال : ياطارق إنى قد اخترتك لحراسة هذه المدينة على جميع أصحابك من خاصتنا فكن كنحو ثقتى بك ولما طال على ابن هبيرة الحصار بعث إلى المنصور يسأله الأمان فأرسل إليه إن أردت أن اؤمنك على حكم أمير المؤمنين أبى العباس فعلت فشاور ابن هبيرة نصحاءه فأشاروا عليه أن يفعل .

(٨٧) الكساء البركانى : ذو اللون الاسود .

فأرسل إلى أبي جعفر يعلمه أني راض بذلك فكتب اليه أبو جعفر ذلك بخطه وأشهد عليّ نفسه بذلك القوّاد .

فخرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر فى نفر من بطانته فدخل عليه وهو فى سرادقه وحول السرادق عشرة آلاف نفر من أهل خراسان مستلئمين فى السلاح فأمر أبو جعفر بوسادة فجلس عليها قليلا ثم نهض ودعى له بدابته فركب وانصرف إلى منزله وفتحت أبواب المدينة ودخل الناس بعضهم فى بعض .

قالوا : وأحصى ما فى الخزائن من الأموال والسلاح وما بقى من الطعام والعلف الذى كان ابن هبيرة قد ادخر وأعد للحصار فكان المال ثلاثة آلاف درهم ومن السلاح شيء كثير وطعام ثلاثين ألف رجل وعلف عشرين ألف رأس من الدواب سنة .

وأن أبا جعفر كتب الى أبي العباس يخبره بخروج ابن هبيرة على حكمه ويسأله أن يعلم الذى يرى فيه .

فكتب أبو العباس : لاحكم لابن هبيرة عندى إلا السيف .

فلما انتهى الكتاب بذلك إلى أبي جعفر كتمه عن جميع الناس وقال لحاجبه : مر ابن هبيرة إذا ركب إلينا ألا يركب إلا فى غلام واحد ويدع عنه هذه الجماعات .... فلما كان من غد ركب ابن هبيرة إلى أبي جعفر فى موكب عظيم .

فقال له سلام الحاجب : كأنك إنما تأتى ولى العهد مباهيا ولا تأتيه مسلما .

قال له ابن هبيرة : إن كنتم كرهتم ذلك لم آتكم إلا فى غلام واحد .

قال : فلا تاتنا إلا فى غلام واحد فإنى لم اقل ذلك استخفافا بحقك إلا أن أهل خراسان ينكرون كثرة من يركب معك .

فكان ابن هبيرة بعد ذلك لايأتيهم إلا فى غلام واحد فيدخل ويسلم وينصرف .

ثم إن أبا جعفر قال للحسن بن قحطبة : اجمع إليك أبا بكر العقيلى والحوثرة بن سهل ومحمد بن بنانة وعبد الله بن بشر وطارق بن قدامة وسويد بن الحارث المزنى وهؤلاء كانوا قواد يزيد بن عمر فإذا اجتمعوا عندك فأضرب أعناقهم وائتنى بخواتيمهم ووجه حرسا يحرسون ابن هبيرة لأنفذ فيه أمر الإمام أبي العباس .

فانطلق الحسن بن قحطبة فأنفذ أمره فى أولئك وأتاه بخواتيمهم .

قال : فما نطق منهم أحد عند قتله وما كان منه جزع ولا امتناع .... فلما كان فى اليوم الثانى دعا أبو جعفر حازم بن خزيمة وابراهيم بن عقيل فقال لهما : انطلقا فى عشرة نفر من الحرس حتى تدخلا على ابن هبيرة فتقتلاه فأقبلا حتى دخلا عليه عند طلوع

الشمس وهو جالس فى مسجده فى القصر مسند ظهره إلى المحراب ووجهه إلى رحبة القصر.

فلما نظر اليهم قال لحاجبه : يا أبا عثمان أحلف بالله أن فى وجوه القوم لشرا فمضى أبو عثمان مستقبلا لهم وقال لهم : ما تريدون ؟

فبعجه ابراهيم بن عقيل بالسيف فقتله وقام ابراهيم ابنه فى وجوه القوم فقتل ثم قام ابنه داود فى وجوههم فقتل ثم قام كاتبه عمرو فقتل.

واقبلوا نحو ابن هبيرة فلما دنوا منه حوّل وجهه إلى القبلة وسجد فضربوه بأسيافهم حتى خمد وانصرفا إلى أبى جعفر فأخبراه بذلك فأمر أبو جعفر ماديا فنادى : أيها الناس أنتم آمنون الا الحكم بن عبد الله بن بشر ومحمد بن ذر وخالد بن سلمه المخزومى.

قال الهيثم : فحدثنى أبى قال : قال محمد بن ذر فضاقت على الأرض برحبها فخرجت ليلا من مدينة واسط على قدمى وأنا أقرأ آية الكرسى فما عرض لى أحد من الناس حتى نجوت فلم أزل خائفا حتى استأمن لى زياد بن عبد الله من الإمام أبى العباس فآمننى.

قال : وهرب الحكم بن عبد الله الى كسكر فاستخفى بها .... وضاقت بخالد بن سلمه المخزومى الأرض فأتى باب أبى جعفر ليلا فاستأمن له فآمنه.

ثم نودى : أيها الناس أنتم جميعا آمنون يا أهل الشام الحقوا بشامكم ويا أهل الحجاز الحقوا بحجازكم فسكن الناس وآمنوا واطمأنوا واستعمل المنصور على واسط الهيثم بن زياد الخزاعى فى خمسة آلاف رجل من أهل خراسان ثم انصرف بسائر الناس حتى قدم على الإمام أبى العباس وهو بالحيرة.

ثم إن الإمام سار من الحيرة فى جموعه حتى أتى الانبار فاستطابها فابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسه وجموعه وقسمها خططا بين أصحابه من أهل خراسان وبنى لنفسه فى وسطها قصرا عاليا منيفا فسكنه وأقام بتلك المدينة طول خلافته وتسمى الى اليوم مدينة أبى العباس.

ثم إن أبا العباس وجه أخاه أبا جعفر المنصور إلى خراسان وأمره أن يأتى أبا مسلم فيناظره فى بعض الأمور ووجه معه ثلاثين رجلا من وجوه القواد وفيهم الحجاج بن أرطأة الفقيه واسحق بن الفضل الهاشمى.

فلما قدم المنصور على أبى مسلم لم يبالغ أبو مسلم فى بره وإكرامه ولم يظهر السرور التام بقدومه فانصرف إلى أبى العباس وقال : لست بخليفة ما دام أبو مسلم حيا فاحتل

لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ومثله لا يؤمن من غدره ونكثه .

فقال أبو العباس : وكيف يمكن ذلك ومعه أهل خراسان ؟ وقد أشربت قلوبهم حبه واتباع أمره وإيثار طاعته .

فقال أبو جعفر : فذلك والله أحرى ألا تأمنه فاحتل له .

فقال أبو العباس : يا أخى أضرب عن هذا ولا تعلمن رأيك فى ذلك أحدا .

وإن أبا العباس قال ذات يوم لحجاج بن أرطأة وقد خلا معه : ما تقول فى أبى مسلم ؟

فقال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول فى كتابه « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

قال أبو العباس : امسك فقد فهمت ما أردت .... ثم إن أبا مسلم وجه محمد ابن الأشعث بن عبد الرحمن أميرا على فارس .

ورأى أبو العباس أن يستعمل عليها عمه عيسى بن على فعقد له عليها وأمره بالسير إليها فلما قدم عيسى بن على على محمد بن الأشعث أبى أن يسلم اليه .

فقال له عيسى : يا ابن الأشعث ألست فى طاعة الإمام أبى العباس ؟

قال : بلى غير أن أبا مسلم أمرنى ألا أسلم العمل إلى أحد من الناس .

قال عيسى : فإنما أبو مسلم عبد الإمام وإن الامام لا يرضى أن يرد أمره .

قال محمد : دع عنك هذا ...... لست أسلم العمل إليك إلا بكتاب أبى مسلم .

فانصرف عيسى إلى أبى العباس فأخبره ذلك فكظم وأمر بالمقام عنده فأقام وإن أبا مسلم عقد للمغلس بن الرى على أرض طخارستان حتى وافاه فخرج اليه منصور مستعدا للحرب فالتقوا فاقتتلوا فكان الظفر للمغلس وهرب منصور فى نفر من أصحابه حتى وقعوا فى الرمال فماتوا عطشا .

وأقام المغلس على باب بلاد السند .... وإن أبا مسلم كتب إلى الإمام أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه والمقام عنده إلى أوان الحج ليحج فأذن له أبو العباس فى ذلك فسار أبو مسلم حتى إذا قارب الإمام أمر أبو العباس جميع من كان معه بالحضرة من القواد والأشراف أن يستقبلوه فاستقبل بالكرامة وترّجل له الأشراف والقواد .

وأقبل حتى وافى مدينة أبى العباس فأنزله معه فى قصره ولم يأل جهده فى بره وإكرامه حتى إذا حان وقت الحج استأذنه فى الحج .

فقال له أبو العباس : لولا أن أخي أبا جعفر قد عزم على الحج لوليتك الموسم فكونوا جميعا قال أبو مسلم : وذلك أحب إلى .... ثم خرجا .

فكان يرتحل أبو جعفر وينزل أبو مسلم حتى وافيا مكة فقضيا حجهما وانصرفا .

(أبو جعفر المنصور)

فلما وصل أبو جعفر إلى « ذات عرق » فى منصرفه أتاه نعي الإمام أبى العباس فأقام بمكانه حتى وافاه أبو مسلم فأخبره بوفاة أبى العباس فخنقت أبا مسلم العبرة وقال : رحم الله الإمام أمير المؤمنين إنا لله وإنا إليه راجعون .

فقال أبو جعفر : انى قد رأيت أن تخلف أثقالك ومن معك من جنودك على فيكونوا معي وتركب أنت فى عشرة نفر البريد حتى ترد الأنبار فتضبط العسكر وتسكن الناس .

قال أبو مسلم : أفعل .

فركب فى عشرة نفر من خاصته وسار بالحث الشديد حتى وافى العراق وانتهى إلى مدينة أبى العباس بالأنبار فوجد عيسى بن على بن عبد الله بن عباس قد دعا الناس إلى بيعته وخلع ولاية العهد عن أبى جعفر .... فلما رأوا أبا مسلم مالوا معه وتركوا عيسى فلما وافى أبو جعفر اعتذر إليه عيسى وأعلمه أنه إنما أراد بذلك ضبط العسكر وحفظ الخزائن وبيوت الأموال .

فقبل أبو جعفر منه ذلك ولم يؤاخذه بما كان منه واجتمع الناس وبايعوا المنصور أبا جعفر ثم أتاه انتقاض الشام وقد كان أبو العباس استعمل عليها عمه عبد الله بن على فلما بلغه وفاة أبى العباس دعا لنفسه واستمال من كان معه من جنود خراسان فمالوا معه .

فلما بلغ أبا جعفر ذلك قال لأبى مسلم : أيها الرجل إنما هو أنا أو أنت فإما أن تسير الى الشام فتصلح أمرها أو أسير أنا .

قال أبو مسلم : بل أسير أنا .

فاستعد وسار فى اثنى عشر ألفا من جنود خراسان حتى إذا وافى الشام انحاز اليه من كان بها من الجنود جميعهم وبقى عبد الله بن على وحده فعفا أبو مسلم عنه ولم يؤاخذه بما كان منه وكانت خلافة أبى العباس أربع سنين وستة أشهر .

وإن أبا جعفر عند مسير أبى مسلم نحو الشام وجه يقطين بن موسى فى أثر أبى مسلم وقال : إن تكن هناك غنائم فتول قبضها .

وبلغ ذلك أبو مسلم فشق عليه وقال : إن أمير المؤمنين لم يأتمنى على ما هاهنا حتى استظهر على بأمين .... ودخلته من ذلك وحشة شديدة .

ولما بلغ المنصور إصلاح الشام كره المقام بمدينة أبى العباس التى بالأنبار فسار بعسكره إلى المدائن على فرسخ وهى المدينة التى بناها كسرى أنوشروان وأنزلها السبى الذى سباه من بلاد الروم فأقام المنصور بتلك المدينة .

وإن أبا مسلم انصرف فأخذ على الفرات حتى وافى العراق على الأنبار وجاز حتى وافى كرخ (٨٨) بغداد وهى إذ ذاك قرية ثم عبر دجلة من بغداد وأخذ طريق خراسان وترك المدائن .

وبلغ ذلك أبا جعفر فكتب إلى أبى مسلم : أريد مناظرتك فى أمور لم يحتملها الكتاب فخلف عسكرك حيث ينتهى كتابى فاقدم على .... فلم يلتفت أبو مسلم إلى كتاب المنصور ولم يعبأ به .

وكان مع المنصور رجل من ولد جرير بن عبد الله البجلى واسمه جرير بن يزيد بن عبد الله .... وكانت له خلابة وتأت فى الأمور ومكيدة .

فقال له أبو جعفر : اركب البريد حتى تلحق أبا مسلم فتحاول رده الى فانه قد مضى مغاضبا ولا آمن إفساده على وتأت فى رده بأفضل التأتى .

فسار الرجل حتى لحقه فى بعض الطريق وقد نزل بعض المنازل بعسكره فدخل عليه مضربه فقال : أيها الأمير أجهدت نفسك وأسهرت ليلك وأتعبت نهارك فى نصرة مواليك وأهل بيت نبيك حتى إذا استحكم لهم الأمر وتوطد لهم السلطان ونلت أمنيتك فيهم تنصرف على هذه الحال فما تقول الناس ؟ ألا تعلم أن ذلك مطعنة عليك فى حياتك وبعد وفاتك ؟ فلم يزل به حتى عزم على الأنصراف معه إلى المنصور وخلف عسكره بمكانه ذلك .

وسار منصرفا فى ألف فارس من أفاضل من كان معه من جنود خراسان والقواد وقد كان أبو مسلم يقول : إن المنجمين أخبرونى أن لا أقتل إلا بالروم .

(قتل أبى مسلم الخراسانى)

حتى وافى أبا جعفر بالرومية فدخل عليه فقام اليه أبو جعفر وعانقه وأظهر السرور بانصرافه وقال له : كدت تمضى من قبل أن أراك وأفضى اليك بما أريد فقم فضع عنك ثيابك وانزل حتى يذهب كلال السير عنك .

فخرج أبو مسلم إلى قصر قد أعد له ونزل أصحابه حوله .... فمكث ثلاثة أيام يغدو كل يوم إلى أبى جعفر فيدخل على دابته حتى ينتهى إلى باب المجلس الذى فيه الإمام ويدخل اليه فيجلس عنده مليا فيتناظران فى الأمور .

---

(٨٨) مكان بين المصراة ونهر عيسى اتخذ سوقا .

فلما كان فى اليوم الرابع وطن له أبو جعفر عثمان بن نهيك وكان على حرسه وشبث بن روح وكان على شرطته وأبا فلان بن عبد الله وكان على الخيل وأمرهم أن يكمنوا فى بيت إلى جنب المجلس الذى كان فيه وقال لهم : إذا أنا صفقت يدىّ ثلاثا فاخرجوا إلى أبى مسلم فبضعوه .

وأمر الحاجب إذا دخل أبو مسلم أن يأخذ عنه سيفه .... واقبل أبو مسلم فدخل وأخذ الحاجب سيفه فدخل مغضبا وقال : يا أمير المؤمنين فعل بى مالم يفعله مثله قط أخذ السيف من عاتقى ... قال أبو جعفر : ومن آخذه لعنه الله ؟ اجلس لا عليك .

فجلس وعليه قباء أسود خز ووضع له متكئا ولم يكن فى البيت غيرهما فقال أبو جعفر : ما أردت بمضيك نحو خراسان قبل لقائى ؟

قال أبو مسلم : لأنك وجهت فى اثرى إلى الشام أمينا فى إحصاء الغنائم أما وثقت بى فيها ؟ فأغلظ له أبو جعفر الكلام .

فقال : يا أمير المؤمنين : أنسيت حسن بلائى وفضل قيامى وأتعاب نفسى حتى سقت هذا السلطان إليكم ؟

قال أبو جعفر : يا ابن الخبيثة والله لو قامت مقامك أمة سوداء لأغنت غناك إنما تأتى لك الأمور فى ذلك بما أحب الله من إظهار دعوتنا أهل البيت ورد حقنا الينا ولوكان ذلك بحولك وحيلتك وقوتك ما قطعت فتيلا .... ألست يا ابن اللخناء الذى كتب إلى تخطب عمتى آمنة بنت على بن عبد الله ؟ وتزعم فى كتابك أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس لقد ارتقيت مرتقى صعبا .... فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين لا تدخل على نفسك الغم والغيظ بسببى فإنى أصغر قدرا من أن أبلغ منك هذا فصفق أبو جعفر بكفيه ثلاثا وخرج عليه القوم بالسيوف .

فلما رآهم أبو مسلم أيقن بالأمر فقام إلى أبى جعفر فتناول رجله ليقبلها فرفسه أبو جعفر برجله فوقع ناحية فاخذته السيوف فقال أبو مسلم : أما من سلاح يحامى به المرء عن نفسه ؟ فضربوه حتى خمد .

وأمر أبو جعفر فلف فى بساط ووضع ناحية من البيت .... وقد كان أبو مسلم قبل دخوله على أبى جعفر قال لعيسى بن على : ادخل معى الى أمير المؤمنين فانى أريد معاتبته فى بعض الأمور .

فقال له عيسى : تقدم فإنى على أثرك .

فأقبل عيسى حتى دخل على أبى جعفر فقال : يا أمير المؤمنين : أين أبو مسلم ؟

قال : أبو جعفر : ها هو ذا ملفوف فى ذلك البساط .

قال عيسى : أقتلته ؟ انا لله فكيف تصنع بجنوده ؟ وهؤلاء قد جعلوه ربا .

فأمر أبو جعفر فهيئت ألف صرة فى كل صرة ثلاثة آلاف درهم .... وأحس أصحاب أبى مسلم بالأمر فصاحوا وسلوا السيوف فأمر أبو جعفر بتلك الصرر فقذفت إليهم مع رأس أبى مسلم وصعد عيسى بن على إلى أعلى القصر وقال : يا أهل خراسان : إنما كان أبو مسلم عبدا من عبيد أمير المؤمنين وجد عليه فليفرخُ روعكم فإن أمير المؤمنين بالغ آمالكم .... فترجل القوم وتناولوا تلك الصرر كل واحد صرة وترك الرأس مقذوفا .

ثم إن أبا جعفر وضع لأصحاب أبى مسلم العطاء ووجه الأموال إلى عسكر أبى مسلم حيث خلفه فأسنى لهم العطاء وكتب كتابا فقرئ عليهم يبسط فيه آمالهم وأجزل صلات القواد والأشراف منهم فأرضاهم ذلك ...... واستدفت الخلافة لأبى جعفر المنصور سنة ثمان وثلاثين ومائة فوجه عماله إلى أقطار الأرض .

دراسة وتحليل :

يطالعنا أبو حنيفة الدينورى فى مفتتح حديثه عن أصل أبى مسلم وأنه كان مملوكا وبالتالى عن نشأته عند أسياده فى البصرة ثم يحدثنا عن موهبة أبى مسلم وإنه نشأ غلاما فهما أديبا ذهنا » ويصدر أبو حنيفة فى حديثه عن الموهبة قبل حديثه عن الحافز يصدر عن فهم أصيل لطبيعة فن السيرة إذ أن الموهبة تسبق الحافز فى مجال النشؤ فهى توجد أولا ثم يعقبها الحافز وهو بحديثه عن الموهبة يوحى بأن صاحبها سيكون له شأن وانه سيعبر رحاب التاريخ .

ثم يحدثنا عن المحور الكبير الذى يدور حوله كاتب السيرة وأعنى به الحافز الذى قاد أبا مسلم إلى العمل التاريخى فهو يحب بنى هاشم حبا عميقا عن فهم واستبصار وعن هذا الحب أصدر أبو مسلم كل الأعمال التى قام بها فى سبيل بنى هاشم .

ثم يحدثنا عن الحياة العامة التى أحاطت به وعن الظروف التى أحاطت بالشيعة وما لقوه من سجن واضطهاد بل إن الشيعة قد اكتشفوا موهبة أبى مسلم وهو فى السجن مع سيديه : معقل وعيسى ابنى ادريس وهما من كبار الشيعة .

وأن ما كان يتمتع به أبو مسلم من ذكاء وفهم وحسن بصر ، وجودة ذهن ، وحسن منطق .... كانت هذه المواهب سلم أبى مسلم الى المجد حيث رشحه فريق من الشيعة نتيجة لاتصافه بهذه الصفات ليحظى بشرف الاتصال بالإمام محمد بن على الذى جعل أبا مسلم رسولا بينه وبين الشيعة .

« ثم توفى الإمام محمد بن على فقام بالأمر بعده ابنه ابراهيم بن محمد وكان أكبر ولده فأمر أبا مسلم أن يسير إلى الدعاة بالعراق وخراسان فيعلمهم وفاة الإمام وقيامه بالأمر من بعده »

فبلغ أبو مسلم الرسالة التى أحزنت الشيعة حزنا عميقا فسودوا ثيابهم .... لم تكن المهمة التى نيطت بأبى مسلم أول الأمر هينة فقد كانت عسرة لأن السلطة يومذاك كانت فى يد بنى أمية أعداء بنى هاشم الألداء .... فقبول أبى مسلم القيام بهذه المهمة دليل على حبه حقا لبنى هاشم .

وكثرت الشيعة بخراسان كلها وعلن أمرها يقول أبو حنيفة .... الامر الذى أفزع بنى أمية وخليفتهم هشام فجعل يبحث عن قائد يتولى أمر خراسان ليقضى على الشيعة بها وأخيرا استقر رأيه على تولية نصر بن سيار الليثى أمر خراسان .

ثم إن الإمام إبراهيم رأى أن يولى خراسان أبا مسلم لما جرب من عقله وأمانته ولما يرجو أن يأتى الملك لبنى هاشم على يد أبى مسلم .

وتوجه أبو مسلم إلى خراسان وشمر للدعاء وأخذ القوم بالبيعة ووجه كل رجل من أصحابه إلى ناحية من خراسان وولى على من بايعه فى كل كورة رجلا من أهلها فاتبعه عالم من الناس عظيم حتى أجاب جميع أرض خراسان سهلها وجبلها ، وأقصاها وأدناها .

وبلغ أبو مسلم فى ذلك مالم يبلغه أصحابه من قبله واستتب له الأمر على محبته وصار من أعظم الناس منزلا عند شيعته حتى كانوا يتحالفون به فلا يحنثون ويذكرونه فلا يملون .

وفى نفس الوقت يدب الخلف بين ولاة هشام بعضهم بعضا بل وبينهم وبين هشام حتى إن أحدهم ليهدد هشاما بالدعوة « إلى عراقى الهوى ، شامى الدار ، حجازى الأصل ابراهيم بن محمد .... الخ »

وفى نفس الوقت أيضا يخرج بالكوفة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ثم يموت هشام ويتولى الأمر بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك فلا تهدأ الفتن الداخلية بل تشتد وتعنف حتى تصل إلى القمة وإذا بالوليد بن يزيد يخلع فيلبث مخلوعا أياما كثيرة وهو خليع بنى أمية يقول أبو حنيفة الدينورى ثم قتله الثوار وهم يقولون له « يا وليد يا لوطى يا شارب الخمر »

ثم تولى بعده يزيد بن الوليد فملك ستة أشهر ثم مات وقام بالملك من بعده أخوه ابراهيم بن الوليد ثم يدب النزاع بين أفراد البيت الحاكم نفسه ويقتل بعضهم بعضا فقد

« دخل مروان بن محمد دمشق فأخذ ابراهيم بن الوليد وولى عهده عبد العزيز بن الحجاج فقتلهما ، واستدف الملك لمروان بن محمد وأعطاه أهل البلدان الطاعة ثم إن العصبية وقعت بخراسان بين المضرية واليمانية ، ثم حدثنا أبو حنيفة عن سببها ، وما حدث بين نصر بن سيار حاكم خراسان وبين الكرمانى سيد من بأرض خراسان من اليمانية .... وأن الحرب قامت بينهم عشرين شهراً « وشغلهم ذلك عن طلب أبى مسلم وأصحابه حتى قوى أمره ، واشتد ركنه ، وعلى شأنه فى جميع كور خراسان »

وحاول عقيل بن معقل الليثى أن يصلح ما بين الكرمانى ونصر ليقف الجميع فى وجه المسودة ولكن بدون جدوى ..... فكتب نصر بن سيار إلى الإمام مروان بن محمد يخبره بخروج الكرمانى عليه ومحاربته ايله واشتغاله بذلك عن طلب أبى مسلم وأصحابه حتى عظم أمرهم »

فلما وصل كتابه إلى مراون أرسل فى طلب ابراهيم بن محمد بن على وبعد نقاش بينهم أمر مروان بأن يقتل ابراهيم ، ولما قتل ابراهيم بن محمد خاف أخواه : أبو جعفر وأبو العباس على أنفسهما فهربا إلى الكوفة .

وبلغ أبا مسلم قتل الإمام ابراهيم وهرب إخوته إلى الكوفة فسار من خراسان حتى قدم الكوفة ودخل عليهما فعزاهما بأخيهما ثم قال لأبى العباس مد يدك أبايعك فمد يده فبايعه .... لم يفتر أبو مسلم فى تهيئة الجو والإعداد للقيام بالثورة بينما الخلاف بين نصر والكرمانى لم ينته بعد وحان الوقت الذى واعد فيه أبو مسلم مستجيبيه فخرجوا جميعا فى يوم واحد من جميع كور خراسان حتى وافوه وقد سودوا ثيابهم تسليا على ابراهيم بن محمد ، وأقبلوا فرسانا وحمّارة ورّجالة يسوقون حميرهم ويزجرونها « هّر مروان » (يسمونها مروان) ترغيما لمروان بن محمد وكانوا زهاء مائة ألف رجل .

فلما بلغ نصر بن سيار ظهور أبى مسلم سقط فى يديه وخاف على نفسه ، ولم يأمن أن ينحاز الكرمانى فى اليمانية والربعية اليهم فيكون فى ذلك اصطلامه فأراد أن يستعطف من كان مع الكرمانى من ربيعة ، وكتب اليهم بذلك فلم تحفل ربيعة بكتابه .

وبلغ أبا العباس الإمام وهو مستخف بالكوفة أن أبا مسلم لو أراد أن يصطلم عسكر نصر والكرمانى لفعل غير أنه يدافع الحرب فكتب اليه يؤنبه فى ذلك .

وكان أبو مسلم يحب أن يستميل أحد الرجلين ليفصم به شوكة الآخر ، وكانت هناك محاولة لم تنجح ثم انتهى الامر بقتل الكرمانى ووفاة نصر واستتب الأمر لأبى مسلم واستولى على خراسان واستعمل عماله عليها وبدأ فى تطهير البلاد من الحكم المروانى وفعلا تم له ذلك فقتل مروان وانتهى حكم بنى أمية وبايع الناس أبا العباس .

ذلك هو العمل التاريخى الذى قام به أبو مسلم والذى ساق به الملك إلى بنى العباس ذلك هو العمل الذى جعل أبا مسلم يعبر رحاب التاريخ ، وقد قام بهذا العمل فى ظروف غير طبيعية إذ كانت السلطة فى يد بنى أمية فكانت أعماله سرية بطولية فيها مخاطرة وكان يتنقل فى أرجاء الدولة الأموية كانت خراسان وكره الأكبر.

ثم بدأ الصدام بينه وبين أولئك الذين ضحى من أجلهم فقد أنبه أبو العباس فى أمر الكرمانى ونصر ثم ولى أبو العباس أمر الوزارة إلى أبى سلمة الداعى ، وأسند اليه جميع أموره فاغتاظ أبو مسلم من ذلك وأرسل إلى أبى سلمة من قتله .... ثم إن أبا العباس وجه أخاه أبا جعفر الى خراسان وأمره أن يأتى أبا مسلم فيناظره فى بعض الأمور ولكن أبا مسلم لم يبالغ فى بر أبى جعفر واكرامه ولم يظهر السرور التام بقدومه فانصرف إلى أبى العباس وقال : لست بخليفة مادام أبو مسلم حيا فاحتل لقتله ..... الخ .

ثم إن أبا مسلم وجه محمد بن الأشعث بن عبد الرحمن أميرا على فارس ، ورأى أبو العباس أن يستعمل عليها عمه عيسى بن على فعقد له عليها ، وانتهى الأمر باستسلام أبى العباس لرأى أبى مسلم .

وكتب أبو مسلم إلى الإمام أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه والمقام عنده إلى اوان الحج ليحج فأذن له واستقبله بالحفاوة والتكريم فلما حان وقت الحج استأذنه فى الحج فقال له أبو العباس : لولا أن أخى أبا جعفر قد عزم على الحج لوليتك الموسم فكونوا جميعا فقال أبو مسلم : وذاك أحب الى .

ثم خرجا فكان يرتحل أبو جعفر وينزل أبو مسلم حتى وافيا مكة فقضيا حجهما وانصرفا فلما وصل أبو جعفر إلى ذات عرق فى منصرفه أتاه نعى الإمام أبى العباس فأقام بمكانه حتى وافاه أبو مسلم فأخبره بوفاة أبى العباس فخنقت أبا مسلم العبرة .

ثم أن أبا جعفر أمر أبا مسلم أن يذهب فى عشرة نفر إلى الأنبار ليضبط العسكر ويسكن الناس فسار .

ولما وصل الأنبار وجد عيسى بن على قد دعا الناس إلى بيعته فلما رأوا أبا مسلم مالوا معه وتركوا عيسى وبايعوا المنصور أبا جعفر .... ثم انتقضت الشام فقال أبو جعفر لأبى مسلم : أيها الرجل إنما هو أنا أو أنت فإما أن تسير إلى الشام فتصلح أمرها أو أسير أنا .... قال أبو مسلم : بل أسير .

وسار أبو مسلم نحو الشام وأخضعها للسلطان العباسى ولكن أبا جعفر وجه فى أثر أبى مسلم نحو الشام يقطين بن موسى وقال له : إن تكن هناك غنائم فتول قبضها .

وبلغ ذلك أبا مسلم فشق عليه وقال : إن أمير المؤمنين لم يأتمني على ماهاهنا حتى استظهر على بأمين ودخلته من ذلك وحشة شديدة ، وانصرف نحو خراسان فكتب إليه أبو جعفر بالقدوم عليه فلم يلتفت أبو مسلم إلى كتاب المنصور ولم يعبأ به .

فاحتال المنصور حتى أتاه أبو مسلم .... جاء أبو مسلم ومعه ألف فارس من أفضل من كان معه من جنود خراسان والقواد وقد كان أبو مسلم يقول : إن المنجمين أخبروني ألا أقتل إلا بالروم وأظهر أبو جعفر السرور بلقاء أبي مسلم ، ولكنه سرور الصائد تمكن من صيده ...... ومكث أبو مسلم ثلاثة ايام معززا مكرما ، وفى اليوم الرابع دبّر أبو جعفر طريقة اغتيال أبي مسلم .

وبدأ نقاش حاد بين ابى مسلم البطل الأعزل وبين الثعلب الماكر أبي جعفر ، وكشر أبو جعفر عن أنيابه ، ولم تجد توسلات أبي مسلم ، ولم تنفعه تلك الأعمال البطولية التى قام بها ليسوق الملك لبنى العباس بل إن أبا جعفر رأى أن الملك جاءهم قضاء وقدرا وكان سيأتيهم حتما ولو لم يكن هناك أبو مسلم ...... وسب أبو جعفر أبا مسلم واتهمه بالتطاول على أسياده بنى العباس .

وفى فترة من فترات الضعف البشرى التى تدرك الأبطال حاول أبو مسلم أن يقبل رجل أبي جعفر فرفسه الطاغية أبو جعفر ناحية فأخذته السيوف فقال أبو مسلم : أما من سلاح يحامى به المرء عن نفسه فضربوه حتى خمد ...... وهاج أصحاب أبي مسلم فألهاهم أبو جعفر بالمال وترضاهم فرضوا كما ترضى سائر عسكر أبي مسلم .

وهكذا يصور أبو حنيفة الدينورى شخصية أبي جعفر تصويرا فيه دهاء ومكر وغدر وتعطش لسفك الدماء ثم يصور أبا مسلم فى صورة البطل الظافر المنتصر الذى أبلى فى خدمة أسياده بنى العباس والذى ظل وفيا لهم حتى آخر لحظة وكان فى انتظار الجزاء الحسن ولكنه لقى شر ما يلقاه إنسان ، وكان جزاؤه جزاء سنمار ولكن أبا حنيفة لا يصرح بشئ من ذلك بل يدع القارئ يستشف ذلك من بين السطور كما يقولون ..... أبو حنيفة يلمح ولا يصرح ، وطريقة التلميح من أخص خصائص الأديب الناجح .

وهكذا يكشف لنا أبو حنيفة عن مواهب أبي مسلم وأسرار عبقريته من ظروف حياته التى عاشها والأحداث التى واجهها فى محيطه ، والأثر الذى خلقه فى جيله وقد عرض ذلك فى أسلوب قصصى أكثر إثارة للقارئ حيث يجيش بكافة الانفعالات والعواطف التى تثور فى أعماق البشر حول سيرة عظيم من عظماء التاريخ والشئ الرائع عند أبي حنيفة أنه ترك الحقيقة تعبر عن نفسها .

الحقيقة التاريخية التى تجمع بين البطل والقوى الاجتماعية التى تتجاوب معه وتحدوه إلى الغاية المنشودة .

وقد كان أبو حنيفة كغيره من مؤرخى العرب يحرص على إيراد الحادثة الواحدة بأسانيد مختلفة وكأنه يرى فى ذلك ضمانا لصحة ما يروى ، ولكن هذه الطريقة خالية من النقد والتمحيص ويمكن أن يفهم من كلام أبى حنيفة أنه كان يرى أن بطولة أبى مسلم ليست غير ظاهرة اجتماعية لروح العقيدة الدينية التى سادت المجتمع كما ذكرنا ذلك سابقا .

وإنه إن تكن الشريعة الإسلامية قد سوت بين الناس إلا أنه يبدو أن أبا جعفر المنصور الخليفة المسلم لم يكن يفهم ذلك واعتبر طلب أبى مسلم يد أحدى قريبات الخليفة تطاولا من أبى مسلم .

لقد قدم لنا أبو حنيفة فى شخصية أبى مسلم حياة إنسانية متكاملة من المهد إلى اللحد بل إنها تصل إلى ماقبل المهد ممثلة فى نسب أبى مسلم ، وتمتد بعد اللحد فيما تخلفه من آثر فى جيلها وفى الأجيال اللاحقة .

لقد أعاد أبو حنيفة تركيب حياة أبى مسلم بلمسة الفنان وعقل العالم إذ رد كل حقيقة إلى موضعها من خياة أبى مسلم واستعان بالتخيل الذى أضفى على السيرة حيوية وقوة .

ولقد اهتم أبو حنيفة بالوقائع أكثر من اهتمامه بالزمن لأن الأعمال العظيمة التى قام بها أبو مسلم هى التى جذبت اليه انتباه التاريخ وهى التى جعلت التاريخ يفتح أبوابه لأبى مسلم .

وإنه وإن تكن السيرة فى الواقع هى الامتداد الزمنى لحياة صاحبها من المهد إلى اللحد الا أن نقطة التحول فى حياة أبى مسلم كانت فى اتصاله بأئمة الشيعة وفى نجاحه فى الدعوة لبنى العباسى .

وقد حدثنا أبو حنيفة عن نشأة أبى مسلم وطفولته ومذهبه الدينى والسياسى وحياة أبويه .

والنشأة التى نشأها أبو مسلم كانت تدريبا له على الدور الذى لعبه على مسرح السياسة العربية ..... ولقد أوشك أبو مسلم أن يتسنم ذروة المجد ولكن أدركته لعنة أبى جعفر وعادت أغانى العرس رجع نواح كما يقول شوقى .

ولقد جعل أبو حنيفة شخصية أبى مسلم المحور الأساسى الذى دارت حوله أحداث التاريخ .

لقد كان أبو مسلم كما صوره أبو حنيفة عظيما حاول أن يعرج إلى المجد عن طريق القوى الشيعية التى عمل على خلقها وقد حمله هذا على تحدى السلطة القائمة وكان فوق ذلك انسانا موهوبا .

والدور الذى قام به أبو حنيفة وهو يكتب سيرة أبى مسلم كان دور من يدون الاحداث ولا يعرض لها بتحليل ، وانما يتركها تفصح عما وراءها ، والذى لاشك فيه أن أبا حنيفة كان يرى أن أبا مسلم جدير بإجلال التاريخ وإلا لما عرض لسيرته .

وبعد فقد ذكرنا فيما مضى طرقا ثلاثة لكتابة السيرة ونحسب أبا حنيفة يمثل الطريقة الثانية فقد سلك مسلكا غير مباشر ، وتوارى خلف الموضوع ليجعله يدل على نفسه بنفسه .

وان كنا نرى أن أبا حنيفة لم ينصف أبا مسلم كل الإنصاف .

هذا وتشغل تراجم الرجال فى آداب اللغة العربية أبين مكان ، وتستغرق أكبر حيز بل ان بعض[٨٩] الكاتبين يذهب إلى أكثر من ذلك حيث يقول : لاتبالغ إذا قلنا أن ما نسميه اليوم « أدب اللغة » كان يدور حول تراجم الرجال من أدباء وشعراء وعلماء ، وذكر شئ من أجود ماقالوا فأقدم كتب الأدب كالأغانى إنما بنى على الأصوات المختارة ، وتدرج منها إلى ذكر الأدباء وترجمة حياتهم ، وأهم ماعرض لهم » .

وأكثر الذى نعرفه من ضروب التأليف القديم نوعان : نوع أسس على تراجم الرجال كالأغانى ، ومعجم الأدباء وطبقات الشعراء ، ويتيمة الدهر ، ونوع أسس على المختار من المنظوم والمنثور كالذى ذهب اليه أبو حنيفة الدينورى فى « الأخبار الطوال » والجاحظ فى البيان والتبيين ، والكامل للمبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، فأما نظرة عامة فى الأدب عامة أو فرع من فروع الأدب كالشعر والخطابة وتحليله تحليلا عميقا مفصلا فذلك ضرب لانعلم أن الأقدمين وصلوا اليه ، والحق أنهم تركوا لنا شيئا غفلا يصح أن يستفاد منه بمهارة الصنعة واجادة الفن ، ولم يخلفوا لنا شيئا ناضجا يحسن الوقوف عنده .

والسبب فى أن الأقدمين سلكوا هذين الطريقين اللذين أشرنا إليهما أنهما أسهل الطرق على المؤلف ، فهو فى ترجمة الرجل يذكر تاريخ ولادته . وبعض حكايات رويت وحوادث عرضت . ثم تاريخ وفاته ، وبهذا ينتهى الفصل ، وفى الطريقة الثانية يختار ماتثر فى الكتب من النوع الأول وأمثالها ، ثم يربط بينها برباط قوى أو ضعيف ، فتتكون من ذلك مجموعة يصوغ لها اسما ، وكلا الضربين نوع من التأليف الساذج ، وأول درجة فى سلم التأليف .

---

(٨٩) أحمد أمين : فيض الخاطر جـ٢ ص١٧٤ - طبع النهضة المصرية ١٩٥٦ .

وفى هذا العيب نفسه وقعت كتب التاريخ العربية ، فهى إما دائرة حول السنين كتاريخ أبى الفداء ، والبداية لابن كثير أو حول الملوك وولائهم يذكرون ما حدث لهم ، وفى أيامهم «كالأخبار الطوال» لأبى حنيفة الدينورى ، فأما النظرة العامة إلى الموضوع والإحاطة به وتحليله وتعليله فدرجة لم يصل إليها مؤرخونا .

ولنعد الآن إلى ما نحن بصدده من تراجم الرجال .... فالذى ألاحظه على – معظم كتب التراجم القديمة احتجاب شخصية المؤلف . تقرأ الأغانى فيغمرك بروايات عن الرجل وأحاديثه ووقائعه وأدبه وشعره ، ولكن قل أن نظفر منه بكلام له أو نقد لشعره أو تعليق على حادثة له أو نحو ذلك ، وقد نجا أبو حنيفة الدينورى من هذه الزلة فهو إذا ترجم لرجل فذكر أحاديثه ووقائعه وأدبه لم ينس فى غمار ذلك أن يبلور لك شخصية المترجم له وأبرز صفاته بأسلوب أبى حنيفة نفسه فدار ابن دارا «تجبر واستكبر وطغى ، وكانت نسخة كتبه إلى عماله من دارا بن دارا المضئ لأهل مملكته كالشمس إلى فلان «وكان عظيم السلطان كثير الجنود[٩٠] .

وأما يزدجرد فكان منانا ، لايتجاوز عن زلة وإن صغرت ، ويعاقب على الصغيرة كما يعاقب على الكبيرة وما كان أحد يقدر على كلامه لفظاظته وغلظته[٩١] .... الخ .

وهكذا صنع أبو حنيفة فى خمسة عشر رجلا ترجم لهم فى «الأخبار الطوال» وقد نقلنا مقتطفات من هذه التراجم فى الفصل الرابع «الاتجاهات الأدبية عند العرب» فلا داعى لذكرها هنا .

على كل حال كان لنا تراجم للرجال نحوا فيها مناحى مختلفة ، فمنهم من ترجم لكل شخص ممتاز بأى نوع من أنواع المميزات كما فعل ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» فقد ترجم لكل عين ، وكما يقول هو «لأولى النباهة» ولم يستثن الا الصحابة والتابعين والخلفاء فترجم للمالى والفقيه والمتصوف والشاعر والأديب والنحوى واللغوى والوالى والمشعوذ ومنهم من اقتصر على طائفة خاصة .

كما فعل أبو حنيفة الدينورى فى «الأخبار الطوال» فقد ترجم فيه للسياسيين ورجال الحرب خاصة ، وكما فعل ياقوت فى «معجم الأدباء» فقد ترجم فيه للأدباء خاصة وكما فعل ابن قتيبة فى «الشعر والشعراء» وابن سلام فى «طبقات الشعراء» وكما فعل السيوطى فى «بغية الوعاة فى تراجم النحاة» ...... ومنهم من اقتصر على تراجم الأدباء فى عصر خاص كما فعل الثعالبى فى كتابه «يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر.... الخ» .

---

(٩٠) الأخبار الطوال ص ٢٩ (٩١) الأخبار الطوال ص ٥١

والآن نعرض لمسألة مهمة وهى : هل وفى هؤلاء المترجمون بالغرض الذين قصدوا اليه ؟ قبل ذلك يجب أن نبحث ..... متى تكون ترجمة الحياة جيدة وافية بالغرض ، المترجم « واصف » لمن يترجمه ، والواصف ينبغى أن يخرج بقلمه ولغته ما يخرجه الرسام بريشته بل للقلم مجال أوسع من الريشة ، فالقلم يستطيع أن يتغلغل إلى المعنويات من أخلاق وعقلية ومشاعر وصفات نفسية ، على حين أن الريشة لا تستطيع أن تصل إلى شئ كثير من ذلك نعم ان القلم يلاقى من الصعوبة مالا تجده الريشة ، فإن الريشة مرنة مطواع أمامها ماديات ذات مقاييس خاصة ونسب معينة يسهل على المصور أن يراعيها ، ولكن الكاتب يعانى بقلمه فى اخراج الصورة كاملة منسقة أكبر عناء ، يجب أن يكون الواصف من دقة الحس ويقظة العقل وحسن التقدير لما يهم ومالا يهم ولطف الذوق والقدرة على الإبانة بحيث يستطيع أن يصف لك الشخص الموصوف كأنك تراه بل أكثر من أن تراه ، فهو يريك من المعنويات مالا يرى .... تريك الصورة الشئ دفعة واحدة فتستطيع أن ترى النسب بين أجزائها وتدرك الجمال التركيبى كما تدرك الجمال الافرادى والكاتب الماهر يسلسل بين أقواله ويجملها بالمنطق الصحيح والأسلوب الأخاذ ، فيسرق منك نفسك ، فلا تنتبه إلا وقد وعيت صورة الموصوف كاملة ، يرى الواصف الشخص فيدرسه ويخبره ثم يدرسه ويخبره ، ويجمع حوله كل ما يهمه ويمحصه حتى إذا اجتمعت له فى ذهنه صورة كاملة متناسقة تؤلف وحدة استطاع أن يبرزها بقلمه فيشرك غيره فى رؤية مايرى ...... فإن كان الواصف لم يدرك أصل الموصوف جمع أخباره وحوادثه وقصصه وامتحنها بكل ما اخترع « البحث » من وسائل للامتحان ثم كان شأنه معها شأن سابقها .

وليس يترجم من الرجال إلا من كانت له ناحية من نواحى النبوغ كالسياسة التى صبغت تراجم أبى حنيفة أو الأدب أو اللغة أو النحو أو الخلق أو العلم فواجب المترجم أن يدلنا على موضع نبوغ من يترجمه ويعطيه أكبر عنايته ، ويجعل القارئ يكاد يلمسه ، وكذلك فعل أبو حنيفة الدينورى كما ذكرنا فى هذا الفصل وفى الفصل الرابع « الاتجاهات الأدبية عند العرب » والمترجم إن هو قصر فى ذلك فقد قصر فى أهم ركن للترجمة كما يقول الدكتور أحمد أمين(٩٢) .

وإذا نحن نظرنا فى ضوء هذه القواعد التى ذكرناها إلى تراجم أبى حنيفة الدينورى بل إلى كتب التراجم العربية عامة وجدناها معيبة من جملة وجوه وهى فى هذه العيوب

---

(٩٢) فيض الخاطر جـ٢ ص ١٧٩

تختلف شدة وضعفا فأظهر عيب فيها أنها لم تسلك طريق البحث العلمى ، فقد وضعت فيها الأساطير والخرافات بجانب الحقائق من غير تمحيص .

أضف إلى ذلك أن المترجم يكثر من ذكر الأقوال المختلفة ويتركها على عواهنها من غير أن يبذل جهدا فى تحقيقها والخروج منها بنتيجة يرضاها .

هذا وقد عنى المحدثون بوضع تراجم مفردة مستقصية تحلل فيها الأشخاص والحوادث تحليلا دقيقا يعتمد فيه على النمط الحديث فى البحث ويستفاد فيها مما وصل إليه علم النفس من استكشاف وبما وضع علماء الأدب المحدثون من أنماط ونرجو أن يتتابع التأليف على هذا النمط ويتمشى فى الرقى مع الزمن حتى تكون لنا مجموعة قيمة من تراجم المشهورين فى العصور السابقة ...... تقرأ الترجمة فتشعر كأن المؤلف أحيا المترجم وبعثه من جديد وتشعر وقد قرأت الترجمة كأنك لقيت المترجم له وعاشرته وحدثته وقرأت كتبه واستقصيت دخيلة نفسه .

رابعا : فن القصة :

وحينما نصل إلى هذه النقطة نكون قد وصلنا الى نقطة مهمة فى الرسالة لأنها تمثل إحدى القمم فى أدب أبى حنيفة كما نرى وإن كان فريق من الباحثين لايسلم لنا بذلك كما سيأتى لأنهم ينكرون أن يكون للعرب القدامى أدب قصصى ويرون أن فن القصة فى الأدب العربى مدين للغرب فى النشأة .

ومادام هؤلاء الباحثون قد أنكروا على العرب أن يكون فى أدبهم قصة فهم بالتالى ينكرون على أبى حنيفة أن يكون فى أدبه قصة .

لاسيما وأن القصة التى أنتجها أبو حنيفة هى من نوع القصة التاريخية ومما يؤسف له أن هذا النوع من القصة لم يأبه له النقاد كثيرا ، ولم يعنوا بتجليته وتأريخه وتحليل أنواعه وتطورها .

ولهذا رأيت أن أسهب فى الحديث عن فن القصة من حيث نشأتها وتطورها ولاسيما عند العرب ومن حيث مناقشة أولئك المنكرين أن يكون فى الأدب العربى القديم قصة ثم أعرض نماذج من قصص أبى حنيفة تحت مجهر هذه الخصائص فان ثبتت كان لنا أن نقول إن لديه قصة فنية ، وان لم تثبت قصص أبى حنيفة للنقد ولم تظهر فيها الخصائص الفنية للقصة فلا علينا أن نقول : إنه لم تكن لدى أبى حنيفة قصة فنية فلنناقش أولا أولئك المنكرين لوجود أدب القصة عند العرب القدامى .

تتلخص وجهة نظر الباحثين فيما عرضه أستاذنا الدكتور سهيل ادريس حيث يقول : إن الإنتاج القصصى القائم على المفهوم الحديث للقصة أثر من آثار الاتصال بالغرب بدأ مترجما أو مقتبسا أول الأمر ثم موضوعا « ولسنا نستطيع على أى حال اعتباره امتدادا للتراث القصصى العربى كما عرفته المقامة أو سواها من النتاج القريب من القصة بل هو يقينا إنتاج جديد منقطع الأسباب بماض الإنتاج العربى إذ بدأ تقليدا للرواية والقصة الأجنبية كما عرفها الرواد الأوائل سواء بالترجمة أو بالمطالعة المباشرة(٩٣) .

وليس الدكتور سهيل وحده هو الذى يمثل هذا الرأى ، وانما يمثله فريق بهرتهم الثقافة الأجنبية وقل حظهم من ثقافة العرب أو كثر حظهم من ثقافة العرب ولكن فى قلوبهم مرض ومن قبل الدكتور سهيل كان الدكتور زكى مبارك ، الذى سار فى نفس الاتجاه ، بأسلوب ماكر فهو يرى أن العرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون إلى القصة الطويلة ، ولهذا خلا أدبهم من القصة الطويلة ، وإن طباعهم كانت ميّالة الى القصة القصيرة ، ولذا وجدت فى أدبهم ولكنه يرى بعد ذلك أن فن القصة من الفنون الدخيلة على اللغة العربية وسنفند هذا الزعم فيما بعد .

والغريب أن الدكتور لايرى فى خلو اللغة العربية من القصة عيبا ، ويوشك أن ينكر كون المقامة قصة استمع إليه يقول :

وقد ظن ناس أن فن المقامة هو فن القصة وكذلك نراهم يذكرون المقامات كلما أثير موضوع القصة فى اللغة العربية ... والواقع أن العرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون إلى القصص المعقد الذى وجد كثير منه فيما أثر عن اليونان القدماء والذى ذاع عند الانجليز والروس والفرنسيين والألمان .

ولاعيب فى أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل فإن الفن الصحيح يرتكز أولا على الفطرة ولم يكن العرب مفطورين على القصة التى تقرأ فى أيام أو أسابيع ولذلك خلا شعرهم من الآثار القصصية التى وجدت عند معاصريهم فى الشرق والغرب .

وليس معنى هذا أن آثار العرب خلت خلوا تاما من القصة ولكن معناه أن فن القصة من الفنون الدخيلة على اللغة العربية وقد يكون لبساطة الطبائع العربية أثر فى وقوفهم عند القصص القصير(٩٤) .... فلا يزال بيننا أناس ينكرون على العرب كل ميزة حضارية وينظرون بعين الاستهانة والازدراء إلى آياتهم الباهرة فى ميادين الأدب والفن والعلم .... ولقد شملت استهانتهم وزرايتهم فيما شملتا القصة العربية القديمة

---

(٩٣) محاضرات عن القصة فى لبنان للدكتور سهيل ادريس ص٥ — نشر معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧

(٩٤) النثر الفنى فى القرن الرابع لزكى مبارك ج١ ص٢٠٤ الطبعة الثانية السعادة بمصر .

وسندهم فى ذلك أن قصص العرب كانت اما أخبارا أو حكايات أو شعرا روائيا فهى لاتشبه القصة الحديثة التى نعرفها بحال وعلى ذلك لأتستحق أن تسمى قصصا .

« ولا يحتاج المرء إلى إمعان نظر طويل ليدرك أن تطبيق هذا الرأى يؤدى إلى انقطاع الصلة بين الأشياء وأصلها ومن ثم تنقطع الصلة بين الحاضر والماضى وذلك مستحيل لأن - الحاضر يقوم على الماضى .... ان الماضى أساس الحاضر ومتى انهار الأساس انهار ما يقوم عليه وتطوّر الأشياء عبر القرون لأيفقدها صلتها بأصلها كما لايفقدها اسمها(٩٥) .

إن هؤلاء المعترضين المنكرين شكليون بل إنهم مغرقون فى الشكلية فهم يرون متأثرين برأى أرسطو فى الشكل والموضوع ... إن مضمون كل شىء يختلف اذا اختلف شكله فإذا اختلف شكل القنينة مثلا فقد تصبح دورقا وقد تصبح كوبا وذلك يتوقف على كيفية تغيير شكلها ... وليس هناك من ينكر صحة هذا النظر ولكنهم يخطئون فى تطبيقه فهو إذا انطبق فى الحالة التى يتغيز فيها شكل الشىء صناعيا فهو لاينطبق فى حالة تطور الشكل تطورا طبيعيا فالطفل حين يكبر ويبلغ الشيخوخة لايصبح شخصا آخر لأن شكله تغيز ولكنه يظل نفس الشخص ويحمل نفس الاسم وإن اختلف من حيث الشكل والمضمون عن أيام طفولته اختلافا كبيرا .

بيد أن أولئك المنكرين قد يقطعون شوطا أبعد فى إنكارهم فيزعمون أن القصة العربية الحديثة ليست وليدة القصة العربية القديمة ولم تصل إلى ما وصلت إليه عن طريق التطور الطبيعى ولكنها جاءت بادىء الأمر محاكاة للقصة الأوربية الحديثة ... ثم أخذت تكتسب خصائص ومقومات ذاتية .

ومع التسليم الجدلى بصحة تلك الواقعة وهى غير صحيحة على إطلاقها فإننا نجد وجهة نظرهم هذه انعزالية كوجهة نظرهم السابقة فهم إذا كانوا قد عجزوا هناك عن تبين الصلة بين شواهد الحضارة وأصلها فقد عجزوا هنا كذلك عن تبيّن الوحدة الحضارية فى عمومها تلك الوحدة الناشئة من تزاوج الحضارات وتطورها لدى تنقلها من بلد إلى بلد .

فالقصة الأوربية سارت قدما فى طريق التطور الذى انتهى بها إلى ما انتهت اليه متأثرة بالقصة العربية وقد أشار بعض مؤرخى الأدب الأوربيين إلى أن « بوكاشيو » فى ايطاليا ، « وشوسر » فى انجلترا ، « ودون جوان » فى أسبانيا لم يتأثروا فحسب بالقصة العربية فيما كتبوه من قصص ولكنهم اقتبسوا منها ونقلوا عنها . وهؤلاء هم الذين وضعوا البذور

---

(٩٥) القصة العربية القديمة للأستاذ محمد مفيد الشوباشى ص٣ -٦ ط دار القلم .

الأولى للقصة الأوربية الحديثة . ومن ثم تكون قصصنا العربية الحديثة حتى فى حالة تأثرها بالقصة الأوربية متصلة بالقصة العربية القديمة من طريق مباشر وطريق غير مباشر.

إن القصص الموغلة فى القدم المختلفة شكلا ومضمونا عن قصص العصر الحاضر هى نواة القصة الحديثة وقد تطورّت على مرّ الزمن واكتسبت صفات جديدة شكلية وموضوعية فى تنقلها من عصر إلى عصر ومن بلد إلى بلد حتى وصلت إلى ما وصلت إليه فى المرحلة الحاضرة التى هى مجرد مرحلة تطورية ليست بالأولى أو بالأخيرة .

ولايصح لصاحب الرأى فى هذه الحالة أن يحتقر القصة القديمة ويبخل عليها حتى باسمها فيأبى أن يسميها قصة ولكن له أن يقارن بينها وبين القصة الحديثة ويقول ما شاء عن شدة الاختلاف بينهما .

القصص القديمة عامة :

ومن المعلوم عن الشعوب فى عهدها البدائى أنها تعجز جهلا منها عن إدراك كنه الظواهر التى تحيط بها وعن تفسير أسبابها كما تعجز لقلة حيلتها عن درء ما تتعرض له من بطش الحيوانات المفترسة وعصف الطبيعة الغادرة .

ومن الطبيعى أن تحاول تلك الشعوب برغم جهلها تفسير أسباب تلك الكوارث علها تستطيع بذلك أن تدفع عن نفسها شرّها وأذاها ومن الطبيعى كذلك أن يقوم تفسيرها هذا على الوهم والخرافة وأن يتطوّر فيتخذ شكل قصة وعلى ذلك نشأت القصة الأولى خرافية أسطورية .... ولم يلبث الكهنة الذين ظهروا بين تلك الشعوب مدّعين القدرة على درء أذى تلك القوى الخفية ... لم يلبثوا أن استعانوا بتلك القصص الأسطورية البدائية فطوّروها وضمنوها العقائد الوثنية الأولى(٩٦) .

ولعل مصر كانت المهد الأول لتلك الأساطير التى صاغت العقيدة فى قالب قصصى خرافى بيد أن بلاد الفرس والهند والسند والصين لم تعدم الأساطير التى ظهرت عندها فى أزمنة مقاربة للزمن الذى ظهرت فيه مثيلاتها بمصر فإلى جانب أسطورة « ايزيس وأوزيريس » الفرعونية ظهر أصل « الشاهنامة » الفارسية و« المهابهراتا » الهندية وغير ذلك من أساطير الشرق .... ولم تلبث مدن الإغريق أن اغترفت من معين مصر أساطيرها التى بلغ ازدهارها أوجا لم تبلغه الأساطير فى أية بقعة أخرى من الأرض نظرا إلى تنوعها وتناولها بالشرح الرمزى مختلف مشكلات الوجود المحتدمة وقت ذاك . بالغة فى ذلك أقصى ما يمكن أن يبلغه الفكر وتبلغه العاطفة فى هذا العهد السحيق من التاريخ .

---

(٩٦) تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى جـ٣ ص١٨١ - ١٨٢ مطبعة الرسالة ١٩٥٨

بيد أن تلك الأساطير كانت مقيدة بقيد الدين الوثنى فعاقها ذلك عن المضى فى ميدان التطور الذى لم تلبث سنته أن مضت بتحررها شيئا فشيئا من ذلك الرباط فظهرت فى إهاب جديد احتوى الأحداث التاريخية مطعمة بالتهاويل الأسطورية وإذا هذه الأعمال الأدبية التى مزج فيها الخيال بين التاريخ والأسطورة تصبح أهم حلقة من حلقات تطور القصة(٩٧) .

ونلمح ذلك فى القصص التى سجلها أبو حنيفة الدينورى قبل مجىء الإسلام .... بيد أننا إذا عدنا الآن الى الجزيرة العربية ومحصنا قصصها القديمة الأولى التى استطاعت أن تصل إلينا عبر التاريخ .. وجدنا أنها تكاد تخلو من الطابع الأسطورى ... بل إن هذا الطابع الذى بدأ أشد وضوحا فى الأعمال القصصية التى تلتها لاسيما فى قصص ألف ليلة وليلة لم يكن الأغلب الأعم بحال ولابد أن يحفزنا ذلك إلى التساؤل عن السبب فى اختلاف القصص العربية القديمة عن قصص البلاد الأخرى ؟

« لم يعد اليوم شك فى أن البيئة الجغرافية والظروف الاقتصادية تلعب الدور الأخطر فى تنشئة الشعوب وبناء سجاياهم وأخلاقهم وتكوين تصوراتهم ومثلهم الفكرية(٩٨) .

فلننظر إلى هذه الحقيقة العلمية ونمتحن الظروف الطبيعيه والاقتصادية التى لابست حياة الأمه العربية القديمة توخيا لتفهم كنه الاختلاف بينها وبين سائر الأمم التى عاصرتها أو كادت توشك الصحراء أن تعم الجزيرة العربية التى تشبه مدنها ومراعيها وعيون مائها الغارقة فى جوف تلك الصحراء جزائر صغيرة يحيط بها عباب زاخر ويتبادر إلى الذهن أن الحياة التى تكتنفها مثل هذه القفار الموحشة القليلة الموارد قاسية بإيحاشها وفقرها جديرة أن تطبع ساكنيها بالخشونه والقسوة .. بيد أن هذا إن صح من ناحية فإن جلال الصحراء وفتنتها وروعتها جديرة من ناحية أخرى أن تطبعهم بطابع مضاد ومن ذلك نستطيع أن نفسر ما تميز به العرب من صفات متناقضة فهم يتحلون بالرقه والحساسية الشديده والشاعرية المرهفة إلى جانب ما اتصفوا به من فروسية وصبر وجلد وقوة شكيمة وصلابة عزيمة .

وإذا كان العربى فى طوره الحضارى قد سكن المدن فإن أثر الصحراء ظل متمكنا منه والصفات المتولدة من ذلك ظلت متأصلة فيه ... فهو وريث أولئك الذين عاشوا من قبل فى مضارب الخيام يسرّحون الطرف منطلقا فى حرية إلى حيث تصل الأرض إلى السماء ويستافون عبير الصحراء النقى المنعش للروح وينعمون بهدأة الليل الساحر ويرعون

(٩٧) المرجع السابق ص١٨٢ ، ١٨٣

(٩٨) القصة العربية القديمة للأستاذ محمد مفيد الشولاشى ص٩ — دار القلم بالقاهره

النجوم المتألقة فى السماء الصحراوية الصافية الباهرة انه لم يرهب الطبيعة المتبرجة له كما رهبتها الشعوب الأخرى التى عانت منها الويلات فإذا عصفت عواصف الصحراء لم ينزعج لأنها لن تلبث أن تهدأ دون أن تمسه بأذى وإذا التمع البرق ودوّى الرعد لم يشعر إلا بالفرحة لأنهما بشير هطول الأمطار التى يتلهف عليها ... وإذا فاض وادى العقيق لم يهلك له حرثا ونسلا بل خلّف من بعده الاخضرار والازدهار « إن الطبيعة لم تبث فيه المخاوف ولم تستثمر الأوهام التى تصاغ منها الأساطير ولكنها بثت فيه أجمل المشاعر التى ترقص لها النفوس فتصوغ الشعر على وقع هذا الرقص المنغوم وبذلك كان الشعر الغنائى أول ما بزغ فى سماء الأدب العربى[٩٩] .

إن الصعاب التى أحاطت بالعربى فى صحرائه لم تكن من النوع الذى يبث المخاوف ويشحن الذهن بالخرافات ... فإذا خافت الشعوب الأخرى الوحوش الضارية فان الحيوانات الأليفة كالظباء والوعول والأرانب هى التى كانت تسكن الجزيرة ولا تخيف قطانها بل تخاف منهم ... وإذا خشيت الشعوب الأخرى عدوا مجهولا تتوقع انقضاضه عليها من حيث لاتعلم طمعا منه فى خصوبة أرضها فإن الجزيرة قلما تعرضت لمثل هذه الغزوات فالحروب فيها كانت تدور بين قبائل يعرف بعضها بعضا ولايعرف أحدها الخوف من المجهول[١٠٠] .... وإذا كان الحظ فى البلاد الأخرى يلعب دورا كبيرا فى توفير الخيرات لأهلها فيحفزهم ذلك على ابتداع آلهة وثنية تعينهم - وفق تصورهم المضطرب - على النجاة من الشر وإصابة الخير فإن العرب الذين لم يتهددهم الا الموت جوعا وعطشا كانوا يعرفون أين تقع عيون الماء التى تمتد من حولها المراعى بل ويعرفون أن ليس سبيل إليها أوالى الاحتفاظ بها إلا الحرب ... ولا اعتماد فى ذلك الا على شجاعتهم وحد سيوفهم وعلى هذا لم يعتمدوا على أربابهم بقدر ما اعتمدوا على أنفسهم فتأصلت فيهم الشجاعة بدل الخوف والرأى المتزن بدل الوهم .

وإذا كان التيه فى الصحراء قد تهددهم بالفناء وقتا ما فإنهم لم يلبثوا أن عرفوا معالم بلادهم معلما معلما وتميزّ أدلاؤهم بمعرفة ودقة لم يتصف بها أدلاء البلاد الأخرى فأمنوا بهذا الضلال والضياع وسط المهامة المتشابهة .. ان الألفة توشجت على الأغلب بين العربى وصحرائه يدل أن تقوم الصلة بينهما على خوف وفزع وأسفر ذلك عن تميز الآثار الأدبية العربية الأولى بتفكير طبيعى إنسانى وتعبير واقعى مباشر لم يشوهه خيال مريض يقطع صلته بالواقع .

---

(٩٩) المرجع السابق ص١٠

(١٠٠) تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى جـ٣ ص١٨٢

ولعل هذه الميزة كانت أهم خصائص ذلك التراث الأدبى الرائع وهى أهم خصائص الأدب عامة وقد تحلت بها الآداب العالمية فى البلاد المتحضرة بعد أن تخلصت من مخاوف الحياة البدائية وأوهامها ولعل هذه الميزة هى التى جعلت أبا محمد الأندلسى يقول عن أبى حنيفة الدينورى حينما طلب إليه الحكم فى بلاغة الجاحظ وأبى حنيفة :

أبو حنيفة أكثر ندارة ... ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب وقد ذكرنا ذلك فى فصل « فى الصحف الأولى » .

ومهما يكن من شيء فقد بدأ الأدب العربى شعرا عربيا كما زعمنا ثم تطوّر هذا الأثر الأدبى إلى شعر قصصى يصور وقائع الحروب التى كانت لاتهدأ بين القبائل سطوا على عيون الماء أو طلبا للثأر « وكان ذلك الشعر نواة للقصة العربية[١٠١] » .

من هنا نرى أن القصة فن طبيعى قديم صاحب الأمم من عهد البداوة إلى ذروة الحضارة ولايزال إلى اليوم يمثل مكانة ممتازة بين الفنون الأدبية الأخرى لاتصاله بحياة الناس الماضية أو الحاضرة ، ولمرونته ، واتساعه للأغراض المختلفة ولجمال أسلوبه وخفته على النفوس ، وقد كان هذا الفن سمر العرب فى الجاهلية حتى بلغ به القرآن الكريم أسمى درجة بأبلغ أسلوب وأفصح بيان[١٠٢] .

لقد كان للقصة فى الجزيرة العربية سلطان كبير ، كما أنها كانت الوسيلة التى لجأت اليها المعارضة حين حاولت الكيد للنبى عليه السلام ، والتحدى للقرآن الكريم ... يؤيد ذلك ما يروونه عن النضر بن الحارث ، وأنه كان يجلس إلى الناس كما كان يجلس محمد عليه السلام ، وكيف كانت قريش تستلمح حديثه حتى لتنصرف عن النبى إليه حين يقص على الجماعات أخبار فارس ، وقصص رستم وأسفنديار[١٠٣] .

بل ان أحد الكاتبين ليذهب إلى أبعد من ذلك حين يرى أن الأمة العربية قصصية بالطبع وأنه يكاد يزعم بأنه لاينافسها فى ذلك غيرها حيث يقول :

أكاد أزعم أن الأمة العربية لاينافسها غيرها فيما صاغت من قوالب للتعبير عن القصص والأشعار به ، فنحن الذين قلنا من غابر الدهر : قال الراوى « ويحكى أن » « وزعموا أن » « وكان ما كان » ...... إلى آخر تلك الفواتح التى يمهد بها القصاص العربى فى مختلف العصور لما يسرد من أقاصيص « فالأمة العربية أمة قصصية بالطبع هواها للقصة منجذب وروحها إلى الرواية تهفو[١٠٤] » .

(١٠١) القصة العربية القديمة للأستاذ محمد مفيد الشوباشى ص١٢ - دار القلم .

(١٠٢) الأسلوب ص١٠٠ للأستاذ أحمد الشايب .

(١٠٣) القصص النبوى ص٣ للسيد تقى الدين وزميله - دار النهضة العربية ١٩٦٦

(١٠٤) فن القصة ص٦٥ لمحمود تيمور - مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز .

وقد لاحظنا من قبل أن أبا حنيفة الدينورى حينما كان يقص فى كتابه « الأخبار الطوال » كان يفتتح الحادثة بكلمة : قالوا أو قال .

وإذا صح ما قيل من أن (المثل) كلمة مأخوذة من العبرية معناها الأسطورة أو الحكاية كان مفاد ذلك أن العرب لم يفهموا من المثل أنه مجرد جملة وعبارة ولكنه قصة تساق للاعتبار بما تمخضت عنه من كلمة حكيمة ، وليس هذا التأويل ببعيد فمن معانى المثل فى اللغة « العبرة » ، « وكلمة » ، « الأمثال » فى القرآن تحمل معنى القصص كما تحمل معنى الجمل والصور التمثيلية التى تساق للإعتبار(١٠٥) .

ويتناقل النقاد كلمة « الأخبار » فيحملون عليها ما فى الكتب العربية من أسمار وأقاصيص والأقدمون لم يكونوا يفهمون من معنى « الاخبارى » إلا أنه القاص ، إذ يتحدث « ابن النديم » عن الجهشيارى فيقول : إنه أحد الأخباريين ويعنى أنه أحد الذين كانوا يشاركون فى التأليف القصصى ويقول « السمعانى » فى « الأنساب » : « يقال لمن يروى الحكايات ، والقصص والنوادر : « الأخبارى(١٠٦) » ... لقد حوت جعبة الاخباريين فى مختلف عصور العربية صورا من الحياة الاجتماعية تمثل نفسية الأمة العربية ، وتجلوا نظراتها إلى غرائز النفوس وقيم الأخلاق ، وأسباب المعاش ، وبهذه القصص التى تسمى « الأخبار » نستطيع القول بأن فن القصة فى الأدب العربى واضح فى كل عصر حى فى كل عهد تحتويه كتب الثقافة العربية ، وتحتفى به وان جحده حقه نقاد الأدب ومؤرخوه .

وهذا التراث القصصى العربى تزدحم به الأجزاء الأول من كتب المؤرخين كالطبرى وابن الأثير والمسعودى ... وأعتقد أنك لم تنس أبا حنيفة الدينورى صاحب كتاب الأخبار الطوال الذى هو موضوع رسالتنا فبناء على ما قدمنا من فهم السابقين لكلمة « الأخبار » نستطيع أن تقرر أن معنى كتاب « الأخبار الطوال » كتاب القصص الطوال وعليه يكون أبو حنيفة الدينورى من ألمع كتاب القصة الطويلة فى الأدب العربى ، ومن نقادنا المعاصرين الكبار من اعتبر الاخباريين قصاصا حين تحدث عن غلو القصاص فى أخبار على(١٠٧) ... بل إننا إذا ذهبنا إلى إن ما يدور حول شواهد النحو والبلاغة والتفسير من حكايات يعتبر لونا من الوان القصة كما يذهب الى ذلك الأستاذ محمود

(١٠٥) فن القصة ص٧٢ لمحمود تيمور .

(١٠٦) فن القصص ص٧٢ لمحمود تيمور .

(١٠٧) الفتنة الكبرى جـ٢ وبنوه للدكتور طه حسين ص١٦٩ — ١٧٥ .

تيمور[١٠٨] ... اذا ذهبنا هذا المذهب وجدنا فى كتاب النبات لأبى حنيفة وكتاب الأنواء كذلك أقول وجدنا فى هذين الكتابين لونا من ألوان القصة .

« ولقد كان الأقدمون يبرون هذا التراث القصصى فحفظوه واستوعبوه وعدوه لونا من الأدب حقيقا بالحفاوة والتقدير[١٠٩] » .

تحدث ابن النديم عنها طويلا فكان مما قال : وابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب أختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لايعلق بغيره ، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون وأختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ما تحلى بنفسه ، وكان فاضلا فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبى الطيب أخى الشافعى .. وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم[١١٠] .... وهذا الكتاب الذى تحدث عنه ابن النديم قد ضاع كما ضاع معظم ما ألف فى القرنين الثالث « قرن أبى حنيفة » والرابع من القصص الخرافية والنكت المجونية[١١١] .

ومن هنا نرى أن القصة كانت تحلق فى الجو الأدبى فى العصر الذى عاش فيه أبو حنيفة الدينورى فلا غرو أن يسهم أبو حنيفة فى هذا الفن الأدبى الرفيع فالأديب ابن بيئته ومما يدل على وعى مبكر فى تقويم الخرافات والأساطير أن « ابن خلكان » يروى أن « الخزرجى أدعى رضاع الجن وزعم » « لهارون الرشيد أنه بايع الجن لولى عهده فقربه الرشيد » .

وكان الخزرجى يضع على الجن والشياطين والسعالى أشعارا حسانا فقال له « الرشيد إن كنت رأيت ماذكرت فقد رأيت عجبا ، وإن كنت ما رأيته فقد وضعت أدبا[١١٢] .

وقد أسهم أبو حنيفة أيضا فى ميدان الأسطورة وقد أوضحنا ذلك فيما سبق .... وهناك نقطة لابد من اثارتها وهى : ما القصة ؟ وما القصة التاريخية بالذات ؟ وهل فى أدب أبى حنيفة قصة فنية ؟

---

(١٠٨) فن القصص ص٧٣ لمحمود تيمور .

(١٠٩) المرجع السابق ص٧٣ .

(١١٠) الفهرست لابن النديم ص٣٠٤ .

(١١١) تاريخ الأدب العربى – للسباعى بيومى جـ٣ ص١٩١ .

(١١٢) فن القصص ص ٧٣ – لمحمود تيمور .

إن هذا يدفعنا إلى النظر فى كتب علماء اللغة والمفسرين والأدباء والنقاد لنرى مقدار فهمهم للقصة .

والمعانى التى وقف عندها العلماء ... علماء اللغة عند حديثهم عن مادة « ق ص ص » كثيرة ، ولعل أقربها إلى ما نحن بصدده من حديث أدبى مارواه اللغويون عن الأزهرى وعن الليث .... يقول الأول : القص فعل القاص إذا قص القصص ، والقصة معروفة ، ويقول الثانى القص اتباع الأثر ويقال خرج فلان قصصا فى أثر فلان وقصا وذلك إذا اقتص أثره وقيل : القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر وسوقه الكلام سوقا[١١٣] .

أما فى كتب التفسير فتخطو المسألة خطوة إلى الأمام ذلك لأنهم ينظرون إلى المسألة باعتبارين : اعتبار لغوى يعتمدون فيه على ذلك الحصيل اللغوى الذى صورنا لك طرفا منه ، واعتبار دينى ينظرون فيه من وجهة نظر خاصة هى قصد القرآن الكريم من قصصه أو أهدافه التى يرمى اليها[١١٤] ..... وسنكتفى هنا بذكر نموذج لما يقوله الرازى أحد أئمة المفسرين يقول رحمه الله عند تفسيره للآية « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين « القصص إتباع الخبر بعضه بعضا ، وأصله فى اللغة المتابعة قال تعالى : « وقالت لأخته قصيه » أى اتبعى وقال تعالى « فارتدا على آثارهما قصصا » أى اتباعا وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا[١١٥] .

وهو قول يدل على أن الرازى يحاول التقريب بين المعنى اللغوى والاصطلاح الأدبى وذلك حين يربط بين الاثنين باستعماله لفظ الحكاية واطلاقه لفظ القصة عليها .

ويقول أيضا عند تفسيره لقوله تعالى : إن هذا لهو القصص الحق « مايلى : والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على مايهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويطلب النجاة[١١٦] .

وهو قول يشرح معنى القصص شرحا دينيا ، والرازى بهذا القول يدخل الميدان الأدبى أو يقترب منه ، وذلك لأن القصة الدينية ليست إلا لونا من ألوان القصص الأدبى أما فى كتب الأدب والنقد فإننا نلتقى بمجموعة من التعاريف نكتفى منها بما يلى :

---

(١١٣) مادة قصص فى كل من لسان العرب والقاموس المحيط .

(١١٤) القصص النبوى ص ٦ للسيد تقى الدين وزميله - دار النهضة العربية ١٩٦٦

(١١٥) التفسير الكبير جـ٢ ص١٨١ .

(١١٦) التفسير الكبير جـ٣ ص٧٠٣ .

القصة مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب وهى تتناول حادثة أوعدة حوادث تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة تتباين أساليب عيشها ، وتصرفها فى الحياة ، على غرار ما تتباين حياة الناس على وجه الأرض ، ويكون نصيب القصة متفاوتا من حيث التأثر والتأثير[١١٧] .

القصة التاريخية هى تسجيل لحياة الإنسان ولعواطفه وانفعالاته فى إطار تاريخى . ومعنى هذا أنها تقوم على عنصرين أولها : الميل إلى التاريخ وتفهم روحه وحقائقه .. وثانيهما : فهم الشخصية الإنسانية وتقدير أهميتها فى الحياة . ويقدر تطور نظرة الإنسان إلى هذين العنصرين كان يتطور مفهوم القصة التاريخية عبر العصور[١١٨] .

جاء التعريف الآتى بالقصة فى قاموس لنزيه[١١٩] : « القصة إمّا رواية واقعية حقيقية وإمّا مصطنعة .... أو حكاية ملفقة تستهدف استثارة الاهتمام : بتصوير العواطف والمثل الأخلاقية أو بغرابة أحداثها .. ولغتها قد تكون قديمة أو لغة قصصية كما قد تكون نثرا أو شعرا .

وجاء عنها فى موسوعة « دى فور بيير »[٢٠٠] : « القصة حكاية مصطنعة مكتوبة نثرا تستهدف استثارة الاهتمام سواء أكان ذلك بتطور حوادثها أو بتصويرها للعادات والأخلاق أو بغرابة أحداثها .... وقد تتناول الحياة الريفية أو حياة البطولة وقد تكون أخلاقية أو نقدية أو فلسفية أو تاريخية وقد تتناول المغامرات الغريبة والحكايات العجيبة فتستثير الخيال » .

وقد اشترك فى وضع هذه الموسوعة أدباء وعلماء فرنسيون مرموقون أحاطوا علما بآراء نقاد عصرهم وكتابه ولم يغفلوا أهمها فيما دونوه من شروح ... وبذلك نستطيع أن نأمن اعتراض من لايؤمنون إلا بما قاله الغربيون إذا نحن سلكنا فى ميدان القصة كل حكاية عربية ينطبق عليها التعريفان المذكوران مهما بدا من اختلافها عن القصة الحديثة .

وقاموس : « لاروس » لم يبخل على الحكايات القديمة باسم « القصة » وقال عنها فى تعريفه بها ما يلى : « القصة » « قديما » حكاية حقيقية أو مصطنعة منظومة أو منثورة مصبوبة فى قالب قصصى وهى اليوم عمل أدبى من نسج الخيال يصور بالنثر أحداثا متخيلة مصطنعة منمقة بقصد استثارة القارئ وجذب اهتمامه .

---

(١١٧) فن القصة ص ٩ للدكتور محمد يوسف نجم – دار بيروت للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٩٥٦ .

(١١٨) فن القصة ص ١٥٧ – للدكتور محمد يوسف نجم .

(١١٩) القصة العرابية القديمة للأستاذ مفيد الشوباشى ص ١٢ .

ولا يحسبن أحد أن تلك الموسوعات قصرت فى تعريف القصة أو اختلف رأيها ورأى كبار النقاد فى ذلك فالنقد السليم اليوم لا يحاول أن يغل أيدى المؤلفين يضع للقصة أصلا ويحدد لها أبعادا مكانية وزمنية ويرسم لها خط السير ولكنه يكتفى كما جاء فى هذه القواميس بأن تكون القصة حكاية يزخر فيها التصور والخيال مصبوبة فى قالب قصصى مكتوبة بأسلوب أدبى مهمة الموضوع وأن تطلق الحرية للكاتب فيما يكتب على شرط واحد هو أن يكون إنسانا شريفا حى الضمير فى عرضه لأحداث القصة وتصويره لأشخاصها فلا يخدع قراءه بتأييد الباطل وتجميل القبيح وتمويه الحق ونصرة الظلم والترغيب فى الانحلال والفساد فبحسبه أن يقف مما يكتب موقفا شريفا وألا يهضم ماللذوق الفنى من أصول ثم ليكتب بعد ذلك فيما يشاء كما يشاء .

ظهر فى الأدب العربى القديم لونان من القصص لون منثور ولون منظوم فأما القصص المنثور فقد بدأت سيرا وحكايات عن سلف العرب من أنبياء وملوك وأمراء وفرسان وكانت هذه الحكايات والسير فى نشأتها الأولى كالجنين لاتستبين له سمات أو خصائص ثم لم يلبث أن ظهر رأسه وذراعاه ورجلاه ثم ملامح وجهه وأصابع يديه وقدميه ثم شعره وأظفاره ثم لون بشرته ولون شعره وعيناه .... وهكذا حتى تتضح سماته وخصائصه كافة .... وعلى هذا النحو نمت القصة العربية حتى صار لها كيان واضح الصفات كالكائن الحى يستكمل نماءه ولكن ذلك الكائن كان وقتذاك بدويا بدائيا .

ثم ظهرنوع من القصص المنظوم بينما كان ذلك القصص المنثور ينمو وينسج كيانه من خطوط أخبار الأقدمين التى توارثها الرواة ..... ومن هذا القصص المنثور قصص أبى حنيفة الدينورى التى قدمها لنا فى كتابه « الأخبار الطوال » وعبر الشعر الروائى الجديد عن الأحداث الراهنة فوصف وقائع الحروب التى كانت تدور وقت ذاك بين القبائل وذكر أسبابها وعواقبها وصورّ ميزات فرسانها الجسدية والمعنوية بعد أن كان هذا الشعر يقتصر قبل حين على التفاخر بالحسب والنسب وبشمائل الفروسية .

ولم يسر هذان اللونان من القصص فى خطين متوازيين مدة طويلة إذ لم يلبثا أن تلاقيا وامتزج كل منهما بالآخر فأصبحت القصة تحكى الواقعة ثم يعبر أشخاصها عما وقع وعن خواطرهم ومشاعرهم شعرا .

وقد سجل أبو حنيفة الدينورى هذه الظاهرة أيضا فى كتابه « الأخبار الطوال » فى القسم الخاص بالحديث عن العروبة والإسلام فهو يذكر الواقعة ثم يعقب عليها بما قاله أحد الشعراء فيها .

فلما جاء الإسلام ونزل القرآن كان لذلك أثره البعيد فى تطور القصة العربية فالفضل فى وجود القصة فى صدر الإسلام يرجع إلى القرآن الكريم ، فقد اشتمل كتاب الله كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الخالية ، والنذر الأولى وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها من أسلم من أهل الكتاب كتميم الدارى ، ووهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون إلى الناس فى المساجد ، يفصلون ما فى كتاب الله من قصص الأنبياء ، ويسرفون فى تهويل هذه الأنباء ابتغاء للعبرة ، والتماسا للموعظة ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس فإزداد إقبال الناس عليه وكثر إفك القصاص فيه ، حتى طردهم أمير المؤمنين على من المساجد ، ما خلا الحسن البصرى .

ولكن دهاة السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول ، وقوة أثره فى توجيه الميول فاتخذوه لسناً للدعاية ، وسبيلا لافتعال الأحاديث ، واختلاق الأقاصيص فالأغراض الحزبية المختلفة ، بدأ بذلك معاوية فولى رجلا على القصص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحربه .... وكان هو إذا انفتل من صلاة الفجر جلس إلى القاص حتى يفرغ من قصصه وكان ولاته وقواده يقدمون القصاص فى بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء ، فعل ذلك الحجاج فى العراق وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفزق(٢٠١) .

وسار الشعر والقصص فى ركاب السياسة جنبا إلى جنب يشبهان على الناس وجوه الرشد ويموهان على العقول صور الباطل ، والقصاص كانوا فى ذلك أشد وطأة على الحق لأنهم ينسبون ما يفترون إلى التاريخ أو إلى الدين .

فلما هدأت ثائرة الأحزاب ، وسكنت طائرة الفتن ، ونضجت العقول عاد القصاص إلى المسجد فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والعالم قد فطن إلى كذبه وبهتانه ، والخليفة قد استغنى عنه برواته وندمانه فانقلب الى العامة يسامرهم فى أحفالهم بما أثر من أيام العرب ونقل من أساطير العجم ، وروى من أخبار الفتوح .

« وانتشر القصاص فى العواصم العربية حتى صاروا ظاهرة من ظواهر اجتماعها ، وحاجة من حاجات عامتها ورعاعها(٢٠٢) .

---

(٢٠١) فى أصول الأدب للأستاذ أحمد حسن الزيات ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢٠٢) فى أصول الأدب للأستاذ أحمد حسن الزيات ص٧٠ .

وكان أبو حنيفة الدينورى حلقة فى سلسلة هذا القصص السياسى ، على قصصه بعض المآخذ التى سنذكرها فيما بعد ، وله كثير من المزايا التى سنذكرها أيضا ولكن حسناته كانت أكثر من سيئاته .

ومعظم الدارسين للأدب العربى أهملوا تسجيل هذه الظاهرة القصص السياسى التاريخى والأسطورى ، وكأنهم لايعتبرونه فنا من فنون القول ، ولونا من الألوان الأدبية الأخاذة حتى أن الدكتور أحمد الحوفى الذى ألف كتابا عن « أدب السياسة » فى العصر الأموى خاصة لم يشر إلى هذا اللون من القصص مع أنه آن ذاك كان مشرقا مزدهرا على نحو مامر بنا .

ومهما يكن من شىء فقد انتهى تطور فن القصة العربية القديمة إلى ظهور أعمال قصصية فخمة. نشط فن القصة عند العرب إذن وتعددت أنواعه وأغراضه « فكان حقيقيا كقصص الرحالة والملوك والأدباء وخياليا مثل « كليله ودمنة » و« فاكهة الخلفاء » ومنه نوع أدبى قصير كالمقامات أو حماسى طويل كقصة عنترة(٢٠٣) .... وأظنه قد آن الأوان لكى نتحدث عن الخصائص الفنية للقصة بصفة عامة ، والقصة عند أبى حنيفة الدينورى بصفة خاصة ثم نحدد المدرسة الفنية التى ينتسب إليها أبو حنيفة الدينورى ثم نردف ذلك بنماذج محللة إلى عناصرها الأولى من قصص أبى حنيفة الدينورى .

يرى بعض الناقدين(٢٠٤) أن القصة حوادث يخترعها الخيال ، وهى بهذا لاتعرض لنا الواقع كما تعرضه كتب التاريخ والسير ، وانما تبسط أمامنا صورة مموهة منه ، ولا يفرض فى الكاتب الذى يتجه اتجاها واقعيا أن يعرض علينا من الحوادث ما سبق وقوعه فعلا أو ما ثبتت صحته بالوثائق والمستندات ، ولا من الشخصيات ماله ذكر فى سجل المواليد والوفيات ولكن عليه أن يقنعنا بامكان حدوث مثل هذه الحوادث ووجود مثل هذه الشخصيات فى الحياة التى نحياها ونعرفها ونحن نرى أن أبا حنيفة الدينورى قد عرض علينا حوادث وقعت فعلا وشخصيات عاشت فعلا ومن هنا نراه أديبا وقصاصا واقعيا كأصدق وأدق ما تكون الواقعية .

وسواء أكانت الوقائع من صنع الخيال أو من صنع التاريخ كما هو الشأن عند أبى حنيفة فإن تلك الوقائع هى الأساس الذى يرتكز عليه فن القاص وتنصب عليه جهوده ، ولعله إن وفق إلى ذلك مستطيع أن ينفخ الروح فى بعض الشخصيات فتخلد هذه الشخصيات فى الأذهان كما صنع أبو حنيفة بشخصياته .

---

(٢٠٣) المختصر لجورجى زيدان ص١٣٨ – مطبعة الهلال .

(٢٠٤) فن القصة ص١٠ – للدكتور محمد يوسف نجم .

الواقعيون يتجهون إلى سرد قصصهم على غرار الحياة الإنسانية الطبيعية ، ولذا يتجنبون العنف فى إثارة العواطف ، والإغراب فى وصف المشاهد وسرد المواقف ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وهم يبررون طريقتهم هذه بأن الحياة الإنسانية العادية تقل فيها مغامرات الناس ، وتمضي أيامها رتيبة متشابهة ، وإذا حدث ذات يوم حادث ما ، له خطره وطرافته فإنه يمضي هادئا فى غمرة هذا الصخب دون أن يلتفت إليه إنسان ، ودون أن يخلف وراءه من الآثار ما يطبع حياة الإنسان عامة ، أو يعيق مجرى التيار المتدفق ويغير وجه التاريخ ، ولذا يعنى الكتاب الواقعيون بإيراد التفاصيل كما هى دون توشية أو تنميق كما يحرصون على التقرب من الواقع ، وعلى كبت العواطف المتأججة ، وحصد النزوات الثائرة ، التى قلما تشذ بها حياة الإنسان العادية على وجه الأرض[٢٠٥] .

ماهو العنصر السائد فى القصة عند أبى حنيفة الدينورى ؟

وكيف نسق أبو حنيفة مادته ورتبها حتى يجعل تطور القصة واضحا ممتعا ؟

وللإجابة على السؤال الأول ينبغى أن نعرف أولا العناصر التى تسود فى قصة ما ثم نعرف أى هذه العناصر يسود فى قصص أبى حنيفة ؟

إن سيادة عنصر ما فى القصة تظهر للقارىء فى شكل من الأشكال التالية وهى : سيادة الحوادث ، وسيادة الشخصية ، وسيادة البيئة أو الجو ، وسيادة الفكرة[٢٠٦] .

ولعل الحادثة هى أوضح هذه العناصر ، وأكثرها شيوعا فى القصص ، ويتركز انتباه القارىء فى مثل هذا النوع من القصص حول الوقائع ، وهو يتابع القراءة فى لذة وشغف لينسى نفسه فى زحمة الحوادث التى تعرض عليه ، ولهذا يتوقع من الكاتب أن يقدم له سلسلة من الحوادث الغامضة والمغامرات والمخاطرات ولكي يحقق الكاتب السيطرة والبروز للحادثة يعمد إلى طريقة سهلة مبسطة فهو يرسم المشاهد ، ويصف المواقع التى تدور فيها الأحداث حتى يسهل إدراكها واستيعابها من أول نظرة ، وهذه الصورة السريعة الموجزة تلخص للقارىء المحيط الذى تتحرك فيه الحوادث ، وتتقلب بين ربوعه الأحداث وبهذا يتقى الكاتب توزيع انتباه القارىء وتشتيت خياله بقراءة الأوصاف المسهبة ، ومشاهدة اللوحات الواسعة الزاخرة ، ويتيح له أن يركز اهتمامه على تكديس الحوادث وتفريقها على الصورة العامة ... وفى هذا النوع من القصص لا يأبه الكاتب لتصوير البيئة ، ورسم الشخصيات ، وتمثيل الفكرة بطريقة واقعية حقيقية ، وكل ما يعنيه من هذا الأمر أن يقدم للقارىء سلسلة من المواقف الحرجة والأحداث المثيرة ، والعواطف المتأججة التى

---

(٢٠٥) فن القصة ص٤٤ للدكتور محمد يوسف نجم .

(٢٠٦) فن القصة ص١٥ للدكتور محمد يوسف نجم .

يأخذ بعضها برقاب بعض ، وتؤدى فى النهاية الى خلق الأثر المطلوب وخير ما يمثل عنصر الحادثة فى قصص أبى حنيفة قصة « ملك هرمزد »(٢٠٧) .

أما البيئة ، التى قد تكون العنصر السائد فى بعض القصص فنعنى بها مجموعة القوى ، والعوامل الثابتة والطارئة التى تحيط بالفرد ، وتؤثر فى تصرفاته فى الحياة وتوجهها وجهة معينة(٢٠٨) .

وفى مثل هذا القصص تنطوى أعمال البطولة الفردية فى لجة الظروف الاجتماعية المحيطة ومصير البطل يتوقف على الخصائص التى انحدرت إليه عن طريق الوراثة ، وعلى التربية التى أتيحت له فى شبابه ، وبهذا يكون مصيره مقدرا محتوما يسير إليه بخطى وئيدة متثاقلة ، ولكنه لاشك بالغه فى يوم من الأيام ، مهما مدّ له فى حبل الأمل ، وهكذا ينضو الإنسان كل قواه الفاعلة ويلقى سلاحه أمام هذه الجبرية التى لامفر له منها ويظهر هذا الاتجاه عند أبى حنيفة فى « وقعة الجمل » و« مسلم فى الكوفة » و« خروج الحسين من الكوفة » وبصفة عامة فإن هذا العنصر يسود فى كثير من القصص التاريخية(٢٠٩) .

وحدات القصة :

لابد للكاتب من أن يجمع مادته فى وحدة منسجمة متماسكة حتى يستطيع القارىء أن يتتبعها بشوق ونهم دون أن يعانى صعوبة مافى تفهمها ورصد أحداثها ، وفى الغالب تكون هذه الوحدة ، واحدة من ثلاث وهى :

١ - وحدة الحادثة .

٢ - وحدة الحياة .

٣ - وحدة العمل القصصى(٢١٠) .

أما النوع الأول ففيه تكون الحادثة هى الوحدة التى تدور عليها أجزاء القصة ، وهذه الحوادث التى ينتظمها السرد القصصى قد تقع لشخص واحد ولكنها تتوالى عليه دون أن ترتبط برباط السببية فلا تكون الحادثة الثانية نتيجة للأولى وسببا للثالثة .

أما وحدة الحياة فنجد حوادثها متداخلة فى نسيج محكم وكل عمل أو حادث أو موقف يتأثر من سابقه ويؤثر فى لاحقه .

وأما النوع الثالث فعلى القاص أن يضع لقصته خطة موحدة أولا ثم عليه أن يوفر لكل جزء من أجزائها ترابطا منطقيا .

---

(٢٠٧) الأخبار الطوال ص٧٤ .

(٢٠٨) فن القصة ص٢٢ - للدكتور محمد يوسف نجم .

(٢٠٩) فن القصة ص٢٤ - للدكتور محمد يوسف نجم .

(٢١٠) فن القصة ص٣٤ للدكتور محمد يوسف نجم .

ومن الواضح أن هذه القصة بنيت على عمل قصصى واحد يتطور حتى يبلغ النهاية المرسومة ، والأحداث التى ينتظمها هذا العمل هى حلقات من سلسلة واحدة ترتبط برباط السببية ، ولانجد فى القصة حادثا دخيلا لايؤدى عملا هاما فى تطورها .

والذى ينعم النظر فى بناء مثل هذه القصص يجد أن العمل القصص فيها يبدأ عادة حين تصطدم ألوان متبيانة من الحياة الإنسانية على وجه الأرض ، وقد يكون هذا الاصطدام بسيطا أو عرضيا حدث بطريق الصدفة والإتفاق ، ومعنى ذلك أن شخصيات القصة كانت تحيا حياتها العادية المعروفة إلى أن وقع هذا الاصطدام أو التحاك الذى كان استهلالا قويا لحوادث كثيرة انتظمت فيما بعد فى سلك القصة ، وعندما يلقى القاص عصا الترحال ويضع النهاية المنطقية لحوادث القصة تعود حياة هذه المجموعة البشرية الى مجراها الطبيعى كأن لم يحدث شيء بالأمس.... وغالبا ما تكون البداية صعبة معقدة اذ أن الحادثة التى تستهل بها القصة لاتكون عادة نتوءا بارزا فى تيار الحياة الصاخب ، ولا تولد طفرة من لاشيء ، ولكنها تكون نتيجة لحوادث كثيرة تعود إلى تاريخ مغرق فى القدم كما تكون مرتبطة بشخصيات عديدة لها ميولها المختلفة ، وأمزجتها المتباينة ، وكثير ما يبدأ الكاتب قصته حيث يجب أن ينتهى ثم يعود بقرائه القهقرى ليقص عليهم تطور الحوادث الذى أدى إلى هذه النهاية التى استهل بها[٢١١] .

ويعمد الكاتب فى رسم شخصيات قصته إلى وسائل مباشرة (الطريقة التحليلية) وأخرى غير مباشرة (الطريقة التمثيلية) فنى الحالة الأولى يرسم شخصياته من الخارج يشرح عواطفها وبواعثها وأفكارها وأحاسيسها ويعقب على بعض تصرفاتها ، ويفسر البعض الآخر وكثيرا ما يعطينا رأيه فيها صريحا دون ما التواء ... أما فى الحالة الثانية فأنه ينحى نفسه جانبا ليتيح للشخصية أن تعبرّ عن نفسها وتكشف عن جوهرها بأحاديثها وتصرفاتها الخاصة ، وقد يعمد إلى توضيح بعض صفاتها عن طريق أحاديث الشخصيات الأخرى عنها وتعليقها على أعمالها[٢١٢] .

ونرى أن الطريقة التمثيلية هى التى اتبعها أبو حنيفة سواء فى فن السيرة كما مرّ بنا أو فى فن القصة كما سيتضح ذلك أثناء دراستنا التفصيلية لقصص أبى حنيفة .

بيئة القصة :

هى حقيقتها الزمانية والمكانية أى كل ما يتصل بوسطها الطبيعى ، وبأخلاق

---

(٢١١) المرجع السابق ص٣٨ .

(٢١٢) فن القصة ص٩٨ - للدكتور محمد يوسف نجم .

الشخصيات وشمائلهم وأساليبهم فى الحياة فالبيئة القصصية هى الجو إذا تحدثنا بلغة الفن ، والمحيط إذا استعرنا مصطلحات العلوم[٢١٣] .

وفى القصص التاريخية كما هو الشأن عند أبى حنيفة يبحث الكاتب عن بيئته فى كتب التاريخ حيث يعثر على أوصاف البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وحيث يلتقط أوصاف الملابس وأخلاق الناس ، وعاداتهم فى تلك الفترة التى وقعت فيها قصصه .

قد يفسر الكاتب الحياة بطريقة عرضه لها فى القصة فهو يختار من زحمة الحوادث التى تحيط به إحاطة السوار بالمعصم موضوعات خاصة ، يعنى بنخلها وتصفيتها وتنسيقها وعرضها ، وهو يقدم لنا شخصياته الخاصة ، ويسلط عليها نوعا معينا من الأضواء الكاشفة وتطويره للحبكة ينم عن رأيه فى القيم الخلقية والإنسانية التى تؤدى إلى التوازن فى اختبارات الناس وتصرفاتهم واتجاهاتهم فى الحياة[٢١٤] .

والنثر هو الوسيلة التى يصطنعها الكاتب فى فن القصة إذ أن الشعر بما يحويه من العواطف المتأججة والخيال الجامح ، والموسيقا الخارجية وغير ذلك مما يرتكز عليه - لا يصلح لأن يعبر تعبيرا صادقا عن تسلسل الحوادث وتطور الشخصيات ونموها فى تلك الحياة التى يجب أن تكون واقعية وأيا ما كان الأمر فإن أبا حنيفة الدينورى جمع فى قصصه بين النثر والشعر فقد كان يذكر الحوادث نثرا ثم يعقب عليها بما قيل فيها من شعر .

الخصائص الفنية :

١ - دقة الوصف ، وروعة التصوير .

٢ - براعة الحوار .

٣ - القدرة على استنباط الحقائق واكتناه السرائر .

٤ - روح الفكاهة والمرح .

٥ - تصوير مرافق الحياة الاجتماعية ومظاهرها وما طبعت عليه النفوس من أخلاق وشمائل

٦ - تلقط العجائب والغرائب ، واستحياء السحر وما يقوم به الجن .. وفيه جانب كبير مما يتناقله الأسطوريون خالفا عن سلف أو يفرط فى تخيله أهل المبالغة والإغراق

٧ - تعقب ألوان الشذوذ فى أحداث الحياة على تخالف العصور وفى أصناف الناس على تباين الأجناس .

---

(٢١٣) فن القصة ص١٠٨ - ١٠٩ - للدكتور محمد يوسف نجم .

(٢١٤) فن القصة ص١٢٧ - للدكتور محمد يوسف نجم .

٨ – الكشف عن عقليات العرب وعقائدهم فى الإيمان بالغيبيات وبما وراء الطبيعة ، وأثر ذلك فى مجرى حياتهم العامة ، وما ينتهون اليه من مصاير .

٩ – كل قصة انما تساق فى أغلب الأمر لكى تعمل على بسط عبرة ، أو تأييد فكرة ، أو اعلاء مثل .

١٠ – ان هذه الأقاصيص تحفل بأنماط مختلفة من التعبير فمن بينها ما تميز بجزالة اللفظ وتلاحم النسج ، وزخرف اللسان ، ومنها ما يجرى فى أسلوب سلس وتعبير عذب ، واستفاضة فى الوصف والتصوير ، وفى مجموع هذا التراث القصصى نلمس تطويع اللغة للأداء فى بلاغة ونصوع .

ولا مرية فى أن كثيرا من هذه الخصائص يعد من مقومات القصص الفنى ، ومن أركانه وأسناده .

والآن نستطيع أن ندرك أن القصة التاريخية من الفنون الأدبية التى أجاد فيها أبو حنيفة الدينورى على اعتبار أن تلك القصة عمل أدبى يحقق صورة من صور تعريف القصة عند الأدباء .

هذه الصورة « هى » القصة هى ذلك العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تصوير القاص لأحداث وقعت من بطل له وجود لكنها نظمت على أساس أدبى أو عاطفى فقدم بعضها وأخر آخر ، وحذف بعضها وذكر آخر أو بولغ فى تصويرها إلى الحد الذى يستأثر بعواطف القارىء أو السامع (٢١٥) .

هذا ولا ننكر أن تصميم تلك القصص كان فى حاجة الى الحبك والتركيز والتشذيب كما كان فى حاجة إلى الإسهاب والاستفاضة ... كان فى حاجة إلى التخلص من الزوائد واستكمال نواحى النقص ... فكم من وقائع إضافية لاتمت إلى موضوع القصة الأصلى بصلة وثيقة كانت جديرة بأن تحذف وكم احتاج الموضوع الأصلى إلى شرح وتحليل وتعريف لتكتمل صورته .

ان أول ما نلاحظه على أسلوب القصة العربية القديمة ومنها قصة أبى حنيفة الدينورى أنه لم يعن بتصوير أشخاصها ووقائعها من الخارج كما عنى بتصويرها من الداخل فنحن نعرف من قراءة قصص أبى حنيفة كثيرا من صفات أشخاصها وأخلاقهم ومعتقداتهم ... ولكننا لم نعرف إلا النزر اليسير من هيئاتهم وصفاتهم الجسدية وملابسهم وحركاتهم وسكناتهم ونحن نعرف كذلك الشىء الكثير عن وقائع تلك القصة وأسبابها ونتائجها

---

(٢١٥) الفن القصصى فى القرآن الكريم – لمحمد أحمد خلف الله – ص١٤٧ مطبعة القاهرة بامبابه – الطبعة الأولى ١٩٥١

ولكننا لانكاد نعرف مشاهد الأمكنة التي وقعت فيها والظروف والملابسات التي أحاطت بها ... وقد أدرك مؤلفو القصة الحديثة أن تصوير ظواهر القصة مهم كتصوير بواطنها فهو علاوة على أهميته الفنية يعين القارىء على أن يكون أشد صلة بها وفهما لها بل ويجعله يعيشها بحواسه كذلك بدلا من أن يعيشها بعقله وحده وأن ذلك يزيده تأثرا بها وتهدجا لأحداثها واندماجا فيها .

وهناك جانب آخر فى القصة يعين القارىء على أن يخرج من إطار حياته ويحيا فى إطارها ذلك هو الحوار الذى يستكمل به موضوع القصة صورته وأشخاصها وشخصياتهم ولاشك أن الحوار فى القصة العربية لم يحقق فى هذا الصدد الشىء الكبير .

أهدى أبو حنيفة الدينورى إلى قراء العربية فى كتابه الاخبار الطوال مجموعة قصص تاريخية منها « الضحّاك » و« هجرة جرهم والمعتمر » و« أبرهة » و«كيكاوس بن كيقباذ » « ذو جيشان » و« ملك العجم واليمن » و« زرادشت ودعوته » و« دارا والروم » و« ملك داريوش » و« نشأة الإسكندر » و« يأجوج ومأجوج » و« ملوك الطوائف » .. الخ .

ولأبى حنيفة الدينورى باعتباره قصاصا كثير من المزايا وعليه كذلك مآخذ وأولى مزاياه أنه عمم التاريخ فنظر إلى الدنيا كلها نظرة عامة مبتدئا بنوح ثم بتاريخ الفرس والروم والعرب والمسلمين فى جميع بلادهم وعهودهم تقريبا إلى عهد المعتصم العباسى وعرض ذلك بأسلوب قصصى جذاب ومما لاشك فيه أنه ليس صعبا أن تقع فى هذه الروايات على أخطاء تاريخية ولكنها أخطاء تغفر لاسيما وإن حسن النية وراءها وينبغى أن يظل أبو حنيفة الدينورى موضع احترام وتقدير فله يد طولى على التاريخ ولاسيما علاقة العرب بالفرس .

ولأبى حنيفة حس تاريخى عميق وهذا مردود إلى أنه مؤرخ فى الدرجة الأولى وفى رواياته التاريخية نماذج بشرية قيمة وقد عرض الفتنة الكبرى : مقتل عثمان وما ترتب عليه عرضا مؤثرا ولابد للقارىء حين يطالع قصصَ تلك الفترة أن تملك نفسه الحيرة والألم على تلك المآسى الدامية التى ذهب ضحيتها صفوة ممتازة من صحابة رسول الله ﷺ وأهل بيته الأبرار والتى صدّعت وحدة المسلمين وشككت فريقا منهم فى القيم والمثل العليا ثم يستتب الأمر لبنى أمية ثم ينقض ذلك الصرح الشامخ الذى شيّده معاوية ومن جاء بعده على يد بنى العباس وعلى يد بنى العباس الأولين استرد آل البيت شيئا من حقوقهم فيسجل ذلك أبو حنيفة حتى إذا وصل إلى المتوكل الذى بدأ إجرامه فى حق آل البيت وتتابعت من بعده الكوارث على الدولة العباسية إلى أن أفل نجمها حتى اذا وصل أبو حنيفة إلى هذه

النقطة نجده يحجم عن الحديث عنها وينهى تاريخه بخلافة المعتصم فهل نستنتج من ذلك أن تشيّع أبي حنيفة كان من وراء تاريخه وقصصه ؟ فالتشيع يبرز الحقائق التى تخدم آل البيت وتجعل الناس يتعاطفون نحوهم ثم التشيع يهمل الحقائق الدامية التى لحقت آل البيت على يد من على يد خليفة من بنى العباس بينما لم يهمل أبو حنيفة تلك المآسى التى حاقت بآل البيت على يد بنى أمية .

هل نفهم أن تشيع أبي حنيفة الدينورى كان من الدوافع النفسية فى قصصه أم نفهم احجام أبي حنيفة عن الخوض فى الأحداث المروعة بعد المعتصم على أنه نوع من إيثار العافية ونوع من التعقل أمام الأحداث الجارفة التى لا تبقى ولا تذر والتى تحطم كل شئ فى طريقها حتى ولو كان الخليفة رمز الهيبة والسلطان وأكبر رأس فى الدولة .

نحن نطرح هذا التفسير على أنه شئ ممكن سواء فى أمر الدافع إلى العمل الفنى أو — أمر المانع عن هذا العمل فالتشيع يحرك أدب أبي حنيفة .... وعقل أبي حنيفة يحجزه عن التردى فى مهاوى الهلاك .

والذى لا شك فيه أن القارئ حين يطالع ذلك يجد مجالا للتأمل والمقارنة بين السمو والضعة وبين العزة والذلة وبين الترفع والدناءة بين قيم إنسانية تعتبر قمما فى تاريخ الوجود البشرى كله وبين بحر من الباطل يضطر بعض الخلفاء المسلمين بكل أسف إلى خوضه ليصل إلى الحق . .

والقارئ حين يتأمل كل هذا ويقارن بينه يحدوه ذلك آخر الأمر إلى التيقظ والمشاركة فى الانبعاث الجديد أو على أقل تقدير التفكير فى تعديل الأوضاع المائلة والسخط عليها وهكذا يكون أبو حنيفة قد أسهم فى الدعوة إلى التشيع وهناك حقيقة يجب أن نلاحظها ونحن نقرأ قصص أبي حنيفة تلك هى فكرة « استمرار التاريخ » فقد أشبعت هذه الفكرة فى تلك القصص والقارئ إذ يطالعها يشعر بأن التاريخ واحد كالإنسانية والحياة وأن الحاضرهو الماضى يتابع سيره وأن أجدادنا يعودون فينا لحما ودما وإحساسا وفكرا وينقلون الينا كل تراثهم وهكذا لا تظهر لنا فى قصص أبي حنيفة مشاهد تقف أمامها غير حافلين وانما نشعر بأننا معنيون بالأحداث .... وبالرغم من أن أبا حنيفة قصصى فهو لا يشوه التاريخ وانما يجتهد فى أن يعطى عنه صورة أقرب ماتكون إلى الواقع والممكن وإن بدا فى بعض قصصه جانب أسطورى .... وهو يقيم جميع قصصه تقريبا ضمن إطار سياسى دينى .

ومن مزايا أبي حنيفة القصصية أنه يغرق قصصه باللون الحقيقى للعهد الذى تنتمى إليه الحوادث .... ونرى أبا حنيفة يتفادى من الوقوع فى غلطة يرتكبها كثير من القصاصين هى

جعل الوجوه التاريخية الشهيرة الأبطال الرئيسيين فى القصة وبهذا تمكن أبو حنيفة من أن يستعمل التاريخ من غير أن يحمله أكثر مما يحتمل .

بيد أن فى هذه المزية نفسها : استغلال التاريخ نقيصة واضحة لم يتمكن أبو حنيفة من تجنبها وهى أن الرواية التاريخية عنده كثيرا ماتكون على حساب الرواية الفنية .. نقصد أن عنصر الحادثة يطغى غالبا طغيانا يحرم القصة من قيمتها الفنية وذلك راجع إلى شدة اهتمام أبى حنيفة بالتاريخ وانشغاله بتعليمه وحرصه على نشره وهو يخفق أحيانا فى المزج بين العاطفة والحدث التاريخى فنراه يسرد الأحداث التاريخية فى أمكنة مستقلة عن الموضوع الرئيسى ..... كما أن الاستطراد إلى بعض المشاهد الثانوية يخل بالحبكة الفنية وهذه المشاهد من الممكن إسقاطها بدون أن يؤثر ذلك فى القصة .

ومن مظاهر الضعف التأليفى لدى أبى حنيفة أن تحليل نفسيات الأبطال يكاد يكون معدوما فهو يبدأ باعطاء صفات الشخصية التى تقوم بالأدوار الرئيسية وهى صفات عامة لايراعى فيها الشعور البشرى المتغلب وانما يحتفظون بعاداتهم وأخلاقهم إلى النهاية ثم أنه يحرص على وصف جميع أبطاله وكشف الستار عن شخصياتهم وصفاتهم بحيث يصاب حس المفاجأة لدى القارئ يصاب بضربة فيتنبأ بكل شئ ويزهد فى القراءة ثم إن تعليقات المؤلف وعظاته ودروسه تبدو نابية فى سياق السرد من غير أن تشرح شيئا ومما لا شك فيه أن أبا حنيفة قد تأثر بالقصص الهندى والفارسى واليونانى فهو قد كان يتقن هذه اللغات علاوة على إتقانه للعربية .

ولعلنا نظلم أبا حنيفة الدينورى حينما حاولنا أن نطبق على نتاجه مقاييس القصة فى مفهومها الحديث ... ومهما يكن من أمر فهو قد لعب دورا هاما فى القصة التاريخية وعلى الرغم من المآخذ على قصصه فهو من الرّواد الأول للقصة التاريخية فى الأدب العربى إن لم نعتبره الرائد الأول وهو يحسن اختيار الموضوعات ويبدو كألمع وجه من وجوه القصاصين التاريخيين .

هذا وقد لاحظت على قصص أبى حنيفة أنها مكتوبة بلغة نثرية طبيعية لا يشوبها سجع أو غيره من المحسنات اللفظية « المصطنعة » .

وأحسب أبا حنيفة الدينورى من الرواد الأوائل فى فن القصة التاريخية فقد ألف القصص المنثورة وإن طعّمها بالشعر .

ويلاحظ أيضا على قصص أبى حنيفة أنها لا تلجأ إلى السرد وحده بل تلجأ إلى الحوار القصير المتبادل ...... وبرغم أن حوارها بدائى لا يستكمل صفات أشخاصه وأفكارهم ولا يجرى فى خط يستفحل به موقف القصة الدرامى ثم ينتهى على نحو فنى

إلى مرفأ النهاية فهو يستحق منا تحية مؤلفه بحسبانه من أولئك الرواد الأوائل الذين تركوا أشخاص القصة يعبرون عن أفكارهم فى حوار متسلسل .

إن قالب القصة هو ناحيتها الشكلية ومن الخطأ أن نهمله لهذا السبب فإن القالب فى العمل الفنى مهم كالمضمون بل هما جزءان مندمجان يتكون منهما العمل الفنى ، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر وان كانت لكل منهما قيمة مستقلة ولذلك لاغضاضة إذا حاولنا أن نزن قيمة كل منهما على حدة ... ان قالب القصة العربية القديمة بما فيها قصص أبى حنيفة أكثر مآخذ من مضمونها إذا قيس بقالب القصة الحديثة ... وليس فى ذلك ماينال من قدرة مؤلفى القصص العربية أو يغمط فضلهم فإذا وضعنا فى اعتبارنا أن كل شئ لا يقاس قياسا عادلا إلا بعد ربطه بظروف عصره فإننا نستطيع أن نقرر دون مبالغة أن أبا حنيفة الدينورى وسائر المؤلفين العرب برزوا فى فن كتابة القصة ووصلوا فى ذلك الميدان إلى غايات بعيدة بالنظر إلى ظروف عصرهم وأنهم كانوا بحق أساتذة كبارا فى هذا الفن ... ولابد لمن يحاول أن ينكر أستاذيتهم أن يضع فى تقديره أن فن القصة الحديث لم يصل إلى ما وصل اليه إلا بعد ان طوّرته أزمان وأزمان .

وقد لاحظنا على قصص أبى حنيفة أنها عكست لنا مشكلات عصرها الاجتماعية والسياسية وصوّرت لنا تقاليد أهلها ومعتقداتهم وأزماتهم العاطفية ولكن ليس معنى هذا أن تصويرها لنشاط مجتمعها بلغ مابلغه التصوير القصصى فى العصر الحاضر فقد قصر تصوير أبى حنيفة عن بلوغ شأو التصوير الحديث .

وهل هناك شئ أكثر طبيعية من ذلك ؟ إن إنكار هذه الحقيقة إنكار لقانون التطور والتقدم فالمؤلفون العرب القدامى لم يصلوا بالطبع إلى الوعى العلمى الذى يمكنهم من إدراك كفة مشكلاتهم ، والوقوف على مسبباتها الأولى ومجريات تطورها فهم لا يستطيعون بحال أن يتعدوا مستوى عصرهم العلمى وإن توثبوا إلى أعلى ... وعلى ذلك لا ينال قسط من قيمة قصصهم العجيبة أنهم لم يستطيعوا أن يبرزوا مضامينها إبرازا واعيا وأن يلموا بمشكلاتها الماما شاملا ويميطوا اللثام عن أسبابها الأولى وعن فلسفتها الخافية .

ونحن لا نقصد من التنويه بفضل أبى حنيفة الدينورى وأضرابه أن نبعث الزهو الأجوف ونثير النعرة البغيضة ولكننا نقصد الإشارة إلى أهمية ما تركه لنا هذا المؤلف الكبير ومدرسته من تراث جدير أن يحفزنا اليوم إلى اللحاق بالأمم التى سبقتنا فى موكب الحضارة كما سبق جدودنا ... ولا سيما ونحن نسير اليوم قدما فى تلك السبيل ..... هذا ونود أن نستعرض فى ضوء الحقائق الفنية السابقة بعض قصص أبى حنيفة الدينورى .

« ملك هرمزد[٢١٦] »

لما مات أنو شروان ملك ابنه هرمزد بن كسرى فقال يوم ملك :

الحلم عماد الملك ، والعقل عماد الدين ، والرفق ملاك الأمر ، والفطنة ملاك الفكرة أيها الناس إن الله خصنا بالملك ، وعمكم بالعبودية ، وكرم ملكتنا فأعتقكم بها وأعزنا وأعزكم بعزنا ، وقلدنا الحكومة فيكم ، وألزمكم الانقياد لأمرنا وقد أصبحتم فرقتين : إحداهما أهل قوة والأخرى أهل ضعة فلا يستأكلن منكم قوى ضعيفا ولا يغشن ضعيف قويا ، ولا تتوقن نفس احد من أهل الغلبة إلى ضميم أحد من أهل الضّعة فإن فى ذلك وهنا لملكنا ولا يرومن أحد من أهل الضّعة الأخذ بالغلبة فإن ذلك انتشار مانحب نظامه وزوال مانحاول قيامه وفوت مانحاول دركه ، وأعلموا أيها الناس أن من سوسنا العطف على الأقوياء من الغلبة ورفع مراتبهم والرحمة على الضعفاء والذب عنهم وحسم الأقوياء عن ظلمهم والتعدى عليهم ، وأعلموا ايها الناس أن حاجتكم الينا فى نفس حاجتنا اليكم وحاجتنا اليكم هى مسد لحاجتكم الينا ، وأن الثقيل مما أنتم منزلوه بنا من أموركم عندنا خفيف ، والخفيف مما نحن مجشّموكم ثقيل لعجزكم عما نحن مضطلعون به واضطلاعنا لما أنتم عنه عاجزون وانما تحمدون حسن ملكتنا إياكم وفضل سيرتنا فيكم إذا حسمتم أنفسكم عما نهيناكم عنه ولزمتم ما أمرناكم به .

أيها الناس ميلوا بين الأمور المتشابهات ولا تسموا النسك رياء ، ولا الرياء مراقبة ولا الشرارة شجاعة ولا الظلم حزما ، ولا رحمة الله نقمة ، ولا مخوف القوت هوينا ، ولا البر بالقربى ملقا ، ولا العقوق موجدة ، ولا الشك استبراء ولا الإنصاف ضعفا ، ولا الكرم معجزة ولا التبرم عادة ، ولا الأخذ بالفضل ذلا ، ولا الأدب عقلا ، ولا العماية غفلة ، والغدر ضرورة ولا النزاهة تضييعا ، ولا التصنع عفافا ، ولا الورع رهبة ولا الحذر جبنا ولا الشره اجتهادا ولا الجناية غنما ولا القصد تقتيرا ولا البخل اقتصادا ولا السرف توسعا ولا السخاء سرفا ولا الصلف بعد همة ولا النبل صلفا ولا البذخ تجلدا ولا الحرمان استحقاقا ولا رفع الأنذال صنيعة ولا المجون ظرفا ولا التخلف تثبيتا ولا التثبيت بلادة ولا النميمة وسيلة ولا السعاية دركا ولا اللين ضعفا ولا الفحش انتصافا ولا الهذر بلاغة ولا البلاغة تفقيعا ولا الميل فى هوى الأشرار شكرا ولا المداهنة مواتاة ولا الإعانة على الظلم حفاظا ولا الزهو مرؤة ولا اللهو فكاهة ولا الحيف استقصاء ولا الاستطالة عزا ولا حسن الظن تفريطا ولا ايطاء العشوة نصيحة ولا الغش كيسا ولا

---

(٢١٦) الأخبار الطوال ص ٧٤

الرياء تعطفا ولا التوانى تؤده ، ولا الحياء مهابة ولا السفه صرامة ولا الغل استقامة ولا البغى استعاذة ولا الحسد شفاء ولا العجب كمالا ولا الفتك حمية ولا الحقد مكرمة ولا الضيق احتياطا ولا التعسف انكماشا ولا النزق تيقظا ولا الأدب حرفة ولا المعاتبة مفاسدة ولا بعد القدر سموا ولا مجارى التقادير أسباب الذنوب ولا مالا يكون كائنا ولا كائنا مالا يكون .

اجتنبوا المرذولات من هذه الأمور المتشابهات وثابروا على ماتحظون به عندنا فإن وقوفكم عند أمرنا منجاة لكم من سخطنا وتنكبكم معصيتنا سلامة لكم من عقابنا فأما العدل الذى نحن عليه مقتصرون وبه نصلح وتصلحون فأنتم فيه عندنا مستوزرون..... ستعرفون ذلك إذا اقمعنا أهل القوة عن أهل الضعف وتولينا بأنفسنا أمر المضطهدين الملهوفين وأخضعنا أهل الضعة لأهل العلا بانزالنا إياهم منازلهم ورددنا من رام من أهل الضعة مرتبة لا يستوجبها إلا المستحقون منهم الحباء والشرف لنجدة توجد عنده أو بلاء حسن يظهر منه .

وأعلموا أيها الناس أنا فارقون بين سوطنا وسيفنا ومستعملوها بتثبت وحسن روية فمن غمط نعمتنا وخالف أمرنا وحاول ما نهيناه عنه فإنا لا نكاد نصلح رعايانا ونضبط أمورنا إلا بتنكيل من خالف أمرنا وتعدّى سيرتنا وسعى فى فساد سلطاننا ولا يطمعن أحد فى رخصة منا ولا يرجون هوادة عندنا فإنا غير مداهنين فى حق الله الذى قلدنا فوطنوا أنفسكم على إحدى خلتن :

إما استقامة بما تصلحون واما مخافة على ما تتقون فإن الصلاح حجتان معتدان لكم عندنا من تدبير ملكنا وضبطنا سلطاننا فلا تستصغروا وعيدنا وتهددنا ولا تحسبوا أن فعلنا يقصر عن قولنا وإنما أحببنا أن نعلمكم رأينا فى اجتناب الرخص والمحاباه وحرصنا على الاعتذار قبل الإيقاع والأخذ بقصد السيرة والعدل فى الرعية واختيار طاعتكم التى بها تكون ألفتكم واستقامتكم فثقوا بما بدأنا به من وعد وخافوا ما أظهرنا من وعيد ونحن نسأل الله أن يعصمكم من استدراج الشيطان وضلاله وأن يسددكم لما يقرب من طاعته وبلوغ مرضاته والسلام عليكم »

فلما سمع الناس ذلك تباشر به الضعفاء وأهل الضعة وفت ذلك فى أعضاء العلية وساءهم فتنكبوا ما كانوا فيه من الاستطالة على الضعفاء والقهر لأهل الضعة .

وكان هرمزد ملكا متحريا لحسن السيرة مثابرا على استصلاح الرعية رحيما بالضعفاء شديدا على الأقوياء وبلغ من عدله وتحريه الحق أنه كان يسير فى كل عام إلى أرض

الماهين[٢١٧] فيصيف بها وكان يأمر عند مسيره إليها مناديه فينادى فى عسكره أن يتحاموا الأضرار بالدهاقين[٢١٨] ويوكل بتعهد ذلك ومعاقبة من تعدى أمره فيه رجلا من ثقاته وكان ابنه كسرى الذى ملك من بعده ويسمى أبرويز معه فى مسيره فعار ذات يوم مركب من مراكبه فوقع فى زرع على طريقه فرتع فيه وأفسد فأخذ صاحب الزرع ذلك المركب فدفعه الى الموكل بذلك الأمر فلم يمكنه معاقبة كسرى فرقى أمره إلى أبيه فأمر أن يجدع أذنا الفرس ويحذف ذنبه ويغرّم ابنه مقدارا مائة ضعف مما أفسد الفرس من ذلك الزرع فخرج الموكل بذلك من عند الملك لينفذ أمر الملك فوجه كسرى رهطا من المرازبة والأشراف إلى الموكل بذلك ليسألوه التغييب عن ذلك ويدفع ألف ضعف مما أفسد مركبه لما فى جدع أذن الفرس وتبتير ذنبه من الطيرة فلم يجبهم الموكل إلى ذلك وأمر بالمركب فجدعت أذناه وبتر ذنبه وغرّم كسرى ما أصاب صاحب الزرع كنحو ما كان يغرم سائر الناس .... فلم يكن للملك هرمزد بن كسرى همّة ولا نهمة إلا استصلاحاللضعفاء وانصافهم من الأقوياء فاستوى فى ملكه القوى والضعيف .

وكان هرمزد منصورا مظفرا لا يروم تناول شيء إلا ناله لم يهزم له جيش قط وكان أكثر دهره غائبا عن المدائن إما بالسواد مشتيا وإما بالماه متصيفا .

فلما كانت سنة إحدى عشرة من ملكه حدق به الأعداء من كل وجه فاكتنفوه اكتناف الوتر سيت القوس[٢٢٠] : أما من ناحية الشرق فإن شاهنشاه الترك أقبل حتى صار إلى هراة[٢٢١] وطرد عمّال هرمزد .... وأما من قبل المغرب فإن ملك الروم أقبل حتى شارف « نصيبين » ليسترد آمد[٢٢٢] وميافارقين[٢٢٣] ودارا ونصيبين وأما من قبل أرمينية فإن ملك الخزر أقبل حتى أوغل فى أذربيجان فبث الغارات فيها .

فلما انتهى ذلك إلى هرمزد بدأ بقيصر فرد عليه المدن التى كان أبوه اغتصبه إياها وسأله الصلح والموادعة فأجابه قيصر إلى ذلك فانصرف ثم كتب إلى عمّاله بأرمينية وأذربيجان فاجتمعوا وصمدوا وصدوا صاحب الخزر حتى نفوه عن أرضه فلما فرغ من ذلك كله صرف همه إلى صاحب الترك وكان أشد الأعداء عليه فكتب إلى بهرام بن بهرام

---

(٢١٧) الماهان : الدينور ونهاوند ، إحداهما ماه الكوفة ، والأخرى ماه البصرة .

(٢١٨) الدهاقين : جمع دهقان وهو المزارع أو الفلاح .

(٢١٩) عار الفرس ذهب كأنه منفلت .

(٢٢٠) سيتا القوس : طرفاه .

(٢٢١) مدينة فى أفغانستان .

(٢٢٢) آمد وهى دياربكر - مدينة على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة .

(٢٢٣) قاعدة دياربكر بين الجزيرة وأرمينية .

جشنش عامله على ثغر أذربيجان وأرمينية وهو الملقب. ببهرام شوبين يأمره بالقدوم عليه فما لبث أن قدم فأذن له فدخل عليه فرفع مجلسه وأظهر كرامته وخلا به وأخبره بالأمر الذى أراده له من التوجه إلى شاهنشاه الترك.

فسارع بهرام إلى طاعته واتباع أمر هرمزد أن يسلّط بهرام على بيوت الأموال والسلاح وأن يسلم اليه ديوان الجند ليختار من أحب على عينه فأحضر بهرام الديوان وجمع اليه المرازبة والأشراف فانتخب اثنى عشر ألف رجل من الفرسان ليس فيهم إلا من أناف على الأربعين.

وبلغ ذلك الملك فقال له: «لم لم تنتخب إلا هذا المقدار وانما تريد أن تسير بهم إلى ثلاثمائة ألف رجل؟ فقال بهرام: «ألم تعلم أيها الملك أن قابوس حين أسر فحبس فى حصن ماسفرى انما سار إليه زستم فى اثنى عشر ألفا فاستنقذه من أيدى مائتى ألف، وان اسفنديار إنما سار الى أرجاسف ليطلب منه الوتر الذى كان له عنده فى اثنى عشر ألفا وأن «كيخسرو» إنما أرسل «جودرز» ليطلب بدم أبيه سياوش فى اثنى عشر ألفا فظهر على ثلاثمائة ألف فأى جيش لا يفل باثنى عشر ألفا لا يفل بشىء أبدا.

فلما فصل بهرام بالجنود من المدائن ودعه الملك وقال له: اياك والبغى فان البغى مصرعه بصاحبه وعليك بالوفاء فإن فيه نجاة لمحاوله وإياك أن تسير إلا على تعبية الحرب فإذا نزلت فاحرس عسكرك بنفسك وامنع جنودك من الغبث والفساد وإياك أن تعزم حتى تروى ولا تروى حتى تستشير أهل النصح والأمانة .... ثم انصرف الملك ومضى بهرام فأخذ على طريق الأهواز.

وبلغ ملك الترك قدوم الجيش لمحاربته وقد كان الملك هرمزد وجّه إلى ملك الترك رجلا من مرازبته يسمى هرمزد جرابزين وكان من أدهى العجم وأشدهم خلابة وكيدا وأمره أن يعلمه أنه رسول الملك أرسله لمصالحته واعطائه الرضى فأتاه هرمزد جرابزين فاستعمل فيه الخديعة وكفه بها عن الفساد فى أرض خراسان فلما علم هرمزد أن بهرام قد دنا من هراة خرج ليلا فلحق ببهرام.

ولما بلغ ملك الأتراك ورود الجيش قال لصاحب حرسه: انطلق فائتنى بهذا الفارس الخداع فطلبوه فوجدوه قد هرب فى جوف الليل.

وخرج خاقان من مدينة هراة للقاء بهرام وعلى مقدمته أربعون ألفا فلما التقوا أرسل إلى بهرام: أن انضم الىّ حتى أملكك على ايران شهر وأجعلك أخص الناس بى.

فأرسل اليه بهرام كيف تملكنى على ايران شهر وانما ملكها لأهل بيت فينا لا يجوز أن يعدوهم إلى غيرهم ولكن هلم إلى الحرب.

فغضب ملك الترك من ذلك وأمر فضرب بوق الحرب وتزاحف الفريقان وملك الترك على سرير من ذهب فوق رابية يشرف على الفريقين فلما استعدت الحرب قصد بهرام للتل فى مائة فارس من أبطال جنوده ناهض عنه من حول ملك الترك فلما رأى الملك ذلك دعا بمركبه واستبان لبهرام فرماه بنشابة نفذته فخر صريعا وانهزم الأتراك وقد كان شاهنشاه خلف على ملكه ابنه « بلتكين » فلما أتاه مقتل أبيه استجاش[٢٢٤] الترك وأقبل فى دهم داهم من أمم الأتراك وانضم اليه الفل وبلغ بهرام الخبر فأرسل فى أقطار خراسان فاجتمع بشر كثير فسار مستقبلا لبلتكين فالتقوا على شاطىء النهر الأعظم مما يلى الترمز وهاب كل واحد منهما صاحبه وجرت بينهما السفراء فى الصلح.

وأرسل بهرام اليه : إنكم معاشر الخاقانية قتلتم ملكنا فيرزز فأهدرنا دمه وقبلنا الصلح منكم فكذلك فافعلوا بنا ...... فأجابه بلتكين إلى الصلح على حكم هرمزد الملك وأقاما بمكانهما.

فكتب بهرام إلى هرمزد بذلك فكتب اليه هرمزد أن توجه الىَّ بلتكين مكرما فى خاصة طراخنته[٢٢٥] وعظماء جنوده.

فتوجه بلتكين إلى العراق فلما دنا من المدائن خرج هرمزد ملتقيا له وترجل كل واحد منهما لصاحبه وأظهر هرمزد إكرام بلتكين وأنزله معه فى قصره وأخذ كل واحد منهما عهدا وكيدا على صاحبه بالمسالمة ما بقيا ثم أذن له فانصرف إلى مملكته.

ولما وغل فى خراسان استقبله بهرام فى جنوده وسار إلى حد مملكته وانصرف بهرام حتى أتى مدينة بلخ فنزلها ووجه إلى الملك هرمزد ما كان غنمه من عسكر شاهنشاه ووجه إليه بذلك السرير الذهب فبلغ ما وجه وقر ثلاثمائة بعير.

فلما وصلت الغنائم إلى هرمزد وعرضت عليه وحوله وزراؤه وعظماؤه ومرازبته قال يزدان جشنس رئيس وزرائه : « أيها الملك ما كان أعظم المائدة التى منها هذه اللقمة » فوقعت هذه الكلمة فى قلب هرمزد وارتاب بأمانة بهرام وظن أن الأمر كما قال يزدان جشنس : فانظر كم داهية دهياء وحروب وبلاء جرت هذه الكلمة ؟

ودخل هرمزد منها الغضب والغيظ على بهرام ما أنساه حسن بلائه فارسل إلى بهرام بجامعة ومنطق امرأة ومغزل وكتب إليه « أنه قد صح عندى إنك لم تبعث الىّ من تلك الغنائم إلا قليلا من كثير والذنب فى تشريفى إياك وقد بعثت إليك بجامعة فضعها فى

---

(٢٢٤) طلب الجيوش منهم.

(٢٥٥) جمع طرخان وهو الرئيس ويلقب به الأعيان فى خراسان.

عنقك ومنطق امرأة فتنطق بها ومغزل فليكن فى يدك فإن الغدر والكفران من أخلاق النساء »

فلما وصل ذلك إلى بهرام كظم غيظه وعلم أنه انما أتى من الوشاة فوضع الجامعة فى عنقه وصير المنطق فى وسطه وأخذ المغزل فى يده ثم أذن لعظماء أصحابه فدخلوا عليه ثم أقرأهم كتاب الملك اليه فلما سمع أصحابه ذلك يئسوا من خير الملك وعلموا أنه لم يشكر لهم حسن بلائهم فقالوا : نقول كما قال أرلوخوارجنا لأردشير : « ملك ولايزدان » ونحن نقول « لاهرمزد ملك ولايزدان جشنس وزير »

وكانت قصة أولى خوارجهم : أن اردشير باتكان صار اليه بعض الحواريين فاستجاب له ودخل فى دين المسيح ﷺ وكان فى عصره وشايعه على ذلك وزيره يزدان فغضب العجم لذلك وهمسوا بخلع أردشير حتى أظهر لهم الرجوع من ذلك فأقروه على الملك .

فقال أصحاب بهرام لبهرام : « إن أنت تابعتنا على خلع هرمزد والعليه وإلا خلفناك ورأسنا غيرك فلما رأى اجتماعهم على ذلك أجابهم على أسف وهم وكراهية .

وخرج ه جرازين وبزدك الكاتب من معسكر بهرام ليلا حتى قدما المدائن وأخبرا هرمزد الخبر .

ثم إن بهرام سار فى جنوده نحو العراق لمحاربة هرمزد الملك حتى ورد مدينة الرى فأقام واتخذ سكة للدراهم بتمثال كسرى أبرويز بن الملك وصورته واسمه وضرب عليه عشرة آلاف درهم وأمر بالدراهم فحملت سرا حتى ألقيت بالمدائن ففشت فى أيدى الناس .

وبلغ ذلك الملك هرمزد فلم يشك أن ابنه كسرى يحاول الملك وأنه الذى أمر بضرب تلك الدراهم وذلك الذى أراد بهرام بما فعل فهم الملك بقتل ابنه كسرى فهرب كسرى من المدائن ليلا نحو أذربيجان حتى أتاها وأقام بها ودعا الملك بندويه وبسطاما وكانا خالى كسرى فسألهما عن كسرى فقالا : « لا علم لنا به » فأرتاب بهما فأمر بحبسهما .

ثم إن الملك جمع نصحاءه فاستشارهم فقالوا : أيها الملك إنك عجلت فى أمر بهرام وقد رأينا أن تواجه بهرام بيزدان جشنس فليس بهرام بقاتله إذا أتاه فاعتذر اليه وباء بذنبه عنده وتكون قد طيبت نفس بهرام ورددته إلى الطاعة وحقنت بذلك الدماء فقبل الملك ذلك وبعث بيزدان جشنس الوزير فلما تهيأ للمسير أرسل اليه ابن له كان محبوسا فى حبس الملك ببعض الجرائم يسأله أن يستوهبه من الملك ويخرجه معه فإن عنده غناء ومعونة فى الأمور ففعل يزدان جشنس وأخرجه معه .

فلما صار بمدينة همذان ارتاب بابن عمه ذلك وكتب كتابا إلى الملك يعلمه أنه قد رده اليه ليأمر بقتله أو يرده الى محبسه فانه فاجر فتاك وقال له : « إنى قد كتبت إلى الملك كتابا فى بعض الأمور فأغذ السير به حتى تدفعه اليه ولا يطلعن على ذلك أحد »

فارتاب الرجل بذلك فلما تغيب عن يزدان جشنس وفك الكتاب وقرأه فإذا فيه حتفه فرجع الى يزدان جشنس وهو مستخل فضربه حتى قتله وأخذ رأسه فانطلق به إلى بهرام وهو بالرى فألقاه بين يديه وقال : هذا رأس عدوك يزدان جشنس وشى بك الى الملك وأفسد قلبه عليك فقال له بهرام : يا فاسق أقتلت يزدان جشنس فى شرفه وفضله وقد كان خرج نحوى ليعتذر الىّ مما كان منه ويصلح بينى وبين الملك ثم أمر به فضربت عنقه .

وبلغ من بباب الملك من العظماء والأشراف والمرازبة مقتل يزدان جشنس وكان عظيما فيهم فمشى بعضهم الى بعض وعزموا على خلع الملك وتمليك ابنه كسرى وكان الذى زيّن لهم ذلك وحملهم عليه « بندويه وبسطام » خالا كسرى وكان محتبسين فأرسلا إلى العظماء أن أريحوا أنفسكم من ابن التركية يعنيان الملك هرمزد وقد قتل خيارنا وأباد سراتنا وذلك أنه كان مولعا بالعامة من أجل استطالتهم على أهل الضعف فقتل منهم خلقا كثيرا فاتفقوا على يوم يجتمعون فيه لذلك فأقبلوا جميعا حتى أخرجوا بندويه وبسطاما من الحبس وجميع من كان فيه .

« تولية كسرى أبرويز »

ثم أقبلوا إلى الملك هرمزد فنكسوه عن سريره وأخذوا تاجه ومنطقته وسيفه وقباءه فأرسلوا بها الى كسرى وهو بأذربيجان .... فلما انتهى ذلك اليه سار مقبلا حتى ورد المدائن ودخل الإيوان واجتمع اليه العظماء فقام فيهم خطيبا فكان مما قال : « المقادير ترى المرء مالا يخطر بباله والأسباب تأتى على خلاف الهوى والبغى مصرعه لأهله والخائب من أورطته رغبته والحازم من قنع بما قضى له ولم تتق نفسه الى أكثر منه ... أيها الناس : ثابروا على ما يقربكم الينا من طاعتنا ومناصحتنا وإياكم ومخالفة أمرنا والبغى علينا فإنا لكم بمنزلة العرى والأركان » فلما تفرق الناس عنه وقام يمشى حتى دخل على أبيه وهو فى بيت من بيوت القصر فقبل يديه ورجليه وقال « يا أبت ما أحببت هذا الأمر فى حياتك ولا أردته ولو لم أقبله لصرف منا وأزيل عنّا إلى غيرنا »

فقال له أبوه : « صدقت وقد قبلت عذرك فدونك الأمر فقم به وقد عرضت لى اليك حاجة »

قال : يا أبت ، وما عسى أن يعرض لك الىّ ؟

قال : تنظر الذين تولوا نكسى عن السرير وأخذوا التاج عن رأسى واستخفوا به وهم فلان وفلان وسماهم فعجل قتلهم وأطلب لأبيك بثأره منهم .

قال كسرى : « هذا لا يمكن يومنا هذا حتى يقتل الله عدونا بهرام ويستدف[٢٢٦] لنا الأمر فتنظر عند ذلك كيف أبيدهم[٢٢٧] وأنتقم لك منهم .

فرضى أبوه بذلك منه وخرج كسرى من عنده فجلس مجلس الملك ..... وبلغ بهرام ما جرى وهو بالرى وما كان من الأمر فغضب لهرمزد غضبا شديدا وأدركته له حمية ورقة وذهب عنه الحقد فسار فى جنوده جادّا مجد ليقتل كسرى ومن والاه على أمره ويرد هرمزد إلى ملكه .

وبلغ كسرى فصوله من الرى وما يهم به فكتم ذلك عن أبيه وسار ملتقيا لبهرام فى جنوده وقدم رجلا من ثقاته وأمره أن يأتى عسكر بهرام متنكرا فينظر سيرته ويعرف له كنه أمره .

فسار الرجل فاستقبل بهرام بهمذان فأقام فى عسكره حتى عرف جميع أمره ثم انصرف إلى كسرى فأخبره أن بهرام إذا سار كان عن يمينه مردان سينه الرّويد شتى وعن يساره ... يزد جشنس بن الحلبان وأن أحدا من جنوده لايطمع نفسه فى اغتصاب أحد من الرعية مقدار حبه فما فوقها وأنه إذا نزل المنزل دعا بكتاب كلية ودمنه فلا يزال منكبا عليه طول نهاره .... فقال كسرى لخاليه بندويه وبسطام : « ما خفت بهرام قط كخوفى منه الساعة حين أخبرت بإدمانه النظر فى كتاب كليلة ودمنه لأن الكتاب «كتاب كليلة ودمنة » يفتح للمرء رأيا أفضل من رأيه وحزماً أكثر من حزمه لما فيها من الآداب والفطن .

وإن كسرى وبهرام توقفا بالنهروان فعسكر كل منهما بأصحابه فى ناحية وخندق على نفسه ثم إن بهرام عقد جسرا وعبر إلى كسرى فلما تواقف الجمعان بدر بهرام حتى دنا من صفوف كسرى ثم صاح بأعلى صوته : « تبا لكم يامعشر العجم فى خلفكم ملككم أيها الناس توبوا إلى ربكم مما فعلتم وانحازوا إلى بجماعتكم حتى نرد السلطان على ملككم قبل أن ينزل الله نقمته عليكم » .

فلما سمع أصحاب كسرى ذلك قال بعضهم البعض « قد والله صدق بهرام وإن الأمر لعلى ما قال فهلموا بنا نتلاف الأمر ونصلح ما كان منا باجابة بهرام إلى ماراى » .

---

(٢٢٦) يستقيم .

(٢٢٧) أهلكهم .

انحازوا جميعا فانضموا إلى بهرام ولم يبق مع كسرى الاخالاه بندويه وبسطام وهرمزد جرابزين والنخارجان وسابور بن أبركان ويزدك كاتب الجند وباد بن فيروز وشروين كاقجا وكرد ابن بهرام جشنس أخو بهرام شوبين لأبيه وأمه وكان من ثقاة كسرى وأحبائه.

فقال(٢٢٨) هؤلاء لكسرى : أيها الملك ما تفعل؟ ألا ترى إلى جميع الناس فارقوك وانحازوا إلى عدوك «فمضى نحو المدائن حتى إذا انتهى إلى قنطرة» جوذرز» التفت وراءه فإذا هو ببهرام وحده قد ترك الناس خلفه حتى دنا منه ومن أصحابه فوقف له كسرى على طرف القنطرة ووتر قوسه وكان من رماة الناس فوضع فيها نشابة وخاف أن يعمد برميته بهرام فلا يعمل السيف فيه لجودة درعه فأراد أن يعمد وجهه فلم يأمن أن يتترس بدرقته(٢٢٩) أو يميل وجهه عن سهمه فرمى جبهة فرسه فلم يخطىء وسط جبهته واستدار الفرس من شدة الرمية ثم سقط وبقى بهرام راجلا فأمعن كسرى ركضا حتى دخل المدائن وأتى أباه ولم يعلمه أن بهرام انما يحاول رد الملك اليه غير أنه قال له : إن أصحابى جميعا مالوا إليه ثم قال : ما الذى ترى؟ قال أرى لك أن تلحق بقيصر فإنه سينجدك وينصرك حتى يسترجع لك ملكك.

فقبل كسرى يدى أبيه ورجليه وودعه وسار نحو البحر فى أصحابه وكانوا تسعة هو عاشرهم فقال بعضهم لبعض : ان بهرام يوافى المدائن اليوم أو غدا فيكون ملكا كما لم يزل ثم يكتب هرمزد إلى قيصر فيردنا اليه فيقتلنا جميعا وليس كسرى بملك مادام أبوه حيا فقال بندويه وبسطام خالا كسرى «نحن نكفيكم ذلك» فانصرفا على المقبض ثم أقبلا حتى دخلا قصر المملكة وولجا على هرمزد البيت الذى كان فيه وقد شغل الحشم بالبكاء والعويل لهرب كسرى من عدوه فألقيا عمامة فى عنقه فخنقاه حتى مات ثم لحقا بكسرى ولم يخبراه بذلك وساروا بالركض الشديد يومهم مخافة الطلب ومن الغد حتى شارفوا مدينة هيت(٢٣٠) وانتهوا الى دير رهبان فنزلوه فأتوهم بخبز شعير فبلوه بالماء وأكلوه وأتوهم بخل فمزجوه بماء وشربوا منه واتكأ كسرى على خاله بسطام فنام لشدة ما أصابه من التعب فبينما هم كذلك إذ ناداهم الراهب من صومعته : أيها النفر قد أتتكم الخيل وهم بالبعد وقد كان بهرام حين وافى المدائن فصادف هرمزد الملك قتيلا ازداد غيظا على كسرى وحنقا فوجه بهرام بن سياوشان فى ألف فارس على الخيل العتاق فلما نظر كسرى وأصحابه الى الخيل سقط فى أيديهم وأيسوا من أنفسهم فقال بندويه لكسرى «أنا

---

(٢٢٨) فى الأصل فقالوا هؤلاء.

(٢٢٩) الدرقة معرب دريجة والدرق بالفتح الصلب من كل شىء والدرقة كالدرع يتخذها المحارب لينجى تقتنة.

(٢٣٠) لدة على الفرات.

أخلصك بحيلتي غير أني أغرر بنفسي » قال له كسرى : ياخال إنك أن وقيتني بنفسك سلمت أو قتلت فكفاك بذلك ذكرا باقيا وشرفا عاليا فقد خاطر أرسناس بنفسه فى أمر منوشهر وأتى فراسياب ملك الأتراك وهو فى وسط جنوده فرماه بسهم فقتله وأراح زاب الملك منه فأصاب بثأر منوشهر فقتل فبعد صيته فى الناس وعظم ذكره .

وقد خاطر جوذرز بنفسه بسبب سابور ذى الأكتاف حين قام بتدبير ملكه وضبط سلطانه فحسده الناس لذلك فلما أدرك سابور ملكه على جميع أموره وفوض اليه سلطانه قال له بندويه قم فألق عنك قباءك ومنطقتك وحل عنك سيفك وضع تاجك واركب فى سائر أصحابك فتبطنوا هذا الوادى فأغذوا فيه السير ودعونى والقوم .

ففعل كسرى ما أمره وتبطن الوادى وسار فى بقية أصحابه وعمد بندويه الى قباء كسرى فلبسه وتنطق بمنطقته ووضع التاج على رأسه ثم قال للرهبان : عليكم بالجبل فألحقوا به الى أن ينصرف هذا الخيل وإلا لم آمن أن يقتلوكم عن آخركم « فتركوا الصومعة جميعا وخرجوا عن الدير .

وصعد بندويه فصار على سطح الدير وقد أغلق عليه الباب وهو لابس بزّة كسرى فقام على رجليه قائما حتى علم أن القوم قد رأواه جميعا ثم نزل إلى الدير فخلع بزة كسرى ولبس بزة نفسه ثم عاد إلى سطح الدير وقد حدقت به الخيل فقال : « ياقوم من أميركم ؟ فأتى بهرام بن سياوشيان وقال : أنا أميرهم ما تشاء يابندويه ؟

قال : إن الملك يقرئك السلام ويقول إنا إنما نزلنا آنفا وقد كللنا وتعبنا وليس عليك من فوت فدعنا على حالنا فى هذا الدير إلى العشاء لنخرج إليك وننطلق معك إلى بهرام فيحكم فينا بما يرى .

قال بهرام بن سياوشيان « ذلك له وعزازة » ثم نزل بندويه والقوم محدقون بالدير فلما أمسوا عاد بندويه إلى سطح الدير وقال لبهرام بن سياوشيان : إن الملك يقول لك : هذا المساء وليست لنا أجنحة نطير بها وقد حدقتم بالدير فدعنا ليلتنا هذه لنستريح وامنن علينا بذلك فاذا أصبحنا خرجنا اليك ومضينا معك .

قال بهرام « وذلك له وحبا وكرامة » ثم أمر أصحابه أن يكونوا فرقتين فرقة تنام وأخرى تحرس نوائب .

فلما أصبح بندويه فتح الباب وخرج الى القوم وقال : إن كسرى قد فارقني لمنذ أمس هذا الوقت ولو كنتم على نجائب كالرياح ما لحقتموه وإنما كان ما سمعتم منى مكيدة

---

(٢٣١) أى منذ ساعة .

وحيلة فلم يصدقوه ودخلوا الدير ففتشوه بيتا بيتا فسقط في يد بهرام بن سياوشيان ولم يدر ما يعتذر به إلى بهرام شوبين فحمل بندويه وانصرف حتى دخل على بهرام شوبين وأخبره بالحيلة التي إجتالها بندويه فدعا به بهرام وقال : لم ترض بما كان منك من قتل الملك هرمزد حتى خلصتَ الفاسق كسرى فنجا مني ؟ قال بندويه : أما قتلي هرمزد فلست أعتذر منه إذ طغى وبغى وقتل صناديد العجم وألقى بأسهم بينهم وفرّق كلمتهم وأما حيلتي في تخليص ابن أختي كسرى فلا لوم عليّ في ذلك إذ كان ولدي .

قال بهرام : « أما انه ليس يمنعني من تعجيل قتلك إلا ما أرجو من ظفري بالفاسق كسرى فأقتله وأقتلك على أثره « ثم قال لبهرام بن سياوشيان احبسه عندك مقيدا إلى أن أدعوك به « .... ثم إن بهرام جمع اليه وجوه المملكة فقال : قد علمتم ما ارتكب كسرى من الوزر العظيم بقتل أبيه وقد مضى هاربا فهل ترضون أن أقوم بتدبير هذا الملك حتى يدرك شهريار بن هرمزد مدرك الرجال فأسلمه اليه » .

فرضي بذلك فريق وأباه فريق فمن أبي موسيل الأرمني وكان من عظماء المرازبة وقال لبهرام : « أيها الاسبهبد[٢٣٢] » ليس لك أن تقوم بشيء من ذلك وكسرى صاحب الملك ووارثه في الأحياء فقال بهرام : من لم يرض فليرتحل عن المدائن فإني إن صادفت بعد ثالثة أحدا ممن لم يرض ثاويا بالمدائن ضربت عنقه .

فارتحل موسيل الأرمني فيمن كان على رأيه وكانوا زهاء عشرين ألف رجل فساروا إلى أذربيجان فنزلوها ينتظرون قدوم كسرى من الروم ولم يزل بندويه محتبسا عند بهرام بن سياوشان فكان بهرام بن سياوشان يحسن اليه في المطعم والمشرب ليتخذ بذلك زلفة عنده لما ظن أن كسرى سينصرف ويرجع اليه الملك وكان إذا جنّ عليه الليل أخرجه من محبسه فأجلسه معه على شرابه فقال بندويه ذات ليلة لبهرام : يابهرام إن ما أنتم فيه سيضمحل ويذهب لظلم بهرام شوبين واعتدائه « فقال بهرام : والله لأعرف ما تقول وإني لأهم بأمر قال بندويه : وماهو؟ قال : « أقتل غدا بهرام شوبين وأريح الناس منه ليرجع الملك الى نظامه وعنصره » . قال بندويه : أما اذ كان رأيك فأطلقني من قيدى ورد عليّ دابتي وسلاحي ففعل .... ولما أصبح بهرام بن سياوشان تدرع تحت ثيابه درعا واشتمل على السيف فأبصرت ذلك امرأته وكانت بنت أخت بهرام شوبين فاسترابت به وبعثت إلى بهرام تعلمه ذلك .

وابتكر بهرام إلى الميدان فكان لايمر به أحد من أصحابه إلا ضرب جنبه بالصولجان

---

(٢٣٢) كلمة فارسية : قائد وفي الأصل اصبهبذ وهو تحريف فاصبهبذ مدينة في بلاد الدينور .

فلم يسمع حس[٢٣٣] الدرع من أحد منهم حتى مر به بهرام بن سياوشان فضرب جنبه بالصولجان فلما سمع حس الدرع استل سيفه وضربه حتى قتله وتنادى الناس قتل بهرام فى الميدان فظن بندويه أن بهرام شوبين المقتول فركب دابته ومضى نحو الميدان فلما علم أن المقتول صاحبه خرج متنكرا يسير الليل ويكمن النهار حتى أتى أذربيجان فأقام مع موسيل وأصحابه هناك .

ولما سار كسرى من الديار سار يوما وليلة وتلقاهم أعرابى فوقفوا عليه فسأله كسرى : وكان يحسن بالعربية شيئا من هو ؟ فأخبر أنه من طىء وأن اسمه اياس بن قبيصة فقال له : أين الحىّ ؟ فقال : قريب .

قال : فهل من قرى فقد بلغ منا الجوع .

قال : نعم « فعدلوا معه إلى الحى فنزلوا به وسرحوا خيلهم ترتع وأقاموا عنده يومهم فأحسن قراهم وزودهم وخرج بهم حين أمسوا يدلهم الطريق حتى أخرجهم لثلاث بيالس[٢٣٤] من شاطىء الفرات ثم انصرف .

وسار كسرى حتى انتهى إلى اليرموك فخرج إليه خالد بن جبلة الغسانى فقراه ووجه معه خيلا حتى بلغ قيصر فدخل عليه وأبثه شأنه وما توجه اليه فوجده بحيث أمل من نصره ومعونته فقال له بطارقته : أيها الملك قد علمت مالّتى من كان قبلك من آبائك من هؤلاء منذ زمان الإسكندر وكان آخر ما لقينا منهم اغتصاب جدّ هذا إيانا مدن الشام التى لم تزل فى أيدينا إرثا من آبائنا منذ ألف عام فردها عليك أبو هذا حين أجلبت بخيلك ورجلك فدع القوم يشتغل بعضهم ببعض فإن حرب العدو وبعضهم بعضا فتح عظيم .

فقال قيصر لعظيم الأساقفة : ما تقول أنت ياكبيرنا ؟

فقال : لايحل لك خذلانه إذ كان مبغيا عليه والرأى أن تنصره ليكون لك سلما ما بقيت وبقى »

قال : قيصر وهل يجوز للملوك أن يستجار بهم فلا يجيروا ؟

فأخذ على كسرى العهود والمواثيق بالمسالمة ..... وزوجه ابنته مريم ثم عقد لابنه ثيادوس فى ابطال جنوده وفيهم عشرة رجال من الهزارمردين[٢٣٥] وقواهم بالأموال والعتاد وأمرهم بالمسير معه وشيعهم ثلاثة أيام .

---

(٢٣٣) الحركة والصوت .

(٢٣٤) مراحل السفر .

(٢٣٥) جماعة من المحاربين المختارين وكانت عدتهم ألفا .

فسار كسرى بالجيش فأخذ على أرمينية حتى إذا صار بأذربيجان إنضم إليه خالد بندويه وموسيل الأرمنى ومن معه من مرازبته ومرازبة الفرس ... وبلغ خبره بهرام شوبين فسار جادا بالجنود حتى وافاه بأذربيجان فعسكر على فرسخ من معسكر كسرى ثم تزاحفوا ونصب لكسرى وثيادوس سرير من ذهب فوق رابية تشرف بهما على مجتلد القوم ولما تواقفت الخيلان أقبل رجل من الهزارمردين حتى دنا من كسرى فقال : أرنى هذا الذى غلبك على ملكك ، فدخلت كسرى أنفة من تعييره اياه بذلك فكظمها غير أنه أراه بهرام شوبين فقال : « هو صاحب الفرس الأبلق المعتجر[٢٣٦] بالعمامة الحمراء الواقف أمام أصحابه فمضى الرومى نحو بهرام شوبين فناداه : أن هلم إلى المبارزة فخرج اليه بهرام فاختلفا ضربتين فلم يصنع سيف الرومى شيئا فى نهرام لجودة درعه وضربه بهرام على مفرق رأسه وعليه البيضة فقدّ البيضة وأفضى السيف إلى صدر الرومى فقدّه حتى وقع نصفين عن يمين وشمال .

وأبصر ذلك كسرى فاستغرب ضحكا فغضب ثيادوس وقال : ترى رجلا من أصحابى يعد بألف رجل قد قتل فتضحك كأنك مسرور بقتل الرومى فقال كسرى : إن ضحكى لم يكن سرورا منى بقتله غير أنه عيرنى بما قد سمعت فأحببت أن يعلم أن الذى غلبنى على ملكى وهربت منه اليكم هذه ضربته .

وأن القوم اقتتلوا يومين فلما كان فى اليوم الثالث دعا بهرام كسرى إلى المبارزة فهم كسرى أن يفعل فمنعه ثيادوس وأبى كسرى فخرج إلى بهرام فتطاردا ساعة .... ثم إن كسرى ولى منهزما وعارضه بهرام فاقتطعه عن أصحابه ومضى كسرى نحو جبل وبهرام فى أثره يهتف به وبيده السيف وهو يقول : إلى أين يافاسق ؟ فجمع كسرى نفسه فساعدته القوة على تسنم الجبل فلما نظر بهرام إلى كسرى قد علا ذروة الجبل علم أنه قد نصر عليه فانصرف خاسئا وهبط كسرى من جانب آخر حتى أتى أصحابه ثم ابتكر الفريقان على مصافهم فى اليوم الرابع فاقتتلوا فكان الظفر لكسرى ... وانصرف بهرام فى جنوده منهزما إلى معسكره فقال بندويه لكسرى : أيها الملك ان الجنود الذين مع بهرام لو قد أمنوك على أنفسهم انحازوا إليك فائذن لى أن أعطيهم الأمان عنك « فأذن له فلما أمسى بندويه أقبل حتى وقف على رابية مشرفة على معسكر بهرام ثم نادى بأعلى صوته :

« أيها الناس أنا بندويه بن سابور وقد أمرنى الملك كسرى أن أعطيكم الأمان فمن انحاز الينا منكم فى هذه الليلة فهو آمن على نفسه وأهله وماله » ثم انصرف .

---

(٢٣٧) ابتكر وبكر وباكره بمعنى أى أتاه بكرة .

فلما أظلم الليل على أصحاب بهرام تحملوا حتى لحقوا بمعسكر كسرى إلا مقدار أربعة آلاف رجل فإنهم أقاموا مع بهرام .

ولما أصبح بهرام نظر إلى معسكره خاليا قال : الآن حسن الفرار ... فارتحل فى أصحابه الذين أقاموا معه وفيهم مردان سينه ويزد جشنس وكان من فرسان العجم .

فوجه كسرى فى طلبه سابور بن أبركان فى عشرة آلاف فارس فلحقه وعطف عليه بهرام فى أصحابه فاقتتلوا فانهزم سابور ومضى بهرام على وجهه فمر فى طريقه بقرية فنزلها ونزل هو ومردان سينه ويزد جشنس بيت عجوز فأخرجوا طعاما لهم فتعشوا وأطعموا فضلته العجوز ثم اخرجوا شرابا فقال بهرام للعجوز : أما عندك شيء نشرب فيه ؟

قالت : عندى قرعة صغيرة فأتتهم بها فجبوا رأسها وجعلوا يشربون فيها ثم أخرجوا نقلا(٢٣٨) وقالوا للعجوز أما عندك شيء يجعل عليه النقل ... فأتتهم بمنسف(٢٣٩) فألقوا فيه ذلك النقل فأمر بهرام فسقيت العجوز ثم قال لها : ما عندك من الخبر أيتها العجوز : قالت : الخبر عندنا أن كسرى أقبل بجيش من الروم فحارب بهرام فغلبه واسترد منه ملكه .

قال بهرام : فما قولك فى بهرام ؟ قالت : جاهل أحمق يدعى الملك وليس من أهل بيت المملكة .

قال بهرام : فمن أجل ذلك يشرب فى القرع ويتنقل من المنسف ... فجرى مثلا فى العجم يتمثلون به .

وسار بهرام حتى انتهى إلى أرض قومس(٢٤٠) وبها قارن الجبلى النهاوندى وكان والى خراسان على حروبها وخراجها ، وعلى قومس وجرجان وكان شيخا كبيرا قد أناف على المائة وكان على تلك الناحية من قبل كسرى أنو شروان ثم أقره هرمزد بن كسرى فلما أفضى الأمر إلى بهرام عرف له قدره فى العجم وفضله فأقره مكانه فلما انتهى بهرام اليه وجه قارون ابنه فى عشرة آلاف فارس فحالوا بين بهرام وبين النفوذ فأرسل اليه بهرام ماهذا جزائى منك اذ أقررتك على عملك ؟ فأرسل اليه قارن : إن ما علىّ من حق الملك كسرى وحق آبائه أعظم مما علىّ من حقك وكذلك عليك لو عرفت إذ شرفك فكافأته أن خلعت طاعته وسعرت مملكة العجم نارا وحربا فكان قصاراك أن رجعت خائبا حسيرا وصرت أحدوثة لجميع الأمم .

---

(٢٣٨) النقل : ما يتنقل به على الشراب .

(٢٣٩) ما ينفض به الحب .

(٢٤٠) كورة كبيرة واسعة قرب جبل طبرستان .

فأرسل اليه بهرام : أن العنز يساوى درهمين مرتين : إذا كان عناقا صغيرا واذا هرم وسقط أسنانه لم يساو أيضا إلا درهمين وكذلك أنت فى هرمك ونقصان عقلك .

فلما أتت قارن هذه الرسالة غضب وخرج فى ثلاثين ألف فارس ورجل من جنوده وتهيأ الفريقان للحرب فلما التقوا قتل ابن قارن فانهزم أصحابه حتى لحقوا بمدينة قومس ومضى بهرام على خوارزم فعبر النهر ووغل فى بلاد الترك من ذلك الوجه يؤم خاقان ليستجيره فيجيره ويمنع عنه .

وبلغ خاقان قدوم بهرام عليه فأمر طراخنته فاستقبلوه وأقبل حتى دخل على خاقان فحياه بتحية الملوك وقال : « أنى أتيتك أيها الملك مستجيرا بك من كسرى وأهل مملكته لتمنعنى وأصحابى فقال له خاقان : لك ولأصحابك عندى الحماية والجوار والمواساة .

ثم ابتنى لـه مـدينـة وبنى فى وسطها قصرا فأنزله وأصحابه فيها ودون لهم وفرض الأعـطيـات فكان بهرام يدخل على خاقان كل يوم فيجلس منه مجلس إخوته وخاص أقاربه .

وكـان لخاقـان أخ يسمى « بغاوير » وكانت له نجدة وفروسية فرآه بهرام يتذرع فى منطقته غير هائب من الملك ولا موقر لمجلسه فقال ذات يوم لخاقان :

« أيها الملك إنى أرى أخاك بغاوير يتذّرع فى الكلام ولايرعى لمجلسك ما يجب أن يرعى لمجلس الملوك .... وعهدنا بالملوك لايتكلم اخوتهم وأولادهم عندهم الا بما يسألون عنه » فقال خاقان : إن بغاوير قد أعطى نجدة فى الحروب وفروسية فهو يدل بذلك على أنه يتربص بى الدوائر ويضمر لى الحسد والعداوة » فقال له بهرام : أفتحب أيها الملك .. أن أريحك منه ؟ قال : بماذا ؟ قال : بقتله .

قال : نعم ان أمكنك ذلك من وجه لايكون علىّ فيه مسبة .

قال بهرام : سآتى من ذلك مالايلزمك فيه عار ولا عيب .

فلما أصبحوا من غد أقبل بهرام فجلس عند خاقان مجلسه الذى كان يجلس فيه فأقبل بغاوير فجلس وجعل يتذرع فى كلامه .

فقال له بهرام : ياأخى لم لاتوفى الملك حقه وتظهر للناس هيبته واجلاله ؟

فقال له بغاوير : وما أنت وذلك أيها الفارس الطريد الشريد ؟

قال له بهرام : كأنك تصول بفروسية لست فيها بأكثر منى .

قال له بغاوير : فهل لك إلى مبارزتى فأعرفك بنفسى .

قال له بهرام : أما أنا فلا أحب ذلك فإنى متى غلبتك لم أقتلك لمكانك من الملك .

قال بغاوير : لكنى إن غلبتك قتلتك فأخرج بنا إلى الصحراء .

قال بهرام : على النصفة إذا قال الملك ذلك وعلى ألا قود علىّ إن قتلتك ولا لائمة من الملك وطراخنته .

قال : نعم .

فقال خاقان : مالك ولهذا الرجل المستجير بنا العائذ بجوارنا ؟

قال بغاوير : أدعوه إلى النصفة .

قال : وأى نصفه ؟

قال : يقف لى وأقف له على مائتى ذراع فأرميه ويرمينى فأينا قتل صاحبه لم يكن عليه لوم ولا غفل(٢٤١)

قال له خاقان : اربع(٢٤٢) على نفسك لا أم لك .

قال : والله ليفعلن أو لأفتكن به بين يديك .

قال : فدونك إذن .

فخرج بغاوير وبهرام فى نفر من الطراخنة ينظرون ووقف بغاوير من بهرام على مائتى ذراع فقال بهرام للطراخنة : لا تلومونى إن أنا قتلته فقد بغى علىّ كما ترون .

فقالوا : ليس عليك لوم .

فصاح بغاوير ببهرام أتبدأ أم أبدأ أنا ... فناداه بهرام : بل ابدأ أنت فارم فأنت الباغى الظالم .

فوتر بغاوير قوسه ووضع فيه نشابة ثم نزع حتى أغرقها ثم أرسلها فصكت بهرام أسفل من سرّته فى وسط منطقته فنفذت المنطقة والدرع وسائر اللباس حتى انتهت الى صفاق(٢٤٣) بطنه الظاهر وأثرت فيه .

وبادر بهرام فنزعها ووقف هنيهة لا يضرب بيده إلى قوسه من شدة ما أصابه من ألم الرمية وظن بغاوير بأنه قد قتل فركض نحوه فصاح بهرام : أن ارجع إلى مكانك فقف لى كما وقفت لك فانصرف إلى مكانه فوقف وأخرج بهرام قوسه فوترها(٢٤٤) وكان لا يوترها سواه ثم وضع فيها نشّابة ونزع حتى أغرقها ثم أرسلها فوقعت من بغاوير فى مثل الموضع الذى وقعت فيه نشابته من بهرام فى وسط المنطقة والدرع وسائر اللباس ومرقت من الجانب الآخر ولم يذهب شىء من ريشها ولا عقبها وسقط بغاوير ميتا .

---

(٢٤١) دية .   (٢٤٢) كف وأرفق .

(٢٤٣) جلد .

(٢٤٤) أى جعل له وترا .

وبلغ ذلك خاقان فقال : لا يبعد الله غيره قد نهيته عن البغي فأبى ثم تقدم إلى طراخنته وأهل بيته فقال : لا أعلمن أحداً منكم نوى لبهرام سوءا ولا مكروها .

فلما خلا بهرام بخاقان شكر له ما كان منه .

وقال : لقد أرحتني ممن كان يتمنى موتي ليستبد بالملك دون ولدي ثم زاده إكراما ومنزلة وبرا وعظم قدر بهرام بأرض الترك واتخذ ميدانا على باب قصره واتخذ الجوارى والقيان والجوارح وكان من أكرم الناس على خاقان وإن كسرى عند انهزام بهرام وهربه أكرم ثيادوس ومن معه فأحسن جوائزهم وصلاتهم وسرحهم إلى بلادهم وولى خاله بندويه دواوينه وبيوت أمواله ونفذ أمره في جميع المملكة وولى خاله بسطام أرض خراسان وقومس وجرجان وطبرستان ووجه عماله في الآفاق ووضع عن الناس نصف الخراج .

ولما بلغ كسرى عظيم قدر بهرام عند خاقان وجسيم منزلته ببلاد الترك خافه أن يستجيش ويعود إلى محاربته فوجه هرمزد جرابزين إلى خاقان وافدا في تجديد العهد ووجه معه بألطاف وطرف وأمره أن يتلطف بخاقان حتى يفسد قلبه على بهرام .

فسار هرمزد جرابزين حتى دخل على خاقان ومعه كتاب كسرى وأوصل إليه هدايا كسرى وألطافه فقبلها خاقان وأمره بالمقام ليقضي حوائجه فكان هرمزد يدخل على خاقان مع وفود الملوك فيحييه بتحية الملك .

ثم إنه دخل ذات يوم فرآه جالسا فقال : أيها الملك انى أراك قد استصفيت بهرام وأسنيت منزلته ولم تفعل به من ذلك شيئا الا وما كان فعل به ملكنا أكثر منه فكان جزاؤه منه أن خلعه وأراد سفك دمه وخرج على ابنه كسرى حتى نفاه من مملكته وما أحسب قصارى أمرك منه الا الغدر ونكث العهد فاحذره أيها الملك لا يفسد عليك ملكك .

فلما سمع خاقان منه ذلك غضب غضبا شديدا وقال : لولا أنك وافد ورسول لمنعتك من الدخول الىّ لما استبان لى من خرقك وعيبك بحضرتي أخي وصفيّ فلا تعد لمثل هذا .

فقال هرمزد جرابزين : أما إذ كان أيها الملك هذا رأيك فيه فأسألك أن تكتم على لا يبلغه ذلك فيقتلني فقال : هذا لك .

فخرج هرمزد آيسا منه فاندس الى امرأة خاتون - ومن النساء السخافة وكفران النعم فدخل عليها ذات يوم فلم يصادف عندها أحدا يخافه فقال لها : أيتها الملكة إنكم قد اصطفيتم بهرام ورفعتموه فوق قدره وليس بمأمون أن يفسد عليكم ملككم كما أفسده

على هرمزد ملكنا ثم قصّ عليها ما كان منه وقال : أيتها الملكة أقد نسيت عمك شاهان شاه واحتواءه على سريره وخزائنه ؟ فلم يزل يذكرها هذا وأشباهه حتى أوقع فى قلبها بغض بهرام والخوف منه على زوجها وولدها .

قالت : وما الذى يمكننى فى أمره ومنزلته من الملك منزلته .

قال : الرأى أن تدسى اليه من يقتله فتأمنى على زوجك وولدك .

فأمرت غلاما لها قد عرفته بالفتك والاقدام فقالت له : انطلق الساعة حتى تدخل على بهرام وتتلطف لقتله ولا تأتنى إلا بعد الفراغ منه .

فانطلق الغلام حتى استأذن على بهرام وفى حجزته خنجر قد ستره وكان ذلك اليوم يوم ورهام روز .

قالوا : وكان المنجمون قالوا فى مولده : إن منيته فى ورهام [٢٤٥] روز ... فكان لا يخرج ذلك اليوم من منزله ولا يأذن لأحد إلا لثقاته وخاصته فدخل الآذن فأعلمه أن رسول الملكة يطلب الإذن فأذن له فدخل فحيا بهرام وقال : إن الملكة قد وجهتنى إليك برسالة فأخلنى ... فقام من عند بهرام فخرجوا ودنا التركى منه كأنه يريد أن يساره ثم استل الخنجر فبعجه [٢٤٦] به وخرج فركب دابته ومضى .

ودخل أصحاب بهرام عليه فصادفوه يستدمى وبيده ثوب ينشف به الدم فلما رأوه بتلك الحال بهتوا وقالوا : كيف لم تهتف فنأخذه فقال : إنما كان كلبا أمر بشىء فنفذه « وقال لهم : إذا جاء القدر لم يغن الحذر وقد خلفت عليكم أخى مردان سينه فأطيعوا أمره .

وأرسل إلى خاقان يعلمه أمره فأقبل خاقان نحوه والها [٢٤٧] فصادفه قد مات فواراه فى ناووس [٢٤٨] وهم بقتل خاتون فحجز عن ذلك لمكان ولده منها .

وإن أصحاب بهرام تناظروا فيما بينهم فقالوا : ما لنا عند هؤلاء خير وما الرأى الا الخروج عن أرضهم فإنهم غدرة بالعهد كفرة للاحسان والانتقال إلى بلاد الديلم فإنها أقرب إلى بلادنا وأمكن للطلب بثأرنا من ملوكنا الذين شردونا .... فسألوا خاقان الإذن لهم فى الانصراف فأذن لهم وأحسن إليهم وقواهم وبذرقهم [٢٤٩] إلى حدود أرضه .

---

(٢٤٥) روز بالفارسية بمعنى يوم ويوم ورهام واحد من الأيام المعروفة عند الفرس .

(٢٤٦) شق بطنه .

(٢٤٧) غضبان قد ذهب عقله من شدة الحزن .

(٢٤٨) مقابر النصارى .

(٢٤٩) خفرهم والبذرق الخفير .

وكان مع بهرام أخته «كودية» وكانت من أجمل نساء العجم وأبرعهن براعة وأكملهن خلقا وأفرسهن فروسية فخرج أصحاب بهرام وكردية أمامهم على دابة بهرام متسلحة بسلاحه حتى انتهوا الى نهر جيحون مما يلي خوارزم فعبروا هناك وانصرف عنهم الطراخنة وأخذ أصحاب بهرام على شاطئ النهر ثم انحطوا إلى جرجان وسلكوا طبرستان ثم لزموا ساحل البحر حتى انتهوا إلى بلاد الديلم فسألوهم السكنى معهم فأجابوهم إليه وكتبوا بينهم كتابا : ألا يتأذى أحد بأحد ..... فأقاموا آمنين واتخذوا المعايش والقرى والمزارع وأيديهم مع أيدى الديلم فى كل أمر.

فلما قتل بهرام رأى كسرى أن قد صفا له الملك فلم يكن له همة إلا الطلب بثأر أبيه هرمزد وأحب أن يبدأ بخاليه بندويه وبسطام ونسى أيادى بندويه عنده فمكث كسرى يكاشرهما عشر سنين وأنه خرج فى أيام الربيع كعادته يريد الجبل ليصيف فيه فنزل حلوان[٢٥٠] وبندويه معه فأمر أن يضرب له قبة على الميدان لينظر الى المرازبة إذا لعبوا الكرة فجلس على تلك القبة فرأى شيرزاد بن البهبوذان يضرب بالكرة ويجيد فكان كلما ضرب فأجاد قال له كسرى : « زه سوار »[٢٥١] فأحصى الموكل ذلك مائة ألف مرة قالها فكتب له بندويه وبأربعمائة ألف درهم فلما وصل الصك إلى بندويه قذفه من يده وقال : إن بيوت الأموال لا تقوم لهذا التبذير وبلغ كسرى قوله فجعل ذلك ذريعة إلى الوثوب به فأمر صاحب حرسه أن يأتيه فيقطع يديه ورجليه فأقبل صاحب الحرس لينفذ فيه أمر كسرى فاستقبله بندويه يريد الميدان فأمر به فنكس عن دابته وقطع يديه ورجليه وتركه متشحطا فى دمه بمكانه فجعل بندويه يشتم كسرى ويشتم أباه ويذكر غدر آل ساسان ونكثهم ويقال كل ذلك لكسرى فقال لمن حوله من وزرائه : يزعم بندويه أن آل ساسان غدرة نكثة وينسى نفسه فى غدره بالملك أبينا حين دخل عليه مع أخيه بسطام فألقيا العمامة فى عنقه ثم خنقاه بها ظلما وعدوا ليتقربا بذلك الىّ كأنه ليس لى بوالد.

ثم ركب إلى الميدان فمر ببندويه وهو ملقى على قارعة الطريق فأمر الناس أن يرجموه بالحجارة فرجموه حتى مات وقال : هذه حتى تأتى أختها يعنى ما أراد من الحاق بسطام بأخيه بندويه.

ثم أمر كاتب السر أن يكتب إلى بسطام ليخلف على عمله ثقة ويقدم مستخفيا ليناظره فى بعض الأمور ففعل بسطام ذلك وأقبل على البريد فلما انتهى إلى حلقومس استقبله مردان قهرمان أخيه بندويه فلما نظر إليه من بعيد رفع صوته بالبكاء والعويل

---

(٢٥٠) قرية بالعراق.

(٢٥١) زه كلمة للاستحسان بمعنى مرحبا أو بارك الله وسوار معناها الفارس وهو تعبير فارسى.

فقال له بسطام ، ما وراءك فأخبره بمقتل أخيه فلم يجد مذهبا فى الأرض فعدل إلى من بالديلم من أصحاب بهرام .

وبلغ مردان سينه رئيس أصحاب بهرام قدوم بسطام عليه ففرح لذلك وخرج متلقيا له فى جميع أصحابه لشرف بسطام فى العجم وفضله ثم أقبلوا به حتى أنزلوه منزلا بهيا وركب اليه أشراف تلك البلاد وأقام عندهم آمنا ثم إن مردان سينه ويزدجشنس والعظماء قالوا لبسطام : ما بال كسرى أحق بالملك منك وأنت ابن سابور بن خربنداد من صميم ولد بهمن بن اسفندياذ وانكم لأخوة بنى ساسان وشركاؤهم فهلم نبايعك ونزوجك كردية أخت بهرام ومعنا سرير ذهب قد كان حمله بهرام من المدائن فاجلس عليه وادع لنفسك فإن أهل بيتك من ولد دارا بن بهمن سينحلبون اليك واذا قويت شوكتك وكثر جندك سرت الى الغادر كسرى فحاربته وحاولت ملكه فان نلت ما تريد فذاك الذى نحب وتحب وإن قتلت قتلت وأنت تحاول ملكا وان ذلك أبعد لصوتك وأنبه لذكرك .

فلما سمع بسطام ذلك الكلام أصغى إليه وأجابهم إلى ما عرضوا عليه فزوجوه كردية وأجلسوه على سرير الذهب وعقدوا على رأسه التاج وبايعوه عن آخرهم ودعوه ملكا وتابعه أشراف البلاد وانحلب الى جيلان والبنر[٢٥٢] والطيلسان وقوم كثر من أهل بيته من ناحية العراق ممن كان يهواه ويهوى أخاه حتى سار فى مائة ألف رجل فخرج إلى الدستبى[٢٥٣] وأقام بها وبث السرايا فى أرض الجبل حتى بلغوا حلوان والصيمرة[٢٥٤] وماسبذان وهرب عمال كسرى وتحصن الدهاقين فى الحصون ورءوس الجبال .

وبلغ ذلك كسرى فسقط فى يده وعلم أنه لم يأخذ وجه الأمر فى قتله بندويه فأخذ الأمر من قبل الخديعة فكتب إلى بسطام : إنه قد بلغنى مسيرك إلى الغدرة الفسقة أصحاب الفاسق بهرام وتزيينهم لك مالا يليق ثم حملوك على الخروج على المملكة والعبث فيها والفساد من غير أن تعلم ما أنوى لك وما انطوى عليه فى بابك فدع التمادى فى الغى وأقبل إلى آمنا ولا يوحشنك قتل أخيك بندويه .

فأجابه بسطام أن قد أتانى كتبك بما خبرت به من خديعتك وسطرت من مكيدتك فمت بغيظك وذق وبال أمرك واعلم أنك لست بأحق بهذا الأمر منى بل إنا أحق به منك لأنى ابن دارا مقارع الإسكندر غير أنكم يابنى ساسان غلبتمونا على حقنا وظلمتمونا وإنما كان أبوكم ساسان راعى غنم ولو علم أبوه بهمن فيه خيرا ما زوى عنه الملك إلى أخته خمانى .

(٢٥٢) أقوام من سكان نواحى الديلم والخزر .

(٢٥٣) مورة كبيرة فى دنباوند مقسومة بين الرى وهمذان . (٢٥٤) بلد من ديار الجبل وديار خوزستان .

فلما ورد كتابه على كسرى علم ألا طمع فيه فوجه ثلاثة قواد فى ثلاثة عسكر كل عسكر اثنا عشر ألفا رجل فنفذ العسكر الأول وعليه سابور بن أبركان ثم أردفه بالعسكر الثانى وعليه النخارجان ثم أردفها بالثالث وعليه هرمزد جرايزين فلما اتصل ببسطام فصول العساكر نحوه سار حتى أتى همذان فأقام بها ووجه الرجلة إلى رءوس العقاب(٢٥٥) يمنعوا الناس من الصعود والنفوذ .... قال : فأقامت العساكر دون الجبل بمكان يدعى قلوص وكتبوا إلى كسرى يعلمونه ذلك فخرج كسرى بنفسه فى خمسين ألف فارس حتى وافى جنوده وهم معسكرون بقلوص فأقام عندهم ريثما ارتاح ثم صار على رستاق(٢٥٦) يسمى شراه فنفذ منه الى همذان فى طريق لا جبل فيه ولا عقبة أفضى الى بطن همذان فعسكر هناك وخندق على نفسه .

وسار إليه بسطام فى جنوده فاقتتلوا قتالا شديدا ثلاثة أيام لا ينهزم أحد من الفريقين عن صاحبه فلما رأى كسرى ذلك قال لكردى بن بهرام جشنس أخى بهرام شوبين لأبيه وأمه وكان من أنصح المرازبة(٢٥٧) لكسرى وأشدهم له ودا وأسرعهم فى طاعته نهوضا فقال : قد ترى ما نحن فيه الآن من شدة هذه الحروب وانى قد رجوت الراحة مما نحن فيه بباب لطيف قال وما هو أيها الملك ؟

قال : إن أختك كردية امرأة بسطام متشوقة لا محالة إلى الرجوع إلى أهلها ووطنها وأنا أعرف أنها إن آثرت قتل بسطام قدرت لطمأنينته إليها ولما بلغنى من صرامتها وإقدامها وإن هى قتلته فلها علىّ ذمة الله : أن أتزوجها وأجعلها سيدة نسائى وأجعل الملك من بعدى لولد إن كان لى منها وأنا كاتب على ذلك بخطى فأرسل إليها حتى تعرض ذلك عليها وتنظر ما عندها فيه .

قال له كردى : أيها الملك فاكتب لها بخطك ما تطمئن اليه وتعرف صدق قولك فيه لأوجه اليها بالكتاب مع امرأتى فإننى لا أثق بسواها فى كتمان السر .

فكتب لها كسرى بذلك وأكد فأخذ كردى الكتاب ووجهه مع امرأته إلى كردية وقد كان بسطام خرج بها معه لشدة وجده بها .

فلما قرأت كردية كتاب كسرى عرفت وثاقته فأفضت بسرها إلى ظئورتها وثقاتها فزين لها ذلك لتشوقهن إلى أوطانهن ولم ينكر بسطام مجئ المرأة الكردية لما عرف من الف النساء وتزاورهن .

---

(٢٥٥) جمع عقب وهو المرق الصعب من الرجال .

(٢٥٦) معرب رستا وهو السواد والقرى .

(٢٥٧) المرزبة كمهحلة رياسة الفرس الواحد مرزبان بضم الزاى .

وان بسطام انصرف ذات عشاء إلى مضربه الذى فيه كردية تعبا قد مسه الكلال لشدة الحرب فدعا بطعام فنال منه ثم دعا بشرابه فجعلت كردية تسقيه صرفا حتى غلبه السكر فنام فقامت إلى سيفه فوضعت ظبته(١) فى ثندوته(٢٥٩) وتحاملت عليه حتى خرج من ظهره ثم خرجت من ساعتها فتحملت فى حشمها وظئورتها وقد كان أخوها كردى وقف لها على الطريق فى خيل فلما انتهت اليه انطلق بها فأنزلها فى رحله .

ولما أصبح أصحاب بسطام ووجدوه قتيلا ارتحلوا هاربين نحو بلاد الديلم فوجه كسرى سابور بن أبركان فى عشرة آلاف فارس وأمره أن يقيم بقزوين فتكون مسلحة هناك وتمنع من أراد النفوذ من أرض الديلم إلى مملكته ثم تزوج كردية وضمها اليه وانصرف إلى المدائن ونزلت كردية من قلبه بموضع محبة شديدة وشكر لها ماكان منها وزاح عن كسرى مايجد فى نفسه من الغضاضة بانتقامه من قتلة أبيه واطمأن له ملكه وهدأ واستقر .

التحليل والدراسة :

استهل أبو حنيفة قصته بخطبة ألقاها الملك هرمزد بعد توليته العرش ، وضح فيها سياسته فى إدارة شئون البلاد ، وبيّن فيها أن الملك حق مكتسب له ، وعلى الشعب الطاعة وتحدث فيها عن الأقوياء والضعفاء ، وحاجة الحاكم إلى المحكوم ، وحاجة المحكوم إلى الحاكم وبعض الفضائل التى يجب على الأمة التمسك بها ، وأن تفرق بين هذه الفضائل وبين مايقابلها من رذائل فتلتزم الأولى وتجتنب الثانية ...... وهكذا نرى فى هذه الخطبة تصويرا لمرافق الحياة الاجتماعية وماطبعت عليه النفوس من أخلاق وشمائل .

ثم وصف هرمزد بأنه كان ملكا متحريا لحسن السيرة مثابرا على استصلاح الرعية رحيما بالضعفاء شديدا على الأقوياء ، ثم ذكر حادثة تدل على مبلغ عدل هرمزد وتحريه الحق ، ثم تابع وصفه لهرمزد فذكر أنه كان منصورا مظفرا لايروم تناول شيء الا ناله ، لم يهزم له جيش قط ، وكان أكثر دهره غائبا عن المدائن ...... أما بالسواد مشتيا ، وأما بالماه مصيفا .

هذا ولقد كان أبو حنيفة الدينورى دقيقا فى وصفه رائعا فى تصويره فيما قدمنا وفيما نقدم من هذه القصة ...... انظر إليه وهو يتحدث عن الأخطار التى أحاطت بهرمزد بعد مضى إحدى عشرة سنة على ملكه وكيف تغلب على هذه الأخطار فقال :

---

(٢٥٨) الظبة : حدّ السيف .

(٢٥٩) لحم الثدي أو أصله .

فلما كانت سنة احدى عشرة من ملكه حدّق به الأعداء من كل وجه فاكتنفوه اكتناف الوتر سيتى القوس .... الخ .

وكان أشد الأعداء عليه صاحب الترك وأن هرمزد اختار بهرام شوبين عاملة على أذربيجان وأرمينية ، وأمره بالتوجه إلى شاهنشاه الترك فسارع بهرام إلى طاعته واتباع أمره .

فلما فصل بهرام بالجنود من المدائن ودعه الملك ونصحه بعدم البغي ، وأمره بالوفاء وألا يسير إلا على تعبية الحرب ، وأن يحرس عسكره بنفسه ، ويمنع جنوده من العبث والفساد وحذره من أن يعزم حتى يروى ولا يروى حتى يستشير أهل النصح والأمانة .. ثم انصرف الملك ، ومضى بهرام فأخذ على طريق الأهواز وكان الملك قد وجه إلى ملك الترك رجلا من مرازبته يسمى هرمزد جرابزين وكان من أدهى العجم وأشدهم خلابة وكيدا ، وأمره أن يعلمه أنه رسول الملك أرسله لمصالحته واعطائه الرضى فأتاه هرمزد جرابزين فاستعمل فيه الخديعة وكفه بها عن الفساد فى أرض خراسان ، فلم علم هرمزد أن بهرام قد دنا من هراة خرج ليلا فلحق ببهرام .

وخرج خاقان من مدينة هراة للقاء بهرام ...... فلما التقوا أرسل إلى بهرام أن انضم إلى حتى أملكك على ايران شهر ، وأجعلك أخص الناس بى .

فأرسل اليه بهرام كيف تملكنى على ايران شهر وانما ملكها لأهل بيت فينا ؟ .... ولكن هلم إلى الحرب فغضب ملك الترك من ذلك ، وأمر فضرب بوق الحرب وتزاحف الفريقان وانتهت الحرب بهزيمة الأتراك وقتل ملكهم فلما بلغ « بلتكين » ابن ملك الترك استجاش الترك ، وأقبل فى داهم ، وانضم اليه الفل ، وبلغ بهرام الخبر فأرسل فى أقطار خراسان فاجتمع له بشر كثير فسار مستقبلا لبلتكين فالتقوا ، ولكنهم تصالحوا ، ووافق الملك هرمزد على الصلح .

وبعث بهرام بالغنائم إلى الملك هرمزد ، وعرضت عليه وحوله وزراؤه وعظماء مرازبته فقال يزدان جشنس رئيس وزرائه « أيها الملك ماكان أعظم المائدة التى منها هذه اللقمة » فوقعت هذه الكلمة فى قلب هرمزد وارتاب بأمانة بهرام ، وظن الأمر كما قال يزدان جشنس يقول أبو حنيفة : فانظر كم داهية دهياء وحروب وبلاء جرت هذه الكلمة » .

وقول أبى حنيفة هذا يوحى بما سيحدث ويشوق القارئ إلى معرفة أخبار تلك الحروب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه يدل على مدى تقدير أبى حنيفة الكلمة ، وأن على الإنسان أن يزنها ويسددها قبل أن ينطق بها لأنه ربما ترتبت عليها

آثار جسام ألا يدل ذلك على بصر بفن القول ، ورغبة فى استخدامه بدقة ولاسيما فى ميدان السياسة ؟ أعتقد أن ذلك كذلك .

ويقول الأستاذ فتحي رضوان(٢٦٠) : «إن الذى يعذبنا فى الحياة هو الكلام ، ونحن فى الواقع نختلف ونتفق ونتحاب ونتشاجر من أجل كلمات .وقد جاء هذا فى القرآن ففيه أن الرسول أنب اليهود لأنهم قالوا له : « راعنا » ولم يقولوا » « انظرنا » فقد رأى أن استعمال اللفظ الأول يستحق التأنيب ، واستخدام اللفظ الآخر جائز » .

ومهما يكن من شئ فقد دخل هرمزد من تلك الكلمة .... الغضب والغيظ على بهرام ما أنساه حسن بلائه فأرسل إلى بهرام بجامعة ومنطق امرأة ومغزل وكتب اليه انه قد صح عندى انك لم تبعث إلى من تلك الغنائم إلا قليلا ... الخ ومنها : فإن الغدر والكفران من أخلاق النساء» .

فلما وصل ذلك إلى بهرام كظم غيظه وعلم أنه أتى من الوشاة ، ونفذ أمر الملك ولما علم أصحاب بهرام بذلك قرروا الخروج على الملك ورئيس وزرائه وتذاكروا فيما بينهم خروج من سبقوهم على أردشير الملك ..... ثم ذكر أبو حنيفة قصة خوارج الفرس حيث قال : وكانت قصة أولى خوارجهم ..... الخ وفى تعبير أبى حنيفة أولى خوارجهم بكلمة « قصة » مايدل على أن القصة كانت تطلق أحيانا على الخبر والعكس صحيح .

ثم قال أصحاب بهرام لبهرام : « إن أنت تابعتنا على خلع هرمزد والخروج عليه ، وإلاخلعناك ورأسنا غيرك » فلما رأى اجتماعهم على ذلك أجابهم على أسف وهمّ وكراهية ، وفى هذا ما يكشف عن عقليات الفرس وتفكيرهم وأثر ذلك فى مجرى حياتهم العامة .

ثم إن بهرام سار فى جنوده نحو العراق لمحاربة هرمزد الملك حتى ورد مدينة الرى وهناك لجأ إلى خدعة سك الدراهم باسم ابرويز ابن الملك .... حتى همّ الملك بقتل ابنه فهرب الابن من ابيه فدعا الملك بندويه وبسطاما خالى أبرويز فسألهما عنه فقالا : لاعلم لنا به « فارتاب بهما فأمر بحبسهما ..... ثم إن الملك جمع نصحاءه فاستشارهم فقالوا : أيها الملك إنك عجلت فى أمر بهرام ، وقد رأينا أن توجه إلى بهرام بيزدان جشنس فليس بهرام بقاتله اذا أتاه فاعتذر اليه .

فوافق الملك على ذلك الا أن يزدان جشنس قتل فى الطريق على يد ابنه كما جاء ذلك فى القصة. وقد لاحظت أن أبا حنيفة الدينورى أطلق على القاتل مرة أنه ابن يزدان

---

(٢٦٠) عشرة أدباء يتحدثون لفؤاد دوارة ص ٢٣٠ .

جشنس ومرة أنه ابن عمه ، وهذا خطأ فنى فى رسم الشخصيات فكان الواجب أن يذكر لفظا واحدا فقط .

على كل حال كان فى قتل يزدان جشنس تعقيد للأمور فبالرغم من أن بهرام قتل القاتل إلا أن من بباب الملك من العظماء والأشراف حملوا الملك تبعة قتل يزدان جشنس وعزموا على خلع الملك وتمليك ابنه كسرى وكان الذى زيّن لهم ذلك وحملهم عليه « بندويه وبسطام » .

وفعلا اندلعت الثورة وأخرج بندويه وبسطاما من الحبس ، وخلع هرمزد وولى ابنه ابرويز فقام خطيبا يتحدث عن القدر وتصريفه شئون الناس وعن البغى وعواقبه ، وعن الطمع وآثاره ثم نصح الناس بالطاعة » .

فلما تفرق الناس قام يمشى حتى دخل على أبيه فاعتذر اليه مما حدث وقبل أبو عذره إلا أنه طلب منه أن يعجل بقتل من خلعوه لكن ابرويز أفهم أباه أن ذلك لا يمكن إلا بعد التخلص من بهرام فرضى أبو ، بذلك ...... وخرج كسرى من عند أبيه فجلس مجلس الملك .

وبلغ بهرام ماجرى وهو بالرى ، فغضب لهرمزد غضبا شديداً ، وأدركته له حمية ورقة وذهب عنه الحقد فسار فى جنوده ليقتل كسرى ومن والاه ويرد هرمزد إلى ملكه .

وأرسل من يأتيه بأخبار بهرام فأتاه الرسول بأخبار بهرام وجنوده وأنه يديم النظر فى كتاب كليلة ودمنة فخاف كسرى من بهرام لقراءته كتاب كليلة ودمنة لأن هذا الكتاب يفتح للمرء رأيا أفضل من رأيه ، وحزما أكثر من حزمه لما فيه من الآداب والفطن .

واحترب كسرى وبهرام فانهزم كسرى وهرب حتى دخل المدائن وأتى أباه ، ولم يعلمه أن بهرام انما يحاول رد الملك إليه غير أنه قال له : إن أصحابى جميعا مالوا إليه ثم قال ماالذى ترى ؟ قال : أرى لك أن تلحق بقيصر فإنه سينجدك وينصرك حتى يسترجع لك ملكك .

فقبل كسرى يدى أبيه ورجليه وودعه وسار نحو البحر فى أصحابه وكانوا تسعة هو عاشرهم ثم كانت المؤامرة على قتل هرمزد بيد بندويه وبسطام وبدون علم أبرويز الملك .

سار الملك ومن معه حتى وصلوا إلى دير رهبان بمدينة هيت .... ووصل بهرام إلى المدائن فصادف هرمزد الملك قتيلا فازداد غيظا على كسرى فوجه فى طلبه فأدركته الخيل فى الدير وكانت حيلة بندويه التى نجا بها ابن أخته فنجا أبرويز من الخيل بعد أن أفهم خاله أنه بعمله هذا سيحوز الشرف كله ، ووقع بندويه أسيرا فى يد جنود بهرام وفدا

بذلك ابن اخته فسيق إلى بهرام وكان بينهما حوار ذكرناه سابقا ثم إن بهرام شوبين قال لبهرام سياوشان أن يحبس بندويه عنده مقيدا إلى حين .

ثم كانت مبايعة بهرام بالملك وماترتب عليها من انصداع جبهته وانصراف فريق من أنصاره عنه ومنهم موسيل الأرمنى الذى انصرف بجماعة من الجند إلى أذربيجان .

ثم كانت مؤامرة بهرام بن سياوشان وبندويه على قتل بهرام شوبين واطلاق سراح بندويه ولكن المؤامرة فشلت لافشاء خبرها عن طريق بنت أخت بهرام شوبين التى أبلغت خبر المؤامرة إلى خالها فقتل بهرام بن سياوشان وفرّ بندويه حتى لحق بأذربيجان فأقام مع موسيل وأصحابه هناك .

أما كسرى فسار قاصدا قيصر وفى الطريق كان له موقف مع اياس بن قبيصة ، وخالد بن جبلة وأخيرا وصل إلى قيصر ..... فكان لكسرى معه حديث وتناقش قيصر مع عظماء مملكته فى أمر كسرى فمنهم من كان يرى نصرته ومنهم من رفض وأخيرا اتخذ قيصر قرارا بنصرة كسرى وزوجه ابنته مريم ووجه معه جيشا قائده ثيادوس بن قيصر .

سار كسرى بالجيش فأخذ على أرمينية حتى اذا صار بأذربيجان انضم اليه خاله بندويه وموسيل الأرمنى ومن معه .

ثم دارت الحرب بين الفريقين ، وانتهت بهزيمة بهرام واستمالة كسرى لجمع من جنود بهرام وانضمام هؤلاء إلى كسرى ثم محاولة كسرى القبض على بهرام بعد أن قرر الأخير الفرار ولكن المحاولة باءت بالفشل وسار بهرام قاصدا خاقان وكان له موقف فى الطريق مع امرأة عجوز تشيع فيه روح الفكاهة والسخرية وموقف آخر فى قومس مع قارن الجبلى النهاوندى وأخيرا وصل إلى خاقان ليستجير به فأجاره وأكرمه ...... ثم كان موقف بهرام من بغاوير أخ الملك وماانتهى إليه من قتل بغاوير بيد بهرام فقال له خاقان :

لقد أرحتنى ممن كان يتمنى موتى ليستبد بالملك دون ولدى ثم زاده اكراما ومنزلة وبرا وعظم قدر بهرام بأرض الترك .

أما كسرى فانه عند انهزام بهرام وهربه أكرم ثيادوس ومن معه وسرحهم إلى بلادهم وولى خاله بندويه دواوينه وبيوت أمواله ، ونفذ أمره فى جميع المملكة ، وولى خاله بسطام أرض .... خراسان .... الخ .

ولما بلغ كسرى عظيم قدر بهرام عند خاقان وجسيم منزلته ببلاد الترك خافه أن يستجيش ويعود إلى محاربته فوجه هرمزد جرابزين إلى خاقان وافدا فى تجديد العهد ووجه معه بألطاف وطرف وأمره أن يتلطف بخاقان حتى يفسد قلبه على بهرام ولكن الرسول لم ينجح فى مهمته فلجأ إلى امرأة خاتون ودبّر معها مؤامرة لقتل بهرام وتمت المؤامرة وقتل

بهرام وهنا يقول أبو حنيفة : ومن النساء السخافة وكفران النعم ومن قبل وفى نفس هذه القصة قال هرمزد : أن الغدر والكفران من أخلاق النساء.

فهل نفهم من ذلك أن الفرس كانوا يكرهون المرأة وأن كره أبى حنيفة للمرأة أثر من آثار فارسيته ؟ ربما كان ذلك كذلك . حزن خاقان لقتل بهرام وهمّ بقتل خاتون فحجز عن ذلك لمكان ولده منها .

أما أصحاب بهرام فقد انصرفوا إلى بلاد الديلم بعد أن أذن لهم خاقان وأحسن اليهم وقواهم وكان مع بهرام أخته «كردية» وكانت من أجمل نساء العجم وأبرعهن براعة وأكملهن خلقا ، وأفرسهن فروسية فخرج أصحاب بهرام وكردية أمامهم على دابة بهرام متسلحة بسلاحه حتى انتهوا إلى بلاد الديلم فسألوهم السكنى معهم فى بلادهم فأجابوهم إليه وكتبوا بينهم كتابا ألا يتأذى أحد بأحد فأقاموا آمنين .

فلما قتل بهرام رأى كسرى أن قد صفا له الملك فلم يكن له همة إلا الطلب بثأر أبيه هرمزد وأحب أن يبدأ بخاليه بندويه وبسطام ونسى أيادى بندويه عنده .

أما بندويه فلم يتحمل أبرويز فى قتله شيئا بل أمر بالتمثيل به أولا فمثل به ثم أمر بقتله وحاول أن يخدع بسطاما فلم يفلح وفرّ بسطام إلى بلاد الديلم حيث انضم إلى أصحاب بهرام الذين أغروه بالملك وأفهموه أنه أحق بالملك من كسرى ، وزوجوه كردية وكانوا جنده واستعدوا لحرب كسرى .

واقتتل الفريقان قتالا شديدا ثلاثة أيام لا ينهزم أحد من الفريقين عن صاحبه فلما رأى كسرى ذلك لجأ إلى الحيلة والمكر واستعان بكردية امرأة بسطام على قتله غدرا وتم له ذلك وهنا يذكر أبو حنيفة أن من صفات النساءِ الالف والتزاور .

هرب أصحاب بسطام إلى بلاد الديلم وحصن كسرى حدود مملكته ثم تزوج كردية وضمها إليه وانصرف إلى المدائن ونزلت كردية من قلبه بموضع محبة شديدة وشكر لها ماكان منها وزاح عن كسرى مايجد فى نفسه من الغضاضه بانتقامه من قتلة أبيه وأطمأن له ملكه وهدأ واستقر .

ومما لاشك فيه أن هذه القصة تعتبر لونا من ألوان الأدب السياسى إذ أن حوادثها كلها كانت صراعا حول السلطة والملك بل إن أبا حنيفة ليفتح القصة بخطبة سياسية تحدد سياسة الملك فى الرعية ثم يقدم لنا عدة حوادث تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة : مثل شخصية هرمزد الملك العادل المنصور المظفر الذى لا يعيه شئ الحكيم المدبر لسياسة ملكه ، وشخصية بهرام شوبين الفارس الذى لايشق له غبار المطيع للملك هرمزد والوفى المخلص له .

الفصل السادس

فى النقد والناقد

وظيفة النقد الأدبى - تعريف النقد - النقد بين الأمس واليوم - تاريخ الأدب - الناقد الأدبى ومادته - الخيال أساس فى النقد الأدبى - عملية النقد الأدبى يمكن أن نميّز فيها نوعين من النشاط : ١ - التذوق ٢ - وصف النص نماذج من نقد أبى حنيفة تأثر أبى حنيفة بأرسطو - دراسة النصوص النثرية دراسة نقدية ظاهرة نادرة فى الأدب العربى - غرض أبى حنيفة من النظر فى الشعر والنثر - مظاهر النقد الأدبى عند أبى حنيفة - اللغويون والنحاة كانوا قضاة الشعر فى القرن الثانى - منهجهم النقدى - الصراع بين الأدباء والنقاد - معسكر القديم ومعسكر الجديد - العلوم ذات الأثر فى النقد الأدبى - الموازنة والنقد - كتاب فحول الشعراء للأصمعى ، والأغانى للأصفهانى واعجاز القرآن للباقلانى مظاهر النقد الأدبى فى تاريخ الأدب العربى : لفظى ومعنوى وموضوعى ووصفى وترجيحى وجزئى - أبو حنيفة قاضى اللغة والنحو - الموهبة النقدية كانت موجودة لدى هذا الناقد - الأعاجم أنصار معسكر القديم - طريقة الدراسة التاريخية - معرفة التاريخ السياسى والاجتماعى لازمة لفهم الأدب وتفسيره - الكتب صدى لما يجرى حولها من أمور - كتاب الأخبار الطوال : نموذج نقدى آخر - أنواع النقد الأدبى : تاريخى ، شخصى ، فنى -صفات الناقد الأدبى - عيوب النقد — مذاهب النقد الحديث : الفنى ، الواقعى ، الفقهى - النقد الأدبى والدراسة التاريخية - دارس الأدب من ناحيته التاريخية يجب أن يدرس أمرين ١ - الروح القومية ٢ - المراحل المختلفة لهذه الروح - حياة الناس مع الألفاظ - دراسة اللغويين للدلالة اللفظية : عناية بالعناصر الداخلية لا الخارجية - تطوّر دراسة اللغة - أحداث المحاولات فى دراسة الدلالة اللغوية - الدلالة الصرفية - الدلالة المركزية والدلالة الهامشية - ألفاظ السياسة - الألفاظ وتجارب الإنسان - الدلالة الهامشية بين الأدب والنقد .

النقد الأدبى فى العصرين الجاهلى والإسلامى - النقد الأدبى فى العصر الأموى - النقد فى العصر العباسى - بين النقد القديم والحديث - مكان أبى حنيفة فى سجل النقاد العرب .

هل كان أبو حنيفة الدينورى ناقداً ؟ واذا سلمنا جدلا بأنه ناقد فما قيمة نقده ؟ وإلى أى المدارس النقدية ينتسب أبو حنيفة ؟ وما أثر هذه المدرسة على النقد العربى عامة ؟

وللإجابة على هذه الأسئلة يجب أن نطرح أسئلة أخرى فما النقد الأدبى ؟ وما وظيفته ؟ وفى ظلال التعريف والوظيفة يمكن أن تعرف أكان أبو حنيفة ناقدا أم لا ؟ وكيف كان ينقد ؟ وما قيمة هذا النقد ؟ ثم لأجل أن نعرف إلى أى المدارس النقدية ينتسب ..... علينا أن نستعرض تطوّر النقد الأدبى عند العرب والتيارات النقدية التى كان يموج بها المحيط العربى حتى نهاية القرن الثالث حيث ودع أبو حنيفة الحياة فى نهاية هذا القرن .

وظيفة النقد الأدبى وغايته تتلخص فى :

تقويم العمل الأدبى من الناحية الفنية ، وبيان قيمته الموضوعية ، وقيمته التعبيرية والشعرية ، وتعيين مكانه فى خط سير الأدب ، وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبى فى لغته ، وفى العالم الأدبى كله ، وقياس مدى تأثره بالمحيط ، وتأثيره فيه ، وتصوير سمات صاحبه ، وخصائصه الشعرية والتعبيرية ، وكشف العوامل النفسية التى اشتركت فى تكوينه والعوامل الخارجية كذلك[1] .

تلك وظيفة النقد كما نراها نحن اليوم فهل كان أسلافنا يرونها كذلك لنستعرض دلالة كلمة النقد لغويا وفنيا. فى المحيط ولسان العرب وغيرهما : والتنقادُ والانتقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها أنشد سيبويه :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة ... نفى الدراهيم تنقاد الصياريف

ونقدت الدراهم وانتقدتها أخرجت منها الزيف فهذا المعنى اللغوى الأول يشير إلى أن المراد بالنقد التمييز بين الجيد والردىء من الدراهم والدنانير وهذا يكون عن خبرة وفهم وموازنة ثم حكم سديد وهناك معنى لغوى آخر يدل عليه قولهم أيضا نقدت رأسه بأصبعى إذا ضربته ، وعلى ذلك يفسر حديث أبى الدرداء إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك ...... معناه ان عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله .... فالنقد هنا معناه العيب والثلم أو التجريح .

هذه هى أهم المعانى اللغوية لمادة النقد ، ولعلها أو أكثرها ملائم لما يراد هنا من معنى فقد استعمل النقد فى معنى تعقب الأدباء والفنيين والعلماء والدلالة على أخطائهم وإذاعتها قصد التشهير أو التعليم .

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه — لسيد قطب ص٥ — مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٧ .

أما المعنى اللغوى الأول فلعله أنسب المعانى وأليقها بالمراد من كلمة النقد فى الاصطلاح الحديث من ناحية وفى اصطلاح أكثر المتقدمين من ناحية أخرى .

فإن فيه كما مرّ معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم واذا ما وقفنا عندما يقوله الثقاة من النقّاد رأيناهم لايتجاوزون هذه المعانى فى حد النقد ، وفى ذكر خواصه ووظيفته « فالنقد دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها المشابهة لها أو المقابلة ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها يجرى هذا فى الحسيات وفى المعنويات ، وفى العلوم والفنون وفى كل شىء متصل بالحياة ، وقد رأينا السابقين الذين كتبوا فى النقد العربى أميل إلى حمل لفظ النقد على هذه المعانى المتواصلة(٢) » .

وهنا نستطيع أن نتقدم قليلا فنذكر ما يقوله المحدثون فى تعريف النقد فهو عندهم التقدير الصحيح لأى أثر فنى وبيان قيمته فى ذاته ، ودرجته بالنسبة إلى سواه . والنقد الأدبى يختص بالأدب وحده ، وإن كانت طبيعة النقد واحدة أو تكاد سواء أكان موضوعه أدبا أم رسما أم تصويرا أم موسيقا « فالنقد الأدبى فى الاصطلاح هو تقدير النص الأدبى تقديرا صحيحا ، وبيان قيمته ودرجته الادبية(٣) .

فأنت ترى أن الصلة جدّ وثيقة بين وظيفة النقد اليوم وبين وظيفته عند أسلافنا ، كما أن الصلة جدّ وثيقة بين ما نفهم من كلمة النقد اليوم ، وبين ما كان يفهمه أسلافنا .

ولكننا لانستطيع أن نتملق أنفسنا فندعى أن تفوقنا إنما هو فى سعة باع نقادنا إذا ... قايسناهم بأسلافهم كلا بل « من الواضح أن هذا التفوق انما يكمن فى الأساليب والمناهج(٤) على نحو ما سيجىء » .

فالنقد ما يزال يؤدى عدداً من الأمور لم ينفك يقوم بها فى كل زمان أعنى تفسير الأثر الأدبى ووصله بموروث أدبى سابق وتقويمه وما أشبه ذلك فهذه كلها مظاهر خالدة لأى نقد(٥) .

ولاشك أنك لاحظت أن الميدان الذى نعمل فيه الآن ، ونريد تجلية خصائصه وتوضيح معالمه هذا الميدان معنون بعنوان النقد الأدبى .

---

(٢) أصول النقد الأدبى – لأحمد الشايب ص١١٥

(٣) أصُول النقد الأدبى – لأحمد الشايب ص١١٦

(٤) النقد الأدبى ومدارسه الحديثة – لستانلى هايمن جـ١ ص١٢ ترجمة – إحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم – ط دار الكتب – بيروت .

(٥) النقد الأدبى ومدارسه الحديثة لستانلى هايمن جـ١ ص١١ ترجمة إحسان عباس ، محمد يوسف نجم ط – دار الكتب – بيروت .

فهو مكّون من كلمتين : أدبى منسوب للأدب وخير تعريف للأدب أنه التعبير عن الحياة أو بعضها بعبارة جميلة ..... ونقد ...... وهى كلمة تستعمل كما مر بنا بمعنى العيب وتستعمل أيضا بمعنى أوسع وهو تقويم الشيء والحكم عليه بالحسن أو القبح وهذا يتفق مع اشتقاق الكلمة فإن أصلها من نقد الدراهم لمعرفة جيدها من رديئها كما مر بنا أيضا .

فمعنى النقد هنا استعراض القطع الأدبية لمعرفة محاسنها ومساويها ثم قصرت على العيب لمّا كان من مستلزمات فحص الصفات ونقدُها عيب بعضها وتسمى الملكة التى يكون بها هذا التقدير الذوق ، وهذا الذوق ليس ملكة يسيرة بل هى مركبة من أشياء كثيرة يرجع بعضها الى قوة العقل ، وبعضها الى قوة الشعور .

والغرض من دراسة النقد الأدبى معرفة القواعد التى نستطيع بها أن نحكم على القطعة الأدبية أجيدة أم غير جيّدة ؟ فإذا كانت جيدة أو رديئة فما درجتها من الحسن أو القبح ؟ ومعرفة الوسائل التى تمكننا من تقويم ما يعرض علينا من الآثار الأدبية[٦] .

والناقد على العموم يجب أن يكون ذا حظ كبير من العقل ، وحظ كبير من الذوق ويتجادل الباحثون فى أنه هل لابد للناقد من معرفة آداب أخرى حتى يمهر فى نقد لغة أو ليس بضرورى .... وعلى كل حال فاطلاعه على الآداب الأخرى يوسع أفقه ويزيد فى تجاربه .

والنقد الأدبى يخضع لقواعد خاصة كما يخضع كل علم ، وكما تخضع الفلسفة وهذه القواعد مأخوذ بعضها من الفلسفة وبعضها من علم النفس وبعضها من الأخلاق وبعضها من علم الجمال .

ولكن مامهمة النقد ؟

هل مهمة النقد الأدبى التفسير أو الحكم ؟

أعنى أن واجب الناقد أن يفسر القطعة الأدبية فقط ويكتفى بذلك ويترك الحكم لها وعليها للقارىء بحسب ذوقه أو وظيفته أيضا الحكم عليها بالحسن أو القبح قال بهذا قوم وبذاك قوم . وهل قوانين الأدب مقررة ثابتة أو خاضعة للتغير بتغير الزمان ؟

ماذا يجب على الناقد أن يكون غرضه من نقده[٧] ؟

والناقدون والأدباء تناولوا دراسة تاريخ الأدب من نواح مختلفة فبعضهم تناوله من

---

(٦) النقد الأدبى لأحمد أمين جـ١ ص١

(٧) النقد الأدبى – لأحمد أمين جـ١ ص٢ ، ٣ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٢

الناحية التاريخية فهم مثلا يدرسون العصر الجاهلى ثم العصر الإسلامى وهكذا وحجتهم فى ذلك أن الأدب ظل للحياة الاجتماعية وممثل لها ولايمكن فهم الأدب حق الفهم إلا إذا فهمت البيئة التى انتجته ، وسنعرض لمناهج النقد فيما بعد .

ولقد سمعنا بالطبع كلاما كثيرا حول ما يجب أن يكون عليه الناقد من التجرد من الهوى ومن التجرد من الميل إلى فنان بعينه أو إلى نوع بالذات من أنواع الفن بحيث يظلم الأنواع الأخرى أو يبخس حق الفنانين الآخرين .

والهوى هنا تتحكم فيه عوامل مختلفة قد تكون من صميم الفن ، وقد لاتكون فإذا كانت بعيدة عنه كتحزب النقاد العرب لكل ماهو قديم لأنه قديم أو تحزب فريق لأبى تمام على البحترى لمجرد الصلات الشخصية فإن ذلك لايدخل فيما نحن بصدده .

وقد تصدى نقاد عرب إلى تبيان فكرة أن الناقد يجب أن يتجرد من الهوى كما قال ابن قتيبة مثلا فى مسالة تفضيل القديم على الحديث فأنصف المحدثين قائلا إن شعرهم يجب ألا يرد لمجرد أنهم محدثون فقاوم التيار السائد فى عصره[٨] .... موضوعات النقد الأدبى كما رأيت متشابكة يتوقف التأمل فى كل منها على التأمل فى سائرها فليس من السهل أن ندرس النص الأدبى وهو المادة الأولى الأساسية للدرس النقدى دون أن تتداخل فى هذه الدراسات موضوعات وموضوعات[٩] .

ليس هناك بد من أن نحدد مادة الناقد الأدبى التى يمكن أن يجول فيها ويؤلف وهى النص ، وكل ما يمكن أن يعين عونا مباشرا على فهم النص وتحليله ودرسه والحكم عليه واستخلاص الأحكام العامة ما أمكن من جملة النصوص التى تشترك معه فى ميزة أو فى أخرى[١٠] .

إن النص الأدبى كما يقول ناقد حديث كالبلد العجيب الذى نود زيارته يسرنا أن نسمع عنه الأخبار وأن نعرف عنه المعلومات .[١١]

فن الأدب إذا هو المادة الأولى للنقد الأدبى بكل ما يحمله فن الأدب من دلالة غير عادية ومن خيال وعاطفة وفكر .

ومن هنا يقول أرسطو إنه لذلك كان لابد من إيجاد حل قريب لاستعمال الكلمة

---

(٨) محاضرات فى النقد الأدبى للدكتورة سهير القلماوى ص٢٦ ، ٢٧

(٩) محاضرات فى النقد الأدبى للدكتورة سهير القلماوى ص٥ مطبعة دار الهنا ١٩٥٥

(١٠) محاضرات فى النقد الأدبى للدكتور ، سهير القلماوى ص١٩

(١١) محاضرات فى النقد الأدبى - للدكتورة سهير القلماوى ص٨٥ .
محاضرات فى النقد الأدبى للدكتورة سهير القلماوى ص٦٣ .

وهى أداة عادية على نحو يجعلها تدل دلالة غير عادية ... وأول ما لجأ اليه الإنسان بطبعه بل بغريزته كما يقول أرسطو لجعل الكلمة العادية غير عادية هو أن يستعملها بارتباط غير مألوف وكانت واسطته فى ذلك التشبيه أى لمح دلالة للكلمة ليست فى مألوف معناها بأى حال ، وإنما هى دلالة جديدة يحملها الشاعر لها ...... وسبيل ذلك بالطبع أن يوجد رابطا بين كلمتين لا وجود له فى الحياة الواقعية حتى يؤلف منهما دلالة جديدة من الارتباط وأيسر صور الارتباط وأقربها للغرائز الإنسانية هو الشبه فلمح الشبه حقيقة أو ادعاء يشبع فى عرف أرسطو إحدى الغريزتين اللتين يقوم عليهما الفن وهما غريزة حب التكرار وغريزة الطرب للنغم .

ومبحث التشبيه مبحث واسع جدا إذ يدخل فيه المبحث الاسمى من مباحث الأدب وهو مبحث الخيال ولكى ندرك إلى أى مدى يعتبر الخيال أساسا فى النقد الأدبى يكفى أن نذكر أن من بين من عرف الفن الأدبى من عرفوه بأنه لغة الخيال ، أو التعبير عن الخيال ، والكلام الذى لا يدل على درجة من درجات الخيال لا يدخل باب الفن بحال من الأحوال عند نقاد لهم احترامهم فى عالم النقد ، على أن النص الأدبى لا ينشأ فى فضاء من الأرض أو السماء وانما ينشأ فى بيئة زمانية ومكانية وتحيط به ظروف مباشرة وأخرى غير مباشرة ، وبعض هذه الظروف يتصل بالنقد وبعضها يتصل بتاريخ الأدب ومن هنا وجب أن نميز بينهما .

فالنقد الأدبى كثيرا ما يختلط بما يجب أن نميزه عنه ، وهو تاريخ الأدب ، وليس يكفى أن نقول ان تاريخ الأدب يتناول كل ما هو حول النص من ظروف وأحوال ، وإن النقد الأدبى هو ما يتناول النص نفسه ، فكل ما حول النص الأدبى من ظروف وأحوال لا يندرج كله فيما نسميه بتاريخ الأدب ، خذ مثلا هذه النظريات الأدبية التى شاعت فى فرنسا فى القرن الماضى.... أهى تاريخ أدب ؟ أهى تاريخ نقد ؟ بل أهى نقد أم علم ؟ وكيف يمكن أن تنفصل عن النصوص وكيف يمكن أن تتصل بها وما مدى هذا الاتصال ؟ وهكذا .

معروف أن عملية النقد الأدبى يمكن أن نميز فيها نوعين من النشاط :

أما الأول فهو التذوق أو الإحساس بما أحس به المؤلف كما يمليه النص الذى أخرجه وهذا بالطبع نتيجة حتمية لرد الفعل الأول إزاء النص ، وهو الانفعال به أى حركة العاطفة والعقل معا بعد أن دفع بها النص فى مناحى معينة على شكل معين .

وأما النوع الثانى فهو وصف النص إما فى ضوء تعليل التذوق وتبريره أو فى صدد تبين كنه هذا الانفعال ليس غير أى وصفه على نحو ما من خلل مؤثرات النص.(١٢)

ومهما تكن وظيفة النقد وغايته التى يعمل لتحقيقها فلابد للناقد أن يكون ثاقب النظر سريع الخاطر مهذب الذوق قادرا على المشاركة العاطفية مع الأديب والبراءة من المؤثرات التى تفسد عليه أحكامه وذلك كله فوق الثقافة الأدبية العلمية، والتمرس بالأدب ومعرفة أطواره التاريخية، وصلاته بالفنون الأخرى، وحسن فهمه وتعمقه إلى أبعد غاية ليتيسر له الإنصاف والحكم الصحيح.

فلنستعرض معا وفى ظلال الحقائق السابقة عن النقد والنقاد نماذج من نقد أبى حنيفة لنرى كيف كان يدرس النص الأدبى؟

قال أبو حنيفة الدينورى: وروى عن أبى المجيب أنه قال لقد رأيتنا فى أرض عجفاء وزمن أعجف، وشجر أعشم فى قف غليظ وجادّة مدرّعة فبينا نحن كذلك إذ أنشأ الله من السماء غيثا مستكفّا نشؤه مسبلة عزالية عظاما مطره جوادا صوبه زاكيا أنزله الله عز وجل اسمه رزقا لنا فنعيش به أموالنا ووصل به طرقنا فأصابنا وانا لبنوطة بعيدة بين الأرجاء فاهر مع مطرها حتى رأيتنا وما نرى غير السماء والماء وصهوات الطلع فضرب السيل النجاف وملأ الأودية فرعبها فما لبثنا الا عشرا حتى رأيتها روضة تندى.

تفسير أبى حنيفة:

العجفاء: التى لا كلأ بها إلا قليل، والأعشم: اليابس القحل ولذلك قيل للشيخ الكبير عشمة، المدرعة: التى لم يترك فيما يليها شئ إلا أكل بمنزلة الشاة الدرعاء وهى التى يبيض مقدمها، وماء مدرع: إذا أكل ما حوله من الكلأ حتى إبيض كالشاة الدرعاء والمستكف: المستدير الملتهم أخذ من الكفة والنوطة: الأرض يكثر بها الطلح وليست بواد.

والاهرماع: الانحدار وكذلك اهرماع الدمع، وصهوات الطلح: أعاليها يعنى أن السيل بلغ أطراف الشجر.(١٣)

قال أبو حنيفة: فاذا أمكن العشب من أن يرعى قيل أدعت الأرض فإذا ارتفع العشب عن ذلك قليلا وهو رخص ناعم لم يشتد فهو اللعاع والنعاع وقد ألعّت الأرض وتلعّت الماشية اللعة واللمعاعة: رعته قال ابن مقبل يصف بقرة وحش:

كاد اللعاع من الحوذان يسحطها ورجرج بين لحييها خناطيل

(١٢) محاضرات فى النقد الأدبى - للدكتورة سهير القلماوى ص٨.

(١٣) المخصص لابن سيده جـ١٠ ص١٨٠، ١٨١.

(١٤) المخصص لابن سيده جـ١٠ ص١٨٧.

الرجرج. والحوذان ، بقلتان أراد أن اللعاع الناعم كاد يذبح هذه البقرة لأنها غصّت به حين أكل السبع طلاها ...... قال على : ليس الرجرج نباتا وقد غلط أبو حنيفة إنما الرجرج بقية الماء .

قال هميان :

فأرسأت فى الحوض حضجا حاضجا   قد عاد من أنفاسها رجارجا

وقال أبو حنيفة :(١٥) فاذا مالت أفنان الشجر من الرى واللين فتهدلت فذاك الهدال وهو غير الهدال المخصوص بعينه قال ابن أحمر ووصف نساء :

وهن كأنهن ظباء مرد   ببطن كراء يسففن الهدالا

فجعل ما تهدل من أفنان الاراك هدالا واذا تهدت أفنان الشجرة من نعمتها - واسترسلت فقد أهدبت وهى هدباء فإن بلغ التهدل إلى أن يكون على الأرض حتى يتوطأه الناس فهو الصريع وهو يختار للقداح لأن يصيبه ويداس فيصلب وأنشد :

وأصفر من صريع النبع فرع   به علمان من غقب وضرس(١٦)

« الاختلاء : جذب الغصن وقد تقدم فى الكلا وكل ما اختليته فهو خلى الواحدة خلاة وأنشد : »

وحولى بكر وأشياعها   فلست خلاة لمن أوعدن(١٧)

أى لست بمنزلة غصن أو عشبة لا مؤونة فى نزعها »

« قال أبو حنيفة قال بعضهم : الحدأة : الفأس التى لها رأس واحد يتخذها معتضد الشجر وهو شبه الطبرزين تقديرها عنبة ..... قال المتعقب : الناس على خلاف قول أبى

---

(١٥) المخصص لابن سيده - جـ١١ ص٢ .٣ .

(١٦) قوله من صريع النبع هذا تحريف من أبى حنيفة لبيت دريد بن الصمة وتبعه عليه لبن سيده والصواب فى الرواية : من قداع النبع ... فإن النبع ليس كما زعما مما يهدب ويتهدل حتى يكون على الأرض فيتوطأه الناس وهو الصريع المختار للقداح لأن التراب يصيبه ويداس فيصلب وهذا كله باطل لأن منابت النبع الصخور وقنن الجبال فلا يصيب المتراب ولا يداس ولا يثمر شيئا إلا سرب الوحش يصاد بسهامه وقسيه .

قال البحترى :

وعيرتنى سجال العدم جاهلة   والنبع عريان ما الفرعه ثمر

وقال المعرى : وقال الوليد : النبع ليس بمثمر وأخطأ سرب الوحش من ثمر النبع . وعى هذا فلا شاهد فى البيت لما زعمه أبو حنيفة وقلده فيه ابن سيده وقوله من عقب بسكون القاف ولا تعويل على ما وقع فى لسان العرب المطبوع من فتحها فإنه خطأ والعقب والضرس فى البيت مصدران ساكنا العين من عقب قدحه عقبا اذا لوى عليه شيئا من عقب أو غيره علامة له وضرس قدحه ضرسا إذا عضه بأضراسه علامة له لتأثير العصى فيه .

كتب محققه محمد محمود - هامش ص٣ ،٤ من جـ١١ من المخصص .

(١٧) المخصص لابن سيده جـ١١ ص٢٠ .

حنيفة والمحفوظ عن الأصمعي وأبي عبيده غير ما قال وتقديره غلط ومثاله فاسد روى أصحاب الأصمعي عن الأصمعي : الحدأة : الفأس لها رأسان والجمع حدأ بالفتح وهكذا قال غيره من الرواة والمحفوظ عن أبي عبيدة الحدأة بالفتح الفأس ذات الرأسين .... والحدأة بالكسرة : الطائر ومنه قولهم : حدأة وراءك بندقه .... يعنون الطائر وقد زعم ابن الكلبي ان حدأة وبندقة قبيلتان والأول هو الأعرف »(١٨)

وقال ابن قتيبة : الحدأ : الفؤوس لها رأسان واحدتها حدأة مثل فعله والطائر حدأة بكسر الحاء والجمع حدأ وهذا هو الصحيح وإياه أراد أبو حنيفة فأسقط بعض الكلام فغلط .

وواضح هنا أن ابن قتيبة يريد أن ينتصر لأبي حنيفة ، وفي الوقت ذاته يبين سبب الخطأ الذى وقع فيه أبو حنيفة الدينورى .

قال أبو حنيفة : والأبك : الشجر المجتمع قال : أظنه يريد قول الشاعر :

صَلاَمَـــــة كَحُمُـــــر الأَبَكِّ لا جَـــذَع فيهـــا ولا مُـــذَكِّى

الصلامة الجماعة .(١٩)

قال أبو عبيدة العقار : اسم لها « الخمر » وقال ابن السكيت : سميت بذلك لأنها عاقرت الدّن أى لازمته قال ..... وقال بعضهم كلأ أرض بنى فلان عقار أى يعقر

---

(١٨) المخصص جـ١١ – ص٢٤ .

(١٩) المخصص جـ١١ – ص٤٤ .

وجاء فى هامش صفحات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ من المخصص جـ١١ أقول أولا : إن هذين المصراعين قد أخطأ فيهما أكابر أئمة اللغويين خلفهم مقلد سلفهم فغيروا لفظها ومعناها وحرفوهما غاية التغير والتحريف وتفننوا فى التغير والتحريف كيف شاءوا والسابق منهم للتحريف فيما علمت ابن الأعرابى فى نوادره وأبو حنيفة فى كتاب نباته وابن فارس فى مجمله والجوهرى فى صحاحه وقلدهم ابن سيده فى محكمة ومخصصة وقلده صاحب لسان العرب .... وقلدهم صاحب القاموس وشارحه الزبيدى ثم أقول ثانيا : سبب هذا الخطأ والتحريف من هؤلاء الأئمة الأكابر عدم معرفة سابق المصراعين ولاحقها وعدم معرفة قائلها وعدم معرفة السبب الذى من أجله قيلاهما وما معها فمن تحريفهم اللفظ صلامة محرفة عن جربه وجذع محرف عن ضرع – وبعضهم بدّل فيها بفيهم وبفينا وبعضهم روى عن حمر بدل كحمر وصحف صاحب القاموس أبك أول باب الكاف بآبك ممدودا بأحمد ...... ومن تحريفهم المعنى قول أبى حنيفة وابن سيده إن صح نقله عنه : الأبك : الشجر المجتمع وقول ابن الأعرابى الأبك جماعة الحمر ومن تحريفهم جميعا المعنى واللفظ لابن سيده فى محكمه وقد يقال للأقوياء من الناس إذا اجتمعوا جربه قال :

جـــــــربـــــــه كضرع الأبك لاضرع فيهـــــم ولا مـــــــذكى

ويفسرونه بقولهم : نحن جماعةمتساوون وليس فينا صغير ولا مسن هذا .... هذا وكله باطل لا أصل له .

ثم أقول ثالثا : الصواب الذى لا محيد عنه والحق الذى لا مزيد عليه وبه يصح اللفظ ويستقيم المعنى أن قائله هذين المصراعين أم بشر بن مروان قطية كسمية بن بشر ابن ملاعب الأسنة أبى براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب وأن جربه هنا المراد بها جماعة من الابل لا من الناس وأن الأبك هنا المراد به موضع بعينه .... قلت والدليل القاطع على صحة ما قلته الخبر الصحيح الذى رويته عن على بن الحسين بن محمد القرشى الكاتب بسنده ..=

الماشية فمن ثم قيل للخمر عقار لأنها تعقر شاربها .... قال أبو حنيفة : القول الأول لأنا لم نجد العرب سمّت الخمر عقارا على جهة الذم لها »[٢٠]

يقيم ابو حنيفة هنا الدليل على صحة كلامه باستعمال العرب للكلمة ، ويهمنا هنا جنوح أبي حنيفة لإقامة الدليل وتعليل الحكم ، ومثل ذلك صنعه أبو حنيفة فى مفتتح النموذج التالى وأنت تلمح اعتداد أبي حنيفة بنفسه وثقته بمعلوماته حين يقول فى النموذج التالى أنا أنكر .... الخ ثم يعلل سبب إنكاره بل ويقلب وجوه الرأى مناقشا معللا وإن يكن تعليله فى دائرة اللغة والنحو والبيان .

قال أبو عبيد : المصطار : الحامض : قال أبو حنيفة أنا أنكر هذا لأن الحامض غير مختار وقد اختير المصطار قال عدى بن الرقاع :

مصطـــاره ذهبت فى الـــرأس نشوتها   كـــــــأن شاربها مما بـــــــه لمم

وقال أيضا :

نقـرى الضيـوف إذا مـا أزمـة أزمت   مصطـــار مـــاشيـــة لم يعـد أن عصرا

جعل اللبن الصريف وهو أحلى اللبن وأطيبه كما يسقى المصطار وفى هذا دليل على أن المصطار الحديثة وإنما قال من قال الحامضة من أجل قول الأخطل :

تـــدمى إذا طعنوا فيهـــا بجائفـــة   فوق الـــزجـــاج عتيـق غير مصطـــار

وليس فى هذا دليل على أن المصطار الحامضة بل على أنها الحديثة وهو إلى أن تكون حلوة أقرب وإن صرف معنى المصطار إلى أنها تطير فى الرأس كان وجها فيكون المصطار فى معنى المستطـار فطرحت التاء كما طرحت من نصطاع وقد قال عدى فى وصف الفرس :

كـــأن ريقـــه شؤبـوب غـــاديـــة   لما تـولى رقيب النقـــع مسطـــارا

« أى مستطارا »[٢١]

= قال : أخبرنا اليزيدى عن الخزاز عن المدائنى عن عبد الله بن مسلم وعامر بن حفص وغيرهما أن مروان بن الحكم مر ببادية بنى جعفر فرأى قطية بنت بشر تنزع بدلو على إبل لها وتقول :

ليس بنا فقر إلى التشكى .... جربه كحمر الأبك ...... لا ضرع فيها ولا مذكى.

ثم تقول :

عـــامـــان تـــرنيـق وعـــام تما   لم يترك لحما ولم يترك دمـــــا

ولم يـــدع فى رأس عظـــم ملـــذمـــا   إلا رذايـــا ورجـــالا رزمـــا

فخطبها مروان فتزوجها فولدت له بشر بن مروان أ هـ وهذا تحقيق والحمد لله لم أسبق إليه ولا يوجد إلا هنا وكتبه محققه محمد محمود .

(٢٠) المخصص لابن سيده جـ١١ ص٧٥

(٢١) المخصص لابن سيده – جـ١١ ص٧٥ ، ٧٦ .

الكأس : اسم للخمر ولا يقال للزجاجة كأس إن لم يكن فيها خمر قال الله تعالى فى ذكر أهل الجنّة : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا »

وقال جلّ وعلا : « يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذّة للشاربين » فهى فى كلتا الآيتين نفس الخمر.

قال ابن السكيت : الكأس : الإناء والكأس : القدح وما فيه من الشراب وقد ردّ على أبي حنيفة قوله : الكأس اسم للخمر ولا يقال للزجاجة كأس إن لم يكن فيها خمر...... قال المتعقب : أساء أبو حنيفة فى هذا الشرط الكأس نفس الخمر..... كما قال والكأس الزجاجة وقول الله تعالى الذى احتج به حجة عليه ومنه قوله سبحانه : « بأكواب وأباريق وكأس من معين » أي ظرف فيه خمر من هذه التى هى صفتها وقد قال سبحانه : « وكأسا دهاقا » والدهاق الملأى ولا يجوز أن يقال أراد وخمرا ملأى هذا فاسد من القول والعرب تقول سقاه كأسا مرّة وجرّعه كأسا من الذيفان وسقاه كؤوس الموت وقال الراجز :

كأسا من الذيقان والحجال

وأوضح من هذا كله وأبعد من قول أبي حنيفة ما أنشده أبو زياد لريسان بن عميرة :

وأول كأس من طعام تذوقه ذرى قضب تجلو نقيا مفلّجا

فجعل سواكها كأسا وجعل الكأس من الطعام وبعض من تبعيضا يدل على صحة ما قلنا وقال الآخر :

من لم يمت عبطة يمت هرما الموت كأس والمرء ذائقها[٢٢]

وقال أبو حنيفة : العرب تسمى العنب خمرا والخمر عنبا وأنشد :

ونازعني بها ندمان صدق شواء الطير والعنب الحقينا

الحقين : المجعول فى الزق .[٢٣]

ويوشك أبو حنيفة أن يصرح هنا بالمجاز المرسل وإن لم يفعل فالعنب الحقين مجاز مرسل باعتبار ما كان وأما فى الآية الكريمة « إنى أرانى أعصر خمرا » فمجاز مرسل باعتبار ما سيكون .... فكان على أبي حنيفة أن يوضح ذلك ..... أما أن يقول : العرب تسمى العنب خمرا .... الخ بدون أن يرشدنا إلى سرّ ، هذه التسمية ونوعها ففيه

---

(٢٢) المخصص لابن سيده - جـ١١ ص٧٩ ، ٨٠ .

(٢٣) المخصص لابن سيده - جـ١١ ص٨١ .

غموض وإن كان الاستعمال يوحى بمقصد أبى حنيفة ، ولعل رغبته فى الإيجاز هى التى أوقعته فى هذا الخطأ كما لحظ عليه ذلك ابن قتيبة فى غير هذا الموضع وقد أشرنا الى ذلك سابقا .

قال أبو حنيفة : فدم الإبريق يفدمه فدما وفدمه : شدّ عليه الفدّام والفدّام وهى خرقة تشد على فم الإناء لتكون مصفاة وأنشد :

مفـــدمـــة قــزّا كـــأن رءوسهـــا رءوس بنـــات الماء أفـزعهـا الـرعـد

شبه أعناق الطير إذا نصبتها بأعناق الأباريق فلذلك قال أفزعها الرعد ، قال المتعقب :

وقد غلط فى الرواية والتفسير وهذا الشعر للأقيشر الأسدى وهو مجرور والرواية :

سيفنى أبـــا الهنـــدى عن وطب سالم أبـــاريق لم يعلق بها وضر الـــزبـــد
مقـــدّمـــة قـــزا كـــأن رقـــابها رقـــاب بنـــات الماء تفـــزع للـــرعـــد

فهذا غلطه فى الرواية وأما غلطه فى التفسير فقوله شبه أعناق الطير إذا نصبتها بأعناق الأباريق فلذلك قال أفزعها الرعد وهذا غلط لأن الطائر إذا سمع صوت الرعد لم ينصب عنقه له ولكن يلويه ...... وكذلك أيضا الأباريق عوج ولذلك شبهت بأعناق الطير العوج وقد أوضح ماقلناه شبرمه بن الطّفيل الضبى بقوله :

كـــأن أبـــاريق الشمـــول عـــشيـــة أوزبـــأ على الـطـف عـوج الحنـاجـر

ألا تراه كيف اختار وهى أعلى الطف لأنها تعوج رقابها شديدا[٢٤] .

قال أبو عبيد : الهراء : الغسيل وأنشد أبو حنيفة :

أبعـــد عطيتى ألفـــا جميعـــا من المرجو ثـــاقبـــة الهراء

وقال : يعنى ما ثقب من الغسيل فى أصوله وإنما تثقب إذا قويت جدا فخيف عليها أن تستفحل فيثقب أصلها ثقبا نافذا لئلا يغلو فى القوة ويثقب بالعتل وقوله ثاقبة يريد ذات ثقب كما قال الآخر (جوف اليراع الثواقب) أى ذوات الثقب قال ومثله شجر ثامر أى ذو ثمر قال المتعقب :

هذا كلام أبى حنيفة وروايته وتفسيره وماأحسنه لو كان أصاب فى الرواية ولكنه قد غلط فيها والشعر مرفوع والرواية :

أبعـــد عطيتى ألفـــا جميعـــا من المرجو ثـــاقبـــة الهراء
أذمك مـــاتـــرقـــرق مـــاء عينى علّى إذا من الله العفـــاء[٢٥]

---

(٢٤) المخصص لابن سيده -جـ١١ص٨٤ ، ٨٥
(٢٥) المخصص لابن سيده -جـ١١ص١٠٣

قال أبو حنيفة : والحصر : التضايق فى النبتة حتى يمس بعض السعف بعضا ولاخير فى هذه النبتة لأن أفضل الغرس مابوعد بينه حتى لا تمس جريدة نخلة جريدة نخلة أخرى وشرّه ماقورب بينه وخطأ المرار فى قوله فى صفة النخل :

كأن فروعها فى كل ريح جوار بالذوائب ينتصينا

ثم فسر هذا البيت فقال وهذا من التقارب حتى ينال سعف بعضه بعض وذلك هو الحصر أى التضايق وقال لبيد فى نعت نخل بخلاف وصف المرّار :

بين الصفا وخليج العين ساكنه غلب سواجد لم يدخل بها الحصر

قال المتعقب : أما قوله أخطأ المرار فى قوله :

جوار بالذوائب ينتصينا

فالخطأ منه ولا شىء أحسن من هذا الوصف للنخل وأهل البصر بالنخل من أهل الحجاز وأهل البصرة مجمعون على أن النخل سبيله أن يباعد بين غرسه وأن من جيد نعته أن يمتد جريده ويكثر خوصه ويكثف ويتصل بعضه ببعض بواصيه حتى يمنع الطير من أن تطير من تحته إلى أعلاه وهذا أشد اشتباكا من المناصاة لأن المناصاة أن يأخذ الاثنان كل واحد منهما بناصية صاحبه ومن وصفهم لنخلهم أن يقولوا لا تقدر الطير على أن تشفه ولا ترى منه الشمس .

وقول أبى حنيفة : إن النخل إنما يتناصى من الحصر غلط وإنما الحصر تقارب مابين الأصول والاختيار تباعدها وقد أكثرت الشعراء فى ذلك وحمدت العرب الجنات بالتفافها فقالوا جنّة لفّاء وقدوهم فى بيت لبيد فما وهم فيه ماأنبأتك من أنه جعل الحصر تقارب الأصول ووهم أيضا فى السواجد وزعم أنها الموائل وزعم أنها الثوابت واستشهد لهذا بقول الراجز :

لولا الزمام اقتحم الأجاردا بالغرب أودق النعام الساجدا

أنشده ابن الأعرابى وقال : قول ابن الأعرابى هذا حسن وقد يجوز أن يكون الساجد المائل على أن المرجبات من النخل كلها موائل ولا يرجب إلا كريم النخل ثم قال وجعل النخل كلها عوج وأنشد :

لاترجون بذى الآطام حاملة مالم تكن جعله صعبا مرافيها

ثم مال إلى أنها الموائل واختار هذا القول وقد أساء من جهتين إحداهما تغيير الرواية وإنما روى العلماء بيت لبيد :

غلب شوامل لا يزرى بها الحصر

فجعلها سواجد ثم اختار شر وجهي سواجد لو كان قاله وإنما الساجد فى لغة طئ المنتصب وفى لغة سائر العرب المنحنى.

قال أبوحنيفة : كل نبتة طيبة الريح ريحانة وأنشد أبو على :

بـريحانـة مـن بطـن حـلـيـة نـوّرت   لها أرج مــــاحـولها غير مسنت

والجمع ريحان وياؤه منقلبة عن واو على جهة المعاقبة وقد يجوز أن يكون فيعلان وإن كان لم يستعمل فيكون كهين وميت لأن معنى الريح فيه قائم ...

وقال أبو حنيفة أيضا : أفواه الرياحين : ماادخر منها وأعد للطيب الواحد فوه وأصل الأفواه الأصناف والأنواع وإن كان الطيب قد شهر به وأنشد :

تــــرديت مـن أفـواه نـور كـــأنها   زرابى وارتجت عـلـيك الدواعب[٢٦]

وجاء فى هامش ص١٩٣ ، ١٩٤ ما يلى :

قلت قد حرّف أبو حنيفة هنا أربع تحريفات يقبح مثلها من مثله فى بيت ذى الرّمة هذا وقلده ابن سيده فى محكمه ومخصصه وقلدهما صاحب لسان العرب والتحريفات هى قوله : أفواه وقوله كأنها وقوله : ارتجت وقوله : الرواعب والصواب فى الرواية : ألوان وكأنه وانهلت والرواعد وأخطأ فى روايته عليها كخطأ ضم التاء من ترديت لأنها تاء مخاطب فحقيقة رواية البيت هكذا :

تـــرديت مـن ألـوان نـور كـــأنـــه   زرابّى وانهلت عـلـيك الــرواعــد

ومعنى البيت الدعاء لرسم دار خرقاء بالخصب وانهلال السحائب الرواعد والقصيدة دالية لابائية بدليل السوابق واللواحق قال فيها وهو مطلع القصيدة :

ألا أيها الــــرسم الــــذى غير البلا   كـأنك لم يعهـد بك الحىّ عـاهـد
ولم يمش مشى الأدم فى رونق الضحى   بجراعــائك البيض الحسان الخرائــد
تــرديت من ألوان نور كـــأنــه   زرابى وارتجت عـليك الــــرواعـــد
وهـل يرجع التسليم أو يكشف العمى   بوهـبين أن تسقى الـــرسوم البوائــد
فلم يبق منهـــا غير آرى خيمــــة   ومستوقـد بين الخصـاصات هـامـد
ضريب لأوراق السوارى كـــأنـــه   قــرى البو تغشـاه ثلاث صعـائــد
أقــامت بــه خـرقـاء حتى تعـذرت   مـن الصيـف أحياس اللوى فالغراقد

---

(٢٦) المخصص لابن سيده جـ١١ ص١٩٣

« وكتبه محمد محمود »

وأنت ترى أنه منذ النموذج الثانى وتبادل النقد واضح بين أبى حنيفة وغيره من النقاد وأن كل المآخذ التى أخذها النقاد على أبى حنيفة صائبة ولا ضير فى ذلك فنحن لا نضع أباحنيفة فوق النقد ولا ندّعى له العصمة ، وبحسبنا أن نعرف كيف كان ينقد ، كما أن النماذج السابقة اقتبسناها من كتاب النبات فالنقد الأدبى فى كتاب النبات يدور حول موضوع النبات ، وكذلك نقد أبى حنيفة فى كتاب الأنواء يدور حول موضوع الأنواء أما نقده فى كتاب الأخبار الطوال فنذكره بعد قليل وقد لاحظت أن الصفة البيانية التى يكثر أبوحنيفة من استخدامها هى التشبيه ، وسبق أن ذكرنا رأى أرسطو فى التشبيه فهل تأثر أبوحنيفة بهذا الرأى ؟ ومن هنا أكثر من التشبيه ، ليس مايمنع من صحة هذا الرأى لاسيما وأن أباحنيفة كان فيما يبدو معجبا بأرسطوولذا قال عنه :وكان بأرض الروم رجل من بقايا الصالحين حكيم فيلسوف ، يسمى « أرسطاطاليس » يوحد الله ويؤمن به ولا يشرك بـه شيئا فلما بلغه عتو الإسكندر وفظاظته ، وسوء سيرته أقبل من أقاصى أرض الـروم حتى انتهـى إلى مـدينـة الإسكندر ، فدخل عليه وعنده بطارقته ، ورؤساء أهل مملكته فمثل قائما بين يديه غير هائب له فقال له : أيها الجبار العاتى ألا تخاف ربك الذى خلقك ، فسوّاك وأنعم عليك ولا تعتبر بالجبابرة الذين كانوا قبلك كيف أهلكهم الله حين قلّ شكرهم واشتد عتوهم ..... ؟ فى موعظة طويلة[٢٧] .

وان كان مما يتسغرب له أن يقول أبو حنيفة عن أرسطو إنه من بقايا الصالحين ولكن المعجب لايستغرب عليه شىء .

عـرض أبـو حـنـيـفـة فى تفسيره للنص الأول لشرح مفردات هذا النص ، وبعض المعانى ، كما عرض لما فى النص من صورة وأخيلة « فالمدرعة التى لم يترك فيما يليها شىء إلا أكل بمنزلة الشاة الدرعاء ...... وماء مدرّع إذا أكل ماحوله من الكلأ حتى ابيض كالشاة الدرعاء وهكذا .

ومما يسترعى النظر أن أباحنيفة يعرض لدراسة نص نثرى ، وسبق أن قدمنا لأبى حنيفة تفسيرا لنصوص نثرية حينما كنا نتحدث عن آثاره فأبوحنيفة بذلك تدارك خطأ وقع فيه غيره من النقاد إذ أن دراسة النصوص النثرية دراسة نقدية ظاهرة نادرة فى الأدب العربى ولا سيما من أمثال أبى حنيفة الدينورى بل إن أحد الكاتبين يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقول :

---

(٢٧) الأخبار الطوال ص٣٠

« من الظواهر التى تسترعى نظر الباحث أن اللغويين والبيانيين قد أغفلوا نقد المنثور إلا ماتصل بالقرآن الكريم والحديث الشريف[٢٨] » .

فالأستاذ الزيات يرى أن النقاد من اللغويين والبيانيين أغفلوا نقد النثر ، ونحن نرى أنهم لم يهملوا نقد النثر كلية وإنما كان نقدهم للشعر أكثر من نقدهم النثر .

وأبو حنيفة الدينورى من أولئك النقاد القلائل الذين لم يهملوا نقد النثر .

ولا شك أن غرض أبى حنيفة الدينورى من النظر فى الشعر والنثر إنما كان جمع الشواهد على غريب الألفاظ ، وصحة القواعد ، وتسجيل معانى الشعر ، وروايته ، ومن هنا كان أغلب نظره مقصورا على الأبيات المفردة الشاهدة على صحة الكلمة أو سلامة القاعدة ، دون نظر إلى علاقتها بالقصيدة الأمر الذى كان يوقعه أحيانا فى الخطأ ، وقد تعقب النقاد السابقون أبا حنيفة فى هذه الناحية بالذات على نحو مامر بنا ..... ويبدو أن أبا حنيفة كان يقدم الشعر الغريب على المأنوس شأنه فى ذلك شأن سائر اللغويين والنحاة .

ومما تقدم نرى أن أبا حنيفة لم ينظر إلى القصيدة باعتبارها كلا تتساوى أجزاؤه إلى غرض واحد وإنما نظر إلى ماتشتمل عليه أبياتها من غريب الكلم أو أصيل التراكيب ، وجعل ذلك سبب التفضيل وعلة الاختيار ، وأساس الحكم .... كما أن أحكامه كانت تصدر على بيت أو بيتين أو ثلاثة من القصيدة .

هذا ولم نعثر فيما وصل الينا من تراث أبى حنيفة على باب للنقد وضع فيه قواعد للنقد ورسم حدوده وبيّن غايته ، وأكبر الظن أنه لو وصلنا كل ماخلف أبو حنيفة أو على الأقل كتاباه « الفصاحة » ، « الشعر والشعراء » لكان لنا فى أبى حنيفة رأى غير هذا وعلى كل حال فمظاهر النقد الأدبى عند أبى حنيفة الدينورى كثيرة منوعة فنقد لفظى وآخر معنوى ، وثالث موضوعى ، ومن المعنوى مايتصل بالأخيلة وطرق تأليفها لتصوير العاطفة ، ومن اللفظى ماهو لغوى أو نحوى ، ولديه أيضا نقد ترجيحى أو قيمى ومهمة ذلك النقد الحكم على النص الأدبى بالجودة أو الرداءة .

هذا إلى أنه غلب عليه أيضا ذلك النوع الجزئى أو الموضعى الذى يتناول كل شاهد وحده بالنقد والتقدير .

ويبدو أن اشتغال أبى حنيفة باللغة والنحو هو الذى صبغ نقده بهذه الصبغة ، ولونه بذلك اللون ، وجعله يسير مع ذلك التيار النقدى الذى بدأ فى أخريات القرن الثانى الهجرى يشتد ويقوى عوده على يد أعلام العربية من أمثال سيبويه والخليل بن أحمد .

---

٢٨) فى أصول الأدب -للأستاذ أحمد حسن الزيات ص٤٩

كان النشاط اللغوى قائما على قدم وساق ، وكذلك كان شأن النحو ، وكانت علوم العربية آن ذاك متصلة متشابكة حيث لم تنفصل العلوم ، ولم يحدث التخصص حتى إنهم كانوا « يريدون بالنحو السبل التى سلكتها العرب فى التعبير عن أغراضها ومقاصدها .ولا شك فى أن ذلك ينتظم تأليف الجملة ، ومايجب أن تكون عليه وحدها أو مع غيرها حتى تؤدى الغرض الذى صبغت من أجله ، كما أنهم أيضا أرادوا بالنحو ذلك الذى نعرفه الآن من ضبط أواخر الكلمات التى تتألف منها الجملة(٢٩) » .

هذا التيار النقدى الذى اشتد فى أخريات القرن الثانى لم يكن من السهل أن يضعف فجأة فإنه ظل قويا على يد أمثال السكيت وابنه اللذين أخذ عنهما أبوحنيفة والذين عاشوا فى القرن الثالث الهجرى .

صحيح أنه كانت هناك مقاومة لهذا التيار من جانب الشعراء وبعض النقاد ، ولكن هذه المقاومة لم تضعف ذلك التيار ، بل لعلها زادت النار اشتعالا لاسيما وأن أنصار ذلك التيار القديم كانت لهم صولة ومكانة علمية يدلون بها على العلماء والأدباء بل وعلى الخلفاء وأيا ماكان الأمر فإن أسبق الأدباء إلى النقد هم اللغويون والنحاة ، كانوا هم قضاة الشعر فى القرن الثانى ، اليهم يحتكم الشعراء ، وعنهم يأخذ الملوك والأمراء حتى قال الخليل بن أحمد : « إنما أنتم معشر الشعراء تبع لى ، وإنا سكان السفينة ، إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم » .

وغرض هؤلاء اللغويين والنحاة من النظر فى الشعر إنما كان جمع الشواهد على غريب الألفاظ ، وصحة القواعد ، وتسجيل معانى الشعر ، ومن ابتكرها ومن سرقها ، فكلما كانت القصيدة أحفل بالشواهد ، وأجمع للغريب كانت أجود ، وكلما كانت المعانى أرسخ فى القدم وأصل فى الابتكار كانت أفضل .

ومن ذلك كان أغلب النظر مقصورا على الأبيات المفردة الشاهدة على صحة الكلمة أو سلامة القاعدة دون نظر إلى علاقتها بالقصيدة ... وكان الرأى مجمعا على تقديم الشعر الغريب على المأنوس وتفضيل الشاعر القديم على المحدث ، وقد أغرقوا فى إيثار الجاهلى على الإسلامى من غير ميزة إلا الأقدمية حتى قال أبوعمرو بن العلاء : « لوأدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية لما فضلت عليه أحدا .

وكان شعراء القرن الثانى ينكرون ولابد على أقطاب اللغة والأدب هذا التحكم ، ويسألونهم الإنصاف « وأخذ هذا الإنكار ينتشر ويشتد كلما ورفت ظلال الحضارة

---

(٢٩) الصور البيانية بين النظرية والتطبيق - للدكتور حفنى محمد شرف ص٥٩ الطبعة الاولى ١٩٦٥ مطبعة الرسالة بالقاهرة

فصقلت الألسن ، وأرهفت الأذواق حتى هب جماعة من بلغاء الكاتب فى أوائل القرن الثالث الهجرى ينقضون أحكام اللغويين والنحاة ، ويبنون الأحكام الأدبية على قواعد أقرب إلى التسوية والموضوعية(٣٠) .

ومما تقدم نرى أن علماء اللغة والنحو والبيان لم ينظروا إلى القصيدة باعتبارها كلا تتساوق أجزاؤه إلى غرض واحد ، وانما نظروا الى ما تشتمل عليه أبياتها من غريب الكلم أو أصيل التراكيب أو محسنات اللفظ وجعلوا ذلك سبب التفضيل ، وعلة الاختيار ، وأساس الحكم وقل منهم من فطن إلى وحدة القصيدة(٣١) .

ومهما يكن من شيء فقد وجد فى العصر العباسى لأول عهده معسكران : معسكر يدعو إلى القديم وعدم الحيدة عنه ، ومعسكر يدعو الى التجديد وعدم التقليد فكان زعماء المعسكر الأول أمثال الأصمعي وأبى عمرو ابن العلاء ، وابن الأعرابى .

« وكان هؤلاء رواة أكثر منهم أدباء ، وكانوا علماء لغة أكثر منهم نقدة أدب . فغلب عليهم بطبيعة ثقافتهم أن يتعصبوا للقديم وخاصة الشعر الجاهلى(٣٢) » .

على أن العلوم ذات الأثر فى النقد الأدبى لم تكن قد تطورت تطورا كافيا لتستعمل منهجيا ولا كانت زاخرة بالمعرفة لتسدى له يدا جليلة وأكثر ضروب المعرفة فائدة للنقد هى العلوم الاجتماعية التى تدرس الفرد عاملا فى جماعة « إذ الأدب بعد كل شيء أحد الوظائف الاجتماعية عند الانسان(٣٣) » .

وهذه العلوم تأخرت فى نشأتها عند العرب. والحال فى الموازنة كالحال فى النقد سواء بسواء .... تنازع علماء الأدب فى أى الشعراء أشعر ، وذهب الخلف بينهم كل مذهب فلم يتفق ناقدان على رأى ولم يجتمع رأيان على شاعر وكان مدار المفاضلة على الأبيات المفردة من الشعر والصفات العامة للشاعر(٣٤) .

وأن من يطلع على ماأثر عن السلف من الموازنة والنقد يجد الخطأ فى الأقيسة ، والخلل فى الموازين ، وذلك لتحكم الذوق الخاص ، واستبداد الهوى المطلق ، وارسال

---

(٣٠) فى أصول الأدب – للأستاذ أحمد حسن الزيات ص٥١

(٣١) المرجع السابق ص٥٥

(٣٢) فيض الخاطر – لأحمد أمين جـ٢ ص٢٤٠ الطبعة الرابعة ١٩٥٦

(٣٣) النقد الأدبى ومدارسه الحديثة – لستانلى هايمن جـ١ ص١٠ – ترجمة احسان عباس ، محمد يوسف نجم ط دار الكتب – بيروت .

(٣٤) فى أصول الأدب – للأستاذ أحمد حسن الزيات ص٤٥

الناقد الحكم على غير قاعدة مرسومة ولا مذهب معين ، وربما اكتفوا فى تقديم شاعر أو تفضيل بيت بالعبارة العامة ، أو الإشارة المبهمة أو الهتاف الموجز(٣٥) .

كذلك فعل الأدباء اللغويون كالأصمعي فى كتابه (فحول الشعراء) فقد توخى فيه تمييز فحول الشعراء من غيرهم بأحكام لاأسباب لها ، وأقوال لاغناء فيها ، ومثله سائر اللغويين والرواة الذين سجل الأصفهانى آراءهم فى أغانيه ، فانها لم تعد أن تكون آراء شخصية لاتقوم على دليل ناهض ، ولاتعتمد على قاعدة عامة وسواء آكان النقاد من الأدباء أم كانوا من اللغويين فإن أحكامهم كانت تصدر على الشاعر فى جملته أو على بيت أو بيتين أو ثلاثة من قصيدته .

(ولم نعثر على مثال من النقد البيانى لقطعة كبيرة من الشعر إلا فى كتاب إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى ، حين حاول أن يبين ما جاء من العوار فى نصف معلقة امرىء القيس ، على أنه لم يستطع الإنصاف ولم يبرأ من الهوى ..... وقد أكثر البيانيون من سرد الأبيات المفردة مستشهدين بها على المعانى والبيان والبديع ، ولكن أحدا منهم لم يوفق إلى عقد باب للنقد يضع فيه قواعده ويرسم حدوده ويبين غايته(٣٦) » .

وإذا رحنا نستقصى مظاهر النقد الأدبى فى تاريخ الأدب العربى وجدناها كثيرة منوعة فنقد لفظي وآخر معنوى ، وثالث موضعى ، ومن اللفظى ما هو لغوى أو نحوى أو عروضى أو بلاغى ، ومن المعنوى ما يتصل بالأخيلة وطرق تأليفها لتصوير العاطفة .....ثم العاطفة الصادقة والمصطنعة ومن الموضوعى ما يليق بكل مقام من المقال أو الفن الأدبى الخاص حتى غلوا وحاولوا أن يقصروا الشعر على فنون دون النثر(٣٧) .

هنالك نقد وصفى أو إيضاحى يعنى ببيان خواص النص الأدبى دون عناية بالحكم عليه وهو نقد يخضع لمثل الموازنة وتبين أوجه الشبه والخلاف بين الآثار الأدبية كما توازن بين البحترى وأبى تمام لتعرف مذهب كل فى شعره دون أن تفضل أحدهما على الآخر .

وهنالك نقد ترجيحى أو قيمى ومهمته الحكم على النص الأدبى بالجودة أو الرداءة ووضعه فى درجة فنية خاصة بالنسبة لغيره فيعد بذلك فاضلا أو مفضولا « ولعل هذا الأخير هو الغالب على النقد العربى(٣٨) » .

---

(٣٥) فى أصول الأدب – للأستاذ أحمد حسن الزيات ص٤٢ ، ٤٣ .
(٣٦) فى أصول الأدب – للأستاذ احمد الزيات ص٤٤ ، ٤٥ .
(٣٧) أصول النقد الأدبى – لأحمد الشايب ص١٤٥ – ١٤٦
(٣٨) الوساطة بين المتنبى وخصومه – للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ص٣٨ طبعة صبيح .

هذا الى أنه غلب عليه أيضا ذلك النوع الجزئي أو الموضعي الذى يتناول كل شاهد وحده بالنقد والتقدير مع الاعتماد على الذوق المدرب ، وإن كان الذوق لايلزم الآخرين إلا إذا كان معللا على أن التعليل ليس ممكنا فى كل حالة لأن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ، ولاتؤديها الصفة ، وهناك ظاهر تحسه النواظر ، وباطن تحصله الصدور وأكثر ما تكون تلك الدقائق فى مواطن الجمال فتلك قد تحسها وأما تعليلها فعسير إلا بالفاظ عامة لاتحدد معنى ولذلك شاع فى النقد هذه الألفاظ التى ينكرها المحدثون «كالجزالة والرقة والانسجام وحلاوة اللفظ وكثرة الماء والرونق والإغراب والإبداع والطرب والطلاوة[٣٩] .

وهكذا يبدو أننا إذا اتخذنا النصوص السابقة نماذج فنية للنقد الأدبي عند أبى حنيفة استطعنا أن نرى فيه قاضيا لغويا نحويا حكم مقاييس اللغة والنحو والذوق المدرب فيما عرض له من نصوص أدبية ولعلك فهمت الآن قصور أبى حنيفة فى النقد الأدبي وسبب هذا القصور على اننا نظلم الرجل فى ميدان النقد لو وقفنا عند هذا الحد لأن كثيرا من مؤلفات الرجل قد ضاع وبديهى أنه لاذنب لأبى حنيفة فى ذلك ..... على أنه فى مثل هذا الموقف الذى تفقد فيه مؤلفات ناقد يكفى فيما أرى أن يتمكن الباحث من إثبات أن الموهبة النقدية كانت موجودة لدى هذا الناقد ... والذى يدعو إلى الاستغراب حقا أن يتجه أبو حنيفة الفارسى الأصل والذى تثقف بالمثقافات اليونانية والهندسية أن يتجه هذا الرجل إلى غريب اللغة ونحوها وأدبها الجاهلى أو ما يشبه الجاهلى ، ويتخذ من كل ذلك مادة لدراساته النقدية فقد كان المظنون به وبأمثاله من الأعاجم الذين استعربوا أن يتجهوا إلى معسكر الجديد كلية فقد كانوا واسطة العقد بين الآداب الأجنبية والأدب العربى ، والحضارة التى كانت تسود العصر حضارة فارسية كما كانت الثقافة اليونانية منتشرة ، ولكن حدث غير ذلك فقد كان هؤلاء الأعاجم المستعربون أنصار معسكر القديم أكبر الظن أن عوامل نفسية قادتهم إلى هذه السبيل ، فالأعجمى إذا استعرب كان قصارى همه وغاية وكده أن يصل فى فنه إلى العربى الأصيل ولا تحدثه نفسه أن يبتكر فى القديم أو يجدد فى الشىء الأصيل ، ويؤيد هذا الرأى الدكتور أحمد أمين حيث يقول[٤٠] : أترى المصرى مهما بلغ فى إتقان اللغة الانجليزية – تحدثه نفسه أن يبتكر فى الشعر الانجليزى ؟ أو الشامى مهما بلغ فى إجادة اللغة الفرنسية أن يبتكر فى الشعر الفرنسى ؟ انما يبتكر فى الانجليزية والفرنسية الانجليزى الأصيل والفرنسى الأصيل ، لأنه

---

(٣٩) المرجع السابق ص٣٢

(٤٠) فيض الخاطر جـ٢ ص٢٧١

من الناحية النفسية لايشعر فيها بعجز طبيعى فكذلك الشأن فى العربى الأصيل ، والأعجمى الحامل لواء العربية فى العصر العباسى ...... ومهما يكن من شىء فإن الاتجاه النقدى الذى أشرنا اليه سابقا إنما استقيناه من ميدان اللغة الذى طرقه أبو حنيفة ... أما فى ميدان التاريخ ، ومن خلال مطالعاتنا لكتاب « الأخبار الطوال » فتطل علينا طريقة نقدية نعتقد أنها كانت مبكرة كل التبكير حين ظهرت بهذه الصورة على يد أبى حنيفة الدينورى فى عالم النقد الأدبى عند العرب ، ونعنى بهذه الطريقة الدراسات التاريخية ، وإليك كلمة عنها .

طريقة الدراسة التاريخية :

هذه الطريقة هى التى تدرس الأحداث فى مجموعها المتشابك لكى تنتهى الى بعض القوانين العامة وهى على العكس من الطريقة التى تبدأ بدراسة فكرة واضحة معروفة من قبل ثم تحاول أن تربط بها الأحداث خيرا كانت أم شرا ، والطريقة التاريخية تهتم فى حكمها على الآثار الأدبية بالنسبة للبيئة والظروف التى ألفت فيها أكثر من اهتمامها بها بالنسبة لذوق الناقد الخاص (٤١) .

« فمعرفة التاريخ السياسى والاجتماعى لازمة لفهم الأدب وتفسيره ، ولتعليل كثير من موضوعاته وأطواره والاتجاهات العامة التى يجرى فيها الأدب ويسلكها الأدباء فنهضة الشعر إبان ظهور الإسلام ثمرة لهذه الدعوة الدينية ، التى قسمت الشعراء قسمين : مدافع عن الدين ومهاجم له ، ونشأة الأحزاب السياسية بعد وقعة صفّين أدت إلى توزيع الشعراء بين هذه الأحزاب ، وضعف الوازع الدينى أيام العباسيين جرأ أبا نواس وشيعته على هذا الأدب الماجن .

ثم إن الدراسة التاريخية تفسر لنا الكتب التى تؤلف فى فترة ما ، وفى ظل أحداثها السياسية وأوصافها الدينية أو الخلقية أو الاقتصادية إذ كانت هذه الكتب فى موضوعاتها وأساليبها ووجهات نظر أصحابها ثمرة لهذه البيئة التى تحوطها ... خذ مثلا لذلك كتب أبى حنيفة الدينورى ولاسيما « كتاب الأخبار الأطوال » فلا محيص لنا من دراسة تاريخ القرن الثالث دراسة علمية تتناول الثقافات التى امتزجت فيه بين المسلمين ومثلتها كتبه المختلفة ، ودراسة اجتماعية ، ودراسة سياسية تعنى بمكانة الخلفاء ، ومقدار سلطانهم ثم هذه الفرق السياسية والدينية ، والنزاع بين العرب والفرس ، وبين العرب والأتراك ، وبين الأسر العربية نفسها كل ذلك لازم لفهم كتب أبى حنيفة الدينورى .

---

(٤١) نظرية الأنواع الأدبية — للأب فنستان — المجلد الأول ص٢٧ — ترجمة الدكتور حسن عون ط مطبعة رويال بالاسكندرية .

« فالكتب صدى لما يجرى حولها من أمور، ونبات لهذه التربة المعنوية التى أثمرتها[٤٢] »

ثم إننا معرضون للخطأ فى فهم وتقدير آراء الأدباء وأفكارهم وأخيلتهم مالم نلاحظ صلتهم بعصورهم ونلم بالمعارف والمذاهب السياسية والعلمية والفلسفية وبالمقاييس النقدية والخلقية التى كانت سائدة فى تلك العصور، والتى كان الشاعر أو الكاتب يجاريها أو يعارضها « فآثاره الأدبية خاضعة لها بأسلوب إيجابى أو سلبى[٤٣] .

تلك الطريقة التاريخية هى التى اتبعها أبو حنيفة الدينورى فى كتاب « الأخبار الطوال » الذى ألفه وسط خضم متلاطم من الأحداث السياسية والاجتماعية بحيث يمكن أن نعتبر تأليف هذا الكتاب على هذه الصورة بالذات صدى للبيئة العباسية آن ذاك ، الأمر الذى جعلنا نعتبر الكتاب من كتب الأدب السياسى ونعتبر ما فيه من قصص قصصا سياسيا .

لقد كان أبو حنيفة فى هذا الكتاب يذكر الأحداث السياسية والاجتماعية ثم يردفها بالنصوص الأدبية التى كانت صدى لهذه الأحداث ، وكأنه كان يرى أن هذه الأحداث لازمة لفهم النص وتفسيره إن لم يعتبرها تفسيرا له ، وكأنه أيضا كان يرى أن هذه الأحداث لازمة لتعليل كثير من موضوعات الأدب السياسى وأطواره ، والاتجاهات العامة التى يجرى فيها الأدب ويسلكها الأدباء ، وليس أدل على ذلك من صنيع أبى حنيفة حين تحدث عن وقعة صفين التى كان لها أبعد الأثر فى تعميق مجرى الشعر السياسى .

لقد عرض أبو حنيفة هذه الوقعة حين عرضها بظروفها السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية .

وإن كان الذى يؤخذ على أبى حنيفة أنه وقف موقفا سلبيا حيث قدم الحوادث والنصوص لتدل على نفسها بنفسها ولم يشأ أن يعقب على شئ .

ولكن هذه اللفتة إلى الطريقة التاريخية فى دراسة الأدب ونقده على يد أبى حنيفة الدينورى كانت كما ذكرنا سابقا مبكرة كل التبكير ، وأظنه لم يسبق اليها .

وأيا ما كان الأمر فيهمنا الآن أن نستعرض نماذج لهذه الطريقة ولتكن هذه النماذج حول وقعة صفين .

---

(٤٢) أصول النقد الأدبى - لأحمد الشايب ص٩٥

(٤٣) أصول النقد الأدبى - لأحمد الشايب ص٩٦ - مطبعة الاعتماد ١٩٤٦

(٤٤) أصول النقد الأدبى - لأحمد الشايب ص٩٦

« وقعة صفين » (٤٤)

قالوا : وضربت الركبان إلى الشام بنعي عثمان وتحريض معاوية على الطلب بدمه فبينا معاوية ذات يوم جالس إذ دخل عليه رجل فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فقال معاوية : وعليك من أنت لله أبوك ؟ فقد روعتني بتسليمك عليّ بالخلافة قبل أن انالها .

فقال : أنا الحجاج بن خزيمة بن الضمة ..... قال : ففيم قدمت ؟ قال : قدمت قاصدا إليك بنعي عثمان ثم أنشأ يقول :

إن بنى عمك عبد المطلب ... هم قتلوا شيخكم غير الكذب
وأنت أولى الناس بالوثب قثب ... وسر مسير المحزئل[٤٥] المتلئب

ثم قال : إني كنت فيمن خرج مع يزيد بن أسد لنصر عثمان فلم نلحقه فلقيت رجلا ومعي الحارث بن زفر فسألناه عن الخبر فأخبرنا بقتل عثمان وزعم أنه ممن شايع على قتله فقتلناه وإنى أخبرك أنك تقوى بدون ما يقوى به على لأن معك قوما لا يقولون اذا سكت ويسكتون إذا نطقت ولا يسألون إذا أمرت ..... ومع عليّ قوم يقولونه إذا قال ويسألون إذا سكت فقليلك خير من كثيره وعليّ لا يرضيه إلا سخطك ولا يرضى بالعراق دون الشام وأنت ترضى بالشام دون العراق فضاق معاوية بما أتاه به الحجاج بن خزيمة ذرعا وقال :

أتانى أمر فيه للناس غمة ... وفيه بكاء للعيون طويل
مصاب أمير المؤمنين وهذه ... تكاد لها صم الجبال تزول
فلله عينا من رأى مثل هالك ... أصيب بلاذحل[٤٦] وذاك جليل
تداعت عليه بالمدينة عصبة ... فريقان منهم قاتل وخذول
دعاهم فصموا عنه عند دعائه ... وذاك على ما فى النفوس دليل
سأنعى أبا عمرو بكل مثقف ... وبيض لها فى الدارعين صليل
تركتك للقوم الذين تظافروا ... عليك فماذا بعد ذاك أقول
فلست مقيما ما حييت ببلدة ... أجر بها ذيلى وأنت قتيل
وأما التى فيها مودة بيننا ... فليس إليها ما حييت سبيل

---

(٤٤) كان مبدأ محاربات صفين فى أول صفر سنة ٣٧هـ يوليه ٦٥٧ .

(٤٥) المحزئل : المرتفع .

(٤٦) الذحل : الثأر .

سأقحمها حربا عوانا ملحة وإنى بها من عامنا لكفيل[٤٧]

وإن عليا أرسل جرير بن عبد الله إلى معاوية يدعوه إلى الدخول فى طاعته والبيعة له أو الايذان بالحرب فقال الأشتر: ابعث غيره فإنى لا آمن مراهنته .... فلم يلتفت إلى قوله الأشتر....... فسار جرير إلى معاوية بكتاب علىّ فقدم على معاوية فألفاه وعنده وجوه أهل الشام فناوله كتاب علىّ وقال: هذا كتاب علىّ إليك وإلى أهل الشام يدعوكم إلى الدخول فى طاعته فقد اجتمع له الحرمان والمصران والحجازان واليمن والبحران وعمان واليمامة ومصر وفارس والجبل وخراسان ولم يبق إلا بلادكم هذه وإن سال عليها واد من اوديته غرقها.

وفتح معاوية الكتاب فقرأه: « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علىّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان أما بعد فقد لزمك ومن قبلك من المسلمين بيعتى وأنا بالمدينة وأنتم بالشام لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فليس للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وأنما الأمر فى ذلك للمهاجرين والأنصار فإذا اجتمعوا على رجل مسلم فسموه اماما كان ذلك لله رضى فإن خرج من أمرهم أحد بطعن فيه أو رغبة عنه رد إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه سبيل غير المؤمنين وولاه الله ما تولى ويصله جهنم وساءت مصيرا .... فأدخل فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار فإن أحب الأمور فيك وفيمن قبلك العافية فان قبلتها والا فائذن بحرب وقد أكثرت فى قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه الناس ثم حاكم القوم اليك أحملك واياهم على بما فى كتاب الله وسنة نبيه فإما تلك التى تريدها فانما هى خدعة الصبى عن الرضاع.

فجمع معاوية اليه أشراف أهل بيته فاستشارهم فى أمره فقال له أخوه عتبة بن سفيان « استعن على أمرك بعمرو بن العاص » وكان مقيما فى ضيعة له من حيز فلسطين... وقد اعتزل الفتنة فكتب اليه معاوية « أنه قد كان من أمر على فى طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين ما بلغك وقد قدم علينا جرير بن عبد الله فى أخذنا ببيعة على فحبست نفسى عليك فأقبل أناظرك فى ذلك والسلام »

فسار ومعه ابناه عبد الله ومحمد حتى قدم على معاوية وقد عرف حاجة معاوية اليه فقال له معاوية: « أبا عبد الله طرقتنا فى هذه الأيام أمور ليس فيها ورد ولا صدر قال: وما هن؟ قال: أما أولهن فإن محمد بن أبى حذيفة كسر السجن وهرب نحو مصر فيمن كان معه من أصحابه وهو من أعدى الناس لنا وأما الثانية فان قيصر الروم قد جمع

---

(٤٧) الأخبار الطوال ص١٥٥ - ١٥٦.

الجنود ليخرج الينا فيحاربنا على الشام وأما الثالثة فإن جريرا قدم رسولا لعليّ بن أبى طالب يدعونا إلى البيعة له أو إيذان بحرب »

قال عمرو : أما ابن أبى حذيفة فما يغمك من خروجه من سجنه فى أصحابه فأرسل فى طلبه الخيل فإن قدرت عليه قدرت وإن لم تقدر عليه لم يضرك ..... وأما قيصر فاكتب إليه تعلمه أنك ترد عليه جميع من فى يديك من أسارى الروم وتسأله الموادعة والمصالحة تجده سريعا إلى ذلك راضيا بالعفو منك وأما على بن أبى طالب فإنه المسلمين لا يساوون بينك وب ..... قال معاوية : إنه مالأ على قتل عثمان وأظهر الفتنة وفرّق الجماعة .

قال عمرو : إنه وإن كان كذلك فليست لك مثل سابقته وقرابته ... ولكن مالى إن شايعتك على أمرك حتى تنال ما تريد .

قال : حكمك .

قال عمرو : اجعل لى مصر طعمة مادامت لك ولاية .

فتلكأ معاوية وقال : يا عبد الله لو شئت أن أخدعك خدعتك .

قال عمرو : ما مثلى يخدع .

قال له معاوية : أدن منى أسارّك .

فدنا عمرو منه فقال : هذه خدعة هل ترى فى البيت غيرى وغيرك ... ثم قال : يا عبد الله أما تعلم أن مصر مثل العراق .

قال عمرو : غير أنها تكون لى إذا كانت لك الدنيا وإنما تكون لك إذا غلبت عليا فتلكأ عليه وانصرف عمرو إلى رحله فقال عتبة لمعاوية : أما ترى أن تشترى عمرا بمصر إن صفت لك قليتك(٤٨) لا تغلب على الشام وقال معاوية : بت عندنا ليلتك هذه ... فبات عتبة عنده فلما أخذ معاوية مضجعه أنشأ عتبة :

أيها المانــــــع سيفـــــا لم يهز	إنما ملت على خـــــز وقـــــز
إنما أنت خـــروف نـــاعـــم	بين ضرعين وصـــــوف لم يجز
نـــالك الخير فخـــذ من دره	شخبـــه الأول واتـــرك مـــاعـــز
واتـــرك الحرص عليهـــا ضنـــة	واشبب النـــار لمقـــرور يكـــز
إن مصر العلىّ أولنـــــــا	يغلب اليوم عليهـــا من عجـــز(٤٩)

---

(٤٨) القلية : مرقة تتخذ من لحوم الجزور واكبادها .

(٤٩) الاخبار الطوال ص١٥٦ ، ١٥٩ .

وسمع معاوية ذلك فلما أصبح بعث إلى عمرو فأعطاه ما سأل وكتبا بينهما فى ذلك كتابا ثم إن معاوية استشار عمرا فى أمره وقال : ما ترى ؟

قال عمرو : انه قد أتاك فى هذه البيعة خبر أهل العراق من عند خير الناس ولست أرى لك أن تدعو أهل الشام إلى الخلافة فإن ذلك خطر عظيم حتى تتقدم قبل ذلك بالتوطين للأشراف منهم واشراب قلوبهم اليقين بأن عليا مالأعلى قتل عثمان واعلم أن رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندى فأرسل إليه ليأتيك ثم وطّن له الرجال على طريقه كله يخبرونه بأن عليا قتل عثمان وليكونوا من أهل الرضا عنده فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام وأن تعلق هذه الكلمة بقلبه لم يخرجها شىء أبدا .

فدعا يزيد بن أسد وبسر بن أرطاة وسيفان بن عمرو ومخارق بن الحارث وحمزه بن مالك وحابس بن سعد وغير هؤلاء من أهل الرضا عند شرحبيل بن السميط فوطنهم له على طريقه ثم كتب اليه يأمره بالقدوم عليه فكان يلقى الرجل بعد الرجل من هؤلاء فى طريقه فيخبرونه أن عليا مالأعلى قتل عثمان ثم أشربوا قلبه ذلك .

فلما دنا من دمشق أمر معاوية أشراف الشام باستقباله وأظهروا تعظيمه فكان كلما خلا برجل منهم ألقى اليه هذه الكلمة فأقبل حتى دخل على معاوية مغضبا فقال : أبى الناس إلا أن ابن أبى طالب قتل عثمان والله لئن بايعته لنخرجنك من الشام »

فقال معاوية : ماكنت لأخالف أمركم وانما أنا واحد منكم .

قال : فأردد هذا الرجل إلى صاحبه – يعنى جريرا – فعلم عند ذلك معاوية أن أهل الشام مع شرحبيل فقال لشرحبيل : إن هذا الذى تهم به لا يصلح إلا برضا العامة فسر فى مدائن الشام فاعلمهم ما نحن عليه من الطلب بثأر خليفتنا وبايعهم على النصرة والمعونة .

فسار شرحبيل يستقرى مدن الشام مدينة بعد مدينة ويقول : أيها الناس إن عليّا قتل عثمان وإنه غضب له قوم فلقيهم فقتلهم وغلب على أرضهم ولم يبق إلا هذه البلاد وهو واضع سيفه على عاتقه وخائض به غمرات الموت حتى يأتيكم ولا يجد أحدا أقوى على قتله من معاوية فانهضوا ايها الناس بثأر خليفتكم المظلوم فأجابه الناس كلهم إلا نفرا من أهل حمص نسكا فأنهم قالوا نلزم بيوتنا ومساجدنا وأنتم أعلم .

فلما ذاق معاوية أهل الشام وعرف مبايعتهم له قال لجرير : الحق بصاحبك وأعلمه أنى وأهل الشام لا نجيبه إلى البيعة .... ثم كتب اليه بأبيات كعب بن جعيل :

أرى الشـام تكـره ملك العـراق وأهـل العـراق لهم كـارهونـا
وكـل لصـاحبـه مبغض يـرى كـل مـا كـان من ذاك دينـا

وقــالوا علىّ إمــام لنــا ... فقلنــا رضينــا ابن هنــد رضينــا
وقــالوا نــرى أن تــدينوا لنــا ... فقلنــا لهم لا نــرى أن نــدينــا
وكــل يسر بما عنــده ... يــرى غث مــا فى يــديه سمينــا
ومــا فى علىّ لمستعتب ... مقــال سوى ضمــه المحدثينــا
وليس بــراض ولا ساخط ... ولا فى النهــاة ولا الآمــرينــا
ولا هــو ساء ولا سره ... ولا بــد من بعــد ذا أن يكونــا

فلما قرأ علىّ رضى الله عنه قال للنجاشى أجب فقال :

دعنّ معــاوى مــالن يكونــا ... فقــد حقق الله مــا تحذرونــا
أتــاكــم علىّ بــأهــل العــراق ... وأهــل الحجــاز فما تصنعونــا
يــرون الطعــان خلال العجــاج ... وضرب القوانس فى النقــع دينــا
هــم هــزموا الجمــع جمــع الزبير ... وطلحــة والمعشر النــاكثينــا
فــإن يكــره القوم ملك العــراق ... فقــدمــا رضينــا الذى تكــرهونــا
فقولوا لكعب أخى وائــل ... ومن جعــل الغث يومــا سمينــا
جعلتم عليــا وأشيــاعــه ... نظير ابن هنــد أمــا تستحونــا[٥٠]

ولما رجع جرير إلى علىّ كثر قول الناس فى التهمة له واجتمع هو والأشتر عند علىّ فقال : الأشتر : أما والله ياأمير المؤمنين لو أرسلتنى فيما أرسلت فيه هذا لما أرخيت من خناق معاوية ولم أدع له بابا يرجو فتحه الا سددته ولأعجلته عن الفكرة .

فلما أصبحوا عادوا إلى مواقفهم كما كانوا بالأمس فخرج عتبة بن أبى سفيان حتى وقف على فرسه بين الصفين فدعا جعدة بن هبيرة بن أبى وهب القرشى ليخرج اليه فأقبل جعدة حتى دنا من عتبة فتجاريا ماهم فيه وتقاولا حتى أغضب جعدة عقبة فتناوله عتبة بلسانه فانصرفا منضبين وعبىّ كل منهما لصاحبه كتيبه فاقتتلوا بين الصفين وأعين الناس اليهم وباشر جعدة القتال فانهزم عتبة وانصرف الفريقان لم يكن بينهم يومئذ إلا ذاك فقال النجاشى يذكر ما كان بينهما :

إن شتم الكــريم يــاعتب خطب ... فــاعلمنــه من الخطوب عظيم
أمــه أم هــانىء وأبوه ... من لؤى بن غــالب لصميم
إنــه للهبيرة بن أبى وهب ... أقــرّت بفضلــه مخزوم

وقال أيضا :

مــازلت تنظــر فى عطفيك أبهة ... لايرفع الطرف منك التيه والصّلف

(٥٠) الأخبار الطوال ص١٥٩ - ١٦١

لما رأيتهـــم صبحـــا حسبتهـــم أسد العرين حمى أشبالها الغرف[٥١]
نـاديت خيـلك إذ عض السيوف بها عوجى إلى فما عـــاجوا ومـــا وقفوا
هلا عطفت إلى قتلى مضــــرّعــــة منهـا السكون ومنها الأزد والصدف
قد كنت فى منظر عن ذا ومستمع يـاعتب لولا سفاه الرأى والترف[٥٢]

قالوا : وخرج الأشعث فى يوم من الأيام فى خيل من أبطال أهل العراق فخرج اليه حبيب بن مسلمة فى مثل ذلك من أهل الشام فاقتتلوا بين الصفين مليا حتى مضى جل النهار ثم انصرفوا وقد انتصف بعضهم من بعض .

وخرج يوما آخر المرقال هاشم بن عتبة بن أبى وقاص .

وإذا كان النقد الأدبى خاصا بالأدب ، وإذا كنا نفهمه بالمعنى العام أى تفسير الأدب وايضاحه فنستطيع أن نعد من أنواعه ما يلى[٥٣] :

أولا : النقد التاريخى الذى يشرح الصلة بين الأدب والتاريخ فيتخذ من حوادث التاريخ السياسى والاجتماعى وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره وخواصه .

ثانيا : النقد الشخصى ، وهو يتخذ من حياة الأديب وسيرته وسيلة لفهم آثاره وفنونه وخواصه الغالبة عليه فان الأدب صادر عنه مباشرة ليسهل بذلك شرحه وتعليل أوصافه .

ثالثا : النقد الفنى : وهو أخص الأنواع وأولاها بمن يريد فهم طبيعة الأدب ، وبيان عناصره ، وأسباب جماله وقوته ، ورسم السبيل الصالحة للقراءة والإنشاء .

وواضح أن النوع الأول هو الذى اتبعه أبو حنيفة الدينورى فى «كتاب الأخبار الطوال» على نحو ما مر بنا من نماذج ودراسة .

على أن أبا حنيفة الدينورى باعتباره ناقدا كان يتصف بمعظم الأوصاف التى يجب توافرها فى الناقد الأدبى .

فكل ناقد مهما تكن طريقته يحتاج الى تلك الخصائص التى سميناها الذكاء والمعرفة والمهارة والحساسية والقدرة على الكتابة يحتاج إلى الذكاء ليكيفه بما يلائم العمل الذى يعالجه ، والمعرفة من أدبية وغير أدبية ليكون على وعى بما يتطلبه عمله ، والمهارة لئلا تتدرج به طريقته أو تنساق به نحو وحدة آلية جوفاء ، والحساسية ليظل دائما متنبها للقيم

---

(٥١) الغرف : الشجر الكثيف الملتف أى شجر كان .
(٥٢) الأخبار الطوال ص١٧٣ – ١٧٤
(٥٣) أصول النقد الأدبى – لأحمد الشايب ص١٤٥

الخاصة في العمل الذى ينتقده من حيث إنه يمثل تجربة جمالية فذّة ، والمقدرة الأدبية ليحسن التعبير عما يريد أن يقوله(٥٤) .

وجل تلك الخصائص إن لم تكن كلها كانت متوفرة لدى أبى حنيفة الدينورى وهنالك عدد من النقاد قد سلط مبادىء الدين وتجليات التصوّف على الأدب ، وإلى جانب هذه الضروب من النظريات والمعارف طوّر النقد عدداً من المناهج الخاصة به « ومذهبها » قياسا على المناهج العلمية فى بعض الأحيان مثال ذلك الاستقصاء فى الأخبار عن الاشخاص وسيرهم والكشف عن نواحى الغموض ودراسة العمل الرمزى والنقل فى الآثار الأدبية وبذل الجهد الدائب فى قراءة النصوص والكشف المستفيض عنها عامة(٥٥) .

وكذلك كان أبو حنيفة حيث سلط مبادىء الدين على الأدب . وحيث كان يميل إلى الاستقصاء فى الأخبار عن الأشخاص وسيرهم ، والكشف عن نواحى الغموض وأن رجلا مثل أبى حنيفة الدينورى يخلف للمكتبة العربية هذا التراث الضخم فى ميادين العلم والأدب ، والنقد ليعتبر مثلا يحتذى فى الأكباب وبذل الجهد الدائب فى القراءة والبحث .

ولكن هل نحن بعد التطور الكبير الذى وصلنا اليه فى ميدان النقد الأدبى مازلنا بحاجة الى أبى حنيفة ونقده الفقهى والتاريخى ؟

لنستعرض معا تيارات النقد المعاصر ولننظر هل برأت من عيوب الماضى أم لا ؟

حتى لانظلم أحدا وحتى تنكشف الحقيقة كفلق الصبح أو أوضح .

«كان أكثر النقد ولايزال زورا وعبثا هو فى أغلب الأمر رأى يصدر عن مجاملة أو جهالة ثم ينتقل من فم إلى فم(٥٦) .

ولو اقتصر النقد على المجاملة أو الجهالة لخفت البلوى وهان خطب الأدب ولكنه تردى بالقدح والبذاء ، وصدر عن حقد وتحامل وعداء وهذى علة العلل ومصدر البلاء(٥٧) .

واذا كان النقد الأدبى من أعسر الأمور وأشقها لأنه يتطلب ثقافة واسعة وموهبة فنية عالية وتنبها وجدانيا مرهفا وروحا سمحا متجردا من آثار الميل والهوى فإنه فى البيئة الأدبية

---

(٥٤) النقد الأدبى ومدارسه الحديثة لستانلى هايمن جـ١ ص٢٠

(٥٥) النقد الأدبى ومدارسه الحديثة لستانلى هايمن جـ١ ص١٥

(٥٦) دفاع عن البلاغة - لأحمد حسن الزيات ص٥١ مطبعة الرسالة .

(٥٧) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث - لمصطفى عبد اللطيف السحرتى ص٣ المقتطف والمقطم .

المبلبلة يتطلب شجاعة أدبية نادرة وروحا قوية لمجاهدة مارسب فى بعض الأذهان من أحكام طائشة وآراء منحرفة وشهرة طنانة كاذبة[٥٨] .

وللنقد الأدبى قضية مركبة عويصة تحتاج إلى قضاة عدول صارمين فى الحق ولايساغ النقد بدفعة من دفعات العاطفة أو نزوة من نزوات النفس أو خطرة من خطرات الهوى أو بلمحة من لمحات الذكاء بل لابد من ضمير حىّ وبراءة من الميل وتجاوب مع روح المنقود واقتران بآثاره اقتران مودة والرجوع إلى جوّه وبيئته وشخصيته ودراية ذكية بالأصول النقدية فإذا تعذر التجرد النفسى وعسرت الزمالة بالمنقود واستحال التكيف بالجو الذى شب فيه الأثر الأدبى وترعرع وتجوهلت شخصية المنقود وقلّت الزكانة بالقواعد النقدية فلن يصح نقد ولن ينصف منقود .

وهانحن أولاء نخطو إلى بيان المذاهب النقدية والتى على ضوئها يمكن إصدار حكم نقدى سليم على أبى حنيفة الدينورى ويمكن تقسيم مذاهب النقد إلى ثلاثة أقسام كبيرة :

١ - المذهب الفنى .

٢ - المذهب الواقعى .

٣ - المذهب الفقهى .

وتقتصر فى بيان المذهبين الأول والثانى على ذكر زبدتهما تاركين التفصيل للمذهب الثالث إذ هو فى نظرنا المذهب الذى سار عليه أبو حنيفة الدينورى فى نقده اللغوى .

١ - المذهب الفنى :

هو المذهب الذى ينظر فى العمل الفنى إلى روحه وصدقه وأصالته وأسلوبه دون اعتبار يذكر لموضوعه أو لنحوه وصرفه .

ففى القصيدة يلقى اهتمامه إلى تجربته الشعرية وانفعاله وخياله ومعانيه وموسيقاه وأسلوبه وصياغته « والذى استقر عليه رأى النقاد الانجليز أن القيمة الفنية لكل قصيدة تنحصر فى ملاءمة التجربة الشعرية مع صياغة هذه التجربة[٥٩] » .

والمقصود بالتجربة الشعرية (   ) الحالة التى تتشبع فيها نفس الشاعر بموضوع من الموضوعات أو مشاهدة من المشاهدات أو فكرة من الفكرات أو مرأى من المرائى يمتلىء بها وجدانه متحفزة إلى التأمل والتفكير والاستغراق بل الاندماج فيها ثم يتهيأ بعدها للاعراب عن مشاهدته أو رؤيته وهنا يأتى دور الصياغة فإذا كانت

---

(٥٨)

(٥٩)

طبيعة النقد الأدبى للأستاذ أوليفر إيلتون .

الصياغة صادقة موفقة مؤتلفة مع التجربة فقد بلغ الشاعر غايته وأبدع القصيد الفنى وهذا القصيد يتفاوت فى منزلته بتفاوت طاقة الشاعر وأصالته موضوعية كانت أو أسلوبية .

٢ - المذهب الواقعى :

والمذهب الواقعى فى النقد لايختلف مع المذهب الفنى إلا فى شىء واحد هو موضوع القصيد فهو لاينظر لما ينظر المذهب الفنى إلى التجربة الشعرية والصياغة والانفعال والفكر والخيال فقط وانما يدخل فى اعتباره الموضوع « فان كان الموضوع لايهتم بالحياة وأحداثها وآلام الناس وأشواقهم وآمالهم فهو فن ردىء فن مخلخل للمواهب مخدر للناس[٦٠] .

والفن الجيد هو المعبر عن أشواق الناس وآمالهم ودنياهم[٦١] .

يقول الناقد الانجليزى « إن الشعر فى قرارته نقد للحياة وعظمة الشاعر فى تطبيق آرائه على الحياة تطبيقا قويا جميلا[٦٢] »

ورجال المذهب الواقعى يضعون للفن منازل فالفن الذى يعبر عن الوقائع العابرة أقل منزلة من الفن الذى يضم الحقائق المعمرة الباقية وهذا الفن الأخير يعد فى رأيهم فنا عظيما إذا صيغ بأسلوب قوى مقنع .

وهناك رأى أقرب إلى هذا الرأى بل يتصل اليه بنسب متين هو رأى للناقد الانجليزى والتر باتر محوره أن الفن الجيد هو الذى يتوخى الجمال وحده فإذا ما اتجه إلى السعادة الإنسانية ورمى إلى إنماء العواطف بين الناس أو عبر عن حقيقة جديدة أو عريقة فى القدم تتصل بنفوسنا وصلاتنا بالعالم فهو فن عظيم[٦٣] .

وحتى هذا الرأى ينكره أصحاب المذهب الواقعى قائلين أن الجمال المثالى تعوزه القدرة على تعزية الناس من أحداث الحياة والجمال هو الحياة .... والحياة بوجه عام أكثر غنى وتنوعا وأكثر أهمية من أى قطعة من الخيال أو تهويمة من تهاويم الأحلام .

فالعمل الفنى الذى يعبر عن الأوهام والأحلام والهمهمات والشطحات الصوفية أقل أهمية من العمل الفنى الذى يحوى الحقائق المعمرة الباقية التى لاتنقضى بمرور الأجيال .

٣ - المذهب الفقهى :

أما المذهب الفقهى فهو المذهب الذى سار عليه أبو حنيفة الدينورى فى كتبه اللغوية بل وسار عليه أغلب النقاد القدامى وهو ينظر فى الشعر إلى نحوه وصرفه وعروضه وبيانه

---

(٦٠)

(٦١) المرجع السابق ص٢٤ .

(٦٢)

(٦٣) نقد الشعر فى الأدب العربى لنسيب عازار ص٢١ .

وبديعه وإلى معانيه هو المذهب الذى سار عليه جلّ نقاد العرب من قرون وقرون ولايزال محورا لنقدات كثيرة من نقاد اليوم .

ونحن لاننكر أن هذا النوع من النقد لازم على أن يكون تابعا للنقد الفنى أو الواقعى لا أن يكون مفردا .

ولا مناص من ذكر لمعات عن هذا النقد وآراء نقاد هذا المذهب .... فابن سلام الجمحى من نقاد آخر القرن الثانى الهجرى كان يضع الشعراء منازل وطبقات بحسب كثرة إنتاجهم أو قلته غير ناظر للخصائص الفنية فى أعمالهم الأدبية « وانما قوام نقده التذوق الذاتى ووفرة الانتاج(٦٤) » وليست العبرة بداهة بالوفرة أو القلة فى تقدير الأدباء وكان قدامة بن جعفر وابن قتيبة من نقاد القرن الثالث الهجرى يهتمان كل الاهتمام بالصياغة الشكلية ويصدران فى حكمها عن ذوق شخصى دون تعليل ولا تدليل مجارين الفقهاء والنحاة فى التشبث بالأصول القديمة وكان هذان الناقدان لا يعدان من الفحول أى شاعر لايتناول المديح والهجاء والنسيب والمراثى ولهذا نرى ابن قتيبة مثلا يخرج شاعرا ممتازا مثل : ذى الرمة » من طبقة الفحول لعدم إحسانه المديح والهجاء .

وممن أقحموا أنفسهم فى فن الشعر جماعة من كبار اللغوين أمثال ابن الأعرابى وحمّاد وأغلب نقدهم كان يدور حول فقه اللغة فابن الأعرابى لم يرض عن شعر أبى تمام ووجه إليه حملات ضريرة وقد شهر عنه قوله فى شعر هذا الشاعر العظيم « إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل(٦٥) » ومن عيوب أبى تمام عند هذا اللغوى وأمثاله أنه كان يجرى على غير مذهب الجاهليين والاسلاميين فى الصياغة والمعانى .

على أنه من الإنصاف للحقيقة أن نذكر أن النقد الأدبى عند العرب قد حظى بكوكبة من النقاد كانت لهم باع طويلة فى هذا المضمار مثل الآمدى الذى يقول عنه الدكتور محمد مندور « إن الآمدى من أكبر نقاد العرب وأصدقهم ذوقا وأنه هو وعبد القاهر الجرجانى من ذوى الحذق والدربة فى النقد(٦٦) .

ويرى الأستاذ خلف(٦٧) الله : « أن عبد القاهر الجرجانى يستحق مكانا بين الخالدين من علماء الدراسات النقدية لا لسعة أفقه ووفرة معارفه ودقة تحليله فحسب ولكن لنجاحه فى التوفيق بين مايتطلبه الذوق ومناهج التفكير الموضوعى المنظم » .

---

(٦٤) تاريخ النقد الأدبى عند العرب - للأستاذ طه أحمد ابراهيم ص١١٩ .

(٦٥) تاريخ النقد الأدبى عند العرب - للأستاذ طه أحمد ابراهيم ص ١٢١ .

(٦٦) فى الميزان الجديد .

(٦٧) من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ص ٩٢ - عام ١٩٤٨ .

وإلى جانب هؤلاء النقاد نجد كوكبة أخرى من النقاد كانوا ينظرون إلى الموسيقا والرنين والأوزان والمطالع وماإلى ذلك ونذكر من بينهم ابن العميد والصاحب ابن عبّاد.

ونقف في النهاية عند ناقد آخر كان يحصر كل اهتمامه فى الألفاظ وأسرار تركيبها وهو ابن الأثير فى كتابه «المثل السائر» ويجب أن لا ننسى فى غمار هذه المذاهب أن أبا حنيفة الدينورى كان ناقدا بحكم كونه مؤرخا وعالما يمحص الحقائق العلمية ويفحص الروايات التاريخية فالنقد من ألزم الأمور للعالم والمؤرخ فالحاسة النقدية تعين على ادراك الحقيقة بين ركام من الأباطيل والروايات القلقة.

فالنقد الأدبى فى كثير من الأحيان يعتمد على هذه الدراسة التاريخية . . . والكتب الأدبية نفسها لا نستطيع أن نفهما على ما ينبغى أن تفهم الا اذا فهمنا الجو الذى ألفت فيه.

إن أفكار الشاعر أو الأديب هى لدرجة كبيرة وليدة بيئته.

من هذا كله تظهر لنا قيمة الدراسة التاريخية فى فهم الأدب وقد حدا ذلك بعض الباحثين إلى دراسة الأدب حسب قانون النشوء والإرتقاء وأبانوا خضوعة لهذه القوانين ومن هنا نرى أن الأديب الكبير ليس حقيقة مفردة مستقلة منعزلة فله صلاته التى تربطه بالماضى والحاضر وفى هذه الصلاة يقودنا هو بالضرورة إلى معاصريه ومتقدميه . . .وهكذا يقودنا الأديب إلى نوع من أدب قومى موحد ذى كيان قائم بذاته ، وحياة مستمرة خاصة ولكنها متطورة تتبدل فى مراحل وأطوار مختلفة . . .ودارس الأدب من ناحيته التاريخية يجب أن يدرس أمرين اثنين : الأول : مافيه من حياة مستمرة أو بعبارة أخرى الروح االقومية فيه.

والثانى : المراحل المختلفة لهذه الحياة المستمرة أو الطريق الذى يحمل فيه الأديب الروح المتغيرة للعصور التالية ويعبر عن هذه الروح . . . وليست دراسة الأدب التاريخية تعنى فقط سردا زمنيا للرجال الذين كتبوا أو شعروا فى هذه اللغة والكتب التى آلفوها والتغيرات التى طرأت على اللغة والأذواق ولكننا نعنى الأستكشاف المستمر عصرا بعد عصر لعقل الأمة وخلقها[٦٨] ولكن مامد كان أبى حنيفة فى سجل النقاد العرب ؟ وما الطبقة التى ينتمى إليها ولا سيما بين نقاد عصره ؟

ذاك أمر يدعونا إلى أن نستعرض فى سرعة وإيجاز تطور النقد الأدبى عند العرب لنستطيع أن نحدد مكان أبى حنيفة وطبقته.

---

(٦٨) النقد الأدبى - لأحمد أمين جـ ١ ص٤ - ٧.

ومادة النقد كما ذكرنا سابقا هى الأدب واللغة متن الأدب وحياة الناس مع الألفاظ مختلفة فهناك ألفاظ يستعملها الناس بدقة بحيث تؤدى معانى محددة لا يختلف فيها اثنان وهناك ألفاظ فضفاضة مشبعة بالظلال والألوان والطاقات النفسية بل والقيم الأخلاقية والعادات والتقاليد .

فلابد أن نعرف هل النقد الأدبى ميدان لهذين النوعين من الألفاظ ؟ أو لأحدهما ؟ وأى هذين النوعين كان أسبق إلى ميدان الأدب ؟ ولماذا ؟ ثم بعد ذلك ندخل رحاب التاريخ مع النقد الأدبى عند العرب .

إن دراسة اللغويين للدلالة اللفظية قد اقتصرت فى بادئ الأمر على الناحية التاريخية الاشتقاقية للألفاظ كأن تقارن الكلمة بنظائرها فى الصورة والمعنى حتى يتسنى إرجاعها إلى أصل معين تفرع إلى عدة فروع فى لغة واحدة أو أكثر من لغة ... ولم تتجه عناية الدارسين حينئذ إلى الجانب الاجتماعى وأثره فى تطور الدلالات والصور ولا إلى المظاهر الإنسانية الأخرى ذات الأثر البين فى تغيرها وانحرافها أى أنهم عنوا بالعناصر الداخلية فى الألفاظ ولم يفطنوا إلى العوامل الخارجة عنها .

ثم تطورت دراسة اللغة فى السنين الأخيرة وبدأ الدارسون يتجهون إلى العوامل الخارجية ذات الأثر فى الألفاظ من إنسانية واجتماعية وأخذوا يتساءلون عن الأسباب التى جعلت بعض الكلمات تنكمش فى دلالتها وأخرى تنحدر بعد سموها وأرجعوا كل هذا إلى عوامل ودوافع مرت فى تاريخ الأمم وأدت إلى مثل ذلك التطور والتغير .

ومن الدارسين المحدثين فريق عنوا كل العناية بالنفس الإنسانية وبالعاطفة ورأوا أن العاطفة قد تظل بعض الألفاظ بظلال خاصة حين يستعملها الفرد ، وأن هذه الظلال تختلف باختلاف الناس وتجاربهم فى الحياة ثم تبين لهم أن الاستعمال الفردى الشخصى قد يصادف هوى فى نفوس جماعة من المستمعين فيقلدونه ويذيع بينهم ويترتب على ذيوعه وشيوعه نوع من التطور فى الدلالة ولعل أحدث المحاولات فى دراسة الدلالة أن يعمد الدارس إلى مجموعة من الألفاظ التى تنتمى إلى مجال واحد ثم يتوفر على دراستها ليتبين منها تلك التى نمت دلالتها وتلك التى انكمشت فيها تلك الدلالة أو اختفت بمرور الأيام (٦٩)

والألفاظ منذ أقدم عصورها التاريخية قد اصطنعت للتعامل بها وتيسر سبل الاتصال بين أفراد المجتمع البشرى وارتقت فوق مستوى الحيوان أو العجماوات .

---

(٦٩) دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس ص ٤٠٣ الطبعة الأولى ١٩٥٨ لجنة البيان العربى .

ولكن الانسان فى تعامله بالألفاظ لم يكن مخلصا دائما ولم يلتزم حدودها دائما فإذا شاء التضليل والخداع والنفاق لجأ إلى تلك الألفاظ فاستمد منها أدواته واذا جنح إلى الشر أو المكر أو الفتنة وجد فى تلك الألفاظ ماَيستعين به فلم ينطبق ما يدور فى خلده على ما ينطق به .

ويكتسب الإنسان ألفاظ اللغة ودلالته فى تجارب كثيرة من تجارب الحياة معها تشكل الدلالات وتتلون وتظلل بظلال متباينة ثم تستقر على حال عندها يتبين المرء لكل لفظ دلالة معينة هى جزء من عقله ونفسه(٧٠) .

وهناك نوع من الدلالة يستمد عن طريق الصيغ وبيتها وتعرف بالدلالة الصرفية فنى كلمة « كذاب » نجد أن الكلمة جاءت على صيغة اللغويون القدماء على أنها تفيد المبالغة فهى تزيد فى دلالتها على كلمة « كاذب » وقد استمدت هذه الزيادة من تلك الصيغة المعنية فاستعمال كلمة « كذاب » يمد السامع بقدر من الدلالة لم يكن ليصل إليه أو يتصوره لو أن المتكلم استعمل كلمة « كاذب(٧١) » والناس يعيشون حياة اجتماعية تتضمن قدرا كبيرا من التعاون وتبادل المصالح فيتصل بعضهم ببعض ، ويتخذون فى هذا الاتصال وسيلة واحدة هى اللغة التى تنتظمهم جميعا وتيسر عليهم ذلك التعاون الاجتماعى المنشود وهم مع هذا ربما نشأوا فى بيئات مختلفة وتأثروا بتجارب متباينة فى حياتهم السابقة مما قد يترك أثرا قويا فى فهمهم للألفاظ ولكنهم رغم ذلك يتعاملون بتلك الألفاظ ويتنازل كل منهم عن تلك الفروق التى تلون الدلالات بلون خاص فى ذهن كل منهم ويقنعون فى تلك الحياة الاجتماعية بقدر مشترك من الدلالة يصل بهم إلى نوع من الفهم التقريبى الذى يكتفى به الناس فى حياتهم العامة .

وهذا القدر المشترك من الدلالة هو الذى يسجله اللغوى فى معجمه ويسميه بالدلالة المركزية وقد تكون تلك الدلالة المركزية واضحة فى أذهان كل الناس كما قد تكون مبهمة فى أذهان بعضهم .

وأقصى ما يطمع فيه اللغوى هو أن يجعل تلك الدلالة المركزية واضحة فى أذهان الناس ولذا يعمد إلى ذلك القدر المشترك فيحدده ويشرحه فى معجمه مستعينا فى هذا بطبقة المثقفين من جمهور الناس ومتخذا منهم نماذجه الدلالية فى ذلك المعجم .

ومع اختلاف كثير من الناس فى تلك الدلالة المركزية لا يعوقهم هذا الاختلاف عن التفاهم وتبادل وجهات النظر لأنه خلاف فى نسبة الوضوح لتلك الدلالة فهى عند بعضهم أوضح منها عند آخرين ولكنها على كل حال واضحة وضوحا كافيا عندهم جميعا .

(٧٠) المرجع السابق ص ٦ ، ٧ .

(٧١) المرجع السابق ص ٤٣ .

أما الدلالة الهامشية فهى تلك الظلال التى تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم وأمزجتهم وتركيب أجسامهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم فالمتكلم ينطق باللفظة أمام السامع محاولا بهذا أن يوصل إلى ذهن السامع دلالة معينة اكتسبها هذا السامع من تجاربه السابقة .

ويفترض بعد سماعها أن ما دار فى خلد هذا المتكلم يطابق تمام المطابقة ما يدور بخلده فهو لم يتغلغل فى عقل المتكلم ، ولم يكشف عن حقيقة ما يجول فى ذهنه ولم يقف على حدود دلالته وما حولها من ظلال أو هاله وإنما بنى فهمه وأسسه على تجاربه هو وفهمه الخاص لمثل تلك اللفظه .(٧٢)

من أجل هذا اختلفت الدلالة الهامشية باختلاف تجارب الناس وأمزجتهم وما ورثوه من أسلافهم .

فبينما تجمع الدلالة المركزية بين الناس تفرق بينهم الدلالة الهامشية وبينما تساعد الأولى على تكوين المجتمع وتعاونه وقضاء مصالحه قد تعمل الثانية على خلق الشقاق والنزاع بين أفراده ...... ولكن الناس فى حياتهم العامة يعتمدون على الدلالات المركزية ويكتفون بها عادة وهو من يمن الطالع أو رحمة الخالق بعباده وألا كانت الحياة جحيما لا يطاق .

كلها شقاق ونزاع وسوء فهم بعضهم لبعض وتسود الدلالة الهامشية فى بعض مجالات الحياة وتصبح حينئذ شرا مستطيرا لبنى الإنسان وأوضح مجال للدلالة الهامشية المجال السياسى ويعمد السياسيون أحيانا إلى شحن تلك الألفاظ السياسية بقدر كبير من الدلالات الهامشية ويستغلونها أسوأ استغلال فى دعاياتهم وفرض آرائهم وعقائدهم على جمهور الناس فالفدائى يجعلونه ارهابيا ، والوطنى قد يصفونه بالمتهور المتعصب والهزيمة يصورونها فى صورة النصر المبين .

فألفاظ السياسة فوق أنها ألفاظ كاذبة الدلالة فى غالب الأحيان تحاط عادة بهالة من الدلالات الهامشية التى تؤثر فى عقول الناس ونفوسهم وتوجههم توجيها معينا نحو الخير حينا ونحو الشر أحيانا .(٧٣)

وعلى قدر ما يتاح للمرء من تجارب تصطبغ دلالته بصبغة خاصة وتتلون بلون خاص وتحاط بظلال من المعانى لا يشركه فيها غيره من الناس وتصبح وقد شحنتها تلك التجارب بما نسميه الدلالة الهامشية .

---

(٧٢) دلالة الألفاظ - للدكتور ابراهيم أنيس ص١٠٢ ، ١٠٣ .

(٧٣) المرجع السابق ص١٠٤ . ١٠٥ .

وليست تقتصر تلك التجارب على الحوادث وفرص السماع بل إن الرقى العقلى وما يكتسبه المرء من علم ومعرفة وما يتاح له من فرص ثقافية كل هذا يترك أثرا قويا فى دلالته ويصبغها بصيغة مثيرة . (٧٤)

ودارس التطور الدلالى فى لغة من اللغات يستعرض أمامه « فيلما » من الأحداث التاريخية لتلك الأمة التى تتكلم بهذه اللغة وتلقى دراسته ضوءا قويا على تطور حياتها الاجتماعية لأن دلالات ما ننطق به من ألفاظ تتضمن كل ما لدينا من فنون وعلوم وحرف ومهن وكل مظاهر حياتنا العامة والخاصة . (٧٥)

والكلمات تكتسب دلالتها فى كل لغة بعد تجارب كثيرة من الأحداث الاجتماعية التى يمر بها المرء وترتبط الكلمة فى ذهن كل منا بتلك الأحداث ارتباط وثيقا فتتلون دلالتها بها وتظل تلك الدلالة بالتجارب الخاصة للإنسان فى حياته ، وهى لدى فرد من البيئة الاجتماعية توحى بظلال من الدلالة لا تخطر فى ذهن آخر من نفس البيئة لأن تجاربها مع الكلمة مختلفة ونظرة كل منهما لها متباينة تبعا لتلك الأحداث التى ارتبطت بها فى حياتهما غير أن هناك قدرا مشتركا لدلالة الكلمات فى كل بيئة هو الذى على أساسه يكون التفاهم بين الأفراد . (٧٦)

إن تلك الدلالة الهامشية ليست كلها شرا فقد تكون سببا من أسباب المتعة لبنى الإنسان حين يستغلها الأدباء والشعراء الذين لا يقنعون فى غالب الأحوال بتلك الدلالات المركزية ويعدون ما يقتصر عليها من الأساليب أسلوبا علميا لا يهدف إلا إلى إيصال الحقائق دون زيادة أو مغالاة فكلمة « الربيع » حين يقتصر فى شأنها على الدلالة المركزية تصبح كما يصفها علماء الطبيعة بقولهم مثلا : الربيع أحد فصول السنة يحل لأسباب طبيعية خاصة وفى شهور معينة وتصحبه خضرة فى الأشجار واعتدال فى الطقس .

ولكن الربيع فى رأى الأديب حين يستغل عاطفته ويشحن دلالاته بصفات هامشية يصبح شيئا آخر . (٧٧)

فالدلالة الهامشية هى المسئولة عن روائع الأدب وهى التى خلقت علما يسمى بالنقد الأدبى ألفت فيه الكتب ووضعت له الأسس والمقاييس ، ويعرض أصحاب النقد العربى

---

(٧٤) المرجع السابق ص١٠٨ .

(٧٥) دلالة الألفاظ للدكتور إبراهيم أنيس ص١١٩ ، ١٢٠ .

(٧٦) المرجع السابق ص١٦٩ .

(٧٧) أصول النقد الأدبى - لأحمد الشايب ص٦٢ط الثالثة - مكتبة النهضة .

الى ما يسمونه بالذوق العام والذوق الخاص ولاشك أن ذلك الذوق الخاص يتأثر الى حد كبير بما نسميه بالدلالة الهامشية التى تختلف باختلاف الناس وتجاربهم وأمزجتهم وعواطفهم وبيئاتهم .

ويتضح أثر الدلالة الهامشية فى تلك الأمثلة الكثيرة التى يسوقها نقاد الأدب فى كتبهم ولاسيما حين ينصب نقدهم على دلالة لفظ من الألفاظ وفى كتاب الموشح للمرزبانى والموازنة بين الطائيين للآمدى والعمدة لابن رشيق والصناعتين لأبى هلال العسكرى وأسرار البلاغة للجرجانى والمثل السائر لابن الأثير وغيرها أمثلة كثيرة .

ونحن نرى أن قدرا غير قليل من أحكام النقد الأدبى مرجعها الى تلك الدلالة الهامشية التى تختلف باختلاف الأفراد فى البيئة الواحدة ويعظم اختلافها باختلاف الناس فى البيئات المتباينة .

وأفراد البيئة اللغوية رغم اختلافهم فى تلك الدلالات الهامشية يشتركون فى إحساس لطيف غامض يصعب تحديد مرآه ، ولم يفطن له معظم اللغويين وهو ما نكتسبه من كثرة تجاربنا مع ألفاظنا ودلالتها من إمكان التنبؤ بالدالة أو جزء منها لدى سماع ألفاظ نسمعها من قبل ولم نتعلم شيئا عنها .(٧٨)

ومن هنا بدأ النقد تذوقا محضا ، لا يتعدى التذوق إلى التعليل ولا يتجاوز المرحلة التأثرية البحته ، فكان الرجل يسمع البيت من الشعر أو الأبيات فيمنحها إعجابه أو يقابلها باستهجانه ثم لايزيد شيئا ، وقد شغلت هذه المرحلة أيام الجاهلية كلها وصدر الإسلام .

جلس النابغة فى سوق عكاظ يحكم بين الشعراء فى قبته الحمراء من الجلد فأنشده الأعشى والخنساء وحسان فقال للخنساء : « لولا أن أبا بصير – يعنى الأعشى – أنشدنى لقلت : إنك أشعر الجن والإنس فالأعشى – عند النابغة – أشعر ، وتليه الخنساء ثم يليها حسان « ولكن لماذا ؟ ماعلة هذه الأحكام ؟ هذا ما لم يكن الناقد مطالبا به إذ ذاك فحسبه أن يكون مشهودا له بالذوق ، وحسبه أن يتذوق وأن يتأثر فيحكم »(٧٩)

وكان يقع أن يعلل الناقد حكمه فى بعض الأحيان ولكنه تعليل ساذج يتعلق بلفظه أو بمعلومات حسية أو ما أشبه ولا يتعلق بالقيم الشعرية على كل حال .

لهذا عد نقد عمر بن الخطاب فى صدر الإسلام لزهير بن أبى سلمى حين قال : إنه شاعر الشعراء ثم علل هذا الحكم بقوله : لأنه لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما هو فيه .

---

(٧٨) دلالة الألفاظ – للدكتور ابراهيم أنيس ص١١٢ – ١١٧ .

(٧٩) النقد الأدبى أصوله ومناهجه – لسيد قطب ص١٢٦ .

عدّ هذا فلتة سابقة لأوانها فى النقد العربى ، لأنها فيما يلوح كانت أول تعليل يتوسع فى بيان أسباب الحكم الأدبى ، مع أن هذا التعليل لا يتعدى الألفاظ والصدق الأخلاقى ، الذى قد لا يكون ذا قيمة بمفرده فى الشعر لأنه قد يكون شيئا آخر غير الصدق الشعورى والصدق الفنى اللذين يتدخلانّ فى الحكم على قيمة الشعر الفنية ....
ولكن النقد العربى لم يقف عند هذه المرحلة ، فقد حاول أن يتجاوز المرحلة التأثرية إلى المرحلة التعليلية وحاول أن يضع قواعد وأصولا للنقد لم تخرج فى الغالب عن حدود المنهج الفنى .

يروى الرواة أنه كان للعرب أسواق يجتمعون فيها ويناشدون الأشعار ويتناقدون فكان ذلك عاملا اجتماعيا فى ترقيق الألفاظ وتدقيق المعانى وترقية النقد ...... وعلى الأخص سوق عكاظ ويروون أن النابغة الذبيانى برز فى نقد الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض كما فضل الأعشى والخنساء على غيرهما من الشعراء وعابوا هم عليه الاقوياء فى قوله :

من آل ميّة رائح أو مغتدى   عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا   وبذاك حدثنا الغراب الأسود

فغير شطر البيت وتنبه إلى أن الاقواء معيب وتحرّز عنه فيما بعد إلى جانب ذلك ما فعلته قريش فى أنها وقفت موقف المتحيز الناقد تختار من كل قبيلة أحسن ما عندها من ألفاظ وأساليب وتبسط سلطان لغتها على القبائل الأخرى فكان الشعراء يشعرون بلغة قريش .

وقد كان النقد المروى لنا نقدا مبنيا على الذوق الفطرى فنقد طرفة بن العبد مثلا المتلمس إذ يقول :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره   بناج عليه الصيعرية مقدم

فقال طرفة : استنوق الجمل لأن الصيعرية سمة فى عنق الناقة لا فى عنق البعير ....
وروى أن بعض شعراء تميم اجتمعوا فى مجلس شراب وكان بينهم الزبرقان بن بدر والمخبل السعدى وعبده بن الطيب وعمرو بن الأهدم وتذاكروا فى الشعر والشعراء وادعى كل منهم أسبقيته فى الشعر وتحاكموا فقال الحكم :

أما عمرو فشعره برود يمنية تطوى وتنشر وأما الزبرقان فكأنه رجل أتى جزورا قد نحرت فأخذ من أطايبها وخلطه بغيره ، وأما المخبل فشعره شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده ، وأما عبدة فشعره كمزادة أحكم خرزها فليس بقطر منها شىء .

وهذان نوعان للنقد مختلفان فالأول ينقد ألفاظا أو معانى جزئية ، والثانى يفاضل بين الشعراء وبين مزاياهم وعيوبهم وهو على كل حال نقد بدائى .

وبجانب ذلك نوع ثالث من النقد وهو الحكم على بعض القصائد بأنها بالغة منزلة عليا فى الجودة والموازنة بغيرها فقالوا : إن قصيدة سويد بن أبى كاهل التى مطلعها :

بسطت رابعــــة الحبــــل لنـــــا فوصلنـــا الحبـل منهـا مـا انقطـع

من خير القصائد وسموها اليتيمة وقالوا فى قصيدة حسان :

لله در عصـــــابـــــة نـــــادمتهـــــم يومـــا بجلق فى الـــــزمـــــان الأول

بأنها من خير القصائد ودعوها البتارة ... ومن هذا النوع اختيارهم القصائد المشهورة التى سموها المعلقات ان صحت هذه الرواية وبهذا لم يكن النقد مبينا على قواعد فنية ولا على ذوق منظم ناضج إنما هو لمحة الخاطر والبديهة الحاضرة .

وقد احتاج النقد إلى زمن طويل فى الإسلام حتى يؤسس على قواعد ثابتة .[٨٠]

النقد الأدبى فى العصر الأموى :

والذى نلاحظه أن هذا النقد نما وأزهر فى ثلاث بيئات : فى الحجاز والعراق والشام أما ماعداها كفارس ومصر والمغرب فلم يزهر فيها فى هذا العصر أدب ولا نقد[٨١] .

وقد ساير النقد الأدب والذوق تجدد الأدب فتجدد النقد ورقى الذوق فرقى النقد وكانت الحركة النقدية ذات شقين : الشق الأول ويمثله الشعراء والمغنون كابن سريج شيخ المغنين والغريض وكالشاعرين كثير وعمرو بن أبى ربيعة وأما الشق الثانى فيمثله النقاد غير الشعراء وخير من يمثلهم فى الحجاز فى ذلك العصر ابن أبى عتيق والسيدة سكينة وأمثالها الذين كانوا ينقدون المعانى بعرضها على الذوق الحضرى المهذب ينقدون الغزل بعرض ماهو أليق وأنسب .

أما فى العراق فنجد أنواعا أخرى من النقد تناسب تلك البيئة التى بعثت فيه العصبية القبلية أشد ماتكون وأعنف « ولذا اتجه النقد فى العراق إلى التفضيل بين الشعراء فأى الشعراء الثلاثة أشعر .... جرير ... أو الفرزدق ...... أو الأخطل ؟ ونحو ذلك » وسموا هذا قضاء وسموا الذى يحكم قاضيا وسموا هذا العمل حكومة[٨٢] .

---

(٨٠) النقد الأدبى - لأحمد أمين جـ٢ ص٤١٦ - ٤١٨ .

(٨١) النقد الأدبى - لأحمد أمين جـ٢ ص٤١٩

(٨٢) النقد الأدبى - لأحمد أمين جـ٢ ص٤٢٦

وكانت لهم أحكام نقدية كذلك فى ميزة الشاعر ووجوه ضعفه ووجوه قوته وأحكام فى الموازنة بين الشعراء وكان فى العراق حركة نقدية أخرى هى حركة الخوارج فهؤلاء يزنون الشعر بميزان الدين والأخلاق وقد ضاعت حركة الخوارج النقدية بضياعهم سياسيا وتغلبت نزعة أمثال جرير والفرزدق والأخطل ونقادهم وكانت هى أكبر مظهر فى العراق .

ولئن كان الأدب فى الحجاز أكبر مظهر له الغزل والنقد يتبعه والأدب فى العراق اكبر مظهر له الفخر والهجاء والنقد يتبعه فالشام أكبر مظهر لأدبه هو المديح وتبع الإكثار من المديح الإكثار من نقد المديح ولعل خير من روى لنا عنه فى نقد المديح هو عبد الملك بن مروان فقد كأن إلى جنب أنه خليفة عظيم .... ذا ذوق أدبى راق يقصده الشعراء بمدحهم فيقومه تقويما حسنا ويدقق فى معانيه وينقدها بذوقه الظريف .

والخلاصة أن النقد كان يدور حول تفضيل شاعر على شاعر وميزة الشعراء بعضهم على بعض وضعف المعانى التى يأتى بها الشعراء وتفضيل بعضها على بعض وتخير الألفاظ وحسن الصياغة أو قبحها .

وكل ذلك مبنى على الذوق الفطرى الذى تهذبه البيئة وترقيه الحضارة .... وشأن النقد شأن الأدب ..... لقد كان الأدب فطريا يصدر عن سليقة وطبع فكان النقد كذلك فطريا يصدر عن ذوق وسليقة وطبع .

« وفى آخر العصر الأموى ظهر النحو وجد بعض علمائه فى قواعده وكان مما يهمنا أن علماءه بدأوا ينقدون الشعر على نمطهم وأسلوبهم بدأوا نوعا جديدا من النقد هو أن الشاعر أخطأ نحويا ولم يجر فى شعره على منحى العرب فى الإعراب[٨٣] » .... فنقدوا النابغة الذبيانى إذ يقول :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع

فقالوا : إن الصواب أن يقول ناقعا بالنصب على الحال .... ونقد عبد الله بن اسحق الحضرمى الفرزدق إذ يقول :

وعض زمان يابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتا أو مجلف

فقالوا كان الواجب أن يقول مجلفا لأنه معطوفا على منصوب ... وهجاه الفرزدق لما عابه بهذا فقال :

ولو كان عبد الله مولى هجرته   ولكن عبد الله مولى مواليا

---

(٨٣) النقد الأدبى - لأحمد أمين جـ٢ ص٤٣٤

فعابوه أيضا فى ذلك وقالوا كان الواجب أن يقول مولى موالٍ لامولى مواليا وعلى الجملة فقد ظهر هذا النوع من النقد العلمى النحوى فى آخر العصر الأموى فلما جاء العصر العباسى وأسست العلوم فى جميع الفروع تأثر النقد الأدبى بالعلم وتحول الذوق الفطرى إلى قواعد وقوانين.

النقد فى العصر العباسى :

إذا وصلنا إلى النقد فى العصر العباسى رأينا إمعانا فى الحضارة وإمعانا فى الترف ورأينا الشعر والأدب يتحولان إلى فن وصناعة بعد أن كانا يصدران عن طبع وسليقة حتى لنرى كثيرا من الكتاب والشعراء من الموالى الذين عدوا عربا بالمربى ... ورأينا الثقافة تعظم وتتسع وتشمل فروع المعرفة كلها لاتقتصر على الثقافة الدينية والأدبية ورأينا الثقافات الأجنبية تتدفق على الدولة الإسلامية من فارسية وهندية ويونانية ورأينا كل مجموعة من المعارف تتحول إلى علم حتى اللغة والأدب والنحو والصرف... فكان طبيعيا أن يتحول الذوق الفطرى إلى ذوق مثقف ثقافة علمية واسعة وأن يتأثر النقد الأدبى بهذه الثورة العلمية والأدبية الواسعة.

لقد كان مما عمله العلماء أن جمعوا مااستطاعوا من أشعار الجاهلين والإسلاميين فكانت المادة الأدبية التى ينقدونها أغزر وأوفر وجمعوا مادة اللغة واطلعوا على اقوال النقاد السابقين كما نقلت إليهم أقوال الفرس والهند واليونان فى معنى البلاغة وشروطها كل هذا أفسح لهم مجال النقد ومكن لهم من رقى الذوق كما مكن لهم من أن يجوزوا النقد القديم غير المعلل الذى لايعدو استحسن أو استهجن إلى نقد معلل فيه سبب الاستحسان والاستهجان.

ولو تتبعنا ماروى لنا من النقد فى هذا العصر لرأيناه متجها اتجاهين أو سائرا على نمطين : نمط منه هو امتداد للنقد الجاهلى والإسلامى مع مااقتضته البيئة من تحول ، من ذلك أن العلماء باللغة والأدب من العباسيين أمثال الخليل والكسائى والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء والنضر بن شميل وابن الأعرابى كانوا يستعرضون الشعراء السابقين من جاهلين وإسلاميين ويتذوقون شعرهم ويبدون فيه رأيهم فيقولون : ان شعر النابغة قوى الصياغة شديد الأسر ، وشعر امرئ القيس غزير بالمعانى التى لم يسبق إليها وشعر جرير أسهل وأرق وشعر الفرزدق أقسى وأصلب إلى غير ذلك.

وكان هؤلاء العلماء يتنازعون فى أفضلية الشعراء فكان المفضل الضبى يقدم الفرزدق على جرير وأبو عمرو بن العلاء يقدم الأخطل ثم جريرا ثم الفرزدق.

وكان علماء الكوفة مثلا يقدمون الأعشى على من فى طبقته ، وعلماء البصرة يقدمون أمرأ القيس وأهل الحجاز يقدمون النابغة وزهيرا .

وكان لهذا الاختلاف فى التفضيل أسباب من ذلك أن بعض العلماء كان يحب الغريب من الألفاظ فيقدم من الشعراء من يستعمل الغريب ومنهم من يحب الغزل فيقدم أكثرهم غزلا ومنهم من يحب النحو فيقدم الفرزدق لإكثاره من التقديم والتأخير ونحو ذلك .

ووازنوا بين الشعراء فقال أبوعمرو بن العلاء فى أوس بن حجر إنه كان فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وقال : إن عدى بن زيد فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها .

واستعرضوا الشعراء وأبانوا موضع ضعفهم فقالوا : طفيل الغنوى أعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها ، وأمرؤ القيس يحسن وصف المطر وعنترة يحسن ذكر الحروب وأمية بن أبى الصلت يحسن ذكر الآخرة ، وعمرو بن أبى ربيعة يحسن ذكر الشباب ، وشبهوا جريرا بالأعشى والفرزدق بزهير.... والأخطل بالنابغة واستعرضوا الشعراء الذين تواردوا فى شعرهم على معنى واحد ففضلوا قولا على قول ... ففضلوا فى الصبر على النوائب قول دريد بن الصمه :

يغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمة فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وقالوا : أجود بيت قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

إلى غير ذلك .... وهذا نمط يشبه النمط الذى رأيناه فى العصر الأموى ، ولكنه أوسع وأعمق لما ذكرت من أن المادة عندهم أصبحت أغزر وعلمهم بالشعر أوفر وهم قد تفرغوا لهذا الضرب من العلم وأصبح صناعتهم وفى صميم حياتهم لاعلى هامش حياتهم كما كان الشأن من قبل .... وهم إذا نقدوا عللوا ولم يكن قولهم مجرد حكم كما كان من قبل .

أما النمط الآخر الذى كان جديدا لم يسبق إليه فهو النمط العلمى فى النقد نمط التأليف ووضع الكتب لاتتعرض إلا للنقد ومايتصل به .

ولعل أسبق البلدان فى ذلك هو البصرة فقد كانت الحركة العلمية فيها على أتم مايكون من نشاط ، وكان فيها أول حركة للاعتزال والمعتزلة هم واضعو أصول البلاغة إذ

كانوا هم المحتاجين إليها فى الدعوة وإقامة الحجج فوضع منهم بشر بن المعتمر الصحيفة الخالدة فى البلاغة وجاء بعده الجاحظ وهو من هو فى البلاغة وفنونها .

لقد كان فى البصرة علماء من النمط الأول كأبى عمرو ويونس وخلف الأحمر والأصمعى وأبى عبيدة فجاءت الطبقة التى بعدهم وفلسفت النقد وفلسفت الكلام من قبل وجعلته علما وألفت فيه كتبا .

ولعل أقدم ماوصل الينا من كتب النقد كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١هـ وهو أيضا بصرى كانت له معارف واسعة فى اللغة والأدب والنحو والأخبار حصلها من علماء عصره : حماد وخلف وأبى عبيدة والأصمعى وغيرهم وأخذ أفكارهم وآراءهم المبعثرة ونظمها تنظيما علميا ، ونقل النقد خطوة جديدة كالخطوة التى خطتها اللغة من كلمات مبعثرة إلى معجم منظم أو كنقل الأبحاث النحوية المفرقة إلى كتاب ككتاب سيبويه ونحو ذلك ... لقد تعرض ابن سلام فى كتابه لنقد المتن أعنى أنه رفع صوته بأن الشعر الذى يروى لنا عن الجاهلين والإسلاميين ليس كله صحيحا بل كثير منه موضوع .

ثم يعرض لشئ آخر مهم وهو تقسيم الشعراء إلى طبقات وكثيرا مايذكر رأيه ورأى العلماء فى كل شاعر فيم أجاد وفيم لم يجد ويوازن بين الشعراء وهو فى كل ذلك ينقل عمن سبقه ويرتب أقوالهم ويزيد عليها من آرائه الشخصية وفى ثنايا كل ذلك نظرات صائبة تدل على صدق النظر .

ولكن كتابه على فضله ككل كتاب يعد طليعة فى فن ينقصه الترتيب المحكم والنظام الدقيق فيأتى من بعده من يكملون نقصه ويحكمون نظامه وكذلك كان فقد أتى مؤلفو النقد بعده يوسعون نظرياته ويزيدون فى الشرح والتعليل والدقة والتفصيل .

وضع ابن سلام الجمحى المتوفى فى أول القرن الثالث ٢٣١ هـ «كتابا فى طبقات الشعراء» إذ وجد أن الجاهلين والإسلاميين اتفقوا فى حدود النقد التأثرى على إيثار امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير من الجاهلين وجعلوهم طبقة ، وعلى ايثار الفرزدق وجرير والأخطل من الإسلاميين وجعلوهم طبقة فرأى أن يقرر هذا فى كتاب ، وأن يصنف الشعراء بعدهم طبقات بلغ بها عشرا . .

وقد استعرض فيه صور النقد فى الجاهلية ، وصدر الإسلام ، وهى تتعلق بألفاظ مفردة كالتى أسلفنا ، أو بحقائق محلية أو بعيوب عروضية كالاقواء الذى أخذوه على النابغةوهواختلاف حركة القافية فى الأبيات وعلى العموم لم يكن يتجاوز المواضع المفردة إلى الحكم العام الشامل على القصيدة ، ولم يكن يتعرض خاصة للقيم الشعورية .

وخطا ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ فى كتابه « الشعر والشعراء » خطوة أخرى فحاول أن يضع قواعد لنقد الشعر وقسمه إلى أربعة أضرب :

« ضرب حسن لفظه وجاد معناه » و« ضرب حسن لفظه وعلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا » و« ضرب جاد معناه وقصرت الألفاظ عنه » و« ضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه » « ثم ضرب الأمثلة على كل ضرب ، وكانت تعليقاته على هذا النحو بعد كل مثال :

« لم يقل أحد فى الهيبة أحسن منه » لم يبتدئ أحد مرثية بأحسن منه » « حدثنى الرياشى عن الأصمعى أنه قال : هذا أبرع بيت قالته العرب « « لم يقل أحد فى الكبر أحسن منه » « لم يبتدئ أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أعرب » « وهذه الألفاظ أحسن شئ مطالع ومخارج ومقاطع » « وهذا الشعر بين التكلف ردئ الصنعة ...... الخ (٨٤) »

وهى تعليقات لاتزال كما ترى بعيدة عن التعليل ولكن فضل ابن قتيبة ينحصر فى أنه حاول أن ينظر إلى القيم الشعورية ، والقيم التعبيرية ، وأن يجعل لها فى النقد حسابا وإن يكن بطبيعة الحال لم يخط فى هذا الطريق إلا خطوة أولية .

والذى نلاحظه على نشأة النقد الأدبى عامة فى كل زمان ومكان أنها تميل أبدا إلى أن تجعل الحكم فى العملية النقدية أساسا ، وماذاك إلا لأن التحليل والدرس يتطلب درجة من درجات الرقى الفكرى تأتى بعد درجة مجرد الاستجابة الذوقية ولننظر فى نقدنا العربى فسنجد السمة البارزة فى نشأته هى الاسراف فى هذه الناحية بحيث اختصرت عملية النقد زمانا طويلا فى مجرد اصدار الأحكام.وكانت الحيثيات إن وجدت تافهة لا يمكن أن تقف أمام أى ميزان نقدى حديث عربيا كان أم أجنبيا ، كأن يقال هذا الشاعر أفضل من ذاك لأنه قال هذا البيت بل إنه ليقال هذا الشاعر أفضل الشعراء طرا لأنه قال هذا البيت بعينه ، وكانت أحكام النقاد شاملة عامة صادرة محددة ، بعكس مانرى فى النقد الحديث وهذا هو عنوان التقدم فى كل علم فكلما زاد علمنا بشىء ازددنا معرفة بأننا نجهل منه أكثر مما نعرف ولذلك يملى علينا هذا الإحساس الجديد بجهلنا الاحتياط فى الحكم ، والتريث بل البعد كل البعد عن الأحكام الشاملة ، والاعتراف التام بأن المعرفة هى معرفة من زاوية فهى ليست كل المعرفة ولايمكن أن تكون .

ولما تقدم النقد الأدبى عند العرب رأيناهم لايكتفون بالحكم على شاعر بالامتياز عمن سواه وإنما هم قد وضعوا الشعراء فى مراتب وطبقات .... وماكتاب محمد بن سلام فى

(٨٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨ ومابعدها — مطبعة المعاهد ١٩٣٢

طبقات الشعراء إلا رضد لهذا الذى كان مسلما به فى محيط النقاد ودارسى الشعر من نحاة ولغويين وأدباء فى عصره ، فليس ابن سلام هو الذى وضع أمرء القيس فى الطبقة الأولى من فحول الشعراء ، ولكن العرف الذى كان متفقا عليه فى عصره هو الذى أملى عليه هذا الحكم وهكذا فى عموميات ماقد أصدر من أحكام .

وغنى عن البيان أن كتاب ابن سلام حافل بأحكام نقدية بل بنظرية على الأقل لأقول من صنعه هو ولكنها صبغت بتفكيره الخاص ، ولكننا فى صدد الكلام عن الحكم الذى يصدر على الشعراء ، وامتداد هذه النزعة إلى أقصى مايمكن أن تمتد إليه وهو الوصول إلى صف الشعراء فى طبقات بعينها .

أما فى النقد الأوربى الحديث فلقد بدأ كما تمليه طبيعة الأشياء وسنة التطور والرقى على هذا النحو مترسما خطى اليونان القديم دائرا فى فلكه إلى حين ولكنه قليلا قليلا يأخذ الاتجاه الجديد ويتطرف فيه وإذا نحن منذ أواخر القرن الثامن عشر وإبان القرن التاسع عشر نرى نزعة تغليب التحليل على الحكم هى التى تسود ونجد نقادا يجهرون بأنه ليس من مهمة الناقد أن يحكم ، وإنما مهمته أن يدرس ويحلل ويدل على مواطن المميزات ليس غير أى دون أن يخلص من كل هذا إلى حكم صريح بالجودة أو الرداءة[٨٥] .... على أن المرونة كانت تنقص كثيرين من النقاد العرب فى العصر القديم فتقف بهم عند النماذج المأثورة من أنماط الشعور والتعبير . فما كان متفقا معها فهو جيد مقبول ، وماشذ عنها فهو معيب مرفوض .... فالمولودون من الشعراء بدأوا يخالفون القدماء شيئا مافى طريقة التعبير فوجدوا من يتعصب عليهم ، ويمتنع من رواية أشعارهم ، والمحدثون أخذوا يبعدون فى مخالفة طريق القدماء والمولدين فثارت فى وجوههم عاصفة لاتقوم على أساس التقدير الفنى المطلق ، ولكن على أساس الموازنة بينهم وبين أولئك القدماء والمولدين[٨٦] .

ولا بأس أن نذكر هنا ظاهرة حدثت فى أوائل العصر العباسى خاصة بالنقد وهى انقسام الناس إلى معسكرين :

معسكر القديم .... ومعسكر الجديد لقد جاءت الدولة العباسية بشعراء مجددين كبشار ومسلم بن الوليد ونحوهما وكان لهم تجديد فى المعانى وتجديد فى الأسلوب فجاء النقاد يختلفون فيهم فمنهم من تعصب للقديم لايرى شعرا سائغا سواه ولاشعرا يصح أن يروى ماعداه كابن الأعرابى ومنهم من كان يرى أن الشعر فن وصياغة فيجب أن يقاس بمقياس الفن والصياغة .

---

(٨٥) محاضرات فى النقد الأدبى للدكتوره سهير القلماوى ص ١٤ . ١٥

(٨٦) النقد الأدبى أصوله ومناهجه لسيد قطب ص ١٢٥ - مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٧

فما أظهر المقياس ضعفه ضعف ولو كان قديما وماأظهر جودته حكم بجودته ولو كان حديثا « وكان لابن قتيبة فى أول كتابه » الشعر والشعراء » الفصل الأول فى عرض الرأيين وتسخيف من يفضل القديم لقدمه وتأييد نظرية الأحرار[٨٧] » وإذا صح ماقيل من أنه كان لأبى حنيفة الدينورى كتاب بعنوان « الشعر والشعراء » وأن هذا الكتاب يشبه كتاب ابن قتيبة وقد أشرنا إلى ذلك ونحن نتحدث عن آثار أبى حنيفة إذا صح ذلك يكون أبو حنيفة الدينورى قد اشترك أيضا فى عرض الرأيين القديم والجديد وفى تسخيف من يفضل القديم لقدمه وفى تأييد نظرية الأحرار.

فأبو حنيفة الدينورى وابن قتيبة يشتركان فى هذه الناحية فلا يفرقان بين قديم ومحدث لأن الشعر القديم قد يكون جيدا وقد يكون رديئا والمحدث قد يكون جيدا وقد يكون رديئا وهده نظرة صادقة ربما سبقت زمانها ولكن مع الأسف يقول ابن قتيبة فى موضع آخر[٨٩] وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين ...... الخ فهذه نظرة رجعية تناقض نظرته السابقة.

ولكننا ونحن فى ختام هذه الرسالة نريد أن نعرف طبقة النقاد التى يمكن أن ينسب إليها أبو حنيفة الدينورى فى عصره تلك الطبقة التى تضم أقرانه وأنداده الذين عاصروه، ولانريد أن نضعه وضعا متكلفا فى أى طبقة وإنما نريد أن نستبين الطريق من خلال دراساتنا السابقة والتى استعرضنا فيها الحركة النقدية منذ العصر الجاهلى إلى عصر أبى حنيفة ويوسعنا أن نلتقط مما تقدم النتائج الآتية:

فى مرحلة التذوق فى العصر الجاهلى، وصدر الإسلام حينما كان المعول عليه فى النقد هو الذوق الفردى والجماعى ..... كان بعضهم يلاحظ التشابه بين شاعر وشاعر فى المستوى الشعرى، أو فى الاتجاه العام، أو فى بعض المعانى الخاصة من ذلك نظرهم إلى الأربعة الكبار: النابغة والأعشى وزهير والقيس على أنهم طبقة ... ثم نظرهم كذلك فى الإسلام إلى جرير والفرزدق والأخطل ... فهذا لون ساذج من « المنهج التاريخى » القائم على « المنهج الفنى ».

وفى مرحلة التدوين التى بدأها الجاحظ بكتابه البيان والتبيين .... سار التذوق إلى جوار التاريخ فتدوين النصوص فى ذاته، ونسبتها إلى أصحابها، وذكر ملابساتها وتجميع ماقيل فى مسألة خاصة كالعصا والنجل والبيان وغيرها من الموضوعات التى جمع الجاحظ ماقيل فيها كل ذلك من أوليات المنهج التاريخى، وحديثه عن اللفظ والمعنى وعن بلاغة

---

(٨٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧ تصحيح وتعليق مصطفى السقا - مطبعة المعاهد ١٩٣٢ م.
(٨٩) المرجع السابق ص ١٥ ومابعدها.

بعض الأقوال وجودتها .... الخ ذلك من أوليات المنهج الفنى ، وكلاهما مجتمعان فى كتاب وكذلك صنع أبو حنيفة الدينورى حينما جمع ماقيل من شعر ونثر حول موضوع النبات وحول موضوع السياسة ، كل فى كتاب مستقل ، كل ذلك يعتبر من أوليات المنهج التاريخى ، وكانت له وقفات أدبية حول بعض النصوص يعرض لألفاظها ومعانيها بالشرح ويعرض لمافيها من صور بيانية وقد مرّ بنا فى فصل « آثاره » شئ من ذلك وكل هذا من أوليات المنهج الفنى .

وابن سلام فى « طبقات الشعراء » كان يمزج بين المنهجين فى طفولتهما وكذلك صنع ابن قتيبة.

ومن هنا ندرك بعض خصائص أبى حنيفة فى النقد فهو فى كتاب النبات وفى كتاب الأنواء ناقد فني وإن تكن مقاييسه الفنية لغوية نحوية بيانية حيث يفسر النص ويبين سر جماله الفني على نحو مامر بنا فى فصل آثاره « وهو فى كتاب الأخبار الطوال ناقد يسير على المنهج التاريخى حيث يذكر مناسبات النصوص وما يدور حولها من حوادث وأبيات .

وهكذا نرى أبا حنيفة الدينورى يبدأ بمجرد الجمع حول المعنى أو الموضوع الواحد لا يعنى بنسبة جميع النصوص لأصحابها .

ومن هنا نستطيع أن نحدد طبقة النقاد التى ينتمى إليها أبو حنيفة الدينورى وهى الطبقة التى تضم كلا من :

١ – الجاحظ (عاش بين سنتى ١٥٩ – ٢٥٥ هـ) .

٢ – أبو حنيفة الدينورى (عاش بين سنتى ٢١٠ – ٢٨٢ هـ) .

٣ – ابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

٤ – ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

٥ – ابن عبد ربه (عاش بين سنتى ٢٤٦ – ٣٢٧ هـ) .

حقائق تاريخية وفنية

مما تقدم نرى أن أبا حنيفة كان ذا علوم كثيرة منها النحو واللغة والأدب والتاريخ والهندسة والنبات والحساب والهيئة ، وكان ثقة فيما يرويه ، معروفا بالصدق والورع والزهد وجلالة القدر ، وأنه كان عالما فاضلا ذا خلق .

أخذ عن البصريين والكوفيين ، وأكثر أخذه من السكيت وابنه .... وكان يكثر من ذكر النوادر ، ولفظه عذب غريب ، يمت بسبب متين إلى الأساليب العربية .

من نوادر الرجال الذين جمعوا بين حكمة الفلاسفة ، وبيان العرب ، له في كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم ، ومن أكابر العلماء ولاسيما فى الأنواء والنبات .

ويكون هو والجاحظ ، وأبو زيد أحمد بن سهيل البلخى طبقة أدبية ، وكان فقيها حنفيا .

ولهذا وجدت فيه علما من أعلام الفكر والأدب جديرا بالدراسة المنهجية العميقة فقمت بهذه الدراسة وتوصلت إلى الحقائق الآتية : -

١ - أبو حنيفة الدينورى فارسى الأصل تجرى فى عروقه دماء الفرس ، وتنصهر فى نفسه عزة العرب ، وأمجاد الإسلام ، وهو فوق هذا إنسان عاش رفيع القدر أصلا ومعاشا وقد صار إماما من أئمة العلم واللغة والأدب .

٢ - والظاهر أن أبا حنيفة قضى شطرا كبيرا من حياته فى مدينة الدينور وأنه كان يقوم فيها بأعمال الرصد فوق أعماله العلمية واللغوية المختلفة .

٣ - ولد فى العقد الأول من القرن الثالث الهجرى ، ولم أجد فى كتب التراجم ، ولا فى كتب اللغة والأدب ذكرا للسنة التى ولد فيها ، وهذه الكتب لاتذكر عن حياته إلا الأقل الذى لايشفى غليلا ، وضياع معظم كتبه أفقدنا ماربما كان فيها من معلومات فى هذه الناحية .

٤ - أخذ حظه من التعليم منذ نعومة أظفاره ومن حيث إنه كان من الأعيان ، ونشأ فى أسرة غنية فنرجح أنه تلقى جزءا كبيرا من تعليمه فى منزله على هيئة دروس خصوصية ، وإن كان ذلك لايمنع أن يكون قد اتصل أيضا بالتعليم العام ، وكانت الرحلة احدى وسائل التعليم عنده .

٥ - يمثل أو يمكن أن يمثل الحركة التعليمية فى عهده .

٦ - من الأعاجم الذين أسهموا فى جعل اللغة العربية أغنى لغات العالم فى العلوم والآداب ، ومن الذين أسهموا أيضا فى تقوية دعائم الأدب العربى الممتاز بدراساته

الواسعة للنحو الذى جعل اللغة الغربية لغة المنطق والقياس ، وبما وضعه من المعاجم التى جمع فيها ثروة هذه اللغة من المفردات فى دقة ونظام وبموسوعاته ومختصراته وكتبه الجامعة التى جمعت كثيرا من أشتات الآداب والعلوم ، وبمؤلفاته فى النصوص والأدب ، والنقد التاريخى .

٧ - وأكبر الظن أنه كان على صلة ببيت الحكمة لأنه يجد فيه إرضاء لميوله العلمية وميدانا لتجاربه .

٨ - روى عن الهيثم بن عدى ، وعن الشعبى وعن الأصمعى ، وكما روى أبو حنيفة عن هؤلاء المؤرخين السابقين له ، فقد نقل عنه كثير من المؤرخين الذين جاءوا من بعده .

٩ - عاش فى عصر بنى العباس أيام كانت الدولة العباسية فى أوج مجدها وازدهارها وكان المجتمع خليطا من عناصر مختلفة ، وإن اتحدت فى اتساق ونظام واحد جمع بينها الذوق الإسلامى .

١٠ - حين شب رأى الفتن مشتعلة فى مجتمعه فآثر الهروب من هذا المجتمع إلى محراب العلم ، ورياض الأدب ، وأعرض عن تسجيل الأحداث السياسية بعد المعتصم ، لأن حسه التاريخى قد تنبه ، وبدأت صور الماضى تتجدد على مسرح الأحداث ، فربأ بنفسه أن يلقى بها فى مهاوى التهلكة .

١١ - من صفاته الهدوء والمسالمة ، وعلاج المشكلات الاجتماعية عن طريق التربية والتعليم ورحابة الصدر ، والتسامح ، والاعتزاز بالعروبة والإسلام بالرغم من فارسيته .

١٢ - كان موقفه سلبيا من موجة الإباحية والمجون التى اجتاحت المجتمع العربى فى عصره ، فهو التقى الورع الزاهد فى مناعم الحياة ومباهجها .

١٣ - كان عابد فى مسجد ، وقارئا فى مكتبة ، ومتهجدا يرتقب الفجر وساهرا فى تهجد وغنيا غير فقير ، ومؤمنا فى غير شك فلم يكن فى وقته فراغ .

١٤ - من أعلام النقد الأدبى والبحث اللغوى فى القرن الثالث الهجرى .

١٥ - كان عالما بحق فى شتى العلوم والمعارف حباه الله بعقلية علمية واسعة استوعبت معارف كثيرة ، وانفرد بها عن علماء تلك الفترة ، وماتلاها ممن كان لهم شأن فى تاريخ الأدب العربى وعلوم اللغة وكان من السابقين الأولين فى تدوين العلوم المختلفة .

١٦ - اقتبس من الثقافات الفارسية واليونانية والهندية ما يوافق أذواق معاصريه ويسد أمس حوائجهم ، ونلاحظ أنه فى اختيارة للأخبار وللأدب إنما سار فى فلك السياسة ؛ ومن هنا نرى أنه قد اشترك فى تدعيم الثقافة العربية العامة .

١٧ – يظهر فى كتاب الأخبار الطوال عدم التنسيق فحكمة بجانبها أسطورة إلى نادرة لطيفة إلى خطبة بليغة إلى قصص إلى أخبار الخوارج والشيعة ، إلى وتاريخ الفرس وتاريخ العرب وهكذا .

ولعله قد قصد فى هذا الكتاب إلى جمع ما يفيد وتكويمه بعضه فوق بعض فاهما الأدب بمعناه الواسع أى الأخذ من كل فن بطرف .

١٨ – قرر مبدأ الجبر فمدحه واعتنقه ، ثم قرر مبدأ الاختيار فذمّه واعتبر الآخذين به مشركين ، وهو يرى أن مافى السماء والأرض لله وحده ، وأن الحياة إلى فناء ، وهو شيعى أى من أنصار علىّ وأتباعه .

١٩ – كان فارسى الأصل لكنه لم يؤلف فيما وصل إليه علمنا شيئا بالفارسية ، وجميع مؤلفاته بالعربية ، اختمرت فى ذهنه ثقافة العرب وثقافة الفرس والتقى مزاج الفرس بمزاج العرب فانصهر المزاجان فى شخصية أبى حنيفة انصهارا تاما فإذا هو أديب عربى ، ومؤرخ عربى ، وعالم عربى ، وراوية عربى وما إلى ذلك من العلوم والفنون التى برز فيها أبو حنيفة وكان فى كل ذلك مثلا رائعا للباحث المخلص للعروبة والدين ، بل إنه كان أحد ثلاثة يمثلون امتزاج الثقافات المختلفة فى العصر العباسى ، والاثنان الآخران هما : الجاحظ وابن قتيبة ، وأبو حنيفة زعيم علماء النبات ، والجاحظ زعيم المتكلمين ، وابن قتيبة زعيم أهل السنة كل أديب وعالم ولغوى ومؤرخ ، وعلى الجملة فكانوا هم ثلاثتهم « دائرة معارف » زمانهم .

٢٠ – كان جادا على طول الطريق التزم طريقة العلماء ، وغلبت عليه النزعة العلمية وان كان يتخير ألفاظه ويحسن تعبيره .

٢١ – مزج اللغة بالعلم ، واستعان بالبراهين النظرية ، وبالتاريخ والشعر ، وبما يعرف من أحداث وما جرب هو نفسه ، ومزج ما تعلم بما قرأ بما سمع بما شاهد بما جرب .

٢٢ – ثقافته مزيج من العربية واليونانية والفارسية والهندية ، وكتبه معرض لهذه الثقافات وللثقافات الدينية أيضا .

٢٣ – كان يحسن من كلام الدين بقدر ما يحسن من كلام العلم .

٢٤ – كان بينه وبين أساتذته اختلاف فبينما اقتصروا على بعض المواضيع اتسعت آفاقه حتى شملت جميع فروع العلوم فى أيامه .

٢٥ – أبرز العوامل المؤثرة فى أبى حنيفة وأدبه هى :

(ا) أسلوب القرآن الكريم .

(ب) الفلسفة والفكر اليونانى .

(جـ) الفن الإسلامى .

(د) الاتجاهات الشعوبية والمذاهب الإسلامية والسياسية .

(هـ) التشيع .

(و) الرحلات .

(ز) اشتغاله برصد الكواكب .

٢٦ - من أصحاب الطريقة المرسلة فى الكتابة فلا سجع ولا محسنات ، كما ظهر فى أسلوبه أثر الثقافة الواسعة ، والميل إلى الاستدلال المنطقى والخطابى ، والعناية بالمعانى ، وظهور الخصائص الخطابية من تكرار وترادف ، ومزاوجة ، وجمل قصيرة واستطراد أحيانا وتنويع الأساليب ، وإنك لتحس فى تعبيره بالحزم والثقة .

٢٧ - ولقد حظيت مؤلفاته بعناية رجال التراجم قديما وحديثا فدونّوا قائماتها فى كتبهم وفى مصنفاتهم ، وبلغت عدة جملتها عشرين كتابا .

٢٨ - نرجح أن يكون قد سار فى تفسيره للقرآن الكريم على المنهج اللغوى فى التفسير ، وهو المنهج الذى يعنى بالمفردات والمعانى فقط ، وأن يكون صنيعه فى تفسير القرآن مثل صنيعه فى كتابى النبات والأنواء ، اتخذ القرآن محورا للغة كما اتخذ النبات والأنواء محورا اللغة .

٢٩ - كان يعرف بصاحب كتاب النبات وهو قاموس لغوى يدور حول موضوع النبات وقد عرض فيه لقضايا لغوية ونحوية مهمة كالمشترك اللفظى والترادف والاشتقاق بأنواعه وغير ذلك ، ويعد ثمرة لدراسة الشعراء الأقدمين دراسة لغوية ومن المعروف أن أبيات القدامى من الشعراء كانت تعد من الحجج التى يستشهد بها علماء اللغة على صحة لفظ من الألفاظ وكتاب النبات آية فى هذا الباب ، فالأبيات الشعرية لتى ورد ذكرها فى هذا الكتاب كثيرة جدا ، وفى الإمكان أن يؤلف منها ومن شرحها سفر عظيم فى ‘دب النبات ، وهذه سمة من سمات مدرسة أبى حنيفة فى الأدب .

هذا وقد رجحنا أن يكون اهتمامه بموضوع لنبات قد انحدر إليه من جنسه الفارسى ، ذلك أن الفرس كانوا مولعين بالزراعة .

٣٠ - كتاب الأنواء يدل على أنه كان على حظ وافر من علم النجوم إلا أنه قصره على ما كان للعرب من العلم بها بل إن حاجى خليفة يرى أن أبا حنيفة قد ركز فى هذا الكتاب كل علوم العرب ، ولم يصل إلينا هذا الكتاب ، وإنما اعتمدنا على ما ورد منه فى كتاب المخصص لابن سيده ... ويلفت النظر فى كلام أبى حنيفة فى كتاب الأنواء أنه كلام العالم المحقق ، وليس كلام العالم الذى يجمع المعلومات وحسب إنه ينقد الرأى

الذى ينقله عن غيره ، ولايقبل الرأى على علاته بحجة أن السابقين قالوه ، ولقد كان أبو حنيفة فى كتابه هذا معتداً بمعلوماته واثقابها ، يتهكم أحيانا ببعض أدعياء العلم كان عالما أديبا ناقدا .... هذا والصفة البيانية الغالبة فى كتاب الأنواء ، إن لم نقل فى أدب أبى حنيفة هى « التشبيه » ولعله تأثر فى ذلك بثقافته اليونانية ، ولقد كان أبو حنيفة فى صراع مع دلالة الألفاظ ، كما يتضح ذلك من كتابى النبات والانواء .

٣١ – اعتمد فى تحصيل مادته اللغوية على مصدرين :

(ا) أخذه من الأعراب الذين وفدوا الى العراق .

(ب) رحلته إلى البادية .

٣٢ – يمثل أو يمكن أن يمثل الخطوة الثانية فى قواميسنا اللغوية ، وهى الخطوة التى كان أصحابها يهتمون بجمع الكلمات الخاصة بموضوع واحد .... وقد بدأت فى أواخر القرن الثانى طفلة ، واكتمل نموها فى آخر القرن الثالث الهجرى .

٣٣ – مذهبه فى اللغة هو المذهب البغدادى وهو المذهب الذى اختار مبادئه وأسسه من كل من مذهب البصريين ، ومذهب الكوفيين ، وطبع كل ذلك بالسمة البغدادية .

٣٤ – كتاب الأخبار الطوال من أهم المصادر التاريخية الأولى التى تسرد حوادث الحياة المعاشية ، والسياسية ، والحربية عند الفرس سردا وافيا ، وفيه معلومات قيمة عن علاقة العرب بالفرس ، كما أنه من أهم المصادر التاريخية فى الإبانة عن الأحداث الدقيقة فى الدولة العربية من بعد ظهور الإسلام إلى آخر عهد الخليفة العباسى المعتصم بالله ، وهذا الكتاب من أوائل الكتب المتكاملة التى وضعت باللغة العربية لتأريخ القومية العربية .

٣٥ – استخدم فى كتاب « الأخبار الطوال » معجما لغويا خاصا كشف النقاب عن الجانب المظلم من البيئة السياسية فى العصر العباسى وما كان فيها من إرهاب واستبداد ، كما كشف النقاب عن بعض صفات أبى حنيفة وإيثاره للعافية وفى الوقت ذاته كانت تعبيرات هذا المعجم مناسبة للموضوع الذى تحدث عنه أبو حنيفة ، وفى هذا الكتاب يفتتح أبو حنيفة الروايات والأخبار بكلمة قالوا .... أو قال .

ويعتبر تصويره للحوادث التى وقعت بين هرمزد وبهرام من أمتع القصص التاريخى ذى المفاجآت المثيرة ومن أصدق العرض لما عليه نفس الإنسان من النزوع إلى الأثرة والذاتية ... كل ذلك بأسلوب عربى مبين ..... والاستطراد كان يخل أحيانا بالوحدة الفنية للموضوع فى هذا الكتاب ، كما أن بعض موضوعاته لاتفهم من عنوانها ؛ وقد

أشرنا إلى ذلك فى فصل « آثاره » وفى بعض تعبيرات وأساليب أبى حنيفة ضعف وركاكة وقد أشرنا إلى ذلك فى هذا الفصل أيضا ، وبيّنا منشأ ذلك الضعف وهذا الكتاب يشبه إلى حد كبير « أخبار الحروب الميدية » لهيردوت . وأنباء حرب البليونيزيا ليثيوسيديد مما يدل على تأثر أبى حنيفة باليونانية .

٣٦ – كان يكره المرأة .

٣٧ – وكان يقف بآثاره عند المذهب القديم فى الأدب . وهو مذهب الترسل ، فلم يتطور بكتابته من حيث الصياغة ، وضروب البيع ، وإنما تطور بها من حيث ما عالجه من موضوعات ومعان جديدة .

٣٨ – أسلوبه سلس خال من الالتواء يخرج منه القارىء بثروتين : أدبية وعلمية . وكان من أفضاله على الأدب أن أغزر معانيه ، وجعل له موضوعا بعد أن كاد يكون شكلا بحتا .

٣٩ – كان حظه من الأدب العربى الخالص أن سجل بعضه وجمعه . وبذلك حفظه من الاندثار ، وكان هذا الأدب جزءا من معارفه أثر فى ثقافته وتفكيره وأدبه .

٤٠ – تحدث عن أدب النبات ، وأدب السياسة والنثر التاريخى .... أما أدب النبات فنكتفى بما ذكرنا عنه سابقا فى هذه الخلاصة وأما أدب السياسة فليس غريبا أن يتجه اليه أبو حنيفة الفارس الأصل والنشأة فقد كانت حياة فارس سياسة حربية وأدب السياسة هو الفن القولى الذى يتعاطى شئون الحكم تأييدا أو تنفيدا أو يتناول علاقة الأمة بغيرها فى حرب أو سلم ، وقد قدم أبو حنيفة فى كتابه « الأخبار الطوال » مجموعة حكايات وأقاصيص محورها الأساسى الحكم ، وتثبيت أساسه أو تقويضه . وعلى هذا المنوال نسج أبو حنيفة كتابه كله .... الأمر الذى يجعل كتابه من أهم المصادر الأدبية لدراسة الأدب السياسى عند العرب .

٤١ – كان القرن الثالث الذى عاش فيه أبو حنيفة الدينورى يطلق لفظ الأدب على الفنون والصناعات وجميع العلوم غير الشرعية ، وبالتالى يطلقون لفظ الأديب على من يشتغل بعلوم الرياضة والهندسة واللغة والنحو والطب والفلك ورواية الشعر والأدب والأخبار وما إلى ذلك ، فأبو حنيفة الدينورى تبعا لذلك ، ووفقا لمفهوم الأدب فى عصره أديب ممتاز .

٤٢ – كتب التاريخ القديمة ، ومنها كتاب الأخبار الطوال كانت تتناول نفس الموضوعات التى تناولها الشعر القصصى بل وعلى طريقة الشعر القصصى بحيث لاتكاد نفرق بين الاثنين إلا بالوزن ، فذاك شعر قصصى ، وكتب التاريخ نثر قصصى . فالنثر

التاريخى فى تلك الكتب إذن يعتبر نثرا أدبيا ، وأبو حنيفة أديب حقا ونرجح أنه قد تأثر فى نزوعه هذا المنزع بنشأة النثر التاريخى عند اليونان .

٤٣ — التاريخ والأدب صنوان من حيث الإنشاء الأدبى ، وإذا كان للأديب أن ينفعل بالمواقف التى تستثيره فإن انفعال المؤرخ بأحداث التاريخ يضفى على كتابة القصة التاريخية حيوية جديدة وكذلك كان أبو حنيفة الدينورى ، وبلغ من مهارته أنه كان يضفى على أسلوبه جوّ الأحداث ، وقد صور فى تاريخه النفس الإنسانية فى صراعها مع الحياة ، واستطاع أن ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية من خلال الأحداث والوقائع ، وأن يمتطى بخياله متن السحاب دون أن يخرج من إطار الحقيقة وأن يبعث بهذا الخيال الحياة فى الوثائق والمدونات التاريخية كما أنه قدم تجارب إنسانية خالدة تثير فينا عدة غرائز ونرجح أنه كان يدرك أن الشاعر أو الكاتب أو الخطيب هو المصوّر لعقل الجنس البشرى ولذا كان يتبع التاريخ ووقائعه بما قيل فى ذلك التاريخ من شعر ونثر .

٤٤ — إذا جازلنا أن نذكر لأبى حنيفة شبيها بين المؤرخين العالميين الكبار الذين خططوا للتاريخ مجراه فإن أبا حنيفة يذكرنا « بثيوسيديد » الذى جاء بعد هيرودوت وصاغ القصة التاريخية ، وحصر التاريخ فى ميدان الحرب والسياسة .

٤٥ — تاريخ أبى حنيفة متتابع القصص غير مقطوع بأسانيد الرواية ، إلا أن التاريخ عنده كان يختلط بالأسمار والحكايات ، وقواعد السلوك العامة ، ثم كان النقد التاريخى متخلفا فى تاريخ أبى حنيفة فكان يحكى الأساطير على أنها حقائق .

٤٦ — لعله لم يحفل بنظرية الرجل العظيم كما حفل بها مؤرخو اليونان والرومان ، ذلك أن البطل فى تاريخه لم يكن غير ظاهرة اجتماعية لروح العصر .

٤٧ — فن السيرة عنده هو قصة العمل العظيم الذى قام به صاحب السيرة .

٤٨ — فى كتاب الأخبار الطوال نماذج كثيرة تمثل رأيه فى بعض عظماء التاريخ وهى تدل على رغبة أبى حنيفة فى إصدار آرائه على هؤلاء الأشخاص ، الأمر الذى يدل على أنه رجل ذو عقل فاحص ناقد يميز الخبيث من الطيب فى عالم الرجال ، وهذه خاصية ليست ميسرة للكثيرين لأنها تتطلب سعة فى الأفق ، وحدة فى الذهن ، ودقة فى التفكير ، وتتطلب معرفة واسعة بالنفس البشرية ، وبالمجتمع البشرى تتطلب رجلا موسوعيا كأبى حنيفة الدينورى .

٤٩ — سلك فى كتابه لفن السيرة مسلكا غير مباشر ، فتوارى خلف موضوعه ، وجعل الموضوع يدل على نفسه بنفسه ، فعرض علينا أقوال عظمائه ، وآراءهم

ومذاهبهم ، وذكر أصدقاءهم ، وأساتذتهم وأدبهم دون أن يلح على شيء من ذلك بالنقد والتحليل .

٥٠ - من ألمع كتاب القصة الطويلة فى الأدب العربى إذا اعتبرنا الاخباريين قصاصا كما اعتبرهم الأقدمون والمحدثون ... أليس صاحب « الأخبار الطوال » ؟

وإذا اعتبرنا أن القصة مجموعة من الأحداث يرويها الكاتب ، وهى تتناول حادثة أو عدة حوادث تتعلق بشخصيات إنسانية مختلفة والقصة عند أبى حنيفة منثورة وقصصه عبارة عن سير وحكايات عن سلف الفرس والعرب والروم من أنبياء وملوك وأمراء وفرسان .... الخ فإطار القصة عنده تاريخى هذا ولقد كان يذكر الواقعة ثم يعقب عليها بما قاله أحد الشعراء فيها ، وكان حلقة فى سلسلة القصص السياسى عند العرب ، ونحن نرى أن أبا حنيفة قد عرض علينا حوادث وقعت فعلا وشخصيات عاشت فعلا ، ومن هنا حكمنا عليه بأنه أديب وقصاص واقعى .

العناصر السائدة فى قصص أبى حنيفة الدينورى :

فى قصة « ملك هرمزد » يسود عنصر الحادثة ... أما عنصر البيئة فيسود فى قصص « وقعة الجمل » ، « مسلم فى الكوفة » ، « خروج الحسين إلى الكوفه » ونرى أن الطريقة التمثيلية هى التى اتبعها فى فن القصة ، وفى هذه الطريقة ينحى الكاتب نفسه جانبا ليتيح للشخصية أن تعبر عن نفسها ، وقد يعمد إلى توضيح بعض صفاتها .

وقد بحث عن بيئته القصصية فى كتب التاريخ شأنه فى ذلك شأن كتاب القصص التاريخية ومن هنا ندرك أن القصة التاريخية من الفنون الأدبية التى أجاد فيها ونلاحظ على أسلوب القصة عنده ما يالى : -

(ا) لم يعن بتصوير أشخاص قصته ووقائعها من الخارج كما عنى بتصويرها من الداخل .

(ب) عمم التاريخ فنظر إلى الدنيا كلها نظرة عامة فبدأ بنوح ثم بتاريخ الفرس والروم والعرب .

(جـ) لأبى حنيفة حس تاريخى عميق ، وهذا مردود إلى أنه مؤرخ فى الدرجة الأولى وفى رواياته التاريخية نماذج بشرية قيمة .

٥١ - من المحتمل أن يكون تشيعه وراء تاريخه وقصصه ، وأنه قد أسهم فى الدعوة لآل على .

٥٢ - هناك حقيقة يجب أن نلاحظها ونحن نقرأ قصص أبى حنيفة تلك هى فكرة « استمرار التاريخ » فقد أشبعت هذه الفكرة فى تلك القصص ... وبالرغم من أنه

قصصى فهو لايشوه التاريخ وإنما يجتهد فى أن يعطى عنه صورة أقرب ما تكون إلى الواقع ، وإن بدا فى بعض قصصه جانب أسطورى وهو يقيم جميع قصصه تقريبا ضمن إطار سياسى دينى ومن مزاياه القصصية أنه يغرق قصصه باللون الحقيقى للعهد الذى تنتمى إليه الحوادث .

٥٣ - الرواية التاريخية عنده كثيرا ما تكون على حساب الرواية الفنية ، وذلك راجع إلى شدة اهتمامه بالتاريخ ، وهو يخفق أحيانا فى المزج بين العاطفة والحدث التاريخى كما أن تحليل نفسيات الأبطال يكاد يكون معدوما ، ثم انه يحرص على وصف جميع أبطاله ومما لاشك فيه أنه قد تأثر بالقصص الهندى والفارسى واليونانى والعربى ... وبالرغم من المآخذ على قصصه فهو من الرواد الأوائل للقصة التاريخية فى الأدب العربى .

٥٤ - قصصه لا تلجأ إلى السرد وحده بل تلجأ أحيانا إلى الحوار القصير المتبادل ، وإن كان حوارا بدئيا .

٥٥ - نرى أن القصة التاريخية من الفنون التى أجاد فيها إذ أن قصة « ملك هرمزد » .... ينطبق عليها التعريف اللغوى والفنى للقصة . واجتمع فيها من الخصائص الفنية ما يؤهلها لأن تعد من روائع القصص العربية القديمة .

٥٦ - دراسة النصوص النثرية دراسة نقدية ظاهرة نادرة فى الأدب العربى ، وأبو حنيفة الدينورى من أولئك النقاد القلائل الذين لم يهملوا نقد النثر .... ولا شك أن غرض أبى حنيفة من النظر فى الشعر والنثر إنما كان جمع الشواهد على غريب الألفاظ وصحة القواعد . وتسجيل معانى الشعر وروايته ومن هنا كان أغلب نظره مقصورا على الأبيات المفردة الشاهدة على صحة الكلمة أو سلامة القاعدة دون نظر إلى علاقتها بالقصيدة . الأمر الذى كان يوقعه أحيانا فى الخطأ ، ويبدو أن أبا حنيفة كان يقدم الشعر الغريب على المأنوس شأنه فى ذلك شأن سائر اللغويين والنحاة .... هذا ولم نعثر فيما وصل إلينا من تراث أبى حنيفة الدينورى على باب للنقد وضع فيه قواعد للنقد ، ورسم حدوده وبين غاياته ، وأكبر الظن أنه لو وصلنا كل ما خلف أبو حنيفة أو على الأقل كتاباه « الفصاحة » ، « والشعر والشعراء » لكان لنا فى أبى حنيفة رأى غير هذا ويبدو أن اشتغاله باللغة والنحو هو الذى صبغ نقده بهذه الصبغة ، ولونه بذلك اللون .... فمدرسة أبى حنيفة فى النقد من خلال كتابى النبات والأنواء هى مدرسة اللغويين والنحاة الذين كانوا قضاة الأدب فى أخريات القرن الثانى ، وكانوا من قضاة الأدب فى أخريات القرن الثالث . وقد تتلمذ أبو حنيفة الدينورى على أعلام هذه المدرسة ومنهم السكيت وابنه .

٥٧ – سار فى كتاب « الأخبار الطوال » على المنهج التاريخى فى النقد ذلك المنهج الذى يدرس الأحداث فى مجموعها المتشابك . ويهتم فى حكمه على الآثار الأدبية بالبيئة والظروف التى ألفت فيها أكثر من اهتمامه بذوق الناقد الخاص.إن ذلك المنهج يشرح الصلة بين الأدب والتاريخ فيتخذ من حوادث التاريخ السياسى والاجتماعى وسيلة لتفسير الأدب . وتعليل ظواهره وخواصه .

ولقد كان أبو حنيفة يتصف بمعظم الأوصاف التى يجب توافرها فى الناقد الأدبى من ذكاء ومعرفة ومهارة وحساسية . وقدرة على الكتابة . وقد سلط مبادىء الدين على الأدب . وكان يميل إلى الاستقصاء .

٥٨ – يكون الجاحظ وأبو حنيفة الدينورى وابن سلام الجمحى . وابن قتيبة . وابن عبد ربه يكون هؤلاء النقاد اتجاها واحدا فى النقد الأدبى .

أولا - المراجع

٢ - ابن قتيبة للدكتور محمد زغلول سلام تحت رقم ت أ ق دار الكتب - مصر الجديدة . ٩٧٧٩

٣ - أبو علي الفارسي للدكتور عبد الفتاح اسماعيل شلبي - طبع نهضة مصر .

٤ - أبو الفرج الأصفهاني لشفيق جبرى تحت رقم ت أ أ دار الكتب - مصر الجديدة . ٩٧٣٧

٥ - أثر التشيع فى الأدب العربى لمحمد سيد كيلانى تحت رقم ٨١٠م س - دار الكتب مصر الجديدة .

٦ - الأحكام السلطانية للماوردى .

٧ - أخبار النحويين البصريين لأبى سعيد الحسن البراق تحت رقم ٤١٦ دار الكتب بمصر الجديدة ح م .

٨ - الأخبار الطوال لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى - مجموعة تراثنا - دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى .

٩ - أدب الخلفاء الأمويين لعبد الرازق حميده تحت رقم ٨١٠/٣ع ح دار الكتب بمصر الجديدة . ٨٠٦ عام

١٠ - أدب الدنيا والدين لأبى الحسن على بن محمد البصرى تحت رقم ٢١٤م ع - دار الكتب بمصر الجديدة .

١١ - أدب السياسة فى العصر الأموى للدكتور أحمد محمد الحوفى الطبعة الثانية - طبع دار نهضة مصر .

١٢ - أدب الكاتب لابن قتيبة - مطبعة الوطن مصر .

١٣ - الأدب المقارن للدكتور محمد غنيى هلال طبع المطبعة العالمية ١٩٦٢ الطبعة الثالثة .

١٤ - الأدب وفنونه لعز الدين اسماعيل دار الفكر العربى ١٩٥٨ .

١٥ - أساس البلاغة للزمخشرى - طبع دار الكتب المصرية .

١٦ - الأسلوب لأحمد الشايب - طبع مطبعة السعادة الطبعة الثالثة ١٩٥٢ .

١٧ - أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب - مطبعة الاعتماد ١٩٤٦ .

١٨ - اعجاز القرآن للباقلانى .

١٩ - إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين : مقال ابن قتيبة والثقافة العربية لشارل بلا - دار المعارف مصر .

٢٠ - أمراء البيان لمحمد كرد على لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥ .

٢١ - الإمامة والسياسة لأبى محمد عيد الله بن سلم بن قتيبة - طبع منصور عبد المتعال مطبعة الأمة سنة ١٣٢٨هـ .

٢١ - أنباه الرواة على انباه النحاة لجمال الدين الحسن القفطى - بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم تحت رقم ـ دار الكتب - مضر الجديدة طبع دار الكتب ١٩٥٠ .

٢٣ - أوضح السالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة ١٩٤٦م .

٢٤ - بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم الطبعة الأولى عيسى البابى الحلبى .

٢٥ - بلاغة الكتاب فى العصر العباسى للدكتور محمد نبيه حجاب - الطبعة الأولى - المطبعة الفنية الحديثة ١٩٦٥م .

٢٦ - البداية والنهاية لعماد الدين أبى الفداء اسماعيل تحت رقم ٩٣٣/٣ع أ - دار الكتب بمصر الجديدة .

٢٧ - البيان والتبيين للجاحظ جـ١ السندوبى .

٢٨ - تاريخ الأمم الإسلامية للأستاذ الخضرى .

٢٩ - تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى مطبعة الاستقامة ١٩٢٩ .

٣٠ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ٢ طبع الهلال .

٣١ - تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى جـ١ مطبعة الرسالة .

٣٢ - تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى جـ٢ مطبعة الرسالة .

٣٣ - تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى جـ٣ مطبعة الرسالة .

٣٤ - تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات .

٣٥ - تاريخ العرب لفليب حتى .

٣٦ - تاريخ النقد الأدبى عند العرب لطه أحمد ابراهيم .

٣٧ * التاريخ والسير للدكتور حسين فوزى النجار - دار القلم بمصر .

٣٨ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .

٣٩ - تصريف الأسماء للأستاذ محمد طنطاوى - الطبعة الرابعة مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٢ .

٤٠ - تصريف الأفعال للأستاذ عبد الحميد عنتر الطبعة الرابعة - دار الكتاب العربى بمصر ١٩٤٨ .

٤١ - تطور الأساليب النثرية لأنيس المقدس وكيس - ببيروت ١٩٣٥م .

٤٢ - التفسير الكبير للفخرى الرازى جـ١ .

٤٣ - التفسير الكبير للفخرى الرازى جـ٢ .

٤٤ - الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لضياء الدين بن البيطار تحت رقم ٣٦٦ طبع المكتبة الأزهرية طبع ٢١٩١هـ .

٤٥ - الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية لابن أبى الوفا القرشى الطبعة الأولى مطبعة مجلس دائرة المعارف بالهند .

٤٦ - الحيوان للجاحظ طبع السندوبى جـ١ .

٤٧ - الخيران للجاحظ طبع السندوبى جـ٢ .

٤٨ - الخصائص لأبى عثمان بن جنى تحت رقم ١٥ع دار الكتب مصر الجديدة .

٤٩ - دائرة المعارف الإسلامية المجلد التاسع .

٥٠ - دراسات فى الشعر العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف طبع دار الهنا بمصر ١٩٥٣ .

٥١ - دراسات فى الميثاق : اللغة والدين والقومية للسيد تقى الدين طبع دار الكتاب العربى بمصر ١٩٦٤م .

٥٢ - دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات مطبعة الرسالة ١٩٤٥ .

٥٣ - دلالة الألفاظ للدكتور ابراهيم أنيس الطبعة الأولى لجنة البيان العربى ١٩٥٨ .

٥٤ - رسائل الجاحظ تحقيق السندوبى - طبع الرحمانية ١٩٢٣ .

٥٥ - الروض الأنف والمشرع الروى فى تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام لأبى القاسم السهيلى جـ١ .

٥٦ - الروض الأنف جـ٢ - المطبعة الجمالية بالقاهرة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م .

٥٧ - زهر الآداب للحصرى القيرانى جـ١ طبع الرحمانية .

٥٨ - السيرة النبوية لابن هشام - طبع الحلبى .

٥٩ - الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث لمصطفى عبد اللطيف السحرتى تحت رقم ٨١١م م - دار الكتب بمصر الجديدة .

٦٠ - الشعر والشعراء لابن قتيبة تصحيح وتعليق مصطفى السقا - مطبعة المعاهد ١٩٣٢ .
٦١ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى - طبع الأميرية ١٩١٣ .
٦٢ - الصناعتين لأبى هلال العسكرى الخانجى .
٦٣ - الصور البيانية بين النظرية والتطبيق للدكتور حفنى محمد شرف الطبعة الاولى ١٩٦٥ .
٦٤ - ضحى الإسلام لأحمد أمين جـ١ مكتبة النهضة المصرية .
٦٥ - عبقرية الصديق لعباس محمود العقاد - طبع دار المعارف ١٩٦٥ .
٦٦ - عشرة أدباء يتحدثون لفؤاد دواره - مجموعة كتاب الهلال العدد رقم ١٧٢ يوليو ١٩٦٥ القاهرة .
٦٧ - العقد الفريد لابن عبد ربه طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٦٨ - علم التاريخ للأستاذ هرنشو ترجمة الأستاذ عبد الحميد العبادى .
٦٩ - العلوم عند العرب لقدرى حافظ طوقان - مشروع الألف كتاب .
٧٠ - على محمود طه حياته وشعره للسيد تقى الدين طبع المطبعة الاميرية ١٩٦٤ .
٧١ - عمالقة ورواد لأنور حجازى طبع الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ .
٧٢ - عيون الأخبار لابن قتيبة طبع دار الكتب المصرية .
٧٣ - الفتنة الكبرى جـ٢ على وبنوه للدكتور طه حسين دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .
٧٤ - فجر الإسلام لأحمد أمين طبع بمطبعة مكتبة النهضة المصرية .
٧٥ - الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لمحمد على بن طياطبأ المعروف بابن العلطقى بمطبعة الموسوعات الشعرية بمصر ١٣١٧هـ .
٧٦ - الفهرست لابن النديم طبع المطبعة الرحمانية بمصر .
٧٧ - فقه اللغة لابراهيم نجا طبع مطبعة الأزهر ١٩٥٥ .
٧٨ - فقه اللغة للثعالبى طبع مصر .
٧٩ - فن السيرة للدكتور احسان عباس - دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٦ .
٨٠ - فن القصة لمحمود تيمور مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز .
٨١ - فن القصة للدكتور محمد يوسف نجم دار بيروت للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٩٥٦ .
٨٢ - الفن القصصى فى القرآن الكريم للدكتور محمد احمد خلف الله مطبعة القاهرة بامبابه الطبعة الأولى ١٩٥١ .

٨٣ - الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف رقم ٨١٤ش ص دار الكتب بمصر الجديدة .   ٨٧٢٠ عام

٨٤ - فى أصول الأدب لأحمد حسن الزيات مطبعة الرسالة ١٩٥٢ .

٨٥ - فى أصول النحو لسعيد الأفغانى طبع الجامعة السورية .

٨٦ - فى اللهجات العربية للدكتور ابراهيم أنيس .

٨٧ - فى الميزان الجديد للدكتور محمد مندور لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٨٨ - القاموس المحيط للفيروز ابادى طبع عيسى البابى الحلبى بمصر.

٨٩ - قصة الأدب فى العالم جـ١ للأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود دار التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥ .

٩٠ - قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ٢ من المجلد الأول .

٩١ - قصة الحضارة تأليف ول ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع ترجمة محمد بدران طبع جامعة الدول العربية .

٩٢ - القصة العربية القديمة لمحمد مفيد الشوباشى دار القلم بمصر.

٩٣ - قصة الفلسفة اليونانية لأحمد أمير وزكى نجيب محمود - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ .

٩٤ - القصص النبوى للسيد تقى الدين والسيد شحاته دار النهضة العربية ١٩٦٦ .

٩٥ - الكتاب لسيبويه .

٩٦ - كشف الظنون عن أساس الكتاب والفنون لحاجى خليفة تصحيح وطبع محمد شرف الدين بالتقايا ، والمعلم ، رفعت بلكه الكليس طبع وكالة المعارف الجليلة استنبول ١٩٤١م - ١٣٦٠هـ .

٩٧ - الكامل فى التاريخ لابن الأثير طبع إدارة الطباعة المنيرة ١٣٥٣هـ .

٩٨ - لسان العرب - لابن منظوره .

٩٩ - المثل السائر لابن الأثير المطبعة البهية .

١٠٠ - محاضرات الأدباء جـ٢ للراغب الأصفانى طبع المويلى .

١٠١ - محاضرات عن القصة فى لبنان للدكتور سبيل ادريس - نشر معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ .

١٠٢ - محاضرات النقد الأدبى للدكتورة سهير القلماوى - نشر معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥ .

١٠٣ - المختصر لجورجى زيدان مطبعة الهلال .

١٠٤ – المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء طبع المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥هـ .
١٠٥ – المخصص لابن سيده السفر الأول طبع المطبعة الأميرية .
١٠٦ – المخصص لأبن سيده السفر الثانى طبع المطبعة الأميرية .
١٠٧ – المخصص لابن سيده السفر الثالث طبع المطبعة الأميرية .
١٠٨ – المخصص لابن سيده السفر الرابع طبع المطبعة الأميرية .
١٠٩ – المخصص لابن سيده السفر الخامس طبع المطبعة الأميرية .
١١٠ – المخصص لابن سيده السفر السادس طبع المطبعة الأميرية .
١١١ – المخصص لابن سيده السفر السابع طبع المطبعة الأميرية .
١١٢ – المخصص لابن سيده السفر الثامن طبع المطبعة الأميرية .
١١٣ – المخصص لابن سيده السفر التاسع طبع المطبعة الأميرية .
١١٤ – المخصص لابن سيده السفر العاشر طبع المطبعة الأميرة .
١٤٥ – المخصص لابن سيده السفر الحادى عشر طبع المطبعة الأميرية .
١١٦ – المخصص لابن سيده السفر الثانى عشر طبع المطبعة الأميرية .
١١٧ – المخصص لابن سيده السفر الثالث عشر طبع المطبعة الأميرية .
١١٨ – المخصص لابن سيده السفر الرابع عشر طبع المطبعة الأميرية .
١١٩ – المخصص لابن سيده السفر الخامس عشر طبع المطبعة الأميرية .
١٢٠ – المخصص لابن سيده النفر السادس عشر طبع المطبعة الأميرية .
١٢١ – المخصص لابن سيده السفر السابع عشر طبع المطبعة الاميرية .
١٢٢ – مراتب النحويين لأبى الطيب عبد الواحد بن على اللغوى الحلبى بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مكتبة نهضة مصر .
١٢٣ – موشح الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ لأبى الحسن على بن الحسين بن السعودى طبع المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦هـ .
١٢٤ – المزهر للسيوطى طبع محمد على صبيح .
١٢٥ – مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى للدكتور محمد نبيه حجاب بالطبعة الأولى نهضة مصر بالفجالة .
١٢٦ – معجم الأدباء لياقوت طبع الدكتور أحمد فريد الرفاعى .
١٢٧ – معجم البلدان لياقوت الحموى الطبعة الأولى ١٩٠٦م .
١٢٨ – معجم المؤلفين تراجم لمصنفى الكتب العربية لعمر رضا كحالة مطبعة الترقى ببيروت .

١٢٩ - مقدمة ابن خلدون طبع عبد الرحمن محمد المطبعة المصرية بمصر.
١٣٠ - منجد الطلاب لفؤاد أفرام البستانى الثالثة المطبعة الكاثوليكية ببيروت.
١٣١ - من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين دار المعارف بمصر. ١٩٣٦.
١٣٢ - من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده للأستاذ محمد خلف الله لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧.
١٣٣ - ميزان الشاعر فى العروض والقوافى لحسن جاد ومحمد عبد المنعم خفاجه المطبعة الأولى ١٩٥٢.
١٣٤ - النبات لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى تحت رقم ٥٠٩ دار الكتب بباب الخلق - بمصر.
١٣٥ - النثر الفنى لزكى مبارك جـ١ مطبعة السعادة.
١٣٦ - نزهة الألباء فى طبقات الأدبا أى النحاة لأبى عبد الرحمن بن محمد الأنبارى طبع حجر بالقاهره ١٢٩٤٥هـ.
١٣٧ - نظرية الأنواع الأدبية للأب فنسان المجلد الأولى ترجمة الدكتور حسن عون طبع مطبعة ريال بالاسكندرية.
١٣٨ - النقد الأدبى لأحمد أمين جـ١ طبع لجنة التأليف والترجمة والنثر.
١٣٩ - النقد الأدبى لأحمد أمين جـ٢ طبع لجنة التأليف والترجمة والنثر.
١٤٠ - النقد الأدبى أصوله ومناهجه لسيد قطب دار الفكر العربى ١٩٤٦.
١٤١ - النقد الأدبى ومدارسه الحديثة لستانلى هايمن ترجمة احسان عباس ، ومحمد يوسف نجم - دار الكتب - بيروت.
١٤٢ - نقد الشعر فى الأدب العربى لنسيب عازار.
١٤٣ - الوساطة بين المتنبى وخصومة للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى طبعة صبيح.
١٤٤ - وفيات الأعيان وأنباء الزمان لابن خلكان تحت رقم ت أ خ دار الكتب بمصر الجديدة.
١٤٥ - يتيمة الدهر للثعالبى طبع الصاوى ١٩٤٣.
١٤٦ - الوزراء والكتاب للجهشيارى تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وزميله طبع الحلبى ١٩٣٨.

ثانيا – الدوريات

مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق :

(ا) المجلد السادس والعشرون .

(ب) المجلد التاسع والعشرون .

(جـ) المجلد الثلاثون .



الفهـرس

الموضـوع **الصفحة**

منهج الرساله ١

المقدمـــة ٣

الفصل الأول : فى الصحف الأولى ٨

الفصل الثانى : حياته وبيئته ١٩

الفصل الثالث : آثـاره ٨٠

الفصل الرابع : الاتجاهات الأدبية عند العرب ١٨٢

الفصل الخامس : فنونه الأدبية ٢١١

الفصل السادس : فى النقد والناقد ٣٣٠

أولا – المراجع ٣٨٨

ثانيا – الدوريات ٣٩٥

رقم الإيداع : ٢١٩٢ / ١٩٨٩

الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ - ٠٢ - ٠٢٥٥ - ٧

نهضة مصر

للطباعة والنشر والتوزيع

قطاع الطباعة